مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو أنتم تعلمون ان هـذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد الى وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل مصر ان ارجع وان لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجـه الى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيش فكان أول موضع قوتل فيه الغرما قاتله الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله على يديه فهزم الروم وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لايكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالغرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ثم توجـه عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواحر فنزل ومن معـه فقال بعض القبط لبعض ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وانمـاهم في قلة من الناس فاجابه رجل آخر منهم ان هؤلاء القوم لايتوجهون الى أحد الا ظهروا عليه حتى يقتلوا آخرهم فتقدم عمرو لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بابيس فقاتلوه بها نحوا من شـهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بهـا قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمـام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصـن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب اليون حينا وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسـيهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجـل وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجـل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسـود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم انه صار معـك اثنا عشر الفا ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعـلوا للخندق أبوابا وجعـلوا سكك الحـديد موتدة بأفنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليـه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ودخل عمرو الى صاحب الحصن كأنه رسول فتناظر معه في شئ مما هم فيه فقال اخرج واستشير أصحابى وكان صاحب الحصن أوصى الذى كان على الباب اذا مر به عمرو راجعا ان يلقى عليه صخرة فيقتله فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو الى صاحب الحصـن فقال انى أريد ان آتيـك بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منك مثل الذى سمعت فقال العلج في نفسه قتل جمـاعة أحب الى من قتل واحد

فارسل الى الذى أمره بقتل عمرو ان لايتعرض له رجاء ان يأتى بأصحابه. فيقتلهم وخرج عمرو فلما أبطأ عليه الفتح قال الزبير انى أهب نفسى لله ارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوا جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر معه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا ان ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن ان العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فحينئذ طلب الصلح من عمرو بن العاص على ان يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وقال ابن عبد الحكم شهرا قال ان المسلمين لما حصروا باب اليون شهرا كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فلما رأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ورغبتهم فيه خافوا ان يظهروا فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وتخلف الاعرج في الحصن بعد المقوقس فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ثم لحقوا بالمقوقس في الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص انكم قوم وجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى في أيدينا فأرسلوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتى الامر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفا لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء فلما أتى الى عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم يستحلون ذلك في دينهم وانما فعل عمرو ذلك لاجل ان يروا حال المسلمين وما هم فيه ثم رد عليهم عمرو مع رسله انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان أبيتم فاعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فلما جاءت رسل

المقوقس اليه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهـم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لاحدهم رغبـة في الدنيا ولا نهمة وانما جلوسهم على التراب وأ كلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم مايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالمـاء ويتخشـعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس والذى يحلف به لو ان هؤلاء استقبلوا الجبال لأ زالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقدروا على الخروج من موضعهم فرد اليهم المقوقس رسلهان ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ماعسى ان يكون فيه صلاح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة أنفار أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار وهو أحـد الشجعان المشهورين والفصحاء المتكلمين وأمره عمرو ان يكون متكلم القوم وان لايجيبهم الى شئ دعوه اليه الا احدى هـذه الخصال الثلاث فان أمير المؤمنـين أمرنى ان لاأقبل شيأ سوى خصلة من هذه الثلاث خصال وكان عبادة بن الصامت رضى الله عنـه اسود فلما دخلوا على المقوقس تقـدم عبادة فهابه المقوقس لسواده فقال نحوا عنى هـذا الاسود وقدموا غيره يكلمنى فقالوا ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سـيدنا وخيرنا والمقـدم علينا وانا نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الامير دوننا بمـا أمره به فقال المقوقس لعبادة تقدم ياأسود وكلمنى برفق فانى أهاب سوادك وان اشتد على كلامك ازددت لك هيبة فتقدم اليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل اسود وكلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهـم منى وأنا قد وليت وأدبر شبابى وانى مع ذلك بحمد الله ماأهاب مائة رجل من عدوى ولو اسـتقبلونى جميعا وكذلك أصحابى وذلك لانا انما رغبتنا وبغيتنا الجهاد في الله تعالى واتباع رضوان الله وليس غزونا عدونا من حارب الله رغبة في الدنيا ولا طلبا للاستكثار منها الا ان الله قد أحل لنا ذلك وجعل ماغنمنا من ذلك حـلالا وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لايملك الا درهما لان غاية أحدنا من الدنيا أ كلة يأ كلها فيسد بهـا جوعته وشملة يلتحفها فان كان أحـدنا لايملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب أنفـقه في طاعة الله واقتصر على هـذا لان نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء انمـا النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة أحدنا من الدنيا الا فيما يمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه فلما سمع المقوقس

ذلك منه قال لمن حوله هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب عندى من منظره وان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب البلاد وما أظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها ثم أقبل المقوقس على عبادة فقال أيها الرجل قد سمعت مقالتك وما ذكرته عنك وعن أصحابك ولعمرى مابلغتم مابلغتم الا بما ذكرته ولا ظهرتم على ماظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالايحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة من لايبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين ظهرنا شهرا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرأف عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة مابأيديكم ونحن تطيب أنفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين ولا ميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفوا الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا قوة لكم به فقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه ياهذا لاتغرن نفسك ولا أصحابك اما ماتخوفونا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لانقوى عليهم فلعمرى ماهذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ان كان ماقلتم حقا فذلك والله ارغب مايكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا لان ذلك أمكن لنا في رضوانه وجنته وما من شئ أقر لاعيننا ولا أحب الينا من ذلك وانامنكم حينئذعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا وانها لاحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله تعالى قال لنا في كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما من رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء ان يرزقه الشهادة وان لايرده الى بلده ولا الى أهله وولده وليس لاحد مناهم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وانما همنا ماأمامنا واما أنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ماأردنا لانفسنا منها أكثر مما نحن فيه فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك أمرنى الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الينا من قبل اما ان أجبتم الى الاسلام الذى هو الدين الذى لايقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته أمرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا وكان أخانا في دين الله فان قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة

ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وان أبيتم الا الجزية فادوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون نعاملكم على شئ نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا مابقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وتعرض لكم في شئ من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد الله علينا وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب منكم مانريد هذا ديننا الذى ندين الله به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم فقال له المقوقس هذا مما لايكون أبدا ماتريدون الا ان تأخذونا لكم عبيدا ما كانت الدنيا فقال له عبادة هو ذاك فاختر ماشئت فقال له المقوقس أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث فرفع عبادة يديه فقال لا ورب السماء ورب هذه الارض ورب كل شئ مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فالتفت المقوقس عند ذلك الى أصحابه فقال قد فرغ القول فما تقولون فقالوا أو يرضى أحد بهذا الذل اذا ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا لايكون أبدا ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لانعرفه وأماماأرادوا من ان يسبونا ويجعلونا عبيدا أبدا فالموت أيسر من ذلك لورضوا منا ان نضعف لهم ماأعطيناهم مرارا كان أهون علينا فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى فراجع صاحبك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ماتمنيتم وتنصرفون فقام عبادة وأصحابه فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة وان لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبونهم الى ماهو أعظم منها كارهين فقالوا أى خصلة نجيبهم اليها قال اذن أخبركم اما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به واما قتالهم فانا أعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابد من الثلاث قالوا فنكون لهم عبيدا أبدا قال نعم تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من ان تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلوكم وذراريكم قالوا فالموت أهون علينا وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة وبالقصر من الروم والقبط جمع كثير فالح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا بهم ومكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير واسر من اسر وانحازت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لايقدرون على ان ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المداين والقرى والمقوقس يقول لاصحابه الم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ماتنتظرون فوالله لتجيبونهم الى ماأرادوا طوعا أولتجيبونهم الى ماهو أعظم منه كرها فاطيعونى قبل ان

تندموا فلما رأوا منهم ماراوا وقال لهم المقوقس ماقال اذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يوفونه وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص رضى الله عنه انى لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت الى بها فأبى ذلك من حضرنى من الروم والقبط فلم يكن لى ان أفتات عليهم وقد عرفوا نصحى لهم وحبي صلاحهم ورجعوا الى قولى فاعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم ذلك لنا جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه في ذلك السؤال فقالوا لانجيبهم الى شئ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير كلها فيئا لنا وغنيمة كما صار القصر وما فيه فقال عمرو قد علمتم ماعهد الى أمير المؤمنين في عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد الى فيها أجبتهم اليها وقبلت منهم مع ماقد حال من الماء بيننا وبين ماتريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى ان للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أوأكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لايتعرض لهم في شئ منها فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية فرض الله عليهم الدينارين ورفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما احصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف وذلك ستة ملايين فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار أى اثنى عشر مليونا من الدنانير كل سنة وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف وشرط المقوقس للروم ان يتخيروا فمن أحب منهم ان يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج على ان للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه مافعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم يعلمه على وجه الامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ويقول في كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة

ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت فعجزت عن قتالهم و رضيت ان تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط اذلا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك وكتب ملك الروم مثل ذلك الى جماعة الروم فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك انهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ويتمنى ان لا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون ان لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون انهم ان قتلوا أدخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة الا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم واعلموا معشر الروم والله انى لاأخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه وانى لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولى ورأيى وتتمنون ان لو كنتم أطعتمونى وذلك انى قد عاينت ورأيت وعرفت مالم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ويحكم أما يرضى أحدكم ان يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ثم أقبل المقوقس على عمرو بن العاص فقال له ان الملك قد كره مافعلت وعجزنى وكتب الى والى جماعة الروم ان لانرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ولم أكن لاخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسى والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه وعاهدتهم وأما الروم فانا منهم برئ وأنا أطلب منك ان تعطينى ثلاث خصال قال له عمرو وماهن قال لاتنقض بالقبط وأدخلنى معهم والزمنى مالزمهم وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ماعاهدتك فهم متمون لك على ماتحب وأما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئا وعبيدا فانهم أهل لذلك فانى نصحتهم فاستغشونى ونظرت اليهم فاتهمونى وأما الثالثة فاطلب اليك ان أنا مت ان تأمرهم ان يدفنونى في أبى حنس بالاسكندرية فانعم له عمرو بن العاص وأجابه الى ماطلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعا ويقيموا له الانزال والضيافة والاسواق والجسور مابين الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا وصارت لهم القبط أعوانا كما جاء في الحديث واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم انتقلوا بسلطيس فاقتتلوا بها

قتالا شديدا ثم هزمهم الله ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف ثم فتح الله يومئذ على المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوه الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الاسكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لانه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وانما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالاسكندرية فقال الملك لئن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها فامر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه اعظاما لها وأمر أن لايتخلف أحد من الروم وقال مابقي للروم بعد الاسكندرية حرمة فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى الله المسلمين مؤنته وكان موته سنة تسع عشرة وقال الليث بن سعد مات هرقل سنة عشرين فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع كثير ممن قد توجه الى الاسكندرية وانتشرت العرب عند ذلك وألحت القتال على أهل الاسكندرية فقاتلهم قتالا شديدا وحاصروا الاسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك وفتحت يوم الجمعة شهر المحرم سنة عشرين وقال ابن عبد الحكم أقام عمرو بن العاص محاصرا الاسكندرية أشهرا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ماأبطأ بفتحها الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو بن العاص أما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ماأحب عدوكم وان الله تبارك وتعالى لاينصر قوما الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك ان الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف الا ان يكون غيرهم ماغيرهم فاذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الاربعة في صدور الناس وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وأمر الناس جميعا ان تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة فيها ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم ففعلوا ففتح الله عليهم قال ابن عبد الحكم حدثني أبي قال لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الاسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس

فقال انى فكرت في هذا الامر فانه لا يصلح آخره الا من أصلح أوله يريد الانصار فدعا عبادة بن الصامت فعـقد له ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك ثم روى ابن عبد الحكم عن الامام مالك ان ذلك كان سنة عشرين والهزم الله الروم وفتحت الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجـل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر ورجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغـير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره ان لا يجاوزها ويقبح رأيه في اتباعه من هرب والذى قتلوا من المسلمين من حين حصار الاسكندرية الى ان فتحت عنوة اثنان وعشرون رجل ولـما فتحت بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدا الى عمر بن الخطاب مبشرا له بالفتح فقال معاوية بن خديج لعمرو بن العاص الا تكتب معى كتابا فقال عمرو وما تصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله وقيـل بل كتب عمرو بن العاص مع الرسول كتابا لعمر بن الخطاب وقال فيه أما بعد فانى فتحت مدينة لاأصف مافيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية وهى المكان الصلب المرتفع بأربعة آلاف حمام واربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك قال ابن عبد الحكم لـما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر ورحل منها سبعون ألف يهودى في الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو بن العاص قيل ان سبب فتح الاسكندرية ان رجلا كان يقال له ابن بسامه كان بوابا فسأل عمرو بن العاص ان يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ماقدروا عليه من المـال والمتاع والاهل وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج فاحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمتهم وكان أكثر الناس يريدون قسمتها فقال عمرو لاأقدر أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه ان المسلمين طلبوا قسمتها فكتب اليه عمر لاتقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد

عدوهم فأقرها عمرو واحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين على كل رجل لايزاد على كل واحد في جزية أكثر من دينارين الا أنه يلزم بقدر مايتوسع فيه من الارض والزرع الا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم لان الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة واخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطس وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل الذمة وأخرج عن يحي ابن أيوب ان أهل سلطيس وحصيل وبليهت ظاهروا الروم على المسلمين في جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو ابن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلوا فيئا ولا عبيدا ففعلوا ذلك وأخرج ابن عبد الحكم عن هشام بن أبي رقية اللخمي ان عمرو بن العاص رضى الله عنه لما فتح مصر قال لقبط مصر من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته وان قبطيا من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكروا لعمرو أن عنده كنزا فارسل اليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا لا انما سمعناه يسأل عن راهب في الطور فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه من يده فكتب عمرو الى ذلك الراهب ان ابعث الي بما عندك وختمه بخاتم بطرس فجاءه رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوبا فيها مالكم تحت الفاسقية الكبيرة فارسل عمرو الى الفاسقية فحبس عنها الماء ثم قلع منها البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين اردبا ذهبا مضروبة فضرب عمرو رأس بطرس عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقة ان يسعى على أحد منهم فيقتل قتل بطرس ثم ذكر الجلال السيوطي في حسن المحاضرة اختلاف العلماء في أن مصر فتحت صلحا أو عنوة فنقل عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أن مصر كلها صلح الا الاسكندرية فانها فتحت عنوة ونقل عن عون بن حطان انه كان بقريات من مصر منهن أم دنين عهد وأخرج عن يحي بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين

ساطيس وهصيل وبلهيت ونقل عن أبن هبيرة ان مصر فتحت عنوة وأخرج عن عبد الرحمن بن زياد قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج عن أبي العالية انه سمع عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبط مصر على عهد ولا عقد الا أهل انطابلس فان لهم عهدا يوفي لهم به وزاد في رواية عن ابن لهيعة ان عمرا قال ان شئت قتلت وان شئت خمست وان شئت بعت وفي رواية عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص ان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها ان يخرج منه شيء نظرا للاسلام وأهله وأخرج عن زيد بن اسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لاهل مصر عهد وأخرج عن الصلت بن أبي عاصم انه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان ابن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج نحو ذلك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعراك بن مالك وسالم بن عبد الله بن عمرو اخرج ابن عبد الحكم ومحمد بن الربيع الجيزى من طرق عن سفيان بن وهب الخولانى قال لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير ابن العوام فقال ياعمرو اقسمها فقال عمرو بن العاص لاأقسمها فقال الزبير والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فقال عمرو لم أكن لاحدث حدثا حتى اكتب بذلك الى أمير المؤمنين فكتب اليه عمر بن الخطاب أقرها حتى يغذوا منها حبل الحبلة يعنى ولد الولد وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه جميعا ذمة وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم الى اليوم قال القضاعى ان فتح مصر كان يوم الجمعة في شهر محرم سنة عشرين وأنهم ساروا الى الاسكندرية في شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل في جماد الآخرة وان عمرو ابن العاص رضى الله عنه قفل من الاسكندرية بعد فتحها والمقام بها في ذى القعدة سنة عشرين وقال الليث بن سعد اقام عمرو بالاسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ثم استقل الى الفسطاط فاتخذها دارا وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم ان يسكنها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم ياأمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو لاأحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وأخرج ابن عبد الحكم أيضا عن يزيد بن أبي حبيب ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبي وقاص

وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية ان لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم اليكم قدمت فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط قال ابن عبد الحكم ان عمرو ابن العاص لما كان بمصر كان له فسطاط فلما أراد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ فقال لقد تحرم بنا فأمر به فاقره كما هو حتى يطير الفراخ وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا أين ننزل قال الفسطاط يعنى فسطاطه الذى خلعه وكان مضروبا في موضع الدار الذى يعرف اليوم بدار الحصا فلذلك سميت مصر الفسطاط قال القضاعي لما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عليهم امراء فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وقال ابن قتيبة ان العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط قال ابن فضل الله في المسالك مسجد عمرو بن العاص مسجد عظيم بمدينة الفسطاط بناه عمرو موضع فسطاطه وما جاوره وموضع فسطاطه حيث المحراب والمنبر وبنى عمرو بن العاص دارا لعمر بن الخطاب وكتب له انا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع فكتب الى عمرو انى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين قال ابن لهيعة هى دار البركة فجعلت سوقا فكان يباع فيها الرقيق وبنى خارجة بن حذافة غرفة عالية فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك أما بعد فقد بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه فذا أتاك كتابى هذا فأهدمها ان شاء الله والسلام فلما جاءه الكتاب هدمها وسأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين الف دينار فعجب عمرو من ذلك فكتب في ذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر سله لم أعطاك به ماأعطاك وهى لا تزرع وهى لا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها فسأله فقال انا لنجد صفتها في الكتب ان فيها غراس الجنة وفي رواية انا نجد في كتابنا ان مابين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة فكتب بقوله الى عمر بن الخطاب فقال صدق فاجعلها مقبرة للمسلمين وفي رواية انا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء فكان أول من دفن فيها رجل من مغافر يقال له عامر فقيل عمرت وروى عمرو بن العاص عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض فقال أبو بكر رضى الله عنه ولم يارسول الله قال لانهم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة ثم قال عمرو بن العاص فاحمدوا الله معاشر المسلمين على ماأولاكم ولما فتح عمرو مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنه من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لايجرى الا بها فقال لهم وما ذاك قالوا اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها في هذا النيل فقال لهم عمرو ان هذا لايكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ماقبله فأقاموا بؤنه وابيب ومسرى لايجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها في داخل النيل اذا أتاك كتابى فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الواحد القهار ان يجريك فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لايقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر وعن يزيد بن أبى حبيب ان موسى عليه السلام دعا على فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء حتى طلبوا موسى أن يدعو الله رجاء ان يؤمنوا فدعاالله فاصبحوا وقد أجراه الله ستةعسر ذراعا فاستجاب الله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام

﴿ ذكر فتوحات العراق بعد مسير خالد بن الوليد الى الشام ﴾

لما أراد خالد بن الوليد المسير الى الشام بأمر أبى بكر رضى الله عنه أخذ معه بعض الجندكما تقدم واستخلف على من بقى بالعراق المثنى بن حارثة الشيبانى وهو صحابى من نسل ذهل ابن شيبان وينتهى نسبه الى ربيعة بن نزار وفد المثنى على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه وسيره أبو بكر الصديق رضى الله عنه في صدر خلافته الى العراق قبل مسير خالد بن الوليد الى العراق وهو الذى أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس وهون أمر الفرس عندهم وكان شهما شجاعا ميمون النقيبة حسن الرأى أبلى في قتال الفرس بلاء لم يبلغه أحد وكان استخلاف خالد له على جيش العراق بأمر من أبى بكر رضى الله عنه فلما توجه خالد الى الشام واستخلفه على الجند أقام بالحيرة وذلك سنة ثلاث عشرة وكان

الفرس قد هلك ملكهم كسرى كما تقدم ثم استقام أمرهم على تملك شهرزان بن ازدشير بن شهريا بن سابور فوجه الى المثنى بن حارثة جيشا عظيما عليهم هرمز جاذويه فخرج المثنى من الحيرة نحوه فأقام ببابل فأقبل هرمز نحوه وكتب ملكهم كسرى الذى ملكوه عليهم الى المثنى كتابا انى قد بعثت اليكم جندا من وحش أهل فارس انما هم رعاء الدجاج والخنازير ولست أقاتلكم الا بهم فكتب اليه المثنى انما أنت أحد رجلين اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عند الله فضيحة وعند الناس الملوك وأما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم انما أضررتم بهم فالحمد لله الذى رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير فجزع الفرس من كتابه فالتقى المثنى وهرمز ببابل فاقتتلوا قتالا شديدا وكان معهم فيل يفرق الناس فانتدب له المثنى ومعه ناس فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون الى المدائن يقتلونهم ومات ملكهم كسرى شهرزان لما انهزم هرمز واختلف الفرس وبقي مادون دجلة بيد المثنى ثم اجتمعت الفرس وملكوا دخت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر فخلعوها وملكوا سابور ابن شهرزان وقام بتدبير أمره الفراخزاد بن لينذوان فقتل وثارت بينهم فتنة وحصروا الملك سابور ثم قتلوه وملكوا ازرميد اخت بنت كسرى وتشاغلوا بتلك الفتنة وابطأ على المثنى خبر أبى بكر رضى الله عنه فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وهو صحابى من نسل سدوس بن شيبان والخصاصية جدته نسب اليها وهى من الازد وأبوه يزيد بن سعيد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مع وفد الازد وكان اسمه زحا فسماه النبى صلى الله عليه وسلم بشيرا وكان سير المثنى الى أبى بكر رضى الله عنهما ليخبره خبر المشركين ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فانهم أنشط الى القتال من غيرهم فقدم المدينة وأبو بكر رضى الله عنه مريض قد أشفى فأخبره الخبر فاستدعى عمر وقال انى لارجو ان أموت يومى هذا فاذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله واذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم ومات أبو بكر رضى الله عنه ليلا فدفنه عمر رضى الله عنه وندب الناس مع المثنى وكان الانتداب الى فارس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها اليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم وقهرهم الامم فكان عمر رضى الله عنه يبايع الناس ثلاثة أيام وفي الرابع ندب الناس الى العراق فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى وهو صحابى أسلم في عهد النبى صلى الله عليه وسلم وهو والد المختار وانتدب أيضا سعد بن عبيد الانصارى

وسليط بن قيس الانصارى وكانا ممن شهد بدرا وتتابع الناس وتكلم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ونلنا منهم واجترأنا عليهم وانا ان شاء الله مابعدها فاجتمع الناس فقيل لعمر أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار قال لا والله لاأفعل وانما رفعهم الله بسبقهم ومسارعتهم الى العدو فاذا فعل فعالهم قوم وتثاقلوا كان الذين ينفرون خفافا وثقالا ويسبقون الى الرفع أولى بالرياسة فهم والله لاأؤمر عليهم الا أولهم انتدابا ثم دعا أبا عبيد وسعدا وسليطا وقال لهما لو سبقتما لوليتكما ولادركتما بها مالكما من السابقة فأمر أبا عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا يمنعنى ان أؤمر سليطا الا سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضياع الاعراب فانه لايصلحها الا الرجل المكيث وواصاه بجندل فكان بعث أبى عبيد أول جيش سيره عمر رضى الله عنه ثم بعده سير يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يجتمع بجزيرة العرب دينان واعتذر عمر في عزله المثنى عن الامارة بقوله انى لم أعزله وخالد بن الوليد عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت ان يوكلوا اليهما فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة

﴿ ذكر خبر النمارق ﴾

فسار أبو عبيد الثقفى وسعد بن عبيد وسليط بن قيس الانصاريان ومن معهم والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم الى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم باستنفار من حسن اسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس تشاغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاد عشر سنين ثم يكون الملك في آل كسرى ان وجدوا من غلمانهم والا ففى نسائهم فدعت بوران مرازبة فارس وأمرتهم ان يسمعوا لرستم ويطيعوا وتوجته فدانت له فارس قبل قدوم أبى عبيد ثم قدم المثنى الى الحيرة في عشر وقدم بعده أبو عبيد بشهر فكتب رستم الى الدهاقين ان يؤثروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلا يؤثر باهله ووعدهم يوما وبعث جندا لمصادمة المثنى وبلغ المثنى الخبر فعجل فخرج من الحيرة ونزل خفان ونزل جيش الفرس النمارق فسار اليه أبو عبيد واقتتلوا بالنمارق قتالا شديدا فهزم الله أهل فارس واسر رئيس جيشهم واسمه جابان ولحق المنهزمون كسكر وبها نرسى ابن خالة الملك فسار اليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزم الفرس وهرب نرسى وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا

الغنائم ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعث الجالينوس بجيش فنزل بباقشياثا فسار اليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابى عبيد انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحذر لسانك ولا تفشين سرك فان صاحب السر مايضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه واذا ضيعه كان بمضيعة فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظا على ماأوصاه به عمر رضى الله عنه

﴿ ذكر وقعة قس الناطف ويقال لها الجسر واستشهاد أبى عبيد رضى الله عنه ﴾

ولما رجع الجالينوس الى رستم منهزما ومن معه من جنده قال رستم أى العجم أشد على العرب قالوا بهمن جاذويه المعروف بذى الحاجب فوجهه ومعه فيله وورد الجالينوس معه وقال لبهمن ان انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه فأقبل بهمن جاذويه فنزل بقس الناطف وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأة ابى عبيد في منامها ان رجلا نزل من السماء باناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبا عبيد فقال هذه الشهادة ان شاء الله تعالى وعهد الى الناس فقال ان قتلت فعلى الناس فلان فان قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الاناء وكلهم من قومه ثقيف ثم قال فان قتل فلان فعلى الناس المثنى بن حارثة ثم عبر على الجسر بجيوشه الى قس الناطف فالتقى مع بهمن وجيوشه واقتتلوا قتالا شديدا واشتد الامر بالمسلمين فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا اليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لاتحمل على جماعة الا دفعتهم فنادى أبو عبيد احتوشوا الفيلة وقطعوا بطنها وقلبوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الابيض فقطع بطانه ووقع الذى عليه وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلا الا حطوا رحله وقتلوا أصحابه وأهوى الفيل لابى عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذى أمر به بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبى عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ثم قتل الفيل الامير الذى بعد أبى عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة فهرب عنه الناس فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفى مالقى أبو عبيد وما يصنع الناس بادرهم الى الجسر فقطعه وقال يا أيها الناس موتوا على مامات عليه أمراؤكم أو تظفروا وحاز المشركين المسلمين الى الجسر فتواثب بعضهم فى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن

صبر وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال انا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم وقاتل عروة بن زيد الخيل وأبو محجن الثقفي قتالا شديداوقاتل أبو زبيد الطائي قتالا شديدا حمية للعرب وكان نصرانيا قدم الحيرة لبعض أمر ونادى المثنى من عبر نجا وأمر بعقد الجسر فعبر الناس وكان آخر من قتل سليط بن قيس وعبر المثنى فلما عبر ارفض عنه أهل المدينة وبقي المثنى في قلة وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه وكان جملة من مات من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق وقتل من الفرس ستة آلاف وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذى بينهم وبينه وأنهم صاروا فريقين الفهلوج على رستم وأهل فارس على الفيرزان فرجع بهمن الى المداين

﴿ ذكر وقعة البويب ﴾

لما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقعة أبى عبيد بالجسر ندب الناس الى المثنى وكان ممن ندب بجيلة وأمرهم الى جرير بن عبد الله البجلي فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجه الى العراق فأبوا الا الشام فعزم عليهم عمر التوجه الى العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم الى المثنى وكتب الى أهل الردة فلم يأته أحد الا بعثه الى المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافوا اليه في جمع عظيم وجاءه انس بن هلال النمرى في جمع عظيم من النمر نصارى وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر رستم والفيرزان فجمعوا جموعهم من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب وكان على جيش الفرس مهران الهمدانى فأرسل الى المثنى يقول اما ان تعبر الينا واما أن نعبر اليك فقال المثنى اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات وعبى المثنى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالافطار ليقووا على عدوهم فأفطروا واقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل فقال المثنى لاصحابه ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ودنوا من المسلمين وطاف المثنى في صفوفه يحرضهم وقال انى مكبر ثلاثا فتهيؤا ثم احملوا في الرابعة فلما كبر أول تكبيرة اعجلتهم فارس وخالطوهم فلما طال القتال واشتد قال المثنى لانس بن هلال النمرى انك امرؤ عربى وان لم تكن على ديننا فاذا حملت على مهران فاحمل معى فأجابه فحمل المثنى على مهران فازاله حتى دخل في ميمنته ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون ان يفزعوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون وأفنى المثنى قلب المشركين فلما رأوه قد ازال القلب وثب مجنبتا المسلمين على مجنبتي المشركين وجعلوا يردون الاعاجم على ادبارهم حتى هزموا الفرس

وسبقهم المثنى الى الجسر وأخذ طريق الاعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثا بقيت عظام القتلى دهرا طويلا وكانوا يحرزون القتلى مائة ألف وسمى ذلك اليوم الاعشار احصى مائة رجل من المسلمين قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس وتبعهم المسلمون الى الليل ومن الغد الى الليل وغنم المسلمون غنائم كثيرة واعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضى الله عنه

﴿ ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد ﴾

سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وقضاعة وربيعة يخفرونهم فركب المثنى واغار على الخنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخضرا ثم رجع الى الانبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا اليه وأتوه بالاعلاق والزاد وأخذ منهم الادلاء على سوق بغداد وهو موضع المدينة التى اختطها المنصور فيما بعد وصبحهم في اسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ماشاء ثم رجع الى الانبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الاطراف وبعث خيلا على احياء تغلب بصفين فأغاروا عليهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الاموال وأغاروا على قوم من تغلب والنمر بشاطئ دجلة نفروا وأدركوهم بتكريت فأصابوا ماشاؤا من النعم

﴿ ذكر الخبر الذى هيج أمر القادسية وتملك يزدجرد ﴾

لما رأى أهل فارس ميفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل فارس لم يبرح بكما الاختلاف حتى رهنتما أهل فارس واطمعتما فيهم عدوهم ولم يبلغ من أمركما ان نقركما على هذا الرأي وان تعرضاها لهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المداين والله لتجتمعان أو نبدأن بكما ثم نهلك وقد اشتفينا منكما ولم يبق من ولد كسرى من الذكور الاغلام عمره احد وعشرون سنة يدعى يزدجر فملكوه واجتمعوا عليه فاطمأنت فارس واستوثقوا وتبارى امرازبة في طاعته ومعونته فجندوا جنودا كثيرة فبلغ ذلك المثنى والمسلمين فكتبوا الى عمر بن الخطاب ثم بلغهم ان أهل السواد كفروا وصار من له عهد كمن لا عهد له فلما وصل الكتاب الى عمر رضى الله عنه قال والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رأسا ولا ذا رأى وشرف وبسطة ولا خطيبا ولا شاعرا الا ورماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم وكتب عمر الى المثنى ومن معه يأمره بالخروج من بين العجم والتفرق في المياه التى تلى العجم وان لا يدعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا الا احضروه اما طوعا أو كرها ففعلوا ذلك وكان ذلك في ذى القعدة

سنة ثلاث عشرة وارسل عمر في الحجة عند مخرجه الى الحج الى عماله على العرب أن لايدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى الا وجهوه اليه فاما من كان على النصف مابين المدينة والعراق فجاء اليه بالمدينة لما عاد من الحج واما من كان أقرب الى العراق فانضم الى المثنى بن حارثة وجاءت امداد العرب الى عمر ولما اجتمع الناس استخلف على المدينة عليا رضى الله عنه وخرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ضرار فعسكر به في ابتداء سنة أربع عشرة ولايدرى الناس ماذا يريد ايسير ام يقيم فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير الى العراق فقال العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وقال اغدوا واستعدوا فانى سائر الا أن يجئ رأى هو أمثل من هذا ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وارسل يطلب حضور على رضى الله عنه من المدينة فحضر فاجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان والزبير وطلحة وعبدالرحمن ابن عوف ثم استشارهم فاتفقوا على ان يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود فان كان الذى يشتهى فهو الفتح والا أعاد رجلا وبعث آخر ففى ذلك غبن العدو فجمع عمر بقية الناس وقال لهم انى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم وقد رأيت انى أقيم وأبعث رجلا فأشيروا على برجل وكان سعد بن أبى وقاص بعثه لصدقات هوازن وكتب اليه بانتخاب ذوى الرأى والنجدة والسلاح فجاءه كتابه وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول سعد في كتابه قد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذو نجدة ورأى وصاحب حيطة يحفظ حريم قومه اليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فلما وصل كتابه لعمر قالوا له قد وجدته ياأمير المؤمنين قال من هو قالوا سعد بن مالك وهو سعد بن أبى وقاص فانتهى الى قولهم فأرسل اليه وطلبه وأقره على حرب العراق وأوصاه بوصايا كثيرة وسرحه فيمن اجتمع اليه من نفر المسلمين وهم أربعة آلاف ثم أمده بالفين من أهل اليمن وألفين من أهل نجد وكان المثنى في ثمانية آلاف وكان سعد بن أبى وقاص من بنى زهرة بن كلاب وهم رهط آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم فهو سعد بن مالك ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وآمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فيلتقى نسبه مع آمنة في عبد مناف بن زهرة ومع النبى صلى الله عليه وسلم في كلاب بن مرة وكان سعد رضى الله عنه من السابقين في الاسلام ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن

الشجعان المشهورين وهو أول من أراق دما في سبيل الله وأول من رمى بسهم في سبيل الله وشاهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى يوم أحد بلاء عظيما وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وشهد له بالجنة ودعا له ان الله يجيب دعوته فكان مجاب الدعوة ومناقبه كثيرة رضى الله عنه وبه فتح الله العراق ولما طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى المستحقين للخلافة ومما أوصاه به عمر رضى الله عنه لما جعله أميرا على جيوش العراق أنه قال لايغرنك من الله ان قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لايمحو بالسيء السيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الاطاعته فالناس في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويذكرون ماعندهم بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ووصاه بالصبر وسار سعد والمثنى قبله وصار ينتظر قدومه فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحات كانت به انتقضت عليه ولما وصل سعد رتب الجيوش ولم يزل عمر رضى الله عنه يمده بالرجال حتى استكمل عنده ستة وثلاثون ألفا وأوصى المثنى قبل موته أخاه المعنى بن حارثة ان يبلغ سعد اذا قدم ان يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم فى قعر دارهم فان يظهر الله المسلمين فلهم ماوراءهم وان كانت الاخرى رجعوا الى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم واجرأ على أرضهم الى ان يرد الله الكرة عليهم فلما بلغ سعدا ذلك ترحم على المثنى ومن معه وكان مع سعد تسعة وتسعون من أهل بدر وثلثمائة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فيما بين بيعة الرضوان الى مافوق ذلك وثلاثمائة ممن شهدوا فتح مكة وسبعمائة من أبناء الصحابة وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأى المثنى روى الطبرانى ان عمر رضى الله عنه كتب الى سعد بن أبى وقاص قد وجهت اليك أو أمددتك بألفى رجل عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولهما وانما قال ولا تولهما لما يعلم فيهما من شدة الاقدام بالعسكر وعدم التأنى وكان كل منهما يعد بألف فارس لشجاعتهما وشدتهما وسيأتى ذكر شيء مما كان منهما مما يدل على ذلك وكان ملك العرب عامل كسرى بالحيرة قبيصة بن اياس الطائى فلما سمع بمجيء سعد سأل عنه وعنده عبد الله ابن سنان الاسدى فأخبره أن سعدا رجل من قريش فقال قبيصة والله لاحاد به القتال فان قريشا عبيد من غلب والله لايخرجون من بلادهم الا بخفين فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبته فقتله ولحق بسعد فاسلم وسار سعد بالجيوش حتى نزل

القادسية وهى قريب من موضع الكوفة وكتب عمر بن الخطاب لسعد رضي الله عنهما انكم اذا لقيتم العدو وهزمتموهم فمتى لاعب أحد منكم أحدا من العجم بامان أو باشارة أو بلسان كان عندهم أمانا فاجروا لهم ذلك مجرى الامان والوفاء فان الخطا بالوفا بقية . وان الخطا بالغدر هلكة فيها وهنكم وقوة عدوكم وكان سعد قد جعل على مقدمة جيشه زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية التميمي وهو صحابي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم فلما نزل زهرة في المقدمة وأمسى بعث سرية في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة فلما جاوزوا السليحين سمعوا جلبة فمكثوا حتى حاذوهم واذا أخت ازاد مرد بن ازاد به مرزبان الحيرة تزف الى صاحب الصنين وهو من أشراف العجم فحمل بكير بن عبدالله الليثي أمير السرية على شير زاد بن ازاد به فدق صلبه وطارت الخيل على وجوهها وأخذوا الأثقال وآنية ازاد به في ثلاثين أمراء من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم مالايدرى قيمته فاستاق ذلك ورجع به وأتى به سعدا فقسم ذلك على المسلمين ومكث سعد بالقادسية شهرا لم يأته أحد من الفرس وخيله تغير بالاطراف وتأتى بغنائم كثيرة حتى أخصب المسلمون ووصف بعض من كان مع سعد قوم سعد الذين كانوا معه فى الجيش للحجاج بن يوسف بقوله مارأينا قط أزهد في دنيا منهم ولا أشد بغضا لها وكانوا ابرارا أتقياء ليس فيهم جبان ولا غدار فاستغاث أهل السواد الى يزدجرد وأعلموه ان العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم سيء وقد أخربوا مابينهم وبين الفرات ونهبوا الدواب والاطعمة وان أبطأ الغياث أعطيناهم بأيدينا وكتب له بذلك الذى لهم الضياع وهيجوه على ارسال الجنود فارسل يزدجرد الى رستم وقال له انى أريد ان أوجهك في هذا الوجه فانت رجل فارس اليوم وقد ترى ماحل بالفرس مما لم يأتهم مثله فاظهر له الاجابة ثم قال له دعنى فان العرب لاتزال تهاب العجم مالم تضر بهم بى ولعل الدولة ان تثبت بى اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة والرأى في الحرب أنفع من بعض الظفر والاناة خير من العجلة وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال قد اضطر في تضييع الرأى الى اعظام نفسى وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به فانشدك الله في نفسك وملكك ودعنى اقم بعسكرى واسرح الجالنوس فان يكن لنا فذلك والا بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بدا صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فانى لاأزال مرجوا في أهل فارس مالم أهزم فابى الا ان يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط وعلى مقدمته الجالنوس في أربعين ألفا وخرج هو في ستين ألفا

وفي ساقته عشرون ألفا وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر لايكربنك مايأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه الى الله فان الله جاعل دعاءهم توهينا لهم فارسل سعد نفرا ممن هم كذلك وأمرهم أن يأتوا يزدجرد فخرجوا من العسكر وتركوا رستم واستأذنوا على يزدجرد فاذن لهم فدخلوا وقد أحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقوله لهم واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبايديهم السياط واحضر الترجمان وقال سلهم ماجاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا من أجل انا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة الاوقاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ثم أمر ان نبتدئ الى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط وطامع فازداد فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا ان نبتدئ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية فإن أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم فتكلم يزدجرد وقال انى لاأعلم أمة في الارض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونا أمركم ولا تطمعوا ان تقدموا لفارس فان كان غرر لحقكم فلا يغرنكم منا وان كان الجهد فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فقام المغيرة بن زرارة الاسدى وقال أيها الملك ان هؤلاء رؤس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الاشراف وانما يكرم الاشراف ويعظم حقهم الاشراف وليس كل ماأرسلوا به قالوه ولا كل ماتكلمت به أجابوك عنه فجاوبني لاكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك فأما ماذكرت من سوء الحال فهى على ماوصفت واشد ثم ذكر من سوء عيش العرب وارسال الله النبى صلى الله عليه وسلم اليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية ثم قال له اختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال لولا ان الرسل لاتقتل لقتلتكم لاشئ لكم عندى ثم

استدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ثم قال لرسل سعد ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور فقام عاصم بن عمرو الكنانى الليثى ليأخذ التراب وقال أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحمله على عنقه وخرج الى راحلته فاخذ التراب وركبها وقال لسعد لما جاءه أبشر لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم واشتد ذلك على جلساء الملك وقال الملك لرستم ما كنت أرى ان في العرب مثل هؤلاء ماأنتم باحسن جوابا منهم ولقد صدقنى القوم لقد وعدوا أمرا ليدركنه أو ليموتن عليه على أنى وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه فقال رستم أيها الملك انه أعقلهم وتطير الى ذلك وأبصرها دون أصحابه وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا وبعث في أثر الوفد وقال لثقته ان أدركهم الرسول تلافينا أرضنا وان أعجزوه سلبكم الله أرضكم فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم فقال ذهب القوم بارضكم من غير مثال وكان منجما كاهنا وأغار سواد بن مالك التميمى بعد مسير الوفد الى يزدجرد على النجاف والفراض فاستاق ثلاثمائة دابة من بين بغل وحمار وثور وأوقروها سمكا وصبح العسكر فقسمه سعد بين الناس ويسمون ذلك اليوم يوم الحيتان وبعث سعد سرية أخرى فأصابوا ابلا لبنى تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها فنحر سعد الابل وقسمها في الناس فأخصبوا وغار عمرو بن الحارث على النهرين فاستاق مواشى كثيرة وعاد وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وقال رستم للملك يشجعه بذلك ان فتح الله علينا توجهنا الى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أهلهم وبلادهم الى ان يقبلوا المال ولما فصل رستم عن ساباط كتب الى أخيه البنذوان أما بعد فرموا حصونكم واعدوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم وقدكان من رأيى مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوسا فان السمكة قد كدرت الماءوان النعام حسنت والزهرة قد حسنت واعتدل الميزان وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم الا سيظهرون علينا ويستولون على مايلينا وان أشد مارأيت ان الملك قال لتسيرن أو لأسيرن بنفسى ولقى جابان رستم على قنطرة ساباط وكانا منجمين فشكا اليه وقال له الا ترى ماأرى فقال له رستم أما أنا فاقاد بخشاش وزمام ولا أجد بدا من الانقياد ثم سار فنزل بكوثى فأتى برجل من العرب فقال ماجاء بكم وماذا تطلبون فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم ان أبيتم أن تسلموا قال رستم فان قتلتم قبل ذلك قال من قتل منا دخل الجنة

ومن بقي منا أنجزه الله ماوعده فنحن على يقين فقال رستم قد وضعنا اذن في أيديكم فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تحاول الانس وانما تحاول القدر فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهلها الى رستم فقال يامعشر فارس والله لقدصدق العربي والله ماأسلمنا الا أعمالنا والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حزب أحسن سيرة منكم ان الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان فاذا تغيرتم فلا أرى الا مغيرا مابكم وما أناآمن من ان ينزع الله سلطانه منكم وأتى ببعض من يشكي منه فضرب عنقه ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهددهم وهم بهم فقال له ابن بقيلة لاتجمع علينا ان تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا ولما نزل رستم بالنجف رأى في منامه كأن ملكا نزل من السماء ومعه النبي صلى الله عليه وسلم وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم الى عمر فأصبح رستم حزينا وأرسل سعد السرايا و رستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسليحين فطافت في السواد فبعث سوادا وحميضة في مائة فأغاروا على النهرين وبلغ رستم الخبر فأرسل اليهم رستم خيلا وسمع سعد أن خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجبر الاسدى في آثارهم فلقيهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم فما رآه الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم وأرسل سعد عمرو ابن معدى كرب وطليحة الاسدى طليعة فساروا في عشرة فلم يسيروا الا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤها فرجع عمرو ومن معه وأبى طليحة الا التقدم فقالوا له أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن فارجع معنا فأبى فرجعوا الى سعد فأخبروه بقرب القوم ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسم فهتك أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه ثم هتك على آخر بيته وحل فرسه ثم فعل بآخر كذلك ثم خرج يعدو به فرسه ونذر به الناس فركبوا في طلبه فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه وهما أبناء عمه فازداد فلحق طليحة فكر عليه طليحة وأسره ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره فاحجموا عنه ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسي وأخبره الخبر فسأل الترجمان الفارسي عن ذلك فطلب الامان فأمنه سعد فقال أخبركم عن صاحبكم هذا قبل ان أخبركم عمن قبلي باشرت

الحروب منذ أنا غلام الى الآن وسمعت بالابطال ولم أسمع بمثل هذا ان رجلا قطع فرسخين الى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرض ان يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت فلما أدركناه قتل الاول وهو يعد بألف فارس ثم الثاني وهو نظيره ثم أدركته أنا وخلفت من بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت ثم أخبره عن الفرس وأسلم ولزم طليحة وكان من أهل البلاء بالقادسية وسماه سعد مسلما ثم سار رستم وقدم الجالينوس وبهمن ذو الحاجب فنزل الجالينوس بحيال زهرة بن الحوية ونزل ذو الحاجب بطرناباذ ونزل رستم بالجزاره ثم سار رستم فنزل بالقادسية وكان بين مسيره من المدائن و وصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم لاجل ان يطاول المسلمين رجاء ان يضجروا بمكانهم فينصرفوا وكان قصده ان يطاولهم أكثر من ذلك لولا ان الملك يستعجله وينهضه وكان عمر قد كتب الى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضا فاستعد للمطاولة ولم يتضرر بها وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الابيض وكانت الفيلة تألفه فجعل في القلب ثمانية عشر فيلا وفي المجنبتين خمسة عشر فيلا فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى الى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ووقف على القنطرة وأرسل الى زهرة فوافقه فاداره على ان يصالحه ويجعل له جعلا على ان ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك بل يقول له كنتم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة ليس أمرنا أمر أولئك انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمتنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فاجبناه فقال الله لرسوله اني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد الا ذل ولا يعتصم به أحد الا عز فقال له رستم ماهو قال أما عموده الذي لا يصلح الا به فشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله قال وأى شيء أيضاً قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء أخوة لاب وأم قال ما أحسن هذا ثم قال رستم أرأيت ان أجبت الى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون قال أى والله قال صدقتني اما ان أهل فارس منذ ولي ازدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا

يضرنا من عصى الله فينا فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأنفوا فارسل الى سعد ان ابعث الينا رجلا نكامه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم فقال له ربعى بن عامر متى نأتهم جميعا يروا انا قد احتلفنا بهم فلا تزدهم على رجل فأرسله وحده فسار اليهم فحبسوه على القنطرة واعلم رستم بمجيئه فاظهر زينته وجلس على سرير من ذهب وبسط البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب وأقبل ربعى على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب وقد فلما انتهى الى البسط قيل له انزل فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتين شقهما وادخل الحبل فيهما فلم ينهوه واروه التهاون وعليه درع وأخذ عباة بعيره فتدرعها وشدها على وسطه فقالوا ضع سلاحك فقال لم آتكم لأضع سلاحى بأمركم أنتم دعوتمونى فاخبروا رستم فقال ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه فلم يدع لهم نمرقا ولا بساطا الا أفسده وهتكه برمحه فلما دنى من رستم جلس على الارض وركز رمحه على البسط فقيل له ماحملك على هذا قال انا لا نستحب القعود على زينتكم فقال له ترجمان رستم ماجاء بكم قال الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه من قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا ومن أبى قاتلناه حتى نفضى الى الجنة أو الظفر فقال رستم قد سمعنا قولكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه قال نعم وان مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا نمكن الاعداء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل اما الاسلام وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكف عنك وان احتجت الينا نصرناك أو المنابذة في اليوم الرابع الا أن تبدأ بنا أنا كفيل بذلك عن أصحابى قال أسيدهم انت قال لا لكن المسلمون كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم فخلا رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم كلاما قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل فقالوا معاذ الله ان نميل الى دين هذا الكلب أما ترى الى ثيابه فقال ويحكم لا تنظروا الى ثيابه ولكن انظروا الى الرأى والكلام والسيرة ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم فلما كان من الغد أرسل رستم الى سعد ابعث الينا ذلك الرجل فبعث اليهم حذيفة بن محصن فقبل في نحو من ذلك الزى ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكبا قال له انزل قال لا أفعل فقال له ماجاء بك ولم يجيء الاول قال له ان أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتى فقال ماجاء بكم فأجابه مثل الاول فقال رستم المواعدة الى يوم ماقال

نعم ثلاثا من أمس فرده وأقبل على أصحابه وقال ويحكم اما ترون ماأرى جاءنا الاول بالامس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظم وأقام فرسه على زبرجنا وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يمن الطاير يقوم على أرضنا دوننا فلما كان الغد أرسل الى سعد ابعث الينا رجلا فبعث المغيرة بن شعبة فأقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة لايوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها فاقبل المغيرة حتى جلس موضع رستم على سريره فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه فقال قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انا معشر العرب لانستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى فكان أحسن من الذى صنعتم ان تخبرونى ان بعضكم أرباب بعض فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقالت السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الامة ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الاعداء اسرافا في الامم فليس لاحد مثل عزنا وسلطاننا ننصر عليهم ولا ينصرون علينا الا اليوم واليومين والشهر للذنوب فاذا انتقم الله منا ورضى علينا يرد لنا الكرة على عدونا ولم يكن في الامم أمة أصغر عندنا أمرا منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لانراكم شيأ وكنتم تقصدوننا اذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشئ من التمر والشعير ثم نردكم وقد علمت انه لم يحملكم على ماصنعتم الا الجهد في بلادكم فأنا آمر لاميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل واحد منكم بوقرتمر وتنصرفون عنا فانى لست أشتهى ان اقتلكم فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه قال ان الله خالق كل شئ ورازقه فمن صنع شيأ فانما هو يصنعه وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ولم يزل أهل الشدايد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا اليه ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدايد حتى تنزل بهم ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر الى تغير الحال ولو كنا فيما ابتلينا به أهلا لكان عظم ماابتلينا به مستجلبا من الله رحمة ورأفة علينا ان الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا ثم ذكر مثل ماتقدم من ذكر الاسلام والجزية والقتال وقال له وان عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لاصبر لنا عنه

فقال رستم اذن تموتون دونها فقال المغيرة يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظفر من بقي منا بمن بقى منكم فاستشاط رستم غضبان ثم حلف ان لا يرتفع الصبح غدا حتى نقتلكم أجمعين وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وقال أين هؤلاء منكم هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم ان لايختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شئ فلجوا وتجلدوا فارسل رستم رسوله خلف المغيرة وقال له اذا قطع القنطرة فأعلمه أن عينه تفقأ غدا فاعلمه الرسول بذلك فقال المغيرة بسرتني بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد هذا اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الاخرى ذهبت فرجع الى رستم فاخبره فقال اطيعونى ياأهل فارس انى لأرى فيكم نهمة لاتستطيعون ردها ثم أرسل اليه سعد بقية ذوى الرأى فساروا وكانوا ثلاثة فقالوا لرستم ان أميرنا يدعوك الى ماهو خير لنا ولك والعافية ان تقبل مادعاك اليه ونرجع الى أرضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عونا لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يديك وليس بينك وبين ان تغبط بهذا الامر الا ان تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك فقال لهم ان الامثال أوضح من كثير من الكلام انكم كنتم أهل جهد وقشف لاتنتصفون ولا تمتنعون فلم نسىء جواركم وكنا نميركم ونحسن اليكم فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتم لقومكم ذلك ووعدتموهم ثم أتيتمونا وانما مثلكم ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلبا فقال وما ثعلب فانطلق الثعلب فدعا الثعالب الى ذلك الكرم فلما اجتمعوا اليه سد صاحب الكرم النقب الذى كن يدخلن منه فقتلهن فقد علمت ان الذى حملكم على هذا الحرص والجهاد فارجعوا ونحن نميركم لانى لا اشتهى ان أقتلكم ومثلكم أيضاً كالذباب يرى العسل فيقول من يوصلنى اليه وله درهمان فاذا دخل غرق ونشب فيقول من يخرجنى وله أربعة دراهم وقال أيضاً أن رجلا وضع سلة وجعل طعاما فيها فأتى الجرذان فخرقوا السلة فدخلوا فيها فأراد سدها فقالوا له لاتفعل اذن تخرقه ولكن انقب بحياله ثم اجعل قصبة مجوفة فاذا دخلها الجرذان وخرجن منها فاقتل كل ماخرج منها وقد سددت عليهم ان يقتحموا القصبة ولا يخرج منها أحد الا قتل فما دعاكم الى ماصنعتم ولا أرى عددا ولا عدة قال فتكلم القوم وذكروا سوء حالهم ومامن الله به عليهم من ارسال رسوله واختلافهم أولا ثم اجتماعهم على الاسلام وما أمرهم به من الجهاد وقالوا وأما ماضربت لنا من الامثال فليس كذلك ولكن انما مثلكم كمثل رجل غرس أرضا

واختار لهـا أشجارا وأجرى اليها الانهـار وزينها بالقصـور وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها فخلا الفلاحون في القصور على مالا يحب فاطال امهالهم فلم يستحيوا فدعا اليها غـيرهم وأخرجهم منها فان ذهبوا عنها تخطفهم الناس وان أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء فيسومونهم الخسف أبدا والله لولم يكن ماتقول حقا ولم يكن الا لدينا لمـا صبرنا عن الذي نحن فيه من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم ولقارعناكم عليه فقال رستم أتعبرون الينا أم نعبر اليكم فقالوا اعبروا الينا ورجعوا من عنده عشيا وأرسـل سعد الى الناس ان يقفوا مواقفهم وأرسـل اليهم شأنكم والعبور فارادوا القنطرة فقال لا ولا كرامة أما شئ غلبناكم عليه فلا نرده عليكم فباتوا يسكرون ﴿أى يسدون﴾ العتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوه طريقا واستتم بعد ماارتفع النهار ورأى رستم من الليل كأن ملكا نزل من السماء فاخـذ قسى أصحابه فختم عليها ثم صعد بهـا الى السماء فاستيقظ مهموما واستدعى خاصيته فقصها عليهم وقال ان الله ليعظنا لو اتعظنا ولمـا ركب رستم ليغير كان عليه درعان ومغفر وأخذ سلاحه ووثب فاذا هو على فرسه ولم يضع رجله في الركاب وقال غدا ندقهم دقا فقال له رجـل ان شاء الله فقال وان لم يشأ ثم قال انمـا صفا للثعلب حين مات الاسد يعنى كسرى وأنى اخشى ان تكون هذه سنة القرود وانمـا قال هذه الاشياء توهينا للمسلمين عند الفرس والا فالمشهور عنه الخوف من المسلمين وقد أظهر ذلك الى من يثق به

﴿ ذكر يوم ارماث ﴾

لما عبر الفرس العتيق ﴿ اسم للماء مطلقا ويسمى به نهر هنالك ﴾ وجلس رستم على سريره وضرب عليه طياره وعبا في القلب ثمانية عشر فيلا عليها صناديق ورجال وفي المجنبتين ثمانية أو سبعة أفيال وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته وكان الملك يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالا على كل دعوة ﴿ أى وظيفة ﴾ رجلا أولهم على باب ايوانه وآخرهم مع رستم فكل مافعل رستم شيأ قال الذى معه للذى يليه كان كذا وكذا ثم يقول الثانى ذلك للذى يليه وهكذا الى ان ينتهى الى يزدجرد في أسرع وقت وأخذ المسلمون مصافهم وكان أميرهم سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أصابه دماميل وعرق النساء فلا يستطيع الجلوس انمـا هو مكب على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل حائطه ولو تعداه الصف فواق ناقة لاخذ برمته وما نقص ذلك من شجاعة سعد رضى الله عنه وعابه بعض من كان يبغضه فقال

نقاتل حتى أنزل الله نصره   وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة   ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعدا وكان مجاب الدعوة فقال اللهم ان كان هذا كاذبا وقال الذى قاله رياء وسمعة فاقطع عنى لسانه فبينما هو واقف في الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصابه فكان سببا لاعتقال لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى ونزل سعد الى الناس فاعتذر اليهم وأراهم مابه من القروح في فخذيه واليتيه فعذره الناس وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفرا ممن شغب عليه فحبسهم في القصر منهم أبو محجن الثقفى رقيدهم وقيل بل كان حبس أبى محجن بسبب شرب الخمر واعلم الناس انه قد استخلف خالد بن عرفطة فسمعوا واطاعوا وخطب الناس يومئذ وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكرهم ماوعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس وكذلك فعل أمير كل قوم وأرسل سعد نفرا من ذوى الرأى والنجدة منهم المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الاسدى وغالب وعمرو بن معدى كرب وامثالهم ومن الشعراء الشماخ والحطيئة واوس ابن مغراة وعبيدة بن الطيب وغيرهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق وقد تقدم ان جيش رستم كان مائة وعشرين ألفا وجيش المسلمين كان بضعة وثلاثين ألفا وكان مع الفرس ثلاثون ألف مسلسل وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهى الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها فلما فرغ القراء منها قال سعد الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فأنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم فاذا كبرت الثالثة فكبروا وينشط فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لاحول ولاقوة الابالله فلما كبر سعد الثانية برز أهل النجدات فأنشبوا القتال وخرج اليهم من الفرس أمثالهم فاعتوروا الطعن والضرب وبرز غالب بن عبد الله الاسدى وأنشد أبياتا فخرج اليه هرمز وكان من ملوك الباب وكان متوجا فأسره غالب فجاء به سعدا ورجع وبرز عاصم بن عمرو التميمى وطارد فارسا فانهزم فتبعه عاصم حتى خالط صفهم فحموه فأسر عاصم رجلا على بغل وعاد به واذا هو خباز الملك ومعه من طعام الملك وخبيصه فأتى به سعد فنفله أهل موقفه وخرج فارس فطلب البراز فبرز اليه عمرو بن معدى كرب فأخذه وجلد به الارض فذبحه

وأخذ سواريه ومنطقته وحملت الفيلة على المسلمين ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمن معها وارسل سعد الى بني أسد ان دافعوا عن بجيلة وعمن معها من الناس فخرج طليحة بن خويلد وحمال بن مالك في كتائبهما فباشروا الفيلة وخرج الى طليحة فيل عظيم منهم فقتله طليحة وقام الاشعث بن قيس في كندة فقال معشر كندة لله در بني أسد أي فر يفرون وأي هز يهزون عن مواقفهم اعنى كل قوم ما يليهم وانتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما احسنتم اسوة قومكم من العرب فنهد ونهدوا معه فازالوا الذين بازائهم فلما رأى الفرس مايلقى الناس والفيلة من اسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذوالحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف اليهم المسلمون ورحا الحرب تدور على أسد وحملت الفيلة على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فأرسل سعدالى عاصم بن عمرو التميمي فقال يامعسر بني تميم اما عندكم لهذه الفيلة من حيلة قالوا بلى والله ثم نادى في رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال يامعشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال يامعسر الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها (الوضين مايربط بهالقتب) وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد واقبل أصحاب عاصم على الفيلة فاخذوا باذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤهم فما بقي لهم فيل الا عوى وقتل أصحابها ونفس عن أسد وردوا فارسا عنهم الى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع هؤلاء وهؤلاء وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة وكانوا ردأ للناس وكان عاصم حامية للناس وهذا اليوم الاول وهو يوم ارماث

ذكر يوم اغواث

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك على سرف وهو واد بين العذيب وعين الشمس فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام وكان فتح دمشق قبل القادسية فلما قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجراح بارسال أهل العراق سيرهم والامير عليهم هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص وكان من الشجعان المشهورين وكان له صحبة أسلم عام الفتح رضي الله عنه وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وله صحبة روى عنه انه قال شهدت وفاة

رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم اغواث وقد عهد الى أصحابه ان يتقطعوا اعشارا وهم ألف كل مابلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة تقدم أصحابه في عشرة فأتى الناس فسلم عليهم وبسرهم بالجنود وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه ﴿ أى القعقاع ﴾ يقول أبو بكر رضى الله عنه لايهزم جيش فيهم مثل هذا فخرج اليه ذوالحاجب فعرفه القعقاع فنادى يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وتضاربا فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد الى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالأمس مصيبة وفرحوا بقتل ذى الحاجب وانكسرت الاعاجم بذلك وطلب القعقاع البراز فخرج اليه الفيرزان والبنذوان فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بنى تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان ونادى القعقاع يامعشر المسلمين باشروهم بالسيوف فانما يحصد الناس بها فاقتتلوا حتى المساء فلم ير أهل فارس في هذا اليوم مايعجبهم وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل لان توابيتها كانت قد تكسرت بالامس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد وكان القعقاع كلما طلعت قطعة من أصحابه كبر وكبر المسلمون ويحمل ويحملون وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على ابل قد ألبسوها وهى مجللة مبرقعة وأطافت بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع ن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فرس يوم رماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين فلما رأى الناس ذلك سروا بهم فلقى الفرس من الابل أعظم مالقى المسلمون من الفيلة وحمل رجل من تيم على رستم يريد قتله فقتل دونه وخرج رجل من فارس يبارز فبرز اليه الاعرف بن الاعلم العقيلى فقتله ثم برز اليه آخر فقتله وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا بسلاحه فغبر في وجوههم التراب حتى رجع الى أصحابه وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم بزرجمهر الهمذانى وبارز الاعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه وقاتلت الفرسان الى نصف النهار فلما عدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل فكانت ليلة رماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر وقتلوا عامة اعلامهم وجالت فيه خيل القلب وثبت رجالهم فلولا ان خيلهم عادت أخذ رستم أخذا وبات الناس على مابات عليه القوم ليلة أرماث وقد ذكرنا ان ابا محجن الثقفى كان قد حبس بالقصر وقيد فلما كان يوم اغواث قال لسلمى زوج سعد

ابن أبي وقاص هل لك أن تخلين عني وتعير بني البلقا وهي فرس سعد فلله عليّ ان سلمني الله ان أرجع اليك حتى أضع رجلي في قيدي فأبت فلم يزل بها حتى رضيت ان تطلقه فاطلقته وأعطته البلقا فرس سعد فركبها وخرج للقتال ولم يعلم به أحد فلما كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنة الفرس فكان يقصف الناس قصفا منكرا وتعجب الناس منه وهم لا يعرفون من هو فقال بعضهم هو من بعض أصحاب هاشم أو هاشم بنفسه وكان سعد يقول لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقا وقال بعض الناس هذا الخضر وقال بعضهم لولا ان الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا انه ملك فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد فقالت له سلمى في أى شئ حبسك سعد فقال والله ماحبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت

اذا مت فادفني الى أصل كرمة ... تروى عظامي بعد موتى عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني ... أخاف اذا مامت ان لا أذوقها

فلذلك حبسني فلما أصبحت سلمي أتت سعدا فصالحته وكانت مغاضبة له وأخبرته بخبر أبي محجن فاطلقه فقال اذهب فما أنا مؤاخذك بشئ تقوله حتى تفعله فقال لاجرم لا أجيب لساني الى قبيح أبدا وكان عدد قتلى المسلمين وجرحاهم يوم أغواث الفين من جريح وميت ومن المشركين عشرة آلاف فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم الى المقابر والجرحى الى النساء وكان النساء والصبيان يحفرون القبور وكان على الشهداء حاجب بن زيد وأما قتلى المشركين فبين الصفين وكان ذلك مما يقوى المسلمين وبات القعقاع تلك الليلة يسرب أصحابه الى المكان الذى فارقهم فيه وقال اذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان جاء هاشم فذاك والا جددتم للناس رجاء وجدا لا يشعر به أحد وأصبح الناس على مواقفهم فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فعبى أصحابه وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيت الفيلة حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحمونها ان تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالامس لأن الفيل اذا كان وحده كان أوحش واذا أطافوا به كان أونس فلما انتشب القتال كبر المسلمون وتقدموا وكثر الطعن والضرب وأقبل هاشم والحرب قائم فعبى أصحابه سبعين سبعين وحمل حتى خالط القلب واشتد القتال وحمل عمرو بن معدى كرب وضرب في الفرس حتى ستره الغبار

وحمل أصحابه فافرج المشركون عنه بعد ماصرعوه وان سيفه لفي يده يصادمهم وقد طعن فرسه فاخذ برجل فرس أعجمي فلم يطق الجرى فنزل عنه صاحبه وفر الى أصحابه وركبه عمرو وبرز فارس فبرز اليه رجل من المسلمين يقال له بشر بن عاقمة وكان قصيرا فترجل الفارس اليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقته فلما سل سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثنى عشر ألفا فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتائب وعادت لفعلها أرسل الى القعقاع وعاصم بن عمرو اكفياني الابيض وكانت كلها آلفة له وكان بازائهما وقال لحمال والزبيل اكفياني الاجرب وكان بازائهما فاخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما في خيل ورجل وفعل حمال والزبيل بمثل فعلهما فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما في عين الفيل الابيض فنفض رأسه فطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه وحمل حمال والزبيل الاسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى وضربه الزبيل فابان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنف الزبيل وجبينه بالطبرزين فأفلت الزبيل جريحا وبقي الفيل جريحا متحيرا بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه واذا أتى صف المشركين نخسوه وولى الفيل وكان يدعى الاجرب وقد عور حمال عينه فألقى نفسه في العتيق فتبعته الفيلة فخرقت صف الاعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها فلما ذهبت الفيلة وخاص المسلمون والفرس ومال الظل وتزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا فاشتد القتال وصبر الفريقان وجاء الليل وكانت تسمى تلك الليلة ليلة الهرير لتركهم الكلام وانما كانوا يهرون هريرا وأرسل سعد طليحة الاسدى وعمرو بن معدى كرب ليلة الهرير الى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها حرسا خشية ان يأتى القوم منها فلما أتياها قال طليحة لو خضنا وأتينا الاعاجم من خلفهم قال عمرو بل نعبر أسفل فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجب المسلمون وطلبه الاعاجم فلم يدركوه وأما عمرو فانه أغار أسفل المخاضة ورجع وخرج جماعة من فرسان المسلمين وطاردوا جماعة من الفرس فاذا هم لايشدون ولا يريدون غير الزحف فقدم المسلمون صفوفهم وزاحفوهم بغير اذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع فقال سعد اللهم اغفرها له وانصره فقدأذنت له ان لم يستأذنى ثم لحقهم أسد فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت النخع فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت بجيلة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت كندة فقال

اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم زحف الرؤساء ورحا الحرب تدور على القعقاع وكان سعد قال لهم اذا كبرت ثلاثا فاحملوا فكبر في أثناء تلك الحملة تكبيرتين فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضا وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالا بعد ماصلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون * جمع قين وهو الحداد ليلتهم الى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم افراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط وانقطعت الاخبار والاصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على انهم الاعلون وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالى وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها فسار القعقاع في الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة فاحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد في أمر الله منكم ولا هؤلاء يعنى الفرس اجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بازائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حتى انتهيا وانفرج القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق وهى دبور ومال الغبار عليهم وانتهى القعقاع ومن معه الى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة الى بغال قد قدمت عليه بمال فهى واقفة فاستظل في ظل بغل وحمله وضرب هلال بن علقمة الحمل الذى تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به فأزال عن ظهره فقارا فرآه هلال فضربه ضربة فنفحت مسكا ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ثم ألقاه بين أرجل البغال ثم صعد السرير وقال قتلت رستم ورب الكعبة الىّ الىّ فاطافوا به وكبروا فنفله سعد سلبه ولم يظفر بقلنسوته ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف وقيل ان هلالا لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز رأسه وعلقه ونادى قتلت رستم فانهزم قلب المشركين وقام الجالينوس على الردم (بالدال) ونادى الفرس الى العبور وكانت الهزيمة عليهم وأما المقترنون فانهم جشعوا فتهافتوا في العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفا وأخذ ضرار بن الخطاب العلم الاكبر الذى كان للفرس فعوض منه ثلاثون ألفا وكانت قيمته الف الف ومائتى ألف وقتل من الفرس في المعركة عشرة آلاف سوى

من قتلوا في الايام قبله وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف وجمعت الاسلاب والاموال فجمع شيء لم يجمع قبله ولا بعده مثله وأمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباع المنهزمين حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وقتلوا ما بين الخرارة الى السايحين الى النجف وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الاسرى فرؤى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسيرا من الفرس واستكثر سعد سلب الجالينوس فكتب فيه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب عمر الى سعد تعمد الى مثل زهرة بن الحوية وقد صلى بمثل ما صلى به تفسد قلبه وقد بقي عليك من حربك ما بقي أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة فلما أتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير الى الفارس فيأتيه فيقتله وربما أخذ سلاحه فقتله به وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما صاحبه ولحق سلمان بن ربيعة الباهلي وعبد الرحمن بن ربيعة بطائفة من الفرس قد نصبوا راية وقالوا لانبرح حتى نموت فقتلهم سلمان ومن معه وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة من الفرس استحيوا من الفرار فقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكل كتيبة منها رئيس وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قتل وكان ممن هرب من أمراء الكتائب الهرمزان ثم تراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قتل مؤذنهم فتشاح المسلمون في الاذان حتى كادوا يقتتلون و قرع سعد بينهم فخرج سهم رجل فأذن وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمائة خمسمائة وهم خمسة وعشرون رجلا وأما أهل الايام قبلها فإنهم فرض لهم على ثلاثة آلاف فضلوا على أهل القادسية فقيل لسعد لو ألحقت بهم أهل القادسية فقال ما كنت لالحق بهم من لم يدركهم وقيل له لو فضلت من بعدت داره على من قاتلهم بفنائه قال كيف أفضل عليهم وهم شجن العدو وهل فعل المهاجرون بالانصار هذا وكانت العرب تتوقع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب الى عدن ابين وفيما بين الابلة وايلة يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها وكانت في كل بلدة مصيخة اليها تنظر مايكون من أمرها فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها أناسا من الانس فسبقت أخبار الانس وكتب سعد الى عمر بالفتح وبعدة من قتلوا وبعدة من أصيب من المسلمين وسمى من يعرف مع سعد بن عميلة الفزاري وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح الى انتصاف النهار عن أهل القادسية ثم يرجع الى أهله

ومنزله قال فلما لقي البشير سأله من أين فاخبره قال ياعبد الله حدثني قال هزم الله المشركين وعمر يخب معه يسأله والآخر يخبره وهو يسير على ناقته لايعرفه حتى دخل المدينة واذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين قال البشير هلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين فقال عمر لابأس عليك ياأخي وأقام المسلمون بالقادسية في انتظار قدوم البشير وأمر عمر الناس ان يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع اليهم أهل الشام ممن شهد اليرموك ودمشق ممدين لهم والصحيح ان وقعة القادسية كانت سنة أربع عشرة كما تقدم وقيل كانت سنة خمس عشرة وقيل ست عشرة والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر الوقايع بعد فتح القادسية الى ان فتحت مداين كسرى ﴾

لما فرغ سعد رضي الله عنه من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المداين وان يخلف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جندا كثيفا وان يشركهم في كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين في عيالهم ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين برس لقوا جندا من الفرس فقاتلهم المسلمون فهزم الله الفرس وقتل المسلمون كثيرا منهم وانحاز المنهزمون الى بابل وكان بها كثير من جندهم وعليهم الفيرزان فقصدهم المسلمون فقاتلوهم وقتلوا كثيرا منهم وهزموا الباقين فانطلقوا على وجوههم فسار الهرمزان نحو الاهواز فأخذ مافيها من الأموال لكسرى وسار الى نهاوند فأخذ مافيها من الاموال كلها وكان بها كنوز لكسرى وسار النخيرخان ومهران الرازي الى المداين وقطعا الجسر فاقام سعد ببابل وأرسل زهرة بن الحوية الى نهرشير قبالة المدينة العتيقة من المداين الغربية فتلقاه دهقان ساباط للصلح فارسله الى سعد فصالحه على تأدية الجزية فوصل سعد والمسلمون الى نهرشير ليحاصروا المداين فرأوا الايوان من بعد فقال ضرار بن الخطاب الله أكبر ابيض كسرى هذا ماوعد الله ورسوله وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة محاصرين لها وكان نزولهم عليها في ذي الحجة فحاصروها شهرين ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ودنوا اليهم بالدبابات وأرسل سعد الخيول فاغارت على من ليس له عهد فاصابوا مائة ألف فلاح فأرسل سعد الى عمر بالخبر فكتب له عمر ان من جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو في أمان ومن هرب فادركتموه فشأنكم به فخلى سعد عنهم وأرسل الى الدهاقين ودعاهم الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا فلم يبق في غربي دجلة الى أرض العرب سوادي الا آمن واغتبط

يملك الاسلام واشتد الحصار بأهل المداين الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم فبيناهم يحاصرونهم اذ أسرف عليهم رسول الملك فقال الملك يقول لكم هل لكم الى المصالحة على ان لنا مايلينا من دجلة الى جبلنا ولكم مايليكم من دجلة الى جبلكم وما شبعتم لااشبع الله بطونكم فقال له أبو مقرن الاسود مقالة أنطقه الله بها ولا يدرى ما قال لهم لاهو ولا من كان معه فرجع الرجل فقطعوا دجلة الى المداين الشرقية التى فيها الايوان فقال لأبى مقرن من كان معه ماقلت له فقال والذى بعث محمدا بالحق ماأدرى وأنا أرجوان أكون نطقت بالذى هو خير وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم فنادى سعد في الناس فنهدوا اليهم فما ظهر على المدينة أحد ولاخرج رجل الا رجل ينادى يطلب الامان فامنوه فقال لهم مابقى بالمدينة من يمنعكم فدخلوا فماوجدوا فيها شيأ ولا أحدا الا اسارى وذلك الرجل فسألوه لاى شئ هربوا فقال بعث الملك اليكم يعرض عليكم الصلح فاجبتموه انه لايكون بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل عسل افريدون بأترج كوثى فقال الملك ياويلتا ان الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا فساروا الى المدينة القصوى فدخل المسلمون المدينة الغربية وأنزلهم سعد المنازل

﴿ ذكر فتح المداين التى فيها ايوان كسرى ﴾

لما دخل المسلمون المداين الغربية كان البحر بينهم و بين المداين الشرقية التى فيها الايوان وليس للمسلمين سفن يعبرون فيها ورأى سعد رؤيا ان خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت فعزم سعد لتأويل الرؤيا فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان عدوكم قد اعتصم بهذا البحر فلا تخلصون اليهم معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شئ تخافون ان تؤتوا منه قد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم وقد رأيت من الرأى ان تجاهدوا العدو قبل ان تحصدكم الدنيا الا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فندب الناس الى العبور وقال من يبدأ ويحمى لنا الفراض (وهى فريضة النهر ومن البحر محيط السفن) حتى تتلاحق به الناس لكى لايمنعوهم من العبور فانتدب له عاصم بن عمرو وذوو البأس فى ستمائة من أهل النجدات فستعمل عليهم عاصم فتقدمهم عاصم في ستين فارسا وجعلهم على خيل ذكور واناث ليكون أسلس لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الاعاجم وماصنعوا اخرجوا للخيل التى تقدمت مثلها فاقتحموا عليها دجلة فلقوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم الرماح الرماح أشرعوا وتوخوا العيون فالتقوا فاطعنوا وتوخى المسلمون

عيونهم فولوا ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ومن نجا منهم صار أعور من الطعن وتلاقوا الستمائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصما على الفراض قد منعها اذن للناس فى الاقتحام وقال قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولا قوة الا بالله العلى العظيم وتلاحق الناس في دجلة وأنهم يتحدثون كما يتحدثون في البر وطبقوا دجلة حتى مايرى من الشاطئ شئ وكان الذى يساير سعدا سلمان الفارسى رضى الله عنهما فغابت بهم خيولهم وسعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ان لم يكن في الجيش بغى أوذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان الاسلام جديد ذلت لهم البحور كما ذلل لهم البر اما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيأ الا ان مالك بن عامر العنبرى سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال الذى يسايره معيرا له أصابه القدر فطاح فقال والله أنى لعلى حالة ما كان الله ليسلبنى قدحى من بين العسكر فلما عبروا ألقته الريح الى الشاطئ فتناوله بعض الناس وعرفه صاحبه فأخذه صاحبه ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلا من بارق يدعى عرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر وكاد يغرق فثنى القعقاع عنان فرسه اليه فأخذه بيده فأخرجه سالما وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض اعرافها فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن في حسابهم خرجوا هاربين نحو حلوان وكان يزدجرد قد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف مهران والنخيرخان وكان على بيت المال بالنهروان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والالطاف مالا يدرى قيمته وخلفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والاطعمة وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند مسيره الى القادسية النصف وبقى النصف ولما دخلوا المداين نزل سعد القصر الابيض وجاء جماعة من الفرس وعقدوا ذمة على تأدية الجزية وبعث سعد جماعة الى الاطراف من كل جهة ينيرون ويؤمنون من أراد الامان واتخذ سعد ايوان كسرى مصلى ولم يغير مافيها ولما دخل سعد الايوان قرأ كم تركوا من جنات وعيون الى قوله قوما آخرين وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات ولم يكن بالمدائن اعجب من عبور الماء وكان يدعى يوم الجراثيم لايعيا احد الا اشمخرت له جرثومة من الارض يستريح عليها لما يباع الماء حزام فرسه

ذكر ماجمع من غنايم أهل المداين وقسمتها

اجتمع عند سعد بعد دخوله المداين من الغنايم والاموال مالا يحصى ورأوا بالمداين قبابا مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاما فاذا فيه آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافورا كثيرا فحسبوه ملحا فعجنوا به فوجدوه مرا وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وكبوا عليه فقال بعض المسلمين ان لهذا البغل لشأنا فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه واذا هو محمل عليه حلية كسرى ووشاحه ودرعه التى فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلج بغلين معهما فارسان فقتلهما وأخذ البغلين فاذا عليهما سفطان فيهما تاج كسرى مرصعا وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجا منظوما وادرك القعقاع فارسيا فقتله وأخذ منه عيبتين في احداهما خمسة أسياف وفي الاخرى ستة أسياف وأدراع منها درع كسرى ومغافره ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع النعمان ودرع داهر ملك الهند استلبها الفرس ايام غزاهم خاقان وهرقل وداهر وأيام هرب النعمان من كسرى وكذا الاسياف فاحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الاسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها الا سيف كسرى والنعمان بعث بهما الى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه الى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حمارين فقتل احدهما وهرب الآخر وأخذ الحمارين فاذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولبانه الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر كان كسرى يضعهما على اسطوانة التاج واقبل رجل بحق الى صاحب الاقباض فقال هو والذى معه مارأينا مثل هذا مايعدله ماعندنا ولا يقاربه فقالوا هل أخذت منه شيأ فقال والله لولا الله ماأتيتكم به فقالوا من أنت فقال والله لاأخبركم فتحمدونى ولكن أحمد الله وارضى بثوابه فأتبعوه رجلا فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ماسبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر لقد تتبعت منهم هناة ماأحسبها من هؤلاء وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما والله الذى لااله الا هو مااطلعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وهم

طليحة وعمرو بن معدى كرب وقيس بن المكشوح وقال عمر رضى الله عنه لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجده ان قوما ادوا هذا لذو وأمانة فقال على رضى الله عنه انك عففت فعفت الرعية فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفيء بين الناس بعد ماخمسه وكانوا ستين ألفا فاصاب الفارس اثنا عشر ألفا وكلهم كان فارسا ليس فيهم راجل ونفل من الاخماس في أهل البلاء وقسم المنازل بين الناس واحضر العيالات فانزلهم الدور فاقاموا بالمداين حتى فرغوا من جلولا وحلوان وتكريت والموصل ثم تحولوا الى الكوفة وارسل سعد من الخمس كل شئ أراد ان يعجب منه العرب وما كان يعجبهم ان يقع وكان من جملة ماغنموه بساط كسرى ويقال له القطيف وهو من اعجب ما كان لملك الفرس وهو بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا كانت الاكاسرة تعده للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجوهر واشباه ذلك وأراد سعد اخراج خمس القطيف فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به الى عمر يضعه حيث يشاء فانا لانراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعا فقالوا نعم فبعث به الى عمر فلما قدم خمس الغنائم على عمر رضى الله عنه قسمه في مواضعه ثم قال أشيروا على في هذا القطيف فمن بين مشير بابقائه ذخيرة للملة وآخر مفوض اليه فأشار على رضى الله عنه بقسمته بين المسلمين وقال ان تبقه على هذا اليوم لم تعدم في غدمن يستحق به ماليس له فقال صدقتنى اذ نصحتنى فقطعه بينهم فاصاب عليا قطعة منه قال ابن الاثير فباعها بعشرين ألفا وفي السيرة الحلبية بعشرين ألف دينار وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك الكنانى حين أراد التعرض للنبي صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر الى المدينة كيف بك اذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه فلما أتى بذلك كله لعمر بن الخطاب مع جملة ماأتى به من خمس الغنائم دعا سراقة بن مالك وألبسه اياهما وكان سراقة رجلا ازب أى كثيرشعر الساعدين فقال عمر ارفع يديك وقل الله اكبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول أنا رب الناس وألبسهما سراقة رجلا اعرابيا من مدلج ورفع عمر صوته ثم اركب سراقة وطيف به في المدينة اظهارا لمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه ولم يأخذ عمر رضى الله عنه شيأ من تلك الغنائم التى قسمها بين الناس وكان يقرأ

قوله تعالى زين للناس حب الشهوات الآية ويقول اللهم انه لاطاقة لنا ان نحب الا مازينته فوفقني ان انفقه في حقه وكان رضى الله عنه يبكي ويقول ان الله زوى الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لى فأخاف ان أكون مستدرجا وروى البخارى في صحيحه في كتاب الرقاق ان عمر رضى الله عنه قال اللهم انا لانستطيع الا ان نفرح بما زينته لنا اللهم انى أسألك ان انفقه في حقه ورواه الدارقطني بابسط من هذا فقال ان عمر ابن الخطاب أتى بمال من الشرق يقال له نفل كسرى فامربه فصب وغطى ثم دعا الناس فاجتمعوا ثم أمربه فكشف عنه فاذا هو حلى وجواهر ومتاع فبكى عمر رضى الله عنه وحمد الله عز وجل فقالوا له مايبكيك ياأمير المؤمنين هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها فقال مافتح الله من هذا على قوم الا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمهم قال زيد بن أسلم فبقى من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع فقال عبد الله بن أرقم لعمر رضى الله عنه حتى متى تحبسه لاتقسمه فقال اذا رأيتنى فارغا فآذنى به فلما رآه فارغا بسط شيأ في حش نخله ثم جاء به في مكتل فصب فكأنه استكثره ثم قال اللهم أنت قلت زين للناس حب الشهوات فتلا الآية حتى فرغ منها ثم قال لانستطيع الا ان نحب مازينت لنا فقنى شره وارزقنى ان انفقه في حقه فما قام حتى مابقى منه شئ

﴿ ذكر وقعة جلولا وفتح حلوان في سنة ست عشرة أيضاً ﴾

لما انتهى الفرس الى جلولا بعد الهرب من المداين احتفروا خندقا واجتمعوا على مهران الرازى وتقدم يزدجرد الى حلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد الا طرقهم فبلغ ذلك سعدا فارسل الى عمر فكتب اليه عمر ان سرح هاشم بن عتبة الى جلولا واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وان هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل وليكن الجند اثنى عشر ألفا فيهم وجوه المهاجرين والانصار وأعلام العرب ففعل ذلك سعد وسار هاشم من المداين فمر ببابل فصالحه دهقانها على ان يفرش له جريب الارض دراهم ففعل وصالحه ثم مضى حتى قدم جلولا فحاصرهم في خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس وجعلوا لايخرجون الا اذا أرادوا وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوما كل ذلك ينصر المسلمون عليهم وجعلت الامداد ترد من يزدجرد الى مهران وامد سعد المسلمين وخرجت الفرس وقد احتفلوا فاقتتلوا فارسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق فجعلوا فيه طرقا مما يليهم ليصعد منه خيلهم فافسدوا حصنهم وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا اليهم وقاتلوهم قتالا شديدا لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير الا انه كان أعجل

وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذى زحف فيه الى باب خندقهم فاخذ به وأمر مناديا فنادى يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به فاقبلوا اليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله وانما أمر بذلك ليقوى المسلمين فحملوا ولا يشكون بأن هاشما في الخندق فاذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذبه فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك فعقرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم الا القليل وقتل يومئذ منهم مائة ألف فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولا بما جللها من قتلاهم فهى جلولا الوقيعة فسار القعقاع بن عمرو في الطلب حتى بلغ خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الرى وقدم القعقاع حلوان فنزلها فى جند ولما سار يزدجرد من حلوان استخلف عليها خسر سنوم وكان الزينبي دهقان حلوان فلما قرب القعقاع من حلوان خرج عليه خسرسنوم والزينبي بمن معهما فقتل الزينبي وهرب خسرسنوم واستولى المسلمون على حلوان وبقى القعقاع بها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا وكتبوا الى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حلوان واستأذنوه في اتباعهم فأبى وقال لوددت ان بين السواد وبين الجبل سدا لايخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد انى آثرت سلامة المسلمين على الانفال وادرك القعقاع في اتباعه الفرس مهران بخانقين فقتله وأدرك الفيرزان فنزل وتوغل في الجبل فتحامى وأصاب القعقاع سبايا فأرسلهن الى هاشم فقسمهن فاتخذن سرارى فولدن وممن ينسب الى ذلك السبي أم الشعبي وقسمت الغنيمة وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب وقيل ان الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف وبعث سعد الاخماس الى عمر رضى الله عنه بعد ان قسم الاربعة الاخماس على الغانمين فلما قدم الخمس على عمر رضى الله عنه قال والله لايجنه سقف حتى اقسمه فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الارقم يحرسانه في المسجد فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه فلما نظر الى ياقوته وزبرجده وجواهره بكى فقال له عبد الرحمن بن عوف مايبكيك ياأمير المؤمنين فوالله ان هذا لموطن شكر فقال عمر والله ماذلك يبكيني وبالله مااعطى الله هذا قوما الا تحاسدوا وتباغضوا ولا تحاسدوا الا القى الله بأسهم بينهم ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض وتبعيض المياه وما كان لبيوت النار وسكك البرد وما كان لكسرى ومن جاء معه وماكان لمن قتل وخاف أيضاً الفتنة بين المسلمين فلم يقسمه ومنع من بيعه لانه لم يقسم واقروها حبيسا يولونها من أجمعوا عليه بالرضا

وكانوا لايجمعون الا على الامراء فلا يحل بيع شئ من أرض السواد مابين حلوان والقادسية واشترى جرير أرضا على شاطئ الفرات فرد عمر ذلك الشراء وكرهه

﴿ ذكر اتخاذ البصرة والكوفة مصرا من الامصار ﴾

اختلف في السنة التي اتخذت البصرة فيها مصرا فقيل سنة ست عشرة بعد فتح جلولا أرسل سعد عتبة بن غزوان رضى الله عنه بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتخذها مصرا وخرج عليه أهل الايلة فقاتلهم عتبة فهزمهم واجتمع أهل دستميسان فقتلهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيرا وكان من سبي ميسان يسار أبو الحسن البصرى وارطبان جد عبد الله بن عون بن ارطبان وقيل ان اتخاذ عتبة البصرة مصرا كان في سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة واما الكوفة فاتخذها سعد مصرا سنة خمس عشرة دلهم على موضعها ابن بقيلة قال لسعد الا أدلك على أرض الله ارتفعت عن القبة وانحدرت عن الفلاة فدله على موضعها فتحول سعد من المداين اليها وسبب ذلك ان العرب استوخمت المداين وبعث سعد اناسا يستطيبون لهم أرضا ينزلونها فاستطابوا الكوفة وهواها فتحول اليها سعد ومن معه سنة سبع عشرة

﴿ ذكر فتح تكريت والموصل في سنة ست عشرة أيضا ﴾

كان ذلك بعد فتح جلولا وسبب ذلك ان الانطاق سار من الموصل الى تكريت وخندق عليه ليحمي أرضه ومعه الروم وأياد وتغلب والنمر والشهارجة فبلغ ذلك سعدا فكتب الى عمر فكتب اليه عمر أن سرح اليه عبد الله بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعي بن الافكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة فسار عبد الله الى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومن معه أربعين يوما فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفا وأرسل عبد الله بن المعتم الى العرب الذين مع الانطاق يدعوهم الى نصرته وكانوا لايخفون عليه شيأ ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم الى السفن فأرسلت تغلب واياد والنمر الى عبد الله بالخبر وسألوه الامان واعلموه انهم معه فارسل اليهم ان كنتم صادقين فأسلموا فأجابوه وأسلموا فأرسل اليهم عبد الله اذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا انا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الابواب التي تلي دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه ونهد عبد الله والمسلمون وكبروا وكبرت تغلب واياد والنمر وأخذوا الابواب فظن الروم ان المسلمين قد أتوهم من خلفهم ممايلي دجلة فقصدوا الابواب التي عليها المسلمون وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيين الذين أسلموا تلك الليلة فلم يفلت من أهل الخندق الا من أسلم من تغلب واياد

والنمر وأرسل عبد الله بن المعتم ربعي بن الافكل الى الحصين نينوى والموصل وقال اسبق الخبر وسرح معه تغلب واياد والنمر فقدمهم ابن الافكل الى الحصين فسبقوا الخبر واظهروا الظفر والغنيمة وبشروهم ووقفوا بالابواب واقبل ابن الافكل فاقتحم عليهم الحصين وكلبوا أبوابهما فنادوا بالاجابة الى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم وسهم الراجل ألف درهم وبعثوا بالاخماس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وولى حرب الموصل ربعى بن الافكل والخراج عرفجة بن هرثمة ثم فتحت بقية أعمال الموصل وجميع معاقل الأكراد وصار الجميع للمسلمين

﴿ ذكر فتح ماسبذان في سنة ست عشرة أيضاً ﴾

لما انقضى فتح جلولا بلغ سعدا ان آذين بن هرمزان قد جمع جمعا وخرج بهم الى السهل فأرسل اليهم ضرار بن الخطاب في جيش فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا فاسرع المسلمون القتال في المشركين وأخذ ضرار آذين أسيرا فضرب رقبته ثم خرج في الطلب حتى انتهى الى السيروان فاخذ ماسبذان عنوة فهرب أهلها في الجبال فدعاهم فاستجابوا له وأقام بها حتى تحول سعد الى الكوفة فارسل اليه فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الاسدى فكانت أحد فروج الكوفة

﴿ ذكر فتح قرقيسا في سنة ست عشرة أيضاً ﴾

لما انقضى أيضاً فتح جلولا أرسل سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند نحو هيت فنازل من بها وقد خندقوا عليهم فلما رأى اعتصامهم بخندقهم ترك الاخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم وخرج في نصف الناس فجاء قرقيسا على غرة فاخذها عنوة فاجابوا الى الجزية ثم ان الحارث بن يزيد راسل أهل هيت فاجابوا الى الجزية وكانت ثغور الكوفة أربعة حلوان وعليها القعقاع وماسبذان وعليها ضرار ابن الخطاب وقرقيسا وعليها عمر بن مالك والموصل وعليها عبد الله بن المعتم وكان بها خلفاؤهم اذا غابوا عنها

﴿ ذكر غزوة فارس من البحرين في سنة سبع عشرة ﴾

لما كان العلاء الحضرمى على البحرين في خلافة أبي بكر ثم في خلافة عمر رضى الله عنهما ندب الناس لغزو فارس في البحر وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر خوف الغرق فخالفه وندب الناس الى قتال فارس فاجابوه ففرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر سوار بن همام وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى وخليد على جميع

الناس وحملهم في البحر الى فارس بغير اذن عمر فعبرت الجنود من البحرين الى فارس فخرجوا الى اصطخر وبازائهم أهل فارس وعليهم الهربذ فقاتلوهم قتالا شديدا بمكان يدعى طاوس فقتل سوار والجارود وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ثم أراد المسلمون الرجوع الى البصرة فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا ولما بلغ عمر رضى الله عنه صنيع العلاء أرسل الى عتبة بن غزوان يأمره بانفاذ جند كثيف الى المسلمين بفارس قبل ان يهلكوا وقال فانى ألقي في روعي كذا وكذا نحو الذي كان فارسل عتبة جيشا كثيفا اثني عشر ألف مقاتل وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بني عامر ابن لؤي فسار بالناس على الساحل لايعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخليد وكان أهل اصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين جمعوا أهل فارس اليهم من كل وجهة فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاوس وقد توافت الى المسلمين أمدادهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ماشاؤا وهي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم انكفؤا بما أصابوا فرجعوا الى البصرة سالمين

﴿ ذكر الخبر عن فتح الاهواز ومناذر ونهرتيرى ﴾

في سنة سبع عشرة فتحت الاهواز ومناذر ونهرتيرى وقيل سنة عشرين وكان السبب في هذا الفتح انه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس قصد خورستان فملكها وقاتل بها من أرادهم فكان الهرمزان يغير على أهل ميسان ودستميسان من مناذر ونهرتيرى فاستمد عتبة بن غزوان سعدا فامده بجيوش والتقوا هم والهرمزان بين نهرتيرى وبين دلث وتوجه بعض جيوشهم لاخذ مناذر ونهرتيرى فبينما الهرمزان يقاتل الذين التقى معهم جاءه خبر بأخذ مناذر ونهرتيرى فكسر ذلك قلب الهرمزان ومن معه فهزمه الله وإياهم وقتل المسلمون منهم ماشاؤا وأصابوا ماشاؤا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دجيل وأخذوا مادونه وعسكروا بحيال سوق الاهواز وعبر الهرمزان جسر سوق الاهواز وأقام وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين فلما رأى الهرمزان مالا طاقة له به طلب الصلح فاستأمروا عتبة فأجاب الى ذلك على الاهواز كلها ماخلا نهرتيرى ومناذر وماغلب المسلمون عليه من سوق الاهواز فانه لايرد عليهم ثم وقع اختلاف بين المسلمين والهرمزان في حدود الارض فحاربهم الهرمزان ومنع ماقبله واستعان بالاكراد فكتب عتبة بذلك الى عمر فكتب اليه عمر يأمره بقصده وأمده بجند فالتقوا مع الهرمزان عند جسر سوق الاهواز مما يلي السوق فانهزم الهرمزان وسار الى رامهرمز

وفتح المسلمون سوق الاهواز واتسعت لهم البلاد الى تستر ثم لم يزل القتال بينهم وبين الهرمزان الى ان طلب الصلح فأجاب عمر الى ذلك وان يكون ماأخذه المسلمون بأيديهم واصطلحوا على ذلك وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعونه اذا قصده الاكراد ويجبي اليهم

﴿ ذكر فتح رامهرمز وتستر واسر الهرمزان ﴾

كان فتح رامهرمز وتستر والسوس في سنة سبع عشرة وكان سبب فتحها ان يزدجرد لم يزل وهو بمرو يثير أهل فارس أسفا على ماخرج من ملكهم فتحركوا وتكاتبوا هم وأهل الاهواز وتعاقدوا على النصرة فكتب الامراء بذلك الى سعد فكتب الى عمر فكتب اليه عمر ان ابعث الى الاهواز جندا كثيفا مع النعمان بن مقرن وعجل ولينزلوا بازاء الهرمزان ويتحققوا أمره وكتب الى أبي موسى الاشعرى وكان على البصرة ان ابعث الى الاهواز جندا كثيفا وأمر عليهم سعد بن عدى أخا سهيل وابعث معه البراء بن مالك ومجزاة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعا أبو سبرة بن أبي رهم فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فسار الى الاهواز وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره بالشدة ورجا أن يقتطفه ومعه أهل فارس فالتقى النعمان والهرمزان باربك فاقتتلوا قتالا شديدا ثم ان الله عز وجل هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتستر وسار النعمان الى رامهرمز ونزلها وصعد الى ايذج فصالحه تيروية على ايذج ورجع الى رامهرمز فاقام بها ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الاهواز وهم يريدون رامهرمز فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الاهواز وأتاهم الخبر ان الهرمزان نزل بتستر فساروا نحوه وسار أيضاً النعمان وغيره من الامراء فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والاهواز وعليهم الخنادق وأمد عمر المسلمين أيضاً بأبي موسى وجعله على أهل البصرة وعلى الجميع أبو سبرة فحاصروهم أشهرا وأكثروا فيهم القتل وزاحفهم المشركون أيام تستر ثمانين زحفا يكون لهم مرة وعليهم مرة فلما كان في آخر زحف منها واشتد القتال قال المسلمون للبراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك رضى الله عنهما يابراء اقسم على ربك ليهزمنهم وكان مجاب الدعوة فقال اللهم اهزمهم لنا واستشهدنى فهزموهم حتى ادخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم ثم دخلوا مدينتهم وأحاط بها المسلمون فبيناهم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجل الى النعمان يستأمنه على أن يدله على مدخل يدخلون منه ورمى في ناحية أبي موسى بسهم ان أمنتمونى دللتكم على مكان تأتون المدينة منه فأمنوه في نشابة فرمى اليهم بأخرى

وقال انهدوا من قبل مخرج المـاء فانكم تقتحمونها فندب الناس اليه فانتدب له عامر بن قيس وبشر كثير ونهدوا لذلك المكان ليلا وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذى يدلهم على المدخل الى المدينة فانتدب له بشر كثير فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج فدخلوا في السرب والناس من خارج فلما دخلوا المدينة كبروا فيها وكبر المسلمون من خارج وفتحت الابواب فاجتلدوا فيها فأناموا كل مقاتل وقصد الهرمزان القلعة فتحصن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل اليهم على حكم عمر فأوثقوه واقتسموا ماأفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وسهم الراجل ألفا وجاء صاحب الرمية والرجل الذى خرج بنفسه فأمنوهما ومن أغلق بابه معهما وقتل من المسلمين بشر كثير وممن قتله الهرمزان بنفسه مجزاة بن ثور والبراء بن مالك وخرج أبو سبرة بنفسه في أثر المنهزمين الى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مقرن وأبو موسى وكتبوا الى عمر فكتب الى أبى موسى يرده الى البصرة فانصرف اليها من السوس وسار زر بن عبد الله اللقيمى الى جند يسابور فنزل اليها وأرسل أبو سبرة وفدا الى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب وتاجه وكان مكللا بالياقوت وألبسوه حليته ليراه عمر والمسلمون فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل جلس في المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه في المسجد متوسدا برنسه وكان قد لبسه للوفد فلما قاموا عنه توسده ونام فجلسوا دونه وهو نائم والدرة في يده فقال الهرمزان أين عمر قالوا هوذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب قال فينبغى ان يكون نبيا قالوا بل يعمل بعمل الانبياء فاستيقظ عمر بجلبة الناس فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان قالوا نعم فقال الحمدلله الذى أذل بالاسلام هذا وغير اشباهه فامر بنزع ماعليه فنزعوه وألبسوه ثوبا صفيقا فقال له عمر ياهرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر انا واياكم في الجاهلية كان الله قدخلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا ثم قال له ماحجتك وماعذرك في انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف ان تقتلنى قبل ان أخبرك قال لاتخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لومت عطشا لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتى به في اناء يرضاه فقال انى أخاف ان أقتل وانا أشرب فقال عمر لابأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا بين القتل والعطش فقال لاحاجة لى في الماء انما أردت ان استأمن به فقال له عمر انى قاتلك فقال قد أمنتنى فقال كذبت قال أنس صدق ياأمير

المؤمنين قد أمنته قال عمر ياأنس أنا اؤمن قاتل مجزاة بن ثور والبراء بن مالك والله لتأتين بمخرج أولاعاقبنك قال انك ياأمير المؤمنين قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه وقال لعمر من حوله مثل ماقال أنس فاقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لاأنخدع الا ان تسلم فأسلم ففرض له فيمن فرض لهم الفين وانزله المدينة وكان المترجم بينهما المغيرة ابن شعبة لانه كان يفقه بالفارسية الى ان جاء المترجم

ذكر فتح السوس

لما نزل أبو سبرة على السوس كان بها شهريار أخو الهرمزان فأحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرات وحاصروهم ثم اقتحموا الباب ودخلوا عليهم فالقى المشركون بايديهم ونادوا الصلح الصلح فأجابهم الى ذلك المسلمون بعد مادخلوها عنوة واقتسموا ماأصابوا وقيل في فتح السوس ان يزدجرد سار بعد وقعة جلولا فنزل إصطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس فوجهه الى السوس والهرمزان الى تستر ونزل سياه بين رامهرمز وتستر ودعا من معه من عظماء الفرس وقال لهم قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ويشدون خيولهم في شجرها وقد غلبوا على ما رأيتم فانظروا لانفسكم فقالوا رأينا رأيك قال أرى ان تدخلوا في دينهم ووجهوا شيرويه في عشرة من الاساورة الى أبي موسى فشرط عليهم ان يقاتلوا معه العجم ولا يقاتلوا العرب وان قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم وينزلوا حيث شاؤا ويلحقوا بأشرف العطاء ويعقد لهم ذلك عمر على ان يسلموا فاعطاهم عمر ماسألوا فاسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تستر ومضى سياه الى حصن قد حاصره المسلمون في زى العجم فالقى نفسه الى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم فرآه أهل الحصن صريعاً فظنوه رجلا منهم ففتحوا له باب الحصن ليدخلوه اليهم فوثب وقاتلهم حتى خلوا عن الحصن وهربوا فملكه

ذكر مصالحة جند يسابور

ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجند يسابور وزر بن عبد الله محاصرهم فاقاموا عليها يقاتلونهم فرمى الى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفجأ المسلمين الا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا اسواقهم فسألهم المسلمون فقالوا رميتم لنا بالامن فقبلناه وأقررنا الجزية فقال المسلمون مافعلنا وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك فاذا هو عبد يدعى مكنفا كان أصله منها فعل هذا فقالوا هو عبد فقال أهلها لا نعرف العبد من الحر وقد قبلنا

بالجزية وما بدلنا فان شئتم فاغدروا فكتبوا الى عمر فاجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم

ذكر مسير المسلمين الى كرمان وغيرها

قيل في سنة سبع عشرة اذن عمر للمسلمين في الانسياح في بلاد فارس وانتهى في ذلك الى رأى الاحنف بن قيس حيث قال له ياأمير المؤمنين نهيتنا عن الانسياح في البلاد وان فارس لايزالون يقاتلوننا مادام ملكهم فيهم فلا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا في الانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتني والله وأذن في الانسياح فامر أبا موسى ان يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة فيكون هناك حتى يأتيه أمره وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى فدفع لواء خراسان الى الاحنف بن قيس ولواء ازدشير وسابور الى مشاجع بن مسعود السامى ولواء اصطخر الى عثمان بن أبي العاص الثقفي ولواء فساودارابجرد الى سارية بن زنيم الكناني ولواء كرمان الى سهيل بن عدى ولواء سجستان الى عاصم بن عمرو ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبي فخرجوا ولم يتهيأ مسيرهم في ذلك الوقت وأمدهم بنفر من أهل الكوفة وسيأتي الكلام على تفصيل ذلك

ذكر وقعة نهاوند

قيل انها كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشرة وقيل سنة احدى وعشرين وكان الذي هيج أمر نهاوند أن المسلمين لما خاصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الاهواز كاتبت الفرس ملكهم وهو بمرو فحركوه وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا الى نهاوند ولما وصل أوائلهم بلغ سعدا الخبر فكتب الى عمر وثار بسعد قوم سعوا به وتعصبوا عليه ولم يشغلهم مانزل بالناس وكان جماعة خالفوا سعدا وصاروا يشكون منه فمن تحرك في أمره الجراح بن سنان الاسدى في نفر فقال لهم عمر والله مايمنعني مانزل بكم من النظر فيما لديكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس وكان محمد بن مسلمة صاحب العمال يقتص آثار من شكى زمان عمر فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه فما سأل عنه جماعة الا اثنوا عليه خيرا سوى من مالأ الجراح الاسدى فانهم سكتوا ولم يقولوا سوأ ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بني عبس فسألهم فقال اسامة بن قتادة اللهم انه لايقسم بالسوية ولا يعدل في القضية ولا يغزو في السرية فقال سعد اللهم ان كان قالها رياء وكذبا وسمعة فاعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن فعمي واجتمع عنده عشر بنات وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسها فاذا عثر عليها قال دعوة سعد الرجل المبارك ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال

اللهم ان كانوا خرجوا اشرا وبطرا ورياء فاجهد بلادهم فجهدوا وقطع الجراح بن سنان
بالسيوف يوم بادر الحسن بن على رضى الله عنهما ليغتاله بساباط وشدخ قبيصة بالحجارة
وقتل أربد بالوجيء ونعال السيوف وكان سعد رضى الله عنه مجاب الدعوة لان النبي صلى
الله عليه وسلم دعا له بذلك وكان من العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين للاسلام ومن
اخوال النبي صلى الله عليه وسلم وهو أول رجل رمى بسهم في سبيل الله وأول رجل
أهرق دما من المشركين في سبيل الله وجمع له النبى صلى الله عليه وسلم أبويه فقال فداك
أبي وأمى ثم ان محمد بن مسلمة رجع الى المدينة بسعد وبالقوم الذين شكوا منه فقدموا
على عمر فاخبروه الخبر فقال كيف تصلي ياسعد قال أطيل الاوليين واخفف الأخيرتين
فقال هكذا الظن بك ياأبا اسحق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا فاراد عمر رضى الله
عنه الاحتياط وقطع النزاع لئلا يطول الشر ويتسع الامر فقال من خليفتك ياسعد على
الكوفة فقال عبد الله بن عبد الله بن عتبان فاقره وأمر سعدا بالبقاء معه في المدينة ولما
طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو عنهم راض وقال ان تولوا سعدا فاهل هو والا فليستعن به الوالى فانى لم
أعزله عن ضعف ولا خيانة هكذا كان سبب نهاوند فابتداء البعث كان في زمن سعد وأما
الوقعة فهى في زمان عبد الله بن عبد الله بن عتبان فنفرت الاعاجم بكتاب يزدجرد
فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفا ومائة ألف مقاتل وكان سعد كتب الى عمر
بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له ان أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح وان
يبدؤهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم فجمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم هذا
يوم له مابعده وقد هممت ان أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه فأنزل منزلا وسطا بين
هذين المصرين ثم استنفرهم وأكون لهم ردأ حتى يفتح الله عليهم أو يقضى ماأحب فان
فتح الله عليهم صببتهم في بلدانهم فقال طلحة بن عبيد الله ياأمير المؤمنين قد أحكمتك الامور
وعجمتك البلابل واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك ورأيك لاينبو في يديك ولا نكل
عليه اليك هذا الامر فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا ننقد فانك ولى هذا الامر
وقد بلوت وجربت واختبرت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك الاعن خيارهم
ثم جلس فعاد عمر فقام عثمان فقال أرى ياأمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا
من شامهم والى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل الحرمين الى الكوفة
والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت قل عندك ماقد تكاثر من

عدد القوم وكنت أعز غزاء وأكثر ياأمير المؤمنين انك لاتستبقي بعد نفسك من العرب باقية ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز ان هذا يوم له مابعده من الايام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه وجلس فعاد عمر فقام على بن أبى طالب فقال أمابعد ياأمير المؤمنين فانك ان أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم وانك ان أشخصت من هذه الارض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ماتدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيال أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق فرقة في حرمهم وذراريهم وفرقة في أهل عهدهم حتى لاينتقضوا ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مددا لهم ان الاعاجم ان ينظروا اليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد لكلبهم عليك وأماماذكرت من مسير القوم فان الله هوأكره لمسيرهم منك وهو اقدر على تغيير مايكره وأما عددهم فانا لم نكن نقاتل فيمامضى بالكثرة ولكن بالنصر فقال عمر هذا هو الرأى كنت أحب ان أتابع عليه فاشيروا على برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقيا فقالوا أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك فقال والله لأولين رجلا يكون أول الاسنة اذا لقيها غدا فقيل من هو فقال النعمان بن مقرن المزنى فقالوا هو لها وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جند سابور والسوس فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى ماه لتجتمع الجيوش عليه فاذا اجتمعوا اليه سار بهم الى الفيرزان ومن معه وكتب عمر الى عبدالله بن عبد الله بن عتبان ليستنفر الناس مع النعمان ويجتمعوا عليه بماه فندب الناس فكان أسرعهم الى ذلك الروادف ليبلوا في الدين وليدركوا حظا فخرج الناس وعليهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن أخو النعمان بن مقرن حتى قدموا على النعمان وكتب عمر الى الجند الذين كانوا بالاهواز ليشغلوا فارسا عن المسلمين وعليهم المقترب وحرملة وزر فأقاموا بتخوم اصبهان وفارس وقطعوا امداد فارس عن أهل نهاوند واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمر وجرير بن عبد الله البجلى والمغيرة بن شعبة وغيرهم فارسل النعمان طليحة بن خويلد الاسدى وعمرو بن معدى كرب وعمرو بن ثنى وهو ابن أبى سلمى ليأتوه بخبر القوم فخرجوا وساروا يوما الى الليل فرجع اليه عمرو بن ثنى فقالوا مارجعك فقال لم أكن في أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضا عالمها ومضى طليحة وعمرو بن معدى كرب فلما كان آخر الليل رجع عمرو فقالوا مارجعك قال سرنا يوما وليلة ولم نر شيأ فرجعت ومضى طليحة حتى انتهى

الى نهاوند وبين موضع المسلمين الذين هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخا فقال الناس
ارتد طليحة الثانية فعلم كلام القوم ورجع فلما رأوه كبروا فقال ماشأنكم فاعلموه بالذى
خافوا عليه فقال والله لولم يكن دين الا العربى ما كنت لاحر ز العجم الطماطم هذه العرب
العادية فاعلم النعمان انه ليس بينهم وبين نهاوند شئ يكرهه ولا أحد فرحل النعمان وعبى
أصحابه وهم ثلاثون ألفا فجعل على مقدمته أخاه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان
وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع بن مسعود وقد
توافت اليه امداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة فانتهوا الى اسبيذهان والفرس وقوف على
تعبيتهم وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذى جعل مكان ذى الحاجب
وقد توافي اليهم الامداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم فلما رآهم النعمان
كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان
فابتدر أشراف الكوفة فضربوا فساطيطهم ونشب القتال بعد حط الأثقال فاقتتلوا يوم
الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجال وانهم انحجزوا في خنادقهم يوم الجمعة وحاصرهم
المسلمون وأقاموا عليهم ماشاء الله والفرس بالخيار لايخرجون الا اذا أرادوا الخروج فخاف
المسلمون ان يطول أمرهم حتى اذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع اجتمع أهل الرأى
من المسلمين وقالوا نراهم علينا بالخيار وأتوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروى في الذى
رووا فيه فاخبروه فبعث الى من بقي من أهل النجدات والرأى فاحضرهم فتكلم النعمان
فقال قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وانهم لا يخرجون الينا الا اذا شاؤا
ولا يقدر المسلمون على اخراجهم وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق فما الرأى
الذى به نستخرجهم الى المناجزة وترك التطويل فتكلم عمرو بن غنم وكان أكبر الناس
وكانوا يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل
من أتاك منهم فردوا عليه رأيه وتكلم عمرو بن معدى كرب فقال ناهدهم وكابدهم ولا
تخفهم فردوا جميعا عليه رأيه وقالوا انما يناطح بنا الجدران وهى أعوان علينا وقال طليحة
أرى ان تبعث خيلا لينشبوا القتال فاذا اختلطوا بهم رجعوا الينا استطرادا فانا لم نستطرد
لهم في طول ماقاتلناهم فاذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فيهم
وفينا ماأحب فامر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فأنشب القتال فاخرجهم من
خنادقهم كأنهم جبال حديد وقد تواثقوا ان لايفروا وقد قرن بعضهم بعضا كل سبعة في
قران والقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها

الاعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا هى هى فلم يبق أحد الا من يقوم على الابواب وركبوهم ولحق القعقاع بالناس وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبية في يوم جمعة صدر النهار وقد عهد النعمان الى الناس عهده وأمرهم ان يلزموا الارض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمى وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح وشكا الناس وقالوا للنعمان ألا ترى مانحن فيه فما تنتظر بهم ائذن للناس في قتالهم فقال رويدا رويدا وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يلقى العدو فيها وذلك عند الزوال فلما كان قريبا من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر وقال لهم انى مكبر ثلاثا فاذا كبرت الثالثة فانى حامل فاحملوا وان قتلت فالأمر بيد حذيفة بن اليمان فان قتل ففلان حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ثم قال اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك وقيل بل قال اللهم انى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الاسلام واقبضنى شهيدا فبكى الناس ورجع الى موقفه وكبر ثلاثا والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القبا والقلنسوة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها وما كان يسمع الا وقع الحديد وصبر لهم المسلمون صبرا عظيما وانهزم الاعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والاعتام ماطبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيدا رمى بسهم في خصرته فقتله وزلق به فرسه فصرع فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة فاخذها وتقدم موضع النعمان وترك نعيما مكانه وقال لهم المغيرة اكتموا مصاب أميركم حتى تنظروا مايصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن الناس فاقتتلوا فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا وتبعهم المسلمون وعمى الله على المشركين قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذى كانوا دونه فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعضهم في قياد واحد فيقتلون جميعا وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم في اللهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل في المعركة وقيل قتل في اللهب ثمانون ألفا سوى من قتل في الطلب ولم يفلت الا الشريد ونجا الفيرزان من الصرعى نهرب نحو همذان فتابعه نعيم بن مقرن وتقدم القعقاع قدامه فادركه ثنية همدان وهى اذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا فحبسه الدواب على أجله

فلما لم يجد طريقا نزل عن دابته وصعد الجبل فتبعه القعقاع راجلا فادركه فقتل المسلمون
الفيرزان على الثنية وقالوا ان لله جنودا من عسل واستاقوا العسل وما معه من الاحمال
وسميت الثنية ثنية العسل ودخل المشركون همذان والمسلمون في آثارهم فنزلوا عليها
وأخذوا ماحولها فلما رأى ذلك خشر شنوم استأمنهم ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا
يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرن فقال لهم أخوه معقل هذا أميركم قد أقر الله عينه
بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حذيفة ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة
واحتووا على مافيها من الامتعة والاموال والاسلاب والاثاث وأتاهم الهربذ صاحب بيت
النار على أمان فقال لحذيفة أتؤمنني ومن شئت على ان اخرج لك ذخيرة لكسرى تركت
عندى لنوائب الزمان قال نعم فاحضر جوهرا نفيسا في سفطين فارسلهما حذيفة مع الاخماس
الى عمر وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقي مع السائب بن الاقرع الثقفي وكان كاتبا
حاسبا أرسله عمر اليهم وقال ان فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيئهم وخذ الخمس
وائتني به وان هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الارض خير من ظهرها قال السائب فلما
فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسى السفطين اللذين كانا عنده فاذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد
والياقوت فلما فرغت من القسمة احتملتهما معى وقدمت على عمر وكان عمر رضى الله عنه
قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقع الاخبار فبينما رجل من المسلمين قد خرج فى
بعض حوائجه فرجع الى المدينة ليلا فمر به راكب فسأله من أين أقبل فقال من نهاوند
وأخبره بالفتح وقتل النعمان فلما أصبح الرجل تحدث بهذا بعد ثلاث من الوقعة فبلغ الخبر
عمر فسأله فاخبره فقال ذاك بريد الجن ثم قدم البريد بعد ذلك فاخبره بما يسره ولم يخبره
بقتل النعمان قال السائب فخرج عمر من الغد يتوقع الاخبار قال فأتيت فقال ماوراءك
فقلت خيرا ياأمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن فقال
عمر انا لله وانا اليه راجعون ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده فلما رأيت
ذلك وما لقى قلت ياأمير المؤمنين ماأصيب بعده رجل يعرف وجهه فقال أولئك المستضعفون
من المسلمين ولكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك
بمعرفة عمر ثم أخبرته بالسفطين فقال أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحق
بجندك قال ففعلت وخرجت سريعا الى الكوفة وبات عمر فلما أصبح بعث في أثرى رسولا
فما أدركني حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيرى وأناخ بعيره على عرقوب بعيرى فقال الحق
بأمير المؤمنين فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك الا الآن قال فركبت معه فقدمت على

عمر فلما رآني قال الي ومالي وللسائب قلت ولماذا قال ويحك والله ماهو الا ان نمت الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبني الى السفطين يشتعلان نارا يقولون لنكوينك بهما فاقول اني سأقسمهما بين المسلمين فخذهما عني فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم قال فخرجت بهما فوضعتهما في مسجد الكوفة فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف درهم ثم خرج بهما الى أرض الاعاجم فباعهما باربعة آلاف ألف فمازال أكثر أهل الكوفة مالا وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده للفرس اجتماع وملك المسلمون بلادهم ولم يزل يزدجرد أمره في انتكاس ونقصان وكلما أخذت منه مدينة انتقل الى أخرى الى ان قتل في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة احدى وثلاثين وسيأتي تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى

ذكر فتح الدينور والصيمرة وغيرهما

لما انصرف أبو موسى من نهاوند وكان قد جاء مددا على بعث أهل البصرة فمر بالدينور فأقام عليها خمسة أيام وصالحه أهلها على الجزية ومضى فصالحه أهل شيروان على مثل صلحهم وبعث السائب بن الاقرع الثقفي الى الصيمرة مدينة مهرجا نقذف ففتحها صلحا

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همذان وحصرهم نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو فلما رأى ذلك خسر شنوم استأمنهم وقبل منهم الجزية على ان يضمن منهم همذان ودستبي وان لا يؤتى المسلمون منهم فجيبوه الى ذلك وأمنوه ومن معه من الفرس وأقبل كل من كان هرب منهم وبلغ اخبر الماهين بفتح همذان وملكها فاقتدوا بخسر شنوم وكاتبوا حذيفة فأجابهم الى مطلبهم وأجمعوا على القبول

ذكر فتح صبهان

بعث عمر رضي الله عنه اليها عبد الله بن عبد الله بن عتبان وكان شجاعا من أشراف الصحابة ومن وجوه الانصار وأمده بأبي موسى وكان على جند اصبهان الاسبيدان وعلى مقدمته شهريرين جاذويه شيخ كبير في جمع عظيم فقتلوا برستاق اصبهان قتالا شديدا ودعا الشيخ الى البراز فبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحي فقتله وانهزم أهل اصبهان وسمي ذلك الرستاق رستاق الشيخ الى هذا اليوم وصالحهم الاسبيدان على رستاق الشيخ وهو أول رستاق أخذ من أصبهان ثم سار عبد الله الى مدينة جي وهي مدينة أصبهان والملك اصبهان الفاذوسفان فنزل الناس على جي وحصروها وقاتلوها ثم صالحه الفاذوسفان على

اصبهان وعلى ان من أقام الجزية أقام على ماله وان يجرى من أخذت أرضه عنوة مجراهم ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه فخرج الناس من حي ودخلوا في الذمة الا ثلاثين رجلا من أهل اصبهان فالحقوا بكرمان ثم قدم كتاب عمر الى عبد الله يأمره بالمسير الى سهيل ابن عدى ليكون معه على قتال من بكرمان فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الاقرع ولحق بسهيل ونازلوا كرمان حتى فتحوها وسيأتي ذكر ذلك في فتوحات سنة ثلاث وعشرين

﴿ ذكر فتح زويلة ﴾

في سنة احدى وعشرين بعث عمرو بن العاص من مصر عقبة بن نافع الفهرى بجيش فافتتح زويلة صلحا وما بين برقة وزويلة فصار سلما للمسلمين

﴿ ذكر فتح همذان ثانيا ﴾

قد تقدم مسير نعيم بن مقرن الى همذان وفتحها على يده ويد القعقاع بن عمرو فلما رجعا عنها كفر أهلها فرجع اليهم نعيم بن مقرن في سنة اثنتين وعشرين وحاصرهم ثم سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية وقيل ان ذلك كان سنة أربع وعشرين بعد مقتل عمر رضى الله عنه لستة أشهر وان نعيما خرج اليهم في جيش كثيف وقاتلهم قتالا شديدا وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند فانهزم الفرس هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون وقيل ان المغيرة بن شعبة حين كان عاملا على الكوفة أرسل جرير بن عبد الله البجلى الى همذان فقاتله أهلها وأصيبت عين جرير بسهم فقال احتسبها عند الله الذى زين بها وجهى وسلبنيها في سبيله ثم فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قسرا وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه وكان جرير على مقدمته وقيل فتحها قرظة بن كعب الانصارى

﴿ ذكر فتح قزوين وزنجان ﴾

لما سير المغيرة جريرا الى همذان ففتحها سير البراء بن عازب في جيش الى قزوين فسار البراء حتى أتى أبهر وهو حصن فقاتلوه ثم طلبوا الامان فأمنهم وصالحهم ثم غزا قزوين فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا الى الديلم يطلبون النصرة فوعدوهم ووصل المسلمون اليهم فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف على الجبل لا يمدون يدا فلما رأى ذلك أهل قزوين طلبوا الصلح على صلح أبهر ثم غزا البراء الديلم حتى أدوا اليه الاتاوة وغزا جيلان والطيلسان وفتح زنجان عنوة ولما ولى الوليد بن عقبة الكوفة غزا أيضاً الديلم وجيلان وموقان والبير والطيلسان ثم انصرف

﴿ ذكر فتح الرى ﴾

في سنة اثنتين وعشرين غزا نعيم بن مقرن الرى وخرج من الرى الزينبي أبو الفرخان فلقي

نعيا طالبا الصلح ومسالما له وخالفا ملك الري وهو سياوخش بن مهران بن بهرام فاستمد ملك الري أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فامدوه خوفا من المسلمين فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الري الى جنب مدينتها فاقتتلوا به وكان الزينبي قال لنعيم ان القوم كثير وأنت في قلة فابعث معي خيلا أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت فانهم اذا خرجنا عليهم لم يشتدوا لك فبعث معه نعيم خيلا من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القوم وبيتهم نعيم بياتا فشغلهم عن مدينتهم فاقتتلوا وصبروا حتى سمعوا التكبير من و رائهم فانهزموا فقتلوا مقتلة عظيمة وافاء الله على المسلمين بالري نحوا مما في المدائن وصالحه الزينبي على الري ومرزبة عليهم نعيم وراسله المصمغان في الصلح على شيء يفتدي به منه على دنباوند فاجابه الى ذلك وقيل ان فتح الري كان سنة احدى وعشرين

﴿ ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان ﴾

لما أرسل نعيم الى عمر بالبشارة واخماس الري كتب اليه عمر يأمره بارسال أخيه سويد ابن مقرن ومعه هند بن عمرو والجملي وغيره الى قومس فسار سويد نحو قومس فلم يقم له أحد فأخذها سلما وعسكر بها وكاتبه الذين لجؤا الى طبرستان منهم وأهل المفاوز فاجابهم الى الصلح والجزية ثم سار الى جرجان فعسكر بها فكاتبوه وصالحوه على الجزية وقيل ان ذلك كان سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه

﴿ ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة ﴾

في سنة اثنتين وعشرين سار عمرو بن العاص من مصر الى برقة فصالحه أهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها شهرا لم يظفر بها وكان قد نزل شرقيها فخرج رجل من المسلمين من بني مدلج يتصيد في سبعة نفر وسلكوا غربي المدينة فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جنب البحر ولم يكن السور متصلا بالبحر والبلد فدخلوا المدينة من ذلك الجانب وكبروا فلما سمع الروم التكبير في البلد ظنوا ان المسلمين دخلوها فلم يكن لهم ملجأ الا سفنهم ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة وسمعوا الصياح فاقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد لم يفلت من الروم الا القليل بما خف منهم في مراكبهم وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس فلما امتنع عليه فتح طرابلس أمنوا واطمأنوا فلما فتحت طرابلس سير عمرو جندا الى سبرة فصبحوها وقد فتح أهلها الباب واخرجوا مواشيهم لتسرح لانهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس فوقع المسلمون

عليهم ودخلوا الحصن مكابرة وغنموا مافيه وعادوا الى عمرو ثم عاد عمرو الى برقة وقد اجتمع بها قوم من البربر فصالحوه على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية وشرطوا ان يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم

﴿ ذكر فتح اذربيجان ﴾

لما افتتح نعيم الرى بعث سماك بن خرشة الانصارى وليس بأبى دجانة ممدا لبكير بن عبدالله بأذربيجان وكان بكير قد سار اليها بأمر عمر رضى الله عنه فامر عمر نعيما ان يمد بكيرا بسماك بن خرشة وكان بكير حين بعث اليها سار حتى اذا طلع بجبال جرميذان طلع عليهم اسفنديار بن فرخزاد فاقتتلوا فانهزم الفرس وأخذ بكير اسفنديار أسيرا فقال له اسفنديار الصلح أحب اليك أم الحرب فقال بل الصلح فقال امسكنى عندك فان أهل اذربيجان ان لم أصالح عليهم أو أجئ اليهم لم يقوموا لك وجلوا الى الجبال التى حولها ومن كان على التحصن تحصن فأمسكه عنده وصارت البلاد اليه الا ما كان من حصن وقدم عليه سماك بن خرشة ممدا واسفنديار في أمان وقد افتتح مايليه وافتتح عتبة بن فرقد مايليه وكتب بكير الى عمر يستأذنه في التقدم فأذن له ان يتقدم نحو الباب وان يستخلف على ماافتتحه فاستخلف عليه عتبة بن فرقد فاقر عتبة سماك بن خرشة على عمل بكير الذى كان افتتحه وجمع عمر اذربيجان كلها لعتبة بن فرقد وكان بهرام بن فرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قدم عتبة فاقتتلوا فانهزم بهرام فلما بلغ خبره اسفنديار وهو في الاسر عند بكير قال الآن تم الصلح وطفئت الحرب فصالحه وأجاب الى ذلك أهل اذربيجان كلهم وعادت اذربيجان سلما وكتب بذلك بكير وعتبة الى عمر وبعثا بما خمسا

﴿ ذكر فتح الباب ﴾

الباب مدينة عظيمة بناها كسرى في هذه السنة اعنى سنة اثنتين وعشرين أمر عمر رضى الله عنه سراقة بن عمرو وكان يدعى ذا النور بالمسير الى الباب وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وكان له صحبة وكان أيضا يدعى ذا النور وجعل على أحد مجنبتيه حذيفة بن سعيد الغفارى وعلى الاخرى بكير بن عبدالله الليثى وكان بكير سبقه الى الباب وجعل على المقاسم سلمان ابن ربيعة الباهلى فسار سراقة فلما خرج من اذربيجان قدم بكير الى الباب وكان الملك بها يومئذ شهريار وهو من ولد شهريار الذى أفسد بنى اسرائيل واغزى الشام بهم فلما أطل عبد الرحمن بن ربيعة على الباب كاتبه شهريار واستأمنه على ان يأتيه ففعل فأتاه فقال انى بازاء عدو كلب وامم مختلفة ليست لهم احساب ولاينبغى لذى الحسب والعقل ان يعينهم على ذى

الحسب ولست من الفتح ولا الارمن في شئ وانكم قد غلبتم على بلادى وامتى فانا منكم ويدى مع ايديكم وجزيتى اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسوموننا الجزية فتوهنونا بعدوكم فسيره عبد الرحمن الى سراقة فلقيه بمثل ذلك فاجابه بقبول ذلك منه ثم قال له سراقة لابد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو فأجابه الى ذلك وكتب سراقة في ذلك الى عمر فأجازه عمر واستحسنه

﴿ ذكر فتح موقان ﴾

لما فرغ سراقة من الباب أرسل بكير بن عبد الله وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن اسيد وسلمان ابن ربيعة الى أهل تلك الجبال المحيطة بارمينية فوجه بكيرا الى موقان وحبيب الى تفليس وحذيفة الى جبال اللان وسلمان الى الوجه الآخر وكتب سراقة الى عمر بفتح الباب وبارسال هؤلاء النفر الى الجهات المذكورة فأتى عمر أمر لم يظن ان يستتم له بغير مؤنة لانه فرج عظيم وجند عظيم فلما استوثقوا واستحلوا الاسلام مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ولم يفتح أحد من أولئك القواد الا بكير فانه فض أهل موقان ثم تراجعوا على الجزية عن كل حالم دينار ولما بلغ عمر موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقر عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزو الترك

﴿ ذكر غزوة الترك ﴾

لما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك وكانوا في بلنجر بأقصى ولاية الباب وهم أمم كثيرة فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب فقال له شهريار ماتريد ان تصنع قال أريد غزو الترك في بلنجر قال انا لنرضى منهم ان يدعونا من دون الباب قال عبد الرحمن لكنا لا نرضى حتى نغزوهم في ديارهم وبالله ان معنا أقواما لو يأذن لهم أميرنا في الامعان لبلغت بهم الروم قال وما هم قال أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا في هذا الامر بنية ولا يزال هذا الامر لهم دائما ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر فقالوا ما اجترأ علينا الا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت فهربوا منه وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر وعادوا ولم يقتل منهم أحد ثم غزاهم أيام عثمان بن عفان غزوات فظفر كما كان يظفر حتى تبدل أهل الكوفة وظهر فيهم الاختلال فغزا عبد الرحمن ابن ربيعة بعد ذلك الترك فتذامرت عليه واجتمعوا في الفيافي فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتد قتالهم

ونادى مناد من الجو صبرا عبد الرحمن وموعدكم الجنة فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه وأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة فقاتل بها ونادى مناد من الجو صبرا آل سلمان فقال سلمان أو ترى جزعا وخرج سلمان بالناس ومعه أبو هريرة الدوسى على جيلان فقطعوها الى جرجان ولم يمنعهم ذلك من انجاء جسد عبد الرحمن فهم يستسقون به الى الآن

《 ذكر فتح خراسان 》

كان فتح خراسان في سنة ثلاث وعشرين على الصحيح وسبب ذلك ان يزدجرد سار الى الرى بعد هزيمة أهل جلولا وانتهى اليها وعليها ابان جاذويه فوثب على يزدجرد فاخذه فقال يزدجرد ياابان تغدرنى قال لا ولكن قد تركت ملكك نصار في يد غيرك فاحببت ان اكتتب ماكان لى من شئ وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب صكا كا بكل ماأعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم الى يزدجرد فسار يزدجرد من الرى الى اصبهان ثم منها الى كرمان والنار التى يعبدونها معهم ثم قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتا واطمأن وأمن من ان يؤتى وان له من بقى من الاعاجم وكاتب الهرمزان وأثار أهل فارس فنكثوا وأثار اهل الجبال والفيرزان فنكثوا فاذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس وكتب للاحنف ابن قيس بالمسير الى خراسان وكان قبل ذلك قد عقد له لواء عليها مع الالوية التى عقدها فسار بجيش كثيف فدخلها من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدى ثم سار نحو مرو الشاهجان فارسل الى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير والى سرخس الحارث بن حسان فلما دنا الاحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد الى مرو الروذ حتى نزلها ونزل الاحنف مرو الشاهجان وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ الى خاقان والى ملك الصغد والى ملك الصين يستمدهم وخرج الاحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلى بعد مالحقت به أمداد الكوفة وسار نحو مرو الروذ فلما سمع يزدجرد سار عنها الى بلخ ونزل الاحنف مرو الروذ وقدم أهل الكوفة الى يزدجرد واتبعهم الاحنف فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الاحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم فبلخ من فتوحهم وتتابع أهل خراسان فنهم من هرب ومنهم من شد على الصلح فيما بين نيسابور الى طخارستان وعمد الاحنف الى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعى بن عامر وكتب الاحنف الى عمر بالفتح فقال عمر وددت ان بيننا وبينها بحرا من نار فقال على ولم يأمير المؤمنين

قال لان أهلها ينتقضون منها ثلاث مرات فيحتاجون في الثالثة فكان ذلك باهلها أحب الى من ان يكون بالمسلمين وكتب عمر الى الاحنف ان يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه ولما عبر يزدجرد النهر مهزوما أنجده خاقان من الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجرد وخاقان الى خراسان فنزل بلخ ورجع أهل الكوفة الى الاحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً وكان الاحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر اليه خرج ليلا يستمع هل يسمع برأى ينتفع به فمر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول لصاحبه لو أسندنا الامير الى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتون من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت ان ينصرنا الله عليهم فرجع فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم الى سفح الجبل وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويراوحونهم وفي الليل يتنحون عنهم فخرج الاحنف ليلة طليعة لاصحابه حتى اذا كان قريبا من عسكر خاقان وقف فلما كان في وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه فضرب بطبله ثم وقف قريبا من العسكر موقفا يقفه مثله فحمل عليه الاحنف فتقاتلا فطعنه الاحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف فخرج آخر من الترك ففعل مثل فعل صاحبه فحمل عليه الاحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف ثم خرج الثالث من الترك ففعل مثل فعل الرجلين فحمل عليه الاحنف فقتله ثم انصرف الاحنف الى عسكره وكانت عادة الترك أنهم لايخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب بطبله ثم يخرجون بعد خروج الثالث فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتولين فقام خاقان وتطير فقال قد طال مقامنا وأصيب فرساننا مالنا في قتال هؤلاء القوم خير فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحدا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك الى بلخ وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمرو الروذ وانصرف الى مرو الشاهجان فتحصن حرثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج يزدجرد خزائنه من موضعها وخاقان مقيم ببلخ فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد ان يلحق بخاقان قال له أهل فرس أى شئ تريد ان تصنع قال أريد اللحاق بخاقان فاكون معه أو بالصين قالوا ان هذا رأى سوء ارجع بنا الى هؤلاء القوم فنصالحهم فانهم أوفياؤهم أهل دين وان عدوا يلينا في بلادنا أحب الينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ماوفاؤهم فأبى عليهم فقالوا دع خزائننا نردها الى بلادنا ومن يلينا لاتخرجها من

بلادنا فابى فاعتزلوه وقاتلوه وأخـذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ الى فرغانة وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيما بهـا زمن عمر كله الى ان كفر أهـل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه وسيرد ذكر ذلك في موضعه ثم أقبل أهل فارس بعد رحيل يزدجرد على الاحنف فصالحوه ودفعوا اليه تلك الخزائن والاموال وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الاكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية وسار الاحنف الى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة في كورها الاربع ثم رجع الى مرو الروذ فنزلهـا وكتب بفتح خاقان ويزدجرد الى عمر ولمـا عبر خاقان ويزدجرد النهر لقوا رسول يزدجرد الذى أرسـله الى ملك الصين فاخبرهما أن ملك الصين قال له صف لى هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فانى أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم الا بخير فيهم وشر فيكم فقلت سلنى عمـا أحببت فقال أيوفون بالعهد قلت نعم قال وما يقولون لكم قبل القتال قلت يدعوننا الى واحدة من ثلاث اما دينهم فان أجبنا أجرونا مجراهم أو الجزية والمنعة أو المنابذة قال فكيف طاعتهم أمراءهم قلت أطوع قوم وأرشدهم قال فمـا يحلون وما يحرمون فأخبرته قال هل يحلون ماحرم عليهم أو يحرمون ماحلل لهم قلت لاقال ان هؤلاء القوم لايزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال اخبرنى عن لباسهم فاخـبرته وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها له قال نعمت الحصون ووصفت له الابل وبركها وقيامها بحملها فقال هذه صفة دواب طوال الاعناق وكتب معه الى يزدجرد أنه لم يمنعنى ان ابعث اليك بجند أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بمايحق علىّ ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لى رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سربهم أزالونى ماداموا على وصفهم فسالمهم وارض منهم بالمسالمة ولا تهيجهم مالم يهيجوك فاقام يزدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان ولمـا وصل خبر الفتح الى عمر بن الخطاب جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله تعالى في خطبته على انجاز وعده ثم قال ألا وان ملك المجوسية قد هلك فليس يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم ألا وان الله أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غـيركم فانى لاأخاف على هذه الامة ان تؤتى الا من قبلكم

﴿ ذكر فتح شهرزور والصامغان ﴾

استعمل عمر رضي الله عنه عزرة بن قيس على حلوان فحاول عزرة فتح شهر زور فلم يقدر عليها فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حلوان فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت وصالح أهل الصامغان وداراباذ على الجزية والخراج وقتل خلقا كثيرا من الاكراد وكتب الى عمر ان فتوحي قد بلغ اذربيجان فولاه اياها وولى هرثمة بن عرفجة الموصل ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة الى الموصل حتى أفردت عنها آخر خلافة الرشيد

﴿ ذكر غزو معاوية بلاد الروم ﴾

في هذه السنة أعني سنة اثنتين وعشرين غزا معاوية بلاد الروم ودخلها في عشرة آلاف من المسلمين فأثخن فيهم وغنم ورجع سالما

﴿ ذكر الخبر عن فتح توج ﴾

لما خرج أهل البصرة الذين توجهوا الى فارس أمراء عليها وكان فيهم سارية بن زنيم الكناني فساروا وأهل فارس مجتمعون بتوج فلم يقصدهم المسلمون بل توجه كل أمير الى الجهة التي أمر عليها وبلغ ذلك أهل فارس فتفرقوا الى بلدانهم كما افترق المسلمون فكانت تلك هزيمتهم وتشتتت أمورهم فقصد مجاشع بن مسعود السلمي سابور واردشير فالتقى هو والفرس بتوج فقتلوا ماشاء الله ثم انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاؤا كل قتلة وغنموا مافي عسكرهم وحصروا توج ففتحوها وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا مافيها وكان ذلك افتتاح سنة ثلاث وعشرين وهذه توج الاخيرة والاولى هي التي استقدمتها جنود العلاء بن الحضرمي أيام طاوس ثم دعوا الى الجزية فرجعوا وأقروا بها وأرسل مجاشع بن مسعود السلمي بالبشارة والاخماس الى عمر رضي الله عنه

ذكر فتح اصطخر وجور وغيرهما ﴾

في سنة ثلاث وعشرين قصد عثمان بن أبي العاص الثقفي اصطخر وكان عمر رضي الله عنه عقد له وهو صاحب أحد عقد الالوية لمن أذن لهم في الانسياح الى بلاد فارس فالتقى عثمان هو وأهل اصطخر بجور فقتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ثم اصطخر وقتلوا ما شاء الله ثم فر منهم من فر فدعاهم عثمان الى الجزية والذمة فاجابه الهربذ اليها فتراجعوا وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها الى عمر وقسم الباقي في الناس وفتح عثمان كيزرون والنوبندجان وغلب على أرضها وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وأرجان وفتح سينيز على الجزية والخراج وقصد عثمان أيضا جنابا ففتحها ولقيه جمع

الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها ثم ان شهرك خلع الطاعة في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فوجه اليه عثمان بن أبي العاص ابنه وأتته الامداد من البصرة وأميرهم عبيد الله بن معمر وشبل بن معبد فالتقوا بارض فارس فقال شهرك لابنه وهما في المعركة و بينهما وبين قرية شهرك ثلاثة فراسخ وتسمى القرية أيضاً شهرك يابني أين يكون غداؤنا ههنا أم بشهرك قال له ياأبت ان تركونا فلا يكون غداؤنا ههنا ولا بشهرك ولا يكون الا في المنزل وما أراهم يتركوننا فما فرغا من كلامهما حتى شب المسلمون الحرب فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل شهرك وابنه وخلق كثير والذى قتل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو عثمان وقيل قتله سوار بن همام العبدى حمل عليه فطعنه فقتله وحمل ابن شهرك على سوار فقتله وحوصر الفرس بمدينة سابور فصالح عليها ملكها ازرنبان وكان في جيوش المسلمين أبو صفرة والد المهلب قيل ان عبد الله بن معمر أمير الامداد التى جاءت لهذا الجيش من البصرة بلغه ان ازرنبان يريد الغدر به فقال له أحب ان تتخذ لاصحابى طعاما وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التى تليني فانى أحب ان أتمشش العظام ففعل وجعل يأخذ العظم الذى لايكسر الا بالفؤس فيكسره بيده ويأخذ مخه وكان من أشد الناس فقام ازرنبان وقبل قدمه وقال هذا مقام العائذ بك وأعطاه عهدا

﴿ ذكر فتح فساودار ابجرد ﴾

قد تقدم ان عمر رضى الله عنه لما عقد ألوية لمن أذن لهم في الانسياح في بلاد فارس عقد لواء لسارية بن زنيم الكنانى على فساودارابجرد في سنة ثلاث وعشرين فسار حتى انتهى اليهم فنزل عليهم وحاصرهم ماشاء الله ثم انهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت اليهم اكرادفارس فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير وأتاهم الفرس من كل جانب فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار فنادى من الغد الصلاة جامعة حتى اذا كان في الساعة التى رأى فيها مارأى خرج اليهم وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء ان أقاموا فيها أحيط بهم وان استندوا الى جبل خلفهم لم يؤتوا الا من وجه واحد فقام عمر على المنبر فقال ياأيها الناس انى رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما وصاح عمر وهو يخطب ياسارية بن زنيم الجبل ياسارية الجبل ثم أقبل على الناس فقال ان لله جنودا ولعل بعضها ان تبلغهم فسمع سارية ومن معه الصوت فلجؤا الى الجبل ثم قاتلوهم فهزمهم الله تعالى كذا في الكامل لابن الاثير وهذه القصة رواها كثير من أئمة الحديث بأسانيد صحيحة منهم البيهقى وأبو نعيم وابن مردويه واللالكاى وابن الاعرابى والخطيب بألفاظ متعددة

والمعانى متقاربة فنها رواية لابن عمر قال وجه عمر جيشا ورأس عليهم رجلا يدعى سارية فبينما عمر يخطب جعل ينادى ياسارية الجبل ثلاثا ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال ياأمير المؤمنين هزمنا فبينا نحن كذلك اذ سمعنا صوتا ينادى ياسارية الجبل ثلاثا فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزمهم الله تعالى فان قيل لعمر انك تصيح بذلك وذلك الجبل الذى كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم وفي رواية لابن عمر أيضاً كان عمر يخطب يوم الجمعة فعرضه في خطبته ان قال ياسارية الجبل من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال لهم على رضى الله عنه ليخرجن مما قال فلما فرغ سألوه فقال وقع في خلدى ان المشركين هزموا اخواننا وانهم يمرون بجبل فان عدلوا اليه قاتلوا من وجه واحد وان جازوا هلكوا فخرج منى ما تزعمون انكم سمعتموه فجاء البشير بعد شهر فذكر انهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم قال فعدلنا الى الجبل ففتح الله علينا وفي رواية عن عمرو بن الحارث قال بينا عمر يخطب يوم الجمعة اذ ترك الخطبة فقال ياسارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن انه لمجنون فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن اليه فقال انك لتجعل لهم على نفسك مقالا بينا أنت تخطب اذ أنت تصيح ياسارية الجبل أى شئ هذا قال انى والله ماملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم املك ان قلت ياسارية الجبل ليلحقوا بالجبل فلبثوا الى ان جاء رسول سارية بكتابه وفيه ان القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى اذا حضرت الجمعة سمعنا مناديا ينادى ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم فقال أولئك الذين طعنوا عليه دعوا هذا الرجل فانه مصنوع له انتهى وأصاب المسلمون في مغانمهم مع سارية سفطا فيه جوهر فاستوهبه منهم سارية وبعث به الى عمر فقدم الرسول على عمر وهو يطعم الطعام فامره فجلس وأكل فلما انصرف عمر تبعه الرسول فظنه عمر انه لم يشبع فامره فدخل بيته فلما جلس أتى عمر بغدائه خبز وزيت وملح جريش فأكلا فلما فرغا قال الرجل أنارسول سارية ياأمير المؤمنين قال مرحباً وأهلاً ثم أدناه حتى مس ركبته وسأله عن المسلمين فأخبره بقصة السفط فنظر اليه وصاح به لاولا كرامة حتى يتقدم على ذلك الجند فيقسمه بينهم فطرده فقال ياأمير المؤمنين انى قد انضيت جملى واستقرضت في جائزتى فاعطنى ماأتبلغ به فما زال به حتى أبدله بعيرا من ابل الصدقة وجعل بعيره في ابل الصدقة ورجع الرسول منصوباعليه محروما وسأل أهل المدينة الرسول هل سمعوا شيأ يوم الوقعة قال نعم سمعنا ياسارية الجبل

الخيل وقد كدنا نهلك فلجأنا اليه ففتح الله علينا

﴿ ذكر فتح كرمان ﴾

كان سهيل بن عدى قد عقد له عمر لواء على كرمان مع الالوية التى عقدها فأمره في هذه السنة أعنى سنة ثلاث وعشرين بالمسير الى كرمان فسار ولحقه عبدالله بن عبدالله بن عتبان وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقفص فاقتتلوا في أدانى أرضهم ففض الله تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق وقتل النسير بن عمرو العجلى مرزبانها فدخل النسير من قبل طريق القرى اليوم الى جيرفت وعبد الله بن عبدالله من مفازة سير فأصابوا ما أرادوا من بعير أو شاة فقوموا الابل والغنم فتحاصوها بالأثمان لعظم البخت على العرب وكرهوا ان يزيدوا وكتبوا الى عمر بذلك فاجابهم اذا رأيتم ان في البخت فضلا فزيدوا

﴿ ذكر فتح سجستان ﴾

كان عاصم بن عمرو قد عقد له عمر لواء على سجستان مع الالوية التى عقدها فامره في هذه السنة بالمسير اليها فسار ولحقه عبد الله بن عمير فاستقبلهم أهلها فالتقوا هم وأهل سجستان في أدانى أرضهم فهزمهم المسلمون ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان ثم انهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الارضين فاعطوا وكانوا قد اشترطوا في صلحهم ان فدافدها حمى فكان المسلمون يتجنبونها خشية ان يصيبوا منها شيأ فيخفروا ثم أهل سجستان على الخراج وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجا يقاتلون لقندهار والترك وأمما كثيرة

﴿ ذكر فتح مكران بضم الميم وسكون الكاف ﴾

كان الحكم بن عمرو التغلبي قد عقد له عمر لواء على مكران مع الالوية التى عقدها فامره في هذه السنة بالمسير اليها فسار حتى انتهى اليها ولحقه شهاب بن المخارق وسهيل بن عدى وعبدالله بن عبد الله بن عتبان فانتهوا الى دوين النهر وأهل مكران على شاطئه فاستمد ملكهم ملك السند فامده بجيش كثيف فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقتل منهم في المعركة مقتلة عظيمة واتبعهم المسلمون يقتلونهم أياما حتى انتهوا الى النهر ورجع المسلمون الى مكران فاقاموا بها وكتب الحكم الى عمر بالفتح وبعث اليه بالاخماس مع صحار العبدى فلما قدم المدينة سأله عمر عن مكران فقال يا أمير المؤمنين هى أرض سهلها جبل وماؤها وشل وتمرها دقل وعدوها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وماوراءها شر منها فقال أسجاع أنت أم مخبر لا والله لا يغزوها جيش لى أبدا وكتب الى سهيل والحكم

ابن عمرو ان لايجوزن مكران أحد من جنودهما وأمرهما ببيع الفيلة التي غنمها المسلمون ببلاد الاسلام وقسم أثمانها على الغانمين

﴿ ذكر فتح بيروذ والاهواز ﴾

لما فصلت الخيول الى الكور اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الاكراد وغيرهم وكان عمر قد عهد الى أبي موسى ان يسير الى أقصى ذمة البصرة حتى لايؤتى المسلمون من خلفهم وخشي ان يهلك بعض جنوده أو يخلفوا في أعقابهم فاجتمع الاكراد ببيروذ وأبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ثم سار فنزل بهم ببيروذ فالتقوا في رمضان بين نهرتيرى ومناذر فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقبل القوم وعزم أبو موسى على الناس فافطروا وتقدم المهاجر وقاتل قتالا شديدا حتى قتل ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقده فرق له ابو موسى فاستخلفه عليهم في جند وخرج أبو موسى حتى بلغ اصبهان واجتمع بها بالمسلمين الذين يحاصرون جيا فلما فتحت رجع أبو موسى الى البصرة وفتح الربيع بن زياد الحارثي بيروذ من نهرتيرى وغنم ما معهم

﴿ ذكر خبر سلمة بن قيس الاشجعي والاكراد ﴾

كان عمر رضي الله عنه اذا اجتمع اليه جيش من المسلمين أمر عليهم أميرا من أهل العلم والفقه فاجتمع اليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الاشجعي فقال سر باسم الله قاتل في سبيل الله من كفر بالله فاذا لقيتم عدوكم فادعوهم الى الاسلام فان أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الفيء نصيب وان ساروا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم وان أبوا فادعوهم الى الجزية فان أجابوا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم وان تحصنوا منكم وسألوكم ان ينزلوا على حكم الله ورسوله أو ذمة الله ورسوله فلا تجيبوهم فانكم لاتدرون أتصيبون حكم الله ورسوله وذمتهما أم لا ولا تغدروا ولاتقتلوا وليدا ولا تمثلوا فساروا حتى لقوا عددا من الاكراد المشركين فدعوهم الى الاسلام والجزية فلم يجيبوا فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فقسمه بينهم ورأى سلمة جوهرا في سفط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به الى عمر فقدم الرسول بالبشارة وبالسفط على عمر فسأله عن أمور الناس وهو يخبره حتى أخبره بالسفط فغضب غضبا شديدا وأمر به فوجئ به في عنقه ثم قال ان تفرق الناس قبل ان تقدم عليهم ويقسمه سلمة فيهم لاسوءنك فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته

عشرون ألفا وفي هذه السنة غزا معاوية الروم وفتح عسقلان صلحا الى هنا انتهت الفتوحات التي كانت في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستشهد عمر رضى الله عنه لاربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وقصة استشهاده مشهورة لاحاجة الى الاطالة بذكرها* أخرج أبو يعلى عن عمار ابن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل آنفا فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه مانفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما وربما ان العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضى الله عنه لكن من كان ذا بصيرة وأمعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل في نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للاسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الاسلام في ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التي فتحها الله على يديه حتى كثر العلم واتسع الاسلام وكثر المسلمون يتضح له ان كل خير وقع لاهل الاسلام منذ خلافة عمر رضى الله عنه الى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضى الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك شئ كثير لايمكن ضبطه ولا احصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح في قومه*وأخرج عبد الله بن الامام أحمد في زوائد المسند عن أنس بن مالك رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لارجو لامتى في حبهم لابى بكر وعمر ما ارجو لهم في قول لااله الا الله*وأخرج أبوذر الهروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان وهذا مثل ما قال صلى الله عليه وسلم في حق على رضى الله عنه وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلى رضى الله عنهما كان مع الحق ولهذا كان على رضى الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله في زمن خلافتهم ولم ينازع أحدا منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع في ذلك قاتل من نازعه فلا يصح ان ينسب اليه ان سكوته في زمن الخلفاء الثلاثة كان تقية حاشاه الله من المحاباة في دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر الفتوحات في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ﴾

كانت البيعة لعثمان رضى الله عنه في أوائل المحرم سنة أربع وعشرين فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عملا بقول عمر رضى الله عنه أوصى الخليفة بعدى ان يستعمل سعدا فانى لم أعزله عن سوء ولا خيانة فكان أول عامل

بعثه عثمان رضى الله عنه

﴿ ذكر خلاف أهل الاسكندرية ﴾

في سنة خمس وعشرين خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك ان الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لايمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم الى ذلك فسار اليه من القسطنطينية جيش كثير وعليهم منويل الخصى فأرسوا بها واتفق معهم من بها من الروم ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صلحه فلما بلغ الخبر الى عمرو بن العاص سار اليهم وسار الروم اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون الى ان دخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصى وكان الروم لما خرجوا من الاسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص ان الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة فرد عليهم ماعرفوا من أموالهم بعد اقامة البينة وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور وفي هذه السنة بلغ سعد بن أبى وقاص عن أهل الرى عزم على نقض العهد فارسل اليهم واصلحهم وغزا الديلم ثم انصرف

﴿ ذكر صلح أهل ارمينية واذربيجان ﴾

في هذه السنة نقضت أهل اذربيجان فامر عثمان رضى الله عنه الوليد بن عقبة بن أبى معيط ان يغزوهم وكان على الكوفة لان سعد بن أبى وقاص اختصم مع عبد الله بن مسعود فستحسن عثمان رضى الله عنه ان يعزل سعدا قطعا للنزاع فعزله وولاها الوليد فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيل الأحمسى فاغار على أهل موقان والبير والطيلسان ففتح وغنم وسبى فطلب أهل كور اذربيجان الصلح فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم وقبض المال وبث السرايا وبعث سلمان بن ربيعة الباهلى الى أهل ارمينية في اثنى عشر ألفا فسار في ارمينية يقتل ويسبى ويغنم ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل ثم أتى الحديثة فنزلها فاتاه بها كتاب عثمان فيه ان معاوية بن أبى سفيان كتب الى يخبرنى ان الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة وقد رأيت ان يمدهم اخوانهم من أهل الكوفة فابعث اليهم رجلا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذى يأتيك كتابى فيه والسلام فقام الوليد

في الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي فانتدب معه ثمانية آلاف فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم فشنوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ماشاؤا من الغنائم وافتتحوا حصونا كثيرة وقيل ان الذى أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص وكان على الكوفة بعد عزل الوليد وكان سبب ذلك ان عثمان كتب الى معاوية ان يغزى حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية وهي غير التى باذربيجان بالعراق فوجهه اليها فأتى قالى قلا فحصرها وضيق على من بها فطلبوا الامان على الجلاء أو الجزية فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم وأقام حبيب بها فيمن معه شهرا ثم بلغه ان بطريق ارميناقس وهى البلاد التى صارت بعد بيد أولاد السلطان قلج ارسلان السلجوقى وهى ملاطية وسيواس واقسراى وقونيه وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية قد توجه نحوه في ثمانين ألفا من الروم واسم القس المذكور الموريان فكتب حبيب الى معاوية يخبره فكتب معاوية الى عثمان فارسل عثمان الى سعيد بن العاص يأمره بامداد حبيب فامده بسلمان في ستة آلاف واجمع حبيب على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية فقالت أين موعدك فقال سرادق الموريان ثم بيتهم فقتل من وقف له ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته اليه فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق ولما انهزمت الروم عاد حبيب الى قالى قلا ثم سار منها ونزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم بأمان البطريق المذكور فأجراه عليه وحمل اليه البطريق ما عليه من المال ونزل حبيب خلاط ثم سار منها فلقيه صاحب مكس وهى من البسفرجان فقاطعه على بلاده ثم سار منها الى ازدشاط وهى القرية التى يكون منها القرمز الذى يصبغ به فنزل على نهر دبيل وسرح الخيول اليها فحصرها فتحصن أهلها فنصب عليهم منجنيقا فطلبوا الامان فأجابهم اليه وبث السرايا فبلغت خيله ذات اللجم وانما سميت ذات اللجم لأن المسلمين أخذوا لجم خيولهم فكبسهم الروم قبل ان يلجموها ثم ألجموها فقاتلوهم فظفروا بهم ووجه سرية الى سراج طير وبغروند فصالحه بطريقهما على اناوة فقدم عليه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وأتى السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح فصالحه وسار الى تفليس فصالحه أهلها وهي من جرزان وفتح عدة حصون تجاورها صلحا وسار سلمان بن ربيعة الباهلي الى اران ففتح البيلقان صلحا على ان أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية والخراج ثم أتى سلمان مدينة برذعة فعسكر على

الترثور نهر بينه وبينهـا نحو فرسخ فقاتله أهلها أياما وشن الغارات في قراها فصالحوه على مثل صلح البيلقان ودخلها ووجه خيله ففتحت رساتيق الولاية ودعا أكراد البلاشجان الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فاقر بعضهم على الجزية وأدى بعضهم الصدقة وهم قليل ووجه سرية الى شمكور ففتحوها وسار سلمان الى مجمع ارس والكر ففتحه وصالحـه صاحب سكر وغيرها على الاتاوة وصالحه ملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب وهي غير التي في العراق وهذه بقرب حلب

ذكر غزوة معاوية الروم

في هذه السنة سنة ٢٥ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية وهي المسماة بروسافوجد الحصون التي بين انطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهـل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ونـا خرج هدم الحصون الى انطاكية

ذكر غزوة افريقية

في هذه السنة سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى أطراف افريقية غازيا بامر عثمان وكان عبـد الله من جند مصر فلما سار اليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبد الله كتب الى عثمان يستأذنه في غزو افريقية فاذن له في ذلك

(ذكر غزوة كابل)

في هذه السنة أرسل عثمان رضي الله عنه عبد الله بن عامر الى كابل وهي عمالة سجستان فبلغها في قول فكانت أعظم من خراسان حتى مت معاوية فامتنع أهلها

(ذكر فتح افريقية)

كان ذلك في سنة ست وعشرين قد تقدم ان عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان رضي الله عنه في غزو افريقية فاذن له وقال له ان فتح الله عليـك فلك من الفيء خمس الخمس نفلا وأمر عثمان عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارس على جند وسرحهما وأمرهما بالاجتماع مع عبـد الله بن أبي سرح على صاحب افريقية فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض افريقية وكانوا في جيش كثير عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدموا على دخول افريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها ثم ان عثمان ولى عبد الله بن أبي سرح مصر فارسل الى عثمان يستأذنه في غزو افريقية والاستكثار من الجموع فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فاشار أكثرهم بذلك فجهز

اليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عباس وغيره فسار بهم عبد الله بن أبي سرح الى افريقية فلما وصلوا الى برقة لقيهم عبد الله بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا الى طرابلس الغرب فنهبوا من عندها من الروم وساروا نحو افريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس الى طنجة وكان هرقل ملك الروم قد ولاه افريقية فهو يحمل الخراج اليه كل سنة فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فاقاموا هناك يقتتلون كل يوم وراسله عبد الله بن أبي سرح يدعوه الى الاسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبد الله بن الزبير في جماعة اليهم ليأتيه باخبارهم فسار مجدا ووصل اليهم وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففت ذلك في عضده ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة الى الظهر فاذا أذن الظهر عاد كل فريق الى خيامه وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل انه سمع منادى جرجير يقول من قتل عبد الله بن أبي سرح فله مائة ألف دينار وازوجه ابنتي وهو يخاف على جيش المسلمين ان قتل فحضر عنده عبد الله بن الزبير وقال له تأمر مناديا ينادى من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله ثم ان عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن أبي سرح ان أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم وقد رأيت ان نترك غدا جماعة صالحة من ابطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر الى ان يضجروا ويملوا فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فاحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم الى الظهر قتالا شديدا فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا فعند ذلك أخذ عبدالله بن الزبير من كان مستريحا

من شجعان المسلمين وقصدالروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله عبدالله ابن الزبير وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سبية وأعطيت لعبد الله بن الزبير مع مائة الف ونازل عبدالله بن أبي سرح المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الاموال مالم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرا الى حصن الاجم وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالامان فصالحه أهل افريقية على الفي الف وخمسمائة ألف دينار وأرسل الى عثمان بالبشارة بفتح افريقية ثم عاد عبدالله بن أبي سرح الى مصر وكان مقامه بافريقية سنة وثلاثة أشهر ولم يفقد من المسلمين سوى ثلاثة منهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر فدفن هناك

﴿ ذكر انتقاض افريقية وفتحها ثانية ﴾

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدى اليه كل ملك من ملوك النصارى الخراج من مصر وافريقية واندلس وغير ذلك فلما صار ملك افريقية للمسلمين أرسل هرقل بعد مدة الى أهلها بطريقا وأمر أن يأخذ منهم مثل ماأخذ المسلمون فنزل البطريق في قرطاجنة وجمع النصارى الذين في افريقية وأخبرهم بما أمره الملك فأبوا عليه وقالوا نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا وقد كان ينبغي له ان يسامحنا لما ناله المسلمون منا وكان قدقام بامر افريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة وتغلب الروم على افريقية فسار ذلك الرجل الى الشام و به معاوية وقد استقر له الامر بعد قتل علي رضى الله عنه فوصف له افريقية وطلب ان يرسل معه جيشا فسير معه معاوية بن خديج السكوني فوصل الى افريقية وهي نار تضطرم ومعه عسكر عظيم فنزل عند قمونية وأرسل البطريق اليه ثلاثين الف مقاتل فلما سمع بهم معاوية بن خديج سير اليهم جيشا من المسلمين فقاتلوهم فانهزم الروم وحصر حصن جلولا فلم يقدر عليه فانهدم الحصن فملكه المسلمون وغنموا مافيه وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد الى مصر

﴿ ذكر غزوة الاندلس ﴾

لما افتتحت افريقية في خلافة عثمان رضى الله عنه أمر عثمان رضى الله عنه عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس ان يسيرا الى الاندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان الى من انتدب معهما أما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل

الاندلس فخرجوا ومعهم البربر ففتح الله على المسلمين فتوحات كثيرة من أراضى افريقية وزاد في سلطان المسلمين مثل افريقية وأما الاندلس فلم تفتح الا في خلافة الوليد بن عبد الملك كما سيأتى ان شاء الله

ذكر غزوة قنسرين

وفي سنة سبع وعشرين غزا معاوية قنسرين فقتل وسبى وغنم ورجع وفي سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية

ذكر فتح قبرس في خلافة عثمان رضى الله عنه غزاها معاوية سنة ٢٨

وكان معه جماعة من الصحابة منهم أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام وكان معاوية قد استأذن عمر رضى الله عنه ان يغزو في البحر فلم يأذن له خوفا على المسلمين من ركوب البحر فلما كانت خلافة عثمان رضى الله عنه استأذن وألح عليه فاذن له وقال لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ففعل وسار المسلمون من الشام الى قبرس وسار عبد الله بن أبى سرح من مصر فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة بعد قتل وسبى كثير في قبرس ويؤدون مثلها لملك الروم وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الانصارية ألقتها بغلتها بجزيرة قبرس فاندقت عنقها فماتت تصديقا للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أخبرها أنها في أول من يغزو في البحر كما في صحيح البخارى

ذكر انتقاض أهل فارس

في سنة تسع وعشرين انتقض أهل فارس فسار اليهم عبيد الله بن معمر فالتقوا على باب اصطخر فقتل عبيد الله وانهزم المسلمون وبلغ الخبر عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة ابن حبيب بن عبد شمس وكان على البصرة بعد عزل أبى موسى وكان لعبد الله بن عامر صحبة فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس فالتقوا باصطخر واشتد القتال فانهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة وفتحت اصطخر عنوة وأتى دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها وسار الى مدينة جور فانتقضت اصطخر فلم يرجع وتمم السير الى جور وحاصرها الى ان فتحها وكان سبب فتحها ان بعض المسلمين قام يصلى ذات ليلة والى جانبه جراب له فيه خبز ولحم فجاء كلب فجره وغدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفى فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة فلما فرغ منها ابن عامر عاد الى اصطخر وفتحها عنوة بعد ان حاصرها واشتد القتال عليها ورميت بالمجانيق وقتل بها خلقا كثيرا من

الاعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة وكانوا قد لجؤا اليها

﴿ ذكر غزوة سعيد بن العاص طبرستان ﴾

في سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص طبرستان وكان على الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة وكان أهل طبرستان في خلافة عمر صالحوا سويد بن مقرن على مال بذلوه ثم نقضوا فغزاهم سعيد بن العاص ومعه الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيدا ونزل نيسابور ونزل سعيد قومس وأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف ثم أتى طميسة فقاتله أهلها وضرب سعيد يوما رجلا بالسيف على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه فسألوه الامان فاعطاهم وفتح أيضاً نامية وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مددا لعبد الرحمن بن ربيعة وفي هذه الغزوة رأى حذيفة اختلافا كثيرا بين الناس في القرآن فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن في المصاحف ففعل وقصة ذلك مشهورة لاحاجة لذكرها

﴿ ذكر غزوة الصوارى ﴾

في سنة احدى وثلاثين غزا معاوية الصوارى وسببها ان المسلمين لما أصابوا من أهل افريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله منذ كان الاسلام فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى أهل مصر عبدالله بن أبي سرح على طريق البحر وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فارسى المسلمون والروم وسكنت الريح فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤن القرآن ويصلون ويدعون والروم يضربون بالنواقيس وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم مالا يحصى وصبر الفريقان صبرا لم يصبروا في موطن قط مثله ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم الا الشريد وسار قسطنطين الى صقلية فسأله أهلها عن حاله فاخبرهم فقالوا أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ولو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه وأذنوا لهم في المسير الى القسطنطينية

﴿ ذكر مقتل يزدجرد بن شهريار ملك الفرس ﴾

في سنة احدى وثلاثين كان مقتل يزدجرد واختلف في كيفية قتله اختلافا كثيرا وكان قد

هرب من فارس الى خراسان ولم يزل المسلمون يتبعونه ويقفون أثره من مدينة الى مدينة وهو يهرب ثم بيته جماعة من الترك فقتلوه وقيل نام عند رجل ينقر الارحاء فقتله وقيل غير ذلك وكان ملكه عشرين سنة منها أربع سنين في دعة وست عشرة في تعب من محاربة العرب اياه وغلظهم عليه وكان آخر من ملك من آل ازدشير بن بابك وصفا الملك بعد للعرب

﴿ ذكر مسير عبد الله بن عامر الى خراسان وفتحها ﴾

لما قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نقض أهل خراسان وغدروا فلما افتتح ابن عامر فارس قام اليه حبيب بن أوس التميمى فقال له أيها الامير ان الارض بين يديك ولم يفتح منها الا القليل فسر فان الله ناصرك قال أولم نؤمر بالمسير وقيل ان الاحنف بن قيس قال له ان عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فان الله ناصرك ومعز دينه فسار الى كرمان واستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمى وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها وكانوا قد نكثوا أيضاً واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحارثى وكانوا أيضاً قد نقضوا الصلح وغدروا ثم سار ابن عامر الى نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلهما على ستمائة الف درهم وبعث سرية الى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرز من أعمال نيسابور أيضاً وفتح جوين من أعمال نيسابور أيضاً ووجه الاسود بن كلثوم العدوى الى بيهق من أعمالها أيضاً فقصد قصبته ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه ودخلت معه طائفة من المسلمين فاخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الاسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه وقام بأمر الناس بعده أخوه ادهم بن كلثوم فظفر وفتح بيهق وكان الاسود يدعو الله ان يحشره في بطون السباع والطير فلم يواره أخوه ودفن من استشهد من أصحابه وافتتح ابن عامر في هذه الغزوة بشت من نيسابور وهذه بشت بالشين المعجمة وليست ببست التى بالسين المهملة فان تلك من بلاد الداون وهذه من خراسان من نيسابور وافتتح أيضاً خواف واسفراين وارغيان ثم قصد نيسابور بعد مااستولى على اعمالها وافتتحها فحصر أهلها شهرا وكان على كل ربع منها مرزبان للفرس يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الامارة على ان يدخل المسلمين المدينة فاجيب الى ذلك فادخلهم ليلا ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الاكبر في حصنها ومعه جماعة وطلب الامان والصلح على جميع نيسابور فصالحه على الف الف درهم وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمى وسير جيشا الى نسا وابيورد فافتتحوها صلحا وسير سرية أخرى الى سرخس مع عبد الله بن خازم السلمى فقاتلوا أهلها ثم طلبوا الامان

والصلح على أمان مائة رجل فاجيبوا الى ذلك فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله عبدالله ودخل سرخس عنوة وأتى مرزبان طوس الى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم وسير جيشا الى هراة عليهم عبد الله بن خازم فبلغ مرزبان هراة ذلك فسار الى ابن عامر فصالحه عن هراة وباذغيس وبوشنج وقيل بل سار ابن عامر فى الجيش الى هراة فقاتله أهلها ثم صالحه مرزبانها على الف الف درهم ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل اليه مرزبان مرو فصالحه على الفى ألف ومائتى الف درهم وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلى الى مرزبانها وكانت مرو كلها صلحا الا قرية منها يقال لها شنج فانها أخذت عنوة ووجه ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فمر برستاق يعرف بعد ذلك برستاق الاحنف ويدعى سواجرد فحصر أهلها فصالحوه على ثلثمائة الف درهم فقال الاحنف أصالحكم على ان يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف فرضوا بذلك ومضى الاحنف الى مرو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب الى الاحنف أنه دعانى الى الصلح اسلام باذان فصالحه على ستمائة الف وسير الاحنف سرية فاستولت على رستاق بغ واستاقت منه مواشى ثم صالحه أهلها وجمع له أهل طخارستان فاجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم في خلق كثير فالتقوا واقتتلوا وحمل ملك الصغانيان على الاحنف فانتزع الاحنف الرمح من يده وقاتل قتالا شديدا فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا كيف شاؤا وعاد الى مرو الروذ ولحق بعض العدو بالجوزجان فوجه اليهم الاحنف الاقرع بن حابس التميمى في خيل وقال يابنى تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم وابدؤا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم فسار الاقرع فلقى العدو بالجوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة وفتح الاحنف الطالقان صلحا وفتح الفارياب ثم سار الاحنف الى بلخ وهى مدينة طخارستان فصالحه أهلها على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة ألف واستعمل على بلخ أسيد بفتح الهمزة بن المتشمس ثم سار الى خوارزم وهى على نهر جيحون فلم يقدر عليها فاستشار أصحابه فقال له حضين بالضاد المعجمة بن المنذر قال عمرو بن معدى كرب

اذا لم تستطع شيأ فدعه   وجاوزه الى ماتستطيع

فعاد الى بلخ وقد قبض أسيد صلحها ولما تم لابن عامر هذا الفتح قال له الناس مافتح لاحد مافتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لاجرم لاجعلن شكرى

لله تعالى على ذلك ان أخرج محرما من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم فسار قيس بعد شخوصه في أرض طخارستان فلم يأت بلدا منها الا صالحه أهلها وأذعنوا له حتى أتى سمجان فامتنعوا عليه فحصرهم حتى فتحها عنوة

﴿ ذكر فتح كرمان ﴾

لما سار ابن عامر عن كرمان الى خراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمي على كرمان أمره ان يفتحها وكان أهلها قد نكثوا وغدروا ففتح هميد عنوة واستبقى أهلها وأعطاهم أمانا وبنى بها قصرا يعرف بقصر مجاشع وأتى السيرجان وهي مدينة كرمان فاقام عليها أياما يسيرة وأهلها متحصنون وفتحها عنوة فجلا كثير من أهلها عنها وفتح جيرفت عنوة وسار في كرمان فدوخ أهلها وأتى القفص وقد تجمع له خلق كثير من الاعاجم الذين جلوا فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران وبعضهم بسجستان فاقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى في مواضع منها وأدوا العشر

﴿ ذكر فتح سجستان وكابل وغيرهما ﴾

قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب ثم ان أهلها نقضوا بعده فلما توجه ابن عامر الى خراسان سير اليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثي فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق فأغار على أهله يوم مهرجان وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بان غرز عنزة وغمرها ذهبا وفضة وصالحه على صلح فارس ثم أتى بلدة يقال لها كركويه فصالحه أهلها وسار الى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم المشركون وقتل منهم مقتلة عظيمة وأتى الربيع ناشروذ ففتحها ثم أتى شروان فغلب عليها وسار منها الى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم فارسل اليه مرزبانها ليصالحه واستأمنه على نفسه ليحضر عنده فأمنه وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى واتكأ على آخر وأمر أصحابه ففعلوا مثله فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على الف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ودخل المسلمون المدينة ثم سار منها وأتى القرية التي بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم ثم عاد الى زرنج وأقام بها نحو سنة وعاد الى ابن عامر واستخلف عليها عاملا فاخرج أهلها العامل وتمنعوا فكانت ولاية الربيع سنة ونصفا وسبى فيها أربعين الف رأس وكان كاتبه الحسن البصري فاستعمل

ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على الفي الف درهم والفي وصيف وغلب عبد الرحمن مابين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على مابينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداون حصرهم في جبـل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما أردت ان أعلمك أنه لايضر ولا ينفع وفتح كابل وزابلستان وهي ولاية غزنة ثم عاد الى زرنج فاقام بهـا ثم استخلف عليهـا أمير بن احمر اليشكرى وانصرف فاخرج أهلها أمير بن احمر وامتنعوا

غزوة مضيق القسطنطينية

في سنة اثنتين وثلاثين غزا معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينية فقتل وسبى وغنم ورجع

(ذكر غزوة بلنجر)

لمـا تتابعت الغزوات على الخزر والترك تذامروا وقالوا كنا لايقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الامة القليلة فصرنا لانقوم لهـا فقال بعضهم ان هؤلاء لايموتون وما أصيب منهم أحد في غزوهم وكان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحـد فلهذا ظنوا انهم لايموتون فقال بعضـهم افلا تجربون فكمنوا لهم في الغياض فمر بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رؤسهم على حربهم ثم اتعدوا يوما وكان عثمان قد كتب الى عبد الرحمن ابن ربيعة وهو على الباب ان الرعية قد أبطرها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فانى اخشى ان يقتلوا فلم يرجع عبد الرحمن عن مقصده فغزا نحو لنجر وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالا شديدا وقتل عبد الرحمن وكان يقال له ذو النون وهو اسم سيفه فأخذ أهل بلنجر جسده فجعلوه في تابوت فهم يستسقون به فلما قتل وقتل كثير ممن معه انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقة نحو الباب فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن كان قد سيره سعيد بن العاص مددا للمسلمين بأمر عثمان فما لقوه نجوا معه وفرقة نحو جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة

(ذكر خروج الترك مع ملكهم قارن)

في سـنة ثنتين وثلاثين خرجت جموع من الترك من ناحية خراسان في أربعين الفا عليهم قارن من ملوكهم فانتهى الى الطبسين واجتمع له أهل بادغيس وهراة وقهستان وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمى استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه الى مكة محرما

فدوخ جهتها وكان معه ابن عمه عبدالله بن خازم فقال لابن عامر أكتب لى على خراسان عهدا اذا خرج منها قيس ففعل فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن خازم ماترى قال أرى ان تخرج من البلاد فان عهد ابن عامر عندى بولايتها فترك منازعته وذهب الى ابن عامر وقيل أشار عليه ان يخرج الى ابن عامر يستمده فلما خرج اشهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس وسار ابن خازم للقاء الترك في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك فلما قرب من قارن أمر الناس ان يدرج كل رجل منهم على زج رمحه خرقة أو قطنا ثم يكثروا دهنه ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمائة ثم اتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النار في أطراف الرماح فانتهت مقدمته الى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتخفض وترفع فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ثم غشيهم ابن خازم وأكثروا القتل في المشركين وقتل ملكهم قارن فانهزم المشركون واتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤا وأصابوا سبيا كثيرا وكتب ابن خازم بالفتح الى ابن عامر فرضي وأقره على خراسان

﴿ غزوة حصن المرأة ﴾

في سنة ثلاث وثلاثين غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملاطية فقتل وسبى وغنم ورجع وفي هذه السنة كانت غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح افريقية الثانية حين نقض أهلها العهد

﴿ ذكر انتقاض أهل قبرس وغزوهم في سنة ٣٣ ﴾

وفي هذه السنة نقض أهل قبرس وأعانوا الروم على الغزو في البحر بمراكب اعطوهم اياها فغزا معاوية أهل قبرس وفتحها عنوة وقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم وبعث اليهم اثنى عشر الفا فبنوا المساجد وبنى مدينة وفي تاريخ جنابى أن في سنة خمس وثلاثين ركب البحر أمير مصر عبدالله بن أبى سرح من الاسكندرية بقصد غزو القسطنطينية فاستقبلهم ملك الروم في ألف مركب وكان المسلمون في مائة مركب فالتقوا باسكلة فنكه مغرب انطاكية فرأى ملك الروم رؤيا عبرت له بتعبير مستخرج من الالفاظ التى رآها فجمعت وخرج منها حروف ترجمتها لاتطلب الغلبة فلم يعمل بمقتضى ذلك بل استهان بالمسلمين وقاتلهم ففتح الله النصر للمسلمين وولى الكفار هاربين فمنهم من غرق في البحر ومنهم من أخذه السيف ومنهم من أسر وغنم المسلمون كثيرا من مراكبهم ورجعوا الى جزيرة رودس وشنوا عليها الغارة وفتحوها في أسرع زمان وضربوا على من فيها الجزية

وأعطوهم الامان

﴿ ذكر فتح رودس في سنة ٣٥ ﴾

وفي تاريخ ابن الاثير ان فتح رودس كان في سنة ثلاث وخمسين في خلافة معاوية فتحها جنادة بن أبي أمية الازدى وسيأتي ذكر ذلك ولعله فتح ثان بعد هذا الفتح انتهت الفتوحات التي كانت في خلافة عثمان رضى الله عنه ثم وقع الاختلاف بين المسلمين في شأن الامراء الى ان قتل عثمان رضى الله عنه شهيدا وقصته مشهورة لا حاجة لنا الى ذكرها وكان استشهاده لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة الا اثنى عشر يوما وقيل الا ثمانية أيام وقيل بل قتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة وقيل ثمانيا وثمانين وقيل تسعين ثم بويع على رضى الله عنه ووقع الاختلاف بين الصحابة رضى الله عنهم في قتلة عثمان وكانوا مجتهدين في طلب الحق فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر واحد فيجب الامساك عما جرى بينهم وتأويله باحسن التأويل وحمله على أحسن المحامل واستمر الحال الى ان استشهد على رضى الله عنه سبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة ومدة خلافته خمس سنين الا ثلاثة أشهر ثم بويع ابنه الحسن رضى الله عنه واستمر ستة أشهر ثم نزل عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنه حقنا لدماء المسلمين وتحقيقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فكان اجماع الصحابة على خلافة معاوية رضى الله عنه سنة احدى وأربعين في ربيع الاول وقيل الآخر وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص وكان على مصر عقبة بن نافع بن عبد قيس على افريقية فانتهى الى لواتة ومزاتة فاطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى ثم افتتح في سنة اثنتين واربعين غدامس فقتل وسبى وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان وافتتح ودان وهى من برقة وافتتح عامة بلاد البربر وهو الذى اختط القيروان سنة خمسين وفي سنة اثنتين وأربعين أيضاً غزا المسلمون اللان وغزوا الروم أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم وفي سنة ثلاث وأربعين غزا بسر ابن أبي ارطاة الروم وشتى بارضهم حتى بلغ القسطنطينية وفيها أعاد معاوية عبد الله بن عامر على ولاية البصرة وجعل اليه ولاية خراسان وسجستان فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن ابن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطى فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه حتى بلغ كابل فحصرها أشهرا ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة

عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ثم سار الى بست ففتحها عنوة وسار الى زران فهرب أهلها وغلب عليها ثم سار الى خشك فصالحه أهلها ثم أتى الرخج فقاتلوه فظفر بهم وفتحها ثم سار الى زابلستان وهي غزنة وأعمالها فقاتله أهلها وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها واستعمل ابن عامر على ثغر السند عبدالله بن سوار العبدى فغزا القيقان فاصاب مغنما ثم غزاهم مرة أخرى فاستنجدوا بالترك فقتلوه وكان كريما لم يوقد أحد في عسكره نارا فرأى ذات ليلة نارا فقال ماهذه قالوا امرأة نفساء يعمل لها الخبيص فامر ان يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام

ذكر غزوة السند

وفي سنة أربع وأربعين دخل المسلمون مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها وغزا بسر بن أبي ارطاة في البحر وغزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بنة والاهواز بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسا من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا وفي سنة ست وأربعين غزا الروم مالك بن عبد الله وشتى في أرض الروم وقيل بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكونى وفي سنة سبع وأربعين كان مشتى مالك بن هبيرة بارض الروم غازيا ومشتى عبد الرحمن القينى بانطاكية وفيها سار الحكم بن عمرو الغفارى وكان على خراسان الى جبال الغور فغزا من بها وكانوا قد ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق فعيي الحكم بالامر فولى المهلب الحرب فلم يزل يحتال حتى أسر عظيما من عظماء الترك فقال له اما ان تخرجنا من هذا المضيق أولاقتلنك فقال له أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الأثقال نحوه فانهم يستجمعون فيه ويخلون ماسواه من الطرق فبادرهم الى طريق أخرى فما يدركونكم حتى تخرجوا منه ففعل ذلك فسلم الناس بما معهم من الغنائم وفي سنة ثمان وأربعين كان على غزو المسلمين الروم في الشتاء عبد الرحمن القينى وفي الصيف عبد الله بن قيس الفزارى وغزا مالك بن هبيرة السكونى البحر وغزا عقبة بن عامر الجهنى باهل مصر البحرين وغزا يزيد بن شجرة الرهاوى باهل الشام في البحر

ذكر غزوة القسطنطينية

في سنة تسع وأربعين وقيل ثمـان وأربعين سير معاوية جيشا كثيفا الى بلاد الروم للغزو وجعل عليهم سفيان بن عوف الازدى وكان في الجيش عبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصارى ويزيد بن معاوية فاوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية واقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا واستشهد أبو أيوب رضى الله عنه ودفن بالقرب من سورها وفي سنة خمسـين أغزا معاوية بسر بن أرطاة وسفيان بن عوف الازدى أرض الروم وأغزا فضالة بن عبيد الله الانصارى في البحر وفي هذه السنة استعمل معاوية عقبة ابن نافع الفهرى على افريقية وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف. فارس فدخل افريقيه وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل اليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى ان يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت اجمة مشتبكة بها شيء كثير من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله تعالى وكان مستجاب الدعوة ومن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها وتنتقل ورأى ذلك كثير من قبائل البربر فأسلموا وقطع الاشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومسا كنهم حتى كان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكان في أثناء عمارة المدينة المذكورة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها وفي سنة احدى وخمسـين كان على غزو المسلمين فضالة بن عبيدة فشتى بالروم وفي الصيف بسر بن أبى أرطاة وفي السنة المذ كورة غزا بلخ الربيع بن زياد والحارث وكان على خراسان ففتحها صلحا وكانت قد نقضت بعد ماصالحهم الاحنف بن قيس وفتح الربيع أيضاً قهستان عنوة وقتل من بناحيتها من الاتراك وبقى منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته وفي سنة ثنتين وخمسين كان على غزو المسلمين الروم سفيان بن عوف و يسر بن أبى ارطاة في الشتاء وفي الصيف محمد بن عبد الله الثقفى وفي سنة ثلاث وخمسين كان على الجيش في الشتاء عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى بالروم وفي هذه السنة فتحت رودس جزيرة في البحر فتحها

جنادة بن أبي أمية الازدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شئ على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم فلما توفي معاوية أقفلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلها وفي سنة أربع وخمسين كان على جيش المسلمين في غزوهم الروم محمد بن مالك شتاء ومعن بن يزيد السلمى صيفا وفي هذه السنة فتح المسلمون جزيرة ارواد قريب القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبي أمية وفي هذه السنة أيضاً استعمل معاوية على خراسان عبيدالله بن زياد فسار الى خراسان فقطع النهر الى جبال بخارى على الابل في جيش وفتح رامنى ونسف وبيكند وهي من بخارى وغنم غنائم كثيرة ولما لقي الترك وهزمهم كان مع ملكهم زوجته فعجلوها عن لبس خفيها فلبست أحدهما وبقي الآخر فأخذه المسلمون فقوم بمائتي ألف درهم وفي سنة خمس وخمسين كان على جيش المسلمين في الغزو شتاء عمرو بن محرز وقيل عبد الله بن قيس الفزارى وفي سنة ست وخمسين كان على جيش المسلمين في غزو الروم جنادة ابن أبي أمية وغزا في البحر يزيد بن شجرة وفي البر عياض بن الحارث وفي هذه السنة استعمل معاوية على خراج خراسان وحربها سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه فلما قدم خراسان قطع جيحون الى سمرقند والصغد وهزم الكفار وفتح ترمذ صلحا وفي سنة سبع وخمسين كان على جيش المسلمين بارض الروم عبد الله بن قيس شتاء وفي سنة ثمان وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم مالك بن عبدالله الخثعمى وفي البحر عمرو بن يزيد الجهنى وقيل جنادة بن ابي أمية وفي سنة تسع وخمسين كان على جيش المسلمين عمرو ابن مرة الجهنى بارض الروم في البر وفي البحر جنادة بن أبي أمية وقيل لم يكن في البحر غزوة هذه السنة وفي هذه السنة غزا المسلمون حصن كمخ من بلاد الروم ومعهم عمير بن الحباب السلمى فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون فكان الفتح بعمير وبذلك كان يفتخر وفي سنة ستين كانت غزوة لمالك بن عبيد الله في سورية وفي السنة المذكورة توفي معاوية رضى الله عنه وفي سنة احدى وستين استعمل يزيد على خراسان سلم بن زياد فقدم خراسان وعبر نهر جيحون وكان معه المهلب بن أبي صفرة وكان مما يلي خوارزم مدينة يجتمع فيها كثير من ملوكهم وكان المسلمون يطالبون امراءهم غزو تلك المدينة فيأبون عليهم فألح المهلب على سلم وسأله التوجه الى تلك المدينة فوجهه في ستة آلاف فحاصرهم فطلبوا ان يصالحهم على ان يفدوا أنفسهم فاجابهم الى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين الف الف وكان في صلحهم يأخذ منهم عروضا فكان يأخذ

الرأس والدابة والمتاع بنصف ثمنه فبلغت قيمة ماأخذ منهم خمسين ألف ألف وغزا سلم سمرقند ووجه جيشا الى خجندة فهزموا واستعمل سلم أخاه يزيدعلى سجستان فغدرأهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد فسار اليهم يزيد بن زياد في جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم كثير فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبد الله الخزاعى وهو طلحة الطلحات ففدى أباعبيدة بن زياد بخمسمائة ألف درهم وسار طلحة من كابل الى سجستان واليا عليها فجبي المال واعطى زواره ومات بسجستان وفيه يقول القائل رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

﴿ ذكر غزو عقبة بن نافع بلاد السوس وكثير من وقائع افريقية ﴾

في سنة ثنتين وستين ترك بالقيروان عقبة بن نافع جندا مع الذرارى والاموال واستخلف بها زهيرابن قيس البلوى وأحضر أولاده فقال انى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأوصى بما يفعل بعده ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديدا وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الى بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها اربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم الى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ورحل الى تاهرت فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فاجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واقتتلوا قتالا شديدا واشتد الامر على المسلمين لكثرة العدو ثم ان الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجه فلقيه بطريق من الروم اسمه بليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سأله عن الاندلس فعظم الامر عليه فسأله عن البربر فقال هم كثيرون لايعلم عددهم الا الله تعالى وهم بالسوس الادنى وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد فسار عقبة اليهم نحو السوس الاقصى وهو مغرب طنجة فانتهى الى أوائل البربر فلقوه في جمع كثير فقتل فيهم قتلا ذريعا وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه وسار هو حتى وصل الى السوس الاقصى وقد اجتمع له البربر في عالم لايحصى فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا وغنموا منهم وسبوا سبيا كثيرا وسار حتى بلغ ماليان ورأى البحر المحيط فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك

ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير وأشرفوا على الهلاك فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الارض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة في الناس فحفروا احسا كثيرة وشربوا فسمي ماء الفرس فلما وصل الى مدينة طبنة و بينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه ان يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من الله وانه لم يبق أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه وأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه ثم أرسل الروم الى كسيلة بن كمرم البربرى ليسرع لقتال عقبة فبادر الى ذلك وكان كسيلة المذكور قد أسلم في مدة امارة أبي المهاجر افريقية قبل عقبة وحسن اسلامه وهو من أكابر البربر وصحب أبا المهاجر فلما ولى عقبة عرفه أبو المهاجر محل كسيلة وأمره باكرامه فلم يقبل عقبة واستخف بكسيلة وأتى عقبة مرة بغنم فامر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤنة فشتمه وأمره بسلخها فقبح أبو المهاجر ذلك عند عقبة فلم يرجع فقال له اوثق الرجل فاني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فاضمر كسيلة الغدر فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا الى كسيلة وأعلموه حاله وكان في عسكر عقبة وقد أضمر الغدر واعلم الروم بذلك وأطمعهم فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر عاجله قبل ان يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه فلما كثر جمعه قاتل عقبة فهزمه فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وأسر محمد بن أوس الانصارى في نفر يسير فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم الى القيروان فعزم زهير بن قيس البلوى على القتال وكان خليفة عقبة بالقيروان فخالفه حنش الصنعاني وعاد الى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير الى العود معهم فسار الى برقة وأقام بها وأما كسيلة فاجتمع اليه جميع من أهل افريقية وقصد افريقية وبها أصحاب الانفال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ودخل القيروان واستولى على افريقية وأقام بها وحصلت الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فلما قوى أمر عبد الملك انفذ الجيوش الى افريقية وكتب الى زهير بن قيس البلوى بولاية افريقية فسار سنة تسع وستين الى افريقية بالجيوش فبلغ خبره الى كسيلة فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال قد رأيت ان أرحل الى ممش فانزلها

فان بالقيروان خلقاً كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف ان قاتلنا زهيرا ان يثبت هؤلاء من ورائنا فاذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيرا فان ظفرنا بهم تبعناهم الى طرابلس وقطعنا أثرهم من افريقية وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه الى ذلك ورحل الى ممش و بلغ ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ثم رحل في طلب كسيلة فلما قاربه نزل وعبى أصحابه وركب اليه فالتقى العسكران واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش وتبع المسلمون الروم والبربر فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا وفي هذه الواقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم وعاد زهير الى القيروان ثم ان زهيرا رأى بافريقية ملكا عظيما فأبى ان يقيم وقال انما قدمت للجهاد فاخاف ان أميل الى الدنيا فاهلك وكان عابدا زاهدا فترك بالقيروان عسكرا وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة ورحل في جمع كثير يريد مصر وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة الى افريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوها فخرجوا اليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبيا كثيرا وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من افريقية الى برقة فاخبر الخبر فامر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه وكان الروم خلقاً كثيرا فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع فباشر القتال واشتد الامر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيرا وأصحابه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد وكان مشغولا بما كان بينه وبين ابن الزبير فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه جهز جيشا كثيرا ثم سيرهم الى افريقية واستعمل عليهم وعلى افريقية حسان بن النعمان الغساني ولم يدخل افريقية قط جيش مثله فلما ورد القيروان تجهز منها وسار الى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك افريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها فلما وصل اليها رأى بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم الى صقلية وبعضهم الى الاندلس فدخل حسان قرطاجنة بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا اليه خوفا فامرهم فهدموا من قرطاجنة ماقدروا عليه ثم بلغه ان الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطفورة وبنزرت وهما مدينتان فسار اليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة

فصبر لهم المسلمون فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ولم يترك حسان موضعا من بلادهم الا وطئه وخافه أهل افريقية خوفا شديدا ولجأ المنهزمون من الروم الى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونة فعادحسان الى القيروان لان الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا فلما صلح الناس قال حسان دلونى على أعظم من بقى من ملوك افريقية فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة وكانت بربرية وهى بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة فسأل أهل افريقية عنها فعظموا محلها وقالوا له ان قتلتها لم تختلف البربر بعد عليك فسار اليها فلما قاربها هدمتَ حصن باغايه ظنا منها انه يريد الحصون فلم يعرج حسان على ذلك وسار اليها فالتقوا على نهر نيني واقتتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر منهم كثير وانهزم حسان ثم انها اطلقت الاسرى سوى خالد بن يزيد القيسى وكان شريفا شجاعا فاتخذته ولدافسار حسانحتى فارق افريقية وأقام وكتب الى عبد الملك بالمقام الى ان يأتيه أمره فأقام بعمل برقة خمس سنين فسمى ذلك المكان قصور حسان الى الآن وملكت الكاهنة افريقية كلها وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم ثم سير اليه عبد الملك الجنود والاموال وأمره بالمسير الى افريقية وقتال الكاهنة فارسل حسان رسوله سرا الى خالد بن يزيد وهو عند الكاهنة بكتاب ليتعلم منه الامور فكتب اليه خالد جوابه في رقعة يعرفه تفرق البربر ويأمره بالسرعة وجعل الرقعة في خبزة وعاد الرسول فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول ذهب ملكهم فيما يأكل الناس فطلب الرسول فلم يوجد فوصل الى حسان وقد احترق الكتاب بالنار فعاد الى خالد وكتب اليه بما كتب أولا وأودعه قربوس السرج فوصل الى حسان فسار فلما علمت الكاهنة بمسيره اليها قالت العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ونحن انما نريد المزارع والمراعى ولا أرى الا ان اخرب افريقية حتى ييأسوا منها وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الاموال وهذا هو الخراب الاول لافريقية فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها فسره ذلك فسار الى قابس فلقيه أهلها بالاموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الامراء وجعل فيها عاملا وسار الى قفصة ليتقرب الطريق فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوه وبلغ الكاهنة قدومه فاحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم انى مقتولة فامضوا الى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانا فساروا اليه وبقوا معه وسار

حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس انه الفناء ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قتالا ذريعا وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقتلت ثم ان البربر استأمنوا الى حسان فامنهم وشرط عليهم ان يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفا يجاهدون العدو فأجابوه الى ذلك فجعل على هذا العسكر ابنى الكاهنة ثم فشى الاسلام في البربر وعاد حسان الى القيروان وأقام لاينازعه أحد الى ان توفي عبدالملك سنة ست وثمانين فلما ولى ابنه الوليد ولى افريقية عمه عبدالله بن مروان وعزل حسان ثم استعمل الوليد على افريقية موسى بن نصير سنة تسع وثمانين وسيأتى الكلام على غزواته

﴿ ذكر صالح عبد الملك بن مروان لملك الروم ﴾

كانت الصوائف تعطلت من الشأم منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين المسلمين والصوائف الجيوش التى كانت تجهز في أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار واستمر ذلك من صدر الاسلام الى أواخر الدولة العباسية ولما اشتدت الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم سنة سبعين واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فصالح عبدالملك ملكهم على ان يؤدى اليه كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين وفي سنة ثلاث وسبعين خرج الروم من ناحية ارمينية في ستين ألفا وكان على ارمينية محمد بن مروان من قبل أخيه عبد الملك فقاتلهم وهزمهم وأكثر القتل فيهم وفي سنة أربع وسبعين استعمل عبد الملك على خراسان أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد فلما وصل أمية الى كرمان استعمل ابنه عبدالله على سجستان فلما قدمها غزا ملك الترك رتبيل وكان رتبيل هائبا للمسلمين فلما وصل عبدالله الى بست ارسل رتبيل يطلب الصلح وبذل ألف ألف وبعث اليه بهدايا و رقيق فأبى عبدالله قبول ذلك وقال ان ملأ لى هذا الرواق ذهبا والا فلا صلح وكان غزا فخلى له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها وأخذ عليه الشعاب والمضايق فطلب ان يخلى عنه وعن المسلمين ولا يأخذ منه شيأ فأبى رتبيل وقال بل يأخذ ثلاثمائة ألف درهم صلحا ويكتب لنا كتابا ولا يغزو بلادنا ما كنت أميرا ولا يحرق ولا يخرب ففعل ذلك وبلغ ذلك عبد الملك فعزله وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان صائفة وكانت الروم خرجت من قبل مرعش وكذا في السنة التي بعدها وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن سعد التميمى من قبل الحجاج فغزا وفتح أماكن من قندابيل وفي سنة ست وسبعين غزا محمد بن مروان الروم من ناحية ملاطية وفي سنة سبع وسبعين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك وفي سنة ثمان وسبعين ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكرة سجستان وكان رتبيل ملك الترك مصالحا

وكان يؤدى الخراج وربما امتنع فبعث الحجاج الى عبيدالله بن أبي بكرة يأمره بمناجزته وان لايرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله فسار عبيدالله في أهل البصرة وأهل الكوفة وكان على أهل الكوفة شريح بن هانئ كان من أصحاب على رضى الله عنه ومضى عبيدالله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ماشاء وهدم حصونا وغلب على أرض من أراضيهم وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضا بعد أرض حتى أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخا فاخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط في أيدى المسلمين فظنوا ان قد هلكوا فصالحهم عبيد الله على سبعمائة الف درهم يوصلها الى رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرضه فلقيه شريح فقال له انكم لاتصالحون على شئ الا حسبه السلطان من أعطياتكم وقدبلغت من العمر طويلا وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وان فاتتني اليوم الشهادة ماأدركها حتى أموت ثم قال شريح ياأهل الاسلام تعاونوا على عدوكم فقال له عبيد الله بن أبي بكرة انك بشيخ قد خرفت فقال له شريح انما حسبك ان يقال بستان عبيد الله وحمام عبيدالله ياأهل الاسلام من أراد منكم الشهادة فالىّ فاتبعه ناس من المتطوعة وفرسان الناس وأهل الحفاظ فقاتلوا حتى أصيبوا الا قليلا وقاتل شريح حتى قتل في أناس من أصحابه ونجا من نجا فخرجوا من بلاد رتبيل وفي هذه السنة أصاب أهل الروم أهل انطاكية وظفروا بهم وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وضمها لأعمال الحجاج فولى على خراسان المهلب بن أبي صفرة

﴿ ذكر غزوة المهلب ماوراء النهر حين كان واليا على خراسان ﴾

في سنة ثمانين قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فأتاه ابن عم ملك الختل ودعاه الى غزو الختل وكان اسم ملكهم الشبل فوجه المهلب مع ابن عم الملك ابنه يزيد بن المهلب فنزل يزيد ناحية ونزل ابن عم الملك ناحية فبيته الشبل وأخذه فقتله فحصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت اليه ورجع يزيد عنهم و وجه المهلب ابنه حبيبا فوافي صاحب بخارا في أربعين الفا فنزل جماعة من العدو قرية فسار اليهم حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسميت المحترقة ورجع حبيب الى أبيه وأقام المهلب بكش سنتين فقيل له و تقدمت الى ماوراء ذلك فقال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند وصالح المهلب أهل كش على فدية يأخذها منهم وأتاه كتاب ابن الاشعث بخلع الحجاج ويدعوه الى مساعدته فبعث بكتابه الى الحجاج وأقام بكش

﴿ ذكر تسيير الجنود الى رتبيل مع عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ﴾

قد تقدم ذكر حال المسلمين حين دخل بهم ابن أبي بكرة بلادرتبيل ثم استأذن الحجاج عبد الملك في تسيير الجنود نحو رتبيل فاذن له عبد الملك فاخـذ الحجاج في تجهيز الجيش فجعل على أهل الكوفة عشرين الفا وعلى أهل البصرة عشرين الفا وجد في ذلك وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأنفق فيهم الفي الف سوى اعطياتهم وأنجدهم بالخيل الرائقةوالسلاح الكامل وأعطي كل رجل يوصف بشجاعة وغناء وكان يسمى جيش الطواويس لحسنه فلما فرغ من أمر الجند بعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بأمر من عبـد الملك وكانالحجاج يبغض عبد الرحمن المذكور فسيره على ذلك الجيش طاعة لامر عبد الملك فسار بهم حتى قدم سجستان وبلغ الخبر رتبيل فارسل يعتذر ويبذل الخراج فلم يقبل منه فسار اليه ودخل بلاده وترك له رتبيل ارضا أرضا ورستاقا رستاقا وحصنا حصـنا وعبد الرحمن يحوي ذلك وكلما حوى بلدا بعث اليه عاملا وجعل معه أعوانا وجعل الارصادعلى العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى اذا جاز من أرض عظيمة وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة منع الناس من الوغول في أرض رتبيل وقال نكتفي بمـا أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجـترئ المسلمون على طرقها وفي العام المقبل نأخذ ماوراءها ان شاء الله تعالى ثم كتب الى الحجاج بمـا فتح الله عليه وبما يريد ان يعمل فلما أتى كتابه الى الحجاج كتب جوابه ان كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدوا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم عظيما وأحببت ان تكف عن ذلك العدو وتسخى النفس بمن أصيب من المسلمين فمض لمـا أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ثم أردفه كتابا آخر بنحو ذلك وفيه امابعد فمر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا بها فانها دارهم حتى يفتحها الله عليهـم ثم كتب كتابا ثالثاً بذلك ويقول له ان مضيت لما أمرتك به والا فاخوك اسحق بن محمد أمير الناس فدعا عبد الرحمن الناس وقال لهم أيها الناس اني لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم في كل مايحيط به نفعكم ناظر وقد كان الرأي فيما مضى ومن تدبيره ما ارتضاه ذوو احلامكم وأولو التجربة منكم وكتبت بذلك الى أميركم الحجاج فاتاني كتابه يعجزني ويضـعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي البلاد التي هلك فيها اخوانكم بالامس وانما أنا رجل منكم أمضى اذا مضيتم وآبى اذا أبيتم فثار اليـه الناس وقالوا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع فكان

أول من تكلم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانى وله صحبة رضى الله عنه فقال بعد حمدالله أما بعد فان الحجاج يرى بكم ماأرى القائل الاول احمل عبدك على الفرس فان هلك فلك وان نجا فلك وان الحجاج مايبالى ان يخاطر بكم فيقحمكم بلايا كثيرة ويغشى اللهوب واللصوب فان ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وان ظفر عدوكم كنتم أنتم الاعداء البغضاء الذين لايبالى عنتهم ولا يبقى عليهم اخلعوا عدوالله الحجاج وبايعوا الامير عبد الرحمن فانى أشهدكم انى أول خالع فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعى فقال عباد الله انكم ان أطعتم الحجاج جعل هــذه البلاد بلادكم مابقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود (التجمير حبس الجيش في أرض العدو من غير رجوع) فانه بلغنى انه أول من جمر البعوث ولن تعاينوا الاحبة أو يموت أكثركم فيما أرى فبايعوا أميركم وانصرفوا الى عدوكم الحجاج فانفوه عن بلادكم فوثب الناس الى عبــد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق وعلى النصرة لعبد الرحمن ولم يذكروا عبد الملك وجعل عبد الرحمن على بست عياض ابن هميان الشيبانى وعلى زرنج عبدالله بن عامر التميمى وصالح رتبيل على ان ابن الاشعث ان ظهر فلا خراج عليه أبدا مابقى وان هزم فاراد منعه رجع الى العراق وجعل عبدالرحمن على مقدمته عطية بن عمرو العنبرى وجعــل على كرمان حريبة بن عمرو التميمى فلما بلغ فارس اجتمع الناس بعضهم الى بعض وقالوا اذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبدالملك فاجتمعوا الى عبد الرحمن فكان أول الناس خلع عبد الملك تيحان بن ابجر من بنى تيم الله بن ثعلبة قام فقال أيها الناس انى خلعت اباذبان (كنية عبد الملك) كخلع قميصى فخلعه الناس الا قليلا منهم وبايعوا عبد الرحمن وكانت بيعته تبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين فلما بلغ الحجاج خلعه كتب الى عبــد الملك بخبر عبــد الرحمن ويسأله ان يعجل بعثه بجنود اليه ولما بلغ المهلب خبر عبد الرحمن كتب الى الحجاج من خراسان أما بعد فان أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل ليس يرده شئ حتى ينتهى الى قراره وان لاهل العراق شدة في أول مخرجهم وصبابة الى أبنائهم ونسائهم فاتركهم حتى يسقطوا الى أهاليهم ويشموا أولادهم ثم واقعهم عندها فان الله ناصرك عليهم فلما قرأ كتابه شتمه وسبه وقال مالى نظر وانما نظر الى ابن عمه يعنى عبد الرحمن لان كلا من المهلب وعبد الرحمن من قحطان ثم بعد وقوع بعض الوقائع بين الحجاج وعبــد الرحمن نظر في كتاب المهلب فستصوب ماقاله

وقال لله دره أي صاحب حرب هو ولما وصل كتاب الحجاج لعبد الملك هاله ودعا خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه الكتاب فقال ياأمير المؤمنين ان كان الحدث من سجستان فلا تخفه فان كان من خراسان فانى أتخوفه فجهز عبد الملك الجند الى الحجاج على البريد من مائة ومن خمسين وأقل وأكثر وكتب الحجاج تتصل بعبد الملك كل يوم بخبر عبد الرحمن فنزل الحجاج البصرة ولما اجتمع الجند عنده سار من البصرة ليلقى عبد الرحمن ولم يتركهم حتى يسقطوا الى أهاليهم كما كتب اليه المهلب فنزل تستر وقدم بين يديه مقدمة الى دجيل فلقوا عنده خيلا لعبد الرحمن فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد وكان ذلك يوم الاضحى سنة احدى وثمانين وقتل منهم جمع كثير فلما أتى خبر الهزيمة الى الحجاج رجع الى البصرة وتبعه أصحاب عبد الرحمن فقتلوا منهم وأصابوا بعض أثقالهم وأقبل الحجاج حتى نزل الزاوية وجمع عنده الطعام وترك البصرة لاهل العراق فاقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام ثم دخل عبد الرحمن ومن معه الكوفة وبايعه أهلها وصار له جيش يبلغ مائة ألف فيهم كثير من الصحابة وأبنائهم وعلماء التابعين وغيرهم وممن بايع عبد الرحمن وكان في جيشه سعيد بن جبير والشعبي وعبد الرحمن ابن أبي ليلى وهؤلاء من كبار علماء التابعين ومن الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة ووقع بينهم وبين جيوش الحجاج وقائع كثيرة في أكثرها كان النصر لجيوش عبد الرحمن ثم ان عبد الملك وأهل الشام قالوا ان كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه فان عزله أيسر من حربهم ونحقن بذلك الدماء فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد ابن مروان الى الحجاج في جند كثيف وأمرهما ان يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وان يجريا عليهم اعطياتهم كما يجرى على أهل الشام وان ينزل عبد الرحمن بن الاشعث أى بلد شاء من بلاد العراق فاذا نزله كان واليا عليه مادام حيا وعبد الملك خليفة فان أجاب أهل العراق الى ذلك عزل الحجاج وصار محمد بن مروان أمير العراق وان أبى أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالى القتال ومحمد بن مروان وعبد الله ابن عبد الملك في طاعته فلم يأت الحجاج أمر قط كان أشد عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك نخاف ان يقبل أهل العراق عزله فيعزله عنهم فكتب الى عبد الملك والله لو أعطيت أهل العراق نزعى لم يلبثوا الا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا اليك ولا يزيدهم ذلك الا جراءة عليك وذكر له أشياء مما فعله أهل العراق أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم قال له ان الحديد بالحديد

يلمع فأبى عبد الملك الاعرض عزله على أهل العراق فلما اجتمع عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك وقال ياأهل العراق اناابن امير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا وخرج محمد بن مروان وقال انا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا فذكر هذه الخصال فقالوا نرجع العشية فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الاشعث فقال لهم قد أعطيتم امرا انتهازكم اليوم اياه فرصة وانكم اليوم على النصف فان كانوا اعتدوا عليكم بيوم كذا فانتم تعتدون عليهم بيوم كذا فاقبلوا ماعرضوا عليكم وأنتم اعزاء اقوياء لقوم لكم هائبون وانتم لهم منتقضون فوالله لازلتم عليهم جرآء وعندهم اعزاء أبدا مابقيتم ان أنتم قبلتم فوثب الناس من كل جانب فقالوا ان الله قد أهلكهم فاصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة والله لانقبل وأعادوا خلعه ثانية وابلغوا ذلك عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان فقالا للحجاج شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فانا قد أمرنا ان نسمع لك ونطيع فقال قد قلت أنه لايراد بهذا الامر غيركم فكانا يسلمان عليه بالأمرة ويسلم عليهما بالأمرة ثم أعيد القتال واشتد الأمر وتفصيل ذلك يطول وجملة الايام التى اقتتلوا فيها مائة يوم وثلاثة ايام ثم وقعت الهزيمة على اصحاب عبد الرحمن ثم رجع الحجاج الى الكوفة وعاد محمد بن مروان الى الموصل وعبد الله بن عبد الملك الى الشام وأخذ الحجاج يبايع الناس الذين كانوا مع عبد الرحمن وكان لايبايع أحد الا قال لهاشهد أنك كفرت فان قال نعم بايعه والا قتله فأتاه رجل من خثعم كان معتزلا للناس جميعافسأله عن حاله فأخبره باعتزاله فقال له أنت متربص اتشهد أنك كافر قال بئس الرجل انا اعبد الله ثمانين سنة ثم اشهد على نفسى بالكفر قال اذن اقتلك قال وان قتلتنى فقتله ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق الا رحمه ثم أتى بعده بآخر فقال له الحجاج أرى رجلا ماأظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال له الرجل اتخادعنى عن نفسى انا اكفر أهل الارض واكفر من فرعون فضحك منه وخلى سبيله وأتى بمحمد بن سعد بن ابى وقاص فقال له ياظل الشيطان اعظم الناس تيها وكبرا تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وعبد الله بن عمر ثم صرت مؤذنا لابن الاشعث وجعل يضرب رأسه بعود في يده حتى ادماه ثم أمر به فقتل ثم أتى بعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر فقال ياعبد المرأة يقوم بالعامود على رأسك ابن الحائك يعنى ابن الاشعث وتسرب معه في الحمام فقال اصلح الله الامير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد أمكنك الله منا فان عفوت فبحلمك وفضلك وان عاقبت

عاقبت مذنبين فقال الحجاج اما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعو في منها الابرار وأما اعترافك فعسى انه ينفعك فرجا له السلامة ثم أمر به فقتل وأتى الحجاج بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما ان لى عندك يدا قال وما هى قال ذكر عبد الرحمن بن الاشعث يوما امك بسوء فنهيته قال ومن يعلم ذلك قال هذا الاسير الآخر فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج فلم لم تفعل كما فعل قال وينفعنى الصدق عندك قال نعم قال منعنى البغض لك واغومك فقال خلوا عن هذا لفعله وعن هذا لصدقه وقتل الحجاج يوم الهزيمة ممن قبض عليهم عشرة آلاف ولما انهزم اصحاب عبد الرحمن بن الاشعث نادى منادى الحجاج من لحق بقتيبة بن مسلم الباهلى فهو آمن وكان قد ولى قتيبة الرى وسار اليه فلحق به ناس كثير وكان منهم الشعبي فذكره الحجاج يوما فسأل عنه فقالوا له انه لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فكتب الحجاج الى قتيبة يأمره بارسال الشعبي فأرسله قال الشعبي فلما قدمت على الحجاج لقيت يزيد بن أبى مسلم وكان صديقالى فاستشرته فقال اعتذر مهمااستطعت وأشار بمثل ذلك اخوانى ونصحائى فلما دخلت على الحجاج فرأيت غير ماذكر والى فسلمت عليه بالامرة وقلت أيها الامير ان الناس قد أمرونى ان اعتذر بغير مايعلم الله انه الحق وأيم الله لاأقول في هذا المقام الا الحق قد والله مردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا بالاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليه ايدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا فقال الحجاج أنت والله احب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول مافعلت ولا شهدت وقد امنت ياشعبي كيف وجدت الناس بعدنا فقلت اصلح الله الأمير اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الأمير خلفا قال انصرف ياشعبي فانصرفت وأما سعيد بن جبير فانه اختفى ثم هرب الى خراسان وتنقل الى اماكن كثيرة مختفيا ثم جاور بمكة فلما ولى أمارة مكة خالد بن عبد الله القسرى بعد موت عبدالملك ومبايعة ابنه الوليد قيل لسعيد بن جبير ان خالدا رجل سوء فلو سرت عن مكة فقال والله لقد فررت حتى استحييت من الله ويجيئنى ما كتب الله لى فلما قدم خالد مكة كتب له الوليد بحمل أهل العراق الى الحجاج فأخذ سعيد بن جبير وأرسله مع حرسين فانطلق أحدهما لحاجة وبقى الآخر فقال لسعيد انى ابرأ الى الله من دمك انى رأيت في منامى فقيل لى تبرأ من دم سعيد بن جبير فاذهب حيث شئت فانى لاأطلبك فأبى سعيد فرأى ذلك الحرسى تلك الرؤيا ثلاثا ويأذن لسعيد في الذهاب وهو لايفعل فقدموا به الكوفة فانزل

في داره وأتاه قراء الكوفة فجعل يحدثهم وهو يضحك وبنية له في حجره فلما نظرت الى القيد في رجله بكت ثم أدخلوه على الحجاج فلما أتى به أقبل عليه فقال ياسعيد الم أشركك في امارتي ألم أفعل بك كذا ألم استعملك قال بلى قال فما أخرجك علي قال انما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شئ فقال انما كانت بيعة في عنقي فغضب الحجاج وانتفخ وقال ياسعيد ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لامير المؤمنين عبد الملك قال بلى قال ثم قدمت الكوفة واليا فجددت البيعة فاخذت بيعتك لامير المؤمنين ثانية قال بلى قال فنكثت بيعتين وتوفي بواحـدة للحائك ابن الحائك والله لاقتلنك قال اني اذن لسـعيد كما سمتني أمي فامر به فضربت عنقه فلما سقط رأسه هلل ثلاثا فلما قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول قيودنا قيودنا فظنوا انه يريد القيود فقطعوا رجلي سعيد من انصاف ساقيه وأخذوا القيود وكان الحجاج اذا نام يراه في منامه يأخـذ بمجامع ثوبه فيقول ياعدو الله فيم قتلتني فيقول مالي ولسعيد بن جبير مالي واسـعيد بن جبير وعاش الحجاج بعـده أياما ثم هلك قال الامام الشعراني في الطبقات قتله في شعبان وتوفي الحجاج في رمضان وكان بينهما خمسة عشر يوما وفي تاريخ ابن خلكان ان الحجاج رؤي في النوم بعد موته فقيل له مافعل الله بك قال قتلني بكل قتيل قتلته قتلة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة وكان عمر سعيد بن جبير سبعا وأربعين سنة وقيل سبعا وخمسين قيل ان سعيد بن جبير قال اللهم لاتسلطه على أحد بعدي فلم يقتل أحدا بعده قال الامام أحمد قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى علمه وكان قتله سنة أربع وتسعين وقيل خمس وتسعين فبين قتله وانتهاء فتنة ابن الاشعث احدى عشرة سنة فقد كان ابتداء فتنة ابن الاشعث سنة احدى وثمانين وانتهاؤها سنة ثلاث وثمانين وأما ابن الاشعث فانه لمـا انهزمت جيوشه سار الى رتبيل ملك الترك فاكرمه وآواه ثم أرسل اليه الحجاج يتوعده ويتهدده فقتله وبعث برأسه الى الحجاج وقيل بل أصابه مرض فمـات فقطع رأسه وأرسله للحجاج فبعث به الى عبد الملك فطيف به في الشام ليريه الناس ثم أرسله لاخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فطيف به في مصر وكان ذلك سنة خمس وثمانين

فتح قالي قلا

في سنة احدى وثمانين سير عبد الملك بن مروان ابنه عبيد الله في جيش ففتح قالي قلا وفي هذه السنة هجم جماعة من الديلم على قزوين فصاح الناس وأغلقوا الابواب وقتلوهم قتلا

عظيما وظفر المسلمون بهم فلم يفلت منهم أحد وفي هذه السنة كان يزيد بن المهلب في مفازة
بست في ستين فارسا فلقيهم خمسمائة من الترك فقاتلوهم قتالا شديدا فقتلوا كثيرا من الترك
الى أن انهزموا وفي سنة اثنتين وثمانين توفي المهلب واستخلف على خراسان ابنه يزيد
فاقره الحجاج وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك ببادغيس بعد حصار
وقتال فملكها وما فيها من الاموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك
اذا رآها سجد لها معظما لها وفي هذه السنة غزا عبيدالله بن عبدالملك الروم ففتح المصيصة
وبنى حصنها ووضع بها ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس ولم يكن المسلمون سكنوها قبل
ذلك وبنى مسجدها وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان ارمينية فهزمهم ثم سألوه الصلح
فصالحهم وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وولى أخاه الفضل بن المهلب
فغزا باذغيس وأصاب مغنما فقسمه فاصاب كل رجل ثمانون ثم غزا آخرون (اسم بلد)
وشومان فغنم وقسم ماأصاب ولم يكن للفضل بيت مال كان يعطى الناس كلما جاءه شئ وان
غنم شيأ قسمه فيهم وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان ارمينية فصاف بها وشتى وفي سنة
ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان وولى ابنه الوليد فابقى الحجاج وولى الحجاج
خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي وباهلة من قيس عيلان بن مضر وعزل الفضل وافتتح قتيبة
خوارزم وسمرقند وبخارا وقد كانوا كفروا بعد فتحها الاول وبلغ مالم يبلغه المهلب ولا
غيره فجهز قتيبة عند قدومه الجيوش للغزو فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين بلخ وساروا
معه فقطع النهر فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه الى بلده فمضى معه
فسلمها اليه لان ملك أخرون وشومان كان يسئ جواره ثم سار قتيبة الى أخرون وشومان
وهما من طخارستان فصالحه ملكها على فدية أداها اليه فقبلها قتيبة ثم انصرف الى مرو
(احدى قواعد اقليم خراسان الاربع وهى مرو وهراة وبلخ ونيسابور) واستخلف
على الجند أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت وهى من
فرغانة وفتح اخشيكت وهى مدينة فرغانة القديمة وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك
أرض الروم وفي سنة سبع وثمانين كتب قتيبة الى نيزك طرخان صاحب باذغيس ان
يطلق من عنده من أسرى المسلمين وكتب اليه يتهدده فخافه نيزك فاطلق الاسرى وبعث
بهم اليه وكتب له قتيبة مع سليم الناصح مولى عبيدالله بن أبي بكرة يدعوه الى الصلح والى
ان يؤمنه وكتب اليه يحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبنه حيث كان حتى يظفر به
أو يموت دونه فقدم سليم بالكتاب فقال له نيزك وكان يستنصحه ياسليم ماأظن عند صاحبك

خيرا كتب الى كتابا لايكتب الى مثلى فقال له سليم انه رجل شديد في سلطانه سهل اذا سوهل صعب اذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه اليك فأحسن حالك عنده نعقد الصلح لاهل باذغيس على ان لايدخلها قتيبة وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عددا كثيرا بسوسنة من ناحية المصيصة وقيل ان الذى غزا في هذه السنة هشام بن عبدالملك ففتح حصن بولق وحصن الاخرم وحصن بولس وقمقم وقتل من المستعربة نحوا من الف وسبي ذريتهم ونساءهم

(ذكر غزوة قتيبة بيكند)

كانت غزوة بيكند سنة سبع وثمانين وهى أدنى مداين بخارا سار اليهم قتيبة بجيوشه فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فامر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتتلون كل يوم وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر فاعطاه أهل بخارا مالاً ليرد عنهم قتيبة فأتاه سرا من الناس وقال له ان الحجاج قد عزل وقد أتى عامل الى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح فامر به فقتل خوفا من ان يظهر الخبر فيهلك الناس ثم أمر أصحابه بالجد في القتال فقاتلهم قتالا شديدا فانهزم الكفار يريدون المدينة وتبعهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاؤا وتحصن من دخل المدينة بها فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليهم عاملا وارتحل عنها يريد الرجوع فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل اعور هو الذى استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة أفدى نفسى بخمسة آلاف حريرة قيمتها الف الف فاستشار قتيبة الناس فقالوا هذا زيادة في الغنائم وما عسى ان يبلغ كيد هذا قال لا والله لايروع بك مسلم أبدا فامر به فقتل وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصرو لا أصابوا بخراسان مثله فقوى المسلمون فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع الى مرو

ذكر فتح طوانة من بلاد الروم

في سنة ثمان وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلد الروم وكان الوليد قد كتب الى صاحب ارمينية يأمره ان يكتب الى ملك الروم يعرفه ان الخزر وغيرهم من ملوك جبال ارمينية قد أجمعوا على قصد بلاده ففعل ذلك وقطع الوليد البعث

على أهل الشام الى ارمينية وأكثر وأعظم جهازه وساروا نحو الجزيرة ثم عطفوا منها الى بلد الروم فاقتتلوا هم والروم فانهزم الروم ثم رجعوا فانهزم المسلمون فبقي العباس في نفر منهم ابن محيريز الجمحي فقال له العباس أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة فقال ابن محيريز نادهم يأتوا فنادى العباس ياأهل القرآن فاقبلوا جميعا فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وحصرهم المسلمون وفتحوها قيل وفي هذه السنة أيضاً غزا مسلمة بن عبد الملك الروم أيضاً ففتح ثلاثة حصون أحدها حصن قسطنطين وغزالة وحصن الاخرم وقتل من المستعربة نحوا من ألف وأخذ الاموال

ذكر غزو نومشكث ورامثنة

في هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم نومشكث واستخلف على مروأخاه يسار بن مسلم فتلقاه أهلها فصالحهم ثم سار الى رامثنة فصالحه أهلها وانصرف عنهم وزحف اليه الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة في مائتي ألف وملكهم ابن أخت ملك الصين فاعترضوا المسلمين فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم أخا قتيبة وهو على الساقة بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل فلما قربوا منه أرسل الى قتيبة يخبره وأدركه الترك فقاتلوه ورجع قتيبة فانتهى الى عبدالرحمن وهو يقاتل الترك وقد كاد الترك يظهرون عليه فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا الى الظهر وابلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة فانهزم الترك ورجع قتيبة فقطع النهر عند ترمذ وأتى مرو وفي سنة تسع وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد الروم فافتتح مسلمة حصن عمورية وفتح العباس اذرولية واتى من الروم جمعا فهزمهم وقيل ان مسلمة قصد عمورية فاتى بها جمعا من الروم كثيرا فهزمهم وافتتح هرقلة وقونية وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون

ذكر غزو قتيبة بخارا

في هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذاه فعبر النهر من زم فلقي الصغد وأهل كش ونسف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ومضى الى بخارا فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان فلقوه في جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم وغزا وردان خذاه ملك بخارا فلم يظفر بشئ فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج يخبره فكتب اليه الحجاج ان صورها فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج أن تب الى الله جل ثناؤه مما كان منك وائتها من مكان كذا وكذا وكتب اليه ان كس بكش وانسف نسف ورد وردان واياك والتحويط ودعني من ثنيات الطريق فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج

غازيا سنة تسعين فاستجاش وردان خـذاه بالصغد والترك ومن حوله فأتوه وقد سبق اليها قتيبة فحصرها فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا الى المسلمين يقاتلونهم فقالت الازد اجعـلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتالهم فقال قتيبة تقدموا فتقدموا وقاتلوهم قتالا شديدا ثم ان الازد انهزموا حتى دخلوا العسكر وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكروا راجعين فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم عن هذا الموضع فلم يقدم عليهم أحد من العرب فأتى قتيبة بني تميم فقال لهم يوما كايامكم فاخذ وكيع ابن حسان بن قيس التميمي اللواء وقال يابني تميم أتسلمونني اليوم قالوا لا ياأبا مطرف وكان هريم بن أبي طمحة على خيل تميم ووكيع رأسهم فقال وكيع ياهريم قدم خيلك ودفع اليه الراية فتقـدم هريم وتقـدم وكيع في الرجالة فانتهى هريم الى نهر بينهم وبين الترك فوقف فقال وكيع تقدم ياهريم فنظر هريم نظر الجمل الهائج الصائل وقال أأقحم الخيل هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها ياأحمق فقال وكيع ياابن اللخناء أترد أمري فحذفه بعمود كان معه فعبر هريم في الخيـل وانتهى وكيع الى النهر نعمل عليه جسرا من خشب وقال لاصحابه من وطن نفسه على الموت فليعبر والا فليثبت مكانه فما عبر معه الا ثمانمائة رجـل فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم أني مطاعنهم فاشـغلهم عنا بالخيل فحمل عليهم حتى خالطهم وحمل هريم في الخيل فطاعنهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أحدروهم من التل ونادى قتيبة ماترون العدو منهزمين فلم يعبر أحد النهر حتى انهزموا وعبر الناس ونادى قتيبة من أتى برأس فله مائة فاتى برؤس كثيرة فجاء يومئذ أحد عشر رجلا من بني قريع كل رجل برأس فيقال له من أنت فيقول قريعي فجاء رجل من الازد برأس فقيل له من أنت فقال قريعي فعرفه جهم بن زحر فقال كذب والله انه أزدي فقال له قتيبة مادعاك الى هذا فقال رأيت كل من جاء يقول قريعي فظننت أنه ينبغي لكل من جاء برأس ان يقوله فضحك قتيبة وجرح خاقان وابنه وفتح الله عليهم وكتب بالفتح الى الحجاج

ذكر صلح قتيبة مع اصف

لما أوقع قتيبة بأهل بخارا هابه الصغد فرجع طرخون ملكهم ومعه فارسان فدنا من عسكر قتيبة وطلب رجلا يكلمه فارسل اليه قتيبة حيان النبطي فطلب الصلح على فدية يؤديها اليه فأجابه قتيبة الى ما طلب ورجع طرخون الى بلاده ورجع قتيبة ومعه نيزك

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان

لمـا رجع قتيبة من بخارا ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتوح فقال لاصحابه أنا معهذا
يعنى قتيبة ولست آمنه فلو استأذنته ورجعت كان الرأى قالوا افعل فاستأذن قتيبة فاذن له
وهو بآمل فرجع يريد طخارستان وأسرع السير حتى اتى النوبهار قال لاصحابه لاأشـك
ان قتيبة قد ندم على اذنه وسيبعث الى المغيرة بن عبـد الله يأمره بحبسى وندم قتيبة على
اذنه له فارسل الى المغيرة يأمره بحبس نيزك وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخـل
شعب خلم فرجع المغيرة وأظهر نيزك الخلع وكتب الى اصبهبذ بلخ والى باذان ملك مرو
الروذ والى ملك الطالقان والى ملك الفرياب والى ملك الجوزجان يدعوهم الى خلع قتيبة
فاجابوه فواعدهم الربيع ان يجتمعوا ويغزوا قتيبة وكتب الى كابل شاه يستظهر به وبعث
اليـه بثقله وماله وسأله ان يأذن له ان اضطر اليه ان يأتيه فاجابه الى ذلك وكان جبغويه
ملك طخارستان ضعيفا فاخذه نيزك فقيده بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه وكان جبغويه
هو الملك ونيزك عبده فاستوثق منه وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغو يه وبلغ قتيبة خلعه
قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثنى عشر ألفا الى البروقان
وقال أقم بها ولا تحدث شيأ فاذا انقضى الشتاء سر نحو طخارستان واعلم انى قريب منك
فسار فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة الى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليـه الجنود
فقدموا قبل أوانهم فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع فأتاه
قتيبة فأوقع باهل الطالقان فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ
في نظام واحد ثم استعمل على الطالقان أخاه عمر بن مسلم ثم سار الى الفارياب فخرج اليه
ملكها مذعنا فقبـل منه ولم يقتل بها أحدا واستعمل عليها رجـلا من أهله وبلغ ملك
الجوزجان خبرهم فهرب الى الجبال وسار قتيبة الى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين
فقبل منهم ولم يقتل بها أحدا واستعمل عليها عامر بن مالك الحمانى ثم أتى بلخ فلقيه أهلها
فلم يقم بها الا يوما واحدا وسار يتبع أخاه عبد الرحمن الى شعب خلم ومضى نيزك الى بغلان
وخلف مقاتلة على فم الشعب ومضائقه ليمنعوه ووضع مقاتلته في قلعـة حصينة من وراء
الشعب فأقام قتيبة أياما يقاتلهم على مضـيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقا
يسلكه الى نيزك الا الشعب أو مفازة لا تحتملها العساكر فبقى متحيرا فقدم انسان فاستأمنه
على ان يدله على مدخل القلعة التى من وراء الشعب فأمنه قتيبة وبعث معه رجالا فانتهى
بهم الى القلعة من وراء شعب خلم فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم وهرب من بقى منهم ومن
كان في الشعب فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة ومضى الى سمنجان فاقام بها أياما ثم سار

الى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن فارتحل نيزك من منزله فقطع وادى فرغانة ووجه ثقله وأمواله الى كابل شاه ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن يتبعه فنزل عبد الرحمن حذاء الكرز ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان فتحصن نيزك في الكرز وليس اليه مسلك الا من وجه واحد وهو صعب لاتطيقه الدواب فحصره قتيبة شهرين حتى قل مافي يد نيزك من الطعام وأصابهم الجدرى وجدر جبغويه وخاف قتيبة الشتاء فدعا سليما الناصح وكان يصادق نيزك فقال انطلق الى نيزك واحتل لتأتيني به من غير أمان فان احتال وأبى فأمنه واعلم انى ان عاينتك وليس هو معك صلبتك قال فاكتب الى عبد الرحمن لايخالفنى فكتب اليه فقدم عليه فقال له ابعث رجالا ليكونوا على فم الشعب فاذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب فبعث عبد الرحمن خيلا فكانت هناك وحمل سليم معه اطعمة وأخبصة أوقارا وأتى نيزك فقال له انك أسأت الى قتيبة وغدرت قال نيزك فما الرأى قال أرى ان تأتيه فانه ليس ببارح وقد عزم على ان يشتو مكانه هلك أو سلم قال نيزك كيف آتيه على غير أمان قال ماأظنه يؤمنك لمافي نفسه عليك لانك قد ملأته غيظا ولكنى ارى ان لا يعلم حتى تضع يدك في يده فانى ارجو ان يستحى ويعفو قال انى أرى نفسى تأبى هذا وهو ان رآنى قتلنى فقال سليم ماأتيتك الا لاشير عليك بهذا ولو فعلت لرجوت ان تسلم وتعود حالك عنده فاذا أبيت فانى منصرف وقدم سليم الطعام الذى معه ولا عهد لهم بمثله فانتهبه أصحاب نيزك فساءه ذلك فقال له سليم انى لك من الناصحين أرى أصحابك قدجهدوا وان طال بهم الحصار لم آمنهم ان يستأمنوا بك فائت قتيبة فقال لاآمنه على نفسى ولا آتيه الا بامان وان ظنى ان يقتلنى وان أمننى ولكن الامان أعذر الى قال ابن خلدون ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب وهو يمتنع حتى قال وانه قد أمنك وقوله ولم يزل الخ هو مثل من أمثال العرب يضرب في الخداع والمماكرة اه ميدانى فقال سليم قد أمنك افتتهمنى قال لا وقال له أصحابه اقبل قول سليم فلا يقول الا حقا فخرج معه ومع جبغويه وصول طرخان خليفة جبغويه وحبس طرخان صاحب سرطته وشقران ابن أخي نيزك فلما خرجوا من الشعب عطف الخيل التى خلفها سليم فحالوا بين الاتراك أصحاب نيزك والخروج فقال نيزك هذا اول الغدر قال سليم تخلف هؤلاء عنك خير لك واقبل سليم ونيزك ومن معه حتى دخلوا على قتيبة فحبسهم وكتب الى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك واستخرج قتيبة ما كان في الكرز من متاع ومن كان فيه فقدم به على قتيبة فنتظر بهم كتاب الحجاج فأتاه كتاب الحجاج بعد أربعين يوما يأمره بقتل نيزك فدعا قتيبة الناس

واستشارهم في قتله واختلفوا فقال ضرار بن حصين انى سمعتك تقول أعطيت الله عهدا ان أمكنك منه ان تقتله فان لم تفعل فلا ينصرك الله عليــه أبدا فدعا نيزك فضرب عنقه بيده وأمر بقتل صول وابن أخي نيزك وقتل من أصحابه سبعمائة وقيــل اثنى عشر ألفا وصلب نيزك وابن أخيه وبعث برأسه الى الحجاج وأخذ الزبير مولى عباس الباهلى حقا لنيزك فيــه جوهر فكان أكثر من في بلاده مالا وعقارا من ذلك الجوهر وأطلق قتيبة جبغويه ومن عليه وبعث به الى الوليد فلم يزل بالشام حتى مات الوليد فلما قتل قتيبة نيزك رجع الى مرو وأرسل ملك الجوزجان يطلب الامان فأمنه على ان يأتيه فطلب رهنا ويعطى رهائن فاعطاه قتيبة حبيب بن عبد الله بن حبيب بن محمد وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته وقدم على قتيبة ثم رجع فمات بطالقان فقال أهل الجوزجان انهم سموه فقتلوا حبيبا وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده وذلك سنة احدى وتسعين

﴿ ذكر قتل ذاهر ملك السند وفتح السند ﴾

قد تقدم ذكر أول غزو المسلمين السند في سنة ثلاث وأربعين في خلافة عثمان رضي الله عنه وان عبد الله بن عامر استعمل على ثغر السند عبدالله بن سوار العبدى وفي سنة أربع وأربعين غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند عاملا للحكم بن عمرو الغفارى حين كان على خراسان وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر الســند مجاعة بن مسعر التميمى من قبــل الحجاج وفي سنة تسع وثمانين تم فتح بقية السند للمسلمين على يد محمد بن القاسم بن الحكم ابن أبي عقيــل الثقفى ابن عم الحجاج لان الحجاج هو ابن يوسف بن الحكم فيجتمع هو والحجاج في الحكم بن أبي عقيل ولى الحجاج محمد بن القاسم المذكور واستعمله على ذلك الثغر وسير معه ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل مايحتاج اليه حتى المسال والأبر والخيوط فسار محمد الى مكران فقام بها أياما ثم أتى قنزبور ففتحها ثم سار الى ارمائيــل ففتحها ثم سار الى الديبل فقدمها يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والســلاح والاداة فخندق حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقا يقال له العروس كان يمد به خمسمائة رجــل وكان بالديبل بد عظيم والبد صنم في بناء عظيم وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة وفي رأس المنارة دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور وكل مايعبد فهو عندهم بد فحصر الديبل وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك ثم خرجوا اليه فناهضهم القتال فهزمهم حتى ردهم الى البلد وأمر بالسلالم فنصبت فصــعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام

وهرب عامل ذاهر ملك السند عنها وانزلهـا محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنهـا الى البيرون وكان أهلها بعثوا الى الحجاج فصالحوه فلقوا محمدا بالميرة وأدخلوه مدينتهم ثم سار عنها فجعل لايمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهرا دون مهران فأتاه أهل سربيلس فصالحوه ووظف عليهم الخراج ثم عبر نهر مهران واستعد ملك السند لمحاربته واسمه ذاهر بن صصعة ثم عقد الجسر على النهر فقاتله ذاهر وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة وهم قواد السند فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله وترجل ذاهر فقاتل حتى قتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤا فلما قتـل ذاهر لحقت امرأة ذاهر بمدينة راور فساروا اليها وخافته فاحرقت نفسها وجواريها وملك المدينة ولحق المنهزمون بمدينة برهمنا باذ العتيقة ففتحها عنوة وقتل من وجد بها وخربها ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر بياس الى الملتان فحاصرها وقطع المـاء عنها فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وقتل سدنة البد وهم ستة آلاف وأصابوا ذهبا كثيرا فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمـانية أذرع يلقى اليه من كوة في وسطه فسميت الملتان فرج بيت الذهب والفرج الثغر وكان بد الملتان تهدى اليه الاموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤسهم ولحاهم عنده ويزعمون ان صنمه هو أيوب النبي صـلى الله عليه وسـلم وعظمت فتوح محمد بن القاسم ونظر الحجاج في النفقة على ذلك الثغر فكان ستين الـف الـف درهم ونظر في الخمس الذي حمل اليه فكان مائة الف الف وعشرين الف الف فقال ربحنا النصف وهو ستون ألف ألف وأدركنا ثارنا ورأس ذاهر ولمـا مات الحجاج سنة خمس وتسعين كان محمد بن القاسم بالملتان فأتاه خبر وفاته فرجع الى الرور والبغرور وكان قد فتحهما فاعطى الناس ووجـه الى البيلمان جيشا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعـة ثم أتى محمد الكيرج فخرج اليه دوهر فقاتله فانهزم دوهر وقيل بل قتل ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى ومات الوليد بن عبد الملك وولى أخوه سليمان فعزل محمد بن القاسم عن السند وولاها يزيد بن أبي كبشة السكسكي فاخذ محمدا وقيده وحمله الى العراق فبكى أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فعذبه صالح ثم قتله وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأى الخوارج ومات يزيد بن أبي كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوما واستعمل سليمان بن عبد الملك على السـند حبيب بن المهلب فقدمها وقد رجع ملوك السند الى ممـالكهم وغلبوا عليها فنزل حبيب على شاطئ مهران فاعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوما فظفر بهم ثم مات سليمن واستخلف عمر بن

عبد العزيز فكتب الى الملوك يدعوهم الى الاسلام والطاعة على ان نملكهم ولهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم فاسلم جيشبة بن ذاهر والملوك واتسموا باسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلى عامل عمر بن عبد العزيز على ذلك الثغر

ذكر غزو الهند وفتحه

لما كان عمرو بن مسلم الباهلى عاملا لعمر بن عبد العزيز على السند غزا بعض الهند فظفر ثم ان الجنيد بن عبد الرحمن المرى ولى السند أيام هشام بن عبدالملك فأتى الجنيد شط مهران فمنعه جيشبة بن ذاهر العبور وأرسل اليه أنى قد أسلمت وولانى الرجل الصالح بلادى ولست آمنك فاعطاه رهنا وأخذ منه رهنا على خراج بلاده ثم ترادوا وكفر جيشبة وحارب وقيل انه لم يحارب ولكن الجنيد تجنى عليه فأتى الهند فجمع جموعا وأعد السفن واستعد للحرب فسار اليه الجنيد بالسفن فالتقوا في بطيحة فاخذ جيشبة أسيرا فقتله وهرب صصة بن ذاهر وهو يريد أن يمضى الى العراق ويشكو غدر الجنيد فلم يزل الجنيد يؤنسه حتى وضع يده في يده فقتله وكان ذلك سنة سبع ومائة وغزا الجنيد الكيرج من آخر الهند وكانوا قد نقضوا فاتخذ كباشا وصك بها سور المدينة والكباش آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الحيل فتدق الحائط فينهدم فلما صك السور بالكباش ثلمه فدخلها فقتل وسبى ووجه العمال الى المرمذ والمندل ودهنج وبروج وبعث جيشا الى ازين فاغاروا عليها وحرقوا ربضها وفتح البيلمان وحصل عنده سوى ماحمل أربعون الف الف وحمل مثلها وولى الجنيد الهند تميم بن زيد القينى فضعف ووهن ثم مات وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ثم ولى الحكم بن عوام الكلبي وقد كفر أهل الهند الا أهل قصة فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين وكان معه عمر بن محمد بن القاسم الثقفى وكان يفوض اليه عظيم الامور فاغزاه من المحفوظة فلما قدم عليه وقد ظفر أمره فبنى مدينة سماها المنصورة فهى التى ينزلها الامراء واستخلص ماكان قد غلب عليه العدو ورضى الناس بولايته ثم قتل الحكم وكان العمال يقاتلون العدو فكانوا يفتحون ناحية ويأخذون ماتيسر لهم لضعف الدولة الأموية بعد ذلك الى ان جاءت الدولة العباسية

ذكر فتوحات موسى بن نصير بافريقية

في سنة تسع وثمانين استعمل الوليد على افريقية موسى بن نصير فوصل الى افريقية وكان البربر قد طمعوا في البلاد وبلغه ان باطراف البلاد قوما خارجين عن الطاعة فوجه اليهم ابنه عبدالله فقاتلهم فظفر بهم وسبى منهم الف رأس وسير ابنه أيضاً في البحر الى جزيرة

ميورقة فنهبها وغنم منها مالا يحصى وعاد سالما فوجه ابنه هرون الى طائفة أخرى فظفر بهم وسبي منهم نحو ذلك وتوجه هو بنفسه الى طائفة أخرى فغنم نحو ذلك فبلغ الخمس ستين الف رأس من السبي ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا ثم ان افريقية قحطت واشتد بها الغلاء فاستسقى بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد فقيل له في ذلك فقال هذا مقام لايدعى فيه لاحد ولا يذكر الا الله عز وجل فسقى الناس ورخصت الاسعار ثم خرج غازيا الى طنجة يريد من بقي من البربر وقد هربوا خوفا منه فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا حتى بلغ السوس الادنى لايدافعه أحد فاستأمن البربر اليه وأطاعوه واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد وجعل معه جيشا كثيفا جلهم البربر وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض وعاد الى افريقية فمر بقلعة مجانة فتحصن أهلها منه وترك عليها من يحاصرها حتى فتحت وحينئذ لم يبق له في افريقية من ينازعه وقيل كانت ولاية موسى سنة ثمان وسبعين استعمله عليها عبد العزيز بن مروان وهو حينئذ على مصر لاخيه عبد الملك وفي هذه السنة أعنى تسعا وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية اذربيجان ففتح حصونا ومدائن هنالك وغزا مسلمة أيضاً أرض الروم سنة تسعين ففتح حصونا خمسة وغزا العباس ابن الوليد حتى بلغ اوذن

﴿ ذكر غزوة قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ﴾

في سنة أحدى وتسعين سار قتيبة الى شومان فحصرها وكان سبب ذلك ان ملكها طرد عامل قتيبة من عنده فارسل اليه قتيبة رسولين أحدهما من العرب اسمه عياش والآخر من أهل خراسان يدعوان ملك شومان ان يؤدى ما كان صالح عليه فقدما على شومان فخرج أهلها اليهما فرموهما فانصرف الخراساني وقاتلهم عياش فقتلوه ووجدوا به ستين جراحة وبلغ قتله قتيبة فسار اليهم بنفسه فلما أتاها أرسل أخاه صالح بن مسلم الى ملكها وكان صديقا له يأمره بالطاعة ويضمن له رضا قتيبة ان رجع الى الصلح فأبى وقال لرسول صالح أتخوفني من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصنا فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه وقتل رجل في مجلس الملك بحجر فلما خاف أن يظهر عليه قتيبة جمع ما كان بالحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر بالقلعة لايدرك قعرها ثم فتح القلعة وخرج اليهم فقاتلهم حتى قتل وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم سار الى كش ونسف ففتحهما وامتنعت عليه فاريب فاحرقها فسميت المحترقة وسير من كش ونسف أخاه عبد الرحمن الى الصغد وكان ملكها طرخون فقبض عبد الرحمن من طرخون

ما كان صالحه عليه قتيبة ودفع اليه رهنا كان معه ورجع الى قتيبة ببخارا وكان قد سار اليها من كش ونسف فرجعوا الى مرو ولما كان قتيبة ببخارى تملك بخارا خذاه وكان غلاما حدثا وقتل من يخاف أن يضاده وقيل ان قتيبة سار بنفسه الى الصغد فلما رجع عنهم قالت الصغد لطرخون انك رضيت بالذل.واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير لاحاجة لنافيك فحبسوه وولوا غوزك فقتل طرخون نفسه وفي هذه السنة غزا عبد العزيز بن الوليد الصائفة وفيها عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وارمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك فغزا مسلمة الترك من ناحية اذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق وغزا مسلمة بن عبدالملك أرض الروم في سنة ثنتين وتسعين ففتح حصونا ثلاثة وجلا أهل سوسنة الى بلاد الروم

(ذكر فتح الاندلس)

في سنة ثنتين وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الاندلس في اثني عشر ألفا وكانوا قبل ذلك سبعة آلاف فنزلوا جبل طارق ثم أمدهم موسى بخمسة آلاف فصاروا اثني عشر ألفا فلقي ملك الاندلس بعد أن جمع جيوشه في أعمال شذونة فزحف له طارق بجميع من معه وزحف الملك وكان جيشه مائة ألف واتصلت الحرب ثمانية أيام ثم قتل ملكهم قتله طارق بيده وهزم الله الكفار وسار طارق متبعاً لهم فأدرك خلقا من المنهزمين فقاتلوه قتالا شديدا ثم انهزموا ولم يلق المسلمون بعدها حربا مثلها ولم تقف هزيمة العدو على موضع بل كانوا يسلمون له بلدا بلدا ومعقلا معقلا فتوغل في بلاد الاندلس وفتحها مدينة بعد مدينة والكلام على ذلك يطول وهو مبسوط في التواريخ واستقامت الامور هناك وعلا الاسلام وأما القتلى من الكفار من أول الفتح الى آخره فشئ كثير لايمكن احصاؤه والقتل من المسلمين بالنسبة لذلك قليل جداً وأما الغنائم من الذهب والفضة والخيل والجواهر والاثاث وبقية الاشياء فشئ كثير لايمكن حصره ولا ضبطه وكانت توجد الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فكان الجند اذا وجدوها لايستطيعون حملها فيأتون بالفاس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر ومما وجد في تلك الغنائم مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الجواهر الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكي مرصعة بالجواهر ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ومن أواني الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ومما وجدوه مائدة سليمان عليه السلام قيل انها

من منهوبات بخت نصر لمـا خرب بيت المقـدس وقيل انها لم تكن لسليمان وانمـا أصلها ان العجم في أيام ملكهم كان أهـل الثروة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمـال للكنائس فصاغوا من ذلك المـال تلك المائدة وكانت مصوغة من الذهب وقيل من الذهب والفضة مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم ير الراؤن مثلها وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد كلها مكللة بالجواهر وحافاتها وأرجلها منها وكان لها ثلاثمائة وستون رجلاً وقيل خمسة وسـتون فحملت الى الوليد ومعها ثلاثون ألف رأس من السبي ومن الذهب والفضـة والجواهر ونفائس الامتعة مالا يقـدر قدره وكان ابتداء القتال والفتح لليلتين بقيتا من رمضان سنة ثنتين وتسعين والتحق موسى بن نصير بمولاه طارق بن زياد في رمضان سنة ثلاث وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفا وتوغلا في الاندلس الى ان وصـلوا الى بلاد الافرنج فنمى الخبر الى الوليد بن عبد الملك واشتد قلقه على المسلمين فبعث اليهم يأمرهم بالرجوع قيـل انهم انتهوا الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فاصابوا فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا فيها يابني اسماعيل انتهيتم فارجعوا وان سألتم الى ماذا ترجعون أخبرتكم انكم ترجعون الى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض وقد فعلتم فرجعوا سنة خمس وتسعين وولى موسى على افريقية ابنه عبد الله وعلى الاندلس ابنه عبد العزيز وعلى طنجة ابنه عبدالملك فصار جميع الاندلس والمغرب بين أولاده ورجع هو ومولاه طارق قيل كان رجوعهم قبل وفاة الوليد وقيل بل كان بعد موت الوليد وولاية سليمان وقيل قدموا والوليد مريض مرض الموت ثم اتسع أمر المسلمين بالاندلس وصار لهم ملك ضخم ثم استولى عليها النصارى شيأفشيأ الى سنة تسعمائة وأربع فاستولوا عليها جميعها وبقي قليل من المسلمين لاناصر لهم قاموا في بعض الجبال على النصارى ثم تقووا عليهم وأخرجوهم وكان آخرهم خروجا سنة ألف وعشر وأسأل الله أن يهيئ للاسلام من ينصره حتى يسترجع مااستولى عليه الكفار

﴿ ذكر غرق المسلمين الذى حصل منهم غلول في غنائم الاندلس ﴾

لمـا فتح موسى بلاد الاندلس سير طائفة من عسكره في البحر الى جزيرة سردانية وهى في بحر الروم من أكبر الجزائر كثيرة الفواكه فدخلها المسلمون وعمد النصارى الى ما لهم من آنية ذهب وفضة فالقوا جميع في المينا التى لهم وجعلوا أموالهم في سـقف بنوه لبيعة العظمى التى لهم تحت السقف الاول وغنم المسلمون فيها ما لايحد ولا يوصف وأكثروا الغلول فاتفق ان رجلا اغتسل في المينا فعلقت رجله في شئ فاخرجه فاذا صحفة من فضة فأخـذ

المسلمون جميع مافي الميناثم دخل رجل من المسلمين الى تلك الكنيسة فنظر الى حمام في سقف الكنيسة فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف وانكسر لوح فنزل منه شئ من الدنانير فاستخرج المسلمون جميع ما كان في السقف وأخذوه وازدادوا غلولا فكان بعضهم يذبح الهرة ويرمى مافي جوفها ويملأ جلدها دنانير ويخيط عليه ويلقيها في الطريق فاذا خرج أخذها وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهبا فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلا يقول اللهم غرقهم فغرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم وفي سنة خمس وثلاثين ومائة غزا هذه الجزيرة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وكان على الاندلس فقتل من بها قتلا ذريعا ثم صالحوه على الجزية فاخذت منهم ثم منعوا وبقيت لم يغزها أحد بعده فعمرها الروم فلما كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة أخرج اليها المنصور بن القائم العلوى صاحب افريقية اسطولا من المهدية فمروا بجنوة ففتحوا المدينة وأوقعوا باهل سردانية وسبوا فيها وأحرقوا مراكب كثيرة وأخربوا جنوة وغنموا مافيها وفي سنة ست وأربعمائة غزاها محمد العامرى من الاندلس وكان صاحبها في البحر في مائة وعشرين مركبا ففتحها وقتل فاكثر وسبى النساء والذرية فسمع بذلك ملوك الروم فجمعوا اليه وساروا اليه من البر الكبير في جمع عظيم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وأخرجوا من جزيرة سردانية ولم تغز بعد ذلك

﴿ ذكر غزو سجستان ﴾

وفي سنة ثنتين وتسعين غزا قتيبة بن مسلم سجستان وأراد قصد رتبيل الاعظم فلما نزل قتيبة سجستان أرسل رتبيل اليه رسلا بالصلح فقبل ذلك وانصرف واستعمل عليهم عبد ربه ابن عبد الله الليثى

﴿ ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد ﴾

في سنة ثلاث وتسعين صالح قتيبة بن مسلم خوارزم شاه وكان سبب ذلك ان ملك خوارزم كان ضعيفا فغلبه أخوه خرزاد على أمره وكان أصغر منه وكان اذا بلغه أن عند أحد ممن هو منقطع الى الملك جارية أو مالا أو دابة أو بنتا أو أختا أو امرأة جميلة أرسل اليه وأخذه منه وكان لايمتنع عليه أحد ولا الملك فاذا قيل للملك قال لاأقوى به وهو مغتاظ عليه فلما طال ذلك عليه كتب الى قتيبة يدعوه الى أرضه ليسلمها له واشترط عليه ان يدفع اليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى ولم يطلع أحدا من مرازبته على ذلك فاجابه قتيبة الى ماطلب وتجهز للغزو واظهر قتيبة انه يريد الصغد وسار من مرو وجمع خوارزم شاه

أجناده ودهاقينة وقال ان قتيبة يريد الصغد وليس بغازيكم فهلموا نتنعم في ربيعنا هذا فاقبلوا على الشرب والتنعم فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزارسب فقال خوارزم شاه لاصحابه ماترون قالوا نرى ان نقاتله قال لكني لاأرى ذلك لانه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكني أصرفه بشئ أؤديه اليه فاجابوه الى ذلك فسار خوارزم شاه ونزل بمدينة الفيل من وراء النهر وهي أحصن بلاده وقتيبة لم يعبر النهر فارسل اليه خوارزم شاه فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع وعلى ان يعينه على خام جرد فقبل قتيبة ذلك وقيل صالحه على مائة ألف رأس ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن الى خام جرد وكان أحد أعداء خوارزم شاه وكان يغازي خوارزم شاه فقاتله فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه وقدم منهم باربعة آلاف أسير فقتلهم قتيبة وسلم قتيبة الى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع أموالهم الى قتيبة

﴿ذكر فتح سمرقند﴾

لما قبض قتيبة صلح خوارزم شاه قام اليه المجشر بن مزاحم السلمي فقال له سرا ان أردت الصغد يوما من الدهر فالآن فانهم آمنون من ان يأتيهم عامل وانما بينك وبينهم عشرة أيام فقال أشار عليك بهذا أحد قال لاقال فسمعه منك أحد قال لاقال والله لئن تكلم به أحد لاضربن عنقك فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة وقدم الاثقال الى مرو فسار يومه فلما أمسى كتب اليه قتيبة اذا أصبحت فوجه الاثقال الى مرو وسر بالفرسان والرماة الى الصغد واكتم الاخبار فاني في الاثر ففعل عبد الرحمن ماأمره وخطب قتيبة الناس وقال لهم ان الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا مابلغكم واني ارجو ان تكون خوارزم والصغد كقريظة والنضير ثم سار فاتى الصغد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو اربع فحصرهم بسمرقند شهرا واستجاشوا ملك الشاش واخشاد خاقان وفرغانة وكتبوا لهم ان العرب ان ظفروا بنا أتوكم بمثل ماأتونا به فانظروا لانفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها فنظروا وقالوا انما نؤتى من سفلتنا فانهم لايجدون كجدنا فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والاساورة والابطال وولوا عليهم ابن خاقان وأمروهم ان يأتوا عسكر قتيبة فيبيتوه فانه مشغول بحصار سمرقند فساروا وبلغ قتيبة الخبر فانتخب من عسكره ستمائة فارس من الشجعان وبعث بهم أخاه صالح بن مسلم وأمرهم بالمسير الى عدوهم فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم فجعل صالح له كمينين فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم فلما رأوا صالحا

حملوا عليه فلما اقتتلوا شد الكمينان عن يمين وشمال فلم ير قوم كانوا أشد من أولئك في بعض أصحاب صالح انا لنقاتلهم في الليل اذ رأيت قتيبة وقد جاء سرا فضربت ضربة أعجبتني فقلت كيف ترى بأبي وأمي قال اسكت فض الله فاك ثم قاتلوهم أشد القتال فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم الا الشريد وحوينا اسلابهم وسلاحهم واجتززنا رؤسهم وأسرنا منهم أسرى فسألناهم عمن قتلنا فقالوا ماقتلتم الا ابن ملك أو عظيما أو بطلا كان الرجل منهم يعد بمائة رجل وكتبنا أسماءهم على آذانهم ثم دخلنا العسكر حين أصبحنا فلم يأت أحد بمثل ماجئنا به من القتلى والاسرى والخيل ومناطق الذهب والسلاح قال وأكرمني قتيبة وأكرم معي جماعة وظننت انه رأى منهم مثل الذى رأى مني ولما رأى أهل الصغد ذلك خافوا خوفا شديدا ونصب قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها وثلم ثلمة فقام عليها رجل فشتم قتيبة فرماه بعض الرماة فقتله فاعطاه قتيبة عشرة آلاف وسمع بعض المسلمين قتيبة وهو يقول كأنه يناجي نفسه حتى متى ياسمرقند يعشش فيك الشيطان أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية فانصرف ذلك الرجل فقال لاصحابه كم من نفس تموت غدا وأخبر الخبر فلما أصبح قتيبة أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم واشتد القتال وأمرهم قتيبة ان يبلغوا ثلمة السور فجعلوا الترسة على وجوههم وحملوا فبلغوها ووقفوا عليها ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا فارسل الصغد الى قتيبة فقالوا انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا فقال قتيبة لانصالحهم الا ورجالنا على الثلمة فصالحوه والرجال على الثلمة على الف الف ومائتي ألف مثقال في كل عام وان يعطوه في تلك السنة ثلاثين ألف رأس وان يخلوا لقتيبة مدينة سمرقند فلا يكون لهم فيها مقاتل الى ان يبني فيها مسجدا ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدى ويخرج فلما تم الصلح وأخلوا المدينة وبنى المسجد دخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم فدخل المسجد فصلى فيه وخطب وأكل طعاما ثم أرسل الى الصغد من أراد منكم ان يأخذ متاعه فليأخذ فاني لست خارجا منها ولست آخذ منكم الا ماصالحتكم عليه غير أن الجند يقيمون فيها فاكرههم على اقامة جند فيها وقيل انه شرط عليهم أيضاً بيوت النيران وحلية الاصنام فقبض ذلك وأتى الاصنام فكانت كالقصر العظيم وأخذ ماعليها من الحلية وأمر بها فأحرقت فجاءه غوزك فقال ان شكرك على واجب لاتتعرض لهذه الاصنام فان منها أصناما من أحرقها هلك فقال قتيبة أناأحرقها بيدي فدعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين الف مثقال وأصاب بالصغد جارية من ولد يزدجرد فأرسلها الى الحجاج فأرسلها الحجاج الى

الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ولما بعث قتيبة بالفتح الى الحجاج انتقل الى مرو أستعمل على سمرقند اياس بن عبدالله ثم ان أهل خوارزم استضعفوا اياسا فجمعوا له جموعا وأرادوا قتاله فوجه قتيبة جموعا الى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله وعزل اياسا من سمرقند وولى أخاه عبد الله بن مسلم فلما قدم المغيرة على سمرقند خشي ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم نفر الى بلاد الترك وجاء المغيرة فقتل وسبي وملك خوارزم وصالحه الباقون على الجزية

(ذكر غزوة قتيبة الشاش وفرغانة)

في سنة أربع وتسعين قطع قتيبة النهر وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل فساروا معه فوجههم الى الشاش وتوجه هو الى فرغانة فأتى خجندة فجمع له أهلها جموعا واقتتلوا معه مرارا كل ذلك يكون الظفر للمسلمين ثم ان قتيبة أتى كاشان مدينة فرغانة وأتاه الجنود الذين وجههم الى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكثرها وانصرف الى مرو وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم ففتح انطاكية وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد غزالة وبلغ الوليد بن هشام المعيطى برج الحمام ويزيد بن أبي كبشة أرض سورية

(ذكر غزوة الشاش)

في سنة خمس وتسعين بعث الحجاج بجيش من العراق الى قتيبة فغزا بهم الشاش فلما كان بالشاش أو بكشماهان أتاه موت الحجاج في شوال فغمه ذلك ورجع الى مرو وتفرق الناس فأتاه كتاب الوليد قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد عدو المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني انظر الى بلادك والثغر الذي أنت فيه وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقلة وفيها فتح آخر الهند الا الكيرج والمندل وقد تقدم ذكر ذلك وفي هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قنسرين

(ذكر فتح قتيبة مدينة كاشغر)

في سنة ست وتسعين غزا قتيبة كاشغر فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع الا بجواز منه ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر وهي أدنى مدائن الصين وبعث جيشا مع كثير بن فلان الى كاشغر فغنم وسبى سبيا فختم أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين فكتب اليه ملك الصين ان ابعث الي رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم فانتخب قتيبة

عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح فامر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم فساروا وعليهم هبيرة فلما قدموا عليه دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابا بياضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والاردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا فقال الملك لمن حضره كيف رأيتم هؤلاء فقالوا رأينا قوما ماهم الا نساء ما بقي منا أحد الا انتشر ما عنده فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشي والعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا وقال لاصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة قالوا هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى مثل الجبال فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون فقال الملك لاصحابه كيف ترونهم فقالوا ما رأينا مثل هؤلاء فلما أمسى بعث اليهم أن ابعثوا الى زعيمكم فبعثوا اليه هبيرة بن مشمرج فقال له قد رأيتم عظم ملكي وانه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي واني سائلكم عن أمر فان لم تصدقوني قتلتكم قال سل قال لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثاني والثالث ما صنعتم قال أما زينا اليوم الاول فلباسنا في أهلنا وأما اليوم الثاني فزينا اذا أتينا أمراءنا وأما الثالث فزينا لعدونا قال ما أحسن ما دبرتم دهركم فقولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلككم قالوا كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون يعنون الشام واما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه وقد حلف أميرنا ان لا ينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية قال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث اليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم بعث اليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم وشيء من تراب أرضهم وأجاز العشرة الوافدين فأحسن جائزتهم فقدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطيء التراب ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزوة بموت الوليد فرجع

﴿ ذكر مقتل قتيبة بن مسلم ﴾

كان قتيبة فحل عمال الدولة الاموية والحجاج فرعونها ومكث قتيبة على خراسان ثلاث

عشرة سنة وفتح كثيرا من المداين التي كانت فتحت قبله ثم كفر أهلها وتغلبوا فقاتلهم حتى فتحها وفتح غيرها أيضاً كما تقدم وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين قتل وعمره سبع وأربعون سنة وسبب قتله موافقته للوليد بن عبد الملك حين أراد خلع أخيه سليمان وذلك ان عبد الملك بن مروان عهد بالخلافة لابنه الوليد ثم من بعده لاخيه سليمان فأراد الوليد ان يخلع أخاه سليمان و يبايع لابنه عبد العزيز فلم يوافقه على ذلك الا الحجاج وقتيبة ابن مسلم ثم مات الحجاج ثم مات الوليد ولم يتمكن من خلع أخيه فبويع لاخيه سليمان فخاف قتيبة منه وكان سليمان بن عبد الملك صديقا ليزيد بن المهلب فخاف قتيبة ان يعزله ويولي يزيد بن المهلب فدعا الناس لخلع سليمان وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان عن رياسة بني تميم وصيرها لضرار بن حصين الضبي فلما أراد خلع سليمان لم يوافقه وكيع وتجمع معه كثير من قومه فثار من ذلك فتنة بين المسلمين بخراسان يطول الكلام بذكرها فقتل فيها قتيبة وقتل معه من أهله اخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحصين وعبدالكريم ومسلم وقتل كثير ابنه وكان عدة من قتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلا ونجا عمر بن مسلم أخو قتيبة وحمل رأس قتيبة ورؤس أهل بيته الى سليمان بن عبد الملك وقام بالامر بخراسان وكيع بن حسان تسعة أشهر ولما قتل قتيبة قال رجل من أهل خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات لجعلناه في تابوت فكنا نستسقي به ونستفتح به وفي هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش الى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة وفيها غزا مسلمة بن عبدالملك الوضاحية ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح صاحب الوضاحية وفيها غزا عمر بن هبيرة أرض الروم في البحر فشتى بها

﴿ ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان ﴾

كان سليمان بن عبد الملك ولى يزيد بن المهلب العراق وبعد مقتل قتيبة بتسعة أشهر ولاه خراسان فاقام عمالة بالعراق وتوجه الى خراسان

﴿ ذكر فتح جرجان وطبرستان ﴾

في سنة ثمان وتسعين غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان لما قدم خراسان وسبب غزوهما واهتمامه بهما انه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحا يقول ليزيد ألا ترى الى ما يفتح الله على قتيبة فيقول يزيد ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور ويقول هذه الفتوح ليست بشيء الشأن هي جرجان ولم تكن جرجان يومئذ مدينة انما هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يقدم عليه أحد

فلما ولاه سليمان خراسان لم يكن له همة غير جرجان فسار اليها في مائة الف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالى والمتطوعة فابتدأ بقهستان فحاصرها وكان أهلها طائفة من الترك وكان أهلها يخرجون ويقاتلون فيهزمهم المسلمون في كل ذلك فاذا هزموا دخلوا الحصن فخرجوا ذات يوم وخرج اليهم الناس فاقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزموا ودخلوا الحصن ثم ألح عليهم القتال وقطع عنهم المواد واشتد عليهم الحصار فطلب الصلح صول دهقان قهستان على ان يؤمنه على نفسه وأهله وماله ليدفع له المدينة بما فيها فصالحه ووفى له ودخل المدينة فاخذ مما كان فيها من الاموال والكنوز والسبي مالا يحصى وقتل أربعة عشر الف تركي صبرا وكتب الى سليمان بن عبد الملك بذلك ثم خرج حتى أتى جرجان وكان أهل جرجان قد صالحهم سعيد بن العاص وكانوا يجبون أحيانا مائة الف وأحيانا مئتى الف وأحيانا ثلاثمائه ألف. ربما أعطوا ذلك وربما منعوه ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجا ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق فلم يكن يسلك طريق خراسان أحد الا على فارس وكرمان وأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولى خراسان وبقى أمر جرجان كذلك حتى ولى يزيد بن المهلب فأتاهم فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه فأجابهم الى ذلك وصالحهم فلما فتح قهستان وجرجان طمع في طبرستان ان يفتحها فعزم على ان يسير اليها فاستعمل عبد الله بن المعمر اليشكرى على ساسان وقهستان وخلف معه اربعة آلاف ثم أقبل الى أدنى جرجان مما يلي طبرستان فاستعمل على ايز وسارشد بن عمر وجعله في أربعة آلاف ودخل بلاد طبرستان فأرسل اليه الاصبهبد صاحبها يسأله الصلح وان يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها ووجه أخاه أبا عينة من وجه وابنه خلد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبي من وجه ومع كل منهم جيش وقال اذا اجتمعتم فأبو عينة على الناس فسار أبو عينة وأقام يزيد معسكرا واستجاش الاصبهبد أهل جيلان والديلم فأتوه فالتقوا في سفح الجبل فانهزم المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون حتى انتهوا الى فم الشعب فدخل المسلمون وصعد المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون يرومون الصعود فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم أبو عينة والمسلمون يركب بعضهم بعضا يتساقطون في الجبل حتى انتهوا الى عسكر يزيد وكف عدوهم عن اتباعهم وخافهم الاصبهبد فكاتب أهل جرجان ومقدمهم المرزبان يسألهم ان يبيتوا من عندهم من المسلمين وان يقطعوا عن يزيد المادة والطريق فيما بينه وبين بلاد الاسلام ويعدهم أن يكافئهم على ذلك فثاروا بالمسلمين فقتلوهم أجمعين وهم غارون في ليلة

وقتل عبد الله بن المعمر ومن معه فلم ينج منهم أحد وكتبوا الى الاصبهبد بأخذ المضايق والطرق وبلغ ذلك يزيد بن المهلب وأصحابه فعظم عليهم وهالهم وفزع يزيد الى حيان النبطي وكان من رؤساء جنده ليسير الى الاصبهبد في عمل الصلح فاتى حيان الاصبهبد فقال له أنا رجل منكم وان كان الدين فرق بيني وبينكم فانا لكم ناصح فأنت أحب الي من يزيد بن المهلب وقد بعث يستمدوامداده منه قريبة وانما أصابوا منه طرفا ولست آمن من أن يأتيك من لاتقوم له فأرح نفسك وصالحه فان صالحته صير حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم أصحابه فصالحه على سبعمائة ألف وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة ثم رجع حيان الى يزيد بن المهلب فقال ابعث من يحمل صلحهم فقال من عندهم أومن عندنا فقال من عندهم وكان يزيد قد طابت نفسه ان يعطيهم ماسألوا ويرجع الى جرجان فارسل يزيد من يقبض ماصالحهم عليه حيان وانصرف الى جرجان

ذكر فتح جرجان الفتح الثاني

قد تقدم ذكر فتح قهستان وجرجان ثم غدر أهله باصحاب يزيد بن المهلب فلما صالح يزيد اصبهبد طبرستان سار الى جرجان وعاهد الله لئن ظفر بهم لايرفع السيف حتى يطحن بسائل دمائهم ويأكل من ذلك الطحين فأتاها وحصر أهلها بحصن فجأة سبعة أشهر وهم يخرجون اليه في الايام فيقاتلون ويرجعون وكانوا متمنعين في الجبل والاوعار فبينما هم كذلك اذ ظفروا برجل يعرف الطرق فضمن له يزيد دية ان دلهم على الحصن وطرقه ومعالمه فانتخب معه يزيد ثلاثمائة رجل واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد وقال يزيد للرجل متى تصلون قال غدا العصر فساروا فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو الى النار فهالهم ذلك فهجم خالد بن يزيد ومن معه عليهم قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه وسار يزيد بمن معه يقاتلهم من جهة أخرى فما شعروا الا بالتكبير من ورائهم فانقطعوا جميعا الى حصنهم وركبهم المسلمون فأعطوا بايديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين في يمين الطريق ويساره قيل ان الذين قتلهم أربعون ألفا فلذلك كان عمر بن عبد العزيز يسمي يزيد بن المهلب جبارا وأجرى الماء على الدم وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ليبر يمينه فطحن وخبز وأكل وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ذلك مدينة ورجع الى خراسان واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجعفي وكتب بالفتح الى سليمان وأخبره انه قد حصل

من الخمس ستمائة الف الف فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس لاتكتب تسمية المال فانك من ذلك بين أمرين اما استكثره فامرك بحمله واما سمحت نفسه لك به فاعطاكه فتكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شيء الا استقله فكأني بك قد استغرقت ماسميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذي سميت مخلدا في دواوينهم فان ولي وال بعده أخذك به وان ولي من يتحامل عليك لم يرض باضعافه ولكن اكتب فسله القدوم وشافهه بما أحببت فهو أسلم فلم يقبل منه وأمضى الكتاب فكان الامر كما قال كاتبه فان عمر بن عبد العزيز لما ولي بعد سليمان طالبه بذلك المال سنة تسع وتسعين وعزله وقيده وحبسه ثم هرب من السجن في مدة مرض عمر بن عبد العزيز ثم لما بويع يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز طلب يزيد بن المهلب فجمع جموعا وقاتل يزيد بن عبد الملك بعد ان خلعه وبايع الناس لنفسه وكانت جموع يزيد بن المهلب نحو مائة الف وآخر الامر قتل هو وكثير من اخوته وأهل بيته وذلك سنة اثنتين ومائة وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ قيل ان يزيد بن المهلب أصاب في غنائم جرجان تاجا فيه جوهر فقال لاصحابه أترون أحدا يزهد في هذا قالوا لا فدعا محمد بن واسع الازدي فقال خذ هذا التاج قال لاحاجة لي فيه قال عزمت عليك فاخذه فامر يزيد رجلا ينظر مايصنع به فاتى سائلا فدفعه اليه فاخذ الرجل السائل فاتى به يزيد فاخبره فاخذ يزيد التاج وعوض السائل مالا كثيرا

ذكر محاصرة القسطنطينية

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وتسعين سار سليمان بن عبد الملك الى دابق وجهز جيشا مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير الى القسطنطينية وسبب ذلك انه مات ملك الروم فاتى اليون من اذربيجان لسليمان بن عبد الملك فخبره بموته وضمن له فتح الروم فوجه ذلك الجيش مع أخيه مسلمة فسار الى القسطنطينية فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل معه مدين من طعام على عجز فرسه الى القسطنطينية ففعلوا فلما أتاها أمر بالطعام فالقي أمثال الجبال وقال للمسلمين لاتأكلوا منه شيأ وأغيروا في أرضهم وازرعوا وعمل بيوتا من خشب فشتى فيها وصاف وزرع الناس وبقي الطعام في الصحراء والناس يأكلون ماأصابوا من الغارات والزرع وأقام مسلمة قاهرا للروم معه أعيان الناس فارسل الروم الى مسلمة يعطونه عن كل رأس دينارا فلم يقبل فقال الروم لاليون ان صرفت عنا المسلمين ملكناك فاستوثق منهم فاتى مسلمة فقال له ان الروم قد علموا انك لاتصدقهم القتال وانك تطاولهم مادام الطعام عندك فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم فامر به فاحرق فقوى الروم وأصابوا

المسلمين حتى كادوا يهلكون وبقوا على ذلك حتى مات سليمان سنة تسع وتسعين وقيل انما خدع اليون مسلمة بان سأله ان يدخل من الطعام الى الروم بمقدار مايعيشون به ليلة واحدة ليصدقوا ان أمر مسلمة وأمره واحد وانهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم فاذن له وكان اليون قد أعد السفن والرجال فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر الا مالا يذكر وأصبح اليون محاربا وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت لامرأة لعيبت بها ولقي الجند مالم يلقه جيش آخر حتى ان الرجل كان يخاف ان يخرج من العسكر وحده وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب وسليمان مقيم بدابق ودخل الشتاء فلم يقدر ان يمدهم حتى مات فلما بويع عمر بن عبد العزيز بعده بعث الى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ووجه له خيلا عتاقا وطعاما كثيرا وحث الناس على معونتهم فرجعوا سنة تسع وتسعين وفي سنة مائة واحدى توفي محمد بن مروان وتوفي عمر بن عبد العزيز فبويع ليزيد بن عبد الملك وكان في مدته الحرب المتقدم ذكره بينه وبين يزيد بن المهلب

ذكر غزوة الترك

في سنة اثنتين بعد قتل يزيد بن المهلب استعمل يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان أخاه مسلمة بن عبد الملك فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد الملقب خذينة ومعناه الدهقانة ربة البيت لانه كان رجلا لينا متنعما وهو سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص فجده الحارث أخو مروان بن الحكم فاستضعفه الناس وسموه خذينة فطمعت الترك فجمعهم خاقان ووجههم الى الصغد وعلى الترك كورصول فأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي محاصرين لمن فيه من المسلمين وفيه أهل مائة بيت من المسلمين بذراريهم وكان على سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير استعمله سعيد خذينة فكتبوا اليه يستمدونه وخافوا ان يبطئ عليهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفا وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة وندب عثمان الناس فانتدب أربعة آلاف مع المسيب بن بشر الرياحي من سائر القبائل فقال لهم المسيب من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم فرجع عنه ألف وقال ذلك أيضا بعد فرسخ فرجع ألف آخر ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف فلما كان على فرسخين من العدو أخبره بعض الدهاقين أن القوم [illegible] ملك الترك [illegible] كل دهقان [illegible] في ثلاثمائة مقاتل فيهم معكم [illegible] كانوا [illegible] وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة فلما بلغهم مسيرك اليهم قتلوا الرهائن وميعادهم ان يقاتلوا غدا ويفتحوا لهم القصر

يعني قصر الباهلي الذي فيه أهـل مائة بيت فبعث المسيب الى القصر المذكور رجلين عجميا وعربيا يأتيانه بالخبر فجاؤا في ليلة مظلمة وقد أجرت الترك المـاء بدائر القصر لئلا يصل اليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهما الربيئة فقالا له اسكت وادع لنا فلانا من المسلمين الذين في القصر فدعاه فأعلماه قرب العسكر وسألاه هل عندكم امتناع غدا فقال لهما نحن مستميتون وقد أجمعنا على تقديم نسائنا للموت امامنا حتى نموت جميعا غداً فرجعا الى المسيب فاخبراه فقال لمن معه اني سائر الى هذا العدو المحاصرين للقصر فمن أحب ان يذهب فليذهب فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت فاصبح وسار وقد زداد القصر تحصينا بالمـاء الذي أجراه الترك فلما كان بينه وبين الموضع الذي فيـه الترك نصف فرسخ نزل وكان قد أجمع على بياتهم فلما أمسى أمر أصحابه بالصبر وحثهم عليه وقال ليكن شعاركم يامحمد ولا تتبعوا موليا وعليكم بالدواب التي لهم فاعقروها فانها اذا عقرت كانت أشـد عليهم منكم وليست بكم قلة فان سبعمائة سيف لايضرب بها في عسكر الا أوهنوه وان كثر أهله فلما دنوا منهم كبروا وذلك في السحر وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدواب وترجل المسيب في رجال معه فقاتلوا قتالا شديدا وانقطعت يمين رجل من المسلمين فأخذ السـيف بشماله فقطعت فجعـل يذب بيده حتى استشهد وقتلوا كثيرا منهم وعظيما من عظمائهم فانهزمت الترك ونادى منادى المسيب لاتتبعوهم واقصدوا القصر لاطلاق من فيه واحملوا من فيـه ولا تحملوا من متاعهم الا المـاء ومن حمل مرأة أو صبيا أو رجلا ضعيفا لايقدر على المشي حسبة فأجره على الله ومن أبى فله أربعون درهما وان كان في القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه فأتوا القصر وحملوا من فيه وأخرجوهم ثم ساروا الى سمرقند ورجعت الترك من الغد فلم يروا في القصر أحـدا ورأوا قتلاهم فقالوا لم يكن الذين جاؤنا بالامس من الانس فقال بعض من كان بالقصر لما التقوا ظننت ان القيامة قد قامت لمـا سمعنا من همهمة القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل وفي هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية ارمينية وهو على الجزيرة قبـل ان يلي العراق فهزمهم وأسر منهم خلقا كثيرا وقتل سبعمائة أسير وفيها غزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم ففتح دبسة

ذكر غزوة الصغد

وفي هذه السنة عبر سعيد خذينة النهر وغزا الصغد وقد كانوا نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين فقال الناس لسعيد انك قد تركت الغزو وقد أغار الترك وأعانهم أهل الصغد فقطع النهر وقصد الصـغد فلقيه الترك وطائفة من الصـغد فهزمهم المسلمون فقال سـعيد

لاتتبعوهم وقال هم جباية أمير المؤمنين يعني يأخذ منهم المال ففي استئصالهم ضياع له وفي رواية قال هم بستان أمير المؤمنين وقد هزمتموهم أفتريدون بوارهم وقد قاتلتم ياأهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم فانكفوا عنهم ثم سار المسلمون الى واد بينهم وبين المرج فقطعه بعض العسكر وقد أكمن لهم الترك فخرجوا عليهم وانهزم المسلمون الى الوادي ثم تلاحق المسلمون وجاء الأمير والناس فانهزم العدو وكان سعيد اذا بعث سرية فاصابوا وغنموا وسبوا رد السبي وعاقب السرية فثقل سعيد على الناس وضعفوه وسعوا في عزله فعزل سنة ثلاث ومائة وولى مكانه سعيد الحرسي بالحاء المهملة والشين المعجمة من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ينتهي الى قيس بن عيلان بن مضر وفي سنة ثلاث ومائة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح مدينة يقال لها دلسه

ذكر الوقعة بين الحرشي والصغد

لما قدم الحرشي خراسان كان الناس بازاء العدو وقد نكبوا فخطبهم وحث الناس على الجهاد وقال انكم لاتقاتلون بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الاسلام فقولوا لاحول ولا قوة الا بالله ولما سمع أهل الصغد بقدوم الحرشي خافوا على أنفسهم لانهم كانوا قد أعانوا الترك على أيام خذينة فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم فقال لهم ملكهم لاتفعلوا وأقيموا واحملوا خراج مامضى واضمنوا له خراج مايأتي وعمارة الارض والغزو معه ان أراد ذلك واعتذروا مما كان منكم واعطوه رهائن قالوا نخاف أن لايرضى ولا يقبل ذلك منا ولكن نأتي خجندة فنستجير ملكها ونرسل الى الامير فنسأله الصفح عما كان منا ونوثق له أنه لايرى أمرا يكرهه فقال لهم ملكهم أنا رجل منكم والذي أشرت به عليكم خير لكم فأبوا وخرجوا الى خجندة وارسلوا الى ملك فرغانة يسألونه أن يمنعهم وينزلهم مدينته فأراد أن يفعل فقالت أمه لايدخل هؤلاء الشياطين مدينتك ولكن فرغ لهم رستاقا يكونون فيه فأرسل اليهم سموا رستاقا تكونون فيه حتى أفرغه لكم وأجلوني أربعين يوما وقيل عشرين يوما فاختاروا شعب عصام بن عبد الله الباهلي وكان قتيبة قد خلفه فيه فقال نعم ولا أعطي عقدا وجوارا حتى تدخلوه وان أتتكم العرب قبل أن تدخلوه فليس لكم علي جوار فرضوا ففرغ لهم الشعب فجاء خبرهم الى الحرشي فعبر فجاءهم قبل أن يدخلوا شعب عصام وخرج أهل الصغد لقتاله فانهزموا وقد كانوا حفروا خندقا وغطوه بتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال فلما انهزموا أخطأهم الطريق وأسقطهم الله في ذلك الخندق ثم حصرهم الحرشي ونصب عليهم المجانيق فأرسلوا

الى ملك فرغانة ليجيرهم فقال قد شرطت عليكم ان لا جوار قبل الاجل الذى بيني وبينكم فطلبوا الصلح من الحرشي على ان يردوا مافي أيديهم من سبي العرب ويعطوا ما كسر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة ولا يغتالوا أحدا فان أحدثوا حدثا استبيحت دماؤهم فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا في العسكر وبلغ الحرشي انهم قتلوا امرأة ممن كان في أيديهم من المسلمين فقتل الذى قتلها فخاف منه بعض عظمائهم ان يقتله فنقض وخرج واعترض الناس ومعه جماعة منهم فقتل ناسا وتضعضع العسكر ولقوا منه شرا وانتهى الى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت وقتل الصغد اسرى عندهم من المسلمين مائة وخمسين رجلا فاخبر الحرشي بذلك فامر بقتلهم وعزل التجار عنهم فقاتلهم الصغد بالخشب ولم يكن لهم سلاح فقتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة آلاف وقيل سبعة آلاف وغنم أموال الصغد وذراريهم وأخذ منه ماعجبه وكتب الى يزيد بن عبد الملك بالفتح وسرح الحرشي سرية الى حصن يطيف به وادى الصغد فتلقوها على فرسخ وقاتلوا فهزموا ودخلوا الحصن فحصروا فيه ثم طلبوا الصلح على ان لا يتعرض لنسائهم وذراريهم ويسلموا القلعة فقبل منهم ذلك وبعث الامناء لقبض مافي القلعة فقبضوه وباعوه وقسموه وسار الحرشي الى كش وصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار قبض صلح كش وكان في نسف خزائن منيعة فوجه اليها المسربل بن الخريت وكان صديقا لملكها فجاء الملك وأخبره بما صنع الحرشي بأهل خجندة وخوفه قال فما ترى قال ان تنزل بأمان قال فما أصنع بمن لحق بى قال تجعلهم في أمانك فصالحهم فامنوه وبلاده ورجع الحرشي الى بلاده ومعه الملك فقتله وصلبه ومعه الامان وكانت هذه الوقائع سنة أربع ومائة وفيها عزل الحرشي عن خراسان ووليها مسلم بن سعيد الكلابي

﴿ ذكر غزو المسلمين بلاد الخزر وظفر الخزر بهم ﴾

في هذه السنة دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر وهم التركمان في جمع كثير واعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك ولقوا المسلمين في مكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديدا فقتل كثير من المسلمين واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال ثبيت ياأمير المؤمنين ماجبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى وضاربت حتى انقطع سيفي غير ان الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد

ذكر غزوة أخرى على الخزر

ولما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين طمع الخزر في البلاد فجمعوا وحشدوا فولى يزيد على ارمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمده بجيش كثيف فسار لغزو الخزر فتسامعوا به فعادوا حتى نزلوا بالباب والابواب ونزل الجراح الى بردعة فاقام بها حتى استراح هو ومن معه وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر فسمع بأن بعض من معه من أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح اليه فحينئذ أمر الجراح مناديه فنادى في الناس ان الامير مقيم ههنا عدة أيام فاستكثروا من الميرة فكتب ذلك الرجل الى ملك الخزر يخبره ان الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل فسار مجدا حتى انتهى الى مدينة الباب والابواب فلم ير الخزر فدخل البلد وبث السرايا للنهب والغارة على مايجاوره فغنموا وعادوا من الغد وسار الخزر اليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا قتالا شديدا فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع مامعهم وساروا حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالامان على مال يحملونه فاجابهم ونقلهم عنها ثم سار الى مدينة يرغوا فاقام عليها ستة أيام وهو مجد في قتالهم فطلبوا الامان فامنهم وتسلم حصنهم ونقلهم منه

ذكر فتح بلنجر

ثم سار الجراح الى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم فنازله وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها الى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول الى الحصن وكانت تلك العجل اشد شيء على المسلمين في قتالهم فلما رأوا الضرر الذي عليهم انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلا وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجل وجد الكفار في قتالهم ورموا من النشاب ماكان يحجب عين الشمس فلم يرجع اولئك حتى وصلوا الى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها وجذبوها فانحدرت وتبعها سائر العجل لان بعضها كان مشدودا الى بعض وانحدر الجميع الى المسلمين والتحم القتال واشتد وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر ثم ان الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوة وغنموا جميع مافيه فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين الفا ثم ان الجراح احضر صاحب بلنجر ورد اليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبرهم بما يفعله الكفار ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن وبندر وبه نحو

أربعين الف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه ثم ان الترك والتركان تجمعوا وأخذوا الطرق على المسلمين فكتب صاحب بلنجر الى الجراح يعلمه بذلك فعاد مجدا حتى وصل الى رستاق ملى وادركهم الشتاء فاقام المسلمون به وكتب الجراح الى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ويسأله المدد فوعده انفاذ العساكر اليه وأدرك يزيد أجله قبل انفاذ الجيش وكان موته في شعبان سنة خمس ومائة فلما مات يزيد وبويع أخوه هشام بن عبد الملك أرسل الى الجراح وأقره على عمله ووعده المدد ثم أرسله اليه فقوى أمر الجراح فغزا اللان في سنة ست وصالحه أهلها فأدوا الجزية ثم ان هشاما عزل الجراح عن ارمينية سنة سبع ومائة وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك الى سنة احدى عشرة ثم عزل أخاه مسلمة وولاها الجراح ثانية فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضا وانصرف سالما فجمعت الخزر جموعها وحشدت وسارت الى بلاد الاسلام من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا اشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج اردبيل وكان قد استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على ارمينية ولما قتل الجراح طمع الخزر وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب على المسلمين وكان الجراح خيرا فاضلا وكان أولا من عمال عمر بن عبد العزيز على خراسان ورثاه كثير من الشعراء ولما بلغ هشاما خبره دعا سعيد الحرشي وكان قد عزل عن خراسان فقال له بلغني ان الجراح قد انحاز عن المشركين قال كلا ياأمير المؤمنين الجراح اعرف بالله من أن ينهزم ولكنه قتل قال فارأيك قال تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد ثم تبعث الى كل يوم أربعين رجلا ثم اكتب الى أمراء الاجناد يوافوني ففعل ذلك هشام وسار الحرشي فكان لايمر بمدينة الا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ولم يزل كذلك حتى وصل الى مدينة أرزن فلقيه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا وبكى لبكائهم وفرق فيهم نفقة وردهم معه وجعل لايلقاه أحد من أصحاب الجراح الارده معه ووصل الاخلاط وهى ممتنعة عليه فحصرها وفتحها وقسم غنائمها في أصحابه ثم سار عن خلاط وفتح القلاع والحصون شيأ بعد شئ الى أن وصل الى برذعة فنزلها وكان ابن خاقان يومئذ باذربيجان يغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة ورثان فخاف الحرشي ان يملكها فارسل بعض أصحابه الى أهل ورثان سرا يعرفهم وصوله ويأمرهم بالصبر فسار القاصد ولقيه بعض الخزر فاخذوه وسألوه عن حاله فأخبرهم وصدقهم فقالوا له ان فعلت مانأمرك به أحسنا اليك وأطلقناك

والاقتالناك قال فما الذى تريدون قالوا تقول لاهــل ورثان انكم ليس لكم مدد ولا من يكشف مابكم وتأمرهم بتسليم البلد الينا فأجابهــم الى ذلك فلما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم أتعرفونى قالوا نعم أنت فلان قال فان الحرشى قد وصــل الى مكان كذا في عساكر كثيرة وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر ففى هذين اليومين يصل اليكم فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل وقتلت الخزر ذلك الرجل ورحلوا عن مدينــة ورثان فوصلها الحرشى في العساكر وليس عندها أحد فارتحل يطلب الخزر الى أردبيــل فسار الخزر عنها ونزل الحرشى باجروان فأتاه فارس على فرس أبيض فسلم عليه وقال له هل لك أيها الامير في الجهاد والغنيمة قال كيف لى بذلك قال هــذا عسكر الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من المسلمين اسارى وسبايا وقد نزلوا على أربعة فراسخ فسار الحرشى ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربعة جهات فكبسهم مع الفجر ووضع المسلمون فيهم السيف فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد واطلق الحرشى من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان فلما دخلها أتاه ذلك الرجــل صاحب الفرس الابيض فسلم وقال هذا جيش للخزر ومعهم أموال للمسلمين وحرم الجراح وأولاده بمكان كذا فسار الحرشى اليهم فما شعروا الا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا ولم يفلت من الخزر الا الشريد واستنقذوا من معهــم من المسلمين والمسلمات وغنموا أموالهم وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحسن اليهم وحمــل الجميع الى باجروان وبلغ خبر مافعلــه الحرشى بعساكر الخزر ابن ملكهم فوبخ عساكره وذمهم ونسبهم الى العجز والوهن فحرض بعضــهم بعضا وأشاروا عليــه بجمع أصحابه والعود الى قتال الحرشى فجمع أصحابه من نواحى اذربيجان فاجتمع معــه عساكر كثيرة وسار الحرشى اليه فالتقيا بأرض برزند واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه فانحاز المسلمون يسيرا فحرضهم الحرشى فأمرهــم بالصبر فعادوا الى القتال وصــدقوهم الحملة واستغاث من مع الخزر من الاسارى ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء فعندها حرض المسلمون بعضهم بعضا ولم يبق أحد الا وبكى رحمة للاسرى واشتدت نكايتهم في العدو فولوا الادبار منهزمين وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أرس وعادوا عنهــم وحووا ما في عساكرهــم من الاموال والغنائم وأطلقوا الاسرى والسبايا وحملوا الجميع الى باجروان ثم ان ابن ملك الخزر جمع من لحق به من عساكره وعاد بهــم نحو الحرشى فنزل على نهر البيلقان وبلغ الخــبر الحرشى فسار نحوه في عساكر المسلمين فوافاهــم وهم على نهر البيلقان فالتقوا هناك فصاح الحرشى بالناس فحملوا حملــة

صادقة ضعضعوا صفوف الخزر وتابع الحملات وصبر الخزر صبرا عظيما ثم كانت الهزيمة عليهم فولوا الادبار منهزمين وكان من غرق منهم في النهر أكثر ممن قتل وجمع الحرشي الغنائم وعاد الى باجروان فقسمها وارسل الخمس الى هشام بن عبد الملك وعرفه مافتح الله على المسلمين فكتب اليه هشام يشكره وأقام بباجروان فأتاه كتاب هشام يأمره بالمسير اليه واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على ارمينية واذربيجان فوصل الى البلاد وسار الى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفي سنة ثلاث عشرة ومائة فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مداين وحصون على يديه وقتل منهم واسر وسبى واحرق ودان له من وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع لايعلم عددهم الا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم ترك خيامهم واثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق فعزله هشام وولى ارمينية واذربيجان مروان بن محمد وسيأتي الكلام ان شاء الله على غزواته وماافتتحه وانما تابعنا الكلام الى سنة ثلاث عشرة لارتباط بعضه ببعض ولنرجع الى تمام الكلام على الفتوحات الحاصلة في غير اذربيجان وارمينية من سنة خمس الى سنة ثلاث عشرة فنقول كان في سنة خمس غزوة لسعيد بن عبد الملك بارض الروم فبعث سرية في نحو الف مقاتل فأصيبوا جميعا وفي سنة ١٠٤ استعمل مسلم بن سعيد الكلابي أميرا بخراسان بعد عزل الحرشي عنها فغزا الترك بما وراء النهر سنة ١٠٥ فلم يفتح شيأ وقفل فتبعه الترك فلحقوه والناس يعبرون جيحون فوقف على الساقة عبيد الله بن زهير ومعه خيل بني تميم حتى عبر الناس سالمين وغزا مسلم أيضا تلك السنة افشين فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ودفع اليه القلعة وفي سنة خمس أيضا غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى فافتتح قونيه من أرض الروم وكمخ

﴿ ذكر غزو مسلم بن سعيد الكلابي الترك ﴾

في سنة ست ومئة قطع مسلم النهر ولحق به من لحق من أصحابه فلما بلغ بخارا أتاه كتاب خالد بن عبيد الله القسري يخبره بولايته العراق ويأمره باتمام غزاته فسار الى فرغانة فلما وصلها بلغه ان خاقان قد أقبل عليه وانه في موضع ذكروه فارتحل فسار ثلاث مراحل في يوم وأقبل اليهم خاقان فلقي طائفة من المسلمين وأصاب دواب لمسلم وقتل جماعة من المسلمين ثم أطاف خاقان بالعسكر وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر فرحل مسلم

بالناس فسار ثمانية أيام والترك يحيطون بهم وأصاب الناس عطش واحرق الناس ماثقل من الامتعة فحرقوا ماقيمته الف الف وأتوا خجندة فأصابتهم مجاعة ولما أراد عبور النهر والترك محيطون به أمر مسلم الناس ان يخترطوا سيوفهم ويحملوا ففعلوا وصارت الدنيا كلها سيوفا فأفرجوا لهم فعبروا ثم وافاه كتاب خالد بن عبد الله بعزله وولاية أخي خالد وهو أسد ابن عبد الله القسري وفي سنة سبع ومائة ملك الجنيد بن عبد الرحمن بعض بلاد السند وقتل صاحبه حيشبة وتقدم تفصيل ذلك

﴿ ذكر غزوة بالاندلس ﴾

في سنة سبع ومائة غزا عنبسة بن سحيم الكلبي عامل الاندلس لهشام بن عبد الملك بلد الفرنج في جمع كثير ونازل مدينة قرقونه وحصر أهلها فصالحوه على نصف أعمالهم وعلى جميع مافي المدينة من اسرى المسلمين واسلابهم وان يعطوا الجزية ويلتزموا باحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه فعاد عنهم عنبسة

﴿ ذكر غزوة الغور ﴾

في هذه السنة غزا اسد بن عبد الله الغوري وهو جبال هراة فعمد أهلها الى اثقالهم فصيروها في كهف ليس اليه طريق فامر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بسلاسل فتوصلوا الى الكهف فستخرجوا ما قدروا عليه

﴿ ذكر غزوة الختل والغور ﴾

في سنة ثمان ومائة قطع أسد النهر وأتاه خاقان فلم يكن بينهما قتال وقيل عاد مهزوما من الختل واظهر انه يريد يشتو بسرخ دره فامر الناس فرتحلوا ووجه رايته وسار في ليلة مظلمة الى سرخ دره فكبر الناس فقال مالهم فقالوا هذه علامتهم اذا قفلوا فقال للمنادي ناد ان الامير يريد الغوريين فمضى اليهم فقاتلوهم يوما وصبروا لهم ثم عادوا من الغد فقتلوا وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم وظهروا على البلاد واسروا وسبوا وغنموا ورجعوا وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم مما يلي الجزيرة ففتح قيسارية وهي مدينة مشهورة وفيها أيضا غزا ابراهيم بن هشام ففتح حصنا من حصون الروم وفيها أيضا سار ابن خاقان ملك الترك الى اذربيجان فحصر بعض مدنها فسار اليه الحارث بن عمرو الطائي فالتقوا فاقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نهر ارس فعاد اليه ابن خاقان فعاود حربه أيضا فانهزم ابن خاقان وقتل من الترك خلق كثير وفي سنة تسع ومائة فصل هشام بن عبد الملك ولاية خراسان عن ولاية العراق وعزل اسد عن

خراسان واستعمل على خراسان اشرس بن عبد الله السلمى وله وقائع مع أهل سمرقند ستأتى وفي هذه السنة غزا عبد الله بن عقبة النهرى في البحر وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصنا يقال له طيبة وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية اذربيجان وتقدم ذكر ذلك وفي هذه السنة أيضا غزا بشر بن صفوان عامل افريقية جزيرة صقلية فغنم شيأ كثيرا ثم رجع الى القيروان

﴿ ذكر ماجرى لاشرس بن عبد الله السلمى مع أهل سمرقند وغيرها ﴾

في سنة عشر ومائة ارسل اشرس جماعة الى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية فدعوهم لذلك فأسلموا فجاء الخبر الى اشرس بأن الخراج قد انكسر فكتب اشرس الى العامل بلغني أنهم لم يسلموا رغبة وانما أسلموا نفورا من الجزية فانظروا من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورا من القرآن فارفعوا الجزية عنه وعزل ذلك العامل وولى ابن هانى فكتب لاشرس انهم اسلموا وبنوا المساجد فكتب اليه أشرس أن يعيد الجزية على من كانت عليه ولو أسلم فاعتزلوا في سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند وامتنعوا وأرادوا القتال فكتب اشرس بوضع الخراج عنهم فرجعوا وضعف أمرهم ثم تتبعوا وحبسوا وقيدت عليهم العقوبات وخرقت ثيابهم والقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية ممن أسلم فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا بالترك فخرج اشرس غازيا فنزل آمل واقام شهرا وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم في عشرة آلاف فعبر النهر ولقي الترك وأهل الصغد وبخارى ومعهم خاقان فحصروا قطنا في خندقه واغار الترك على سرح المسلمين فبعث اشرس خيلا فاستنقذت من أيدى الترك ما أخذوه ثم عبر اشرس النهر بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا امامهم وسار اشرس بالناس حتى جاء بيكند فحصرها المسلمون فقطع أهل البلد عنهم الماء وأصابهم العطش فرحلوا قاصدين البلد فاعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالا شديدا حتى أزالوا الترك عن الماء وحمل قطن بن قتيبة في جماعة تعاقدوا على الموت فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم الى الليل ثم رجع اشرس الى بخارى وجهز عليها عسكرا يحاصرونها ثم حاصر خاقان مدينة كمرجه من خراسان وبها جمع من المسلمين فاغلقوا الباب وقطعوا القنطرة التى على الخندق ليمنعوا الكفار من الدخول اليهم ثم أمر خاقان بقطع الخندق فجعلوا يلقون فيه الحطب الرطب ليعبروا عليه وجعل المسلمون يلقون حطبا يابسا على الحطب الرطب حتى سوى الخندق فاشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعا من الله فاحترق الحطب في ساعة واحدة وكانوا جمعوه في سبعة أيام

ثم فرق خاقان على الترك أغناما وأمرهم ان يأكلوا لحمها ويحشوا جلودها ترابا ويكبسوا خندقها ففعلوا ذلك فأرسل الله سحابة فأمطرت مطرا شديدا فاحتمل السيل مافي الخندق والقاه في النهر الاعظم ورماهم المسلمون بالسهام فأصابت بازغرى نشابة في سرته فمات من ليلته وكان داهية وكان خاقان لايخالفه فدخل عليهم بموته أمر عظيم فلما امتد النهار جاؤا بالاسرى الذين عندهم وهم مائة فقتلوهم وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا واشتد القتال ولم يزل أهل كمرجه كذلك حتى اتبلت جنود العرب فنزلت فرغانة فعير خاقان قومه في طول المدة وعدم الفتح قال زعمتم انها تفتح في خمسة أيام فصارت الخمسة شهرين وأمرهم بالرحيل وشتمهم فقالوا أمهلنا الى غد وانظر مانصنع فلما كان الغد وقف خاقان وتقدم ملك الطاربند فقاتل المسلمين وقتل منهم ثمانية وجاء حتى وقف على ثلمة الى جنب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمى بكلوب فتعلق بدرعه ثم نادى النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجهه ورماه رجل بحجر فأصاب أصل اذنه فصرع وطعنه آخر فقتله فاشتد قتله على الترك وأرسل خاقان الى المسلمين انه ليس من رأينا ان نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها فارحلوا أنتم عنا فقالوا له ليس من ديننا ان نعطى بايدينا حتى نقتل فاصنعوا مابدالكم فاعطاهم الترك الامان على ان يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها الى سمرقند أو الدبوسية فرأى أهل كمرجة مداهم فيه من الحصار فاجابوا الى ذلك فأخذوا من الترك رهائن ان لا يعرضوا لهم وطلبوا ان كورصول التركى يكون معهم في جماعة يمنعهم الى الدبوسية فسلموا اليهم الرهائن وأخذوا هم أيضا من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ثم رحلوا هم بعده فقال الاتراك الذين مع كورصول ان بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن ان يخرجوا علينا فقال لهم المسلمون ان قاتلوكم قاتلناهم معكم فساروا فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها الى الفرسان فظنوا ان كمرجة فتحت وان خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب فرسل المسلمون اليهم يخبرونهم خبرهم فلقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشى ومن كان مجروحا فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا الى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه باطلاقهم فجعلت العرب تطلق رجلا من الرهن والترك رجلا حتى بقى سبع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر فقال سبع خلوا رهينة الترك فخلوه وبقى سباع مع الترك فقال له

كورصول ماحملك على هذا قال وثقت بك وقات ترفع نفسك عن الغدر فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذونا وأطلقه وكان مدة حصار كمرجة ثمانية وخمسين يوما فيقال انهم لم يسقوا ابلهم خمسة وثلاثين يوما وفي هذه السنة ارتد أهل كردر فارسل اليهم اشرس جندا فظفروا بهم وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الروم ففتح صملة وغزا الصائفة عبد الله ابن عقبة الفهري وفيها مات الحسن البصري وعمره سبع وثمانون سنة وفيها أيضاً مات محمد ابن سيرين وعمره احدى وثمانون سنة

ذكر غزو ماوراء النهر

في سنة احدى عشرة ومائة عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل عليها الجنيد بن عبد الرحمن المري الغطفاني القيسي فلما قدم خراسان سار الى ماوراء النهر وأرسل الجنيد الى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد ان أمدني بخيل وخاف ان يقتطع دونه فوجه اليه أشرس عامر بن مالك الحماني في جماعة فلما كان عامر ببعض الطريق عرض له الترك والصغد فدخل حائطا حصينا وقاتلهم على الثلمة وكان ممن معه واصل بن عمرو القيسي وعاصم بن عمر السمرقندي فاستداروا مع جماعة من القوم حتى صاروا من وراء الماء الذي هناك ثم جمعوا قصبا وخشبا وعبروا عليه فلم يشعر خاقان الا والتكبير من خلفه وحمل المسلمون على الترك فقاتلوهم وقتلوا عظيما من عظمائهم وانهزم الترك وسار عامر الى الجنيد فلقيه وأقبل معه فلما انتهى الى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم فكاد الجنيد يهلك ومن معه ثم أظهره الله وسار حتى قدم العسكر فظفر الجنيد وقتل الترك وزحف اليه خاقان فالتقوا دون رزمان من بلاد سمرقند وأسر الجنيد من الترك ابن أخي خاقان فبعث به الى هشام ورجع الجنيد الى مرو وقد ظفر وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية وغزا في البحر عبد الله بن أبي كريم وفي سنة اثنتي عشرة ومائة كان دخول الجراح ابن عبدالله الحكمي بلاد الخزر وقتله وتقدم الكلام على ذلك مستوفي

(ذكر وقعة الجنيد بن عبد الرحمن المري بالشعب)

في سنة ثنتي عشرة ومائة خرج الجنيد من مرو غازيا طخارستان فوجه عمارة بن حريم الى طخارستان في ثمانية عشر ألفا ووجه ابراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف الى وجه آخر وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سورة بن الحر فكتب سورة الى الجنيد ان خاقان جاش الترك فخرجت اليهم فلم اطق ان أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فامر

الجنيـد الناس بعبور النهر فقال له جمـاعة من جنده ان الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفا ولا زحفا وقد فرقت كثيرا من الجند ولا يعبر النهر في أقل من خمسين الفا فاكتب الى عمارة فليأتك وامهل ولا تعجل قال فكيف بسورة ومن معـه من المسلمين لولم اكن الا في بني مرة أومن طلع معي من الشام لعبرت ثم عبر الجنيد بمن كان حاضرا فنزل كش وتأهب للمسير و بلغ الترك مسـيره فغوروا الآبار التي في طريق كش فقال الجنيـد أى طريق الى سمرقند أصلح فقالوا طريق المحترقة فقال المجشر بن مزاحم السلمي القتـل بالسيف أصلح من القتل بالنار طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين فان لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ولكن خـذ طريق العقبـة فهو بيننا وبينهم سواء فاخذ الجنيد طريق العقبة فارتقى في الجبل فاخذ المجشر بعنان دابته وقال انه كان يقال ان رجلا مترفا من قيس يهلك على يديه جند من جنود خراسان وقد خفنا ان تكونه فقال ليفرخ روعـك قال أما ما كان بيننا مثلك فلا فبات في أصـل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ ودخـل الشعب فصبحه خاقان في جمع عظيم وزحف اليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك فحمل خاقان على المقدمة فرجعوا الى العسكر والترك تتبعهم وجاؤا من كل وجه فرتب الجنيد جيشه وجعل على كل جهة رئيسا مشهورا بالشجاعة وشد نصر بن سيار هو ومن معه على العدو فكشفوهم ثم كروا عليهم وقتل يومئذ من الازد ثمـانون رجلا وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا فكانت السيوف لا تقطع شيأ فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى مل الفريقان فكانت المعانقة ثم تحاجزوا فبينا الناس كذلك اذ أقبـل رهج وطلعت فرسان فنادى منادى الجنيد الارض الارض فترجل وترجل الناس ثم نادى ليخندق كل قائد على حياله فخنـدقوا وتحاجزوا وقد أصيب من الازد مائة وتسعون رجـلا وكان قتالهم يوم الجمعة فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم يجد موضعا للقتال أسهل من الموضع الذي نزل به قبائل بكر ابن وائل فقصدهم فلما قربوا حملت بكر عليهم فافرجوا لهم وسجد الجنيد واشتد القتال بينهم فلما رأى الجنيد شدة الامر استشار أصحابه فقال له عبـد الله بن حبيب اختر اما ان تهلك انت أو سورة بن الحر قال هلاك سـورة أهون علي قال فاكتب له فليأتك من سمرقند في أهـل سمرقند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه فكتب اليـه الجنيد يأمره بالقدوم فقال سورة حليس بن غالب الشيباني ان الترك بينك وبين الجنيد فان خرجت كروا عليك فاختطفوك فكتب الى الجنيد انى لا أقدر على الخروج فكتب اليه الجنيد يا ابن اللخناء

تخرجوا والا وجهت اليك شداد بن خليد الباهلي وكان عدوه فاخرج والزم الماء ولا تفارقه فاجمع على المسير وقال اذا سرت على النهر لا أصل في يومين وبيني وبين هذا الوجه ليلة فاذا سكنت الرجل سرت فجاءت عيون الاتراك فاخبروهم بمقالة سورة ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلى وسار في اثنى عشر ألفا فأصبح على رأس جبل فتلقاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ فقاتلهم أشد القتال وصبروا فقال غورك لخاقان اليوم حار فلا تقاتلهم حتى يحمى عليهم السلاح فوافقهم وأشعل النار في الحشيش وحال بينهم وبين الماء فقال سورة لعبادة ماترى ياأبا سلم فقال أرى أن الترك يريدون الغنيمة فاعقر الدواب وأحرق المتاع وجرد السيف فانهم يخلون لنا الطريق وان منعونا شرعنا الرماح ونزحف زحفا وانما هو فرسخ حتى نصل الى العسكر فقال لاأقوى على هذا ولا فلان وفلان وعد رجالا ولكن اجمع الخيل فأصكهم بها سلمت أم عطبت وجمع الناس وحملوا فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم غير ألفين ويقال ألف وكان ممن نجى عاصم بن عمير السمرقندي وانحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمائة الى رستاق يسمى المرغاب فنزلوا قصراً هناك فأتاهم الاشكند صاحب نسف ومعه غورك فأعطاهم غورك الامان فقال قريش بن عبد الله العبدى لاتثقوا بهم ولكن اذا جن الليل خرجنا عليهم حتى نأتى سمرقند فعصوه فنزلوا بالامان فساقهم الى خاقان فقال لاأجيز أمان غورك فقتلهم الوجف بن خالد ومعه المسلمون فاصيبوا غير سبعة عشر رجلا فقتلوا غير ثلاثة وقتل سورة في اللهب فلما قتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادرا فقال له خالد بن عبيد الله سر واسرع فقال له المجشر انزل وأخذ بلجام دابته فنزل ونزل الناس معه فلم يستتم نزولهم حتى طلع الترك فقال المجشر له لو لقونا قبل نزولنا ونحن نسير ألم يهلكونا فلما أصبحوا تناهضوا فجال الناس فقال الجنيد أيها الناس انها النار فرجعوا ونادى الجنيد أى عبد قاتل فهو حر فقاتل العبيد قتالا عجب منه الناس فسروا بما رأوا من صبرهم وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا فقال موسى ابن الثغراء تفرحون بما رأيتم من العبيد ان لكم منهم ليوما اروزبان أى ذارياسة ومضى الجنيد الى سمرقند فحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ولما انصرف الترك بعث الجنيد بالخبر الى هشام وكتب اليه ان سورة عصانى أمرته بلزوم الماء فلم يفعل فتفرق عنه أصحابه فأتتني طائفة وطائفة الى نسف وطائفة الى سمرقند وأصيب

سورة فى بقية أصحابه فكتب هشام الى الجنيد قد وجهت اليك عشرة آلاف من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها ترسة ومثلها سيفا فافرض أى ماشئت في العطا فلا غاية لك في الفريضة بخمسة عشر ألفا ولما سمع هشام مصاب سورة قال انالله وانا اليه راجعون مصاب سورة بخراسان ومصاب الجراح بالباب وابلى نصر بن سيار يومئذ بلاء حسنا وأرسل الجنيد ليلة بالشعب رجلا وقال له تسمع مايقول الناس وكيف حالهم ففعل ثم رجع اليه فقال رأيتهم طيبة أنفسهم يتناشدون الاشعار ويقرؤن القرآن فسره ذلك قال عبيد بن حاتم ابن النعمان رأيت فساطيط بين السماء والارض فقلت لمن هذه فقالوا لعبدالله بن بسطام وأصحابه فقتلوا في غد فقال رجل مررت في ذلك الموضع بعد ذلك بحين فشممت رائحة المسك وأقام الجنيد بسمرقند وتوجه خاقان الى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم فخاف الجنيد الترك على قطن بن قتيبة فشاور أصحابه فقال قوم نلزم سمرقند وقال قوم نسير منها فنأتى ربنجن ثم كش ثم الى نسف فنتصل منها الى أرض زم ونقطع النهر وننزل آمل فنأخذ عليه بالطريق واستشار عبدالله ابن أبي عبدالله مولى بنى سليم وأخبره بما قالوا فاشترط عليه ان لايخالفه فيما يشير به عليه من ارتحال ونزول وقتال فقال نعم قال فانى أطلب اليك خصالا قال وماهى قال تخندق حيثما نزلت ولا يفوتنك حمل الماء ولو كنت على شاطئ نهر وان تطيعنى في نزولك وارتحالك قال نعم قال اما ماأشاروا عليك في مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث فالغياث يبطئ عنك وأما ماأشاروا من طريق كش ونسف فانك ان سرت بالناس من غير الطريق فتت في أعضادهم وانكسروا عن عدوهم واجترأ عليك خاقان وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له فان أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى مافعلت فيستسلموا لعدوهم وان أخذت الطريق الاعظم هابك العدو والرأى عندى أن تأخذ عيال من قتل مع سورة فتقسمهم على عشائرهم وتحملهم معك فانى ارجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك وتعطى كل رجل تخلف بسمرقند ألف درهم وفرسا فاخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمن بن أبى عبدالله بن الشخير في أربعمائة فارس وأربع مائة راجل فشتم الناس عبدالله بن أبى عبدالله وقالوا ماأراد الا هلاكنا فخرج الجنيد وحمل العيال معه وسرح الاشحب بن عبيد الحنظلى ومعه عشرة من الطلائع وقال كلما مضت مرحلة تسرح الى رجلا يعلمنى خبركم وسار الجنيد فاسرع سيره فقال له عطاء الدبوسى انظر اضعف شيخ في العسكر فسلحه سلاحا تاما بسيفه ورمحه وترسه وجعبته ثم سر على قدر مشيه فانا لانقدر على سرعة مسير

والقتال ففعل الجنيد ذلك ولم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الاماكن المخوفة ودنا من الطواويس وأقبل اليه خاقان بكرمينية أول يوم من رمضان واقتتلوا فاتاه عبد الله بن أبي عبد الله وهو يضحك فقال الجنيد ليس هذا يوم ضحك قال الحمد لله اذ لم يلقك هؤلاء في جبال معطشة وعلى ظهر انما أتوك وأنت مخندق آخر النهار كالين وأنت معك الزاد فقاتلوا قليلا ثم رجعوا ثم قال للجنيد ارتحل فان خاقان ود أنك تقيم فينطوي عليك اذا شاء فسار وعبدالله على الساقة ثم أمره بالنزول فنزل واستقى الناس وباتوا فلما أصبحوا ارتحلوا فقال عبد الله أتوقع ان خاقان يصدم الساقة اليوم فشدوها بالرجال فقواهم الجنيد وجاءت الترك فمالت على الساقة فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وقتل مسلم بن أحوز عظيما من عظماء الترك فتطيروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس وسار المسلمون فدخلوا بخارى يوم المهرجان فتلقوهم بالدراهم البخارية فأعطاهم عشرة عشرة قال عبد المؤمن بن خالد رأيت عبد الله ابن أبي عبد الله في المنام بعد موته فقال حدث الناس عني برأيي يوم الشعب وكان الجنيد يذكر خالد بن عبد الله فيقول زبدة من الزبد صنبور من صنبور قل من قل هيقة من الهيف والهيقة الضبع والقل الفرد والصنبور الذي لا أخ له وقدمت الجنود من الكوفة والبصرة على الجنيد فسرح معهم حوثرة بن زيد العنبري فيمن انتدب معه وبقي الجنيد في ولايته الى سنة ست عشرة ومائة كما سيأتي وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرشنة وفي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا عبد الله البطال أرض الروم ومعه عبد الوهاب بن بخت فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وهو يقول مارأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمي ان لم أسفك دمك ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح أنا عبد الوهاب ابن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الري امامك فخالط القوم فقتل وقتل فرسه وفي هذه السنة أيضاً فرق مسلمة بن عبد الملك الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من كانوا وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم على خاقان في جمع لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فاوقدوا النيران ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق وقد تقدم ذكر ذلك وأعيد هنا ليرتبط الكلام ببعضه

﴿ ذكر قتل عبد الرحمن الغافقي أمير الاندلس ﴾

وفي سنة ثلاث عشرة أيضاً كان غزو من المسلمين الذين بافريقية على بلاد افرنجه وذلك ان هشام بن عبد الملك كان قد استعمل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على افريقية والاندلس فاستعمل عبيدة على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فغزا افرنجه وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة وكان فيما أصاب صورة رجل بكسر الراء وسكون الجيم من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها وقسمها في الناس فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضبا شديداً وكتب اليه يتهدده فاجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا أما بعد فان السموات والارض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين منها مخرجا يعني فان الله قادرأن ينجيني مماتتهددني به ثم خرج غازيا مرة ثانية ببلاد الفرنج فقتل هو ومن معه شهداء

﴿ ذكر ولاية مروان بن محمد ارمينية واذربيجان بعد انقضاء غزو مسلمة بن عبد الملك ﴾

في سنة أربع عشرة ومائة استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على الجزيرة واذربيجان وأرمينية وكان سبب ذلك انه كان في عسكر مسلمة بارمينية حين غزا الخزر فلما عاد مسلمة سار مروان الى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه فسأله عن سبب قدومه فقال ضقت ذرعا بما أذكره ولم أر من يحمله غيري قال وماهو قال مروان قد كان من دخول الخزر الى بلاد الاسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين مادخل به الوهن على المسلمين ثم رأى أمير المؤمنين أنه يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك اليهم فوالله ماوطئ من بلادهم الا أدناها ثم انه لما رأى كثرة جمعهم أعجبه ذلك فكتب الى الخزر يؤذنهم بالحرب وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعد القوم وحشدوا فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية وكان قصاراه السلامة وقد أردت أن تأذن لي في غزوة أذهب بها عنا العار وأنتقم من العدو قال قد أذنت لك قال وتمدني بمائة وعشرين ألف مقاتل قال قد فعلت قال وتكتم هذا الامر عن كل واحد قال قد فعلت وقد استعملتك على ارمينية فودعه وسار الى أرمينية واليا عليها وسير هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة فاجتمع عنده من الجنود والمتطوعة مائة وعشرون ألفا فأظهر انه يريد غزو اللان وقصد بلادهم وأرسل الى ملك الخزر يطلب منه المهادنة فأجابه الى ذلك وأرسل اليه من يقرر الصلح فأمسك الرسول عنده الى ان فرغ من جهازه وما يريد ثم أغلظ لهم القول وآذنهم بالحرب وسير الرسول الى صاحبه بذلك ووكل به من يسيره على طريق فيه بعد وسار هو في أقرب الطريق فما وصل الرسول الى صاحبه الا ومروان قد وافاهم فاعلم صاحبه الخبر وأخبره

بما قد جمع له مروان وحشد واستعد فاستشار ملك الخزر أصحابه فقالوا ان هذا قداغترك ودخل بلادك فان أقمت الى ان تجمع جنودك لم يجتمعوا عندك الا بعد مدة فيبلغ منـك مايريد وان أنت لقيته على حالك هـذه هزمك وظفر بك والرأى ان تتأخر الى أقصى بلادك وتدعه وما يريد فقبل رأيهم وسار حيث أمروه ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى وانتهى الى آخرها وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم ودخل بلاد ملك السرير فاوقع باهله وفتح قلاعا ودان له الملك وصالحه على ألف رأس نصفين خمسمائة غلاما وخمسمائة جارية سود الشعور ومائة ألف مد من البر تحمل الى الباب وصالحه أهل قرمان على مائة رأس نصفين وعشرين الف مد من البر ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها ثم أتى أرض حمزين فابى حمزين ان يصالحه فحاصرهم فافتتح حصنهم عنوة ثم أتى سغدان فافتتحها صلحا ووظف على طبر شانشاه عشرة آلاف مد بر كل سنة تحمل الى الباب ثم نزل على قلعة صاحب اللكز قد امتنع من أداء الوظيفة فخرج ملك اللكز يريد ملك الخزر فقتله راع بسهم وهو لايعرفه فصالح أهل اللكز مروان واستعمل عليهم عاملا وسار الى قلعة شروان وهي على البحر فاذعن أهلها بالطاعة وسار الى الدودانية فاوقع بهم ثم عاد وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى فأصاب ربض أقرن وغزا عبدالله البطال الروم والتقى هو وقسطنطين في جمع فهزمهم البطال وأسر قسطنطين وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى وبلغ قيسارية وفي سـنة خمس عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام أرض الروم وغزا عبد الملك بن قطن عامل الاندلس أرض البشكنس فغنم وعاد سالمـا وفي سنة ست عشرة ومائة غزا معاوية بن عبـد الملك أرض الروم الصائفة وفيها عزل هشام بن عبدالملك الجنيد بن عبد الرحمن المرى عن خراسان واستعمل عليها عاصم ابن عبد الله الهلالى وسبب ذلك ان الجنيد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب هشام لعداوته ليزيد بن المهلب لانه خلع أخاه يزيد بن عبد الملك كما تقدم فولى عاصما خراسان وكان الجنيد أصابه استسقاء فقال هشام لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسـه فقدم عاصم وقد مات الجنيد وفي هذه السـنة استعمل هشام على افريقية عبيد الله بن الحجاب الموصلى فسير جيشا الى صقلية وهي بكسرات مشددة اللام جزيرة بالمغرب فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزمت الروم وكانوا قد أسروا جمـاعة من المسلمين منهم عبد الرحمن بن زياد فبقي أسيرا الى سنة احدى وعشرين ومائة وفي سنة ست عشرة أيضاً جهز عبيدالله بن الحجاب جيشا مع حبيب بن أبى عبيدة وسيرهم الى أرض السودان فظفربهم

ظفرا لم يظفر أحد مثله وأصاب ماشاء ثم غزا البحر ثم انصرف سالما وفيها سير أيضاً ابن الحجاب جيشا الى السوس فغنموا وظفروا وعادوا وفي سنة سبع عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة وفرق سراياه في أرض الروم وفيها بعث مروان بن محمد وهو على ارمينية بعثين وافتتح أحدهما حصونا ثلاثة من اللان ونزل الآخر على توماشاه فنزل أهلها على الصلح وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبدالله عن خراسان وأعاد أمر خراسان لوالى العراق خالد بن عبد الله القسرى فولى خالد خراسان أخاه أسد بن عبد الله وهذه ولايته الثانية وسيأتى ذكر غزواته وفيها بعث عبيد الله بن الحجاب حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع غازيا الى المغرب فبلغ السوس الاقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد الا ظفر به وأصاب من الغنائم والسبي أمرا عظيما فملئ أهل المغرب منه رعبا وأصاب في السبي جاريتين من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدى واحد ورجع سالما وسير جيشا في البحر سنة سبع عشرة ومائة أيضاً الى جزيرة السردانية وهي جزيرة كبيرة بحر المغرب ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا وسير جيشا الى صقلية سنة اثنتين وعشرين فلم يلقه أحد الا هزمه فظفر ظفرا لم ير مثله حتى نزل على مدينة سرقوسة وهي من أعظم مدن صقلية فقاتلوه فهزمهم وحصرهم فصالحوه على الجزية وفي سنة ثمان عشرة ومئة غزا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبد الملك أرض الروم وفي هذه السنة كانت وفاة معاوية المذكور في حياة والده وأعقب أولادا منهم عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الذى ملك الاندلس ثم أولاده بعده وفي هذه السنة غزا أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان طخارستان ثم أرض جبوية فغنم وسبى وفيها غزا مروان بن محمد بن مروان ارمينية ودخل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب فهرب منه ورنيس الى الخزر ونزل حصنه فحصره مروان ونصب عليه المجانيق فقتل ورنيس قتله بعض من اجتاز به وأرسل رأسه الى مروان فنصبه لاهل حصنه فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية

ذكر مقتل خاقان

لما كانت سنة تسع عشرة ومائة غزا أسد بن عبد الله القسرى بلاد ختل ففتح منها قلاعا وامتلأت أيدى العسكر من السبي والنساء ولما بلغ الخبر خاقان جيش جيوشه وقصد أسدا فعبر المسلمون النهر راجعين الى بلادهم فتبعهم خاقان والتقوا بعد عبور النهر واقتتلوا قتالا شديدا وهزموا خاقان ثم مضى أسد الى بلخ وشتى فيها ثم قصدهم خاقان

بجيوشه الى بلخ ثم التقوا على فرسخين من الجوزجان فانهزم خاقان ومن معه وتبعهم المسلمون ثلاثة فراسخ وغنموا مائة وخمسين الفا من الشاء ودوالى كثيرة ورجع أسد الى بلخ ثم وصل خاقان الى بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ولاعب يوما خاقان بالنرد كورصول فقمزه كورصول وتشاجرا فصك كورصول يدخاقان فكسرها فحلف خاقان ليكسرن يده فتنحى وجمع جمعاً ثم بيت خاقان فقتله وتفرقت الترك واشتغلت الترك يغير بعضهم على بعض وأرسل أسد مبشرا الى هشام فلما بلغ هشام بن عبد الملك مقتل خاقان سجد شكرا لله ثم غزا أسد الختل مرة ثانية وفرق عسكره في أودية الختل فملؤا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين وفي سنة تسع عشرة أيضاً غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم وغزا مروان بن محمد بن مروان من أرمينية فدخل بلاد اللان وسار فيها حتى خرج منها الى بلاد الخزر فمر ببلنجر وسمندر وانتهى الى البيضاء التي يكون فيها خاقان وكان ذلك قبل مقتل خاقان فهرب منه خاقان وفي سنة عشرين توفي أسد بن عبد الله بمدينة بلخ وفيها عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله عن العراق وولى يوسف بن عمر الثقفي وولى نصر بن سيار الكناني خراسان بعد موت أسد بن عبد الله وفي هذه السنة غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة وفتح سندرة وغزا اسحاق بن مسلم العقيلي تومانشاه وافتتح قلاعها وخرب أرضها وفي هذه السنة توفي مسلمة بن عبد الملك بن مروان وفي سنة احدى وعشرين ومائة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير

﴿ ذكر غزوات نصر بن سيار الكناني ماوراء النهر ﴾

كان نصر بن سيار عاقلا حزما شجاعا مدبرا عمرت خراسان في مدة ولايته عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية مكث واليا على خراسان في سنة ثلاثين ومائة فكانت مدة ولايته عشر سنين وكان قبل ولايته من امراء الاجناد بخراسان وولى على بعض المداين وكان جعفر بن حنظلة الذى استخلفه أسد على خراسان عند موته قد عرض على نصر أن يوليه بخارى فاستشار البحترى بن مجاهد مولى بني شيبان فقال له لاتقبلها لأنك شيخ مضر وكأنك بعهدك قد جاء على خراسان كلها فلما أتاه عهده بعث الى البحترى ليأتيه فقال البحترى لاصحابه قد ولى نصر خراسان فلما أتاه سلم عليه بالامارة فقال له من أين علمت فقال كنت تأتيني فلما بعثت الى علمت أنك قد وليت ولما مات أسد بن عبد الله وبلغ خبر موته هشام بن عبد الملك استشار عبد الكريم بن سليط الحنفي وكان عالما فيمن يوليه خراسان فقال عبد الكريم ياأمير المؤمنين أما رجل خراسان حزماً ونجدة فالكرماني

فاعرض عنه وقال ما اسمه قال جديع بن على قال لاحاجة لى فيه وتطير قال فالسن المجرب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيبانى قال هشام ربيعة لاتسد بها الثغور قال عبد الكريم فقلت في نفسي كره ربيعة واليمن فارمه بمضر فقلت عقيل بن معقل الليثى ان غفرت هنته قال ماهى قلت ليس بالعفيف قال لاحاجة لى فيه فقلت منصور بن أبى الخرقاء السلمى ان غفرت نكره فانه مشؤم قال غيره قلت فالمجشر بن مزاحم السلمى عاقل شجاع له رأى مع كذب فيه قال لاخير في الكذب قلت يحيى بن الحصين قال ألم أخبرك ان ربيعة لاتسد بها الثغور قال فقلت نصر بن سيار قال هو لها قلت هو عفيف مجرب عاقل ان غفرت له واحدة قال ما هى قلت عشيرته بخراسان قليلة قال لاابالك تريد أكثر من عشيرة أنا عشيرته فكتب عهده وبعثه مع عبد الكريم فأعطاه نصر لما أتاه به عشرة آلاف درهم واستعمل نصر على أعمال خراسان رجال مضر الى أربع سنين لم يستعمل أحدا من غير مضر وغزا نصر في سنة احدى وعشرين ما وراء النهر مرتين احداهما من نحو الباب الجديد فسار من بلخ من تلك الناحية ثم رجع الى مرو وخطب الناس وأخبرهم أنه أقام منصور بن عمر بن أبى الخرقاء على كشف المظالم وأنه قد وضع الجزية عمن قد أسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فرغبوا في الاسلام فلم تمض جمعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤسهم وثمانون الفا من المشركين كانت قد القيت عنهم فحول ماكان على المسلمين اليهم ووضعه عن المسلمين ثم صنف الخراج ووضعه مواضعه ثم غزا الثانية الى ورغسر وسمرقند ثم رجع ثم غزا الثالثة الى الشاش من مرو فحال بينه وبين عبور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر الفا وكان معهم الحارث بن سريج وكان قبل ذلك من أمراء المسلمين على جند خراسان ثم وقعت فتنة بينهم فاعتزلهم وصار مع خاقان ثم مع كورصول فعبر كورصول في أربعين رجلا فبيت العسكر في ليلة مظلمة ومع نصر ملك بخارى في أهل بخارى ومعه أهل سمرقند وكش واسف وهم عشرون الفا فنادى نصر ان لايخرجن أحد واثبتوا على مواضعكم فخرج عاصم بن عمير السعدى وهو على جند سمرقند فمرت به خيل الترك فحمل على رجل في آخرهم فأسره فاذا هو ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ثم تبين انه كورصول فأتى به الى نصر فقال له نصر من أنت قال كورصول فقال نصر الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد قال ما ترجو من قتل شيخ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من ابل الترك وألف برذون تقوى به جندك وتطلق سبيلى فاستشار نصر أصحابه فأشاروا باطلاقه فلم يوافقهم ثم سأله عن عمره قال لا أدرى قال كم غزوت قال اثنتين

وسبعين غزوة قال اشهدت يوم العطش قال نعم قال نصرلو اعطيتنى ماطلعت عليه الشمس مااقلت من يدى بعد ماذكرت من مشاهدك وقال لعاصم بن عمير السعدى قم الى صلبه فخذه فقال من أسرنى فقال نصر وهو يضحك اسرك يزيد بن قران الحنظلى وأشار اليه قال هذا لايستطيع ان يغسل استه أولا يستطيع ان يتم له بوله فكيف يأسرنى أخبرنى من أسرنى قال اسرك عاصم بن عمير قال لست أجد ألم القتل اذا كان أسرنى فارس من فرسان العرب فقتله وصلبه على شاطىء النهر فلما قتل كورصول أحرقت الترك ابنيته وقطعوا آذانهم وقطعوا شعورهم واذناب خيلهم فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه فكان ذلك أشد عليهم من قتله وارتفع الى فرغانة فسبى بها ألف رأس وكتب يوسف بن عمر أمير العراق الى نصر سر الى هذا الغادر دينه في الشاس يعنى الحارث بن سريج فان أظفرك الله به وبأهل الشاس فخرب بلادهم واسب ذراريهم واياك وورطة المسلمين فقرأ الكتاب على الناس واستشارهم فقال يحيى بن الحصين انظر أهذا من أمير المؤمنين أو من الامير فقال نصر يايحيي تكلمت بكلمة أيام عاصم فبلغت الخليفة فحظيت بها وبلغت الدرجة الرفيعة فقلت أقول مثلها سريا يحيى فقد وليتك مقدمتى فلام الناس يحيي فسار الى الشاس فأتاهم الحارث ابن سريج فنصب عليهم عرادتين بالتشديد تثنية عرادة شىء أصغر من المنجنيق واغار الاخرم وهو فارس الترك على المسلمين فقتلوه والقوا رأسه الى الترك فصاحوا وانهزموا وسار نصر الى الشاس فتلقاه ملكها بالصلح والهدية والرهن واشترط عليه نصر اخراج الحارث بن سريج عن بلده فأخرجه الى فراب ثم تنقل الحارث في بلاد الترك الى سنة ست وعشرين ثم اصطلح مع المسلمين ورجع الى خراسان سنة سبع وعشرين فكانت مدة مفارقته للمسلمين واتصاله بالترك ثنتى عشرة سنة ورد عليه نصر ما كان أخذ له ثم استعمل نصر على الشاس بعد الصلح مع أهله نيزك بن صالح مولى عمرو بن العص ثم سار حتى نزل قباء من أرض فرغانة وكانوا احسوا بمجيئه فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة فوجه نصر الى ولى صاحب فرغانة فحاصروه في حصن وغفلوا عنه فخرج وغنم دواب المسلمين فوجه اليهم نصر رجالا من تميم ومعهم محمد بن المثنى وكمن المسلمون لهم فخرج الترك واستاقوا بعض الدواب فخرج عليهم المسلمون فهزموهم وقتلوا الدهقان واسروا منهم واسروا ابن الدهقان فقتله نصر ثم سألوه الصلح فأرسل نصر سليمان بن صول بكتاب الصلح الى صاحب فرغانة فأمر به فادخل الخزائن ليراها ثم رجع اليه فقال كيف رأيت الطريق فما بيننا وبينكم قال سهلا كثير الماء والمرعى فكره ذلك وقال ماعلمك فقال سليمان قد غزوت غرشستان وغور

الختل وطبرستان فكيف لااعلم قال فكيف رأيت ماعددنا قال عدة حسنة ولكن ماعلمت ان المحصور لايسلم من خصال لايامن اقرب الناس اليه واوثقهم في نفسه أويفنى ماجمع فيسلم برمته أو يصيبه داء فيموت ففكره ماقال له وأمره فأحضر كتاب الصلح فأجاب اليه وسير أمه معه وكانت صاحبة أمره فقدمت على نصر فأذن لها وجعل يكلمها وكانت مما قالت له كل ملك لايكون عنده ستة أشياء لايكون ملكا وزير يبث اليه مافي نفسه ويشاوره ويثق بنصيحته وطباخ اذا لم يشته الطعام اتخذ له ما يشتهي وزوجة اذا دخل عليها مغتما فنظر الى وجهها زال غمه وحصن اذا فرغ أتاه فأنجاه تعني البرذون وسيف اذا قاتل لايخشى خيانته وذخيرة اذا حملها عاش بها أين كان من الارض ثم دخل تميم بن نصر في جماعة فقالت من هذا قالوا هذا فتى خراسان تميم بن نصر فقالت ماله نبل الكبير ولاحلاوة الصغير ثم دخل الحجاج بن قتيبة بن مسلم الباهلي فقالت من هذا فقالوا الحجاج بن قتيبة بن مسلم فأحيته وسألت عنه وقالت يامعشر العرب مالكم وفاء ولايصلح بعضكم بعضا قتيبة الذي ذلل لكم ماأرى وهذا ابنه تقعده دونك فحقه ان تجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه وعقدت الصلح ورجعت

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

في سنة احدى وعشرين غزا مروان بن محمد بأرمينية وهو واليها فأتى قلعة بيت السرير فقتل وسبي ودخل غوميك وهو حصن فيه بيت الملك وسريره فهرب الملك منه حتى أتى حصنا يقال له حيزج فيه سرير من ذهب فسار اليه مروان ونازله صيفيته وشتويته فصالحه الملك على ألف رأس كل سنة ومائة ألف مد فصالحه وسار مروان فدخل أرض أزر وبطران فصالحه ملكها ثم سار في أرض تومان فصالحه وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصنا له شهرا فصالحه ثم أتى مروان أرض مسداره ففتحها على صلح ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران وفيلان وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من أرمينية الى طبرستان وفي هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم ففتح بها مطامير وفي هذه السنة قتل البطال واسمه عبد الله أبو الحسين الانطاكي وقتل معه جماعة من المسلمين ببلاد الروم وكان كثير الغزو الى الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم حكي انه دخل بلادهم في بعض غزواته هو وأصحابه فدخل قرية لهم ليلا وامرأة تقول لصغير لها يبكي تسكت والا سلمتك للبطال ثم رفعته بيدها وقالت خذه يابطال وكان قريبا منها ووضع يده فتناوله من يدها وكان عبد الملك بن مروان يرسله مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره مرة

على رؤساء أهل الجزيرة والشام وأمر ابنه مسلمة ان يجعله على مقدمته وطلائعه وقال انه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس وله قصص ووقائع كثيرة

ذكر صلح نصر بن سيار مع الصغد

في سنة ثلاث وعشرين ومائة صالح نصر بن سيار الصغد وسبب ذلك ان خاقان لما قتل في ولاية أسد بن عبد الله تفرقت الترك في اغارة بعضها على بعض فطمع أهل الصغد في الرجعة اليها وانحاز قوم منهم الى الشاس فلما ولى نصر بن سيار أرسل اليهم يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا وكانوا يسألون شروطا أنكرها امراء خراسان منها ان لا يعاقب من كان مسلما فارتد عن الاسلام ولا يعدى عليهم في دين لاحد من الناس ولا يؤخذ اسراء المسلمين منهم الا بقضية قاض وشهادة عدول فعاب الناس ذلك على نصر وتكلموا فيه فقال لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك وأرسل رسولا الى هشام بن عبد الملك في ذلك فأجابه اليه وفي سنة أربع وعشرين ومائة غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقي أليون ملك الروم نهزمه وقتل وسبى وغنم وفي سنة خمس وعشرين توفي هشام بن عبد الملك وبويع الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأقر نصر بن سيار على خراسان ثم ثارت فتن بين أولاد عبد الملك وقتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين وبويع ابزيد بن الوليد بن عبد الملك وتوفي بعد ستة أشهر وبويع أخوه ابراهيم بن الوليد ثم خلع بعد سبعين يوما وبويع مروان بن محمد سنة سبع وعشرين فأقر نصر بن سيار على ولاية خراسان واستمر مروان بن محمد خمس سنين وعشرة أشهر وثارت الفتن بينه وبين بني العباس وقتل مروان بن محمد سنة اثنتين وثلاثين وعمره اثنتان وستون سنة وقامت الدولة العباسية وتفصيل ذلك كله طويل مذكور في التواريخ والقصد في هذا الكتاب ذكر الفتوحات التي فيها جهاد الكفار وفي مدة هذه الفتن انقطع الغزو والجهاد وانتشرت الفتن بين المسلمين في كل قطر واقليم

(ذكر ملك الروم ملاطية)

نشأ من الفتن التي كانت بين المسلمين في هذه السنين ان الروم طمعوا في البلاد فأقبل قسطنطين ملك الروم الى ملاطية وكمخ في سنة ثلاث وثلاثين في خلافة السفاح أول خلفاء بني العباس فلما أقبل قسطنطين نازل كمخ فأرسل أهلها الى أهل ملطية يستنجدونهم فسار اليهم منها ثمانمائة مقاتل فقاتلوهم الروم فانهزم المسلمون ونازل الروم ملطية وحصروها وارسل قسطنطين الى أهل ملطية اني لم أحصركم الا على علم من المسلمين

واختلافهم اتاكم الامان وتعودون الى بلاد المسلمين حتى احترث ماطية فلم يجيبوه الى ذلك فنصب المجانيق فاذعنوا وسلموا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وحملوا ما أمكنهم حمله ومالم يقدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجارى وسار ملك الروم الى قاليقلا فنزل مرج الحصى وارسل كوشان الارمنى فحصرها فنقب اخوان من الارمن من أهل المدينة ردما كان في سورها فدخل كوشون ومن معه المدينة فغلبوا عليها وقتلوا رجالها وسبوا النساء وساق الغنائم الى ملك الروم وفي هذه السنة كان متوليا على خراسان أبو مسلم القائم بدعوة بنى العباس فوجه أبا داود خالد بن ابراهيم الذهلى الى الختل فدخلها فلما انتهى الى أرض فرغانة تخالف اخشيد فرغانة وملك الشاس واستمد اخشيد ملك الصين فأمده بمائة الف مقاتل فحصروا ملك الشاس فنزل على حكم ملك الصين وبلغ الخبر أبامسلم فوجه الى حربهم زياد بن صالح فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين الفا واسروا نحو عشرين الفا وهرب الباقون الى الصين

﴿ذكر غزوة كش﴾

في سنة أربع وثلاثين غزا أبو داود خالد بن ابراهيم الذهلى أهل كش فقتل ملكها وهو سامع مطيع وقتل أصحابه وأخذ منهم من الاوانى الصينية المنقشة المذهبة مالم يرمثلها ومن السروج ومتاع الصين من الديباج والطرف شيأ كثيرا وحمله الى أبى مسلم وهو بسمرقند وقتل عدة من دهاقينهم ورجع أبو داود الى بلخ وفي سنة خمس وثلاثين غزا عبدالله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى بعد أن غزا أيضا تلمسان وفي سنة ست وثلاثين توفي السفاح وبويع أخوه المنصور وقتل أبا مسلم سنة سبع وثلاثين وولى خراسان بعدقتل أبى مسلم أبا داود خالد بن ابراهيم الذهلى وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم الى بلاد الاسلام فدخل ملطية عنوة وغلب وقهر أهلها وهدم سورها وعفا عمن فيها من المقاتلة والذرية فبعث المنصور أخاه العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ومعه صالح بن على وعيسى بن على في جيش فبنوا ما كان ملك الروم أخربه من سور ملطية ثم غزو الصائفة سنة تسع وثلاثين ومائة من درب الحدث فوغلوا في أرض الروم وغزا مع صالح اختاه ام عيسى ولبابة وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى امية ان تجاهدا في سبيل الله وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى وفي هذه السنة كان الفداء بين المنصور وملك الروم فاستنقذ المنصور اسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبناها وعمرها ورد اهلها اليها وندب اليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم فأقاموا فيها وحموها ولم يكن بعد ذلك صائفة الى سنة ست واربعين

لاشتغال المنصور بالفتنة التي كانت بينه وبين بني عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب وقيل ان الحسن بن قحطبة غزا الصائفة سنة أربعين مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فاحجم عنهم ثم لم يكن بعدها صائفة الى سنة ست وأربعين لكن حصلت وقائع وغزوات بخراسان وغيرها في هذه المدة كما سترى ذلك وفي سنة تسع وثلاثين ومائة كان دخول عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاندلس وتملكها فخرجت الاندلس عن ولاية بني العباس وقصة تملك عبد الرحمن الداخل الاندلس طويلة ماخصها انه لما قامت الدولة العباسية أخذوا يتتبعون بني أمية قتلا فهرب عبد الرحمن المذكور مختفياً ومازال يتنقل حتى دخل الاندلس وكان بالاندلس رجل من بقايا عمال بني أمية ومواليهم فأعانوه حتى انتزع الاندلس من عمال بني العباس بعد حروب كثيرة واستفحل ملكه وملك بنيه بعده بالاندلس وكان دخوله الاندلس في خلافة المنصور العباسي وكان المنصور يعجب من أمره ويسميه صقر قريش وأراد استرجاع الاندلس من يده فلم يتمكن له ذلك والكلام على ذلك طويل ذكرته في التاريخ الذي جمعته في أخبار الاندلس ملخصا من نفح الطيب وغيره ولما استقامت أموره وتمكنت دولته بلغه عن بعض من أعانه أنه يقول لولا انا ماتوصل لهذا الملك وكان منه أبعد من النجم وقال قائل آخر انما أعانه سعده لاعقله وتدبيره فحركه ذلك الى ان قال

لايلف ممتن علينا قائل	لولاي ماملك الامام الداخل
سعدي وحزمي والمهند والقنا	ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب	نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لايغفلوا	ايروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لاعقله	خير السعادة ماحواها العاقل
أبني أمية قد جبرنا صدعكم	بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسلي امام قائم	فالملك فيكم ثابت متواصل

وما زال مستمراً في ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر الى أن توفي سنة ١٧٢ وعمره تسع وخمسون سنة واستمر الملك في بنيه الى أواخر القرن الرابع وسيأتي ذكر كثير من غزواته وفتوحاتهم ولنرجع الى تمام الكلام على فتوحات بني العباس ففي سنة ١٤٠ مات أبو داود خالد بن ابراهيم الذهلي عامل خراسان وأقيم مقامه عبد الجبار بن عبد الرحمن

الازدى ثم ظهر منه مخالفة وعصيان وأراد خلع المنصور فجهز المنصور في سنة احدى وأربعين ابنه المهدى وعمره نحو خمس عشرة سنة ومعه جيش فأسر عبد الجبار وبعث به الى المنصور فقتله وصارت ولاية خراسان للمهدى بن المنصور وكان كثير من أهل خراسان قد نقضوا لما تغيرت الدولة واسترجع بعض الكفار ماكان لهم من الملك فكتب المنصور الى ابنه المهدى ان يغزو طبرستان

﴿ ذكر غزوة طبرستان ﴾

في سنة احدى وأربعين ومائة كتب المنصور الى ابنه المهدى وهو على خراسان ان يغزو طبرستان وينزل الرى و يوجه أبا الخصيب وخزم بن خزيمة والجنود الى الاصبهذ وكان الاصبهذ يومئذ محاربا للمصمغان ملك دنباوند معسكرا بازائه فلما بلغه دخول جنود الاسلام بلاده ودخول أبى الخصيب سايره فقال المصمغان للاصبهذ متى قهروك صاروا الى فاجتمعوا على حرب المسلمين فانصرف الاصبهذ الى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب فوجه المنصور عمر بن العلاء الى طبرستان وكان عالما ببلاد طبرستان فاخذ الجنود وقصد الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطلق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر وسار الاصبهذ الى قلعته فحصر فطلب الامان على أن يسلم القلعة بما فيها من الذخائر وكتب المهدى الى المنصور بذلك فوجه المنصور رجالا احصوا ما في الحصن وانصرفوا ودخل الاصبهذ بلاد جيلان من الديلم وأخذت ابنته وقصدت الجنود بلد المصمغان فظفروا به وبالبحترة أم منصور بن المهدى وفي سنة اثنتين وأربعين ومائة خلع الطاعة عيينة بن موسى بن كعب عامل السند فبعث المنصور عمر بن أبى حفص العتكى عاملا على السند والهند فسار وغلب عليها بعد حروب

﴿ ذكر نكث الاصبهذ ﴾

في سنة اثنتين وأربعين ومائة نكث الاصبهذ بطبرستان العهد بينه وبين المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم فلما انتهى الخبر الى المنصور سير مولاه أبا الخصيب وخزم بن خزيمة وروح بن حاتم فاقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه فلما طال عليهم مقامهم احتال ابو الخصيب في ذلك فقال لاصحابه اضربونى واحلقوا رأسى ولحيتى ففعلوا ذلك ولحق بالاصبهذ فقال له فعل بى هذا تهمة منهم لى ان يكون هواى معك واخبره انه معه وانه دليل على عورة عسكرهم فقبل ذلك الاصبهذ وجعله في خاصته والطفه وكان باب حصنهم من حجر يلقى القاء يرفعه الرجال وتضعه عند فتحه و غلاقه وكان الاصبهذ يوكل به ثقات أصحابه

نوبا بينهم فلما وثق الاصبهبذ الى أبي الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه واغلاقه حتى أنس به ثم كتب أبو الخصيب الى روح وخازم والقى الكتاب في سهم وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة وواعدهم ليلة في فتح الباب فلما كانت تلك الليلة فتح لهم فقتلوا من في الحصن من المقاتلة وسبوا الذرية وأخذوا اسكلا أم ابراهيم ابن المهدى وكان مع الاصبهبذ سم فشربه ومات

﴿ ذكر نكث الديلم ﴾

في سنة ثلاث وأربعين نكث الديلم وثاروا بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فبلغ ذلك المنصور فندب الناس الى قتال الديلم وجهادهم فساروا اليهم وقاتلوهم حتى أخضعوهم سنة أربع وأربعين وفي سنة خمس وأربعين كان ابتداء بناء مدينة بغداد وانتقل المنصور اليها سنة ست وأربعين وفيها خرجت الترك والخزر بباب الابواب فقتلوا من المسلمين بارمينية جماعة كثيرة وفي سنة ست وأربعين غزا الصائفة جعفر بن حنظلة البهرانى وغزا مالك بن عبد الله الخثعمى بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة وفي سنة سبع وأربعين أغار استرخان الخوارزمى في جمع من الترك على المسلمين بناحية ارمينية وسبى من المسلمين خلقا ودخلوا تفليس فسير المنصور الى محاربتهم جبرائيل بن يحيى وحرب بن عبدالله في جند كثير فقاتلوهم فهزم جبرائيل وقتل حرب وقتل من أصحاب جبرائيل خلق كثير وفي سنة تسع وأربعين غزا العباس بن محمد أرض الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الاشعث وأغزا عبد الرحمن الداخل صاحب الاندلس مولاه بدرا الى بلاد العدو فجاوز اليه وأخذ الجزية

﴿ ذكر خروج استاذسيس ﴾

في سنة خمسين ومائة خرج استاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان وكان فيما قيل في ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان وساروا حتى التقوا هم وأهل مرو الروذ فخرج اليهم الاجثم المروذى في أهل مرو الروذ فقاتلوه قتالا شديدا فقتل الاجثم وكثر القتل في أصحابه وهزم عدة من القواد فوجه المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة الى المهدى فولاه المهدى محاربة استاذسيس وضم اليه القواد فسار خازم وأخذ معه من انهزم وجعلهم في أخريات الناس يكثر بهم من معه وكان معه من هذه الطبقة اثنان وعشرون ألفا ثم انتحب منهم ستة آلاف وضمهم الى اثنى عشر ألفا كانوا معه من المنتخبين وكان بكار بن سلم العقيلى فيمن انتحب وتعبى للقتال وكان لؤلؤة مع الزبرقان فمكر بهم وراوغهم في ان ينقلهم من موضع الى موضع وخندق الى خندق حتى قطعهم ثم سار خازم الى موضع فنزله وخندق عليه وعلى جميع أصحابه وجعل له أربعة أبواب وجعل

على كل باب ألفا من أصحابه الذين انتخبوا وأتى أصحاب استاذسيس ومعهم الفوس والمرازة
والزبل ليطموا الخندق فأتوا الخندق من الباب الذى عليه بكار بن سلم فحملوا على أصحاب
بكار حملة هزموهم بها فرمى بكار بنفســه فترجل على باب الخندق وقال لاصحابه لايؤتى
المسلمون من ناحيتنا فترجل معه من أهله وعشيرته نحو خمسين رجلا وقاتلوهم حتى ردوهم
من بابهم ثم أقبل على الباب الذى عليه خازم رجل من أصحاب استاذسيس اسمه الحريش
وهو الذى كان يدبر أمرهم فلما رآه خازم مقبلا بعث الى الهيثم بن شعبة وكان في الميمنة
يأمره ان يخرج من الباب الذى عليه بكار فان من بازائه قد شغلوا عنهم ويسير حتى يغيب
عن أبصارهم ثم يرجع من خلف العــدو وقد كانوا يتوقعون قدوم أبى عون وعمرو بن
مسلم بن قتيبة من طخارستان وبعث خازم الى بكار يقول له اذا رأيت رايات الهيثم قدجاءت
فكبروا وقولوا قد جاء أهــل طخارســتان ففعل ذلك الهيثم وخرج خازم في القلب على
الحريش يشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض فبيناهم على ذلك نظروا الى اعلام الهيثم قد
أقبلت فتنادوا بينهم جاء أهــل طخارستان وحمل أصحاب خازم فكشفوهم ولقيهم أصحاب
الهيثم فطعنوهم بالرماح ورموهم بالنشاب وخرج نهار بن حصين من ناحية الميسرة وبكار بن
سلم وأصحابه من ناحيتهم فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف فقتلهم المسلمون فأكثروا فكان
عدد من قتل سبعين ألفا وأسروا أربعة عشر ألفا ونجا استاذسيس الى جبل في نفر يسير
فحصرهم خازم وقتل الأسرى ووافاه أبو عون وعمرو بن سلم ومن معهما فنزل استاذسيس
على حكم أبى عون فحكم أن يوثق استاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد وان يعتق الباقون
وكانوا ثلاثين الفا فامضى خازم حكمه وكسى كل رجل ثوبين وكتب الى المهدى بذلك
فكتب المهدى الى المنصور وقد قيل ان استاذسيس قد ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق
وقطع السبيل قيل انه جد المأمون أبو أمه مراجل وابنه غالب خال المأمون وفي هــذه
السنة قدم المهدى من خراسان فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها
فهنؤه بمقدمه فأجازهم وحباهم وكساهم وفعــل بهم المنصور مثل ذلك وبنى له الرصافة
وفيها غزا الصائفة عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ابن محمد بن على وفي سنة اثنتين وخمسين
ومائة استعمل المنصور على خراسان حميد بن قحطبة فغزا كابل وغزا الصائفة عبد الوهاب
ابن ابراهيم الامام وفي سنة ثلاث وخمسين غزا الصائفة معيوف بن يحيي فوصل الى حصن
من حصون الروم ليلا وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه ثم قصد اللاذقية الحرب فسبى
منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين وفي سنة أربع وخمسين غزا الصائفة زفر بن

عاصم الهلالى فبلغ الفرات وفي سنة خمس وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى وفيها طلب ملك الروم الصلح الى المنصور على ان يؤدى الجزية وفي سنة ست وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالى وفي سنة سبع وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى فسبى وغنم وفي سنة ثمان وخمسين توفي المنصور وبويع ابنه محمد المهدى وغزا الصائفة معيوف بن يحيى من درب الحدث فلقى العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا وفي سنة تسع وخمسين غزا العباس بن محمد الصائفة الرومية فبلغوا القره وفتحوا مدينة للروم ومطمورة ولم يصب من المسلمين أحد ورجعوا سالمين

﴿ ذكر فتح مدينة باربد بالهند ﴾

في سنة ستين ومائة فتحت مدينة باربد وكان المهدى سير في سنة تسع وخمسين جيشا في البحر وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعى الى بلاد الهند في جمع كثير من الجند والمتطوعة وفيهم الربيع بن صبيح فساروا حتى نزلوا على باب باربد فلما نازلوها حصروها من نواحيها وحرض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة واحتمى أهلها بالبد الذى لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقتل الباقون واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا وأفاءها الله عليهم وفي سنة ستين أيضاً غزا ثمامة بن العبس الصائفة وغزا الغمر بن العباس الخثعمى بحر الشام وفي سنة احدى وستين غزا الصائفة ثمامة ابن الوليد فنزل بدابق وجاشت الروم في ثمانين الفا فأتى ثمامة عمق مرعش فقتل وسبى وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم وقتل من المسلمين عدة كثيرة وكان عيسى بن على مرابطا بحصن مرعش فانصرف الروم الى جيحان وبلغ الخبر المهدى فعظم عليه وتجهز لغزو الروم كما سنذكره وفي سنة اثنتين وستين خرجت الروم الى الحدث فهدموا سورها وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة فبلغ اذروليه وأكثر التحريق والتخريب في بلاد الروم ولم يفتح حصنا ولا لقى جمعا ورجع الناس سالمين وفيها غزا يزيد بن أسيد السلمى من ناحية قاليقلا فغنم وافتتح ثلاثة حصون وسبى

﴿ ذكر غزو المهدى ﴾

في سنة ثلاث وستين تجهز المهدى لغزو الروم فخرج وعسكر بالبردان وجمع الاجناد من خراسان وغيرها وسار عنها واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادى وعمره نحو عشرين سنة واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وعمره نحو سبع عشرة سنة وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات الى حلب وأرسل وهو بحلب فجمع من تلك الناحية من الزنادقة

فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم وسار عنها مشيعا لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان فسار هارون بالجيش حتى نازل حصن سمالوا فحصروه ثمانية وثمانين يوما ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالامان ووفي لهم وفتحوا فتوحا كثيرة ورجعوا ولما عاد المهدى من الغزاة زار بيت المقدس وفي سنة أربع وستين ومائة غزا عبد الكبير بن عبد الحميد ابن زيد بن الخطاب من درب الحدث فأتاه ميخائيل البطريق في تسعين الفا فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم فاراد المهدى قتله فشفع فيه فحبسه وفي هذه السنة غزا عبد الرحمن الاموى صاحب الاندلس بلاد الافرنج فدوخها ونهب وسبى وبلغ قلهرة وفتح مدينة فكيرة وهدم قلاع تلك الناحية وسار الى بلاد البشكنس ونزل على حصن مثمين الاقرع فافتتحه ثم تقدم الى ملدوثون بن اطلال وحصر قلعته وقصد الناس جبلها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربوها ثم رجعوا

﴿ ذكر غزو هرون الرشيد الروم ﴾

في سنة خمس وستين سير المهدى ابنه هارون الرشيد لغزو الروم في خمسة وتسعين الفا وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلا فأوغلوا في بلاد الروم ولقيهم عسكر نقيطا قومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد الشيباني فأثخنه يزيد وانهزمت الروم وغلب المسلمون على عسكرهم وساروا الى الدستق وهو صاحب المسالح أى الثغور فحمل لهم مائة الف دينار وثلاثة وتسعين الفا وأربعمائة وخمسين دينار ومن الفضة احدى وعشرين الف الف درهم وأربعة عشر الفا وثمانمائة درهم وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية وملك الروم يومئذ عطسة امرأة أليون وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو في حجرها فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية وان تقيم له الادلاء والاسواق في الطريق وذلك انه دخل مدخلا ضيقا مخوفا فأجابته الى ذلك ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة ورجع عنها وكانت الهدنة ثلاث سنين وكان مقدار ماغنم المسلمون الى ان اصطلحوا خمسة آلاف رأس سبي وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين الف رأس وذبح من البقر والغنم مائة الف رأس وقتل من الروم في الوقائع قبل الصلح أربعة وخمسون الفا وقتل من الاسرى صبرا الفان وتسعون اسيرا وفي سنة ثمان وستين ومائة نقض الروم الصلح فوجه [illegible] وهو على الجزيرة وقنسرين يزيد بن البدر ببطال فغنموا وظفروا وفي سنة تسع وستين ومائة توفي المهدى وبويع ابنه موسى الهادى وغزا الصائفة معيوف بن يحيى من طريق الراهب وقد كانت الروم قبل ذلك جاؤا مع بطريقهم الى الحدث فهرب الوالي واهل السوق

فدخلها الروم فقصدهم معيوف فبلغ مدينــة أشنة فغنم وسبى وفي سنة سـبعين ومائة توفي الهادي وبويع أخوه هارون الرشيد واستمر الى سنة ثلاث وتسعين ومائة فكانت مدته ثلاثا وعشرين سنة وكان يحج سنة ويغزو سنة وفي سنة احدى وسبعين توفي عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام صاحب الاندلس وكانت دولته بالاندلس ثلاثا وثلاثين سنة ثم صار الملك لاولاده بعده فقام بالامر بعده ابنه هشام وفي سنة أربع وسبعين غزا الصائفة عبد الملك بن صالح الهاشمي من قبل هارون الرشيد وفي سنة خمس وسبعين غزاها ابنه عبد الرحمن بن عبدالملك ابن صالح وفيها سار هشام بن عبد الرحمن صاحب الاندلس الى بلاد الفرنج فقصد ألبة والقلاع فلقيه العدو فظفر بهم وقتل منهم خلقا كثيرا وفتح الله عليه وفي السنة التي بعدها غزا عبدالملك ابن عبد الواحد ففعل مثل ذلك وكذا في سنة سبع وتسعين فدخلوا بلاد العدو فبلغوا اربونة وجرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها فرحل عنها الى أربونة ففعل مثل ذلك وأوغل في بلادهم ووطئ أرض برطانية فاستباح حريمها وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهورا يخرب الحصون ويحرق وينهب قد أجفل العدو من بين يديه هاربا وأوغل في بلادهم ورجع سالما معه من الغنائم مالا يعلمه الا الله تعالى وهي من أشهر مغازي المسلمين بالاندلس وفعل مثل ذلك في السنتين اللتين بعدها وتوفي هشام صاحب الاندلس سنة ثمانين ومائة وقام بالامر بعده ابنه الحكم ومن غزوات الرشيد الشهيرة غزوة أرض الروم في سنة احدى وثمانين فتح فيها حصن الصفصاف وفيها غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم فبلغ انقرة وافتتح مطمورة وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة الاسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة غزا الصائفة عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح فبلغ افسوس مدينة أصحاب الكهف

﴿ ذكر غزو الخزر بلاد الاسلام ﴾

في سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر من باب الابواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وانتهكوا أمرا عظيما لم يسمع بمثله فولى الرشيد أرمينية ليزيد بن مزيد الشيباني مضافا الى اذربيجان ووجه اليهم فظفر بهم وفي سنة ست وثمانين ومائة ملك الفرنج لعنهم الله مدينة برشلونة بالاندلس وأخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم اليها وتأخر المسلمون الى ورائهم وكان سبب ملكهم اياها اشتغال المسلمين بفتنة كانت بينهم

﴿ ذكر غزو الروم ﴾

وحيث ذكر الروم هنا وفيما تقدم وفيما يأتي فالمراد بهم النصارى اليونان الذين كان لهم ملك

القسطنطينية وهم غير النصارى المعروفين بالافرنج كالفرنسيس وانكلترا وفي سنة سبع وثمانين ومائة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فاناخ على قرة وحصرها ووجه العباس ابن جعفر بن محمد بن الاشعث فحصر حصن سنان حتى جهد أهلها فبعث اليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيرا من المسلمين على ان يرحل عنهم فاجابهم ورحل عنهم صلحا وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها رينى فخلعها الروم وملكت نقفور فكتب نقفور الى الرشيد من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها والا فالسيف بيننا وبينك فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد ان ينظر اليه دون ان يخاطبه وتفرق جلساؤه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماتراه دون ماتسمعه والسلام ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وكان البرد شديدا فأمن رجعة الرشيد اليه فلما جاء الخبر بنقضه ماجسر أحد على اخبار الرشيد خوفا على أنفسهم من العود في مثل ذلك البرد واشفاقا من الرشيد فاحتيل له بشاعر من أهل جنده فقال أبياتا منها

نقض الذى أعطيته نقفور — فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه — فتح أتاك به الاله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا — بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلما سمع الرشيد ذلك قال أوقد فعل ذلك نقفور فرجع الى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم فأقام بها حتى شفى واشتفى وبلغ ماأراد ورجع وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة تطيلة بالاندلس فتجهز الحكم صاحب الاندلس وسير العسكر مع ابن عم له فلقى المشركين وقاتلهم ففض جمعهم وهزمهم وقتل أكثرهم ونجا الباقون منهزمين وفي سنة ثمان وثمانين ومائة غزا ابراهيم بن جبرائيل الصائفة فدخل أرض الروم فخرج اليه نقفور ملك الروم واقتتلوا فقتل من الروم أر[illegible] ون [illegible]ما وسبعمائة وفي سنة سبع وثمانين كان الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم

ذكر فتح هرقلة وقبرس وغيرهما

في سنة تسعين غزا هارون الرشيد الروم في مائة الف وخمسة وثلاثين الفا من المرتزقة سوى الاتباع والمتطوعة وفتح هرقلة واخربها ووجه داود بن عيسى سائرا في أرض الروم في سبعين الفا يخرب وينهب ففتح الله عليه وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف ومقدونية واستعمل حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر فبلغ قبرس وكانوا قد نقضوا العهد فهدم واحرق وسبى من أهلها سبعة عشر الفا ثم سار الرشيد الى طوانة فنزل بها وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك وكتب نقفور الى الرشيد في جارية من سبي هرقلة كان خطبها لولده فأرسلها اليه

ذكر غزو الفرنج بالاندلس

في سنة احدى وتسعين ومائة تجهز لذريق ملك الفرنج بالاندلس وجمع جموعه ليسير الى مدينة طرطوشة ليحصرها فبلغ ذلك الحكم صاحب الاندلس فجهز العساكر وسيرها مع ولده عبد الرحمن فاجتمعوا في جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة فساروا فلقوا الافرنج في اطراف بلادهم قبل ان ينالوا من بلاد المسلمين شيأ فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفذوا معه فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الكفار وكثر القتل فيهم والاسر ونهبت أموالهم وأثقالهم وعاد المسلمون ظافرين غانمين وفي هذه السنة غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم في عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه وخمسين رجلا وسلم الباقون وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس التى في الثغور وألزم أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم وفي سنة اثنين وتسعين تحركت الخرمية بناحية اذربيجان فوجه اليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فقتل وسبي وأسر فأمره الرشيد بقتل الاسرى وبيع السبي وفي هذه السنة كان الفداء الثانى بين المسلمين والروم وكان عدة الاسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير وفي سنة ثلاث وتسعين توفي هارون الرشيد وبويع ابنه الأمين ثم وقع الاختلاف بينه وبين أخيه المأمون الى ان قتل الأمين سنة ثمان وتسعين ومائة وكان المأمون بخراسان فبويع وقدم العراق سنة خمسين ومائتين وقيل سنة أربع

ذكر الغزو بالاندلس الى بلاد الفرنج

في سنة مائتين جهز الحكم صاحب الاندلس جيشا مع وزيره عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها كلما أهلك موضعا وصل الى غيره فاستخرج خزائن ملوكهم فلما رأى ملكهم

فعل المسلمين ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل أوب فاقبل في جموع عظيمة بازاء عسكر المسلمين وبينهم نهر فاقتتلوا قتالا شديدا عدة أيام والمسلمون يريدون ان يعبروا النهر وهم يمنعون المسلمين من ذلك فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون اليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون الى النهر فاخذهم السيف والاسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من ملوكهم وقامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما يقتتلون كل يوم فجاءت الامطار وزاد النهر وتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم وفي سنة احدى ومائتين وقع انتقاض في الديلم فسير المأمون عبد الله بن خرداذبه والى طبرستان فافتتح جبال طبرستان وأسر ملك الديلم وأشخصه الى المأمون وفي سنة ست ومائتين توفي الحكم صاحب الاندلس وقام بالامر بعده ابنه عبد الرحمن الاوسط وفي هذه السنة غزا المسلمون من افريقية جزيرة سردانية فغنموا وأصابوا من الكفار وأصيب منهم ثم عادوا وفي سنة ثمان ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى الافرنج واستعمل عليه الوزير عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فساروا الى ألبة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وأحرقوها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحه بعضها على مال واطلاق الاسرى من المسلمين فغنم أموالا جليلة القدر واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيرا وعادوا سالمين وفي سنة عشر ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم أيضاً جيشا الى بلاد الافرنج واستعمل عليه ابنه عبيد الله المعروف بابن البلنسي فسار ودخل بلاد العدو وتردد فيها بالغارات والسبي والقتل والاسر ولقي جيوش الاعداء في ربيع الاول فاقتتلوا وانهزم المشركون وكثر القتل فيهم وكان فتحا عظيما وفيها افتتح عسكره عبد الرحمن أيضاً حصن القلعة من أرض العدو وتردد فيها بالغارات منتصف شهر رمضان وفي سنة ثنتي عشرة ومائتين سير عبد الرحمن أيضاً جيشا الى بلاد الافرنج فوصلوا الى برشلونة ثم ساروا الى جرنده وقاتلوا أهلها فأقام الجيش شهرين ينهبون ويقتلون ويخربون ثم رجعوا وفي هذه السنة سير زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب عامل المأمون على افريقية جيشاً في البحر الى جزيرة صقلية وكان الروم [illegible] فوصلوا اليها [illegible] ثم أمد الروم قسطنطين ملكهم بجيوش ووقعت وقائع كثيرة ثم كان النصر للمسلمين وقتلوا من الروم خلقا كثيراً

ذكر غزوة المأمون الى الروم

في سنة خمس عشرة ومائتين سار المأمون الى الروم في المحرم وانتهى الى طرسوس ودخل منها بلاد الروم في جمادى الاولى ودخل ابنه العباس من ملطية فاقام المأمون على حصن قرة حتى افتتحه عنوة وهدمه وقيل ان أهله طلبوا الامان فأمنهم وفتح قبله حصن ماجدة ووجه اشناس الى حصن سندس فأتاه برئيسه ووجه عجيف بن عنبسة وجعفر الخياط الى صاحب حصن سناذ فسمع وأطاع ثم رجع المأمون وفي سنة ست عشرة ومائتين عاد المأمون الى بلاد الروم وسبب ذلك انه بلغه ان ملك الروم قتل ألفا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة فسار حتى دخل أرض الروم وقيل ان سبب دخوله ان ملك الروم كتب اليه بدأ بنفسه فسار ولم يقرأ كتابه فلما دخل أرض الروم أناخ على انطيعوا فخرجوا على صلح ثم سار الى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصنا ومطمورة ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فاغار وقتل وأحرق وأصاب سبيا ورجع ثم سار المأمون الى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل الى دمشق ثم الى مصر ثم رجع الى الروم سنة سبع عشرة ومائتين فاناخ على لؤلؤة وهي اسم لحصن مائة يوم ثم رحل عنها وترك عجيفا عليها فخدع وأسر ثمانية أيام ثم أطلق ثم جاء ملك الروم فأحاط بعجيف فبعث اليه المأمون الجنود فارتحل ملك الروم وخرج أهل لؤلؤة الى عجيف بأمان وأرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك وفي سنة ثماني عشرة ومائتين توفي المأمون وهو في بلاد الروم عند نهر البذندون وحمل الى طرسوس فدفن بها وبويع أخوه المعتصم بوصية منه وعهد اليه وفي هذه السنة دخل كثير من أهل الجبال وهمذان واصفهان وماسبذان وغيرها في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان فوجه اليهم المعتصم العساكر وعليهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب فأوقع بهم في اعمال همذان وقتل منهم ستين ألفا وهرب الباقون الى بلاد الروم والخرمية فرقة من المجوس يعتقدون مذهب التناسخ وان الارواح تنتقل من حيوان الى غيره والرجل منهم ينكح أمه وأخته وبنته ورئيسهم بابك الخرمي وكان للمعتصم معهم وقائع يطول الكلام بذكرها الى ان أباد كثيرا منهم بالقتل والاسر

﴿ ذكر خروج الروم الى زبطره ﴾

في سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج ملك الروم الى بلاد الاسلام وأوقع باهل زبطرة وغيرها قيل انه خرج في مائة ألف وقيل أكثر من ذلك فقتل أهل زبطرة الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المسلمات ومثل

بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم فنفر الى قتالهم أهل الثغور من الشام والجزيرة الا من لم يكن له دابة ولا سلاح

﴿ ذكر فتح عمورية وهي بروسة ﴾

لما خرج ملك الروم وفعل في بلاد الاسلام مافعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدى الروم وامعتصماه فاجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير النفير وبلغه ان عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الادم وغير ذلك وفرق عساكره ثلاث فرق فخربوا بلاد الروم وقتلوا كثيرا وأحرقوا ووصلوا الى انقورية ثم اجتمعوا في عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غاية الحصانة وقد ذكر الشيخ محى الدين بن العربى في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين وسبب فتحها ان رجلا وقف على المعتصم فقال ياأمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء سيرة قد لطمها علج في وجهها فنادت وامعتصماه فقال العلج ومايقدر عليه المعتصم يجيء على ابلق ينصرك وزاد في ضربها فقال المعتصم وفي أى جهة عمورية فقال له الرجل هكذا وأشار الى جهتها فرد المعتصم وجهه اليها وقال لبيك أيتها الجارية لبيك هذا المعتصم بالله أجابك ثم تجهز اليها في اثنى عشر ألف فرس أبلق وفي هذه التلبية يقول له في قصيدة أبو تمام حبيب الطائى

لبيت صوتا رطيبا قد هرقت له   كاس الكرى ورضاب الخرد العرب

فلما حاصرها وطال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له انا نرى انك ماتفتحها الافي زمان نضج العنب والتين فبعد عليه ذلك واغتم لذلك فخرج ليلة متجسسا في العسكر يسمع مايقول الناس فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة يضرب نعال الخيل ويقول في رأس المعتصم فقال له معلمه اتركنا من هذا مالك والمعتصم فقال ماعنده تدبير له كذا وكذا يوم على هذه المدينة مع قوته ولا يفتحها لو أعطانى الامر مابات غدا الا فيها فتعجب المعتصم مما سمع وانصرف الى خيامه وترك بعض رجاله موكلا بالغلام فلما أصبح جؤا به فقال ماحملك ياهذا على ما بلغنى عنك فقال الذى بلغك حق ولى ماوراء خبائك وقد فتح الله عمورية فقال قد وليتك وخلع عليه وقدمه على الحرب فجمع الرماة واختار منهم أهل الاصابة وجاء الى بدن من أبدان السور وفي البدن من أوله الى آخره خط اسود من خشب عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر فحمى السهام بالنار وقال للرماة من

أخطأ منكم ذلك الخط الاسود ضربت عنقه واذا بذلك الخط خشب ساج فعند ماحصلت فيه السهام المحمية قام النار فيه واحترق فنزل البدن كما هو وتحامى الرجال ودخل البلد بالسيف وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجمون وفي ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائى في قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتحه عمورية

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

الى آخر ماذكره في القصيدة فلما دخلها ومعه الرجل الذى بلغه حديث الجارية قال له سرني الى الموضع الذى رأيتها فيه فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها ياجارية هل أجابك المعتصم وملكها العاج الذى لطمها والسيد الذى كان يملكها وجميع ماله وأخذ السيف الروم وأقبل الناس بالاسرى والسبي من كل وجه وأقام عليها خمسة وخمسين يوما وفرق الاسرى على القواد وسار الى نحو طرسوس ثم رجع الى دار ملكه

﴿ ذكر غزوات زيادة الله بن ابراهيم بن الاغاب عامل افريقية ﴾

قد تقدم ذكر غزوة من غزواته سنة ثنتي عشرة ومائتين ثم كانت له غزوة في سنة ثلاث عشرة وكذا في سنة أربع عشرة وهكذا الى سنة ثلاث وعشرين ومائتين والكلام على تفصيل تلك الغزوات طويل وفي أكثرها كان النصر للمسلمين وتوفي زيادة الله المذكور سنة ثلاث وعشرين وولى بعده أخوه الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب وسير سرية سنة أربع وعشرين الى صقلية فغنمت وسلمت وفي سنة خمس وعشرين استأمن عدة حصون الى المسلمين من جزيرة صقلية منها حصن البلوط وقرلوره ومرو وسار اسطول المسلمين الى قلوريه ففتحها ولقي اسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال فعاد الأسطول الى القسطنطينية مهزوما فكان فتحا عظيما وفي سنة ست وعشرين ومائتين سارت سرية للمسلمين بصقلية الى قصريانة فغنمت واحرقت وسبت فلم يخرج اليهم أحد فسارت الى حصن الغيران وهو أربعون غارا فغنمت جميعها وفي سنة ثلاث وعشرين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى البة والقلاع فنزلوا حصن الفرات وغنموا مافيه وقتلوا أهله وسبوا النساء والذرية وعادوا وسير جيشا أيضا في سنة أربع وعشرين فكان بينهم وبين المشركين حرب شديد فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وفعل مثل ذلك سنة خمس وعشرين ومائتين وفي سنة أربع وعشرين نقض كثير من أهل طبرستان فجهز المعتصم عليهم الجيوش وقاتلهم وقتل كثيرا منهم وأسر آخرين حتى رجعوا الى الطاعة وتوفي المعتصم

سنة سبع وعشرين ومائتين وبويع ابنه الواثق وفي هذه السنة سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشاً الى أرض العدو فلما كانوا بين اربونة وشرطانية تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بالعسكر وقاتلوهم الليل كله فلما أصبحوا أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوهم وفي هذه السنة أيضاً سير عبد الرحمن بن الحكم جيشاً وجعل عليه عبد الله المعروف بابن البلنسى الى بلاد العدو فوصلوا الى البة والقلاع فخرج اليه المشركون في جمعهم وكان بينهم حرب شديد وقتال عظيم فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وجمعت الرؤس أكداسا أى مجموعا بعضها فوق بعض حتى كان الفارس لايرى من يقابله وفيها خرج ملكهم لذريق في عسكره وأراد الغارة على مدينة سالم من الاندلس فسار اليه فرتون بن موسى في عسكر جرار فلقيه وقاتله فانهزم لذريق وكثر القتل في عسكره وسار فرتون الى الحصن الذى كان بناه أهل البة وراء ثغور المسلمين فحصره وافتتحه وهدمه

﴿ ذكر غزوات بافريقية ﴾

وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين غزا في البحر بافريقية الفضل بن جعفر الهمدانى فنزل مرسى مسينى وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وصاروا معه وقاتل الفضل الروم الذين بهامدة سنتين واشتد القتال فلم يقدر على أخذها فمضى طائفة من العسكر واستداروا خلف جبل مطل على المدينة فصعدوا اليه ونزلوا الى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال الفضل بن جعفر ومن معه فلما رأى أهل البلد ان المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وفتح البلد وفتح أيضاً مدينة مسكان وفي سنة تسع وعشرين ومائتين خرج أبو الاغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ شرة فقاتله أهلها قتالا شديدا فانهزمت الروم وقتل منهم مايزيد على عشرة آلاف رجل واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية مثلها وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة مسينى فأخبر الفضل ان أهل مسينى كاتبوا البطريق الذى بصقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم ان العلامة عند وصولى ان توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلانى فاذا رأيتم ذلك في اليوم الرابع أصل اليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال فلما رأى أهل مسينى النار أخذوا في أمرهم وأعد الفضل ما ينبغي ان يستعد به وكمن الكمناء وأمر الذين يحاصرون المدينة ان ينهزموا الى جهة الكمين فاذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم فاذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مسينى وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ولم يبق بالبلد احد

الاخرج فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين من خلفهم ووضعوا السيف فيهم فلم ينج منهم الا القليل فسألوا الامان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة فأجابهم المسلمون الى ذلك وأمنوهم وسلموا المدينة وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وصل عشر شلنديات من الروم فارسوا بمرسى الطين وخرجوا ليغير وافضلوا الطريق فرجعوا خائبين وركبوا البحر راجعين فغرق منها سبع قطع وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين صالح أهل رغوس وسلموا المدينة الى المسلمين بما فيها فهدمها المسلمون وأخذوا منها ماأمكن حمله وفي سنة خمس وثلاثين سار طائفة من المسلمين الى المدينة قصريانة فغنموا وسبوا واحرقوا وقتلوا في أهلها وكان الامير على صقلية للمسلمين محمد بن عبدالله بن الاغلب وكان مقيما بمدينة بلرم ولم يخرج منها وانما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم وكانت امارته عليها تسع عشرة سنة وتوفي سنة ست وثلاثين ومائتين وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا عليهم الحارث بن بزيغ لقتال الافرنج فوقع القتال وأصاب الحارث ضربة في وجهه قلعت عينه ثم اسر فجهز عبد الرحمن بن الحكم جيشا واستعمل عليه ابنه محمدا فأوقع بالافرنج وقتل ماكيهم غرسية وكثيرا من قومه واطلق الحارث ابن بزيغ وفي سنة ثلاثين ومائتين خرج جماعة كثيرون في بحر الاندلس من المجوس وأوقعوا بالمسلمين في مدائن كثيرة فجهز عليهم عبد الرحمن بن الحكم جيوشا كثيرة مع قواده فقاتلوا المجوس قتالا شديدا وهزموهم وقتلوا كثيرا منهم في وقائع كثيرة وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين بعث الواثق جيشا لقتال الروم فقصدوا جليقية وقتلوا واسروا وسبوا وغنموا ثم قصدوا مدينة اليون فحصروها ورموها بالمجانيق فخاف أهلها فتركوها بما فيها وخرجوا هاربين فغنم المسلمون منهم ماأرادوا وخربوا البلاد ولم يقدروا على هدم سورها لان عرضه سبع عشرة ذراعا فتركوه ومضوا وقد ثلموا فيه ثلما كثيرا وفي هذه السنة أمر الواثق بفداء المسلمين واجتمع المسلمون والروم على نهر اللامس وأحضر المسلمون من معهم من الاسرى وأحضر المشركون من معهم من الاسرى وكان النهر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الاسير فيطلق الروم الاسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر ويأتي كل الى أصحابه فاذا وصل الاسير الى المسلمين كبروا واذا وصل الاسير الى الروم صاحوا حتى فرغوا وكان النهر مخاضة تعبره الاسرى وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفسا ومن النساء والصبيان ثمانمائة نفس والملحق بالمسلمين من أهل الذمة مائة نفس ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد ابن سعيد بن مسلم الباهلي المقدم في أمر الفداء شاتيا فأصاب الناس ثلج ومطر فمات من المسلمين مائتا

نفس واسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير وجاء بطريق من الروم ينذره فقال وجوه الناس لاحمدان عسكرا فيه سبعة آلاف لاتتخوف عليهم فان كنت كذلك فواجه القوم واطرق بلادهم ففعل وغنم نحوا من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ورجع فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي وتوفي الواثق سنة اثنين وثلاثين وبويع أخوه المتوكل ابن المعتصم وفي سنة خمس وثلاثين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا كثيرا لقتال الافرنج فبلغوا البة وغنموا وظفروا وفي سنة ست وثلاثين سير جيشا الى برشلونة فقتلوا من أهلها فأكثروا وأسروا جما غفيرا وغنموا وعادوا سالمين وكذا في سنة سبع وثلاثين وتوفي الحكم سنة ثمان وثلاثين وقام بالامر بعده ابنه محمد

﴿ ذكر غزوات وفتوحات بأفريقية ﴾

قد تقدم ان ابتداء فتوح المسلمين لافريقية كان في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة عشرين من الهجرة ولما كانت خلافة هارون الرشيد ولى على افريقية ابراهيم بن الاغلب التميمى سنة أربع وثمانين ومائة وتوارث بنوه الملك بعده عمالا لخلفاء بنى العباس واستمر ذلك فيهم الى سنة مائتين وست وتسعين فزالت دولتهم لما صار ملك افريقية للفاطميين ويقال لهم العبيديون فكانت مدة ملك بنى الاغلب مائة سنة واثنتى عشرة سنة وكان مقر ملكهم القيروان واتسع ملكهم وقوى بافريقية وصار لهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب في البحر ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وقد تقدم ذكر كثير منها وسيأتى غيرها وأكثر فتوحات افريقية كان على أيديهم وتقدم ان أول من اختط مدينة القيروان عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه ولد في عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم تثبت له صحبة وكان صالحا من كبار التابعين وخيارهم وكان خطة القيروان سنة خمسين من الهجرة حين كان أميرا على افريقية في خلافة معاوية رضى الله عنه فلما اختطها صارت قاعدة افريقية ومقر ملكها ثم بعد سنين كثيرة صارت مدينة تونس بدلا عنها وافريقية بلاد واسعة قال في القاموس ان افريقية قبالة الاندلس وقال السيد مرتضى في شرحه على القاموس ان افريقية قبالة جزيرة صقلية منحرفة الى الشرق والاندلس منحرفة عنها الى جهة المغرب وصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة بالمغرب كثيرة البلدان والقرى والمواشى افتتح المسلمون كثيرا من مدنها وقراها بعد غزوات كثيرة وكان أول الغزو اليها زمن ولاية معاوية بن خديج على افريقية في خلافة معاوية رضى الله عنه ولم يفتحها وتتابع الغزو فيها

في زمن ولاية بني الاغلب من أول دولتهم الى آخرها وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو اليها ولم يتم فتحها الى ان انقضت ولاية بني الاغلب سنة مائتين وست وتسعين وجزيرة صقلية الآن داخلة في ممالك ايطاليا واعلم ان المغرب يشتمل على ثلاث ممالك عظام وهي المغرب الادنى والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى فالمغرب الادنى القيروان وتونس وطرابلس الغرب وأعمال كل منها والمغرب الاوسط تلمسان والجزائر وأعمالها وذلك الآن بيد الفرنسيس تملكوه من سنة الف ومائتين وست وأربعين والمغرب الاقصى فاس ومراكش والسوس وأعمال كل منها وذلك الآن بيد سلطان فاس وانما قيل لذلك المغرب الاقصى لانه أبعد عن دار الخلافة في صدر الاسلام وكان قبل استحداث مدينة تونس موجود مدينة عظمى تسمى (قرطاجنة) بتشديد النون المفتوحة وكانت مدينة شهيرة من عجائب الدنيا وكانت عند الروم تضاهي مدينة رومه وكان بها كثير من ملوك الفرنج ومعهم من الفرنج امم لاتحصى فغزاها المسلمون سنة تسع وستين من الهجرة بأربعين الفا من الجند أميرهم حسان بن النعمان في خلافة عبد الملك بن مروان فحاصرها حسان بن النعمان بمن معه من الجند الى ان افتتحها وقتل كثيرا ممن كان فيها ونجا قوم منهم في المراكب الى جزيرة صقلية وقوم منهم الى الاندلس ولما انصرف عنها حسان بن النعمان دخلها قوم من أهل الضواحي والبادية وتحصنوا بها فرجع اليهم حسان وقاتلهم أشد قتال وافتتحها عنوة وأمر بتخريبها واعفاء أثرها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ولم يبق بها الا آثار خفيفة تدل على ما كان فيها من عجائب الصنعة وأحكام العمل وعمر بأنقاضها مدينة تونس بالقرب منها ومن غزوات بني الاغلب غزوة لزيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب في سنة مائتين واثنتين جهز جيشا في مراكب في البحر الى مدينة سردانية وهي جزيرة كبيرة ببحر المغرب كانت للروم فغنموا وقتلوا كثيرا ورجعوا سالمين وفي سنة سبع ومائتين سير جيشا ففتحوا مواضع من جزيرة صقلية وسير أيضاً جيشاً في سنة ثنتي عشرة ففتحوا أيضا مواضع كثيرة من جزيرة صقلية ثم وقع خلاف بين ملوك الروم الذين كانوا في صقلية فاستنجد بعض منهم بزيادة الله بن الاغلب ووعده بأنه يملكه جزيرة صقلية فسير معه جيشا في ربيع الاول من سنة ثنتي عشرة ومائتين فوصلوا الى مدينة مزر من صقلية ثم ساروا فلقيهم جمع من الروم فقاتلهم المسلمون قتالا شديد فانهزمت الروم وقتل كثير منهم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ثم توجهوا الى حصار قصريانة وهي من جزيرة صقلية وبث المسلمون السرايا في كل ناحية فغنموا شيئا كثيرا وافتتحوا

عمرانا كثيرة حول سرقوسة وحاصروا سرقوسة برا وبحرا ولحقتهم الامداد من افريقيـة فضيقوا على سرقوسة فوصل اسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير من الروم مددا لجماعاتهم وذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين وكان قد حل بالمسلمين وباء شديد هلك فيه كثير منهم فلما رأى المسلمون شدة الوباء ووصول الروم تحمل المسلمون في مراكبهم ليسـيروا ويتركوا الحصار فوقف الروم في مراكبهـم على باب المرسى فمنعوا المسلمين من الخروج فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم وعادوا ورحـلوا الى مدينـة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن وسار طائفة منهم الى حصن جرجنت فقاتلوا أهله وملكوه وسكنوا فيـه واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا الى مدينة قصريانة ووصل جيش كثير من القسطنطينية مددا لمن في الجزيرة فتصافوا هم والمسلمون واقتتلوا فانهزم الروم وقتـل منهم خلق كثير ودخل منهم من سـلم قصريانة ثم ان سرية للمسلمين سارت للغنيمة فخرج عليها طائفة من الروم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وعادوا من الغد ومعهم جمع من عسكر المسلمين فخرج اليهم الروم وقد اجتمعوا وحشـدوا وتصافوا مرة ثانيـة واقتتلوا فانهزم المسلمون أيضاً وقتل منهم نحو ألف قتيل وعادوا الى معسكرهم وخندقوا عليهم فحصرهم الروم ودام القتال بينهم فضاقت الاقوات على المسلمين فعزموا على بيات الروم فعلموا بهم ففارقوا الخيام فلما خرج المسلمون لبيات الروم لم يجدوا أحدا وأقبل عليهم الروم من كل ناحية فأكثروا القتل في المسلمين وانهزم الباقون من المسلمين ودخلوا ميناو فحصرهم الروم ودام الحصار على المسلمين حتى أكلوا الدواب والكلاب فلما سمع بذلك من في مدينة جرجنت من المسلمين هدموا المدينة وساروا الى مازر ولم يقدروا على نصرة اخوانهم من المسلمين ودام الحال الى ان دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وقد أشرف المسلمون على الهلاك اذ أقبل أسطول كثير من المسلمين الذين في الاندلس خرجوا غزاة ووصل أيضاً في ذلك الوقت مراكب كثيرة من افريقية مددا للمسلمين فبلغت عدة الجميع ثلاثمائة مركب فنزلوا الى الجزيرة فانهزم الروم عن حصار المسلمين وفرج الله عنهم وسار المسلمون الى مدينـة بلرم وكانت للروم فحصروها وضـيقوا على من بها فطلب صاحبها الامان لنفسه ولاهله ولماله فاجيب الى ذلك وسار في البحر الى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد في رجب سنة ست عشرة ومائتين فلم يروا فيه الا أقل من ثلاثة آلاف انسان وكان فيه لما حصروه سبعون ألفا وماتوا كلهم وبقي المسلمون الى سنة تسع عشرة ومائتين ثم ساروا الى مدينة قصريانة فخرج اليهم من كان فيها من الروم فاقتتلوا أشد قتال ففتح الله على المسلمين وانهزم الروم الى معسكرهم ثم رجعوا في الربيع فقاتلهم فنصر الله المسلمين أيضاً ثم سار المسلمون

أيضاً سنة عشرين الى قصريانة فقاتلهم الروم فهزمهم الله تعالى وانتصر المسلمون عليهم وأسرت امرأة لبطريقهم وابن له وغنم المسلمون ما كان في معسكرهم وعادوا الى بارم ثم سيروا عسكرا الى ناحية طبرمين فغنموا غنائم كثيرة ثم عدا بعض عسكر المسلمين على أمير المسلمين وهو محمد بن سالم فقتلوه ولحقوا بالروم فأرسل زيادة الله بن الاغلب من افريقية الفضل ابن يعقوب عوضا عنه فسار في سرية الى ناحية سرقوسة فأصابوا غنائم كثيرة وعادوا ثم سارت سرية كبيرة فغنمت وعادت فعرض لهم الملك صاحب صقلية ومعه جمع كثير من الروم فتحصنوا من الروم في أرض وعرة وشجر كثيف فلم يتمكن الملك من قتالهم ووافقهم الى العصر فلما رأى أنهم لا يقاتلونهم عاد عنهم فتفرق أصحابه وتركوا التعبية فلما رأى المسلمون ذلك حملوا عليهم حملة صادقة فانهزم الروم وطعن الملك وجرح عدة جراحات وسقط عن فرسه فأتاه حماة أصحابه واستنقذوه جريحا وحملوه وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ومتاع ودواب فكانت وقعة عظيمة وسير زيادة الله بن الاغلب من افريقية الى صقلية أبا الاغلب ابراهيم بن عبد الله أميرا على تلك الجيوش فوصل اليهم منتصف رمضان فبعث اسطولا فلقوا جمعا للروم في اسطول فغنم المسلمون ما فيه من مال وأسروا ما فيه من رجال فضرب أبو الاغلب رقاب كل من فيه وبعث اسطولا آخر الى قوصرة فظفر بحراقة فيها رجال من الروم ورجل من أهل افريقية كان مسلما فتنصر فأتى بهم فضربت رقابهم وسارت سرية اخرى الى جبل النار والحصون التي في تلك الناحية فاحرقوا الزرع وغنموا واكثروا القتل ثم سير أبو الاغلب سنة احدى وعشرين ومائتين سرية الى جبل النار أيضاً فغنموا غنائم عظيمة حتى بيع الرقيق بأبخس الأثمان وعادوا سالمين وفيها سير أبو الاغلب أيضاً سرية الى قسطلياسة فغنموا وسبوا ولقيهم العدو فكانت بينهم حرب استظهر فيها الروم وفيها أيضاً جهز اسطولا فساروا نحو الجزائر فغنموا غنائم عظيمة وفتحوا مدنا ومعاقل وعادوا سالمين وفيها أيضاً سير سرية الى مدينة قصريانة فخرج اليهم العدو فاقتتلوا فانهزم المسلمون واصيب منهم جماعة ثم كانت وقعة اخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها وشلندى فلما جاء الشتاء وأظلم الليل رأى رجل من المسلمين غفلة من أهل قصريانة فتقرب ورأى طريقا فدخل منه ولم يعلم به أحد ثم انصرف الى العسكر فأخبرهم فجاؤا معه فدخلوا من ذلك الموضع وكبروا وملكوا ربضه وتحصن المشركون منهم بحصنه وطلبوا الامان فأمنوهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا الى بلرم وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين وصل كثير من الروم في البحر الى صقلية وكان المسلمون قد حصروا جفلوذى وقد طال حصارها فلما وصل الروم

رحل المسلمون عنها وجرى بينهم وبين الروم الواصلين حروب كثيرة ثم جاء للمسلمين الخبر بوفاة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب أمير افريقيـة فوهن المسلمون ثم تشجعوا وضبطوا أنفسهم (سرقوسة) بسين مفتوحة وقاف وواووسين ثانية (وبلرم) بفتح الباء الموحدة واللام وتسكين الراء وبعدها ميم (ميناو) بميم وياء تحتها نقطتان ونون وبعد الالف واو و(جرجنت) بجيم وراء وجيم ثانية مفتوحة وتاء فوقها نقطتان و(قصريانه) بالقاف والصاد المهملة والراء والياء تحتها نقطتان وبعد الالف نون مشددة وهاء وهـذه الغزوات هي التي ذكرت مجملة قبل هذا الموضع بورقة استحسنا تداركذ كرها تفصيلا لما اشتملت عليه من الفوائد ولما توفي محمد بن عبدالله أمير صقلية سنة ست وثلاثين كما تقدم اجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب فولوه أمرهم وكتبوا بذلك الى محمد بن الاغلب أمير افريقيـة فأرسل اليه عهدا بولايته فكان العباس يرسـل السرايا ويأتيـه الغنائم الى أن أتاه عهـده بولايته فخرج بنفسه وأرسل سرية الى قلعة أبي ثور فغنموا وأسروا وعادوا فقتل الاسرى ثم توجه الى مدينة قصريانة فنهب وأحرق وخرب ليخرج اليه البطريق فلم يفعل فعاد العباس وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين خرج حتى بلغ قصريانة وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان قبلها يسكن سرقوسـة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقـل دار الملك الى قصريانة لحصانتها فخرج العباس ومعـه جمع عظيم فغنم وخرب وأتى قطانية وسرقوسـة ونوطس ورغوس فغنم من جميع هذه البلاد وخرب واحرق ونزل على شيرة وحصرها خمسة أشهر فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس وفي سنة اثنتين وأربعين سار العباس في جيش كثيف ففتح حصونا جمة وفي سنة ثلاث وأربع سار الى قصريانة فخرج أهلها فلقوه فهزمهم وقتل فيهم فأكثر وقصد سرقوسة وطبرمين وغيرهما فنهب وخرب وأحرق ونزل على القصر الجديد وحصره وضيق على من به من الروم فبذلوا له خمسة عشر ألف دينار فلم يقبل منهم وأطال الحصر فسلموا اليه الحصن على شرط أن يطلق مائتي نفس فأجابهم الى ذلك وملكه وباع كل من فيه سوى مائتي نفس وهدم الحصن

ذكر فتح قصريانة

في سنة اربع وأربعين ومئتين فتح المسلمون مدينة قصريانة وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى قصريانة لحصانتها وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين الى مدينـة قصريانة وسرقوسة وسير جيشا في البحر فلقيهم أربعون شلندى للروم فقتلوا أشد قتال فانهزم الروم

وأخذ المسلمون منهم عشر شلنديات برجالها وعاد العباس الى مدينته فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا وكان معهم أسير من الروم له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال استبقني ولك عندي نصيحة قال وما هي قال املكك قصريانة والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم اليهم فهم غير محترسين ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة فانتخب العباس الفي فارس انجادا أبطالا وسار الى ان قاربها وكمن هناك مستترا وسير عمه رباحا في شجعانهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي ان يملك منه فنصبوا السلالم وصعدوا حتى وصلوا الى سور المدينة قريبا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من باب صغير فيه يدخل منه الماء وتاتي فيه الاقذار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الابواب وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح بها يوم الخميس وبنى فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيه من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وابناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية في ثلاثمائة شلندي وعسكر كثير فوصلوا الى سرقوسة فخرج اليهم العباس من المدينة ولقي الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندي وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب وفي سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من قلاع صقلية فخرج العباس اليهم وقاتلهم فانهزم الروم وقتل كثير منهم وسار الى بعض القلاع التي نكثت فحصرها فأتاه الخبر بأن كثيرا من عساكر الروم قد وصلت فرحل اليهم وجرى بينه وبينهم قتال شديد فهزمهم وعاد الى قصريانة فحصنها وشحنها بالعساكر وفي سنة سبع وأربعين ومائتين سار العباس الى سرقوسة فغنم وسار الى غيران فرقنة فاعتل ومات بعد ثلاثة أيام فنبشه الروم وأحرقوه وكانت ولايته احدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفا وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين

ذكر مسير الروم الى أرض مصر

في سنة تسع وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل جاءت ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم في مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها الى صدر الرجل فمن جازها الى الارض أمن من مراكب البحر فجازه قوم فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان ومن كان به قوة سار الى مصر وكان على معونة مصر عنبسة بن اسحاق الضبي

فلماحضر العيد أمر الجند الذين بدمياط ان يحضروا الى مصر فساروا منها فاتفق وصول الروم وهى فارغةمن الجند فنهبوا وأحرقوا وسبواوأحرقوا جامعها وأخذواما بها من سلاح ومتاع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قدحبس بسر بن الاكشف بدمياط فكسر قيده وخرج يقاتلهم وتبعه جماعة وقتل من الروم جماعة وسارت الروم الى أشتوم تنيس وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم فنهبوا مافيه من سلاح وأخذوا البابين ورجعوا ولم يعرض لهم أحد وغزا الصائفة في هذه السنة على بن يحيي الارميني وفي سنة أربعين كان قتال بين محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس وبين الافرنج فكان النصر له عليهم وقتل منهم نحو ثمانية آلاف وفي سنة احدى وأربعين قتلت تدورة ملكة الروم من أسرى المسلمين اثنى عشر ألفا فانها عرضت النصرانية على الاسرى فمن تنصر تركته ومن أبى قتلته وأرسلت تطلب المفاداة لمن بقى منهم ففداهم المتوكل وكانوا سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة

﴿ ذكر اغارة البجاة على مصر ومجاوة أرض النوبة والبجاة أهل تلك الارض ﴾

في سنة احدى وأربعين اغارت البجاة على أرض مصر وكانت قبل ذلك لاتغزوا بلاد الاسلام لهدنة قديمة وفي بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس الى أهل مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين فلما بلغ الخبر المتوكل شاور وزراءه في أمرهم فذكروا له أنهم أهل بادية وأهل ابل وشياه وان الوصول الى بلادهم صعب لانها مفاوز وبين أرض الاسلام وبينها مسيرة شهر في أرض قفر وجبال وعرة وان كل من يدخلها من الجيوش يحتاج ان يتزود للمدة التى يتوهم انه يقيمها الى ان يخرج الى بلاد الاسلام فان جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجاة باليد وان أرضهم لاترد على سلطان شيأ فامسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمى محاربتهم وكتب الى عنبسة بن اسحاق عامل حرب مصر بازاحة علته واعطائه من الجند مايحتاج اليه ففعل ذلك وسار محمد الى أرض البجاة وتبعه ممن يعمل في المعادن والمتطوعة عالم كثير فبلغت عدتهم نحوا من عشرين ألفا بين فارس وراجل ووجه الى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موقورة بالذخيرة وأمر أصحابه ان يوافوه بها في ساحل البحر مما يلى بلاد البجاة وسار حتى جاوز المعادن التى يعمل منها الذهب وسار الى حصونهم وقلاعهم وخرج اليه ملكهم وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له

في جيش كثير أضعاف من مع القمي وكانت البجاة على الابل فتحاربوا أياما وطاولهم البجاة لتفنى ازواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذوهم بغير حرب فأقبلت تلك المراكب التى فيها الاقوات في البحر ففرق القمي ماكان فيها في أصحابه فاتسعوا فيها فلما رأى ملك البجاة ذلك صدقهم القتال وجمع لهم فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا وكانت ابلهم ذعرة تنفر من كل شيء فلما رأى القمي ذلك جمع كل جرس في عسكره وجعلها في أعناق خيله ثم حملوا على البجاة فنفرت ابلهم لاصوات الاجراس فحملتهم على الجبال والاودية وتبعهم المسلمون قتلا واسرا حتى أدركهم الليل ثم رجع الى معسكره ولم يقدر على احصاء القتلى لكثرتهم ثم ان ملكهم طلب الامان فامنه على مملكته وبلاده فأدى لهم الخراج للمدة التى كان منعها وهى أربع سنين وسار القمي الى المتوكل فخلع عليه وعلى أصحابه وفي هذه السنة أغارت الروم على عين زربة فاخذت من كان بها أسيرا من الزط (الزط جيل من السودان طوال الاجسام) من نسائهم وذراريهم ودوابهم وفي هذه السنة أيضا سير محمد صاحب الاندلس الجيوش الى غزو الافرنج فدخلوا بلادهم ووصلوا الى البة والقلاع وافتتحوا بعض حصونها وعادوا وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت الروم من ناحية سميساط حتى قاربوا آمد وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحوا من عشرة آلاف ثم رجعوا فخرج قوم من المتطوعة في آثارهم فلم يلحقوهم وكتب المتوكل الى على بن يحيي الارمني ان يسير الى بلادهم ثانيا ففعل وفي هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس جيشا الى بلاد الافرنج فدخلوا الى برشلونة وحاربوا قلاعها وجوزوها الى ماوراء أعمالها ففتحوا كثيرا وأفتتحوا حصنا من أعمال برشلونة يسمى طراجة من آخر حصون برشلونة وفي سنة أربع وأربعين بعث المتوكل بغا الكبير في العساكر الصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سائر النواحي ورجع وفي سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا وأسروا خلقا كثيرا وغزا على بن يحيي الارمني الصائفة ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود اليها فبعث اليهم ملك الروم يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على ان يسلموا اليه (لؤلؤة) قلعة للعقالبة فصعدوا البطريق اليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ثم سلموا البطريق ولؤلؤة الى بلكاجور فسيره الى المتوكل فبذل ملك الروم في فدائه ألف مسلم كانوا مأسورين عنده وفي سنة ست وأربعين أيضا غزا عمر بن عبيد الله الاقطع الصائفة فجاؤا بسبعة عشر ألف رأس وغزا قربياس فجاء بخمسة آلاف رأس وغزا الفضل بن قارون فافتتح حصن انطاكية وغزا بلكاجور فغنم وسبا وغزا على بن يحيي الارمني فأخرج

خمسة آلاف رأس ومن الدواب والرمك والحمير نحوا من عشرة آلاف رأس وفي هذه السنة كان الفداء على يد علي بن يحيي الارمني ففودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفسا وفي هذه السنة والتي قبلها خرج المجوس من بلاد الاندلس في مراكب الى بلاد الاسلام فأمر محمد بن عبد الرحمن صاحب البلاد باخراج العساكر الى قتالهم نوصلت مراكب المجوس الى اشبيلية فحلت بالجزيرة ودخلت الى قتالهم وأحرقت المسجد الجامع ثم جازت الى المدينة ثم تقدموا الى حائط افرنجة وأغاروا وأصابوا من الذهب والسبي كثيرا ثم انصرفوا فلقيتهم مراكب محمد فقاتلوهم فأحرقوا مركبين من مراكب المجوس وأخذوا مركبين آخرين فغنموا مافيها فحمي المجوس عند ذلك وجدوا في القتال واستشهد جماعة من المسلمين ثم مضت مراكب المجوس حتى وصلت الى مدينة بنبلونه فأصابوا صاحبها غرسية الافرنجي فافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار وفي هذه السنة غزا عامل طرسوسة بنبلونه فافتتح حصن بيلسان وسبي أهله ثم كانت على المسلمين في اليوم الثاني وقعة استشهد فيها جماعة وفي سنة سبع واربعين غزا محمد صاحب الاندلس في جيوش كثيرة بنبلونة فوطئ بلادها ودوخها وخربها ونهبها وقتل فيها فأكثر وافتتح حصونا واسر فوتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنة ثم أطلقه وفي هذه السنة قتل المتوكل قتله خدمه الاتراك وبويع ابنه المنتصر ومات بعد ستة أشهر وبويع المستعين بن المعتصم

﴿ ذكر فتوحات وغزوات بافريقية ﴾

لما توفي أمير صقلية العباس بن الفضل سنة سبع وأربعين ولى الناس عليهم ابنه عبد الله وكتبوا الى الامير بافريقية بذلك واخرج عبد الله السرايا ففتح قلاعا متعددة وبعد خمسة أشهر وصل من افريقية خفاجة بن سفيان أميرا على صقلية وكان وصوله سنة ثمان وأربعين فأكثر الغزوات والسرايا على الروم الذين بتلك النواحي وشن عليهم الغارات ففتح حصونا كثيرة واستمر الى سنة خمس وخمسين وتوفي وأتم بعده ابنه محمد وكان الروم يحصرون مالطة فسير اليهم جيشا سنة ست وخمسين فلما سمع الروم بذلك رحلوا ثم قتل محمد بن خفاجة سنة سبع وخمسين قتله خدمه الخصيان وهربوا فطلبهم الناس فأدركوهم فقتلوهم وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين سار جيش للمسلمين بالاندلس الى مدينة برشلونة وهي للفرنج فوقعوا بأهلها فأرسل صاحبها ملك الفرنج يستمده فأرسل اليه جيشا كثيفا وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم المدد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالا شديدا فملكوا أرباضها وبرجين من أبراج مدينة فقتل من المشركين خلق كثير وسلم المسلمون وعادوا وقد غنموا وفي سنة ثمان وأربعين

وصيف التركى بلاد الروم ومعه أثنا عشر الفا فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قرورية وفي سنة تسع وأربعين سير محمد صاحب الاندلس جيشا الى مدينة البة والقلاع من بلاد الفرنج فجالت الخيل في ذلك الثغر وغنمت وافتتحت بها حصونا منيعة وفي سنة تسع وأربعين أيضا غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصنا ومطامير واستأذنه عمر بن عبيد الله الاقطع في المسير الى بلاد الروم فأذن له فسار في خلق كثير من أهل مطلية فلقيه الملك في جمع عظيم من الروم بمرج الاسقف فحاربه محاربة شديدة قتل فيها من الفريقين خلق كثير ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا وقتل عمر وممن معه ألفان من المسلمين فلما قتل عمر بن عبيد الله خرج الروم الى الثغور الجزرية وكلبوا عليها وعلى أموال المسلمين وحرمهم فبلغ ذلك علي بن يحيي وهو قافل من أرمينية الى ميافارقين في جماعة من أهلها ومن أهل السالسلة فنفر اليهم فقتل في نحو من أربعمائة رجل ولما اتصل الخبر ببغداد وسامرا بقتل عمر بن عبيد الله وعلى بن يحيي وكانا من شجعان الاسلام شديدا بأسهما عظيما غناؤهما عن المسلمين في الثغور شق ذلك عليهم مع استعظامهم قتل الاتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وقام بعض الاجناد يطلبون أرزاقهم وثار من ذلك فتن متتابعة يطول الكلام بذكرها واستمرت الى ان خلع المستعين وبويع المعتز بن المتوكل سنة احدى وخمسين ومائتين ثم قتل المستعين سنة ثنتين وخمسين وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر

ذكر غزوة عظمى بالاندلس على بلاد الفرنج

في سنة أحدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس جيشا مع ابنه المنذر الى بلاد الفرنج فساروا وقصدوا الملاحة وكانت أموال لذريق ملك الفرنج بناحية البة والقلاع فلما عم المسلمون بلادهم بالخراب والنهب جمع لذريق عساكره وسار يريدهم فالتقوا بموضع يقال له فج المركوين فاقتتلوا فانهزم الفرنج الا أنهم لم يبعدوا واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فولى الفرنج منهزمين لايلوون على شئ وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكان عدد ماأخذ من رؤس الفرنج ألفين وأربعمائة واثنين وتسعين رأسا وكان فتحا عظيما وعاد المسلمون بالغنائم الكثيرة وسير جيشا أيضا في السنة التي بعدها فقصدوا البة والقلاع ومدينة مانة وقتلوا من أهلها عددا كثيرا ثم قفلوا سالمين وفي سنة ثلاث وخمسين أيضا سير جيشا فافتتحوا حصون جرفيق وغلبوا على أكثرها وفي سنة خمس وخمسين ومائتين خلع المعتز

ثم قتل وبويع المهتدى بن الواثق وخلع ثم قتل سنة ست وخمسين وبويع المعتمد على الله ابن المتوكل وفي سنة تسع وخمسين ومائتين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط ثم نازلوا ملطية وقاتلهم أهلها فانهزم الروم وقتل بطريق من بطارقتهم وفي هذه السنة سارت سرية للمسلمين بافريقية الى سرقوسة فصالحهم أهلها على ان يطلقوا الاسرى من المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا ثلاثمائة وستين أسيرا فلما أطلقوهم عادوا عنهم

ذكر القتال مع صاحب الزنج

ابتداء ظهور صاحب الزنج كان في سنة خمس وخمسين ومائتين وذكر القتال معه ملحق بالقتال مع الكفار لانه وان كان يدعى الاسلام لكن مفعله بأهل الاسلام أشنع مما تفعله الكفار كما ستراه والكلام على قصته طويل مبسوط في التواريخ وتلخيصها ان رجلا من بنى عبد القيس اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم كان في سر من رأى وأصله من الرى وكان متصلا بحاشية المنتصر بن المتوكل يمدحهم بشعره ويستمنحهم من عطائهم ثم انه شخص من سر من رأى سنة تسع وأربعين ومائتين الى البحرين وادعى نسبته في العلويين فقال مرة انه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وقال مرة انه من ولد الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب ودعا الناس بهجر الى طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم وخالفه آخرون فجرى بين الطائفتين عصبية وقتال قتل فيه جماعة وكان أكثر البحرين قد أحلوه محل نبى وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه فقام منهم جماعة وتنكروا له فانتقل الى الأحسا وصحبه جماعة من أهل البحرين ثم تنقل في البادية وقال أوتيت في تلك الايام بالبادية آيات من آيات امامتى ظاهرة للناس منها أنى لقنت سورا من القرآن تجرى بها لسانى في ساعة وحفظتها في دفعة واحدة منها سبحان والكهف وص ومنها أنى تفكرت في الموضع الذى اقصده حيث نبت بى البلاد فاظلتنى غمامة وخوطبت منها فقيل لى اقصد البصرة الى غير ذلك من مقالاته المخترعة وفي تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى أنه ادعى أنه أرسل الى الخلق فرد الرسالة وكان له منبر يصعد اليه ويسب عثمان وعليا ومعاوية والزبير وطلحة وعائشة وفي تاريخ ابن الاثير وابن خلدون أنه كان يرى رأى الخوارج وهذا يبطل نسبته الى العلويين وكان أول ظهوره للناس سنة خمس وخمسين ومائتين وكان في مبدأ امره يدعو الغلمان من الزنوج الذين يسكنون السباخ في جهة البصرة فاجتمع له منهم خلق كثير وكان يعدهم بالعتق ويرغبهم في الاحسان فاذا جاء أحد من موالى الزنوج يطلبون عبيدهم يأمر

كل عبد ان يضرب مولاه ثم يحبسهم ثم يطلقهم فامتنع موالى الزنوج من طلب عبيدهم وكان يخطب العبيد وغيرهم ممن تبعه في كل وقت ويرغبهم ولم يزل هذا دأبه والزنوج يأتون اليه بكثرة ويتابعونه ويدخلون في أمره واتخذ له راية وكتب عليها قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة الآية فكثرت جيوشه واستحكم أمره وشن الغارات وبث أصحابه يمينا وشمالا للاغارة والنهب وسار بالجيش الى الابلة فخرجوا له باربعة آلاف فهزمهم وملك الابلة ثم سار الى القادسية فملكها ونهبها فكثر عنده المال والسلاح فخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله فهزمهم وقتل منهم وأخذ سلاحهم ثم خرج طائفة أخرى فكذلك وأخرى فكذلك ثم خرج له قائدان من البصرة بجيش فهزمهما وقتل منهما وكان معهما سفن القتها الريح الى الشط فغنم مافيها وكثر شغبه وفساده وجاء أبو هلال من قواد الاتراك في أربعة آلاف مقاتل فلقيه فهزمه وقتل كثيرا من أصحابه ثم خرج اليه أبو منصور أحد موالى الهاشميين في عسكر عظيم فهزمهم وكان من أعيان أصحابه يحيى بن محمد الازرق البحراني وسليمان بن جامع وهو قائد جيشه وذكر ريحان أحد غلمان السورجيين وهو أول من صحبه منهم أنه قال كنت موكلا بغلمان مولاى انقل لهم الدقيق فاخذني أصحابه فساروا بي اليه وأمروني أن اسلم عليه بالأمرة ففعلت فسألني عن الموضع الذي جئت منه فاخبرته وسألني عن اخبار البصرة فقلت لا علم لي وسألني عن غلمان السورجيين وعن أحوالهم ومايجرى لهم فأعلمته فدعاني الى ماهو عليه فاجبته فأمرني ان احتال على من قدرت عليه من الغلمان الزنج وأقبل بهم عليه ووعدني ان يجعلني قائدا على من أتيته بهم فعدت اليه من الغداة وقد أتيته بجماعة من الزنج وجاء جماعة مع غلمان الدباشين وما زال يدعو غلمان أهل البصرة وغيرهم فيقبلون اليه للخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده خلق كثير منهم فخطبهم ووعدهم ان يجعلهم قواداً ويملكهم الاموال وحلف لهم بالايمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيأ من الاحسان اليهم ولمن أتى بهم وجاءاليه بعض موالى العبيد وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم لكل منهم عبده فبطح أولئك الموالى وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم كل سيد خمسمائة سوط وكان اذا خطب العبيد يذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال وان الله تعالى أبعدهم من ذلك وانه يريد ان يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والاموال وجاءه مرة رجل من رؤساء الزنج يكنى بأبي صالح بثلاثمائة من الزنج فلما كثروا جعل القواد فيهم منهم وقال لهم كل من أتى منكم برجل فهو مضموم اليه ومازالت جيوشه تكثر من الزنج وغيرهم حتى بلغت ألوفا

مؤلفة واعدادا لا تحصى فشن الغارات على القرى والامصار وأكثر القتل والنهب وجهز له الخليفة الجيوش الكثيرة المرة بعد الاخرى وهو يهزم تلك الجيوش ويقتل كثيرا منها ويسبي من القرى والامصار النساء والذرية وما زال أمره هكذا أربع عشرة سنة حتى ظفروا به وقتلوه واضمحل أمره قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء استمر القتال مع صاحب الزنج من حين تولى المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد سنة ست وخمسين ومائتين الى سنة سبعين ومائتين فقتل فيها رئيس الزنج لعنه الله قال وذكر الصولي ان الذين قتلهم من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف انسان وقتل باليوم الواحد بالبصرة ثلاثمائة ألف ولما قوي أمر صاحب الزنج صار المباشر لقتاله وقيادة الجيوش الموفق طلحة بن المتوكل وهو أخو الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل وباشر معه أيضا لقيادة بعض تلك الجيوش ابنه أبو العباس أحمد الذي صار بعد المعتمد على الله خليفة ولقب بالمعتضد قال المسعودي في تاريخه المسمى مروج الذهب شخص الموفق لمحاربة صاحب الزنج في صفر سنة سبع وسبعين ومائتين وقدم الموفق ابنه أبا العباس في ربيع الآخر الى سوق الجيش وقيادته وكان رجل يقال له الشعراني من أصحاب صاحب الزنج قد تحصن في جمع كثير من الزنج ففتح أبو العباس بن الموفق هذا الموضع وغنم جميع ما كان فيه ثم فتح مواضع كثيرة وقتل من كان فيها من الزنج وسار الموفق الى الاهواز فأصلح ما أفسده الزنج ثم عاد الى البصرة فلم يزل منازلا لصاحب الزنج حتى قتل فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر يقتل الصغير والكبير والذكر والانثى ويحرق ويخرب وقد كان أتى البصرة في وقعة واحدة من وقايعه فقتل ثلاثمائة ألف من الناس وكان المهلبي من أصحاب صاحب الزنج بعد هذه الوقعة بالبصرة فنصب منبرا وكان يصلي يوم الجمعة بالناس ويخطب على ذلك المنبر ويدعو لصاحب الزنج ويلعن جبابرة بني العباس وكثيرا من الصحابة فاجتمع من بقي من أهل البصرة وأرادوا الخروج على المهلبي ليقتلوه فعلم بهم فوضع السيف فيهم فمن ناج سالم ومن مقتول ومن غريق واختفى كثير من الناس في الدور والآبار فكانوا يظهرون في الليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها فيأكلونها والفيران والسنانير فافنوها حتى لم يقدروا منها على شيء فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا مع ذلك الماء العذب وذكر عن مرأة منهم انها حضرت امرأة تنازع وعندها أختها وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلون لحمها قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرنا فقطعناها وأكلناها ولقد حضرت أختها ثم جاءت وهي تبكي ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين قالت اجتمعوا على أختي

فما تركوها حتى تموت موتا حسنا حتى قطعوها فظلمونى فلم يعطونى من لحمها شيأ الا رأسها هذا وهى تشتكى ظلمهم لها فى أختها ومثل هذا كثير وأعظم مما وصفنا ثم قال المسعودى وبلغ من امر عسكر صاحب الزنج انه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وابناء الناس فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان الفلانى ولكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما كانت عند بعض الزنج وسألته ان ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه فقال هو مولاك وأولى بك من غيره ثم قال المسعودى وقد تكلم الناس فى مقدار ماقتل فى هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فأما المكثر فانه يقول أفنى من الناس مالا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا الله تعالى عالم الغيب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف انتهى وقال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولما قتل هذا الخبيث لعنه الله تعالى أتى برأسه على رمح ودخلوا به بغداد وعملت الزينة وضج الناس بالدعاء للموفق طلحة ومدحه الشعراء وكان يوما مشهودا وتراجع الناس الى المدائن التى كان أخذها وهى كثيرة كواسط والبصرة وغيرهما انتهى وبالجملة فان هذه القضية كانت مصيبة عظمى على أهل الاسلام هذا تلخيص قصة صاحب الزنج باختصار وان أردت تفصيل الوقايع والحروب التى كانت لهذه القصة فى تلك السنين فانظرها فى التواريخ تجدها مبسوطة والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ملك الروم واؤلؤة ﴾

فى سنه ثلاث وستين ومائتين سلمت الصقالبة لؤلؤة الى الروم وهى قلعة للصقالبة وكان سبب ذلك ان أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بطرسوس قبل ان يلى مصر فلما ولى مصر سنة خمس وخمسين كان يؤثر ان يلى طرسوس ليغزو منها أميرا فلم يجب الى ذلك وكان العمال الذين يأتون الى طرسوس يسيؤن السير وآل الامر الى استيلاء الروم على القلعة المذكورة فشق ذلك على أهل طرسوس لانها كانت شجى فى حلق العدو ولم يكن يخرج الروم فى بر أو بحر الا رأوه وأنذروا به واتصل الخبر بالمعتمد على الله فقلد طرسوس أحمد ابن طولون واستعمل عليها من يقوم بغزو العدو ويحفظ ذلك الثغر ويقيم الجهاد وفى هذه السنة سير محمد صاحب الاندلس ابنه المنذر فى جيش كبير وجعل طريقه على ماردة فلما

جاوزها الى أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر فخرج عليهم جمع كثير من الفرنج فاقتتلوا قتالا كثيرا صبروا فيه وقتل من الفرنج عدد كثير ثم استظهر المشركون على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم أكرمهم الله بالشهادة وفي سنة أربع وستين غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاووس في أربعين ألفا من أهل الثغور الشامية فأثخن في الروم وغنم ورجع فلما رحل عن البذندون خرج عليه جمع من الروم فاحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون ونزلوا وعرقبوا دوابهم وقاتلوا حتى قتلوا الا خمسمائة فانهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم وقتل الروم من قتلوا وأسروا عبد الله بن رشيد بعد ضربات اصابته وحمل الى ملك الروم فبعث به الى أحمد بن طولون صاحب مصر ومعه كثير من الاسرى وأهدى لابن طولون عدة مصاحف

ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة

في سنة أربع وستين ومائتين ملك المسلمون سرقوسة وهى من أعظم مدائن صقلية وكان سبب ملكها ان جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فافسد زرعها وزرع ماحولها من بلاد صقلية التى بارض الروم ونازل سرقوسة وحصرها برا وبحرا وملك بعض ارباضها فوصل مراكب الروم نجدة لهــا فسير اليها أسطولا فاصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فقام العسكر محاصرا لها تسعة أشهر وفتحت عنوة وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم مالم يصب بمدينة أخرى ولم ينج من رجالها الا الفذ النادر وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها وانصرف المسلمون الى بلادهم وفي هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس ابنه المنذر في جيش الى مدينة بنبلونة وجعل طريقه على سرقسطة فقاتل أهلها ثم انتقل الى تطيلة وجال في مواضع ثم دخل بنبلونة فخرب كثيرا من حصونه واذهب زروعه وعاد سالما وفي سنة خمس وستين خرج خمســة من بطارقة الروم الى اذنة فقتلوا وأسروا وقتلوا نحوا من ألف وأربعمائة وأسروا نحوا من أربعمائة وكان أرجوز والى الثغور فعزل عنها وفي سنة ست وستين ومائتين وردت سرية من الروم الى ديار ربيعة فسرت نحوا من مئتين وخمسين انسانا ومثل بمسلمين فنفر اليهم أهل الموصل ونصيبين فرجعت الروم وفي هذه السنة لقى أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقلية فظفر الروم بالمسلمين بعد قتال شديد ولحق من سلم منهم الى مدينة لرم من صقلية وفي هذه السنة أيضا غزا عامل ابن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة من أهل

طرسوس واعترضهم أربعــة آلاف من الروم فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل المسلمون خلقا كثيرا من العدو وأصيب من المسلمين جماعة وفي سنة سبع وستين ولى جزيرة صقلية الحسن بن العباس فبعث السرايا الى كل ناحيــة وخرج الى قطانية فافســد زرعها وزرع طبرمين وقطع أشجارها وسار الى بقارة فافسد زرعها وانصرف الى بلرم وأخرجت الروم سرايا فاصابوا من المسلمين كثيرا وفي سنة ثمان وستين سارت سرية من صقلية فالقيهم جيش الروم فاصيب المسلمون كلهم غير ســبعة نفر وعزل الحسن بن العباس عن صقلية ووليها محمد بن الفضل فبث السرايا في كل ناحية من صقلية وخرج هو في جيش عظيم فسار الى مدينة قطانية فاهلك زرعها ثم رحل الى أصحاب الشلندية فقاتلهم فأصاب فيهم فاكثر القتل ثم رحل الى طبرمين فافسد زرعها ثم رحل فلقي عسكر الروم فاقتتلوا وانهزم الروم وقتل أكثرهم فكانت عدة القتــلى ثلاثة آلاف قتيل ووصلت رؤسهم الى بلرم ثم سار المسلمون الى قلعة كان الروم بنوها عن قريب وسموها مدينة الملك فملكها المسلمون عنوة وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها وفي هذه السنة خرج ملك الروم المعروف بابن الصقلية فنازل ملطية فأعانهم أهل مرعش والحدث فانهزم ملك الروم وغزا الصائفة من ناحيــة الثغور الشامية الفرغانى عامل ابن طولون فقتل من الروم بضعة عشر ألفا وغنم الناس فبلغ السهم أربعين دينارا وفي سنة تسع وستين خرج محمد بن الفضل أمير صقلية في عسكر الى ناحية رمطة وبلغ العسكر الى قطانية فقتل كثيرا من الروم وسبى وغنم ثم انصرف الى بلرم وفي سنة سبعين زحف الروم في مائة ألف ونزلوا قلمية على ســتة أميال من طرسوس فخرج اليهم بازمار عامل طرسوس لابن طولون ليلا فبيتهم وقتل منهم سبعين ألفا وجماعة من البطارقة وقتل مقدمهم بطريق البطارقة وغنم منهم سبعة صلبان ذهب وفضة وكان أعظمها من ذهب مكللا بالجواهر وغنم خمسة عشر ألف دابة ومن السروج والسيوف مثل ذلك وأربع كراسى من ذهب ومائتين من فضة وعشرين علما من الديباج وآنية كثيرة ونحوا من عشرة آلاف علم ديباج وديباجا كثيرا وغير ذلك وفي هذه الســنة أراد اسماعيل بن موسى أحد أمراء الاندلس بناء مدينــة ماردة فلما سمع الفرنجى صاحب برشلونة جمع وحشد يريد منعه من ذلك فسمع به اسماعيل فقصده وقاتله وهزمه وقتل أكثرهم وبقى أكثر القتلى في تلك الارض دهرا طويلا وفي سنة احدى وسبعين سارت سرية للمسلمين بصقليــة الى رمطة فخرجت وغنــمت وسبت وأسرت كثيرا وعادت وسار جيش كثير من صقلية الى قطانية فأهلك مافيها وسار الى طبرمين فقاتل أهلها وأفسد زرعها

وتقدم فيها فأتى رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين ورجع الجيش وفي سنة اثنتين وسبعين غزا الصائفة بازمار وخرجت سرية من صقلية الى الروم الذين بها فغنمت وعادت وفيها قدم بطريق من القسطنطينية في عسكر كبير فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين فسلموها على أمان ولحقوا بصقلية ثم سار عسكر البطريق الى مدينة منتية فحصروها حتى سلمها أهلها بامان وفي سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازمار وتوغل في أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبي وعاد الى طرسوس وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس ومدة ملكه أربع وثلاثون سنة وولي بعده ابنه المنذر وتوفي بعد سنة واحد عشر شهرا وبويع أخوه عبد الله

ذكر غزو الروم ووفاة بازمار

في سنة ثمان وسبعين خرج بازمار غازيا في جيش فبلغوا شكند ونازلوها فاصاب بازمار شظية من حجر منجنيق فرجع ومات في الطريق ودفن بطرسوس وفي سنة تسع وسبعين توفي المعتمد على الله وبويع المعتضد بن الموفق بن المتوكل وفي سنة ثمانين غزا اسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوا من عشرة آلاف وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم من الدواب مالا يحصى وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم وفي سنة احدى وثمانين غزا المسلمون الروم فدامت الحرب بينهم أثني عشر يوما فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وعادوا

ذكر حصر الصقالبة القسطنطينية

في سنة ثلاث وثمانين سارت الصقالبة الى الروم فحصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وخربوا البلاد فلم يجد ملك الروم منهم خلاصا فجمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا لكون الصقالبة كفارا فكشفوا الصقالبة وأزاحوهم عن القسطنطينية ولما رأى ملك الروم ذلك خاف من المسلمين على نفسه فردهم وأخذ السلاح منهم وفرقهم في البلاد حذرا من جنايتهم عليه وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم فكان جملة من فدى من المسلمين الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس وفي سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق في البحر فغنم مراكب كثيرة فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب وفتح حصونا كثيرة وعاد سالما وفيها غزا ابن الاخشيد صاحب مصر بأهل طرسوس ففتح الله على يديه وبلغ اسكندرونة وفي سنة سبع وثمانين غزا أبو العباس أحمد بن الاغلب مدينة

بلرم برا وبحرا فخرج اليه أهلها فقاتلوه ثم انهزموا ووقع القتل فيهم وملك البلد ثم رحل الى طبرمين فقطع كرومها وقاتلوهم ثم رحل الى قطانية فحصرها فلم ينل منها غرضا فرجع الى صقلية الى ان دخلت سنة ثمان وثمانين فتجهز للغزو وطاب الزمان وعمر الاسطول وسيره الى قطانية ونصب عليها المجانيق واقام أياما ثم انصرف الى مسيني وجاز الى ريو وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم وملك المدينة بالسيف وغنم من الذهب والفضة مالايحد وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة ورجع الى مسيني وهدم سورها ووجد بها مراكب وصلت من القسطنطينية فأخذ منها ثلاثين مركبا ورجع الى المدينة وفي سنة ثمان وثمانين ومائتين سير المعتضد جيشا الى صائفة الروم ففتحوا حصونا كثيرة ورجعوا باسرى كثيرة ثم ان الروم ساروا في البر والبحر الى ناحية كيسوم فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفا وعادوا وفي سنة تسع وثمانين توفي المعتضد وبويع ابنه المكتفي وفي سنة احدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير الى ماوراء النهر فوجه اليهم صاحب خراسان اسماعيل الساماني جيشا كثيرا وتبعهم من المتطوعة خلق كثير فساروا نحو الترك فوصلوا اليهم وهم غارون فكبسهم المسلمون مع الصبح وقتلوا منهم خلقا عظيما لايحصون وانهزم الباقون واستبيح عسكرهم وعاد المسلمون سالمين غانمين وفي هذه السنة خرج من الروم مائة ألف عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف الى الثغور فقصد جماعة منهم الحدث (بلدة الروم) فاغاروا وسبوا وأحرقوا وفي هذه السنة غزا من طرسوس القائد المعروف بغلام زرافه ففتح مدينة انطاكية بالسيف وقتل خمسة آلاف من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من الاسارى خمسة آلاف وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع فقسمها مع غنائم انطاكية فكان السهم ألف دينار وفي سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس واجلوهم وأصيب جماعة من المسلمين وفي هذه السنة كان الفداء فكان جمله من فودى من أسرى المسلمين ألف نفس ومائتى نفس وفي سنة ثلاث وتسعين أغارت الروم على قورص من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالا شديدا ثم انهزموا وقتل الروم أكثرهم ودخل الروم قورس فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها وفى سنة أربع وتسعين غزا ابن كيغلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبى ودواب ومتاع ودخل بطريق من بطارقة الروم في الامان وأسلم وفيها أيضا غزا ابن كيغلغ فبلغ شكند وفتح الله عليه وسار الى الليس فغنموا نحوا من خمسين ألف رأس وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم وانصرفوا

سالمين وكان بطريق على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأرسل ذلك البطريق الى المكتفى يطلب الامان فاعطاه فخرج من حصنه ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا معه في الحصن وكان ملك الروم أرسل ليقبض عليه فاعطى المسلمين سلاحا فخرجوا معه وقبضوا على الذين أرسلهم ملك الروم ليقبضوا عليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا مافي عسكرهم فاجتمعت الروم لمحاربة البطريق فسار اليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين فبلغوا قونية فبلغ الخبر الى الروم فانصرفوا عنه فانصرف البطريق ومن معه الى بغداد وأخرب المسلمون قونيه وأرسل ملك الروم الى الخليفة المكتفى فطلب الفداء وفي سنة ثلاث وتسعين افتتح اسماعيل السامانى صاحب خراسان مدائن كثيرة من بلاد الترك والديلم وفي سنة خمس وتسعين توفي المكتفى وبويع أخوه المقتدر بن المعتضد وفي هذه السنة فودى من المسلمين ثلاثة آلاف نفس رجالا ونساء وفي سنة ست وتسعين كان ابتداء دولة العبيديين بافريقية وتفصيل ذلك طويل مذكور في التواريخ وفي هذه السنة بعث المقتدر جيشا لغزو الروم وعليه مونس الخادم فظفر وغنم وأسر منهم جماعة وعاد وفي سنة سبع وتسعين وجه المقتدر القائد ابن سيما لغزو الصائفة وكذا في سنة ثمان وتسعين وفي سنة تسع وتسعين غزا الصائفة رستم أمير الثغور من ناحية طرسوس فحصر حصن مليح الارمنى ثم دخل بلده وأحرقها وفي سنة ثلاثمائة توفي عبد الله بن محمد صاحب الاندلس وبويع حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله واستمر عبد الرحمن الناصر خمسين سنة وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين لما رأوا ظهور الضعف في خلفاء بني العباس وكانوا قبل ذلك يقال لمن ولى منهم الامير فلان وغزا عبد الرحمن الناصر في بلاد الفرنج غزوات كثيرة وأثخن فيهم حتى خضعوا له وصاروا بها دونه ويلتمسون رضاه وتفصيل غزواته يطول الكلام بذكرها وسيأتى ذكر شئ منها وفي سنة اثنتين وثلاثمائة سار الوزير للمقتدر على بن عيسى لغزو الصائفة فلم يتيسر له فغزاها ثانية في برد شديد وثلج وغزا أيضا بشر الخادم والى طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم وسبي وأسر مائة وخمسين بطريقا وكان السبي نحوا من ألفي رأس وفي سنة ثلاث وثلاثمائة أغارت الروم على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم وظهرت الروم أيضا فأوقعوا بجماعة من مقاتلة طرسوس والغزاة فقتلوا منهم نحو ستمائة فارس ولم تكن للمسلمين صائفة في هذه السنة لكثرة الفتن في بغداد في مدة المقتدر وفيها خرج مليح الارمنى الى مرعش فغاث في بلدها وأسر جماعة ممن حولها وعاد وفي سنة

أربع وثلاثمائة سار مؤنس الخادم الى بلاد الروم لغزو الصائفة بجيوش كثيرة وفتح حصونا كثيرة من الروم وعاد فأكرمه المقتدر وخلع عليه وفي سنة خمس وثلاثمائة جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فاجيبوا الى ذلك وأنفذ المقتدر مع مؤنس للفداء مائة ألف وعشرين ألف دينار وكان قبل ذلك عقد لثمال الخادم على الغزاة في بحر الروم وسار وكان قبل ذلك أيضا غزا جنى الصفوانى بلاد الروم فغنم ونهب وسبي وعاد سالما فقرئت الكتب على المنابر ببغداد بذلك ثم جاءت رسل ملك الروم بطلب الهدنة وفي سنة ثلاثمائة وثمان غزا عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس الى جليقية فاستنجد عليه ملوك الافرنج بعضهم بعضا فهزمهم ووطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب الحصون وفي سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة غزا بنبلونة وفعل أكثر من ذلك وله غزوات غيرها يطول الكلام بذكرها والجلالقة هم الأسبنيول وفي سنة عشر انقضت الهدنة التى كانت بين المقتدر وملك الروم فغزا المسلمون في البر والبحر فغنموا وسلموا ودخل أهل طرسوس ملطية فظفروا وبلغوا من بلاد الروم والظفر بهم مالم يظنوه وعادوا وفي سنة احدى عشرة غزا مؤنس بلاد الروم فغنم وفتح حصونا وغزا ثمال أيضا في البحر فغنم من السبي ألف رأس ومن الدواب ثمانية آلاف رأس ومن الغنم مائتى ألف رأس ومن الذهب والفضة شيأ كثيرا وفي سنة ثنتى عشرة جاء رسول ملك الروم بهدايا يطلب الهدنة وتقرير الفداء فاجيب الى ذلك ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فأثخنوا ونهبوا وسبوا وعادوا وفي سنة ثلاث عشرة كتب ملك الروم الى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج فان فعلوا والا قصدهم فقتل الرجال وسبي الذرية وقال انى قد صح عندى ضعف ولاتكم فلم يفعلوا ذلك فسار اليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية وأخربها وسبي منها سنة أربع عشرة وفتح الروم أبوابا من الربض فدخلوا فقاتلهم أهلها وأخرجوهم وخربوا قرى كثيرة من قراها ونبشوا الموتى ومثلوا بهم وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين فلم يغاثوا فعادوا بغير فائدة وغزا أهل طرسوس صائفة فغنموا وعادوا

ذكر حرب بين المسلمين والروم

في سنة خمس عشرة وثلاثمائة خرجت سرية من طرسوس الى بلاد الروم فوقع عليها العدو فاقتتلوا فاستظهر الروم وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبرا وسار الدمستق فى جيش عظيم الى مدينة دبيل فحاصرها وضيق عليها والدمستق عندهم ملك عظيم يلى بلاد الروم التى هى شرقى دجلة القسطنطنية ويكون تحت أمر الملك الذى في

القسطنطينية وكان مع الدمستق دبابات ومجانيق ومزاريق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد وكان الرامي بها من أشجعهم فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله المسلمين منه وكان الدمستق يجلس على كرسي عال ليشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر له أهل البلد وهو ملازم للقتال حتى وصلوا الى سور المدينة فنقبوا فيه نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتالا شديدا فانتصر المسلمون وأخرجوا الروم منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل وفي هذه السنة أيضا غزا ثمال الصائفة من طرسوس ولقي جمعا كثيرا من الروم فاقتتلوا فانتصر المسلمون عليهم وقتلوا من الروم كثيرا وعاثوا في انعامهم وغنموا ثلاثمائة رأس من الغنم ولقيهم رجل من رؤساء الاكراد يعرف بابن الضحاك وكان له حصن يعرف بالجعفري وكان قد ارتد عن الاسلام وتنصر وسار الى ملك الروم وخدمه فأجزل له القطيعة وأمره بالعود الى حصنه فلقيه المسلمون فقاتلوه فأسروه وقتلوا كل من معه وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحا وجعل الصليب في جامعها ورحل الى بدليس ففعل بها كذلك وخاف أهل ارزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم الى بغداد واستغاثوا الى الخليفة فلم يغاثوا وفي هذه السنة وصل سبعمائة رجل من الروم والارمن الى ملطية ومعهم الفؤس والمعاول وأظهروا انهم يتكسبون بالعمل ثم ظهر أن مليحا الارمني وضعهم ليكونوا بها فاذا حصرها سلموها اليه فعلم بهم أهل ملطية فقتلوهم وأخذوا ما معهم وفي سنة سبع عشرة خلع المقتدر وبويع أخوه القاهر ثم بعد يومين أعيد المقتدر وخلع القاهر وكانت هذه الفتنة هائلة وبسببها ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم منها ملطية وميافارقين وآمد وارزن وغيرها وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم اليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم وأرسلوا الى بغداد يستأذنون في التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم فلم يحصلوا على فائدة فعادوا فصالحوا الروم وملكوهم البلاد وفي سنة سبع عشرة أيضا كان دخول القرامطة مكة يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلعوا الحجر الاسود وأنفذوه الى هجر وقلعوا باب البيت وأصعدوا رجلا ليقلع الميزاب وكان من ذهب فاصيب بسهم من جبل أبي قبيس مما أخطأ نحره وخر ميتا فصعدوا آخر مكانه فسقط من فوق الى أسفل على رأسه ومات فهاب الثالث الاقدام على تمام فتركوا قلع الميزاب وكان جملة من قتلوه من الطائفين والمصلين والمحرمين في مكة وشعابها زهاء ثلاثين

ألفا وسبوا من النساء والذرية مثل ذلك وتلك مصيبة ماأصيب الاسلام بمثلها وكان رئيسهم عدو الله المكنى بأبي طاهر وركض عند الكعبة فرسه وسيفه مشهور بيده وصفر لفرسه عند البيت الشريف فبال وراث .قيل ان الذين قتلهم في المطاف ألف وسبعمائة وملأ بئر زمزم من رؤسهم والكلام على هذه القصة وغيرها من وقائعهم طويل مذكور في التواريخ وقاتلهم خلفاء بني العباس ولهم معهم وقائع كثيرة وكان ابتداء ظهورهم سنة ثمان وسبعين ومائتين ولهم عقائد قبيحة يكفرون بها وان كانوا يدعون الاسلام ويزعمون أنهم يدعون الناس للبيعة للمهدى المنتظر وزعموا انه محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وكل ذلك زور وباطل قال ابن الاثير ولم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبدالله ومكث الحجر الاسود عندهم في هجر اثنتين وعشرين سنة وكانوا يريدون تحويل الحج الى هجر فلما أيسوا من ذلك رجعوه الى موضعه من البيت وكان ذلك في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وابتلى أبو طاهر رئيسهم بداء الأكلة فصار يتناثر لحمه بالدود وتقطعت أوصاله وطال عذابه ومات شر ميتة ولعذاب الآخرة أشد وابقى وانما ذكرنا هذه القصة لان قتال هؤلاء وما فعلوه ماحق بقتال الكفار وأفعالهم ولا عبرة بكونهم يدعون الاسلام فانهم كانوا يستبيحون دماء المسلمين ويرون ضلال كافة المسلمين ومن عقائدهم الزائغة المكفرة أن الصلاة ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها فقط وان النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من الجنابة الا الوضوء كوضوء الصلاة وان محمد بن الحنفية رسول الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك من ضلالاتهم واستمرت شوكتهم الى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ثم اضمحل أمرهم شيأ فشيأ حتى لم يبق لهم دولة

﴿ تنبيه ﴾

يوجد على وجه الحجر الاسود قطع كانت تكسرت منه ثم الصقت به واشتهر على ألسنة كثير من الناس ان سبب تكسر هذه القطع من القرامطة لما أخرجوا الحجر الاسود وليس الامر كذلك بل سبب تكسرها ما ذكره السنجارى في تاريخ مكة ونص عبارته في سنة أربعمائة وأربع عشرة يوم النفر الاول وكان جمعة دخل المسجد رجل أشقر بيده سيف مسلول ودبوس من حديد فتقدم بعد أن فرغ الامام من صلاة الجمعة وقصد الحجر الاسود فضربه بالدبوس ثلاث مرات وقال الى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلى فليمنعنى مانع من هذا فانى أريد رب هذا البيت فخافه أكثر الحاضرين وكاد يهرب فثار اليه رجل فضربه بخنجر فقتله وقطعه الناس بالسلاح ثم أحرقوه فحصل في الحجر الاسود شظب

وخرج منه قطع صغار فاعادها سدنة الكعبة وأمير مكة وألصقوها بالك فصارت آثار ذلك
باقية الى الآن اه ولنرجع الى ما كنا بصدده وفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة غزا ثمال والى
طرسوس بلاد الروم فعبر نهرا ونزل عليهم ثلج الى صدور الخيل وأتاهم جمع كثير من
الروم فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحوا من ثلاثة آلاف
وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيأ كثيرا وعاد ثمال الى طرسوس ودخل
بلاد الروم صائفة في جمع كثير من الفارس والراجل فبلغوا عمورية وكان قد تجمع بها
كثير من الروم ففارقوها لما سمعوا خبر ثمال ودخل المسلمون فوجدوا فيها من الطعام
والامتعة شيأ كثيرا فأخذوا وأحرقوا ما كانوا عمروه منها وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون
ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة وهي التي تسمى الآن انكورية وعادوا سالمين لم يلقوا
كيدا فبلغت قيمة السبي مائة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار وفي هذه السنة كاتب
ابن الديرانى وغيره من الارمن وهم باطراف ارمينية الروم وحثوهم على قصد بلاد
الاسلام ووعدوهم النصر فسارت الروم في خلق كثير فخربوا بذكرى وبلاد خلاط وما
جاورها وقتل من المسلمين خلق كثير وأسروا كثيرا منهم فبلغ خبرهم مفلحا غلام يوسف
ابن أبي الساج وهو والى أذربيجان فسار في عسكر كبير وتبعه كثير من المتطوعة الى
أرمينية وقصد بلد ابن الديرانى ومن وافقه فخربه وقتل أهله ونهب أموالهم وبالغ الناس
في كثرة القتلى من الارمن حتى قيل انهم كانوا مائة ألف قتيل والله أعلم وتحصن ابن
الديرانى بقلعة له وفي هذه السنة أيضا سارت الروم الى سميساط فحصروها فاستصرخ أهلها
بسعيد بن حمدان صاحب الموصل وديار ربيعة فتجهز وسار مسرعا اليهم وقد كاد الروم
يفتحونها فلما قاربهم هربوا منه فسار الى ملطية وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم
وسلموا مفاتيح البلد اليهم فحكموا على المسلمين وكان في ملطية جمع من الروم ومن
عسكر مليح الارمنى ومعهم بنى ابن نفيس صاحب المقتدر وكان قد تنصر وهو مع الروم
فلما أحسوا باقبال سعيد خرجوا منها وخافوا أن يأتيهم سعيد بن حمدان في عسكره من
خارج المدينة ويثور أهلها بهم فيهلكوا ففارقوها ودخلها سعيد ثم استخلف عليها أميرا
وعاد عنها ودخل بلاد الروم غازيا وقدم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقا كثيرا قبل
دخوله اليها وفي سنة عشرين قتل المقتدر (استطراد) قال العلامة القطبي في تاريخه كان
المقتدر في كل عام يصرف يوم عرفة من الابل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين
ألفا وكان يصرف في كل سنة في طريق مكة والحرمين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة عشر

ألف دينار وكان في داره أحد عشر ألف غلام خصي غير الصقالبة والروم والسود وختن خمسة من أولاده فصرف في ختانهم ستمائة ألف دينار وقدم مرة عليه رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة فعمل المقتدر موكبا عظيما لارهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل صفين من باب الشماسية الى دار الخلافة ببغداد لتمر الرسل بين الصفين في هذه المسافة وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ونصبت الستور على حيطان دار الخلافة فبلغت ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج وكانت البسط الفاخرة التى فرشت في الارض اثنين وعشرين ألف بساط وفي الحضرة مائة سبع في سلاسل الذهب والفضة وكان من جملة الزينة شجرة صيغت وصنعت من الذهب والفضة والجواهر وأغصانها تمايل بحركات مصنوعة وعلى الاغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كانت زينتها في أيام قوة دولتهم في كمال وصفها فسبحان من لايزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغيره الشؤن ولا تحوله الاحوال وهو الله الكبير المتعال لااله الا هو وحده لاشريك له ولا ضد ولاند ولا مثال كون الاكوان وقدرها تقديرا الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا انتهى *واذكر قصة قتل المقتدر فان فيها اعتبار الكل من كانت له بصيرة وهى تدل على هوان الدنيا وخسة قدرها عند الله تعالى وذوى البصائر من عباده وحاصلها ان مؤنسا الخادم كان عبدا خصيا من عبيد المعتضد والد المقتدر فلما صارت الخلافة للمقتدر زاده في رفعة القدر وولاه قيادة كثير من جيوشه وصار من أعظم وزرائه وفي سنة عشرين وثلاثمائة حصلت وحشة بينه وبين المقتدر فسار مؤنس الى الموصل مغاضبا للمقتدر فاستولى المقتدر على اقطاع مؤنس وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب الى بنى حمدان أمراء الموصل بصد مؤنس عن الموصل وقتاله فجرى بين مؤنس وبينهم قتال فانتصر مؤنس واستولى على الموصل واجتمعت عليه العساكر من كل جهة فسار بهم الى جهة بغداد ثم لما وصل الى بغداد نزل عند باب الشماسية بجنوده فخرج المقتدر الى قتال مؤنس بمن بقى معه من العساكر لان كثيرا منهم انعزلوا عنه وانحدروا الى واسط ليكونوا مع مؤنس " خرج المقتدر للقتال كان بين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة وعليه البردة النبوية ووقف على تل فألح عليه أصحابه بالتقدم الى القتال فتقدم ثم انهزمت أصحابه فلحق المقتدر قوم من العسكر مغاربة فقال لهم ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك

ياسفلة أنت خليفة ابليس فضربه واحد منهم بسيفه فسقط الى الارض فذبحوه وقطعوا رأسه ورفعوه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا ماعليه حتى سراويله وكشفت عورته ثم حفروا له في موضعه ودفنوه وعفى قبره وحملوا رأسه الى مؤنس وهو بالراشدية لم يشهد الحرب فلما رأى مؤنس رأس المقتدر لطم وجهه وبكى ثم ان القاهر أخا المقتدر لما بويع بعد قتل المقتدر وتمكن له الامر قتل مؤنسا ولم تطل مدة القاهر بل خلع سنة اثنتين وعشرين وسملت عيناه وعاش دهرا طويلا أعمى محبوسا في دار الخلافة ثم أطلقوه وأهملوه فوقف يوما بجامع المنصور بين الصفوف وقال تصدقوا على فأنا من قد عرفتم وذلك في أيام المستكفي ليشنع عليه فمنعوه من الخروج الى ان مات سنة تسع وثلاثين وعمره ثلاث وخمسون سنة ولما خلع القاهر بويع الراضي بن المقتدر وفي هذه السنة سار الدمستق الى سميساط في خمسين ألفا ونازل ملطية وحصرها مدة طويلة هلك أكثر أهلها بالجوع وضرب خيمتين على أحدهما صليب وقال من أراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليرد اليه أهله وماله ومن أراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى وله الامان على نفسه ونبلغه مأمنه فانحاز أكثر المسلمين الى الخيمة التي عليها الصليب طمعا في أهاليهم وأموالهم وسير مع الباقين بطريقا يبلغهم مأمنهم وفتحها بالامان ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأكثروا القتل وفعلوا الافاعيل الشنيعة وصار أكثر البلاد في أيديهم وفتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فاوقعوا بأهلها ثم مروا بقرقيسا من ساحل الشام فاحرقوا مراكبها وعادوا سالمين وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة من فودى من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة أسير مابين ذكر وأنثى وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة توفي الراضي وبويع أخوه المتقي بن المقتدر وفي سنة ثلاثين وصل الروم الى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف انسان وفي هذه السنة غزا الثملي من ناحية طرسوس الى بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وعاد سالما وقد أسر عدة من بطارقتهم وفي سنة احدى وثلاثين أرسل ملك الروم الى المتقي لله يطلب منه منديلا يزعم ان المسيح مسح بها وجهه فصارت صورة وجهه فيه وانه في بيعة الرها وذكر أنه ان أرسل المنديل أطلق عددا كثيرا من أسارى المسلمين فاحضر المتقي لله القضاة والفقهاء واستفتاهم فاختلفوا فبعض رأى تسليمه الى الملك واطلاق الاسرى وبعض قال ان هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الاسلام لم يطلبه ملك من ملوك الروم وفي دفعه اليهم غضاضة وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير فقال ان خلاص المسلمين من

الاسر ومن الضر والضنك الذى هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل فامر الخليفة بتسليمه اليهم واطلاق الاسرى ففعل ذلك وأرسل الى الملك من يستلم الاسرى من بلاد الروم فاطلقوا

ذكر خروج الروسية على بلاد الاسلام

في سنة ثنتين وثلاثين خرجت طائفة من الروسية في البحر الى نواحى اذربيجان وركبوا في البحر في نهر الكر وهو نهر كبير فانتهوا الى مدينة برذعة فخرج اليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان في جموع من الديلم والمتطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل فلقوا الروس فلم يكن الا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتلوا عن آخرهم وتبعهم الروس الى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالامان وأقبلت العساكر الاسلامية من كل ناحية لمقاتلتهم فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم وكان عامة البلد يخرجون ويرمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء فانهم كفوا أنفسهم وسار العامة والرعاع لايضبطون أنفسهم فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وان لايقيموا بعد ثلاثة أيام فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الاجل فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا بعد القتل بضع عشرة ألف نفس وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم والا قتلناكم وسعى لهم انسان نصرانى فقرر على كل رجل عشرين درهما فلم يقبل منهم الا عقلاؤهم فلما رأى الروسية أنه لايحصل منهم شئ قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا الشريد وغنموا أموال أهلها واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنوها

ذكر مسير المرزبان بن محمد بن مسافر ملك الديلم اليهم

لما فعل الروس بأهل برذعة ماذكرناه استعظمه المسلمون وتنادوا بالنفير وجمع المرزبان ابن محمد الناس واستنفرهم فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفا وسار بهم فقاتلوهم فامتنعوا عليه فاكمن لهم بعض الايام فهزمهم وقتل أميرهم ونجا الباقون الى حصن البلد وحاصرهم المرزبان حتى هربوا من البلد وحملوا ماقدروا عليه وطهر الله البلد منهم وملك الروس أيضا في هذه السنة رأس عين واستباحوها ثلاثا وقاتلهم الاعراب ففارقوها وكانوا ثمانين ألفا مع من سبق وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خلع المتقى بن المستكفى بن المكتفى بن المعتضد ومكث سنة وأربعة أشهر ثم خلع وبويع المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حين تغلب بنو بويه على الخلفاء وبنو بويه كسر بين ويقال أيضا بسكون الواو

وفتح الياء ينتهي نسبهم الى ملوك الفرس وانما نسبوا الى الديلم لانهم طال مقامهم ببلادهم وخدموا كثيرا من عمال الخلفاء حتى صاروا قواد جيوش ثم تقوى أمرهم حتى تغلبوا على الخلفاء وصار الملك بايديهم وليس للخلفاء الا الاسم والدعاء على المنابر وكتابة المناشير وكتابة أسمائهم على الدراهم والدنانير وأخبارهم طويلة مذكورة في التواريخ ودخل معز الدولة بن بويه بغداد بجيوشه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخلع الخليفة المستكفي بن المكتفي وأقام في الخلافة المطيع لله بن المقتدر وكان ابتداء ظهورهم سنة عشرين وثلاثمائة وما زالوا يتغلبون على ممالك بني العباس شيأ فشيأ حتى تغلبوا على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وصاروا يتوارثون الملك بالتغلب الى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فقامت دولة السلجوقية وتغلبوا عليهم وعلى الخلفاء أيضا وفي سنة خمس وثلاثين كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص وكان عدة الاسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيرا من ذكر وأنثى وفضل للروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيرا لكثرة من معهم من الاسرى فوفاهم ذلك سيف الدولة ومن هذا التاريخ صار أمر الصوائف الى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة غزا سيف الدولة بن حمدان الى بلاد الروم فلقيه الروم واقتتلوا فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس وفي سنة ثمان وثلاثين غزا سيف الدولة أيضا بلاد الروم وأوغل فيها وفتح حصونا كثيرة وسبي وغنم فلما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدة يسيرة

﴿ ذكر غزوة بصقلية ﴾

في سنة أربعين غزا الروم بصقلية الحسن بن علي الكلبي عامل المنصور العبيدي وجاءت جنود من القسطنطينية مددا للروم بصقلية فاقتتلوا مع المسلمين أشد القتال ثم انهزم الروم وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى الليل وغنموا جميع أثقالهم وسلاحهم ودوابهم وفي سنة احدى وأربعين ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد وفي سنة ثلاث وأربعين غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق فعظم الامر على الروم وعلى الدمستق فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا

عند الحدث فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان ثم ان الله تعالى نصر المسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق كثير وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته وعاد الدمستق مهزوما مسلولا وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة سار سيف الدولة في جيوش الى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبى وأسروأحرق وخرب وأكثر القتل فيهم ورجع الى اذنة فأقام بها ثم رجع الى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا الى ميافارقين وأحرقوا أسوارها ونهبوا وخربوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم وعادوا وفي هذه السنة سار الروم في البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفا وثمانمائة رجل وأحرقوا القرى التي حولها وفعلوا مثل ذلك أيضا بطرسوس والرها سنة ثمان وأربعين وفي سنة تسع وأربعين غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير فأثر فيها آثارا كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبى والغنائم والاسرى شيئاً كثيرا وبلغ الى خرشنة ثم ان الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس أن الروم قد ملكوا الدرب خاف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى ان ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال انه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة وهذا من سوء رأى كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب وفي سنة ثلاثمائة وخمسين سار قفل عظيم من انطاكية الى طرسوس ومعهم صاحب انطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيها من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات وفي هذه السنة غزا نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين وغنم ماقيمته قيمة عظيمة وسبى وأسر وخرج سالما

ذكر استيلاء الروم على مدينة زربة وهو ثغر قرب المصيصه والمصيصة بلدة بالشام

في سنة احدى وخمسين وثلاثمائة نزل الروم مع الدمستق على عين زربة وهى في سفح جبل عظيم وهو مشرف عليها وهم في جمع عظيم فانفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل فلكوه فلما رأى ذلك أهلها وأن الدمستق قد ضيق عليه ومعه الدبابات وقد وصل الى السور وشرع في النقب طلبوا الامان فأمنهم الدمستق وفتح له باب المدينة فدخلها فرأى أصحابه الذين في الجبل قد نزلوا الى المدينة فندم على اجابتهم الى الامان ونادى في البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله الى المسجد الجامع ومن تأخر في منزله قتل فخرج من أمكنه

الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألفا وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله فقتلوا خلقا كثيرا من الرجال والنساء والصبيان وأمر بجميع ما في البلد من السلاح فجمع فكان شيأ كثيرا وأمر من في المسجد ان يخرجوا من البلد حيث شاؤا يومهم ذلك ومن أمسى قتل فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون وماتوا في الطرقات وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ماخلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة وأقام الدمستق في بلد الاسلام احدا وعشرين يوما وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالامان وكان من جملة تلك الحصون التي فتحت بالامان حصن أمر أهله بالخروج منه فخرجوا فتعرض أحد الارمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق لذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك الامن يصلح ان يسترق فلما أدركه الزمن الذى يصوم فيه النصارى انصرف على انه يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وقتل أخا لابن الزيات فعاد الى طرسوس وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة ابن حمدان فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة وأرسلوا له بذلك فلما علم ابن الزيات حقيقة الامر صعد الى روشن في داره فألقى نفسه الى نهر تحته فغرق وأرسل اهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

﴿ ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم منها بغير سبب ﴾

في هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها وكان سبب ذلك ان الدمستق سار الى حلب ولم يشعر به المسلمون لانه كان قد خلف عسكره بقيسارية ودخل بلادهم كما ذكرناه فلما قضى صوم النصارى وخرج الى عسكره من البلاد جريدة ولم يعلم به أحد وسار بهم فعند وصوله سبق خبره وكبس مدينة حلب ولم يعلم به سيف الدولة بن حمدان ولا غيره فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخبر أعجله الامر عن الجمع والاحتشاد فخرج اليه فيمن معه فقاتله فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود ابن حمدان أحد قتلوا جميعهم فانهزم سيف الدولة في نفر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمائة بدرة من الدراهم وأخذ له ألفا وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح مالا يحصى فأخذ الجميع وخرب

الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم في السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل جوشن ثم ان رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم ليمنعوها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خاليا من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فصعدوا الى أعلاه فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله فنزلوا وفتحوا الابواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا السيف الى ان تعبوا وضجروا وكان في حلب ألف وأربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا مالا يوصف كثرة فلما لم يبق مع الروم مايحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقي وأحرق المساجد وكان قد بذل لاهل البلد الامان على ان يسلموا اليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالا ذكره وينصرف عنهم فلم يجيبوه الى ذلك فملكهم كما ذكرنا وكان عدة عسكره مائتي ألف رجل منهم ثلاثون ألفا بالجواشن وهي الصدر والدرع وثلاثون ألفا للهدم واصلاح الطرق من الثلج ومعه أربعة آلاف بغل تحمل الحسك الحديد وهي أداة للحرب من حديد لها شوك تلقى حول العسكر للحفظ من الدخول اليهم ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه وأقام الدمستق تسعة أيام وأراد الانصراف عن البلد بما غنم فقال له ابن أخت الملك وكان معه هذا البلد قد حصل في أيدينا فليس من يدفعنا عنه فلأى سبب تنصرف عنه فقال له الدمستق قد بلغنا مالم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا مالم يسمع بمثله فتراجعا الكلام الى ان قال له الدمستق أنزل على القلعة فحاصرها فانني مقيم بعسكرى على باب المدينة فقدم ابن أخت الملك الى القلعة ومعه سيف وترس وتبعه الروم فلما قرب من باب القلعة ألقي عليه حجر فسقط ورمي بخشب فقتل فاخذه أصحابه وعادوا الى الدمستق فلما رآه قتيلا قتل من معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفا ومائتي رجل وعاد الى بلاده ولم يعرض لسواد حلب وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود اليهم بزعمه

﴿ ذكر فتح طبرمين من صقلية ﴾

وفي هذه السنة سارت جيوش المسلمين بصقلية وأميرهم حينئذ أحمد بن الحسن بن على ابن أبي الحسن عامل العبيديين الى قلعة طبرمين من صقلية أيضا وهي بأيدى الروم فحاصروها وهي من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين فامتنع أهلها ودام الحصار عليهم

فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا الى الماء الذى يدخلها فقطعوه عنها وأجروه الى مكان آخر فعظم الامر عليهم وطلبوا الامان فلم يجابوا اليه فعادوا وطلبوا ان يؤمنوا على دمائهم ويكونوا رقيقا للمسلمين وأموالهم فيأ فأجيبوا الى ذلك وأخرجوا من البلد وملكه المسلمون وكان مدة الحصار سبعة أشهر ونصفا واسكن القلعة نفرا من المسلمين وسميت المعزية نسبة للمعز العبيدى صاحب افريقية وسار جيش الى رمطة مع الحسن بن عمار فحصروها وضيقوا عليها فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا الى ملك القسطنطينية يعلمونه الحال ويطلبون منه أن ينجدهم بالعساكر فجهز اليهم عسكرا عظيما يزيدون على أربعين ألف مقاتل وسيرهم في البحر فوصلت الاخبار الى الامير أحمد امير صقلية فأرسل الى المعز بافريقية يعرفه ذلك ويستمده ويسأله ارسال العساكر اليه سريعا وشرع هو في اصلاح الاسطول والزيادة فيه وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر وأما المعز فانه جمع الرجال وحشد وفرق فيهم الأموال الجليلة وسيرهم مع الحسن بن على والد أحمد فوصلوا الى صقلية في رمضان وساروا الى الذين يحاصرون رمطة فكانوا معهم على حصارها فأما الروم فانهم وصلوا أيضا الى مدينة صقلية في شوال ونزلوا عند مدينة مسيني وزحفوا منها بجموعهم التى لم يدخل صقلية مثلها الى رمطة فلما سمع الحسن بن عمار مقدم الجيش الذين يحاصرون رمطة ذلك جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت ووصل الروم وأحاطوا بالمسلمين ونزل أهل رمطة الى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم فقاتلهم الذين جعلوا هناك لمنعهم وأبعدوهم عما أرادوا وتقدم الروم الى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من العدد وغيرها والتحم القتال وعظم الامر على المسلمين وألحقهم العدو بخيامهم وأيقن الروم بالظفر فلما رأى المسلمون عظم مانزل بهم اختاروا الموت ورأوا انه أسلم لهم وأخذوا بقول الشاعر

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد * لنفسى حياة مثل ان أتقدما

فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم وحمى الوطيس حينئذ وحرضهم على قتال الكفار وكذلك فعل بطارقة الروم وحملوا وحرضوا عساكرهم وحمل منويل مقدم الروم فقتل في المسلمين فطعنه المسلمون فلم يؤثر فيه لكثرة ماعليه من اللباس فرمى بعضهم فرسه فقتله واشتد القتال عليه فقتل هو وجماعة من بطارقته فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة وأكثر المسلمون فيهم القتل ووصل المنهزمون الى حرف خندق عظيم كالحفرة فسقطوا فيها من خوف السيف فقتل بعضهم بعضا حتى امتلأت وكانت الحرب من بكرة الى العصر

وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الاموال مالا يحد وكان في جملة الغنيمة سيف هندى عليه مكتوب هذا سيف هندى وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى المعز مع الاسرى والرؤس وسار من سلم من الروم الى ريووأما أهل رمطة فانهم ضعفت نفوسهم وكانت الاقوات قد قلت عندهم فاخرجوا من فيها من الضعفاء وبقى المقاتلة فزحف اليهم المسلمون وقاتلوهم الى الليل ولزموا القتال في الليل أيضا وتقدموا بالسلالم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والصغار وغنموا مافيها وكان شيأ كثيرا عظيما ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها ثم ان الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريو منهم وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم فركب الامير أحمد في عساكره وأصحابه في المراكب أيضا وزحف اليهم في الماء وقاتلهم واشتد القتال بينهم وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء وخرقوا كثيرا من المراكب التى للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لايلوى أحد على أحد وسارت سرايا المسلمين في مداين الروم فغنموا منها فبذل أهلها لهم كثيرا من الأموال وهادنوهم وكانت هذه الوقائع في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والهدنة في سنة أربع وخمسين وهذه الوقعة الاخيرة تعرف بوقعة المجاز ولنرجع الى تمام الكلام على حوادث سنة احدى وخمسين ففيها أخذ الروم حصن دلوك وثلاثة حصون مجاورة له وفيها سير سيف الدولة حاجبه في جيش مع أهل طرسوس الى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا فقصد الروم حصن سيسية فملكوه وفيها سار نجا غلام سيف الدولة في جيش الى حصن زياد فلقيه جمع من الروم فهزمهم واستأمن اليه من الروم خمسمائة رجل وفي هذه السنة أيضا في شوال أسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان من منبج وكان متقلدا لها وكان ذا فصاحة وبلاغة وله ديوان شعر جيد وبقى أسيرا الى سنة خمس وخمسين فافتداه سيف الدولة بمال جزيل وتسلمه منهم وفي سنة احدى وخمسين أيضا سار جيش من الروم الى جزيرة اقريطش فأرسل أهلها الى المعز العبيدى صاحب افريقية يستنجدونه فأرسل اليهم نجدة فقاتلوا الروم فانتصر المسلمون وأسرى من كان بالجزيرة من الروم وفي سنة اثنتين وخمسين دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين ودخلها أيضا نجا غلام سيف الدولة من درب آخر وأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا الى قونية وعادوا وفي هذه السنة اجتمع جماعة كثيرة من الارمن وقصدوا الرها فأغاروا عليها فغنموا وأسروا وعادوا موفورين

﴿ ذكر حصر الروم المصيصة ووصول الغزاة من خراسان ﴾

في سنة ثلاث وخمسين حصر الروم مع الدمستق المصيصة وقاتلوا أهلها ونقبوا سورها واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعوهم عنه بعد قتال عظيم وأحرق الروم رستاقها ورستاق أدنة وطرسوس لمساعدتها أهلها فقتل من المسلمين خمس عشرة ألف رجل وأقام الروم في بلاد الاسلام خمسة عشر يوما لم يقصدهم من يقاتلوهم فعادوا لغلاء الاسعار وقلة الاقوات ثم ان انساناً وصل الى الشام من خراسان يريد الغزو ومعه خمسة آلاف رجل وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين فلما وصلوا الى سيف الدولة في صفر أخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين فوجد الروم قد عادوا وافترق الغزاة الخراسانية الى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم الى بغداد ومنها الى خراسان ولما أراد الدمستق العود الى بلاد الروم أرسل الى أهل المصيصة وادنة وطرسوس اني منصرف عنكم لا لعجز ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء وانا عائد اليكم فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودي قتلته ثم نزل ملك الروم بعد ذلك على طرسوس وحصرها وجرى بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط في بعضها الدمستق الى الارض وكاد يؤسر فقاتلت عليه الروم وخلصوه وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم ورحل الروم عنهم وتركوا عسكراً على المصيصة مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعهم منها أحد فاشتد الغلاء على الروم وكثر فيهم الوباء فمات كثير منهم فاضطروا الى الرحيل

﴿ ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس ﴾

في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة سار نقفور ملك الروم الى قيسارية ليقرب من بلاد الاسلام وأقام بها ونقل أهله اليها فأرسل اليه أهل طرسوس والمصيصة يبذلون له اتاوة ويطلبون منه أن ينفذ اليهم بعض أصحابه يقيم عندهم فعزم على اجابتهم فأتاه الخبر بأنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصر لهم وان الغلاء قد اشتد عليهم وقد عجزوا عن القوت وأكلوا الكلاب والميتة وقد كثر فيهم الوباء فيموت منهم في اليوم نحو ثلاثمائة نفس فعاد نقفور عن اجابتهم وأحضر الرسول وأحرق الكتاب على رأسه واحترقت لحيته وقال لهم أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت فان أخذها انسان وأحسن اليها وأدفأها انتعشت ونهشته وأنتم انما أطعتم لضعفكم وان تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم وأعاد الرسول وجمع جيوش الروم وسار الى المصيصة بنفسه فحصرها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها الى

بلد الروم وكانوا نحو مائتي ألف انسان ثم سار الى طرسوس فحاصرها فاذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الامان فأجابهم اليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم ان يحملوا من سلاحهم وأموالهم مايطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة اليها حتى رخصت الاسعار وتراجع اليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم والعياذ بالله تعالى وأراد الملك المقام بها ليقرب من بلاد الاسلام ثم عاد الى القسطنطينية وأراد الدمستق ان يقصد ميافارقين وبها سيف الدولة فأمره الملك باتباعه الى القسطنطينية وفي هذه السنة نزلت طائفة من الترك على بلاد الخزر فاستنصر أهل الخزر باهل خوارزم فلم ينجدوهم وقالوا أنتم كفار فان أسلمتم نصرناكم فأسلموا الا ملكهم فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ثم أسلم ملكهم بعد ذلك

ذكر خروج الروم الى بلاد الاسلام

في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة في شوال خرجت الروم فقصدوا مدينة آمد ونزلوا عليها وحاصروها وقتلوا أهلها فقتل منهم ثلاثمائة رجل وأسر نحو أربعمائة أسير ولم يمكنهم فتحها فانصرفوا الى دارا وقربوا من نصيبين ولقيهم قافلة واردة من ميافارقين فأخذوها وهرب الناس من نصيبين خوفا منهم حتى بلغت أجرة الدابة مائة درهم وراسل سيف الدولة الاعراب ليهرب معهم وكان في نصيبين فاتفق ان الروم عادوا قبل هربه فأقام بمكانه وساروا من ديار الجزيرة الى الشام فنازلوا انطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها فلم يمكنهم فتحها فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا الى طرسوس وفي سنة ست وخمسين توفي سيف الدولة وملك ابنه أبو المعالى شريف وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وصلت سرية كبيرة من الروم الى انطاكية فقتلوا في سوادها وغنموا وسبوا اثنى عشر ألفا من المسلمين وفي سنة ثمان وخمسين دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله فسار في البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه فقصد قلعة عرقة فاخذه الروم وجميع ماله وكان كثيرا وقصد ملك الروم حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهبا وتحريقا وملك ثمانية عشر منبرا وأما القرى فكثيرة لاتحصى وأقام في الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء

ولا يمنعه أحـد الا ان بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم فأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين فأراد أن يحصر انطاكية وحلب فبلغه ان أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون اليه فامتنع من ذلك وعاد ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس ولم يأخذ الا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه وكان بحلب قرعويه غلام سـيف الدولة فصانع الروم عليها فعادوا الى بلادهم فقيل كان سبب عودهم كثرة الامراض والموت وقيل ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم فعادوا على عزم الرجوع وسير ملك الروم سرية الى الجزيرة فنهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا

﴿ ذكر ملك الروم انطاكية ﴾

في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة انطاكية وسبب ذلك انهم حصروا حصنا بالقرب من أنطاكية يقال له حصن لوقا ووافقوا أهله وهم نصارى على ان يرحلوا منه الى انطاكية ويظهروا انهم انما انتقلوا منه خوفا من الروم فاذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فتحها وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك وانتقل أهل الحصن ونزلوا بانطاكية بالقرب من الجبل الذى بها فلما كان بعد انتقالهم بشهرين جاءت الروم مع أخى نقفور الملك وكانوا نحو أربعين ألفا فأحاطوا بسور انطاكية وصعدوا الجبـل الى الناحية التى بها أهل حصن لوقا فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور وملك الروم البلد ووضعوا فى أهله السـيف ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والاطفال من البلد وقالوا لهـم اذهبوا حيث شئتم وأخذوا الشـباب من الرجل والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم الى بلاد الروم سبيا وكانوا يزيدون على عشرين ألفا

﴿ ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها ﴾

لما ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشا كثيفا الى حلب وكان أبو المعالى شريف بن سيف الدولة محاصرا لهـا وبها قرعويه غلام سيف الدولة متغلبا عليها فلما سمع أبو المعالى خبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهـم وحصروا البلد وبه قرعويه وأهـل البلد قد تحصنوا بالقلعة فملك الروم المدينـة وحصروا القلعة فخرج اليهم جمـاعة من أهل حلب وتوسطوا بينهم وبين قرعويه وترددت الرسل فستقر الامر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرعويه اليهم وان يكون الروم اذا أرادوا الغزو لايتمكن قرعويه أهـل القرى من الجلاء عنها ليبتاع الروم مايحتاجون اليـه منها وكان مع حلب حمـاه وحمص وكفرطاب

والمعرة وافاميــة وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرايا وسلموا الرهــائن الى الروم وعادوا من حلب وتسلمها المسلمون

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفي هذه السنة أرسل ملك الروم جيشا الى ملازكرد من أعمال أرمينية فحصروها وضيقوا عــلى من بها من المسلمين وملكوها عنوة وقهرا وعظمت شوكتهم وخافهــم المسلمون في اقطار البلاد وصارت كلها سائبة لاتمتنع عليهم يقصدون أيها شاؤا لضعف ملوك الاســلام عن مدافعتهم ووقوع الفتن بينهم

ذكر مافعله الروم بالجزيرة

في سنة احدى وستين وثلاثمائة في المحرم أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا واحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر فسار جمــاعة من أهل تلك البــلاد الى بغــداد مستنفرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا مافعــل الروم من النهب والقتل والاسر والسبي فاستعظمه الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنهم لامانع لهم عنهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وأغلقت الابواب فأسمعوه مايقبح ذكره

ذكر انهزام الروم وأسر الدمستق

في سنة اثنتين وستين وثلاثمــائة كانت وقعة بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين الدمستق بناحية ميافارقين وكان سببها ماذكرناه من غزو الروم بلاد الاســلام فلما رأوا أنهم لامانع لهم قوى طمعهم على أخذ آمد فسار الدمســتق اليها وبها هزارمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان فكتب الى أبي تغلب بن ناصر الدولة يستصرخه ويعلمه الحال فسير اليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق وكان الدمستق في كثرة فلقياه في مضيق لاتجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأخذ المسلمون الدمستق أسيرا ولم يزل محبوسا الى ان مرض سنة ثلاث وستين وبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الاطباء له فلم ينفعه ذلك ومات وفي ســنة ثلاث وستين أصاب الخليفة المطيع لله فالج فثقل لســانه وتعذرت عليه الحركة فخلع نفسه وبويع لابنه الطائع لله وفي سنة ست وستين توفي الحكم ابن عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس وأقيم بعده ابنه هشام وكان صغيرا ولقب المؤيد وقام بأمره الوزير المنصور بن أبي عامر واشتغل بالغزو وفتح من بلاد الاعداء كثيرا

وامتلأت الاندلس بالغنائم واستمر المنصور ستا وعشرين سنة غزا فيها ثنتين وخمسين غزوة يطول الكلام بذكرها وسيأتي ذكر شيء منها ومن محاسن غزواته أنه دخل بلاد الفرنج غازيا فجاز الضرب اليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل في بلاد الفرنج يسبي ويخرب ويغنم فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين فأظهر أنه يريد المقام في بلادهم وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات واحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون اليه فلما رأوا عزمه على المقام مالوا الى السلم فراسلوه في ترك الغنائم والجواز الى بلاده فقال أنا عازم على المقام فتركوا له الغنائم فلم يجبهم الى الصلح فبذلوا له مالا ودواب تحمل له ماغنمه من بلادهم فأجابهم الى الصلح وفتحوا له الدرب فجاز الى بلاده

﴿ ذكر غزوات بالهند ﴾

وكان القائم بتلك الغزوات السلطان سبكتكين بضم السين وفتح الباء وسكون الكاف الاولى وفتح التاء وكسر الكاف الثانية وبنوه بعده وسبكتكين كان في الاصل غلاما لابي اسحق ابن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية ملوك خراسان عمال الخلفاء العباسيين وكان سبكتكين مقدما عند مولاه أبي اسحق المذكور فلما مات أبو اسحق لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم فاجتمع عسكره واتفقوا على تقديم سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروأته فقدموه عليهم وولوه أمرهم سنة ست وستين وثلاثمائة فأحسن السيرة فيهم وصار له ملك ضخم توارثه بنوه في كابل والهند وخراسان الى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة لاسيما السلطان محمود بن سبكتكين فان آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة وكان مقر سلطنتهم غزنة فهي دار ملكهم وهي من مدائن كابل وهذا أول ذكر غزواتهم ففي سنة ست وستين وثلاثمائة غزا سبكتكين وهو والد السلطان محمود صاحب غزنة فافتتح قلاعا حصينة على شواهق الجبال وعاد سالما ظافرا ولما رأى جبال ملك الهند مادهمه وان بلاده تملك من أطرافها جمع الجيوش الكثيرة واستكثر من الفيول وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فسار سبكتكين عن غزنة اليه ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة فالتقوا واقتتلوا أياما كثيرة وصبر الفريقان وبالقرب منهم عقبة غورك وفيها عين ماء لاتقبل نجسا ولا قذرا واذا ألقي فيها شيء من ذلك اكفهرت السماء وهبت الرياح وكثر الرعد والبرق والامطار ولا تزال كذلك الى ان تطهر من الذي ألقي فيها فأمر سبكتكين بالقاء نجاسة في تلك العين فجاء الغيم والرعد والبرق وقامت القيامة على الهنود لانهم رأوا ماله

يروا مثله وتوالت عليهم الصواعق والامطار واشتد البرد حتى هلكوا وعميت عليهم المذاهب واستسلموا لشدة ماعاينوه وأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب الصلح وترددت الرسل فأجابهم اليه بعد امتناع على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد وسير معه سبكتكين من يتسلمها فان المال والفيلة كانت معجلة فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر وسار نحو الهند فاخرب كل مامر عليه من بلادهم وقصد لمغان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الاصنام وأقام فيها شعار الاسلام وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها فلما بلغ ماأراده عاد الى غزنة فلما بلغ الخبر ملك الهند جمع العساكر وسار في مائة ألف مقاتل فلقيه سبكتكين وأمر أصحابه ان يتناوبوا القتال مع الهنود ففعلوا ذلك فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة فعند ذلك اشتد الامر وعظم الخطب وحمل المسلمون أيضا جميعهم واختلط بعضهم ببعض فانهزم الهنود وأخذهم السيف من كل جانب وأسر منهم مالا يعد وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة وذل الهنود بعد هذه الواقعة ولم يقم لهم بعدها راية ورضوا بأن لايطلبوا في أقاصي بلادهم ولما قوى سبكتكين بعد هذه الوقعة أطاعه الافغانية والخلج وصاروا في طاعته

﴿ ذكر غزوة للامير أبي القاسم الكلبي أمير صقلية ﴾

في سنة احدى وسبعين وثلاثمائة في ذى القعدة سار الامير أبو القاسم من صقلية يريد الجهاد وسبب ذلك ان ملكا من ملوك الفرنج يقال له بودويل خرج في جموع كثيرة يريد صقلية فحصر قلعة مالطه وملكها وأصاب سريتين للمسلمين فسار الامير أبو القاسم بعساكره ليرحله عنها فلما قاربها خاف وجبن فجمع وجوه أصحابه وقال لهم انى راجع من مكانى هذا فلا تكسروا على رأيي فرجع هو وعساكره وكان أسطول الكفار يساير المسلمين في البحر فلما رأوا المسلمين راجعين أرسلوا الى بردويل ملك الفرنج يعلمونه ويقولون له ان المسلمين خائفون منك فالحق بهم فانك تظفر فجرد الفرنجى من عساكره أثقالهم وسار جريدة وجد في السير فأدركهم في العشرين من المحرم سنة ثنتين وسبعين فتعبى المسلمون للقتال واقتتلوا واشتدت الحرب بينهم فحمل طائفة من الفرنج على القلب والاعلام فشقوا العسكر ووصلوا اليها وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم واختل نظامهم فوصل الفرنج اليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم ثم ان

المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا واشتد حينئذ الامر وعظم الخطب على الطائفتين فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل وأسر من بطارقتهم كثير وتبعهم المسلمون الى ان أدركهم الليل وغنموا من أموالهم كثيرا وأفلت ملك الفرنج هاربا ومعه رجل يهودى كان خصيصا به فوقف فرس الملك فقال له اليهودي اركب فرسي فان قتلت فانت لولدى فركبه الملك ونجا وقتل اليهودى ولما قتل الامير أبو القاسم كان معه ابنه جابر فقام مقام أبيه ورحل بالمسلمين لوقتهم ولم يمكنهم من اتمام الغنيمة فتركوا كثيرا منها

ذكر دخول الروسية في دين النصرانية

قد تأخر دخول الروسية في النصرانية عن بقية الافرنج سكان أوروبا وذلك أنه كان أول دخول الروسية في دين النصرانية سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وسبب ذلك أنه وقع اختلاف بين ملوك الروم مع بعضهم فاستنجد بعض منهم بملوك الاسلام وذلك البعض هو وردا الرومى وكان من أكابر رؤسائهم وقواد جيوشهم وعظماء بطارقتهم فطمع في الملك ولا قدرة له على قتال بقية المتنازعين فكاتب أبا تغلب بن حمدان أمير حلب والموصل نيابة عن الخليفة واستنجد به وصاهره فأجابه ابن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور فحصل له جيش ضخم فقصد قتال الروم بذلك الجيش فأخرجوا له جيشا بعد جيش وهو يهزمهم فقوى جنانه فقصد القسطنطينية ومع تلك الجيوش أيضا ورد الرومى الطالب لتملك القسطنطينية فجمعوا له جيوشا كثيرة وقاتلوه قتالا شديدا حتى انهزم فرجع ورد الرومى الى بلاد الاسلام وقصد ديار بكر ونزل بظاهر ميافارقين وكاتب عضد الدولة بن بويه المتغلب بالعراق على الخلفاء ووعده ببذل الطاعة فأجابه بجواب حسن ووعده بأنه ينصره فبلغ ذلك ملوك الروم وكان ملكان منهما أخوين مشتركين في ملك القسطنطينية فكاتبا عضد الدولة وبعثا له بهدايا واستمالاه فقوى في نفسه ترجيح جانبهما وأعرض عن نصرة ورد الرومى وكتب لنائبه بديار بكر وهو أبو على التميمى أن يقبض على ورد الرومى وأصحابه فسرع يدبر الحيلة عليه فبلغ الخبر بعض أصحاب ورد فقالوا له ان ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه في أمرنا ولا شك انهم يرغبونه بالمال وغيره فيسلمنا اليهم فالرأى ان نرجع الى بلاد الروم ونصطلح معهم ان أمكننا أو نحاربهم ونبذل أنفسنا فاما ظفرنا أو متنا كراما فقال ورد ماهذا رأى ولا رأينا من عضد الدولة غير الجميل ولا يجوز ان ننصرف قبل أن نعلم ما عنده فلما قال لهم ورد ذلك فارقه كثير من أصحابه فطمع فيه أبو على التميمى نائب عضد الدولة

بديار بكر فكاتبه وطلب حضوره عنـده والاجتماع به فأجابه ورد الى ذلك وحضر عنده فلما اجتمع به قبض عليـه وعلى ولده وأخيـه وبعض أصحابه وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وحبسهم بميافارقين ثم حملهم لعضد الدولة ببغداد فبقوا في الحبس الى ان مات عضدالدولة سنة خمس وسـبعين وصار ملك بنى بويه لصمصام الدولة فأطلق ورد الرومى ومن كان محبوسا معه وشرط عليه اطلاق عدد كثير من أسارى المسلمين وأن يسلم له سبع حصون عينها من بلاد الروم برساتيقها وأن لايقصد بلاد الاسلام لاهو ولا أحد من أصحابه مدة حياته وجهزه بما يحتاج اليه من مال وغيره فسار ورد الى بلاد الروم واستمال في طريقه خلقا كثيرا من أهـل البوادى وغيرهم وأطمعهم في العطاء والغنيمة فاجتمع معه جيش فسار به حتى نزل بملطية فتملكها فقوى بها وبما فيها من مال وغيره وقصد من ملوك الروم ورديس بن لارن وراسـله واستماله فاستقر الامر بينهما على ان تكون القسطنطينية وما جاورها من شمال الخليج لورديس والجانب الآخر لورد وتحالفا ثم اجتمعا فقبض ورديس على ورد وحبسـه ثم ندم فأطلقه عن قريب وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان وضيق عليهما فكاتبا ملك الروسية واستنجدا به وعرضا عليه التزوج بأخت لهما فأجابهما لما طلباه منـه من النجدة فامتنعت أختهما من تسليم نفسها الى من يخالفها في الدين فتنصر ملك الروسية فكان ذلك أول دخول الروسيـة في النصرانية ثم تزوجهاوسار بجنوده الى قتال ورديس فاقتتلوا فقتل ورديس واستقر الملكان في ملكهما وكاتبا وردا واصطلحا معه وأقراه على مابيده من الممالك وبقى دهرا طويلا ثم هلك مسموما

استطراد

حيثما ذكر بعض المؤرخين ابتـداء دخول الروسية في النصرانية فينبغى أيضا ذكر ابتداء دخول غيرهم من دول الافرنج في النصرانيـة وذلك يتوقف أولا على ذكر ابتداء دولة كل دولة منها وكيف كانت ديانتها قبـل دخولها في النصرانية وبيان ذلك أن أقدم الدول وأقواها في أوائل الدهور دولة الفرس فانهـم كانوا أقوى الدول وكانت الدول في أقطار الارض تخضع لهم وتنقاد لامرهم وينتهى نسب ملوك الفرس الى وشهنج وهو مهلائيل بن قينان بن شيث بن آدم عليه السـلام وكان وشهنج ملكا مسلما صالحا له ملك واسع وآثار حميدة كثيرة ثم تغير من جاء بعـده من عقبه فأحدثوا دين المجوسية واتخذوا الهين اثنين النور والظلمة فأثبتوا الها وهو النور وشـيطانا وهو الظلمة وقالوا ان النور هو الله وقالوا انه قديم وسموه يزدان وقالوا ان الظلمة اله مخلوق وهو الشيطان وسموه أهرمن فأصـل

دينهم مبنى على تعظيم النور وهو يزدان وتحقير الظلمة وهواهرمن فلما عظموا النورعبدوا النار وقيل ان الفرس وملوكهم ينتهى نسبهم الى فارس بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل انهم من نسل يافث بن نوح وهم يقولون أنهم من ولد كيومرث وهو آدم عليه السلام ويقولون ان الملك فيهم من كيومرث وهو آدم عليه السلام وبقى فيهم الى ان استلبه منهم المسلمون من هذه الامة في أوائل ظهور الاسلام وكان في زمن قوة ملكهم موجودا في مشارق الارض ومغاربها ملوك كثيرة ولكن هم كانوا أقوى الملوك وكان أكثر الملوك ينقادون لهم ويدخلون تحت طاعتهم ومن جملة الملوك الذين كانوا يخضعون لهم ملوك اليونان وملوك الروم الى ان صار ملك اليونان للاسكندر فقاتلهم وقهرهم واستلب الملك منهم وجعل في أرضهم ملوكا من أكابرهم صاروا تحت طاعته يسمون ملوك الطوائف وكانوا عشرين ملكا وكذلك قهر الاسكندر ملوك الروم فكانوا تحت طاعته فمن حين غلبة الاسكندر لملوك الفرس صار ملك اليونان أقوى الملوك ودخل تحت طاعته ملوك الفرس وملوك الروم وهذا الاسكندر يقال له الاسكندر الرومى مع انه كان من اليونان لكنه نسب الى الروم لغلبته اياهم وقهره لهم ودخولهم تحت طاعته وينتهى نسب اليونان الى يونان بن يافث بن نوح عليه السلام وكان مبدأ ملك اليونان قبل ميلاد ابراهيم عليه السلام لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الفرس الى زمن غلبة الاسكندر للفرس فصار الروم أيضا تحت طاعته وقيل ان أول من ظهر أمره من اليونان رجل اسمه اللن ولد سنة أربع وسبعين لمولد موسى عليه السلام وقيل ان تاريخ ظهور ملك اليونان سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام وكان تاريخ غلبة الاسكندر للفرس والروم بعد مضى خمسة آلاف سنة ومائتين واحدى وثمانين سنة من هبوط آدم عليه السلام الى الارض وذلك أيضا بعد مضى ثلاثة آلاف سنة وتسع وثلاثين سنة من الطوفان وذلك أيضا بعد مضى ألف وتسعمائة سنة وثمان وخمسين سنة من مولد ابراهيم عليه السلام وبعد مضى ألف وستمائة سنة وثلاث عشرة سنة من وفاة موسى عليه السلام واما عيسى عليه السلام فكان ميلاده بعد غلبة الاسكندر بثلاثمائة وثلاث سنين وكان الناس قبل ميلاد عيسى عليه السلام يؤرخون بغلبة الاسكندر ثم بعد ميلاد عيسى عليه السلام صاروا يؤرخون بميلاد عيسى عليه السلام وتركوا التاريخ بغلبة الاسكندر ولما بعث نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اصطلح المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على انهم يؤرخون بالهجرة وكان بين الهجرة وميلاد عيسى عليه السلام ستمائة واحدى وثلاثين سنة وقيل

ستمائة واحدى وعشرين سنة وكان اليونان يعبدون الكواكب وكانت لهم أصنام على صور الكواكب يعبدونها وكان من اليونان الفلاسفة الذين دونوا علم الطب اليونانى وكان كثير منهم ينكرون حدوث العالم ويقولون انه قديم يعتقدون التأثير الطبيعى ولما غلب الاسكندر ملوك فارس والروم بقى الملك في اليونان الى مضى ثلاثة عشر ملكا منهم وذلك في مدة مائتين واثنتين وثمانين سنة أولها من غلبة الاسكندر ثم غلبهم الروم واستلبوا الملك منهم فصارت الغلبة لملك الروم وهذا الاسكندر الذى غلب فارس والروم غير الاسكندر المذكور في القرآن الذى يقال له ذو القرنين كما حقق ذلك جماهير المفسرين للقرآن فانهم حققوا ان الاسكندر ذا القرنين المذكور في القرآن كان مسلما صالحا بل قيل بنبوته وانه كان قبل الاسكندر الرومى بدهور طويلة وأما الروم الذين غلبوا اليونان واستلبوهم ملكهم فانهم من عقب روم بن عيص بن أسحاق بن ابراهيم عليهما السلام فغلب الروم اليونان واستلبوهم ملكهم بعد مضى مائتين واثنتين وثمانين سنة من غلبة الاسكندر ولم يرجع لليونان ملكهم واستمروا رعية لغيرهم وسكنوا المورة واستمروا رعية أيضا الى ظهور الدولة العثمانية فلما كانت سنة ألف ومائتين وست وثلاثين حصل منهم خروج عن الطاعة للسلطان محمود الثانى العثمانى فجهز عليهم وقاتلهم ثم توسط بعض الدول بينهم بالصلح وتوسطوا أيضا في جعلهم دولة مستقلة ببلاد المورة فكان الامر كذلك الى هذا الوقت واما الاروام فانهم بعد فتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ثمان وخمسين وثمانمائة انقرضت دولتهم ولم ترجع لهم دولة بل هم رعية للدولة العثمانية الى الآن وكان انتقال ملك اليونان للروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وخمس وأربعين سنة وكانت ديانة الروم عبادة الكواكب والاصنام التى على صور الكواكب فكانوا تابعين في ذلك لليونان لان الغالب على الناس ان يكونوا على دين ملوكهم واستمر الروم على ذلك الى ان دخلوا في دين النصارى وذلك بعد مضى مائتين وسبع وثلاثين سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ثم ان بعض ملوك الروم أعاد عبادة الاصنام وصار يقتل من يتبع الملة المسيحية وبعضهم يقبلها ويردها الى ان تملك منهم قسطنطين فارتضى الملة المسيحية ودخل فيها وأمر الناس بالدخول فيها والتمسك بها وكان ذلك سنة ثلاثمائة وست من ميلاد المسيح فتنصر الروم جميعا وكان مقر ملك الروم مدينة رومة الى ان بنى القسطنطينية فان الملك قسطنطين المذكور هو الذى بناها ونقل كرسى السلطنة من رومة الى القسطنطينية وكان ذلك سنة ثلاثمائة واثنتى عشرة من ميلاد المسيح عليه السلام وقيل ان هذا تاريخ بناء القسطنطينية

واما نقل كرسي السلطنة اليها فكان سنة ثلاثمائة وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السلام واما مدينة رومة فأول من بناها ملك من ملوك الروم قبل غلبتهم لليونان اسمه روملس ويقال لها رومة وروميه وكان بناؤه اياها قبل ميلاد المسيح عليه السلام بسبعمائة وثلاث وخمسين سنة وأمابيان كيفية غلبة اليونان للفرس وغلبة الروم لليونان والمحاربات الواقعة بينهم فلا حاجة الى ذكر شئ منها لان ذلك شئ طويل لافائدة في ذكره ولما ملك الروم اليونان وغلبوا عليهم واستلبوهم ملكهم خضع للروم كثير من الملوك ودخل تحت طاعتهم كثير من الملوك الذين لايستطيعون محاربة ملك الروم كملوك الافرنج الذين في أوروبا وكثير من ملوك افريقيا وآسيا وصار ملك الروم ضخما قويا واسعا واستمر ذلك الى سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة فاستاب ملك أيطاليا ملك رومة وانتزعها من ملك القسطنطينية وهو ملك الروم وفصلها عن ملكه وصارت من ممالك ايطاليا لكنه لم يستقل بملكها بل نازعه في ذلك كثير من دول أوروبا ووقع بينه وبينهم محاربات وانتزاع ورجوع مرة بعد أخرى والكلام على ذلك طويل وما صار لملك ايطاليا استقلال تام بالملك الا سنة ألف وسبع وعشرين من ميلاد المسيح الموافق ذلك سنة أربعمائة وثمان عشرة هجرية فاستقلالهم بالملك تأخر الى هذا الوقت وان كانوا متقدمين بالنسبة الى وجود أصل ملكهم فهم أقدم دول أوروبا بالنسبة لكونهم أول من أخرج رومة عن طاعة ملك الروم وان كان تمام استقلالهم متأخرا واما أول الاستقلال فهو سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة بل كان لهم ملوك أيضا قبل ذلك لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الروم بل قال بعضهم ان أول وفودهم الى أرض ايطاليا وسكناهم فيها كان قبل ميلاد المسيح بألف وسبعمائة سنة فهذا وجه قول من قال انهم أقدم ملوك الافرنج الذين في أوروبا ومن حين وفودهم في ذلك الوقت كان لهم رئيس بمنزلة الملك واما دخولهم في دين النصارى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة ثم لم يزل دين النصارى ينتشر عند الافرنج سكان أوروبا الى سنة ثمانمائة وست وستين من ميلاد المسيح عليه السلام ثم زاد انتشاره حتى عم أكثرهم وتأخر عن الدخول فيه الروسية لانهم انما دخلوا فيه سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم فلما كانت ايطاليا أقدم الطوائف كان تأسيس دينهم ومقر رؤساء الدين عندهم وقد كانت النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام مثل ما كانوا عليه حين كان بين أظهرهم من الاقرار لله بالوحدانية وله بالرسالة مع الاقرار بأنه عبد الله ورسوله ثم بعد

رفعه دخلت عليهم شبه حصل بسببها الافتراق في دينهم فانقسموا ثلاث طوائف ملكانية ونسطورية ويعقوبية فالملكانية مصرحة بالتثليث كما قال الله تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة فهؤلاء يقولون الآلهة ثلاثة المسيح وأمه والله ويقولون ان المسيح ناسوت كلى قديم أزلى من قديم أزلى ويقولون ان مريم ولدت الها أزليا ويطلقون لفظ الابوة على الله تعالى وتنزه عما يقول الظالمون علوا كبيرا ويطلقون أيضا لفظ البنوة على عيسى عليه السلام اطلاقا حقيقيا واما النسطورية فخالفوا الملكانية فلم يقولوا بالامتزاج بل قالوا ان الكلمة أشرقت على جسد عيسى كاشراق الشمس على كوة أو على بلور واما اليعقوبية فيقولون انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الاله هو المسيح كما حكى الله عنهم ذلك بقوله لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وأما المسلمون فقالوا كما ذكر الله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فهذا هو المراد من الكلمة ومن الشبه التي دخلت على النصارى حتى قالوا بالوهية عيسى عليه السلام انه يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى وما عقلوا انذلك بأمر الله بل هو فعل الله وخلقه وايجاده أجراه على يد عيسى عليه السلام وقد أقام الله عليهم الحجة في ابطال زعمهم فقال سبحانه وتعالى * ماالمسيح ابن مريم الارسول قدخلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانايأ كلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * فقوله سبحانه وتعالى كانا يأ كلان الطعام برهان على افتقارهما الى الطعام كافتقار جميع الحيوانات فكيف يكون الها من يفتقر الى الطعام ولا يكون قوامه الابه وأيضا أكل الطعام يستلزم البول والغائط فكيف يكون الها من يحتاج الى أن يبول ويتغوط فأكل الطعام كناية عن البول والغائط لكن لم يعبر بالبول والغائط لفحش الاتيان بلفظهما والقرآن العزيز ألفاظه في غاية النزاهة والعذوبة مع غاية الفصاحة والبلاغة ومن شبههم أيضا كون المسيح ولد بلا أب فنسبوه الى الله تعالى وغاب عن عقولهم آدم عليه السلام فانه أغرب من عيسى عليه السلام فانه بلا أب ولا أم وقد أبطل الله لهم هذه الشبهة حيث قال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون فخلق آدم بلا أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب وبعد دهور طويلة افترق النصارى فرقتين احداهما تسمى كاثوليكية والاخرى بروتستانية ومع ذلك فبينهم اختلاف كثير ويتشعب من اختلافهم مذاهب كثيره ليس هذا محل تفصيلها وكلهم يقرون بالبعث ثم منهم من يقول ان البعث بالاجساد والارواح ومنهم من يقول انه بالارواح فقط وفي تاريخ الامام محمد بن جرير الطبرى ان قيام الساعة مما يؤمن ويقربه

جميع أهل الاسلام وأهل التوراة وأهل الانجيل والمجوس وانما ينكره قوم من غير أهل التوحيد ثم قال وكل الذين ذكرناهم فانهم مقرون بفناء جميع العالم حتى لايبقى غير القديم الواحد ومقرون بأن الله عزوجل محييهم بعد فنائهم وباعثهم بعد هلاكهم الا قوما من عباد الاوثان فانهم يقرون بالفناء وينكرون البعث اه ويسمون الملكانية كاتوليكية وهى صفة مدح عندهم مثل التسمية بأهل السنة عند المسلمين اما اليعقوبية والنسطورية فلم يوجد الآن أحد منهم في بلاد الافرنج بل هم الآن كلهم ملكانية وكان اليعقوبية والنسطورية موجودين في الزمن السابق وانقرضوا ولربما يوجد أحد من اليعقوبية والنسطورية في نصارى الشام ومصر والعراق والحبشة والحاصل ان أهل المذهب الكاتوليكى كلهم ملكانية ورئيس المذهب الكاتوليكى عند النصارى هو الاسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الفخيم ويسمونه البابا ومقره وسكناه رومة عند دولة ايطاليا فله الرياسة على كل متمسك بالمذهب المذكور بمعنى ان له النظر في اجراء الاحكام الدينية الباطنية فهو عندهم بمنزلة القطب عند المسلمين وكان له عندهم ملك سياسى في الاراضى التى تحت سلطته وأكثر ايطاليا على المذهب الكاتوليكى وكانوا في سنة سبعمائة وست وعشرين من ميلاد المسيح الموافق مائة وثمانية من الهجرة جعلوا للبابا دولة جمهورية تكون تحت رياسته فكان ذلك التاريخ مبدأ أمره ولم يزل يترقى أمر الباباوات حتى صارت لهم سطوة الدين والدنيا فكانت لهم ممالك واسعة في الارض وكانوا رؤساء في الدين والدنيا بحيث انهم صار لهم حق كبير في تولية ملوك أوروبا وعزلهم حسب مشيئتهم فكانت سطوتهم سائدة على كل ملوكهم وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد وأماهم فكان لهم ثلاث تيجان واحد فوق واحد دلالة على كمال السلطنة وعلوها وبلغ اعتبارهم عندهم انهم عند ماكانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم وكانوا اذا أمروا بمحاربة أمة لايخالفهم أحد ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حى وكان البابا مرة الزم أمبراطور ألمانيا ان يقف حافيا ثلاثة أيام في فصل الشتاء امام باب قصره ليطلب منه الغفران ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرمانيا حيث كان جاثيا امامه يطلب الغفران قال بعض مؤرخى الافرنج المتأخرين ان جهالة تلك الاعصار طمست بصائر الشعوب حتى لم يروا خطأ في رؤساء الدين فكانوا يذعنون لكل أحكامهم ويخضعون لكل مايستقر عليه رأيهم كأنه منزل من الله تعالى لايشوبه عيب فلما بلغت شوكتهم الى هذا الحد لم يبق في أوروبا مملكة الا واضطربت من أفعالهم ولا ملك الا تعكر من مطامعهم ولا كرسى الا وارتج من شوكتهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة كان

منها انحطاط أمر الباباوات شيأً فشيأً الى سنة ألف وثمانمائة واحدى وسبعين مسيحية الموافق ألفا ومائتين وثمانيا وثمانين هجرية فسقط أمرهم بالكلية ودخل الايطاليون الى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وابقوه على الكاتوليكية رئيسا فقط ومقره في الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك واستمر الامر كذلك الى هذا الوقت وأما الاحكام بين الرعايا وما يتعلق بالسياسة وتدبير الملك فقد جعلوا لها قوانين دونوها بعقولهم واتخذوا لكل نوع منها مجالس مخصوصة وهكذا سائر دول أوروبا مع انه كان عندهم في الانجيل وفي الكتب القديمة أحكام مدونة تتعلق بالعبادات والمعاملات والانكحة فتركوا كثيرا منها وأسسوا تلك القوانين العقلية ورأوها أقوى في تثبيت ملكهم ثم ان الملكانية الذين تقدم انهم يسمون كاتوليكية استمروا على المذهب الكاتوليكي الى القرن التاسع فلما كثر المنكرون رياسة البابا صاحب رومة صاروا يسمون المنكرين لرياسته بروتستان وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعة الخارجين عن مذهب أهل السنة عند المسلمين فان المسلمين أهل السنة يسمون المخالفين لهم بالمبتدعة فصار عندهم النصارى الملكانية لا يسمى كاتوليكيا الا من اعترف برياسة البابا ومن لم يعترف بها فهو بروتستان بمنزلة المبتدع عند المسلمين وكان هذا الاصطلاح عندهم في القرن التاسع من قرون الهجرة النبوية فهذا هو الفرق الاعظم عندهم بين الفريقين ومع ذلك فالذين يسمونهم بروتستان كثير منهم لا يستأنفون من هذه التسمية لكن الاكثر منهم اذا قيل له أنت بروتستان يستأنف من ذلك ولا يرضى بهذا اللقب لأنه بمنزلة المبتدع ويقول بل انا كاتوليكي وان كان غير معترف برياسة البابا ثم ان بين الفريقين أيضا اختلافا في مسائل كثيرة فأعظمها ان البروتستان لا يعترفون برياسة البابا بل يقولون هو من جملة رؤساء الاساقفة ولا تنحصر رياسة الاساقفة فيه بل هي فيه وفي أسقف القسطنطينية وأسقف اسكندرية لا مزية ولا رياسة لاحد الثلاثة على الآخرين ولا يزيد قدر أحد الثلاثة على الآخرين واما الكاتوليكية الاصليون عندهم فهم المعترفون برياسة البابا صاحب رومة على غيره ومن الاختلاف الواقع بينهم ان بعض البروتستان يخالفون مذهب الملكانية الاصلي للفريقين في اعتقاد التثليث لانهم نظروا في كتب أهل الاسلام وأدلتهم على وحدانية الله فاعترفوا بصحة تلك الادلة واعترفوا بوحدانية الله تعالى لكنهم لم يعترفوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واعترفوا برسالة عيسى المسيح عليه السلام وقالوا انه عبد الله ورسوله ويوافقون النصارى في بقية دياناتهم فهذا موضع من مواضع المخالفة بينهم وبين الكاتوليكية لكن هذا الاعتقاد أعني اعتقاد الوحدانية لله تعالى

لايقول به كل البروتستان بل بعضهم والبعض الآخر من البروتستان يقولون بالتثليث مثل الكاتوليكية لكنهم سموهم بروتستان لعدم اعترافهم برياسة البابا بل يقولون أصول الاساقفة أسقف رومة وأسقف القسطنطينية وأسقف الاسكندرية ثم ان جميع الفريقين لهم عبادات ومشروعات مختلفة اختلافا كثيرا لم يتفقوا كلهم على شئ منها الا الدعاء فانهم كلهم اعترفوا بمشروعيته واما صلاتهم وصيامهم وباقي عباداتهم فهم مختلفون فيها اختلافا كثيرا فمن ذلك ان الصوم يقول الكاتوليكيه انه فرض ويقول البروتستان انه سنة وليس بفرض والصوم المذكور هو صوم أربعين يوما في فصل الربيع الذى يكون قبل الصيف بحيث يكون آخر الاربعين موافقا لآخر الربيع هذا متفق عليه بينهم لكن الكاتوليكيه الأكثر منهم وهم أهل الديانة القوية منهم يقولون ان الصوم هو امساك عن تناول الطعام والشراب من طلوع الشمس الى غروبها في الاربعين يوما وأما البروتستان وبعض الكاتوليكية الذين ضعفت ديانتهم فانهم يجوزون في حالة الصيام تناول الطعام والشراب لكنهم يقولون لا يجوز تناول اللحم بجميع أنواعه وكذا ماتولد من الحيوان كاللبن والسمن الا الحوت فانهم يجوزون تناوله حالة الصيام ويتناولون أيضا الخبز والحلوى وسائر الاطعمة غير اللحم الذى ليس لحم حوت ويشربون الخمر والماء في حالة الصيام ومن الفرق بين الفريقين ان لكل منهم أولياء يعتقدون فيهم ويتوسلون بهم لكن بينهم اختلاف في بعض الاولياء فهذا البعض يعترف به أحد الفريقين دون الآخر وبالعكس فاذا كان الاولياء الذين يعتقدهم الكاتوليك لايعتقدهم انسان يقولون انه بروتستان وهناك فرقة يسمونهم اللاتينية وفرقة يسمونهم أهل الديانة الروسية (ارثودكس) وذلك بسبب عدم اعترافهم برياسة البابا وان كانوا موافقين الكاتوليك في جميع ماهم عليه من الديانات والاعتقادات ومع ذلك فكثير من اللاتينية وأهل الديانة الروسية يقولون نحن كاتوليك افتخارا بهذا اللقب فيقولون لهم كذبتم أنتم لاتينية أو من أهل الديانة الروسيه حيث انكم لم تعترفوا برياسة البابا وهناك فروق كثيرة بين طوائفهم ومذاهب مختلفة يكفر فيها بعضهم بعضا لاحاجة الى ذكرها وانما المدار عندهم في الفرق بين الكاتوليكية والبروتستان الاعتراف برياسة البابا وعدم الاعتراف بها وقد عرفت ان الاصل الاصيل عندهم في تأسيس الديانات والاقدمية في الملك هي دولة ايطاليا ومع ذلك فبعض منهم ينكرون رياسة البابا فيكونون عندهم بروتستان لكن الاكثرون منهم يعترفون بها فيقرون هم بأنهم كاتوليك وبعض من الفرنسيس والانكليز وغيرهم خرجوا عن ملة النصارى بالكلية في الباطن وان كانوا يعترفون بها في الظاهر واما في الباطن فصاروا

كالزنادقة عند المسلمين فهؤلاء لايعترفون في الباطن بشئ من دياناتهم بل ولا بنبوة عيسى ولا غيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بل بعض منهم ينكرون الصانع ولا يعترفون ببعث ولا نشور ويقولون ماهى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر فهؤلاء دهرية لكنهم لايتظاهرون بذلك بل يخفونه ويظهرون انهم على ملة النصارى وفي هذا القدر كفاية فلنتمم الكلام على ذكر بقية دولهم وكيفية ابتداء كل دولة ومتى كان دخولهم في النصرانية (اما دولة الفرنسيس) فأصلهم أيضا شعوب وقبائل مختلفة دخلت تلك البلاد في أوقات مختلفة واستوطنوا تلك الارض التى هم فيها الآن وأخص تلك القبائل وأشهرها قوم يقال لهم الكليتين ويقال لهم أيضا الافرنك بالكاف ثم غيرت بجيم فصار الافرنج وقيل أصله فرنك بالكاف فابدلت الكاف سينا فصار فرنسه وفي تاريخ ابن خلدون عند ذكره الفرنسيس قال هذه الامة المعروفة بالافرنجة تسميها العامة بالافرنسيس نسبة الى بلد من أمهات بلدانهم تسمى افرنسة وينتهى نسب الاكثر منهم الى يافث بن نوح عليه السلام ومع ذلك فقد اختلط بهم كثير من غير جنسهم وصاروا ملحقين بهم والغالب انه اذا أطلق الافرنج انما ينصرف اليهم فيراد بهم الفرنسيس وقد يطلق اسم الافرنج على غيرهم من تلك الطوائف الساكنين باوروبا حتى صار هذا الاطلاق شائعا في هذه الازمان وابتدأ الملك في الفرنسيس من سنة أربعمائة وعشرين من ميلاد المسيح عليه السلام وذلك قبل الهجرة بمائتين واثنتين من السنين هذا ابتداء انتظام الملك فيهم واستقلالهم فيه وأما قبل ذلك فكان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل لهم الاستقلال بل كانوا تارة يكون لهم استقلال وتارة يكونون تحت طاعة غيرهم وقهره وأما اذا اعتبر ابتداؤهم الاصلى فانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة قرون وكانوا تحت قهر ملوك اليونان ثم بعد ذهاب ملك اليونان صاروا تحت قهر ملوك الروم فلا يحسب لهم ملك مستقل في تلك الازمان وكانت دياناتهم عبادة الاوثان التى على صور الكواكب وعبر بعضهم عن ديانتهم قبل دخولهم في النصرانية بانها تشبه ديانات أهل الهند عباد الاوثان ثم دخلوا في النصرانية سنة ست وتسعين وأربعمائة من ميلاد المسيح عليه السلام وكان أول من دخل منهم في النصرانية الملك كاويس وأكثرهم يدعون انهم على المذهب الكاتوليكى وكثير منهم على المذهب البروتستانى ومنهم من لايتدين بدين النصارى ولا غيرهم وينكرون بعثة الانبياء عليهم السلام بل منهم من ينكر الصانع ولكنهم يتسترون ويقولون انهم على دين النصارى ومن ملوك الفرنسيس المشهورين كارلويس الكبير المسمى شارلمان كان ساعيا في ترقى أسباب العلوم العقلية والفنون

الادبية والصناعية التى يتسع بهـا ملكهم وشاع صيته وانتشر ذكره ومكث في الملك خمسا وأربعين سنة وكان معاصرا لهارون الرشيد وكان بينه وبينه مكاتبات واهدى اليه الرشيد مرة شطرنجا ثمينا وساعة فلكية من مخترعات بلاد المشرق واهدى اليه أيضا أنواعا كثيرة من البزورات التى تزرع وليست في بلادهم الافرنجية وأرسل له مفاتيح كنيسة في بيت المقدس وأمر الرشيد العمال الذين كانوا له في بيت المقدس ان يعاملوا الزوار الذين يأتون من بلاد الفرنيس للزيارة أحسن المعاملة ومات شارلمان المذكور سنة ثمانمائة وأربع عشرة مسيحية الموافق مائة وتسعا وتسعين هجرية فيكون موته بعد وفاة الرشيد واما عددسكان أرضهم وعدد رعاياهم وعدد عساكرهم وما هو عندهم من الاموال والسلاح وغير ذلك فلا حاجـة بنا الى ذكره وكذا ماكان يقع بينهم وبين بقية الدول الافرنج من المحاربات وتغلب بعضهم على بعض فلا حاجة بنا الى ذكره نعم وقع بينهم وبين الانكليز أمر غريب عجيب وهو انهم تحاربوا ومكث الحرب بينهم واستدام نحو مائة وست عشرة سنة تارة تكون الغلبة لهؤلاء وتارة لهؤلاء وكان ابتداء ذلك الحرب من سنة ألف وثلاثمائة وسبع وثلاثين مسيحية الموافق سبعمائة وثمانيا وثلاثين هجرية وانتهاؤه بالصلح بينهم سنة ألف وأربعمائة وثلاث وخمسين مسيحية الموافق سنة ثمـانمائة وسبعا وخمسين هجرية وذلك مبسوط في تواريخهم ويسمونه حرب المـائة سنة وكان استيلاء الفرنسيس على الجزائر بافريقية سنة ألف ومائتين وست وأربعين وفي سنة ألف ومائتين وست وتسعين أدخلوا المحاكم التونسية في حمايتهم (واما دولة الانكليز) ويقال لها دولة انكلترا أو بريطانيا فكان أول ظهورهم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمس وخمسين سنة وكان بينهم وبين الافرنج دول أوروبا محاربات كثيرة ولم ينتظم الملك لهم ويتم الاستقلال الا سنة ثمانمائة وسبع وعشرين مسيحية الموافق مائتين وثلاثا وأربعين هجرية وكان أول دخولهم في النصرانية سنة خمسمائة وست وتسعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وهم أيضا مثل الفرنسيس فيهم الكاتوليكية والبرتستان والدهرية وأما أصلهم الذى تنتهى اليـه أنسابهم فهم أيضا مجتمعون من أصناف وفروع شتى وفيهم جماعة من الكليتين وجماعة ينتهى نسبهم الى يافث بن نوح عليه السلام ولهم جزيرتان منفصلتان احداهمـا جزيرة بريتانيا والاخرى جزيرة ايرلندا ولذلك اشتهرت مملكتهم بمملكة بريتانيا وايرلندا وكانوا في أول أمرهم كالوحوش ويلبسون جلود الوحوش وكانت مساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الاعواد وأوراق الشجر وتارة من الطين وكان شغلهم صيد الحيوانات يتعيشون منها وحالهم يشبه اجلاف العرب وكانوا

يسجدون للصخور والحجارة وينابيع المـاء ثم لم يزل أمرهم يظهر ويقوى حتى صارت لهم دولة قوية وكان استيلاؤهم على الهند مبتدأه سـنة ألف وسبعمائة وسبع وخمسـين مسيحية الموافق سـنة ألف ومائة وثنتين وسبعين هجرية وتمام استيلائهم على الهند سنة ألف وثمانمائة وست عشرة مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وثمـانيا هجرية وكان تمـام استيلائهم المذكور بعـد حروب وعناء شديد واما استيلائهم على جبل الطارق الذي في المغرب فكان سنة ألف ومائة وست عشرة هجرية انتزعوه من الاسبانيول في السنة المذكورة وقد حاول الاسبانيول والفرنسيس انتزاعه بعد ذلك من الانكليز مرارا عديدة فلم يتيسر لهم ذلك وكان الاسبانيول قبل أخذه منهم قد انتزعوه من المسلمين سنة ثمـانمـائة وسبع وستين هجرية وهذا الجبل من أعظم الحصون في العالم ويعتبر مفتاحا للبحر المتوسط وهو مقابل للجزيرة الخضراء التي هي من بلاد الاندلس فاصـل بينها وبين افريقية ويسمى جبل الفتح وجبل طارق وهو طارق بن زياد الذي فتح الاندلس سنه ثنتين وتسعين من الهجرة وطارق هذا هو مولى موسى بن نصير بضم النون وفتح الصاد مصغرا وموسى المذكور هو مولى عبد العزيز بن مروان أخو عبـد الملك بن مروان ووالد عمر بن عبد العزيز فسمي الجبل باسم طارق المذكور لانه نزل بالمسلمين عنده لمـا قصد فتح الاندلس ويسمى جبل الفتح أيضا للعلة المذكورة والعامة يسمونه جبل الطار وصوابه جبل طارق

﴿ وأما دولة النمسا المسماة أيضا أوستوريا ﴾

فهم أيضا من أصناف شتى وأكثرهم من التتار وابتداء دولتهم كان من سنة ثلاث وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السـلام وكان بعض دول أوروبا يدخلونهم تحت طاعتهم ويتغلبون عليهم وما حصل للنمسا اسـتقلال الملك التام الا من سنة تسعمائة وثنتين وثمـانين مسيحيه الموافق سنة مائتين وثمانيا وأربعين هجرية ودخولهم في النصرانية في حدود السنين التي دخل فيها من تقدم ذكرهم ومثل ذلك يقال فيمن يأتي ذكرهم من الدول الا الروسية فانه تأخر دخولهم في النصرانية الى سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم

﴿ وأما دولة البروسية ﴾

فهم قسم كبير من جرمانيا ويقال لجرمانيا أيضا ألمانيا وهم أمم كثيرة لهم ملوك شتى والبروسية طائفة منهم وابتداء دولتهم من سنة أربع وخمسين من ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام واستقلالهم التام بالملك من سنة ألف وثلاثمائة وخمس عشرة مسيحية الموافق سنة ثمانمائة وثمان عشرة هجرية ثم انضم الى حمايتهم كثير من الدول الصغار من دول جرمانيا فقوى

ملكهم واتسع

﴿ وأما دولة الروسية المسماة بالموسكوف ﴾

فهم أيضا مجتمعون من أجناس كثيرة ومنهم من ينتهى نسبه الى يافث بن نوح عليه السلام وكانوا قبل استقلالهم في الملك تحت الرومانية قبل ميلاد المسيح عليه السلام ثم لما تقوى بعض دول أوروبا تغلبوا عليهم فكانوا تحت طاعتهم وما كان لهم الاستقلال التام بالملك الا من سنة ثمانمائة واثنتين وستين مسيحية الموافق مائتين وثمانيا وأربعين هجرية وكانوا يعبدون الاوثان كغيرهم من دول أوروبا ودخولهم في النصرانية سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين كما تقدم

﴿ وأما دولة اسبانيا ويقالهم أيضا الاسبانيول ﴾

فهم أيضا من أجناس مختلفة وكان لهم ملوك في القديم تابعون لدولة اليونان ثم لدولة الرومانيين بعد اليونان ثم تغلب عليهم بعض من هو أقوى منهم من ملوك أوروبا ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتح الاندلس فكان الاندلس تحت يد اسبانيا الى سنة ثنتين وتسعين هجرية فانتزعه المسلمون منهم وبقي لهم ملك ضعيف في آخر الاندلس ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة ثم انتزعوا الاندلس من المسلمين شيأ فشيأ الى أواخر التسعمائة من الهجرة ثم أخرجوا من بقي من المسلمين بالاندلس في سنة ألف وعشر واستقلوا بالملك وكانت ديانتهم عبادة الاوثان كغيرهم ممن تقدم ودخلوا في النصرانية في الزمن الذى دخل فيه من تقدم ذكرهم

﴿ وأما دولة البرتوغال ﴾

فكانت تابعة أيضا للرومانيين وكانت ممالكهم في أواخر الاندلس فلما استولى المسلمون على الاندلس أضافوها الى ما بيدهم من الاندلس ثم انتزعت من المسلمين سنة أربعمائة وتسع وثمانين هجرية واستولى عليها الاسبانيول ثم انتزعها البرتوغال من الاسبانيول واستقلوا بالملك فيها سنة ألف وخمسين هجرية

﴿ وأما دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك ﴾

فكانت تحت طاعة اسبانيا وكان بين الدولتين حروب كثيرة استمرت نحو ثمانين سنة الى ان استقلوا بالملك في حدود تسعمائة وسبع وثمانين من الهجرة وكان في السنين المذكورة استيلاؤهم على بلاد الجاوى وكان دخولهم في النصرانية في حدود السنين التى دخل فيها من تقدم ذكرهم

﴿ وأما دولة الدنيمارك ﴾

فكانت تحت طاعة ملوك أوروبا الى سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف مسيحية الموافق سبعمائة وتسعا وتسعين هجرية فاستقلوا بالملك

﴿ وأما دولة السويد والنوريج ﴾

فكانت أيضا تحت ملوك أوروبا ثم ساروا تحت طاعة الدنيمارك ثم استقلوا بالملك سنة ألف وخمسمائة وثلاث وعشرين مسيحية الموافق تسعمائة وثلاثين هجرية

﴿ وأما دولة البلجيك ﴾

فهى من ممالك جرمانيا وما صار استقلالها الا من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وستا وأربعين هجرية

﴿ وأما دولة السويسره ﴾

فكانت أيضا يتداول التملك عليها ملوك أوروبا واستقلت بالملك سنة ألف وستمائة وثمان وأربعين مسيحية الموافق سنة ألف وثمانيا وخمسين هجرية

﴿ وأما دولة باواريا ﴾

فمملكتهم تجمع ملوكا كثيرة كل واحد منهم له مملكة صغيرة وكانت تلك الممالك وملوكها تحت طاعة من قوى من ملوك أوروبا ثم صارت ممالك باواريا مستقلة سنة خمسمائة وثلاثين مسيحية الموافق لما قبل الهجرة باثنين وتسعين سنة ثم صارت هذه الممالك في هذه السنين تابعة لملك البروسية

﴿ فائدتان ﴾

الاولى تتفرع مسئلة فقهية على معرفة تاريخ دخول هذه الطوائف في دين النصرانية وهى انه ان كان دخولهم فيه قبل نسخه فانهم يلحقون بأهل الكتاب في حل أكل ذبيحتهم وفي حل تزوج المسلمين نساءهم وان كان دخولهم فيه بعد نسخه فلا يلحقون بأهل الكتاب فيما ذكر ونسخ دينهم انما كان ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال الامام الرازى في تفسيره عند تفسيره قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم مانصه قال الكثير انما يحل نكاح الكتابية التى دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن قالوا والدليل عليه قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم فقوله من قبلكم يدل على أن من دان بالكتاب بعد نزول القرآن خرج عن حكم أهل الكتاب اه وذكر الخطيب السربينى في تفسيره مثل ذلك في حل أكل ذبائحهم وهذا الذى ذكره كل منهما هو مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه واما أهل المذاهب الثلاثة فلم يقولوا

بهذا التفصيل بل أطلقوا القول بحل أكل ذبائح أهل الكتاب وحل التزوج من نسائهم ولو دخلوا في دين أهل الكتاب بعد نسخه

﴿ الفائدة الثانية ﴾

كانت دول الفرنج قبل ظهور الاسلام في غاية التوحش وعدم المعرفة بالحرب والصنائع وأنواع السياسات وتدبير الحروب وأنواع العلوم العقلية وما وجد ذلك فيهم وانتشر الابعد ظهور الاسلام ومخالطتهم للمسلمين فتعلموا ذلك منهم فحصل لهم التمدن والحضارة قال بعض مؤرخيهم عند ذكر الحروب التى كانت بينهم وبين المسلمين في القرن السادس أيام السلطان صلاح الدين الايوبى المسماة بحرب الصليب مانصه ان تلك الحروب وان هلك فيها كثير من النفوس وذهب فيها كثير من الاموال من غير حصول على المقصود لكنه أعقب نتائج نافعة لهم منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم المسلمين صناعة التجارة والزراعة وكثيرا من العلوم العقلية والفلكية وألفوا التواريخ النافعة وتوسعوا في معرفة علم الفلك وألفوا فيه وتخلقوا بأخلاق الحضر وتعودوا الاسفار برا وبحرا لاستكشاف أحوال الاقطار واكتشفوا على أمريكا في أسفارهم سنة ثمانمائة وتسعين هجرية ولم تكن قبل ذلك معلومة لأحد قط واكتسبوا من المسلمين أنواع الفروسية واللعب بالخيل والرماح وتعاطوا المعانى الغريبة في كلامهم وأشعارهم لاسيما من كانوا منهم مخالطين للمسلمين بالاندلس وتعلموا أيضا المشورة في الاحكام وعلموا ان الملك يفسد بالاستبداد وعدم المشورة فدونوا لهم أحكاما وقوانين يرجعون اليها واستكثروا من جمع كتب الاسلام وترجمتها بلسانهم ليعلموا معانيها فأخذوا منها مايكون به صلاح الملك واتخذوا مدارس لتعليم أنواع الفنون وعرفوا ان الملك لاينتظم الا بذلك كله ومن مقالات بعض مؤرخيهم لا تصلح السكنى ببلد حتى تكون الشريعة فيها أقوى من السلطان ومراده بالشريعة ماأسسوه من القواعد العقلية لاحكامهم وسياسة ملكهم واذا كان هذا في تلك الاحكام العقلية فكيف اذا رجع المسلمون الى شريعتهم المطهرة المؤسسة بالوحي من الله تعالى وتمسكوا بها حتى يكون حكم السلطان تابعا لحكمها فلا شك انها تكون أقوى من السلطان وقال بعض مؤرخيهم أيضا مابلغت أمة من الامم غاية الاستقامة الا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل كما ان عدم احترامها يكون منشأ الرجوع الى القهقرى ولا يتوهم ان ذلك لبركة في قوانينهم العقلية وانما ذلك بسبب ابتنائها على التجارب العادى ومراعاة الوازع الدنيوى واما الشريعة المطهرة فهى أقوى من ذلك كله لانها مبنية على

الوحى الالهى الذى يحصل من اتباعه كمال البركة واذا كانت مخالفة قوانينهم يرونها موجبة للانحطاط فلا شك ان مخالفة الشريعة المطهرة يحصل منها كمال الانحطاط مع مايعقب ذلك من العذاب في الدار الآخرة وقال بعض مؤرخيهم وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاوروباويين للامة الاسلامية المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عند الاوروباويين

﴿ تتميم ﴾

ذكر كثير من المفسرين للقرآن العزيز وكثير من المؤرخين أن الذين ملكوا الدنيا من مشرقها الى مغربها ثلاثة مسلمان وكافر أما المسلمان فهما سليمان بن داود عليهما السلام وذوالقرنين وأما الكافر فهو النمرود الذى كان في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام وزاد بعضهم رابعا كافرا وهو بختنصر فيكونون أربعة مسلمان وكافران لكن قال ابن الاثير في الكامل أن بختنصر لم يملك الدنيا كلها وانما كان له ملك واسع وهو الذى خرب بيت المقدس وقتل بنى اسرائيل وأسر سبعين ألفا منهم لان الله سلطه عليهم لما كثرت فيهم المعاصى والمخالفات وبختنصر هذا كان مجوسيا من مجوس بابل ولم يعرف له أب وكان عاملا على العراق لملك الفرس وكان بين ابتداء ملكه وتخريبه بيت المقدس تسع عشرة سنة وبين الهجرة وتخريبه بيت المقدس ألف وثلاثمائة وتسع وستون سنة وبقى خرابا سبعين سنة ثم عمر وتراجعت اليه بنو اسرائيل والذى عمره بعض ملوك الفرس بوحى من الله تعالى الى النبى أرميا عليه السلام فأخبر ذلك النبى ملك الفرس فامتثل أمره وعمره ثم خرب مرة ثانية بعد رفع عيسى عليه السلام بأربعين سنة وذلك قبل الهجرة بخمسمائة ونيف وخمسين سنة وكان ذلك التخريب لما قتل اليهود يحيى بن زكريا عليهما السلام فسلط الله عليهم الفرس والروم فقتلوهم وسبوهم ونفوهم من ديارهم وخربوا بيت المقدس وقد ذكر الله تعالى هذين التخريبين في القرآن العزيز في سورة الاسراء في قوله تعالى * وقضينا الى بنى اسرائيل في الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد الآية *وذكر المرة الثانية في قوله تعالى * فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم * أى بعثناهم وسلطناهم ليسوؤا وجوهكم وبقى خرابا الى ان عمره ملك من ملوك الروم بعد تنصرهم وبنى كنيسة قمامة على القبر الذى تزعم النصارى ان عيسى عليه السلام دفن فيه وخربوا هيكل بيت المقدس الى الارض وأمروا أن يلقى في موضعه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة الشريفة مزبلة وبقى على ذلك الى ان قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام سنة ست عشرة من الهجرة وفتح بيت المقدس فأزال

ذلك وأرجع موضع الصخرة كما كان والله سبحانه وتعالى أعلم * ولنرجع الى ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات الاسلامية فنقول وفي سنة احدى وثمانين وثلاثمائة خلع الطائع لله وبويع القادر بالله أحمد بن اسحاق بن المقتدر وفي سنة ثنتين وثمانين نزل ملك الروم بأرمينية وحصر خلاط وملاذكرد وارجيش فضعفت نفوس الناس عنه ثم هادنه أبو علي الحسن بن مروان الكردى مدة عشر سنين فعاد ملك الروم الى بلاده وفي هذه السنة سار بغراخان ايلك ملك الترك بعساكره الى بخارى فسير اليه الامير نوح بن منصور الساماني جيشا كثيرا ولقيهم ايلك فهزمهم فعادوا الى بخارى وهو في أثرهم فخرج الامير نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه فاقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن هزيمة ايلك فعاد منهزما الى بلاده وفي سنة ثلاث وثمانين جمع ملك الترك جيوشا كثيرة وسار الى بخارى فملكها بسبب اختلاف وقع بين المسلمين مع بعضهم وفي سنة سبع وثمانين توفي سبكتكين صاحب غزنة ووقع اختلاف بين ولديه اسماعيل ومحمود ثم تم الملك لمحمود فاستولى على خراسان وغيرها وصار له ملك ضخم وجاءه التقليد من الخليفة القادر بالله ولقب يمين الدولة

﴿ ذكر غزوة يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ﴾

في سنة اثنتين وتسعين تجهز بجيوش كثيرة لغزو الهند وقصد برشور فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة فاختار يمين الدولة من عساكره خمسة عشر ألفا وسار نحوه فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر ملك الهند ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة وجواهر نفيسة ومن جملة ذلك قلادة كانت في عنق ملكهم من الجوهر العديم النظير قومت بمائتي ألف دينار وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي الاسرى وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلادا كثيرة فلما فرغ من غزواته أحب ان يطلق ملك الهند الذى أسره ليراه الهنود في شعار الذل فأطلقه بما قرره عليه فأدى المال ومن عادات الهنود انهم من حصل منهم في أيدى المسلمين أسيرا لم ينعقد له بعدها رياسة فلما رأى ملك الهند حاله بعد خلاصه حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة

﴿ ذكر غزوة أخرى الى الهند أيضا ﴾

لما فرغ يمين الدولة السلطان محمود سبكتكين من أمر جيبال رأى ان يغزو غزوة أخرى فسار نحو ويهند فأقام عليها محاصرا لها حتى فتحها قهرا وبلغه ان جماعة من الهند قد اجتمعوا

بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد فسير اليهم طائفة من عسكره فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم الا الشريد الفريد وعاد الى غزنة سالما ظافرا

﴿ ذكر غزوة بهاطية من بلاد الهند ﴾

في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند وهي مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها ثم انه خرج الى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم في الرابع وطلب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقه المسلمون الى باب البلد فملكوه عليهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم فقتل المقاتلة وسبيت الذرية وأخذت الاموال وأما الملك فانه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار الى رؤس تلك الجبال فسير اليه يمين الدولة سرية فلم يشعر الملك الا وقد أحاطوا به وحكموا السيوف في أصحابه فلما أيقن بالعطب أخذ خنجرا فقتل نفسه وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها وعاد عنها الى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها مايجب عليهم تعليمه ولقي في عوده شدة شديدة من الامطار وكثرتها وزيادة الانهار فغرق مما معه ومن عسكره شئ عظيم

﴿ ذكر غزوة المولتان ﴾

في سنة ست وتسعين وثلاثمائة غزا السلطان يمين الدولة المولتان وكان سبب ذلك ان واليها كان قد أسلم ثم نقل عنه خبث الاعتقاد ونسب الى الالحاد ودعا أهل ولايته الى ماهو عليه فأجابوه فرأى يمين الدولة ان يجاهده ويستنزله عما هو عليه فسار نحوه فرأى الانهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد وخاصة سيحون فانه منع جانبه من العبور فأرسل الى اندبال يطلب اليه ان يأذن له في العبور من بلاده الى المولتان فلم يجبه الى ذلك فابتدأ به قبل المولتان فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل فيها والنهب لاموال أهلها والاحراق لابنيتها ففر اندبال من بين يديه وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان من مضيق الى مضيق الى ان وصل الى قشمير ولما سمع ملك المولتان بخبر اقباله علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه فنقل أمواله الى سرنديب وأخلى المولتان فوصل يمين الدولة اليها ونازلها فاذا أهلها في ضلالهم يعمهون فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوة وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم

﴿ ذكر غزوة كواكير ﴾

ثم سار عن المولتان الى كواكير وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق الاصنام فهرب

صاحبها الى قلعة له فسار خلفه اليها وهى حصن كبير يسع خمسمائة ألف انسان وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة وفي الحصن مايكفى الجميع مدة فلما قام بها يمين الدولة وبقى بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالأحد طاقة عليه فأمر بقطعها ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر فأمر ان يطم منه مقدار مايسع عشرين فارسا فطموه بالجلود المملوءة ترابا ووصل الى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ثم بلغه اختلاف في خراسان فأراد الرجوع فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف من فضة ولبس خلعة يمين الدولة بعد ان استعفى من شد المنطقة وقطع أصبعه الخنصر وأنفذها الى يمين الدولة توثقة فيما يعتقدونه وعاد يمين الى خراسان لاصلاح مااختلف فيها وكان عازما على الدخول في بلاد الهند

﴿ ذكر غزوة الى الهند ﴾

في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة سار يمين الدولة نحو الهند وسبب ذلك ان بعض أولاد ملوك الهند كان قد أسلم على يده واستخلفه على بعضماافتتحه من بلادهم فلما كان الآن بلغه انه ارتد عن الاسلام ومال لاهل الكفر والطغيان فسار اليه مجدا فحين قاربه فر الهندى من بين يديه واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها الى حكم الاسلام واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد الى غزنة

﴿ ذكر غزوة بهيم نغر ﴾

في سنة ثمان وتسعين غزا يمين الدولة وانتهى الى شاطئ نهر هندمند فلاقاه هناك ابرهمن بال بن اندبال في جيوش الهند فاقتتلوا مليا من النهار وكادت الهند تظفر بالمسلمين ثم ان الله تعالى نصر عليهم فظفر بهم المسلمون فانهزموا على أعقابهم وأخذهم المسلمون بالسيف وتبع يمين الدولة أثر ابرهمن بال حتى بلغ بهيم نغر وهى على جبل عال وكان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الاعظم فينقلون اليها أنواع الذخائر قرنا بعد قرن واعلاق الجواهر وهم يعتقدون ذلك دينا وعبادة فاجتمع فيها على طول الازمان مالم يسمع بمثله فنازلهم يمين الدولة وحاصرهم وقاتلهم فلما رأى الهنود كثرة جمعه وحرصهم على القتال وزحفهم اليهم مرة بعد أخرى خافوا وجبنوا وطلبوا الامان وفتحوا باب الحصن وملك المسلمون القلعة وصعد يمين الدولة اليها في خواص أصحابه وثقاته فأخذ منها من الجواهر مالا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ومن الأوانى الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة منّ وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا الى غير

ذلك من الامتعة وعاد الى غزنة بهذه الغنائم ففرش تلك الجواهر في صحن داره وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك فأدخلهم اليه فرأوا مالم يسمعوا بمثله

﴿ ذكر غزوة بالهند ﴾

في سنة أربعمائة تجهز يمين الدولة الى الهند عازما على غزو نارين فسار اليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها فلما رأى ملك الهند انه لاقوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه وخمسين فيلا وان يكون في خدمته ألفا فارس لايزادون فقبض منه مابذله وعاد عنه الى غزنة

﴿ ذكر غزو يمين الدولة بلاد الغور وغيرها ﴾

في سنة احدى وأربعمائة غزا يمين الدولة بلاد الغور وهى بلاد تجاور غزنة وكان الغور كفارا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غاقة وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها فلما كثر ذلك منهم أنف يمين الدولة ان يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر فجمع العساكر وسار اليهم حتى انتهى مقدمة جيشه الى مضيق قد شحن بالمقاتلة فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان فسمع يمين الدولة الحال فجد في السير اليهم وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا الى عظيم الغورية فبرز من مدينته في عشرة آلاف مقاتل فقاتلهم المسلمون الى أن انتصف النهار فرأوهم أشجع الناس وأقواهم على القتال فأمر يمين الدولة عساكره ان يولوا الادبار على سبيل الخديعة والاستدراج ففعلوا فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم فعطف المسلمون عليهم ووضعوا السيف فيهم فأبادوهم قتلا وأسرا وكان في الاسرى كبيرهم وزعيمهم ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا مافيها وفتحوا تلك القلاع والحصون التى لهم جميعا فلما رأى كبيرهم مافعل المسلمون شرب سما كان معه فمات وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وأظهر يمين الدولة في تلك الاعمال شعار الاسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد ثم سار الى طائفة أخرى من الكفار فقطع مفازة من رمل ولحق عساكره عطش شديد كادوا يهلكون منه فلطف الله سبحانه وتعالى بهم وأرسل عليهم مطرا سقاهم وسهل عليهم السير في الرمل فوصل الى الكفار وهم جمع عظيم ومعهم ستمائة فيل فقاتلهم أشد قتال صبر فيه بعضهم لبعض ثم ان الله نصر المسلمين وهزم الكفار وأخذ غنائمهم وأكثر القتل فيهم وعاد سالما مظفرا منصورا

﴿ ذكر فتح يمين الدولة ناردين ﴾

في سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة الى الهند في جمع عظيم وحشد كثير وقصد واسطة البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه وبرز الى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسالك فاحتمى به وطاول المسلمين وكتب الى الهنود يستدعيهم من كل ناحية فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحا فلما تكاملت عدته نزل من الجبل وتصاف هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الامر ثم ان الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا مامعهم من مال وفيل وسلاح وغير ذلك فلما فرغ من غزوته أرسل الى الخليفة القادر بالله يخبره فكتب له منشورا وعهدا بخراسان وما بيده من الممالك ولقبه نظام الدين

﴿ ذكر غزوة تانيشر ﴾

في سنة خمس وأربعمائة ذكر ليمين الدولة ان بناحيــة تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب وان صاحبها غال في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين فعزم على غزوه في عقر داره وان يذيقه شربة من كأس قتاله فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفارا فسيحة الاقطار والاطراف بعيدة الاكناف والماء بها قليل فلقوا شدة وقاسوا مشقة الى ان قطعوها فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهرا شديد الجرية صعب المخاضة وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يدل بها أي يتعزز بها فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر واشتغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاصات وقاتلوهم من جميع جهاتهم الى آخر النهار فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا مامعهم من أموال وفيلة وعادوا الى غزنة موفرين ظافرين

﴿ ذكر غزوة الى الهند ﴾

في سنة ست وأربعمائة غزا يمين الدولة الهنــد على عادته فضل أدلاؤه الطريق ووقع هو وعسكره في مياه فاضت من البحر فغرق كثير ممن معــه وخاض المــاء بنفسه أياما حتى تخاص وعاد الى خراسان

﴿ ذكر عزوة قشمير وقنوج وغيرهما ﴾

في سنة سبع وأربعمائة سار يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين من غزنة الى الهند عازما على غزو قشمير اذ كان قد استولى على مابينــه وبين قشمير من بلاد الهند وأتاه المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد وسار اليها ثلاثة أشهر سيرا

دائما وعبر نهر سيحون وجيلوم وهما نهران عميقان شديدا الجرية فوطىء أرض الهندوأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الاتاوة فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه الى مقصده فبلغ ماجون في العشرين من رجب وفتح ماحولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب وهو آخر ملوك الهند فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ماهاله وأرعبه وعلم أنه لاينجيه الا الاسلام فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الاخلاص طلبا للاخلاص فقبله يمين الدولة وسار عنه الى قلعة كلجند وهو من أعيان الهند وشياطينهم وكان على طريقه غياض ملتفة لايقدر السالك على قطعها الا بمشقة فسير كلجند عساكره وفيوله الى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقا مختصرة الى الحصن فلم يشعروا الا وهو معهم فقاتلهم قتالا شديدا فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا وأخذهم السيف من خلفهم ولقوا نهرا عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم وكان القتلى والغرقى قريبامن خمسين ألفا وعمد كلجند الى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند وهو من أحصن الابنية على نهر ولهم به من الاصنام كثير منها خمسة أصنام من الذهب الاحمر مرصعة بالجواهر وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائةمثقال وكان بها من الاصنام المصوغة من النقرة نحو مائتى صنم فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقى وسار نحو قنوج وصاحبها راجيال فوصل اليها في شعبان فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كنك وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة وان من غرق نفسه فيه طهر من الآثام فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها وهى سبع على الماء المذكور وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون انها عمات من مائة ألف سنة الى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزورا ولما فتحها أباحها عسكره ثم سار الى قلعة البراهمة فقاتلوه وثبتوا فلما عضهم السلاح علموا انهم لاطاقة لهم فاستسلموا للسيف فقتلوا ولم ينج منهم الا الشريد ثم سار نحو قلعة آسى وصاحبها جندبال فلما قاربها هرب جندبال وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه ثم سار الى قلعة شروة وصاحبها جندرآى فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمى بها وعمى خبره فلم يدر أين هو فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم مافيه وسار في طلب جندرآى جريدة وقد بلغه خبره فلحق به في آخر شعبان فقاتله فقتل أكثر جند جندرآى وأسر كثيرا منهم وغنم مامعه من مال وفيول وهرب جندرآى في نفر من أصحابه

فتحا وكان السبي في هذه الغزوة كثيرا حتى أن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم ثم عاد الى غزنة ظافرا ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله ووسع فيه وكان جامعها القديم صغيرا وأنفق ماغنمه في هذه الغزوة في بنائه وفي هذه السنة تفرقت ممالك الاندلس وصار عامل كل قطر منه متغلبا على مابيده لضعف ملوك بنى أمية وكثرت الفتن بينهم وبين العلويين بنى ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى

﴿ ذكر خروج الترك من الصين ﴾

في سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خركاه وكانوا أجناسا منهم الخطابية الذين ملكوا ماوراء النهر وكان خروجهم للاستيلاء على ممالك الاسلام وكان أقرب بلاد الاسلام اليهم بلاساغون وكان ملكها من صالحى ملوك الاسلام يحب العلم وأهله ويميل الى أهل الدين ويصلهم ويقربهم واسمه طغان خان وكان قد ملك أيضا تركستان ومرض مرضا شديدا وطال به المرض فطمعوا في البلاد لذلك فساروا اليه وملكوا بعض ممالكه وغنموا وسبوا وبقى بينهم وبين بلاساغون ثمانية أيام فلما بلغه الخبر وكان مريضا بها سأل الله أن يعافيه فينتقم من الكفرة ويحمى البلاد منهم ثم يفعل به بعد ذلك ماأراد فاستجاب الله له وشفاه فجمع العساكر وكتب الى سائر بلاد الاسلام يستنفر الناس فاجتمع اليه من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألفا فلما بلغ الترك خبر عافيته وجمعه العساكر وكثرة من معه عادوا الى بلادهم فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتى ألف رجل وأسر نحو مائة ألف وغنم من الدواب والخركاهات وغير ذلك من الاوانى الذهبية والفضية ومعمول الصين مالا عهد لاحد بمثله وعاد الى بلاساغون فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الانصارى في غزوة الخندق فانه دعا الله لما جرح في أكحله ان يبقيه حتى يأخذ ثاره من بنى قريظة فاستجاب الله دعاءه ثم بعد الانتقام منهم وقتلهم انفجر جرحه ومات رضى الله عنه ولما مات طغان خان ملك بعده أخوه رسالان خان ولقب شرف الدولة

﴿ ذكر غزوة يمين الدولة الى الهند والافغانية ﴾

في سنة تسع وأربعمائة سار يمين الدولة الى الهند غازيا واحتشد وجمع واستعد واعد أكثر مما تقدم وقصد بيد اللعين وكان أعظم ملوك الهند مملكة وأكثرهم جيشا وتسمى مملكته كجوراهة وسار يمين الدولة عن غزنة وابتدأ في طريقه بالافغانية وهم كفار

يسكنون الجبال ويفسدون في الارض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم الكثير ثم استقل على المسير وبلغ الى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته وعبر نهر كنك ولم يعبره قبلها فلما جازه رأى قفلا قد بلغت عدة احماله ألف عدد فغنمها وهى من العود والامتعة الفائقة وجد به السير فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له بروجيبال قد سار من بين يديه ملتجأ الى بيدا ليحتمى به عليه فطوى المراحل فلحق بروجيبال ومن معه رابع عشر شعبان وبينه وبين الهنود نهر عميق فعبر اليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ثم عبر هو وباقى العسكر اليهم فاقتتلوا عامة نهارهم فانهزم بروجيبال ومن معه وكثر فيهم القتل والاسر وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون وأخذوا منهم الكثير من الجواهر وأخذوا مايزيد على مائتى فيل وسار المسلمون يقتصون آثارهم وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره وأرسل الى يمين الدولة يطلب الامان فلم يؤمنه ولم يقنع منه الا بالاسلام وقتل من عساكره مالا يحصى وسار بروجيبال ليلحق بيدا فانفرد به بعض الهنود فقتله فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم الى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والاتاوة وسار يمين الدولة بعد الوقعة الى مدينة بارى وهى من أحصن القلاع والبلاد وأقواها فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة وقتل من أهلها خلقا كثيرا وسار يطلب بيد الملك فلحقه وقد نزل الى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل منه اذا أراد القتال وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وسبعمائة وستة وأربعين فيلا فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال فأخرج اليهم بيدا مثلهم ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان فأدركهم الليل وحجز بينهم فلما كان الغد بكر يمين الدولة اليهم فرأى الديار منهم بلاقع وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا لطريق الاخرى ووجد خزائن الاموال والسلاح بحالها فغنموا الجميع واقتفى آثار المنهزمين فاحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والاسر ونجا بيدا فريدا وحيدا وعاد يمين الدولة الى غزنة منصورا

﴿ ذكر فتح قلعة من الهند ﴾

في سنة أربع عشرة وأربعمائة غزا يمين الدولة الهند وأوغل فيها فغنم وقتل حتى وصل الى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد الامن موضع واحد وهى كبيرة تسع خلقاوبها

خمسمائة فيل وفي رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع مايحتاج الناس اليه فحصرهم يمين الدولة وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال فقتل منهم كثير فلما رأوا ماحل بهم أذعنوا له وطلبوا الامان فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منه وأهدى له هدايا كثيرة منها طائر على هيئة القمرى من خاصيته انه اذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر فاذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها

﴿ ذكر فتح سومنات ﴾

في سنة ست عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن وأخذ الصنم المعروف بسومنات وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند وهم يحجون اليه كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ماينيف على مائة انسان وتزعم الهنود ان الارواح اذا فارقت الاجساد اجتمعت اليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء وكانوا يحملون اليه كل علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الوقوف مايزيد على عشرة آلاف قرية وقد اجتمع في البيت الذى هو فيه من نفيس الجوهر مالا يحصى قيمته ولاهل الهند نهر كبير يسمى كنك يعظمونه غاية التعظيم ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ويعتقدون انها تساق الى جنة النعيم وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتى فرسخ وكان يحمل من مائه كل يوم الى سومنات مايغسل به ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود اليه وثلاثمائة رجل يحلقون رؤس زواره ولحاهم وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم ولكل واحد من هؤلاء شئ معلوم كل يوم وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحا وكسر صنما يقول الهنود ان هذه الاصنام قد سخط عليها سومنات ولو انه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه واهلاكه ظنا منه ان الهنود اذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم دخلوا في الاسلام فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان في هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان وفي طريقه الى الهند برية قفر لاساكن فيها ولا ماء ولا ميرة فتجهز هو وعسكره على قدرها ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد انهلوارة فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونا مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها فيسر الله له فتحها عند قربه منها بالرعب الذى قذفه الله في قلوبهم وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها وامتاروا منها الماء وما يحتاجون اليه وسار الى انهلوارة فوصلها مستهل ذى القعدة فرأى

صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب وقصد حصنا له يحتمي به فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار الى سومنات فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحجاب النقباء لسومنات على ماسول لهم الشيطان فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها وسار الى سومنات في مفازة قفرة قليلة المـاء فلقي عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك فأرسل اليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا دبولواره وهي على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها ظنا منهم ان سومنات يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها وسار عنهـا الى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذى القعدة فرأى حصنا حصينا مبنيا على ساحـل البحر بحيث تبلغه أمواجه وأهـله على الاسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم فلما كان الغد وهو يوم الجمعة زحف وقاتل من به فرأى الهنود من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا اليه وأعلنوا بكلمة الاخلاص وأظهروا شعار الاسلام فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب وتقدم جماعة الهنود الى سومنات فعفروا له خدودهم وسألوه النصر وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض فلما كان الغد بكر المسلمون اليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل واجلوهم عن المدينة الى بيت صنمهم سومنات فقاتلوا على بابه أشد قتال وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل الى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون اليه ويخرجون فيقاتلون الى ان يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل قدخلوا البحر الى مركبين لهم لينجوا فيهما فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضا وغرق بعض وأما البيت الذى فيه سومنات فهو مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء وليس بصورة مصورة فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه الى غزنة فجعله عتبة الجامع وكان بيت الصنم مظلما وانما الضوء الذى عنده من قناديل الجوهر الفائق وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا من كلما مضى طائفة من الليـل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين الى عبادتهم وعنده خزانة فيها عدة من الاصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب الى عظيم من عظمائهم وقيمة مافي البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع وكانت عدة القتـلى تزيد على خمسين ألف قتيـل ثم ان يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب انهلوارة قد قصد

قلعة تسمى كندهة في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخا فسار اليها يمين الدولة من سومنات فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين فسألهما عن خوض البحر هناك فعرفاه انه يمكن خوضه لكن ان تحرك الهواء يسيرا غرق من فيه فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن معه فخرجوا سالمين فرأوا بهم قد فارق قلعته وأخلاها فعاد عنها وقصد المنصورة وكان صاحبها قد أسلم ثم ارتد عن الاسلام فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة فارقها واحتمى بغياض أشبة فقصده يمين الدولة من موضعين فأحاط به وبمن معه فقتلوا أكثرهم وغرق منهم كثير ولم ينج منهم الا القليل ثم سار الى بهاطية فأطاعه أهلها ودانوا له فرحل الى غزنة فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمائة

﴿ ذكر غرق الاسطول بجزيرة صقلية ﴾

في سنة ست عشرة وأربعمائة خرج الروم الى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية وهى مجاورة لجزيرة صقلية وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك فبلغ ذلك المعز بن باديس عامل افريقيـة للعبيديين فجهز أسطولا كبيرا أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقا كثيرا وتطوع جمع كثير بالجهاد رغبة في الاجر فسار الاسطول في كانون الثانى فلما قرب من جزيرة قوصرة وهى قريب من برافريقية خرج عليهم ريح شديد ونوء عظيم فغرق أكثرهم ولم ينج الا اليسير

﴿ ذكر غزوة للمسلمين الى الهند ﴾

في سنة احدى وعشرين وأربعمائة غزا أحمد بن ينالتكين النائب عن يمين الدولة ببـلاد الهند مدينة للهنود وهى من أعظم مدنهم يقال لها نرسى ومع أحمد نحو مائة ألف فارس وراجل وشن الغارة على البـلاد ونهب وسبى وخرب الاعمال وأكثر القتل والاسر فلما وصل الى المدينة دخـل من أحد جوانبها ونهب المسلمون في ذلك الجانب يوما من بكرة النهار الى آخر النهـار ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجوهرجيـين حسب وباقى أهـل البلد لم يعلموا بذلك لان طوله منزل من منازل الهنود وعرضه مثله فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيـه لكثرة أهله فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره وبلغ من كثرة ما نهب انهم اقتسموا الذهب والفضة كيلا ولم يصل الى هذه المدينة عسكر للمسلمين قبله فلما فارقه أراد العود اليه مرة أخرى فلم يقدر على ذلك ومنعه أهله وفي هـذه السنة توفي يمين الدولة السلطان محمود بن سـبكتكين وعمره احدى وستون سنة ومدة ملكه أربع وثلاثون سـنة وكان صالحا عادلا محبا للعلماء مكرما لهم ومحبا للجهاد ووقع بعـده

احتلاف بين ابنه محمد ومسعود وتم الملك لمسعود

﴿ ذكر خروج ملك الروم الى الشام وانهزامه ﴾

في سنة احدى وعشرين وأربعمائة خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل الى الشام فلم يزل بعساكره حتى بلغ قريب حلب فلحقهم عطش شديد وكان أصحابه مختلفين عليه وعبر على عسكره جمع من العرب ليسوا بالكثير فظن انها كبسة فخاف ورحل وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الارمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا وهلك كثير من الروم عطشا ونجا الملك وحده ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شئ البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا حتى أن الملك لبس خفا أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الاحمر فتركه ولبس الاسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ماكان معهم

﴿ ذكر غزو فضلون الكردى الخزر وماكان منه ﴾

كان فضلون الكردى هذا بيده قطعة من أذربيجان استولى عليها وملكها فاتفق انه غزا الخزر في هذه السنة فقتل منهم وسبي شيأ كثيرا فلما أراد العود الى بلاده أبطأ في سيره وظن أنه دوخهم وشغلهم بما عمله بهم فاتبعوه مجدين وكبسوه وقتلوا من أصحابه والمتطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل واستردوا الغنائم التى أخذت منهم وغنموا أموال العساكر الاسلامية وعادوا

﴿ ذكر ملك الروم مدينة الرها ﴾

في سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم مدينة الرها وكان بالرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر الكبير بيد ابن عطير والصغير بيد ابن شبل فراسل ابن عطير ارمانوس ملك الروم وباعه مابيده بعشرين ألف دينار وعدة قرى فتسلموا البرج الذى له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل وقتل الروم المسلمين وخربوا المساجد فسمع نصر الدولة ابن مروان مالك بلاد الكرد الخبر فسير جيشا الى الرها فحصروها وفتحوها عنوة واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى غيرهم بالبيعة التى لهم وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقي الروم بالبرجين وسير اليهم ابن مروان عسكرا نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخل الروم البلد وملكوها وما جاورهم من بلاد المسلمين فصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج وحمل اليهم

خراجا وفي هذه السنة توفي الخليفة القادر بالله وكانت خلافته احدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وبويع بعده ابنه القائم بأمر الله

﴿ ذكر ملك الروم قلعة افامية ﴾

في سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم قلعة افامية بالشام بسبب اختلاف العمال من المسلمين فدخل حسان بن المفرج الطائي بلد الروم هاربا من الدزبرى عامل في الشام لخليفة مصر ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار الى افامية فكبسها وغنم مافيها وسبى أهلها وأسرهم

﴿ ذكر فتح قلعة سرستى وغيرها من بلاد الهند ﴾

في سنة خمس وعشرين وأربعمائة قصد السلطان مسعود بن محمود سبكتكين قلعة سرستى وهى من أمنع حصون الهند وأحصنها فحصرها وقد كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها فلما حصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالا على الصلح فأجابه الى ذلك وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها لمسعود من جملة ماقرر عليه فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها اليه يعرفونه فيها ضعف الهنود بها وأنه ان صابرهم ملكهم فرجع عن الصلح وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم وأخذ ماجاورها من البلاد ثم رحل عنها الى قلعة نغسى وحصرها فرآها عالية لاترام يرتد البصر دونها وهو حسير الا أنه أقام عليها يحصرها فخرجت عجوز ساحرة فتكلمت باللسان الهندى طويلا وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشته منها الى جهة عسكر المسلمين فرض وأصبح لايقدر أن يرفع رأسه وضعفت قوته ضعفا شديدا فرحل عن القلعة لشدة المرض فحين فارقها زال ما كان بها وأقبلت الصحة والعافية اليه وسار نحو غزنة

﴿ ذكر ملك الروم قلعة بركوى ﴾

هذه قلعة متاخمة للارمن كانت في يد أبي الهيجاء بن ربيب الدولة ابن أخت وهوذن بن مملان فتنافر هو وخاله فأرسل خاله الى الروم فأطعمهم فيها فسير ملك الروم اليها جمعا كثيرا فملكوها سنة خمس وعشرين وأربعمائة فبلغ الخبر الى الخليفة فارسل الى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة فاصطلحا ولم يتمكنا من استعادتها واجتمع اليهما خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها وفي سنة سبع وعشرين اجتمع ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا جموعا وأمدهما نصر الدولة بن

مروان بعسكر كثيف فساروا جميعا الى السويدا وربض الرها وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت واجتمع اليها أهل القرى المجاورة لها فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وغنموا مافيها وسبوا خلقا كثيرا وقصدوا الرها فحصروها وقطعوا الميرة عنها واشتد الامر فخرج البطريق الذى فيها متخفيا ولحق بملك الروم وعرفه الحال فسير معه خمسة آلاف فارس فعاد بهم فعرف ابن وثاب ومقدم عساكر نصر الدولة الحال فكمنا لهم فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم فقتل من الروم خلق كثير وأسر مثلهم وأسر البطريق وحمل الى باب الرها وقالوا لمن فيها اما أن تفتحوا الباب والا قتلنا البطريق والاسرى الذين معه ففتحوا الباب للعجز عن حفظه وتحصن أجناد الروم بالقلعة ودخل المسلمون المدينة وغنموا مافيهاوامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وأكثروا القتل وأرسل ابن وثاب الى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤس القتلى وأقام محاصرا للقلعة ثم ان حسان بن الجراح الطائى سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لمن بالرها فسمع ابن وثاب بقربه فسار اليه مجدا ليلقاه قبل وصوله فخرج من الرها بجمع من الروم الى حران فقاتلهم أهلها وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعا فوقع على الروم فقتل منهم كثيرا وعاد المنهزمون الى الرها ثم صالح ابن وثاب الروم الذين بالرها لعجزه عنهم وسلم اليهم ربض الرها وكثر الروم بها وعمروها وحصنوها وفي سنة تسع وعشرين هادن المستنصر بالله العبيدى صاحب مصر ملك الروم وشرط عليه اطلاق خمسة آلاف أسير وشرط الروم عليه ان يعمروا بيعة قمامة فأرسل الملك اليها من عمرها وأخرج على عمارتها مالا جليلا ثم انقضت الهدنة سنة ٣٢ وجهز الروم جيشا فالتقوا مع جيش المسلمين بين مدينة حماة وافامية واشتد القتال ثم ان الله نصر المسلمين وأذل الكافرين فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسر ابن عم للملك وبذلوا في فدائه مالا جزيلا وعدة وافرة من أسراء المسلمين وانكف الروم عن الاذى بعدها وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا قتل مسعود بن محمود سبكتكين وتملك ابنه مودود والقاتل لمسعود أولاد أخيه محمد والقصة طويلة ليس هذا محل ذكرها وفي سنة خمس وثلاثين أخرج ملك الروم من القسطنطينية المسلمين والغربا ونادى أن لايقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة فمن أقام بعدها كحل فخرج منها أكثر من مائة ألف انسان ولم يبق بها أكثر من اثنى عشر نفسا فضمنهم الروم فتركهم

(ذكر تملك مودود بن مسعود بن محمد سبكتكين عدة من حصون بلد الهند)

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وقصدوا لهاوور وحصروها

فجمع مقدم العساكر الاسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل الى صاحبه مودود يستنجده فأرسل اليه العساكر فاتفق ان بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد الى طاعة مودود فرحل الملكان الآخران الى بلدهما فسارت العساكر الاسلامية الى أحدهما فانهزم منهم وصعد الى قلعة له منيعة هو وعساكره فاحتموا بها وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم فطلب الهنود الامان على تسليم الحصن فامتنع المسلمون من اجابتهم الى ذلك الا بعد أن يضيفوا الى ذلك باقي حصون ذلك الملك الذى لهم فحملهم الخوف وعدم الاقوات على اجابتهم الى ماطلبوا وتسلم المسلمون الجميع وغنموا الاموال وأطلقوا مافي الحصون من أسرى المسلمين وكانوا نحو خمسة آلاف نفر فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني فتقدم اليهم ولقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزمت الهنود وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح وأسر ضعفاؤهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم فلما رأى باقي الملوك من الهند مالقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة وطلبوا الامان وحملوا الاموال وطلبوا الاقرار على بلادهم فاجيبوا الى ذلك

﴿ ذكر أخبار الروم والروسية ﴾

وفي سنه خمس وثلاثين ورد الى القسطنطينية عدد كثير من الروسية في البحر يريدون حرب الروم فاجتمعت الروم على حربهم وكان بعضهم قد فارق المراكب الى البر فألقى الروم في مراكبهم النار فلم يهتدوا الى اطفائها فهلك كثير منهم بالحرق والغرق وأما الذين في البر فقاتلوا ثم انهزموا فلم يكن لهم ملجأ فمن استسلم أولا استرق ومن امتنع حتى أخذ قهرا قطع الروم أيمانهم وطيف بهم في البلد ولم يسلم منهم الا قليل مع ابن ملك الروسية وفي سنة تسع وثلاثين سير المعز بن باديس صاحب افريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد

﴿ ذكر غزو الساجوقية بلاد الروم ﴾

ولنذكر أولا ابتداء ظهور الدولة السلجوقيه أصلهم من الترك الذين مما وراء النهر أسلم جدهم سلجوق ووافقه على الاسلام جماعة منهم فخرج بهم من دار الحرب الى ديار الاسلام وصار يقاتل الكفار من الترك ووقع بينه وبين ملوك خراسان المسلمين وقائع وقتال يطول الكلام بذكره وولد له أولاد قاموا بالجهاد بعده وكثرت جموعهم وقويت شوكتهم وصاروا يتغلبون على ممالك خراسان والعراق شيأ فشيأ الى ان دخلوا بغداد وأذهبوا دولة

بني بويه وتغلبوا على الخلفاء كما كان بنو بويه وكان دخولهم بغداد في خلافة القائم بأمر الله ابن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة وكان الداخل منهم بغداد السلطان طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق وتوفي السلطان طغرلبك سنة خمس وخمسين وأربعمائة وصار الملك بعده لابن أخيه الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق واستمر الملك في بنيه الى سنة تسع وثمانين وخمسمائة وكان ابتداء تملكهم طوس وقيل الرى سنة أربعمائة وتسع وعشرين فتكون مدة ملكهم مائة وستين سنة وطغرلبك ضبطه ابن خلكان بقوله بضم الطاء وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء الموحدة بعدها كاف وهو اسم تركى مركب من طغرل وهو اسم علم وبك معناه أمير وسلجوق بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف وكانت هذه الغزوة التي سنذكرها قبل تملكهم بغداد وهذه الغزوة التي سنذكرها هي انه في سنة أربعين وأربعمائة غزا السلجوقية بلاد الروم وقائد الجيش الامير ابراهيم اينال أخو السلطان طغرلبك السلجوقي فظفروا وغنموا ووصلوا الى ملازكرد وأرزن الروم وقاليقلا وبلغوا طرابزون وتلك النواحى كلها ولقيهم عسكر للروم يبلغون خمسين ألفا فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء وتارة هؤلاء وكان آخر الامر الظفر للمسلمين فأكثروا القتل في الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم وممن أسر قاريط وكان من ملوكهم فبذل في فداء نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجب الى ذلك ولم يزل السلجوقية يجوسون تلك البلاد الى ان صار بينهم وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا مافيها وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والاموال مالا يقع عليه الاحصاء وحملت الغنائم على عشرة آلاف عجلة ومن جملة الغنائم عشرة آلاف درع ثم في سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرلبك هدية عظيمة وطلب منه الصلح والمعاهدة فأجابه اليها وعمر ملك الروم مسجدا بالقسطنطينية وكان بها كثير من المسلمين فأقاموا بالمسجد المذكور الصلاة والخطبة لطغرلبك بأمر ملك الروم ثم بعد ذلك دانت الناس لطغرلبك وتمكن في ملكه وتملك كثيرا من البلاد قبل دخوله بغداد

﴿ ذكر غزوة أخرى للسلجوقية ﴾

في سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك سلطان السلجوقية الى ارمينية وقصد ملازكرد وهي للروم فحصرها وضيق على أهلها ونهب ماجاورها من البلاد وأخربها

وهي مدينــة حصينة وأثر السلطان المذكور في هذه الغزوة آثارا عظيمة ونال منهم من النهب والقتل والاسر شيأ كثيرا وبلغ في غزوته هذه الى أرزن الروم وعاد الى أذربيجان لما هجم الشتاء ومن السلجوقية قتلمش ابن عم طغرلبك كانت له ولبنيــه دولة في قونيــة واقصرا وبلاد الروم لان السلجوقية لمــا انتشروا في البلاد طالبين للممالك دخل قتلمش هذا الى بلاد الروم وملك قونية واقصرا ونواحيها وافتتح بلادا واسعة وبقي الملك في بنيه الى ظهور الدولة العثمانيــة فمن تلك الممالك التى افتتحوها وكانت تحت أيديهــم قونيــة واقصرا وسيواس وتوقات وانقورية وملطية وبلاد البســتان وقيسارية ونيكسار واماسية وأعمــال هذه المدن

﴿ ذكر فتح الب ارسلان مدينة * آنى * وغيرها من بلاد النصرانية ﴾

في سنة ست وخمسين وأربعمائة غزا السلطان الب ارسلان بلاد النصارى فسار من الرى الى أذربيجان ثم سلك مضايق الى ان وصل الى نقجوان فأمر بعمل السفن لعبور نهر أرس فقيل له ان سكان خوى وسلماس من أذربيجان لم يقوموا بواجب الطاعة وانهم قدامتنعوا ببلادهم فســير اليهم عميد خراسان ودعاهم الى الطاعة وتهددهــم ان امتنعوا فأطاعوا وصاروا من جملة حزبه وجنده واجتمع عليــه هناك من الملوك والعساكر مالا يحصى فلما فرغ من جمع العساكر والسفن ســار الى بلاد الكرج وجعل عسكرا مع ولده ملكشاه ونظام الملك وزيره فسار ملكشاه ونظام الملك الى قلعــة فيها جمع كثير من الروم فنزل أهلها منها وتخطفوا من العسكر وقتلوا منهم فئة كثيرة فنزل نظام الملك وملكشاه وقاتلوا من بالقلعة وزحفوا اليهم فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون وساروا منها الى قلعة سرمارى وهى قلعة فيها المياه الجارية والبساتين فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها وكان بالقرب منها قلعة أخرى ففتحها ملكشاه وأراد تخريبها فنهاه الوزير نظام الملك عن ذلك وقال هى ثغر للمسلمين وشحنها بالرجال والاموال والسلاح والذخائر وسلم هذه القلاع الى أمير نقجوان وسار ملكشاه ونظام الملك الى مدينــة مريم نشين وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى وعامتهــم يتقربون الى أهل هذه البلدة وهى مدينة حصينة سورها من الاحجار الكبار الصلبة المشــدودة بالرصاص والحديد عندها نهر كبير فأعد نظام الملك لقتالها مايحتاج اليه من السفن وغيرها وقاتلها وواصل قتالها ليلا ونهارا وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة فضجر الكفار وأخذهم الاعياء والكلال فوصل المسلمون الى سورها ونصبوا عليه السلالم وصعدوا الى أعلاه لان المعاول كانت عن نقبه لقوة حجره

فلما رأى أهلها المسلمين على السورفت ذلك في أعضادهـم أى أضعفهم وسقط في أيديهم ودخل ملكشاه ونظام الملك البلد وأحرقوا البيع وخربوها وقتلوا كثيرا من أهلها وأسلم كثير منهم فنجوا من القتل واستدعى الب ارسلان ابنه ملكشاه ونظام الملك فالحقوه في بلاد الكرج وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده وفتح ملكشاه في طريقه عدة من القلاع والحصون وأسر من النصارى مالا يحصى ثم ساروا جميعا مع السلطان الب ارسلان الى تسبيذشهر فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها من المسلمين كثير ثم ان الله تعالى يسر فتحها فملكها ألب أرسلان وسار منها الى مدينة اعال لال وهى حصينة عالية الاسوار شاهقة البنيان وهى من جهة الشرق والغرب على جبل عال وعلى الجبل عدة من الحصون ومن الجانبين الآخرين نهر كبير فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها وكان ملكها من الكرج وهكذا ماتقدم من البلاد التى ذكرنا فتحها وعقد السلطان جسرا على النهر عريضا واشتد القتال وعظم الخطب فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الامان والتمسا من السلطان ان يرسل معهما طائفة من العسكر فسير جمعا صالحا فلما جازوا الفصيل أحاط بهم الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم ولم يتمكن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك وخرج الكرج من البلد وقصدوا العسكر واشتد القتال وكان السلطان ذلك الوقت يصلى فأتاه الصريخ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته وركب وتقدم الى الكفار وقاتلهم وكبر المسلمون عليهم فولوا منهزمين فدخلوا البلد والمسلمون معهم ودخلها السلطان وملكها واعتصم جماعة من أهلها في برج من ابراج المدينة فقاتلهم المسلمون فامر السلطان بالقاء الحطب حول البرج واحراقه ففعل ذلك وأحرق البرج ومن فيه وعاد السلطان الى خيامه وغنم المسلمون من المدينة مالا يحد ولا يحصى ولما جن الليل عصفت ريح شديدة وكان قد بقى من تلك النار التى أحرق بها البرج بقية كثيرة فأطارتها الريح فاحترقت المدينة بأسرها وملك السلطان قلعة حصينة كانت الى جانب تلك المدينة ثم سار منها الى ناحية قرس ومدينة آنى وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما دسل ورده ونوره فخرج أهلهما مذعنين بالاسلام وخربوا البيع وبنوا المساجد وسار منهما الى مدينة آنى فوصل اليها فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لاترام ثلاثة أرباعها على نهر أرس والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية لو طرحت فيه الحجارة الكبار لاخذها وحملها والطريق اليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم وهى بلدة كبيرة عامرة كثيرة الاهل فيها مايزيد على خمسمائة بيعة فحصرها وضيق عليها الا ان المسلمين قد أيسوا من

فتحها لما رأوا من حصانتها فعمل السلطان برجا من خشب وشحنه بالمقاتلة ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب فكشفوا الكرج عن السور وتقدم المسلمون اليه لينقبوه فأتاهم من لطف الله مالم يكن في حسابهم فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها مالا يحصى عددهم بحيث أن كثيرا من المسلمين عجزوا عن دخول البلد بسبب كثرة القتلى وأسروا نحوا مما قتلوا وسارت البشرى بهذه الفتوحات في البلاد فسر المسلمون وقرئ كتاب الفتح ببغداد في دار الخليفة فبرز خط الخليفة بالثناء على الب ارسلان والدعاء له ورتب فيها أميرا في عسكر جرار وعاد عنها وقد راسله ملك الكرج في الهدنة فصالحه على أداء الجزية كل سنة فقبل ذلك وفي سنة ثنتين وستين وأربعمائة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف الى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم جموعا للعرب ثم ارتحل وعاد الى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع

﴿ ذكر خروج ملك الروم الى خلاط واسره ﴾

في سنة ثلاث وستين وأربعمائة خرج ارمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج والروس والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاؤا في تجمل كثير وزي عظيم وقصد بلاد الاسلام فوصل الى ملازكرد من أعمال خلاط فبلغ السلطان الب ارسلان الخبر وهو بمدينة خوى من أذربيجان وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو فسير الأثقال مع زوجته ونظام الملك الى همدان وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس وجد في السير وقال لهم انى أقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة من الله وان كانت الشهادة فان ابنى ملكشاه ولى عهدى وساروا فلما قاربوا العدو جعل له مقدمة فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل الى السلطان فجدع أنفه وأنفذ بالسلب الى نظام الملك وأمره أن يرسله الى بغداد فلما تقارب العسكران أرسل السلطان الى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال ملك الروم لاهدنة الا بالرى فانزعج السلطان لذلك فقال له امامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى انك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره واظهاره على سائر الاديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التى تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم من أراد الانصراف

فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال ان قتلت فهذا كفنى وزحف الى الروم وزحفوا اليه فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون فيوسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤا وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مالايحصى حتى امتلأت الارض من جثث القتلى وأسر ملك الروم أسره بعض الغلمان فأراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع ملك الروم لاتقتله فانه الملك وكان هذا الغلام الذى أسره قدعرضه سيده على نظام الملك فرده استحقارا له فأثنى عليه سيده فقال نظام الملك عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك فلما أسر الغلام ملك الروم أحضره عند سيده فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك فأمر باحضاره فلما أحضره ضربه السلطان الب ارسلان ثلاثة مقارع بيده وقال له ألم أرسل اليك في الهدنة فأبيت فقال دعنى من التوبيخ وافعل ماتريد فقال السلطان ماعزمت أن تفعل بى ان أسرتنى فقال افعل القبيح قال له فما تظن انى أفعل بك قال اماأن تقتلنى واما أن تشهرنى في بلاد الاسلام والاخرى بعيدة وهى العفو وقبول الاموال واصطناعى نائبا عنك قال ماعزمت على غير هذا ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وان يرسل اليه عساكر الروم أى وقت طلبها وان يطلق كل أسير في بلاد الروم واستقر الامر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها وأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد فقال ملك الروم أين جهة الخليفة فدل عليها فقام وكشف رأسه وأومأ الى الارض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره الى بلاده وسير معه عسكرا أوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا وأما الروم فانهم لما بلغهم خبر الوقعة وأسر الملك وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد فلما وصل أرمانوس الملك الى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل الى ميخائيل يعرفه ماتقرر مع السلطان وقال ان شئت أن تفعل مااستقر وان شئت أمسكت فأجابه ميخائيل بايثار مااستقر وطلب وساطته وسؤال السلطان في ذلك وجمع أرمانوس ماعنده من المال وكان مائتى ألف دينار فأرسله الى السلطان وطبقا ذهبا عليه جواهر بتسعين ألف دينار وحلف له انه لا يقدر على غير ذلك ثم ان أرمانوس استولى على أعمال الارمن وبلادهم ومدح الشعراء السلطان الب ارسلان وذكروا هذا الفتح فأكثروا لأنه يشبه فتوحات الصحابة رضى الله عنهم

(ذكر مقتل السلطان الب ارسلان)

في سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان الب ارسلان ماوراء النهر لقتال ملك من ملوك الاسلام خرج عن طاعته اسم الملك شمس الملك فعقد على جيحون جسرا وعبر عليه في نيف وعشرين يوما وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي جرى منه جناية وارتكاب وحمل الى قرب سريره مع غلامين فأراد عقابه على ارتكابه فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه اليها فقال له يوسف يامخنث مثلي يقتل هذه القتلة فغضب السلطان الب أرسلان وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين خلياه ورماه السلطان بسهم فأخطأه ولم يكن يخطئ سهمه فوثب يوسف يريده والسلطان على سريره فقام عنه وعثر فوقع فبرك عليه يوسف وضربه في خاصرته بسكين كانت معه وقتل الاتراك يوسف وقطعوه ونهض السلطان فدخل الى خيمة أخرى ومات السلطان من جراحته تلك ومات بعد أيام وكان أهل سمرقند لما بلغهم عبور السلطان النهر اجتمعوا وختموا ختمات وسألوا الله أن يكفيهم أمره فاستجاب الله لهم ولما جرح السلطان قال مامن وجه قصدته وعدو أردته الا استعنت بالله تعالى عليه ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الارض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد على فعجزني الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله واستقبله من ذلك الخاطر وتملك بعده ابنه ملكشاه وفي سنة سبع وستين وأربعمائة توفي القائم بأمر الله وبويع حفيده المقتدى بأمر الله وفي سنة ثمان وستين أخذت مدينة منبج من الروم ورجعت الى الاسلام والذى انتزعها منهم نصر بن محمود بن مرداس

(ذكر فتوح في بلاد الهند)

في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا الملك ابراهيم بن مسعود بن محمود سبكتكين صاحب غزنة بلاد الهند فحصر قلعة أجور وهى على مائة وعشرين فرسخا من لهاور وهى قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوى عشرة آلاف رجل من المقاتلة فقاتلوه وصبروا تحت الحصر وزحف اليهم غير مرة فرأوا من شدة حربه ماملأ قلوبهم خوفا ورعبا فسلموا القلعة اليه وفتح أيضا قلعة روبال وكانت على رأس جبل وليس لها طريق الا من مكان ضيق مملوء بالفيلة والمقاتلة وبها من رجال الحرب ألوف كثيرة فتابع عليهم الوقائع وألح عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب الى ان ملك القلعة واستنزلهم منها وكان في موضع يقال له دره نوره أقوام من الكفار لم يتعرض اليهم أحد من الملوك فسار اليهم ابراهيم ودعاهم الى

الاسلام أولا فامتنعوا من اجابته وقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم وتفرق من سلم منهم في البلاد وسبي واسترق من النسوان والصبيان مائة ألف ثم قصد موضعا آخر يقال له وره في طريقه عقبات كثيرة وأشجار ملتفة وأهله كفار فقاتلهم ثلاثة أشهر الى ان نصره الله عليهم فقتل كثيرا منهم وسبي وغنم وعاد سالمـا وكان ابراهيم بن مسعود بن محمود عاقلا ذا رأى متـين فمن آرائه أن السلطان ملكشاه السلجوقى جمع عساكره يريد قتال ابراهيم المذكور في غزنة وينتزع الملك منه ونزل باسفرار فكتب ابراهيم بن مسعود كتابا الى جماعة من أعيان أمراء ملكشاه يشكرهم ويعتذر لهم بما فعلوا من تحسين قصد ملكشاه بلاده ليتم لنا ما استقر بيننا من الظفر به وتخليصهم من يده ويعدهـم الاحسان على ذلك وأمر القاصد بالكتب أن يتعرض ملكشاه في الصيد ففعل ذلك فأخذ وأحضر عند السلطان فسأله عن حاله فأنكره فامر السلطان بجلده فجلد فدفع الكتب اليه بعد جهد ومشقة فلما وقف ملكشاه عليها تخيل على أمرائه وترك المسير الى ابراهيم وعاد الى بلده ولم يقل لاحد من أمرائه في هذا الامر شيأ خوفا أن يستوحشوا منه ثم وقعت المكاتبـة بينه وبين ابراهيم والمصافاة حتى زوج ابراهيم ابنه مسعود بابنة ملكشاه

﴿ ذكر فتح انطاكية وانتزاعها من الروم ﴾

في سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان بن قتلمش السلجوقى صاحب قونية الى الشام فملك مدينة انطاكية وكانت بيد الروم من سنة ثمـان وخمسين وثلاثمائة حصرها بعساكره ونصب السـلالم فصعدوا عليها وأخذ البلد فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيرا من أهلها ثم أذعنوا له فعفا عنهم وتسلم القلعة وأحسن الى الرعية ورجع سالما

﴿ ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة صقلية ﴾

في سنة أربع وثمـانين وأربعمائة خرج الفرنج بجموع كثيرة وتملكوا جزيرة صقلية بعد حروب كثيرة وكان ملوك المسلمين بصقلية لما ضعف أمر الخلفاء قد تفرقوا ممـالك صقلية وصارت كل جهة منها بيد ملك متغلب عليها مستبد لا يسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة الى أن بقي بأيدي المسلمين قصريانة وجرجنت فحصرهما الفرنج في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بجيوش كثيرة فكان من ذلك ذل للمسلمين وتضييق شديد عليهم حتى أكلوا الاموات فلما اشـتد الامر عليهم أذعنوا الى التسلم فتسلمها الفرنج لعنهم الله تعالى في السنة المذكورة فصارت الجزيرة كلها بأيديهم وفي سنة خمس وثمانين توفي السلطان ملكشاه السلجوقى ووقع بين أولاده اختـلاف وحروب كثيرة لطلب الملك وفي

سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي المقتدى بأمر الله وبويع ابنه المستظهر بالله ثم ان الفرنج لما ملكوا صقلية بالتمام كان الملك عليهم رجار الفرنجى من ملوك ايطاليا ثم طمعوا في تملك كثير من افريقية فخرجوا في أسطول كبير وجم غفير من مشهورى فرسان الفرنج فحاصروا مدينة جربة ونزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها فاجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فقتل منهم بشر كثير ثم انهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم ثم بعد مدة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وعلقوا الكلاليب في سور البلد ونقبوه ثم وصل جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوى أهل البلد بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليه حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والأثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم أهل البلد هربوا الى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه الامير يحي بن عبد العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا ثم جهزوا أسطولا كثيرا وسيروه الى طرابلس الغرب فأحاطوا بها برا وبحرا فخرج اليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس مع بعضهم آل الامر فيه الى قتال بعضهم بعضا فانتهز الفرصة الفرنج ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج البلد عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب ثم نودى بالامان في كافة الناس فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها ولما رجعوا أخذوا رهائن من أهلها وولوا عليها رجلا من أهلها وأخذوا رهائنه وحده وأعادوا رهائن غيره واستقامت أمور المدينة وألزم ملكهم أهل صقلية والروم بالسفر اليها وعمرت سريعا ثم ان أهل قابس عصى أميرهم على الحسن بن على بن يحي بن تميم أمير افريقية وكاتب صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له أريدمنك خلعة وعهدا بولاية قابس لأكون نائبا عنك فسير اليه صاحب صقلية الخلعة والعهدفلبسها وقرئ العهد بجمع من الناس فسمع بذلك الحسن أمير افريقية فجهز عسكرا كثيرا فساروا الى قابس ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بالامير الذى ملكها لصاحب صقلية وقبضوا عليه بعد قتال بينهم وبينه وسيروه الى أمير

افريقية فقتله بعد تعذيبه بأنواع العذاب من ذلك أنهم قطعوا ذكره وجعلوه في فيه وتولى على قابس معمر بن رشيد وهرب جماعة من أقارب الامير الأول الى صقلية وشكوا الى صاحب صقلية واستجاروا به فغضب لذلك فجهز أسطولا كثيرا بلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا وقصدوا المهدية وكان بها أمير افريقية الحسن بن على وكان قد حصل بافريقية في تلك السنين قحط وغلاء شديد حتى ان أكثر الناس فارقوا البلاد والقرى وصاروا الى صقلية فلما علم الحسن بن على بمسير الفرنج اليه جمع الفقهاء والأعيان وشاورهم في القتال فقالوا نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال أخاف أن يحصرونا برا وبحرا ويحولوا بيننا وبين الميرة وليس عندنا مانقتات به شهرا فنؤخذ قهرا وانا أرى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك فالرأى ان نخرج بالأهل والولد و نسلم البلد فمن أراد أن يفعل ذلك فليبادر ثم أمر في الحال بالرحيل وأخذ معه من حصره وما خف حمله وخرج ناس كثير معه بأهلهم وأموالهم وأولادهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس ثم دخل الفرنج البلد بلا مانع ولا مدافع ووجدوا قصر الأمير بحاله لم يأخذ الحسن منه الاماخف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأوا الخزائن مملوءة من الذخائر وكل شئ نفيس غريب يقل وجود مثله فختم الفرنج عليه وجمعوا سرارى الحسن من قصره ونهبت المدينة مقدار ساعتين ثم نادوا بالأمان فخرج من كان مستخفيا وبعد جمعة رجع أهل البلد وأما الحسن أمير افريقية فانه سار الى ملك مراكش عبد المؤمن بن على فأكرمه وأحسن نزله وبقي عنده مكرما الى ان فتح المهدية عبد المؤمن بن على كما سيأتى ذكر ذلك ولما استقر الفرنج بالمهدية سيروا أسطولا الى سفاقس وأسطولا الى مدينة سوسة وأسطولا الى قابس فأما أهل سوسة فانهم لما سمعوا خبر المهدية وكان أميرهم على بن الحسن أمير افريقية خرج عليّ المذكور والتحق بأبيه الحسن وخرج الناس لخروجه ودخل الفرنج البلد بلا قتال وأما سفاقس فان أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم كثير ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقي من الرجال وسبي الحريم ثم نودى بالأمان فعاد أهلها اليها وأفتكوا حريمهم وفعلوا مثل ذلك بقابس وملكوها ثم سار الفرنج الى قلعة قلبية وهي قلعة حصينة فلما وصلوا اليها سمع بذلك العرب فاجتمع منهم خلق كثير وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا فرجعوا خاسرين الى

المهدية ثم رجع الفرنج اليهم مرة أخرى وملكوها والحاصل ان الفرنج لما ملكوا صقلية تتابعت اغاراتهم على افريقية فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وتطاون وغير ذلك وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن الغرب الى القيروان وكانت هذه الوقائع متتابعة في سنين وكان انتهاؤها سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وذكرناها متتابعة ليتصل بعضها ببعض وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة اختلف ملك الفرنج صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك صاحب صقلية جميع بلاد افريقية وكان القتال بينه وبين صاحب القسطنطينية برا وبحرا والظفر في جميع ذلك لصاحب صقلية حتى دخل فم المينا وأخذ عدة شوانى لصاحب القسطنطينية وأسر كثيرا من الروم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذى يفعل هذا بالروم وبالمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية ثم هلك جرجى ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه فعقد صلحا مع صاحب القسطنطينية وسكنت الفتنة وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هلك رجار ملك صقلية وكان عمره قريبا من ثمانين سنة وملك بعده ولده غليالم وكان فاسد التدبير وسلك طريقة ملوك الاسلام من الجنائب والحجاب وغير ذلك وأسكن في جزيرة صقلية الفرنج مع المسلمين وأكرم المسلمين ومنع من التعدى عليهم وقربهم فخرج عن حكمه عدة حصون من حصون صقلية وتعدى الامر الى افريقية فانه لما كانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة قوى طمع الناس فيه فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل افريقية منهم أهل سفاقس وقد كان أبوه رجار لما فتحها استعمل عليها أبا الحسين العريانى وكان من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال له استعمل ولدى فاستعمل ولده عمر بن أبى الحسين وأخذ أباه رهينة الى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر انى كبير السن وقد قارب أجلى فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر نى انى أقتل وأحسب أنى قدمت فلما وجد الفرصة دعا أهل المدينة الى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو أمرنى بهذا واذا قتل بالشيخ ألوف من الاعداء فما مات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم ثم تبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وفعل مثل فعله وبعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر لعبد المؤمن الى بونة فملكوها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهدية وسوسة وأرسل عمر بن أبى

الحسين الى زويلة وهى مدينــة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فأعانوا أهلها على من بها من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين والد عمر صاحب سفاقس وعرفه ماعمل ابنه وأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبــة فعله فقال له من قدم على هذا لايرجع بكتاب فأرسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ماارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يوم ذلك فلما كان الغد خرج أهــل البلد جميعهم ومعهــم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وأرسل عمر الى الرسول يقول له هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء فاصنعوا به ماأردتم فعاد الرسول الى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبى الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله حتى مات واما أهــل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب وبأهــل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليهاوكانت الاقوات بالمهديةقليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقى أهل زويلة واما أهل سفاقس فانهم ركبوا في البحر فنجوا وبقى أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا من قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شئ من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى ان أخذها عبد المؤمن وسيأتى ان شاء الله ذكر ذلك هذا حاصل ما كان من الفرنج في افريقية وأما ما كان منهم في هذه السنين في الديار الشامية فسيأتى ذكره عند ذكر الحرب المسمى بحرب الصليب لكن ينبغى قبل ذلك ان نذكر بقيــة ما كان بالإندلس من الفتوحات والغزوات وما يتبع ذلك ثم بعد اتمام ذلك نذكر حرب الصليب

اتمام الكلام على غزوات الاندلس ومايتبع ذلك

قد تقدم ذكر بعض غزوات الاندلس باختصار ولو بسط الكلام فيها لطال وبقى كثير من غزواتها وأخبارها لم يذكر فينبغى اتمام الكلام على ذلك تتميما للفائدة وأكثر التواريخ لم يذكروا فيها كثيرا من أخبار الاندلس فصار المشهور المستفيض عند أكثر الناس أخبار غير الأندلس مع ان المسلمين كان لهم بالاندلس ملك ضخم وكانت لهم وقائع ومجامع وأخبار

عجيبـة فينبغي ذكر كثير من ذلك وان كان في بعض تلك الاخبار زيادة على الغزوات والفتوحات التي لاجلها كان جمع هذا الكتاب لان ذكر ذلك يحصل به زيادة فائدة ولا يخل بمقصود الكتاب وقد تقدم ان الاندلس فتح في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بضم النون مصغرا والصاد المهملة وهو مولى عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز وعبد العزيز هو أخو عبد الملك بن مروان والاندلس مشتمل على فحول العلماء المبرزين في كثير من الفنون ومشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك قال في نفح الطيب نقلا عن لسان الدين بن الخطيب خص الله بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الاسنان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك وأحكام التمدن بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها أعادها الله للاسلام ببركة النبي عليه الصلاة والسلام وقال أيضا ان الاندلس بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجنان منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال تتصل فواكهه أكثر الازمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة وفي نفح الطيب ان من الاندلس مدينة شنترة من خواصها ان القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته وان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر قال ابن اليسع قال لى أبو عبد الله الباكورى وكان ثقة أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى اليه أربعا من التفاح مايقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة أشبار وفي الاندلس من أنواع المعادن مالا يحصى وفيه المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة وطول الاندلس ثلاثون يوما وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهرا كبارا وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط وفيها من القرى والحصون مالا يحصى كثرة حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية وقيل ان طول الاندلس أربعون يوما وعرضه ثمانية عشر يوما واما طيب ثمار الاندلس فلا يعادله شيء في الدنيا قال بعض العلماء ان النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا يعنى بذلك الاندلس وقال بعضهم ان المرية مدينة من مدائن الاندلس كان بها لنسج طرز الحرير ثلاثمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون

كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية كذلك وكان بها من الحمامات نحو الالف واتسع ملك المسلمين فيها وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وعدد دور الرعايا الواجب على أهلها المبيت داخل السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار غير دور الوزراء وأكابر الناس وعدة دور أهل الدولة ستة آلاف دار وثلاثمائة دار ومساجدها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثون مسجدا وحماماتها سبعمائة وكانت قرطبة قبة الاسلام وبها استقر سرير الخلافة المروانية وهي معدن العلماء وهي من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير في الدنيا طوله ثلاثمائة وثلاثون ذراعا وعرضه مائتان وخمسون ذراعا وسواريه ألف وأربعمائة وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللازورد وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام اليه وكانوا لايكون فيهم مقلص الا من حفظ الموطأ وقيل الا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلدهم ويجعلون في مساجدهم نوابا يصلون بالناس الجمعة نيابة عنهم وتقدم ان ملوك بنى أمية الذين كانوا بالاندلس أول من تملك منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل كان ابتداء ملكه بالاندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة هرب من الشام مستخفيا حين كان ابتداء دولة بنى العباس وكانوا يقتلون بنى أمية فلما كان بالاندلس تغلب على عمال بنى العباس الذين كانوا بالاندلس وانتزع الملك منهم فكان له ملك ضخم وكان في عصر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وكان المنصور يسميه صقر قريش قال المنصور يوما لاصحابه أخبرونى عن صقر قريش من هو قالوا أمير المؤمنين يعنون المنصور الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء وأباد الاعداء قال ماصنعتم شيئا قالوا فمعاوية قال ولا هذا قالوا فعبد الملك بن مروان قال ولا هذا قالوا فمن ياأمير المؤمنين قال عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا مفردا فمصر الامصار وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك كان ببيعة له عقدها وأمير المؤمنين يعنى نفسه بطلب غيره واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه اهـ وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل ثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة وعمره تسع وخمسون أو ثمان وخمسون سنة ومن عقبه

الخليفة عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد عبد الرحمن الاوسط بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولي الملك سنة ثلاثمائة وتوفي سنة ثلاثمائة وخمسين واتسع الملك بالاندلس في مدته ومن اتساعه انه بنى تجاه قرطبة مدينة سماها الزهراء لسكناه هي من عجائب الدنيا دالة على عظم قدر بانيها وأنفق فيها من الاموال خمسة وسبعين مائة ألف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوت وعدد النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار والخدم ستة آلاف وثلاثمائة وأربعة عشر وعدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون وقيل ستة آلاف وثمانمائة وثمانون والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة وينقع لها من الحمص كل يوم ستة أقفز واما أوصاف مدينة الزهراء فانها طويلة ثم لما كثرت الفتن في الاندلس هدمت تلك المدينة ومن أغرب مايحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوما فقعد في البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك اذا أطل زرزور فصعد على اناء من ذهب في المجلس وأنشد ذلك الزرزور

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا ✽ انما تفصد عرقا فيه محيى العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسر به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكروا له ان أم ولده الحكم صنعت ذلك وأعدته لذلك الامر فوهب لها ماينيف على ثلاثين ألف دينار وتقدم ان الناصر مكث في الملك خمسين سنة وكان اذا حصل له يوم كان مسرورا فيه بدون نكد وتكدير يكتبه فوجد ذلك مكتوبا بخطه فاذا هي أربعة عشر يوما في تلك الخمسين سنة وكان جده هشام بن عبد الرحمن الداخل يقتدي في سيرته بعمر بن عبد العزيز وكان يبعث بقوم من ثقاته يسألون الناس عن سيرة عماله ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه جور من أحد من عماله أوقع به وأسقطه وانتصف منه ولم يستعمله ولما وصفه زيد بن عبد الرحمن للامام مالك رضي الله عنه قال نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا وفي رواية نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم أو كلاما هذا معناه فبلغ هشاما ماقاله مالك مع ما بلغه من جلالة مالك وديانته فحمل هشام الناس على مذهب مالك وكانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الاوزاعي فهذا هو السبب في انتشار مذهب الامام مالك بالمغرب وغزا عبد الرحمن مدينة اربونة الشهيرة وفتحها واشترط على معاهديه من أهل جليقية أن ينقلوا عددا من أحمال التراب من سور اربونة المفتتحة يحملونه [illegible]

القصر بقرطبة فبنى منه المسجد الذى قدام امام باب الجنان ومناقب هشام هذا كثيرة قال في العقد الفريد في وصفه هو أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا الكامل المروءة الحاكم بالكتاب والسنة الذى أخذ الزكاة على حلها ووضعها في حقها لم يعرف منه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه وكان يصر الصرر بالاموال في ليالى المطر والظلمة ويبعث بها الى المساجد فيعطى من وجد فيها يريد بذلك عمارة المساجد بالعلم والعبادة وأوصى رجل في زمنه بمال في فك سبية من أرض العدو فطلب فلم توجد اسيرة احتراسا منه للثغر واستنقاذا لاهل السبى وكان في أيامه المنجم الضبى وكان مشهورا بكمال المعرفة في علم النجوم فلما ولى هشام الملك سأله عن مدة ملكه فأخبره انه نحو ثمانية سنين فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه وقال ياضبي ماأخوفنى أن يكون النذير كلمنى بلسانك والله ان هذه المدة لو كانت في سجدة لله تعالى لكانت قليلا في طاعته ثم ازداد زهدا في الدنيا وفعلا للخير توفي سنة ثمانين ومائة وولى بعده ابنه الحكم بن هشام وكان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس في توطيد الدولة وشدة الملك وقمع الاعداء وغضب الحكم يوما على خادم فأمر بقطع يده وحضر عنده زياد بن عبد الرحمن فقال له زياد أصلح الله الاميران مالكا حدثنى في خبر رفعه ان من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأه الله تعالى أمنا وايمانا يوم القيامة فأمر أن يمسك عن الخادم وأن يعفى عنه ثم قال له آلله ان مالكا حدثك بهذا فقال زياد آلله ان مالكا حدثنى بهذا * ومما يحكى عن الحكم بن هشام ان عمه سعيدا الخير بن عبد الرحمن الداخل كان له خصومة مع ابن بشير وكان مع سعيد الخير وثيقة فيها شهادات شهود من جملتهم الحكم بن هشام كان شهد بها قبل أن يصير خليفة فجاء عمه سعيد الخير يطلب منه الشهادة وهو خليفة فخشى أن القاضى يرد شهادته فأرسل قبل أن يؤدى الشهادة ورقة بخطه للقاضى يخبره بأنه يشهد على ذلك القاضى أن يقبل فأبى شهادته فلم يغضب من رد شهادته بل قال ان القاضى رجل صالح ولا تأخذه في الله لومة لائم ومن أخبار عبدالرحمن بن الحكم بن هشام انه أغضب جاريته طروب فهجرته وكان يحبها فأرسل اليها يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر فأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا في المراجعة على أن لها جميع ماسد به الباب من البدر فاجابت وفتحت الباب فانهالت البدر في بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور مع محضر الخصى فلا يرد شيأ تبرمه وخلف عبد الرحمن المذكور من الذكور مائة وخمسين ومن الاناث

خمسين وكانوا يسمونه عبد الرحمن الاوسط ومن أخبار عبد الرحمن الناصر انه لما بنى الزهراء صنع له قبة لجلوسه وزخرفها وزينها بالذهب وصنع طعاما دعا اليه العلماء وجلس في تلك القبة فلما حضر العلماء ومعهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي فلما رأى تلك القبة جعلت دموعه تحادر على لحيته ثم قال والله ياأمير المؤمنين ماظننت ان الشيطان لعنه الله تعالى بلغ منك هذا المبلغ ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين فانفعل عبد الرحمن الناصر لقوله وقال له انظر ماتقول وكيف أنزلتني منزلتهم قال نعم أليس قال الله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الآية فوجم الخليفة وطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى ثم أقبل على منذر فقال له جزاك الله ياقاضي عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر في الناس أمثالك وأمر بنقض سقف القبة الذي طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس فيها مايذكر عليه فيه وكان القاضي منذر بن سعيد ذا علم متين وذكاء رصين متفننا في العلوم عاملا بعلمه ورعا زاهدا وكان خطيبا بليغا آية في الوعظ لايسمع أحد وعظه الا خشع وبكى وكان حاضر الجواب قوى الحجة ذا منظر جميل وخلق حميد وتواضع لاهل الطلب وانحطاط اليهم واقبال عليهم قد أفردت ترجمته بالتأليف ولد رضى الله عنه سنة خمس وستين ومائتين وتوفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وعمره تسعون سنة ولاه الناصر قضاء الجماعة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر الى أن توفي الناصر فأبقاه في قضاء الجماعة الحكم بن الناصر واستمر منذر المذكور في القضاء الى أن توفاه الله سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فكانت مدة ولايته القضاء الجماعة ست عشرة سنة وقضاء الجماعة عند أهل المغرب هو المعبر عنه عند أهل المشرق بقاضي القضاة وله رحمه الله تآليف منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من كتب الفقه وغيرها وقد تقدم ذكر غزو عبد الرحمن الناصر الجلالقه سنة ثمان وثلاثمائة وانه وطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة ثلاثمائة وثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل في قصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والاوطار فلم يقدر العدو أن يظفر منه بشئ ورجع سالما وقسم الغنائم ثم بعد مدة ثار عليه بعض المسلمين واستعان بالنصارى فظفر بذلك الثائر وقتله وقتل من كان معه من النصارى أهل البة وسار اليهم وفتح ثلاثين من حصونهم وكان البشكنس

ملكوا عليهم امرأة يقال لها طوطرة وانعقد بينه وبينهم صلح ثم نقضوا ذلك الصلح فغزا طوطرة ملكة البشكنس في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة ثم غزا الجلالقة سنة ٣٢٧ سبع وعشرين وثلاثمائة وسار اليهم بنفسه فنزل على دار مملكة الجلالقة وهي مدينة سمورة عليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السابقة وبين الاسوار وصلات ومياه واسعة فافتتح منها سورين وكان جيشه مائة ألف أو يزيدون والتقى مع ردمير ملك الجلالقة وكان معه جنود كثيرة من الفرنج وحصل القتال الشديد بين الفريقين فكان النصر في أول الامر للمسلمين ثم رجع النصارى عليهم فحصل الانهزام للمسلمين وكتب الله الشهادة لكثير منهم وكان الذين قتلوا من المسلمين نحو خمسين ألفا ثم والى عليهم الغزوات وصار يبعث الجيوش مع قواده وقتل منهم أضعاف ماقتلوا من المسلمين قبل ذلك وقد ذكر العلامة أحمد بن عبد ربه الاندلسي في كتابه المسمى بالعقد الفريد ثنتين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة منها في منظومة من الرجز وكان معاصرا له قال وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج مالم يطؤوه قبل ذلك في أيام سلفه حتى أذعن له أمم النصرانية وأوفدوا اليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته ووصل الى سدنه الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما يليها من الثغور فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما ملكه فملك سبتة وطنجة وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره وأطاعه بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر حتى صار ملكه في غاية الضخامة ورفعة الشان وتقدم ان مدة ملكه كانت خمسين سنة وانه توفي سنة خمسين وثلاثمائة وبويع بعده ابنه الحكم المستنصر بالله فقام باعباء الملك أتم قيام ولما توفي والده الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزاهم الحكم بنفسه واقتحم بلاد فردلندين فنازل شنت اشتبين وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا الى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزا غالبا مولاه وسار الى مدينة سالم ليتوصل منها الى دخول دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأثخن فيهم وأوطأ العساكر بلاد فردلندين ودوخها وكان البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم صاحب سرقسطة في العساكر وجاء ملك الجلالقة لنصر البشكنس فهزمهم فامتنعوا بخوربة وعاثوا في نواحيها ثم أغزا الحكم بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاث العساكر في نواحيها واغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القوس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم

وقواد الثغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلهرية من بلاد البشكنس على يد غالب مولاه ثم عمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح بعض عمالة قطونية وغنم فيها من الاموال والسلاح والاقوات والآلات والغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبي ما لا يحصى كان كل ذلك في أقرب الزمن وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة جهز جيشا مع مولاه غالب الى بلد البة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف فدوخوا بلادهم ورجعوا غانمين وفي هذه السنة ظهرت مراكب المجوس في البحر الكبير فأفسدوا ببسائط اشبونة من الاندلس وناشبهم الناس القتال وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ثم جاءت الاخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة فرجعوا الى مراكبهم ثم كانت وفادة أردون ابن ادفونش ملك الجلالقة يتوقع مظاهرة الحكم مستجيرا به من ابن عم له خرج عليه فأكرمه الحكم ووعده النصر من عدوه وخلع عليه ثم بعث ابن عمه أيضا يطلب البيعة والدخول في الطاعة فتقبل بيعتهم على شروط ثم بعث ملك برشلونة وملك طركونة وغيرهما من ملوك الفرنج كلهم يطلبون المهادنة والدخول في طاعة الحكم وبعثوا بهدايا جزيلة فتقبلهم الحكم وعقد لهم الصلح والبيعة وشرط عليهم أن يهدموا الحصون التي تضر بثغور المسلمين وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسية ملك البشكنس سائلين الصلح والدخول في الطاعة والبيعة فعقد لهم وغبطوا ورجعوا ثم وصلت أم لذريق وهو القومس الاكبر فاحتفل لقدومها فعقدت السلم لابنها فرجعت وصنع لقدوم هؤلاء [illegible] عليه الاحتفالات [illegible] فيها [illegible] عن الاشارة طول الكلام بذكرها وكلها مذكورة في التواريخ وكانوا عند دخولهم على الحكم يكشفون رؤسهم ويخلعون برانسهم اعظاما له ويتباعدون له ويقول كل واحد منهم أنا عبد أمير المؤمنين واذا قام كل واحد منهم للانصراف يكون متقهقرا لا يولي الخليفة ظهره تعظيما له ويعلنون له بالدعاء وكان الحكم [illegible] العلماء و[illegible] سوقا نافقا واجتمع عنده من خزائن الكتب ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله [illegible] عدد الفهرست التي فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا اسماء الدواوين و[illegible] [illegible] وقلما يوجد كتاب [illegible] أبو الفرج الاصفهاني [illegible] الحكم [illegible] دينار [illegible] الحكم [illegible]

وكان صغيرا عمره تسع سنين وكان جعله ولى عهده واستوزر له محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور المعافرى ومعافر بطن من حمير وكان يخدم أم هشام المؤيد ثم ترقى الى أن ولاه الحكم قضاء بعض المواضع فظهرت نجابته ثم ترقى الى أن ولاه الزكاة والمواريث ثم استوزره لابنه فحجب الخليفة هشاما المؤيد وباشر الوزير المذكور تدبير الملك بنفسه وله صفات حميدة مذكورة في التواريخ ومفردة بالتأليف وجاشت الروم في أول ولاية هشام فجهز عليهم الوزير المذكور جيوشا له لدفاعهم فنصره الله عليهم فتمكن حبه من قلوب الناس خاصتهم وعامتهم واستجلب الناس بكرمه وحسن أخلاقه فانتشر صيته وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وأوسع الجند في العطاء وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين وكان عالما متفننا وسيرة هذا الوزير وهو منصور بن أبي عامر طويلة مذكورة في التواريخ وأباد المتغلبين على الخلافة المارقين عن الطاعة وكرر الغزو والجهاد واستبد في جميع الامور بحيث لم يبق ذكر لاحد من رجال الدولة ولا من أولاد الخلفاء بل الذكر والتصرف كله له وحده والخليفة محجور عليه واستمر على ذلك سبعا وعشرين سنة وكان يغزو كل سنة غزوتين غزوة في الصيف وغزوة في الشتاء قال في نفح الطيب ان المنصور بن أبي عامر تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس وغادرهم صرعى في البقاع وتركهم أذل من وتد بقاع

﴿ ذكر غزوة من غزواته ﴾

سبب هذه الغزوة أن أحد رسله سار في بعض مسيراته الى غرسية ملك البشكنس ابن شانجة فوالى في اكرامه وتناهى في بره واحترامه وطالت اقامته عنده فلا متنزه الامر عليه متفرجا ولا منزل الا سار اليه معرجا فحل مرة أكبر الكنائس هناك فبينما هو يجول في ساحتها ويجيل العين في ساحتها اذ عرضت له امرأة قديمة الاثر قويمة على طول الكسر فكلمته وعرفته بنفسها وقالت له أيرضى المنصور ان يتنعم بلبوس العافية ولى سنين مأسورة مختبية وناشدته الله ان يبلغ المنصور خبرها فلما رجع الى المنصور عرفه بما يجب تعريفه وهو مصغ اليه حتى تم كلامه فلما فرغ قال له المنصور هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته فتذكر أمر المرأة المأسورة فأعلمه بقصتها فلامه على ان لم يبدأ به كلامه ثم أخذ للتجهز للجهاد من فوره فلما تم جهازه وتكاملت جنوده سار حتى وافى ابن شانجة فأخذت هيبته بسمعه وبصره فبادر بالكتاب اليه ليتعرف ما الجلية ويحلف أنه ماجنى ذنبا ولا جفا عن مضجع الطاعة فعنف المنصور رسل ابن شانجة وقال لهم قد كان

عاقدنى على أنه لايبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ولو بعثه الى في حواصل الطيور وقد بلغنى بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة والله لاأنتهي عن أرضه حتى أكتسحها فرجعوا الى ابن شانجة وأخبروه فارسل المرأة ومعها امرأتان أخريان وأقسم أنه ماأبصرهن ولا سمع بهن قبل ذلك واعلمه ان تلك الكنيسة قد بالغ في هدمها تحقيقا لقوله وتضرع اليه في الاخذ فيه بطوله فاستحى منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة ومن معها الى نفسه والحق توحشهن بانسه وأوصلها الى أهلها ورجع من غزوته وكان الخليفة هشام لايراه خاص وعام ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه انعام وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لايعرفونه وأمرهم لايذكرونه ولا يعهد فيه الا الاسم السلطاني في السكة التى يتعامل الناس بها والدعوة على المنابر وربما أركبه في بعض السنين وجعل عليه برنسا ويركب معه بعض جواريه ويجعل عليهن مثل ماعليه فلا يعرف من بينهن ويأمر من ينحي الناس عن طريقه حتى ينتهي الى موضع تنزهه ثم يعود وأخذ في اغتيال من يخشى منه خوفا من أن يثوروا به وكانت غزواته نحو الخمسين يطول الكلام بذكرها وكلها كانت من مفاخر الاسلام حتى اشتدت هيبته في قلوب الكفرة اللئام * ومما يحكى مما كان في بعض غزواته ان بعض الأجناد نسى رايته مركوزة على جبل بقرب احدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لايعرف الروم ماوراءها بعد رحيل العسكر وهذا مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث لانهم لما أشربت قلوبهم الخوف من المنصور وعلم كل من ملوكهم أنه لاطاقة له بحربه لجئوا الى الفرار وتحصنوا بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الاشراف من بعد والاطلاع ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مر بين جبلين عظيمين في طريق ضيق بوسط بلاد الفرنج فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يمينا وشمالا لم يجسر أحد من الافرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم عاد من ذلك الطريق فوجد الافرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المحل الضيق الذى بين الجبلين وكان الوقت شتاء فلمارأى مافعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم خيمه ونزل به فيمن معه من العساكر وأمرهم ببناء دور ومنازل وان يجمعوا آلات الحرث ونحوها ليعلم الفرنج انه أراد الاقامة بأرضهم وبث سراياه فسبى وغنم فلما طال البلاء على العدو أرسلوا اليه في طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه ان يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم ان أصحابي قد أبوا أن يخرجوا وقالوا انا لانكاد أن نصل الى بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الاخرى فنقعد هنا

الى وقت الغزوة الاخرى فاذا غزونا عدنا فما زال الفرنج يسألونه أن يرتحل الى ان قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم مامعهم من الغنائم والسبي وان يمدوه بالميره حتى يصل الى بلاده وان ينحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف عنهم ولعمرى ان هذا العز ماوراءه مطمح ونصر لايكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصا ازالتهم جيف قتلاهم عن الطريق وقد تقدم ذكر هذه الغزوة مختصرا فاعادتها لا تخلو من فائدة

﴿ خبر عجيب من أخبار المنصور ﴾

ومن أخبار المنصور بن أبي عامر انه قدم عليه رسول ملك الروم الذى هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان وكان قصد ملك الروم من ارساله اياه أن يطلع على أحوال المسلمين وقوتهم فلما علم المنصور به قبل وصوله أمر ان يغرس نيلوفر كثير عند بركة عظيمة في بستان من بساتينه ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة من الفضة فسبكت قطعا صغارا على قدر ماتسع النيلوفر ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى عند البركة فلما جاء رسول ملك الروم اليه حضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامى في موضعه المسمى بالزاهرة المشرف على موضع البركة فلما قرب طلوع الفجر جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة وبيد خمسمائة منهم أطباق من الذهب وبيد خمسمائة أطباق من الفضة فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميل هيئتهم ولم يدر ماالمراد فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة فبادروا الأخذ الذهب والفضة من النيلوفر وصاروا يجتنونه كما يجتنى الثمر من الشجر وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ذلك وجاؤا به فوضعوه بين يدى المنصور حتى صار كوما بين يديه فتعجب رسول ملك الروم من ذلك وأعظمه وظن ان ذلك ثمر ذلك الشجر فطلب المهادنة من المسلمين وذهب مسرعا الى مرسله وقال له لاتعاد هؤلاء القوم فانى رأيت الارض تخدمهم بكنوزها وهذه القصة من الغرائب وانها لحيلة عجيبة في اظهار عز الاسلام وأهله وكان المنصور بن أبي عامر آية من آيات الله سبحانه وتعالى في السعد ونصرة الاسلام

﴿ غزوة أخرى من غزواته ﴾

سبب هذه الغزوة انه لقيته امرأة حين رجع من بعض غزواته فقالت له يامنصور استمع ندائى فانت في طيب عيشك وأنا في بكائى فسألها عن مصيبتها فذكرت ان لها ابنا أسيرا في بلاد سمتها له وأخبرته انها لايهنأ عيشها لفقده فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وأمر بالتجهز الى الغزو وسار بجيوشه حتى بلغ تلك البلاد التى سمتها له وفيها ابنها فجاسوا أقطار

تلك الديار وتخالها قتلا وأسرا ونهبا وتخريبا حتى دوخها حتى خلص ابنها وجميع من كان هنالك من الاسرى ورجع مظفرا منصورا فهكذا تكون الهمة السلطانية والنجدة الايمانية ومن مناقبه التى لم تكن لغيره من الملوك أن أكثر جنده من السبي الذى كان يأخذه من العدو ومن محاسن أخباره انه خط بيده مصحفا كان يحمله معه في أسفاره يقرأ فيه ومن قوة رجائه الداعتي بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد اليهم أن يجعلوه في حنوطه فكان كذلك وكان يحمل تلك الصرة حيث سار ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم يهزم في حرب قط وما انصرف من موطنه الا قاهرا غالبا على كثرة مازاول من الحروب قيل له مرة ان فلانا متشوم فلا تستخدمه فقال أف لسعد لا يغطى على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى به جرت العادة شيء

ذكر غزوة أخرى من غزواته

من غزواته المشهورة غزوة مدينة شنت ياقب وهى قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل به من الارض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى فيها يحلفون واليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون ان القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشرة الحواريين وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه للزومه اياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقف بيت المقدس ثم خرج يستقرى الارض داعيا لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ثم عاد الى الشام فمات بها وعمره مائة وعشرون سنة فاحتمل أصحابه جثته فدفنوه بهذه الكنيسة ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها والوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد مشقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازيا بصائفته سنة سبع وثمانين وثلاثمائة لست بقين من جمادى الآخرة ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسيه وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين في الطاعة فصاروا في عسكر المسلمين وكان المنصور أمر بانشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجاله وحمل فيه الاقوات والعدة والسلاح استظهارا على نفوذ العزيمة الى ان خرج بالاسطول بموضع [illegible] على نهر دوين فدخل في النهر الى المكان الذى عينه له المنصور لعبور [illegible] فعقد هنالك جسرا بقرب الحصن وجعله يتصل بالاسطول فوجهوا ما كان فيه من الميرة [illegible]

منه الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الاقطار وقطع عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الاخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لامسالك فيه ولا طريق ولم يهتد الادلاء الى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه حتى قطعه العسكر وعبروا بعده وادي بنية وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين وانتهت مغيرتهم الى ديرقشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط وفتحوا حصن شنت بلاية وغنموا وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ اليها وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ثم جاز المسلمون بعد هذا خليجا في معبرين أرشد الادلاء عليه ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم اليه من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعا صفصفا ثم كان النزول بعده على شنت ياقب وذلك لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الاذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالامس ونشفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها قبله مسلم فجعل في طريقه وهو راجع القصد على عمل برمند بن أردون تعيش جيوشه في عمله تخربه وتفسده حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين كانوا معه في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازا حتى خرج على حصن بليقية فأجاز هنالك القوامس الذين كانوا معه وأكرمهم على أقدارهم وكساهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه ملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي واحدى وعشرين كساء من صنوف البحر وكساءين عنبريين واحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مرشيا وسبعة أنماط ديباج وثوبي ديباج رومي وفروة فنك ووافى قرطبة بجميع العساكر سالما غانما وعظمت المنة

على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب الا شيخا من الرهبان جالسا على القبر فسأله عن مقامه فقال أونس يعقوب فأمر بالكف عنه

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة ان جماعة من صنهاجة وهم من البربر قدموا على المنصور بن أبى عامر من المغرب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة فنزلوا عليه بقرطبة فأكرمهم وأجرى عليهم الوظائف وسألهم عن سبب انتقالهم من افريقية الى الاندلس فقالوا انما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله تعالى فاستحسن ذلك منهم ووعدهم ووصلهم فأقاموا أياما ثم دخلوا عليه وسألوه اتمام ماوعدهم به من الغزو فقال انظروا ماأردتم من الجند لأجل ان نعطيكم فقالوا مايدخل معنا بلاد العدو غيرنا الا الذين معنا من بنى عمنا ومن بقية صنهاجة وموالينا فأعطاهم الخيل والسلاح والاموال وبعث معهم دليلا وكان الطريق ضيقا فأتوا أرض جليقية فدخلوها ليلا وكمنوا في بستان بالقرب من المدينة وقتلوا كل من به وقطعوا أشجاره فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد فضربوا عليهم وأخذوا جميع الخارجين وقتلوهم جميعهم ورجعوا فتسامع العدو فركبوا في أثرهم فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا في ساقتهم وكبروا فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدو كثير فانهزموا وتبعهم صنهاجة فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا الى قرطبة فعظم ذلك عند ابن أبى عامر ورأى من شجاعتهم مالم ير من جند الاندلس فأحسن اليهم وجعلهم بطانته فلما رأى أهل الاندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد فقالوا للمنصور بن أبى عامر لقد نشطنا هؤلاء للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الاقطار وخرج الى الجهاد بنفسه وكان رأى في المنام تلك الليلة كان رجلا أعطاه الاسبراج وهو اسم لنبت فأخذه من يده وأكل منه فعبره على ابن أبى جمعة فقال له اخرج الى بلد اليون فانك ستفتحها فقال من أين أخذت هذا فقال لان الاسبراج يقال له في المشرق الهليون كبردون فملك الرؤيا فال انك هاليون فخرج بتلك الجيوش ونازلها وهى من أعظم مدائنهم واستمد أهلها الفرنج فأمدوهم بجنود كثيرة واقتتلوا ليلا ونهارا فكثر القتل في الفرنج وصبرت صنهاجة صبرا عظيما ثم خرج قومس كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله فجال بين الصفوف وطلب البراز فبرز اليه جلالة بن زيرى الصنهاجى فحمل كل منهم على صاحبه فطعنه الفرنجى فمال عن الطعنة وضرب الفرنجى بالسيف على عاتقه فسقط الفرنجى الى الارض وحمل المسلمون على النصارى فانهزموا الى

بلادهم وقتل منهم مالا يحصي وملك المدينة وغنم ابن أبي عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها واجتمع من السبي ثلاثون ألفا وأمر بالقتلى فنضد بعضهم على بعض وأمر مؤذنا فأذن فوق القتلى المغرب وخرب مدينة قامونة ورجع سالما هو وعساكره قال في نفح الطيب وانتهت هيبة المنصور بن أبي عامر وضبطه للجند الى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلا في الاطراق حتى أن الخيل لتتمثل في الاطراق مثل فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سله بعض الجند أقصى الميدان لهزل أوجد بحيث ظن أن لحظ المنصور لايناله فقال علي بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ماحملك على أن شهرت سيفك في مكان لايشهر فيه الا عن اذن فقال اني أشرت به الى صاحبي مغمدا فزلق من غمده فقال ان مثل هذا لايسوغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودي عليه بذنبه وذكر أيضا أن المنصور كان به داء في رجله واحتاج فيه الى الكي فأمر الذي يكويه أن يكويه وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويتصرف في أموره ورجله تكوى والناس لايشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم وهو غير مكترث بذلك فتعجب الناس من ذلك وذكر في نفح الطيب كثيرا من أخباره في الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ثم قال وأخبار المنصور تحتمل مجلدات فلنمسك العنان توفي المنصور بن أبي عامر في غزوة للافرنج في شهر صفر سنة ثلاثمائة واثنتين وتسعين بمدينة سالم لسبع وعشرين سنة من ملكه وقام بالأمر بعده ابناه عبد الملك وعبد الرحمن واحدا بعد واحد فقام بالامر أولا ابنه عبد الملك فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعيادا دامت مدة سبع سنين ثم قام بالامر بعده الابن الآخر عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم ناب له رأي في الاستيثار بالمملكة فطلب ان هشاما يجعله ولي عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك فقرئ في ذلك المجمع وكتب القضاة والوزراء وسائر الناس شهاداتهم بخطوطهم ثم سعى كثير من الامويين وغيرهم في نقضه وأثاروا لذلك فتنة الى ان قتلوا عبد الرحمن سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ثم خلعوا الخليفة هشاما وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر ثم أعيد هشام ثم فقد سنة ثلاث وأربعمائة وقيل قتل وصار من ذلك فتن كثيرة يطول الكلام بذكرها آل الامر فيها الى زوال ملكهم وانتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر ثم صار في كل مملكة خليفة يدعى أمير المؤمنين وتبدد شمل الجماعة

بالاندلس ثم صار الملك في طوائف متغلبين في كل ناحية ملك مستقل متغلب ولا حاجة بنا الى ذكر أسمائهم وعند ذلك استفحل أمر النصارى وصاروا يتغلبون على ممالك الاندلس ويملكونها قطرا بعد قطر وناحية بعد ناحية وصار ملوك الطوائف لا يسأل بعضهم عن بعض ولا يحامي ولا يدافع الا عن نفسه وربما تقاتلوا مع بعضهم وتغلب بعضهم على البعض

ذكر أول مدينة تملكها الطاغية

أول مدينة تملكها الطاغية بلنسية سنة ست وخمسين وأربعمائة وتعرف هذه الوقعة بوقعة بطرنة اسم موضع هناك وذلك أن الافرنج خذلهم الله تعالى انتدبت منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية في السنة المذكورة وأهلها جاهلون بالحرب معرضون عن أمر الطعن والضرب مقبلون على لذات الاكل والشرب ولما نازلها الفرنج أظهروا لاهلها الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها وخدعوهم بذلك فانخدعوا وأطمعوهم فطمعوا وكان المتغلب على تملكها من ملوك الطوائف عبد العزيز بن أبي عامر المعافري ثم ان العدو جعل في مواضع خارج المدينة كمينا وجماعة من الفرسان فظن أهل البلد أن العدو تفرق وارتحل عنهم فخرجوا في زينتهم ومعهم أميرهم فنصب العدو لهم استدراجا ومكرا حتى خرج الناس كأنهم في عيد فخرج عليهم الكمين وتعطفوا عليهم بالقتل والاسر حتى استأصلوهم ولم ينج منهم الا من بقي أجله وخلص الامير بنفسه واستولى العدو على بلنسية وكانت بلنسية في شرق الاندلس وكان في شرق الاندلس من الممالك الفخيمة بلنسية ومرسية وتطيلة وسرقسطة ولاردة ودانية والسهلة والثغر الاعلى ولكل واحدة من هذه عمل واسع وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي ملكا مستبدا بمدينة تطيلة ثم ملك سرقسطة والثغر الاعلى وبلنسية ولاردة ودانية والسهلة فكان استيلاء العدو أولا على بلنسية في السنة المذكورة وسيأتي ذكر رجوعها للمسلمين ثم استرجاع النصارى لها مرة أخرى

ذكر [illegible] العدو بربشتر وسرقسطة [illegible] بوطانية

من الممالك التي في شرق الاندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الاعلى ومدينة تطيلة ومرسية وبلنسية وغير ذلك [illegible] بن هود الجذامي من سنة احدى [illegible] فانتزعها منهم [illegible] حاس [illegible] أهلها [illegible]

واتصل الخبر بالعدو نشدد القتال عليها والحصر لها وكان لها مدينتان فدخل المدينة الاولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجى ثم اتفق أن القناة التى كان الماء يجرى فيها من أنهر الى المدينة تحت الارض في سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب باسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الامان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الامان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع الا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدو من الاموال والامتعة مالا يحصى حتى ان الذى خص بعض مقدمى العدو ألف وخمسمائة جارية ابكارا ومن وقار الحلى والكسوة مايحمل خمسمائة جمل وقدر القتلى والاسرى مائة ألف نفس ومن نوادر ماجرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه ان المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أولولدها فيقول لها اعطنى ما معك فتعطيه ماعندها من كسوة وحلى وغيرها وكان السبب في قتالهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ماهاله فشرع في قتالهم فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقى وأمر ان يخرج من بقى بالبلد فازدحموا على الباب الى ان مات منهم خلق كثير ونزلوا من الاسوار بالحبال خشية من الازدحام في الابواب ومبادرة الى شرب الماء وقد كان تحيز في المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ماينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الابواب والاسوار وهلك في الزحمة نودى في تلك البقية أن يبادر كل منهم الى داره بأهله وله الامان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الافرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها نعوذ بالله تعالى وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا برؤس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبيناهم في الطريق اذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم الا القليل ممن بقى أجله وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها وجرى من هذه الامور والاحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم ان يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن وبلغ الكفرة منهم مالايمكن

ان يوقف على الحقيقة ولما عزم ملكهم على القفول الى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الابكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الوفا حملهم معه ليهديهم الى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين ومماكان في هذه الوقعة الشنعاء ان بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن تخلص في سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت الى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيء من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحب بى وسألنى عن قصدى فعرفته وجهه وأشرت الى وفور ماأبذل له في بعض اللواتى كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتى فتبسم وقال بلسانه ماأسرع ماطمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سبى وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول الى الحصن فلا رأى لى فيه وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت فاعطنى بعض من هنا فانى أعطيك رغبتك قال وما عندك فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كانك تشهينى ماليس عندى ياباجة ينادى بعض أولئك الوصائف يريد يابهجة فغيره بعجمته قومى فأعرضى عليه مافي ذلك الصندوق فقامت اليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى فكشف وجعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه ثم قال لها أرنى الى من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظرى وبهت واسترذلت ماعندى ثم قال لى لقد كثرهنا عندى كل شيء حتى ماالتذ به ثم حلف لى أنه لو لم يكن عنده شيء من ذلك ثم بذل لى أحد مثل ذلك ماسخت بهذه الجارية التى تطلبها نفسى فهى ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه واصطفيتها لنفسى لمزيد جمالها لأجل أن تلد لى وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا اذا ملكونا حين كانت دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار الى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يافلانة خذى عودك فخذت العود وقعدت تسويه وانى أتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارع العلج مسحه بيده واندفعت تغنى بشعر مافهمته أنا فضلا عن العلج وأخذ في الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا واطلعت على كثرة ماب يديهم من السبى والمغنم فطال تعجبى فان في نفح الطيب فيهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكر ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم فمن هن

الاندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والالفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لامحالة وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغترون بالنعيم الزائل وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم خلال ديارهم ثم سرى البثق اليهم جميعا فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

ذكر فتح المسلمين بربشتر وسرقسطة

ولما كانت السنة التي بعد أخذها وهي سنة سبع وخمسين وأربعمائة سار أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها والمتهم على أهلها لانحرافهم الى أخيه مستمدا مع امداد المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وسعى لاصلاح سوء المقالة عنه وقد كتب الله تعالى عليه منها مالا يمحوه الا عفوه تعالى فقصد لاسترجاع بربشتر في جموع من المسلمين فجاهدوا الكفار بها جلادا ارتاب منه كل جبان وأعز الله تعالى أهل الحقيقة والشجعان وحمي الوطيس بينهم الى ان نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه ودخلوا الدار مقتحمين أبواب المدينة فاقتحمها المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين الا من فر من مكان وقد دخل المدينة فجال السيف في الكافرين واستأصلوهم أجمعين الا من [illegible] من أعلامهم وسبوا جميع من كان فيها من ذراريهم ونسائهم [illegible] في منحة نصر امتاح طائفة من حماة المسلمين [illegible] كتب لهم الشهادة وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فسلم المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الالباس [illegible] المأمون بن ذي النون وولي عليها أبا بكر بن عبد العزيز المنصور [illegible] واستبد ببلنسية وضبطها وذلك سنة ثمان وستين وأربعمائة ثم مات أبو بكر بن عبد العزيز فملكها بعده ابنه القاضي عثمان بن أبي بكر وبقي الى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فلما تملك الطاغية طليطلة في هذا العام كما سيأتي واستدعى القادر بن ذي النون شرط عليه القادر أن يمكنه من تملك بلنسية فسار معه الطاغية بجيشه الى ان ملكه بلنسية وذلك ان المسلمين لما أقبل عليهم القادر بن ذي النون ومعه جيوش الطاغية خافوا ان يمكنها الطاغية فخلعوا القاضي عثمان بن أبي بكر وسلموها للقادر بن ذي النون وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وبقي الى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وكان ذلك بعد دخول يوسف بن تاشفين الاندلس وتغلبه على ملوك الطوائف كما سيأتي بيانه فجهز جيشا الحبيس ببلنسية من القادر بن ذي النون وجعل امارة

بلنسية للقاضى أبى أحمد جعفر بن عبد الله بن حجاف فحصر بها القادر بن ذى النون الذى مكن الاذفونش من طليطلة ثم هجم عليه القاضى في جماعة من المرابطين فقتلوه وذلك سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وتملك ابن حجاف بلنسية ثم رجع عنه طائفة المرابطين الذين كان استنصر بهم وأعانوه على تملكه اياها وصار خائفا من استيلاء الطاغية عليه وجعل يستصرخ الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فيبطأ عليه النصر وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية فدخلها وعاهده القاضى بن حجاف واشترط عليه احضار ذخيرة كانت للقادر بن ذى النون فاقسم انها ليست عنده فاشترط عليه انه ان وجدها عنده قتله فاتفق انه وجدها عنده فأحرقه بالنار وعاث في بلنسية وكان الاستيلاء عليه سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في التى قبلها وهذا الطاغية الذى أخذها يقال له أيضا القنطيور وحاصرها قبل أخذها عشرين شهرا قيل انه دخلها صلحا وقيل بل عنوة وحرقها وعاث فيها وممن أحرقوا فيها الاديب أبا جعفر ابن البناء الشاعر المشهور ثم وجه اليها جيشا أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وجعل أميرا على الجيش أبا محمد مرزلى ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة وبقيت بلنسية بيد المسلمين الى سنة ستمائة وثلاثين ثم أخذها العدو وسيأتى ما كان بعد ذلك ومما استولى عليه العدو مدينة المرية وهى من مدائن الاندلس العظيمة الشهيرة استولى عليها العدو سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة وأحصى عدد من سبى من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا قال ابن حبيش وهو آخر الحفاظ بالاندلس كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله للاسلام فتقدمت الى زعيم النصارى وهو ابن بنت الاذفونش وقلت له انى أحفظ نسبك منك الى هرقل فقال لى قل فذكرته له فقال لى اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقا بلا شئ ثم انها بعد ان أخذت في السنة المذكورة استرجعها المسلمون سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين الى ان أخذها الكفار مرة أخرى سيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر تملك الطاغية طليطلة ﴾

قال في نفح الطيب ان الاندلس ينقسم الى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الاقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون في غاية التنعم والرفاهية ففي المتوسطة قرطبة وطليطلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره ومن شرق الاندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية والسهلة وثغر الأعلى وسرقسطة وتطيلة

وغير ذلك مما يطول ذكره ومن غرب الاندلس اشبيلية وماردة واشبونة وشلب وشريش ولبلة والخضرا وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره ولما ضعف أمر الخلافة وافترق ملوك الاندلس وكثر الاختلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة يسمون ملوك الطوائف لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده من الممالك وهم مختلفون في اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك واستبداد ملوك الطوائف من سنة سبع وأربعمائة وصاروا يقاتل بعضهم بعضا فيتغلب بعضهم على بعض ويستولي على ما بيد الآخر وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لاحاجة الى ذكر أسمائهم وكان أعظم الممالك عندهم قرطبة وهي مقر دار الخلافة وسرير الملك والسلطنة وكان المستولي على قرطبة من ملوك الطوائف المعتضد بن عباد وكانت قبل تغلبه عليها عند أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور الغافري الكلبي استبد بها من سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ثم صار لبنيه من بعده فأخذها منهم ابن ذي النون صاحب طليطلة سنة احدى وستين وبقيت عنده الى سنة تسع وستين وأربعمائة فانتزعها منهم المعتضد بن عباد بعد قتال وضمها الى ما كان بيده من الممالك فصار ابن عباد أعظم ملوك الطوائف فكانوا يهابونه ويهادونه ويخضعون له ويخشون سطوته وكان أبو المعتضد وهو الذي أسس له هذا الملك قيل انه من لخم وينتهي نسبه الى النعمان بن المنذر ملك حيرة في الجاهلية وتوفي المعتضد بن عباد سنة احدى وستين وأربعمائة وصار الملك بعده لابنه المعتمد محمد بن عباد فاتسع ملكه وشمخ سلطانه أكثر مما كان لابيه وكان أيضا من أعظم الممالك طليطلة وكانت لبني ذي النون وكانت قبلهم ليعيش بن محمد بن يعيش من أول الفتنة والتفرق الى سنة سبع وعشرين وأربعمائة فانتزعها منهم وتغلب عليها اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون أصله من البربر من قبيلة هوارة وضمها الى ما كان بيده من الممالك فاتسع ملكه وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة فولى بعده ابنه المأمون أبو الحسن يحيي فاستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه وتوفي سنة سبع وستين وأربعمائة فولى بعده حفيده القادر بالله يحيي بن اسمعيل بن المأمون يحيي فانتزعها الطاغية منه وهي من المتوسطة من الاندلس وكانوا يسمونها وجهاتها الثغر الادنى ويسمون سرقسطة وجهاتها الثغر الاعلى وتسمى طليطلة أيضا مدينة الاملاك لانها ملكها اثنان وسبعون ملكا قيل ان سليمان بن داود عليه السلام دخلها وكذا عيسى بن مريم عليهما السلام ودخلها أيضا ذو القرنين وهي مدينة حصينة قديمة من بناء العمالقة ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ورساتيق مريعة

وضياع بديعة وقلاع منيعة وبها القنطرة العجيبة البناء يعجز الواصفون عن وصفها وطول تلك القنطرة ثلاثمائة باع وعرضها ثمانون باعا على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا وهي تصعد الماء الى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة وبنى المأمون فيها قصرا تأنق في بنائه وأنفق مالا كثيرا وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسيق الماء الى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة متواليها كلها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من الماء يسكب ولا يفتر والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو فيها يوما اذ سمع منشدا يقول

أتبني بنـاء الخالدين وانمـا * بقاؤك فيها لو عقلت قليل

لقد كان في ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا الا يسيراً حتى قضى نحبه وذلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وولي بعده ابنه يحيى القادر بالله الى ان أخذت منه ثم صارت له بالنسية بواسطة الطاغيـة الى ان قتل كما تقدم وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفـة الطعوم والالوان وفيها ايوان كبير يقال ان الخيـل تلعب فيه وكان بنو ذي النون ملوك طليطلة لهم دولة كبيرة وبلغوا في البذخ والترف الى الغاية فصمم في ملكهم الطاغية المسمى بالاذفونش واشتغل القادر يحيى صاحبها بالخلاعة والمجون وأكثر مهاداة الافرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب وامتـدت يده الى أموال الرعية ونزل الفرنج تأخذ حصونه شيئا بعد شيء حتى أخذت منه طليطلة وسلبته ملكه ولما أرادوا أخذها سار اليها الاذفونش بجيوشه وصار يتملك قراها وأعمالهـا ويضيق عليها بالحصار وكان ذلك كله في مدة سبع سنين فلما اشتد عليهم الحصار رضي صاحبها والمسلمون أن ينزلوا عنها وقد فنى بالقتل والاسر والنهب كثير منهم في قراها وبواديها قال ابن بسام بعد ذكره وقعة بطرنة المتقدم ذكرها وذكر ما صار للمسلمين عند أخذها وهكذا جرى لاهل طليطلة فان العدو خذله الله استظهر عليهم وقتل جماهيرهم وكان من جملة مغانمه الفرنج من أهلها لما خرجوا اليهم من ثيابها فقد أعف عذرة خرج عما سوه وكان أخذ الطاغية طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وأعطى الامان لصاحبها القادر بالله ومن بقي بها من المسلمين ثم ملكها الطاغية وصار يستميل أهلها الباقين فيها ويظهر لهم صورة العدل حتى جلب التنصر في كثير من العامة منهم وفي ملكهم الطاغية يبغي ان تعيش الشيخ ممن كان فيها من موت فقد حتى لحق قرطبة

وأعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وأخذ في الاستمداد لتملك قرطبة ومما يدل على عظم مدينة طليطلة وحصانتها ان المسلمين لما استرجعوا ماتملكه الاعداء من المدائن والقرى عجزوا عن استرجاع طليطلة وبقيت في يد العدو الى آخر المدة ولما فتح المسلمون الاندلس فى أول الامر ألقى الله الرعب في قلوب النصارى وصاروا يأخذون في الفرار ولم يثبت منهم أحد بعد أول وقعة كانت بينهم وبين المسلمين حتى انهم أخلوا طليطلة فوجدها المسلمون خالية ووجدوا فيها مائدة سليمان عليه السلام وقيل انها ليست لسليمان وانما هى لملوكهم تأنقوا في صنعها وكانت مصوغة من الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ولم ير الراؤن مثلها وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا بكسر الراء وسكون الجيم وكان عليها طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من الزمرد وكلها مكللة بالجوهر حافاتها وأرجلها وكانت أرجلها منها فاخذها طارق بن زياد فاتح الاندلس وأتحف بها الوليد بن عبد الملك

﴿ ذكر ماجرى بعد استيلاء العدو على طليطلة بين العدو والمعتمد بن عباد صاحب قرطبة ﴾

قد تقدم ان ابن عباد كان أعظم ملوك الطوائف وذلك لانه قاتل كثيرا من ملوك الطوائف وانتزع منهم كثيرا من ممالكهم فصار له قرطبة واشبيلية وبطليوس وشريش وقرمونة ورندة وغير ذلك فكان الباقون من ملوك الطوائف يهابونه ويلتمسون رضاه ولما رأى ابن عباد قوة الاذفونش الطاغية صار يداهنه ويهاديه ويخضع له وجعل له ضريبة على نفسه يؤديها اليه كل سنة فلما تملك الاذفونش طليطلة وأرسل اليه المعتمد الضريبة المعتادة التى كان يدفعها كل سنة فلم يقبلها الاذفونش وأرسل اليه يتهدده ويتوعده المسير الى قرطبة ليفتحها الا أن يسلم اليه الحصون المنيعة التى يريدها فيبقى العهد للمسلمين وكان رسول الاذفونش الى المعتمد معه جمع من النصارى اتباع الاذفونش كانوا نحو خمسمائة فارس فلما وصل الى المعتمد أنزله وحده وفرق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر المعتمد قواد عسكره أن يقتل كل منهم من كان عنده من أولئك النصارى الذين جاؤا مع رسول الاذفونش فقتلوهم وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وسلم من أولئك النصارى المرسلين ثلاثة نفر فرجعوا الى الاذفونش وأخبروه الخبر وكان قد تجهز الى قرطبة ليحاصرها فرجع الى طليطلة ليزيد في التجهز ويجمع مابقى من آلات الحصار ويكثر الجيوش والعدة فلما بلغ المعتمد اهتمام الطاغية في التجهيز رحل الى اشبيلية لتدبير هذا الامر وسمع بذلك العلماء من مشائخ قرطبة وتحققوا جميع ماجرى وعلموا قوة الفرنج وضعف المسلمين وتأملوا في أمر ملوك الطوائف فوجدوهم منهمكين في اللذات والشهوات ويقاتل بعضهم بعضا ويستعين

بعضهم على بعض بالفرنج فاجتمع العلماء يتشاورون في هذا الامر فقال بعضهم هذه بلاد الاندلس قد غلب عليها الافرنج وملكوا كثيرا منها ولو استمرت الحال على ماترى عادت نصرانية كما كانت ثم ساروا الى قاضي القضاة المسمى عندهم بقاضى الجماعة وكان في ذلك الوقت هو القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له ألا تنظر الى مافيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية للطاغية بعد ان كانوا يأخذونها منه وقد رأينا رأيا نعرضه عليك قال ماهو قالوا نكتب الى عرب افريقية ونبذل لهم اذا وصلوا الينا أنصاف أموالنا ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله فقال لهم اذا وصلوا الينا يخربون بلادنا ويطمعون فينا ويبدؤن بنا قبل الافرنج ثم يذهبون بأموالنا الى بلادهم ويتركونا مع الافرنج فيزدادون قوة علينا والذى أراه ان المرابطين اتباع يوسف بن تاشفين ملك مراكش أقرب الينا من عرب افريقية وكان يوسف بن تاشفين له ملك ضخم وقوة عظيمة في مراكش وفاس وأعمالهما فاستحسن العلماء ما قاله قاضى الجماعة ثم ذهب قاضى الجماعة الى المعتمد بن عباد وعرض عليه ماقالوه واستحسنوه فاستحسنه المعتمد بن عباد وقال للقاضى المذكور أنت الرسول الى ملك مراكش يوسف بن تاشفين فامتنع وأراد أن يبرئ نفسه من تهمة تقع عليه فلم يقبل منه المعتمد هذا الامتناع بل ألح عليه المعتمد الى ان رضى وعزم على المسير اليه فكان ماسيأتى ذكره وينبغى قبل ذكر مسير قاضى الجماعة ان نذكر شيأ مما يتعلق بدولة يوسف بن تاشفين ملك مراكش وكيف كان ابتداء أمره ليعلم بذلك كيف ترقت دولته حتى كانت في غاية القوة والمتانة وتعرف دولته بدولة المرابطين والملثمين لانهم كانوا يتلثمون دائما وهم عدة قبائل أشهر تلك القبائل قبيلة لمتونة وكان يوسف بن تاشفين منهم ومنهم قبيلة جدالة وملطة واختلفوا في انتهاء نسبهم اختلافا كثيرا فاختار ابن الاثير انهم ينسبون الى حمير ثم على قوله من العرب وكان أول مسيرهم من اليمن في خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فسيرهم الى الشام زمن فتوحات الشام ثم انتقلوا الى مصر ثم دخلوا المغرب مع موسى بن نصير ثم توجهوا مع طارق بن زياد فاتح الاندلس ثم أحبوا الانفراد ودخلوا الصحراء واستوطنوها ثم توحشوا وتوالد منهم قبائل كثيرة واختار ابن خلدون انهم ليسوا من العرب وانهم من البربر وان نسبهم ينتهى الى يافث بن نوح عليه السلام وهم توحشوا في البوادى صاروا لا يعرفون من الاسلام الا الشهادتين والصلاة ثم حج رجل منهم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فلما رجع صحب معه واحدا من العلماء وكان فقيها صالحا اسمه عبد الله بن ياسين الكزولى وقصد بمجيئه الى قومه ان يعلمهم الاحكام والشرائع

فجاء معه فأكرموه وصار يعلمهم وينقادون له ثم جعلوا عليهم أميرا من لمتونة وهو أبو بكر بن عمر وكان هو رأس لمتونة ثم صاروا يقاتلون أهل البغي والفساد ممن كان قريبا منهم فقوى أمرهم ثم خرجوا الى السوس الاقصى وصاروا يأخذون الزكاة ووقع بينهم وبين أهل السوس قتال الى ان انقادوا لهم ثم قاتلوا أهل سجلماسة الى ان انقادوا لهم أيضا ثم توفي أميرهم أبو بكر بن عمر بعد ان استخلف ابن أخيه أبا بكر بن ابراهيم بن عمر ثم توفي أبو بكر أيضا سنة ثنتين وستين وأربعمائة فاجتمعت طوائفهم على ابن عمه يوسف ابن تاشفين وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين فكثرت جموعهم وقوى أمرهم وكان يوسف المذكور مشهورا بالعقل والصلاح وحسن التدبير فظهر أمرهم وعلا شأنهم فقصدوا موضع مدينة مراكش وكان قاعا صفصفا لاعمارة فيه فاختط يوسف هناك مدينة مراكش ونزلها بمن كان معه من القبائل ثم لم يزل يملك مدائن المغرب مدينة بعد مدينة حتى صار له من القوة والمتانة ماهو مشهور مذكور في التواريخ والكلام على ذلك طويل فلما نزل بأهل الاندلس مانزل من الكفار قصدوه فبعثوا اليه قاضي الجماعة بقرطبة القاضي عبدالله ابن محمد بن أدهم فسار الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمكاتبة من المعتمد بن عباد وعلماء قرطبة فأبلغه الرسالة وأعلمه مافيه المسلمون من الخوف من الاذفونش وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ففي الحال أمر بعبور العساكر الى الاندلس وأرسل الى مراكش في طلب من بقي من العساكر فأقبلت اليه يتلو بعضها بعضا فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار الى ان اجتمع بالمعتمد بن عباد باشبيلية فكانت غزوة الزلاقة المشهورة

﴿ ذكر غزوة الزلاقة ﴾

لما اجتمع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد باشبيلية وجده قد جمع عساكره وكان فيهم من أهل قرطبة عسكر كبير ومعهم من المتطوعة من سائر بلاد الاندلس خلق كثير فلما وصلت الاخبار الى الاذفونش الطاغية جمع عساكره وسار من طليطلة وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا بلسان العربي كتبه له بعض المخذولين ممن يدعون الانتساب الى الاسلام نغلظ فيه القول ويصف ماعنده من القوة والعدد والعدة وبالغ الكاتب في الكلام وتجاوز الحد فأمر ابن تاشفين كاتبه أن يكتب الجواب للاذفونش فكتب كلاما كثيراً فلما قرأه على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قال هذا كلام طويل أحضر كتاب الاذفونش واكتب في ظهره الذي سيكون ستراه لاما تسمعه فلما رجع الكتاب الى الاذفونش ارتاع لذلك وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم فازداد استعداداً وكان في جيشه

أربعون ألف دراع وجملة جيشه ثلاثمائة ألف بغاية الاستعداد فراى في منامه كانه راكب على فيل وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويل هذه الرؤيا فأحضر رجلا من علماء المسلمين فقص الرؤيا عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه فطلب منه الامان على نفسه اذا عبرها له فأمنه فقال له تأويل هذه الرؤيا يؤخذ من كتاب الله عزوجل وهو قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة وقوله تعالى فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وهذا التأويل يقتضي هلاك هذا الجيش الذي جمعته فقال الاذفونش للذى عبر له الرؤيا بهذا الجيش ألقى اله محمد صاحب كتابكم وأقاتل بهذا الجيش الجن والانس وملائكة السماء فانصرف ذلك المعبر وقال لبعض المسلمين هذا الاذفونش هالك وكل من معه وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وكان الاذفونش استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم وأيقنوا بالنصر والظفر اغترارا بكثرتهم وقوة استعدادهم وما علموا ان النصر من عند الله وان العاقبة للمتقين ثم سار أمير المسلمين والمعتمد بن عباد بجيوشهما وجيوش ملوك الطوائف حتى أتوا أرضا يقال لها الزلاقة من بلد بطليوس وأتى الاذفونش بجيوشه فنزل موضعا بينه وبينهم ثمانية عشر ميلا ولم يبق أحد من ملوك الطوائف بالاندلس الابادر وأعان بماله والرجال وخرج بنفسه وأخرج عساكره لكن لم يبلغ عدد مقدار جيش العدو وقيل لامير المسلمين ان ابن عباد ربما انه لاينصح ولا يبذل نفسه دونك فأرسل أمير المسلمين يأمره أن يكون في المقدمة ففعل ذلك وسار وقد ضرب الاذفونش خيامه في سفح جبل والمعتمد في سفح جبل يتراآن ونزل أمير المسلمين وراء الجبل الذى عنده المعتمد وظن الاذفونش ان عساكر المسلمين ليس الا الذين يراهم مع ابن عباد فتيقنوا الغلب وأرسل الاذفونش الى المعتمد في ميقات القتال فقال يكون يوم الاثنين فقد وصلنا على حال تعب واستقر الامر على هذا فركب الاذفونش ليلة الجمعة سحرا وصبح بجيشه جيش المعتمد بكرة الجمعة غدرا ظنا منه أن ذلك الخديعة جميع عسكر المسلمين فوقع القتال بين الفريقين المسلمون وحصد فيهم الاذفونش بجموعه من كل جهة وحمي الوطيس واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وقاتل ابن عباد بنفسه قتالا لم يعهد مثله لاحد وجرح جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغه وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جنبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يحمى

حياض الموت ويضرب يمينا وشمالا وكان ابن عباد قد بعث الى أمير المسلمين يستحث نصرته فبيناهم في القتال اذ وصل أمير المسلمين بجيوشه بعد ان كاد المسلمون ينهزمون وقصد خيام الفرنج ومحلة الاذفونش فاقتحموها وأحرقوها وفتكوا فيها وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الارض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجعت الروم الى محلاتهم بعد ان علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموا أمير المسلمين فخرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى ان أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بالدرق والسيوف والمزاريق فطعنوا الرجال والخيل فرمحت الخيل بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وكان أهل الاندلس لايعرفون الجمال وليست في بلادهم فجاء أمير المسلمين معه بجمال كثيرة فكانت من جملة أسباب النصر لان خيل العدو كانت تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ومن منفعة تلك الجمال انه كان يحدق بها العسكر وقت نزولهم وكان يحضرها الحرب فيكثر رغاؤها ثم تحول أناس من جيش أمير المسلمين جاؤا الى موضع القتال فلقيهم من بين أيديهم ووضع السيف فيهم فلم يتمالكوا الثبات وأنزل الله النصر وأنزل السكينة على المسلمين فانهزم العدو وأخذهم السيف من كل جانب وصدق المسلمون جميعا الحملة فتزلزت الارض بحوافر خيولهم وأظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل في الدماء فانكشف الطاغية وفر هاربا منهزما وقد طعن في احدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها وأفلت فارا مع نفر يسير من قومه وهلك الباقون وكان موضع القتال متسعا جدا فما كان فيه موضع قدم الا وفيه من تلك الوقعة ميت أو دم وجمع المسلمون من رؤس القتلى كوما فكانوا يؤذنون عليها الى ان جيفت فأحرقوها قيل لم يرجع من الفرنج الى بلادهم غير ثلاثمائة فارس وغنم المسلمون كل مالهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك وجمع أمير المسلمين الغنائم وعف عنها وأعطاها ملوك الاندلس وعرفهم أن مقصده الجهاد ونيل الثواب العظيم وأقام أربعة أيام لجمع الغنائم وعاد ابن عباد الى اشبيلية ورجع أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء وعبر الى سبتة وسار الى مراكش ولما بلغ الاذفونش الى بلاده وسأل عن ابطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع الانوح الثكالى فهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك هما وغما وهوى الى أمه الهاوية وكانت هذه الوقعة في يوم الجمعة في العشر الأول من رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة فكانت هذه الغزوة من أعظم غزوات المسلمين وفتوحاتهم

﴿ ذكر ما كان بعد غزوة الدلاقة ﴾

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من غزوة الدلاقة أقام بالاندلس أياما ثم لما أراد التوجه الى مراكش ترك جيشا عظيما بالاندلس لقصد غزو الافرنج وشكا اليه كثير من علماء الاندلس جور ملوك الاندلس الذين اقتسموها وانهماكهم في اللذات والشهوات والمعاصي فوعظ الملوك وزجرهم ونهاهم عن المكوس وعن الظلم والجور والانهماك في اللذات والشهوات ثم رجع الى مراكش فجاءته الاخبار بأنهم تقاعدوا عن جهاد الكفار واستغرقوا الاوقات في اللذات والشهوات وزادوا في الظلم عما كانوا فاستفتى علماء العراق فيهم فأفتوه بجواز انتزاع الملك منهم فعبر اليهم في سنة أربع وثمانين وأربعمائة وانتزع الملك منهم واستولى على الاندلس بعد قتاله لبعض المتملكين لها وقتل بعضهم وأسر بعضهم وحملهم الى مراكش وحبسهم الى ان ماتوا وصار ملك الاندلس كلها بيده ويد عماله مضافا ذلك الى مابيده من المغرب الاقصى وأكثر من الغزو والجهاد بالاندلس هو وجنوده وتوفي سنة خمسمائة وكان الامام الغزالي لما بلغه حسن سيرته أراد زيارته فرحل من العراق الى الشام ثم بلغه موته قبل أن يصل اليه فرجع وكان يوسف بن تاشفين يخطب لبني العباس وكان قدطلب منهم تقليدا لانه قيل له لاتجب طاعتك وتنفذ أحكامك الا اذا كانت ولايتك من الخليفة فأرسل رسلا الى الخليفة ومعهم هدية وطلب التقليد فكتب له المستظهر بالله العباسي بن المقتدى بامر الله بن القائم بامر الله بن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد وعقد له على الاندلس وبقية الممالك التي كانت تحت يده ولقبه أمير المسلمين وناصر الدين وبايعوا بعد وفاته ولده على بن يوسف بن تاشفين وكان حليما عاقلا صالحا عادلا

﴿ ذكر خروج الفرنج بالاندلس بعدوفاة يوسف بن تاشفين ﴾

لما توفي يوسف بن تاشفين قوى طمع النصارى في الاستيلاء على الاندلس فخرج الاذفونش الافرنجي صاحب طليطلة سنة خمس وخمسمائة يطلب مابأيدى المسلمين من ممالك الاندلس فجمع وحشد فأكثر فسار اليه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من مراكش في عساكره وجموعه فلقيه فاقتتلوا أشد القتال فكان الظفر للمسلمين وانهزم الافرنج وقتلوا قتلا ذريعا وأسر منهم شئ كثير وسبى منهم وغنم من أموالهم مايخرج عن الاحصاء فخافه الافرنج بعد ذلك وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج ابن ردمير من ملوك الافرنج بجموع كثيرة فالتقى مع أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بجموعه فكانت هزيمة على

المسلمين ثم رجع ابن ردمير الى بلاده ثم اشتغل أمير المسلمين بأمر محمد بن تومرت الذي ادعى أنه المهدى فاتسع الخرق في الاندلس فأرسل أمير المسلمين ابنه تاشفين أميرا على الاندلس لجهاد الكفار ووقع بينه وبين ابن ردمير وقائع وانتصر في بعضها على ردمير فمات مهموما من الهزيمة بعد عشرين يوما وكان من أشد ملوك الفرنج على المسلمين فكفى الله المسلمين شره وبقي من ملوك الفرنج الاذفونش الذي كان قد تملك طليطلة فوقع بينه وبين المسلمين وقائع ثم عقدوا معه صلحا عشرين سنة

﴿ ذكر قيام محمد بن تومرت المدعى أنه المهدى المنتظر ﴾

عين ان هذه القصية الكلام عليها طويل مذكور في التواريخ وتلخيص ذلك باختصار ان محمد بن تومرت رجل من جبل السوس يدعى أنه شريف علوى حسنى قرأ علوما بالمغرب ثم ارتحل الى المشرق والعراق واجتمع بكثير من العلماء وأخذ عنهم قيل منهم الامام الغزالى وقيل لم يجتمع بالغزالى وكان يرى منامات يؤولها بالقيام بأمر الامة منها أنه شرب البحر مرتين وقيل كان له معرفة بالرمل والنجوم فقام في نفسه أنه المهدى المنتظر وكتم ذلك في أول أمره وأظهره في آخره وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة والتقشف فابتدأ أولا بالامر بالمعروف والنهى عن منكر وتبعه جماعة يأخذون عنه العلم ويجتمعون معه على الذكر وكان أعظمهم عبد المؤمن بن على الكومى القيسى وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وعبد الله الونشريسى وكان الونشريسى عالما متصنعا بالعلوم فأمره أن يكتم ماعنده من العلوم ويجعل نفسه أبكم ويقوم بخدمة الشيخ وقال له ابق العلوم عندك مكتومة الى ان نحتاج الى اخراجها في وقت يكون اخراجها فيه كالمعجزة والبرهان لاتمام مانريد فامتثل أمره وبقى أبكم بين الناس كأنه أبله يجرى على صورته ولا يتكلم الا مع الشيخ في وقت الخلوة ثم انهم دخلوا مراكش فرأوا منكرات كثيرة فغيروها على حسب الوجود وكانت تلك عادة لهم في تلك البلاد فكسروا الملاهى وضربوا بعض البغال فسقطت من فوقها امرأة فاذا هي أخت أمير المسلمين فرفع الامر الى أمير المسلمين وأخبروه أن هذا الرجل يتحدث في قلب الدولة فأحضره وحضر معه وحضر عند أمير المسلمين جماعة من العلماء ووقع بينهم وبين ابن تومرت مجادلات فقطعهم بحجته بوجود كثير من المنكرات بين أظهرهم ولم ينكروها ووعظ أمير المسلمين حتى أبكاه فقال مالك بن وهيب وكان عالما صالحا كثير مجالسة أمير المسلمين بل كان أحسن وزرائه ان عندى النصيحة ان قبلتها حمدت عاقبتها فقال أمير المسلمين ما هي فقال انى خائف عليك من هذا الرجل وأرى انه لا يريد الامر بالمعروف

والنهى عن المنكر انما يريد فتنة والغلبة على بعض النواحى فاقتله وقلدنى دمه وان لم تقتله فخلده في الحبس فقال بعض الحاضرين من جلساء أمير المسلمين يقبح على أمير المسلمين أن يبكى من موعظة هذا الرجل ثم يسىء اليه في مجلس واحد وان يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء فلما خرج من عند الملك قال لاصحابه لا مقام لكم بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فساروا الى اغمات ثم ذهبوا الى جبل تينمل وكان جبلا عظيما فيه كثير من القبائل وكثير من الزروع والفواكه واتصلوا بالسوس وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة واجتمع عليه خلق كثير وتسامع به أهل تلك النواحى وجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الاسلام وما غير منها وما حدث من الظلم والفساد وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عماهم فيه فتابعه قبائل كثيرة وسمى أتباعه الموحدين وعلمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم بشر بالمهدى الذى يملأ الارض عدلا وان مكانه الذى يخرج منه المغرب الاقصى فقام اليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن فقالوا لا يوجد هذا الا فيك فأنت المهدى فبايعوه على ذلك فانتهى خبره الى أمير المسلمين فجهز جيشا وسيره اليه مع بعض أصحابه ووعد المهدى أصحابه بالنصر فلقوا جيش أمير المسلمين فهزموهم وأخذوا أسلابهم وقوى ظنهم في صدق المهدى وأقبلت اليه أفواج القبائل من الحلل التى حوله شرقا وغربا وبايعوه ووضع لهم كتابا في التوحيد سماه المرشد وكتابا في العقيدة ونهج لهم طريق الادب بحضهم مع بعض والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن ويزهدهم في الدنيا وكان قوته كل يوم رغيف وقليل من زيت أو سمن وكان يحرضهم على قتال عدوهم و [illegible] الامر [illegible] وكان يستميل الاحداث وذوى الغرة بلا [illegible] بعد [illegible] وكان دون [illegible] من أهاليهم [illegible] عنه ويحذرونهم من [illegible] ويخوفونهم من سطوة [illegible] حتى أن يصدوا عليه من [illegible] وخمس عن [illegible] أولادهم وعشائرهم من [illegible] [illegible] [illegible] معتقده من العلم [illegible] فى [illegible] أن يفعل [illegible] فخرج [illegible] الثياب طيب [illegible] [illegible]

ماقصتك فقد كنت أبكم لاتتكلم فقال أتاني الليلة ملك من السماء فغسل قلبي وعلمني الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والاحاديث فبكي المهدى بحضرة الناس ثم قال نحن نمتحنك فقال افعل وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أى موضع سئل وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والاصول وبقية العلوم فعجب الناس من ذلك واستعظموه ثم قال لهم ان الله أعطاني نورا أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة وقد أنزل الله ملائكة الى البئر التى في موضع كذا يشهدون بصدقى وكان قد وضع في البئر رجالا ثلاثة يشهدون بصدقه فسار المهدى والناس معه وهم يبكون الى البئر وصلى المهدى عند رأسها ركعتين وقال ياملائكة الله ان عبد الله الونشريسى قدزعم كيت وكيت فقال من في البئر صدق فلما قيل ذلك من البئر قال المهدى ان هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل اليها الملائكة فالمصلحة ان تطم لئلا يقع فيها نجاسة أومالا يجوز وقال ذلك لئلا يظهر الرجال منها فيفشون السر فيفسد الامر الذى دبره فألقوا فيها من الحجارة والتراب ماطمها وأهلك من فيها من الرجال ثم نادى أهل الجبل بالحضور الى ذلك الموضع فحضروا ليتميز أهل الجنة من أهل النار فكان الونشريسى يعمد الى الرجل الذى عرفه المهدى به انه يخاف عاقبته وكتبه في الجريدة التى أطلعه عليها فيقول هذا من أهل النار فيقتل والى الشاب الغرومن لايخاف منه فيقول من أهل الجنة فيترك على يمينه ولم يزل يجمعهم في أيام مرة بعد أخرى ويفعل ذلك حتى تتبع كل من يخشى منه فقتله قال ابن الاثير في الكامل فكان عدة من قتلهم سبعين ألفا وصار الباقون معه على نيات صادقة وقلوب متفقة على طاعته فجهز منهم جيشا وجعل الامير عليهم عبد المؤمن بن على وسيرهم لقتال المرابطين قوم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وتتابع القتال بينهم مرارا وشرح ذلك يطول واستمر أمره يعلو الى سنة أربع وعشرين فمرض مرضا شديدا وكان عبد المؤمن غائبا مع الجيوش التى تقاتل أهل مراكش فأوصى المهدى بأن خليفته عبد المؤمن وأمرهم باتباعه وتسليم الامر اليه والانقياد له ثم توفي فلما رجع عبد المؤمن بايعه الناس وانقادوا له وتسمى دولته دولة الموحدين لان المهدى سماهم بذلك كما تقدم فجهز الجيوش وأزال ملك بنى تاشفين وفتح البلدان وملك كثيرا من مدائن المغرب وكل ذلك مبسوط في التواريخ وصار لعبد المؤمن ملك عظيم في المغرب والاندلس توارثه بنوه بعده الى سنة ثمان وستين وستمائة فانتزع الملك منهم بنو مرين فكانت مدة دولة بنى عبد المؤمن مع مهديهم مائة وثنتين وخمسين سنة قال في نفح الطيب كانت دولة بنى عبد المؤمن من أعظم

الدول الاسلامية وكان كل واحد يلقب أمير المؤمنين ومسلكهم مسلك الخلفاء وكانوا يدعون على المنابر لمهديهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة وتوفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وكان عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة كثير البذل للاموال الا انه كان سفاكا للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن ترك الصلاة قتله وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ومما نقل من كرمه أن شاعرا مدحه بقصيدة مطلعها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فأشار اليه ان يقتصر على هذا البيت ولا يتم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار فقيل له لم لم تسمع تمام القصيدة فقال عبد المؤمن وماعسى ان يقول بعد قوله ماهز عطفيه البيت يعنى انه لايمكنه ان يأتى بمدح أعظم مما في هذا البيت وفي المونس في أخبار تونس للعلامة أبي القاسم الرعيني القيرواني ان هذا الشاعر بعد ان قبض الالف الدينار عاد اليه من الغد وأنشده البيت المذكور فأسكته وأمرله بألف دينار أخرى ثم لم يزل ينشده كلمادخل عليه ويأمرله بألف دينار الى ان وصله بأربعين ألفا فحسده بعض الشعراء وقال له الى متى تفعل هكذا ومايؤمنك من تغير أخلاق أمير المؤمنين وقد وصلك بما فيه غناؤك فارتحل من فوره الى بلده ثم سأل عنه عبد المؤمن فأخبر برحيله فقال لاحول ولا قوة الابالله لقد ظن بنا غيرماأردناه ولوطال مقامه لزدناه على ذلك وكان لعبد المؤمن معرفةبالشعر والادب يحكى عنه انه مر ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من شباك جارية بارعة الجمال فقال عبد المؤمن * قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت * فقال ابن عطية * حوراء ترنو الى العشاق بالمقل * فقال عبد المؤمن * كأنما لحظها في قلب عاشقها * فقال ابن عطية * سيف المؤيد عبد المؤمن بن على * ويقال لعبد المؤمن القيسى نسبة الى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ويقال له الكومى نسبة الى كومية قرية بتلمسان وكان المهدى محمد بن تومرت يقول له ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس وأرجو ان تكون أنت وكان أبوه صانعا في عمل الطين يعمل منه الآنية ويبيعها قال ابن خلكان في ترجمة عبدالمؤمن كان في صباه يوما نائما تجاه أبيه وكان أبوه مشتغلا بعمل الآنية من الطين فسمع أبوه دويا في السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على ابنه عبد المؤمن وهو

نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها فرأته أمه على تلك الحالة فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه فقالت أخاف عليه فقال لا بأس عليه بل انى متعجب مما يدل عليه ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ماذا يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبي ومد يده فتفقدت أمه جسمه فلم تر به أثرا ولم يشك لها ألما وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى اليه أبوه وأخبره بما رآه من النحل مع ولده فقال ذلك الرجل يوشك أن يكون لولده هذا شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما كان وتقدم ان من أصحاب المهدى عمر بن يحيى الهنتاني قيل انه ينتهى نسبه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه صار بعد المهدى من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون الحفصيين استمر ملك تونس فيهم الى سنة تسعمائة واحدى وثمانين فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية وكانوا يلقبون بالحفصيين وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وهم من فروع دولة المهدى محمد بن تومرت واختلف الناس في أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء انه أراد اظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم انه كان على الامة شرا من الحجاج ويزيد والله أعلم بحقيقة الحال ولنذكر ما كان من الفتوحات في مدة عبد المؤمن وبنيه وفي مدة الحفصيين ملوك تونس

ذكر أول تجهيز عبد المؤمن على الاندلس ﷺ

قال ابن الاثير في كتابه في حوادث سنة احدى واربعين وخمسمائة في هذه السنة سير عبد المؤمن بن على جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا مافيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان محاصرا مراكش جاءه جماعة من أعيان الاندلس ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التى هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين وانقيادهم لامره فقبل عبد المؤمن منهم ذلك وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الافرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره في البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين وهم أتباع يوسف بن تاشفين ويقال لهم المرابطون فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد كان لعبد المؤمن من كان بها وانتزعت عساكر عبد المؤمن كثير من مدائن الاندلس التى كانت في طاعة المرابطين مدينة بعد مدينة بعد حروب يطول ذكرها وفي سنة اثنتين واربعين حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها

والذهب وملكوا أيضا مدينة شاطبة وولاية جيان وكلها بالأندلس وفي سنة ثلاث وأربعين ملك
الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم
يبق للمسلمين شيء في تلك الجهات الا واستولى الفرنج عليه وفي سنة خمس وأربعين سار
السليطين وهو الأذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من
الفرنج في أربعين ألف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهي في ضعف وغلاء فبلغ الخبر
الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم أبا زكريا يحيي بن يرموز
ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السليطين في الوطاء وأرادوا
الاجتماع بالمسلمين المحصورين بقرطبة فسلكوا الجبال الوعرة والمضائق المتشعبة فساروا
نحو خمسة وعشرين يوما في الوعرة في مسافة أربعة أيام في السهل فوصلوا الى الجبل المطل
على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة ليذهب اليهم وكان فيها
القائد أبو الغمر السائب من ولد القائد ابن غلبون وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها
فلما رحل الفرنج خرج من قرطبة لوقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا ورتب
له ادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل
الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذي حققته عليكم لأني علمت
أن السليطين ما رحل الا طلبا لكم في الموضع الذي كنتم فيه الى الجبل [illegible]
ولو لحقكم هناك لنال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين أنهم قد فاتوه عرف أنهم
دخلوا قرطبة ولم يبق له طمع في قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره قرطبة ثلاثة
أشهر وفي سنة ست وأربعين سير عبد المؤمن جيشا كثيرا نحو عشرين ألف فارس الى
الأندلس مع أبي حفص عمر الهنتاتي وسيره [illegible] فكان يسير [illegible] عليهم [illegible]
السود ليس معهن غير [illegible] ومتى قرب [illegible] رجل ضربه [illegible]
الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين [illegible] فحصرها عمر وعسكره
وضيقوا عليهم [illegible] أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادي آش [illegible]
وصاروا معه [illegible] ابن همشك صهر ابن مردنيش صاحب جيان [illegible]
وصاروا أيضا معه [illegible] وحرضوه على [illegible] ابن مردنيش [illegible]
الأندلس ليغتنم [illegible] قبل [illegible] ابن مردنيش [illegible]
الى ملك برشلونة من [illegible]
[illegible] في عشرة آلاف فارس [illegible] عسكر [illegible]

مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة فسموا بوصول الفرنجي مع ملك برشلونة فرجع حيش عبد المؤمن وحصروا مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء في العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيليه فأقاموا بها وفي سنة احدى وخمسين استعمل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة فعبر أبو سعيد البحر الى مالقة وهي من الاندلس واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة ورضي انه يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل ذلك منه أبو سعيد وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة باهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه الى أبيه عبد المؤمن بمراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه وانقرض بذلك دولة المرابطين ويقال لهم أيضا الملثمون كما تقدم ولم يبق لهم الا جزيرة ميروقة مع أحمد بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهي بأيدي الفرنج أخذوها من المسلمين سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية براً وبحراً فلجأ الفرنج الى حصنها فحصرهم ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل اليهما فجمع الاذفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين جموعا من الفرنج بلغت اثنى عشر ألف فارس ومعه محمد بن سعد بن مردنيش في ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ليدفعوا المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين في عوده قبل أن يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فأجابهم أبو سعيد اليه وتسلم الحصن ورحل الفرنج في الغد عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهي لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد كما تقدم وصار من اتباع عبد المؤمن وفي طاعته وممن يحرض على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة طمع في الملك فسار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة أصحابهم المسلمين الذين بغرناطة فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق

الاندلس فأرسل اليه ألفي فارس من انجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوهم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن من قبل وصول أبي سعيد اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد بمن معه فاقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا السير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذى أمر به لابن همشك أولا وهم ألفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فأقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذى بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جميع جهاتهم فما لحقوا ان يركبوا فقتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لاطاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن فبايع الموحدون ابنه محمدا ثم خلعوه بعد خمسة وأربعين يوما وبايعوا أخاه يوسف بن عبد المؤمن وتلقب بأمير المؤمنين كأبيه قال ابن خلكان كان يوسف فقيها حافظا متقنا نشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والاسلام ويقال انه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن مع جملة من الفقه وسيأتى الكلام على فتوحاته ولنتمم الكلام على جميع فتوحات أبيه عبد المؤمن في غير الاندلس

﴿ ذكر فتوح المهدية ﴾

المهدية مدينة من مدائن افريقية كانت المهدية في يد الحسن بن علي بن محمد بن تميم الصنهاجي وكان من عمال العبيديين ملوك مصر ثم تغلب عليها فملكها الفرنج وانتزعوها من يده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفر الامير المذكور منها وقصد عبد المؤمن فأكرمه وأحسن نزله وكان أهل سفاقس وزويلة يقاتلون الفرنج لتخليص المهدية فلم يقدروا وانهزموا مرة بعد أخرى وقتل كثير منهم وذلك سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم دخل الفرنج زويلة وقتلوا

من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال فقصد جماعة من أهل زويلة عبد المؤمن وهو بمراكش يستجيرون به فأكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الاسلام من يقصد سواه فدمعت عيناه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وان يعطوا ألفي دينار ثم جهز الجيوش واستعد لذلك ثلاث سنين فاجتمع معه مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وسار بجيوشه في شهر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة وكان يقع من حفظه لعسكره أنهم كانوا يمشون بين الزرع فلا يتأذى منهم أهل الزرع ولا يصيبون شيأ منه واذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبيرة واحدة ولا يتخلف منهم أحد كائنا من كان خوفا من عقابه لانه كان يقتل من يتأخر منهم وقدم بين يديه أمير افريقية الذى فر منها حين أخذها الفرنج وهو الحسن بن علي بن محمد ابن تميم الصنهاجي فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان ملك تونس بيد أحمد بن خراسان وأقبلت أساطيل عبد المؤمن في البحر سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازل تونس أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوا فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهل تونس الى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم فأجابهم الى الأمان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم على أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج صاحب البلد هو وأهله منها فاستقر الامر على ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل امناءه ليقسموا الناس أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم ثم سار عبد المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه في البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غلوة رمية سهم فدخل عبد المؤمن زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ومن لم يجد له موضعا من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد مايخرج عن الاحصاء واقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكان أول من بناها

واتخذها مدينة عبيد الله المهدى أول ملوك العبيديين بناها سنة ثلاث وثلاثمائة وكان الفرنج يخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فينالون منهم ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن ان يبنى سور من جهة غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم انها لاتفتح بقتال لابرا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة بالحصار وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صارت الغلات والاقوات في العسكر كالجبال من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقول متى حدثت هـذه الجبال فيقال لهم هى حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع عبـد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسـة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف فلما رأى أهل قفصة ذلك أطاعوه وكان الفرنج قد تملكوا صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة جاؤها بجموع كثيرة وانتزعوها من عامل العبيديين وبقيت في أيديهـم وصار لهم فيها قوة عظيمة فكانوا يمدون هؤلاء المحصورين في المهدية ففى شهر شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة أربع وخمسين وخمسمائة جاء أسطول صاحب صقلية من ملوك الفرنج في مائة وخمسـين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليه ملك الفرنج يأمره بالمجىء الى المهدية فقدموا في التاريخ المذكور فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المينا فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن وركب فيه العسكر جميعه ووقفوا على جنب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب في قلوبهم وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكي ويتضرع الى الله تعالى ويدعوا للمسلمين بالنصر ثم اقتتلوا في البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع راجعين الى بلادهم فتبعهم الموحدون فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لأخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد أسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر الحجة من السنة المذكورة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبـد المؤمن عشرة وسألوه الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهـم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما الكلام

اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم في البحر ولم يصل الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية يقول ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله أكثرهم بالغرق في البحر وكان مدة ملكهم المهدية ثنتى عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأقام بها عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره ان يقتدى برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها ورحل من المهدية أول صفر من السنة المذكورة وتوجه الى بلاد المغرب وجهز جيوشا الى الاندلس

﴿ ذكر فتوحات يوسف بن عبد المؤمن ﴾

لما استقرت البيعة له بعد موت أبيه وخلع أخيه أخذ منهج أبيه وسار سيرته واستكثر من الجيوش ومهد البلاد فصار له ملك ضخم أكثر من أبيه فكان ملكه من قاصية افريقية الى بلاد القبلة وبلاد الاندلس يجبى اليه خراجها دون مكس ولا جور فكثرت الاموال وأمنت الطرق ثم رحل الى الاندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها وفي صحبته مائة ألف فارس ونزل اشبيلية وشرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدى الفرنج وكانوا قد استولوا على كثير منها فاتسع ملكه وحاصر الاذفونش في طليطلة وضيق عليه شهورا فراسله الاذفونش في انه يسلم المدينة ويعطيهم الأمان على نفوسهم فامتنع يوسف من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج فارتووا وتقووا على المسلمين فهادنهم سبع سنين وانصرف عنهم الى اشبيلية وكان يرتفع اليه في كل سنة من خراج اشبيلية وأعمالها حمل مائة وخمسين بغلا خارجا عما يرتفع اليه من بقية البلاد وفي سنة خمس وستين وخمسمائة اتفق ابن مردنيش ملك شرق الاندلس هو والفرنج على يوسف بن عبد المؤمن فاستفحل أمرهم فجهز يوسف العساكر فجاسوا بلاد ابن مردنيش وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده وأخافوا عساكره وجنوده وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ويجبون أموالها وفي سنة سبع وستين توفي الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرقى الاندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما وأوصى أولاده أنهم بعد موته يقصدون يوسف بن عبد المؤمن وكان قد اجتاز الى الاندلس في هذا العام في مائة

ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فقدموا عليه بعد موت أبيهم فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه وفي سنة ثمان وستين توجه يوسف الى الاندلس بعساكره ونزل اشبيلية ثم سار منها وقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى فحصرها واجتمعت الفرنج على ابن الفنش في جمع كثير فلم يقدروا على لقاء المسلمين فاتفق ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم في جمع كثير فاضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وهو مع ذلك يجهز العسكر ويسيرها الى غزو الفرنج في كل وقت فكان له بها عدة وقائع وغزوات ظهر منها للعرب من الشجاعة مالا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد يوسف بن عبد المؤمن الى مراكش وأما وقائعه مع من خرج عن طاعته من المسلمين في افريقية فكثيرة لاحاجة بنا الى ذكرها وهى مذكورة في التواريخ وفي سنة ست وسبعين أتاه رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس الصلح معه فهادنه عشر سنين وفي سنة ثمانين وخمسمائة سار يوسف الى الاندلس في جمع عظيم من عساكر المغرب وقصد غربى بلاد الاندلس فحصر مدينة تشتير شهرا وهى للفرنج فأصابه بها مرض فمات به في ربيع الاول من السنة المذكورة وحمل في تابوت الى اشبيلية وقيل انه أصابته طعنة فمات منها وبعد أن وصلوا به اشبيلية حملوه في التابوت الى جبل تينمل ودفنوه هناك عند أبيه عبد المؤمن بجانب قبر المهدى محمد بن تومرت واتفق شيوخ الموحدين على مبايعة ابنه يعقوب فبايعوه ولقبوه المنصور (لطيفة) يحكى ان الاديب أحمد بن عبد السلام الكوراني كان من ظرفاء الندماء وكوران قبيلة من البربر وكان يجالس عبد المؤمن ثم ابنه يوسف ثم ابنه يعقوب فاتفق انه حضر يوما عند يوسف بن عبد المؤمن وهناك الطبيب سعيد الغمارى وغمارة أيضا قبيلة من البربر فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعر من كوران وطبيب من غمارة فقال الكورانى وضرب لنا مثلا ونسى خلقه أعجب منهم والله خليفة من كومية فقال يوسف في نفسه أعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه فعفى عنه ولم يعاقبه

ذكر فتوحات يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

كان يعقوب المذكور دينا مقيما للحدود فاستقامت له الدولة وانقادت اليه الأمراء فأقام راية الجهاد وأحسن السيرة في الناس ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة في سائر بلادها وكان يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وكان مشاركا في علوم كثيرة ومن

لطائفه انه بعث لبعض عمـاله أن ينظر له رجـلا لتأديب أولاده فبعث له العامل رجلين وكتب معهما كتابا يقول فيه بعثت اليك برجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه فلما امتحنهما لم يرض بهما فوقع على ظهر كتاب العامل ظهر الفساد في البر والبحر وفي سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شلب وهي في غرب الأندلس فتجهز اليها بنفسه وحاصرها وأخذها وأنفذ في الوقت جيشا من الموحدين ومعهم جماعة من العرب ففتحوا أربع مدن كانت بيد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك باربعين سنة وخافه صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه خمس سنين وعاد الى مراكش فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الامر الى يعقوب وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جيش كبير وذلك في سـنة احدى وتسعين فسمع الفرنج بذلك فجمعوا خلقا كثيرا من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه وبعدان عزم يعقوب على المسير بعد جمع جيوشه أصابه مرض شديد حتى أيس منه أطباؤه فتأخر عن المسير فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والاطراف وكذلك فعل الاذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالاندلس فاقتضى الحال تفرقة جيوش الامير يعقوب لاصلاح مافسد في الاطراف واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الاذفونش في البلاد وبعث رسولا الى الامير يعقوب يتهدده ويتوعده ويطلب منـه بعض الحصون من بلاد الاندلس وكتب له رسالة من انشاء بعض من خذله الله ممن يدعى انه من المسلمين وهي باسمك اللهـم فاطر السموات والارض وصلى الله على السـيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح اما بعـد أيها الامير فلا يخفى على كل ذي عقل لازب ولا ذي لب ثاقب أنك أمير الملة الحنيفية كما انه هو أمير الملة النصرانية وانك لايخفى عليك ماهو عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعايا واخلادهم الى الراحات وانا أسـومهم بحكم القهر الخسف وأخلي الديار وأسبي الدراري وأمثل بالكهول وأقتل الشبان ولا عذر لكم عن التخلف عن نصرهـم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكي لى انك أخـذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاما بعـد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدري الجبن ابطأ بك أم

التكذيب بما أنزل عليك ثم حكي لى عنك انك لاتجد سبيلا الى الحرب لعلك مايسوغ لك التقحم بها فهاأنا أقول لك مافي ذلك واعتــذر عنك ولك ان تتوجه بجملة من عنــدك بالمراكب والشوانى وأجوز اليك بجملتي وأبارزك في أعز الاماكن عنــدك فان كانت لك الغلبة فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهــدنة مثلت بين يديك وان كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت أمارة الملتين والتقدم على الفئتين والحكم على البرين والله يوفق الارادة ويوضح السعادة لارب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون والجواب ماتراه لاما تسمعه أو تقرأه وكتب أيضا بيتا مشهورا للمتنبي

ولا كتب الا المشرفية والقنا * ولا رسل الا الخميس العرمرم

وأعاد الكتاب اليــه وجمع العساكر الكثيرة من المسلمين وعبر الى الاندلس في جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيها ودانيها واقبلوا اليه مجدين مصممين على القتال واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة فاقتتلوا قتالا شــديدا استشهد فيه كثير من المسلمين وكانت الدائرة في أول الامر على المسلمين ثم تراجعوا وعادوا على الفرنج فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا وقيل ثلاثون ألفا وغنم المسلمون منهم شيأ كثيرا فمن الخيام مائة ألف وثلاث وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألف وقيل ثمانون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمــير مائة ألف وقيــل أربعمائة ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لانهم لا ابل عندهم بالاندلس ومن الدروع التى صارت لبيت المال ستون ألفا غير ماأخذه المسلمون منها وأما الذهب والفضة والجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ونجا الفنش برأسه وهو ملك النصارى [illegible] في طليعة في أسوء حال وحلق رأسه ونكس الصليب وحلف أن لاينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ [illegible] وصار يجمع [illegible] من البلاد البعيدة [illegible] ثم اتبعه [illegible] مرة ثانية [illegible] حاصره في طليطلة وحصره فيها [illegible] فخرجت [illegible] الاذفونش [illegible] بين يديه [illegible] فرق لهن [illegible] بها ووهب لهم أموالا كثيرة [illegible] ورجع الى قرطبة [illegible]

فجاءته رسل الفنش بطلب الصلح فصالحه وهادنه خمس سنين وأمن الناس وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيأ فهو له وأحصى ماحمل اليه من السلب فكان زيادة على سبعين ألفا وهذه الوقعة تسمى وقعة الارك وهو اسم للموضع الذى كانت فيه الوقعة ولم يسمع بعد وقعة الذلاقة التى كانت على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمثل وقعة الارك هذه بل صرح بعض المؤرخين بانها أعظم من وقعة الذلاقة وكان جملة من استشهد من المسلمين في هذه الوقعة نحو عشرين ألفا وعظم أمر الاسلام بالاندلس بعد هذه الوقعة ومدح الشعراء يعقوب بعد هذا الفتح بقصائد كثيرة وأجازهم بعطيات وافرة فمنهم ابن منقذ وكان شاعرا بليغا مدحه بقصيدة منها قوله

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ماالأخراه ساحل
الى معدن التقوى الى معدن الندى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا * بان نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك الغنا فبلغتها * وادنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا * تبلغك الآمال ماأنت آمل

وعدد أبيات القصيدة أربعون بيتا فأعطاه أربعين ألفا وانما صالح يعقوب الفرنج وهادنهم لانه بلغه قيام ثائر من المرابطين بأفريقية فأراد يعقوب الرجوع الى مراكش لقمع هذا الثائر وأحماده فرجع وقمعه وأخمده (لطيفة) قال الشيخ محي الدين بن العربى رضى الله عنه في الفتوحات المكية كنت بمدينة فاس سنة احدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد جازت الى الاندلس لقتال العدو فلقيت رجلا من رجال الله فسألنى ماتقول في هذا الجيش هل يفتح له وينتصر في هذه السنة أم لا فقلت له ماعندك أنت في ذلك فقال ان الله تعالى قد ذكره في كتابه وبشر به نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا وموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الالف في مبينا فانها لاطلاق الوقوف في تمام الآية فنظرت وحسبت الحروف فوجدت الفتح يكون في سنة احدى وتسعين وخمسمائة ثم جزت الى الاندلس في السنة المذكورة وقد نصر الله جيش المسلمين فهذا من الفتح الالهى لهذا الشخص اه

فتحا مبينا
٤٨٩ ١٠٢ وتوفي الامير يعقوب بمدينة سلا وقيل بمراكش سنة خمس وتسعين وخمسمائة
٥٩١ وعمره احدى وأربعين سنة قال ابن خلكان في ترجمة يعقوب المذكور ثم

حكى لى جمع كثير بدمشق سنة ثمانين وستمائة ان بالقرب من الجدل البايدة التى من اعمال البقاع العزيزية بالشام قرية يقال لها حمارة والى جانبها مشهد يعرف بقبر الامير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف اهـ قال في نفح الطيب توفي السلطان يعقوب سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا وكانت ولايته خمس عشرة سنة وما يقال انه ساح في الارض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ودفن بالبقاع لا أصل له وان حكى ابن خلكان بعضه وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم وقال ان ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور انتهى قال ابن خلكان وسمعت عن الامير يعقوب حكاية يليق ان تذكر ههنا وهي ان الامير أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي كان قد تزوج أخت الامير يعقوب المذكور وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة فجاءت الى بيت أخيها يعقوب المذكور وأقامت عنده فسير الامير عبد الواحد في طلبها فامتنعت فشكا الامير عبد الواحد الى قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان فاجتمع القاضي المذكور بالامير يعقوب وقال له ان أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله فسكت الامير يعقوب ومضى على ذلك أياما ثم ان الامير عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الامير يعقوب وقال له انت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤني فاجتمع القاضي بالامير يعقوب وقال له يا أمير المؤمنين ان الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية فسكت الامير يعقوب ثم بعد ذلك بمدة اتى الامير عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنها فاجتمع القاضي بالامير يعقوب وقال له يا مولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فاما ان تسير اليه أهله واما ان تعزلني من القضاء فقال له يا أبا عبد الله ماهذا الاجد كبير ثم استدعى خادما وقال له في السر تحمل أهل الشيخ عبد الواحد فحملت اليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيأ يكرهه وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لاوامره قال ابن خلكان وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضا فانه بالغ في اقامة منار الشرع والعدل انتهى

ﷺ ذكر محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد مؤمن ﷺ

وما جرى في مدته من الغزوات توفي الامير يعقوب بن يوسف بن عبد مؤمن تابع شيوخ الموحدين ابنه محمد ولقبوه الناصر وكان نصارى الاندلس لما سمعوا بموت يعقوب خدوا يتغلبون على كثير من الحصون بالاندلس وكان محمد المذكور حديث السن عمره نحو تسع

عشرة سنة فاستخف بكثير من وزراء أبيه ورجال دولته وبكثير من رجال الاندلس العارفين بالقتال حتى أنه قتل بعض رجال دولته وشنق بعضهم فكان ذلك سببا لفساد النيات ولقوة الشكيمة للافرنج فلما بلغه قوة شكيمتهم وطمعهم في التغلب على بعض الحصون بل أخذوا بعضها بالفعل شرع في التجهز للمسير لقتالهم فتجهز في ستمائة الف مقاتل ودخله الاعجاب بكثرة من معه من الجيوش واستعدله العدو بجموع كثيرة فلما التقوا وتقاتلوا في شهر صفر سنة تسع وتسعمائة انهزم المسلمون وكثر القتل فيهم ولم ينج من الستمائة الف الذين مع محمد بن يعقوب غير عدد يسير لم يبلغوا الالف فكانت هذه الوقعة هي الطامة الكبرى على الاندلس بل على المغرب كله وما ذاك الا لسوء التدبير والاعتماد على القوة وكثرة الجند والله غالب على أمره واستولى العدو بعدها على كثير من الاندلس وتسمى هذه الوقعة بوقعة العقاب ثم كثر الثائرون والخارجون أيضا في المغرب وتوفي محمد بن يعقوب المذكور سنة ست عشرة وستمائة ثم تفرقت كلمة بني عبد المؤمن وكثر الاختلاف والقتال بينهم مع بعضهم وانتشرت فتن كثيرة بينهم فكانوا كلما بويع لواحد منهم خلعوه وخرجوا عليه الى ان انقضت دولتهم وكانوا كلهم يدعون لمهديهم محمد بن تومرت على المنابر في الخطبة ويسترحمون عليه ويكتبون اسمه على سكة الدراهم والدنانير الا العاشر من خلفائهم وهو أبو العلا ادريس الملقب بالمأمون ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه أمر باسقاط اسم مهديهم محمد بن تومرت من السكة والخطبة والف في ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلاله وصار يلعنه وكان ادريس المأمون عالما فصيحا متمكنا في علم الاصول والفروع ناظما ناثرا وكان سفاكا للدماء وكانوا يسمونه حجاج المغرب قتل مائة من شيوخ الموحدين وسفك دماء كثيرة من دماء الخارجين الثائرين عليهم وقتل في يوم واحد أربعة آلاف ونصب رؤسهم على أسوار مدينة مراكش مات سنة ثلاثين وستمائة وكان تمام انقضاء دولتهم سنة ثمان وستين وستمائة فكانت مدة دولتهم مع مهديهم مائة واثنتين وخمسين سنة وجملة من تولى منهم مع مهديهم ستة عشر شخصا فسبحان الملك الباقي الذى لايعتري ملكه الزوال والنقصان وتفصيل ملوكهم مع الفتن التي وقعت بينهم ذكرته في تاريخ جمعته في أخبار الاندلس وكان المنتزع للملك من بني عبد المؤمن جماعة من بني مرين وسنذكرهم ان شاء الله تعالى ونذكر ما كان منهم من الغزو لكفار الاندلس لكن ينبغي قبل ذكرهم ان نذكر الحفصيين ملوك تونس لانهم من فروع دولة الموحدين والجميع من فروع دولة محمد بن تومرت المهدى على زعمهم والحفصيون ملوك تونس هم أولاد أبي

حفص عمر الهنتاني وهو الوزير الثاني لمحمد بن تومرت لانه اول قيامه بدعواه كان الملازمون القائمون بأمره ثلاثة عبد المؤمن بن علي وعبد الله اونشريسي وأبوحفص عمر الهنتاني أما عبد المؤمن فقد تقدم الكلام عليه وعلى أولاده الذين ورثوا الملك منه الى ان ذهب ملكهم وأما عبد الله الونشريسي فقتل في بعض الحروب التي كانت أول ظهور محمد بن تومرت وأما أبو حفص عمر الهنتاني فكان وزيرا لعبد المؤمن وكان ولي العهد بعده ثم احتال عليه عبد المؤمن وخلعه وجعل ولاية العهد لابنه محمد ثم يوسف بن عبد المؤمن وكان عبد المؤمن في مدة ملكه اتخذ أباحفص عمر الهنتاني وزيرا وخليلا يقربه ويدنيه ويستشيره في أموره كلها ثم صار أبناء عبد المؤمن يقربون أبناء أبي حفص ويدنونهم ويتخذون منهم وزراء وأمراء وفي سنة ستمائة وثلاث في مدة ملك محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن جعلت ولاية تونس لعبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاني وتوارثها بنو عبد الواحد المذكور وبقي ملك تونس فيهم الى سنة تسعمائة وواحدى وثمانين فانتزع ملك تونس منهم سلاطين آل عثمان فكانت مدة تملك تونس لبني حفص ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وعدة ملوكهم ثمانية وعشرون ملكا فدولتهم أيضا من فروع دولة المهدي محمد بن تومرت وكان لهم ملك ضخم وجرى منهم غزوات وفتوحات سيأتي كثير منها بعد اتمام الكلام على دولة بني مرين المنتزعين ملك بني عبد المؤمن وبعد ذكر ما كان منهم من الغزوات والفتوحات بالاندلس

﴿ ذكر دولة بني مرين وغزواتهم بالاندلس ﴾

علم أن بني مرين قبيلة من قبائل البربر كانوا متوحشين يسكنون الصحراء والقفار وكانت لهم مواش ثم صارت لهم خيل وقوة فلما ضعف ملك بني عبد المؤمن ورأى بنو مرين ضعفهم واختلال ملكهم تخلصوا من الصحراء والقفار وتفرقوا في جهات المدن والامصار وأوجفوا بخيلهم وركابهم وظهرت لهم رياسة وقوة وشوكة فخلعوا طاعة بني عبد المؤمن من بعد أن كانوا تحت طاعتهم فصار كثير من رعايا بني عبد المؤمن يحتمون ببني مرين ويلتجئون اليهم لاسيما اذ وقعت عليهم مغرمة من بني عبد المؤمن فتمسك كثير من الناس بتعصبات في مرين واشتد الحرب بينهم وبين بني عبد المؤمن وجرى من ذلك فتن كثيرة بين الفريقين ووقع بينهم محاربات يطول الكلام بذكرها فصار بنو مرين يتقوى امرهم كلما ضعف ملك بني عبد المؤمن الى ان استولوا على ملكهم وانتزعوه منهم واستولوا عليه وكانت ظهرت الرياسة في بني مرين بعد الستين وخمسمائة من الهجرة واول من ظهرت عليه الرياسة منهم محيو بن

أبى بكر بن حمامة فقدموه رئيسا عليهم الى ان توفي سنة احدى وتسعين وخمسمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عبد الحق بن محيو الى ان توفي سنة أربع عشرة وستمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عثمان بن عبد الحق الى ان توفي سنة سبع وثلاثين وستمائة ثم بعده اخوه محمد ابن عبد الحق الى ان توفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة ثم أخوه أبويحيي بن عبد الحق الى ان توفي سنة ست وخمسين وستمائة فقام بالرياسة بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وفي هذه المدة السابقة كانت محاربات كثيرة بينهم وبين بنى عبد المؤمن فقوى أمرهم وانتشر صيتهم واستولوا على مدائن وقرى منها مكناسة وفاس وتلمسان وطنجة وسبتة وغير ذلك الا تونس واعمالها فان ملكها كان بيد الحفصيين أبناء أبي حفص عمر الهنتاني أحد أصحاب المهدى محمد بن تومرت وقد تقدم ذكر ذلك وكان تملك بنى مرين فاس سنةست وأربعين وستمائة وآخر الامر ملكوا مراكش سنة ثمان وستين وستمائة وقتلوا أبا دبوس الملقب بالواثق وهوآخر ملوك بنى عبد المؤمن واستقر الملك لبنى مرين على يد يعقوب بن عبد الحق فهو الذى ينبغى ان يكون أولهم ولما استقرت دولته بمدينة مراكش جاءته البيعة من أهل الاندلس وجاء جماعة منهم يستنصرون به على النصارى المتغلبين على أكثر الاندلس وسيأتى ذكر تجهيزه لغزو العدو بالاندلس انشاءالله تعالى

ذكر ما كان من استيلاء العدو على كثير من مدائن الاندلس مدة ضعف دولة بنى عبد المؤمن

كان بالاندلس عمال لبنى عبد المؤمن متفرقون في أقطارها ومدائنهافلما حصل الضعف لدولتهم وانتشرت الفتنة بينهم مع بعضهم وبين بنى مرين واشتغلوا بقتالهم اغتنم العدو الفرصة وصاريقتطع كثيرا من المدائن والمعاقل والحصون ويستولى عليها ولم يوجد بالاندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو ويقاتله وقد كثر مااستولى عليه الطاغية في هذه المدة التى ضعف فيها ملك بنى عبد المؤمن وبعض المدائن استولى عليها العدوقبل ظهور الضعف في دولتهم فمن ذلك مدينة تطيلة وأختها طرشونة استولى عليها الطاغية سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكانذلك في أول دولة بنىعبد المؤمن وآخر دولةالمرابطين بل كان قد استولى قبل ذلك على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم حتى ان يوسف بن تاشفين لما عبر الاندلس وكانت وقعة الزلاقة عجز عن تخليص طليطلة من يد الطاغية واستولى الطاغية على مدينة سرقسطة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ثم استرجعت ثم استولى عليها ثانيا سنة خمسمائة واثنى عشرة واستولى على بلنسية سنة أربعمائة وسبع

وخمسين ثم ارتجعها المسلمون ثم تكرر استيلاؤهم عليها واسترجاعها كما تقدم ثم تغلب العدو عليها وأخذها مرة أخرى سنة ست وثلاثين وستمائة واستولى على حصن روطة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان من أمنع الحصون سلمة ابن هود لصاحب طليطلة لما عجز عن مقاومته واستولى العدو على مدينة المرية سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وكان قبل ذلك استولى على مدينة لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة ثم ارتجع الموحدون المرية سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين سنين ثم ارتجعها العدو خذله الله مرة أخرى واستولى على كورة ماردة سنة ست وعشرين وستمائة وعلى ميروقة سنة سبع وثلاثين وستمائة وعلى جزيرة شقرة سنة تسع وثلاثين وستمائة وعلى قرطبة دار الخلافة سنة ست وثلاثين وستمائة وعلى شرق الاندلس شاطبة وغيرها سنة خمس وأربعين وستمائة واستولوا سنة أربع وأربعين وخمسمائة على مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون الارادة وافراغة وعلى مرسية صلحا في العام المذكور وحصروا اشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة وملكوها في العام القابل وبيان وقائع أخذ الطاغية لهذه المدائن يطول الكلام بذكره وذلك مشتمل على ما تتقرح له الاكباد وتنسجم له العيون ولما أخذت قواعد المدائن وأمهاتها بالاندلس مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الاسلام الى قطعة من شرق الاندلس كانت بيد المسلمين منهم محمد بن يوسف بن هود الجذامي كان آباؤه لهم ملك بالاندلس من جملة ملوك الطوائف فكان محمد بن يوسف مذكور بمرسية من شرق الاندلس وكان هناك عمال لبني عبد المؤمن فتغلب عليهم واخرجهم واستعان على ذلك ببعض أهل الاندلس وعلمائهم وأعيانهم وصار الملك له وخطب لبني العباس وأقام الدعوة لهم ثم كثر المنازعون له والثائرون عليه من المسلمين ومن الفرنج وطمعوا فيه فاضطربت عليه الامور وكان ممن نازعه من المسلمين بنو الاحمر وهم قوم ينسبون الى سعد بن عبادة رضى الله عنه الانصارى سيد الخزرج في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان تحت أيديهم بعض مدائن بغرب الاندلس فانتزعوا ما كان تحت يد محمد بن يوسف بن هود وضموه الى ما كان تحت أيديهم وكان أول من قام من بني الاحمر محمد بن نصر وكان أبوه نصر في دولة بني عبد المؤمن من أمراء الاجناد وكان محمد بن نصر يقال له محمد الشيخ وبويع سنة تسع وعشرين وستمائة وخطب لابى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتى وكان أبو زكريا المذكور اذ ذاك صاحب تونس وكان قد استفحل ملكه بتونس وافريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن ودعا لنفسه وتسمى بامير المؤمنين فبويع ابن

الاحمر الناس له ليفسد على ابن هود بيعته لبني العباس ودخل مع ابن الاحمر في تلك البيعة أهل جيان وشريش وكان الطاغية في ذلك الوقت محاصرا بلنسية وذلك سنة ست وثلاثين وستمائة ثم أرسل ابن الاحمر جماعة من أعيان أهـل الاندلس لأبي زكريا الحفصي بتونس فقدموا عليه وعقدوا له بيعة أهـل الاندلس واستصرخوا به يريدون منه النجدة في قتال النصارى فأجابهم الى مطلبهم وعقد أبو زكريا لتلك البيعة يوما مشهودا بتونس وأنشد شاعر أهـل الاندلس القصيدة المشهورة التي أولها

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وهي قصيدة طويلة بليغة مذكورة في نفح الطيب فأجاب أبو زكريا بيعتهم ولبى دعوتهم وجهز لهم أساطيل فيها المال والرجال فلما وصلوا الاندلس وجدوا الطاغية المحاصرة بلنسية قد ملكها ثم ملك مرسية أيضا صلحا وكان ممن قام بالاندلس أيضا أبو محمد اشقيلولة واستولى على قمارش ووادي آش وكان بينه وبين ابن الاحمر مصاهرة وقرابة مع منافسة باطنية فاستعان به ابن الاحمر على ابن هود وكان ابن هود قبل ان يتغلبوا عليه قد جاءه خطاب وتقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله بن الظاهر بن الناصر فقوى ابن هود لما جاءه التقليد فبايعه ابن الاحمر وترك الخطبة لابي زكريا الحفصي صاحب تونس وافريقية ثم قام باشبيلية أبو مروان الباجي فداخله ابن الاحمر على ان يزوجه ابنته فاطاعه أبو مروان فدخل ابن الاحمر اشبيلية ثم فتك بابن مروان فقتله ثم ان أهل اشبيلية بعد شهر كاتبوا ابن هود ودخلوا في طاعته وأخرجوا ابن الاحمر ثم تاب ابن الاحمر على غرناطة سنة خمس وثلاثين وستمائة بمواطأة من أهلها فجاءته بيعتهم وهو بجيان فجاء الى غرناطة فدخلها وجعلها كرسي مملكته ثم تغلب على مالقة وفي هذه المدة التي وقعت فيها هـذه الفتن بين المسلمين بالاندلس قوى أمر النصارى وطمعوا فيما بأيدي المسلمين وتلقفوا كثيرا من مدائن الاندلس وحصونها وداخلهم ابن هود وهادنهم بالصلح ليدفعوا عنه ابن الاحمر وأعطاهم كثيرا من المعاقل والحصون قيل انه أعطاهم ثلاثين حصنا وجعل على نفسه ضريبة لهم كل سنة أربعمائة ألف دينار ثم ثار على ابن هود وزيره ابن الرميمي فقتله واستولى على ما بيده ثم استولى ابن الاحمر على ما بيد الرميمي سنة ثلاث وأربعين وستمائة ثم بايع ابن الاحمر أهل ميروقة سنة ثلاث وستين وستمائة وحصل لاعقاب ابن هود في هذه الفتن خطوب كثيرة وحروب بينهم وبين ابن الاحمر ثم دخلوا في طاعته فبعث ابن الاحمر ابن

اشقيلولة فتسلم منهم مرسية وخطب لابن الاحمر وعوضهم عن مرسية حصنا من عملها سنة ثمان وستين وستمائة ثم انقرضت دولة بني هود بالكلية وكان ابن الاحمر في أول أمره يداخل النصارى ويستعين بهم على ابن هود فلما داخل النصارى ابن هود وأعطاهم الحصون المتقدم ذكرها وجعل لهم الضريبة على نفسه فزع اليهم ابن الاحمر لانهم كفوا عن معاضدته التي كانت منهم له قبل ذلك وصاروا معاضدين لابن هود ثم لما رأى ابن الاحمر أمر النصارى يقوى ورآهم تغلبوا على قرطبة وغيرها خاف ان يستولوا على مابيده نسخطهم ونبذ عهدهم وصار محترسا منهم وحاز في تمالكه مدائن بغرب الاندلس وبالمتوسطة من الاندلس من ذلك غرناطة والمرية ومالقة ونحوها وتوفي ابن الاحمر محمد الشيخ بن يوسف بن نصر سنة ستمائة واحدى وسبعين فبويع بعده ابنه محمد الفقيه بن محمد الشيخ وكان ممن بقي من ملوك الاندلس بنو اشقيلولة وكانوا نظراء لابن الاحمر في الرياسة وبينهم وبينه مصاهرة ومنافسة وكان الرئيس فيهم ابا محمد صاحب مالقة وأخاه أبا اسحق صاحب وادي آش وقمارش ثم ان ابن الاحمر محمدا الفقيه في سنة ثلاث وسبعين وستمائة بعث جماعة من المسلمين الى بني مرين يستصرخون بهم ويسألونهم النصرة والاعانة على قتال النصارى وكان في ذلك الوقت قد تمكن الملك في مراكش والمغرب الاقصى لبني مرين وكان الملك في ذلك الوقت من بني مرين يعقوب بن عبد الحق

ذكر أول تجهيز من بني مرين لغزو النصارى بالاندلس

لما جاء الصريخ من أهل الاندلس مع الجماعة الذين بعثهم ابن الاحمر محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر جهز السلطان يعقوب بن عبد الحق جيوشا كثيرة من مدينة فاس ومراكش فجازت الى الاندلس مع بعض أولاد السلطان يعقوب والتقوا مع النصارى وقاتلوهم أشد قتال وهزموهم شر هزيمة وملؤا أيديهم من غنائمهم وأسلابهم وتحصن النصارى في حصونهم ومعاقلهم في المدائن التي ملكوها ورجع بنو مرين سالمين منصورين ولم يأخذوا في هذه الغزوة شيئا من المدائن التي ملكها العدو

غزوة اخرى لبني مرين الى الاندلس

في سنة أربع وسبعين وستمائة جمع من المسلمين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني جموعا كثيفة واستنفر المسلمين من كل ناحية وغزا الاندلس بنفسه فلما وصل طريف تلقاه ابن الاحمر محمد الفقيه صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقة فأكرمهما ووفى بهما في أمر جهاده ثم أمرهما بالرجوع الى بلديهما فانصرف ابن الاحمر

مغاضبا لكلمات صدرت من ابن اشقيلولة أغضبته وجاء الخبر للسلطان يعقوب ان زعيم النصارى جمع جموعا كثيرة يضيق منها الفضاء فرتب السلطان جيوشه للقائه ثم التقوا وتقاتلوا قتالا شديدا وهزم الله النصارى هزيمة قبيحة حتى قال بعض المؤرخين ان المسلمين بعد ان هزموا يوم العقاب الذى كان في دولة الموحدين في مدة محمد بن يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن ما نصروا حتى دخل السلطان يعقوب ابن عبد الحق المرينى الاندلس وفتك بهم وقتل الله زعيم النصارى في هذه الوقعة وكان اسمه ذننة وقتل من جيشه أكثر من أربعين ألفا وهزم الباقون شر هزيمة وملك السلطان من الاندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك وأعز الله به الدين بعد تمرد النصارى ولما قتل ذننة زعيم النصارى في القتال المذكور بعث السلطان يعقوب رأس ذننة الى ابن الاحمر فقيل ان ابن الاحمر طيبه وأكرمه ورده الى النصارى وجعل ذلك صنيعا عندهم وكرامة لهم وولاية أخلصها لهم وكان ذلك منه انحرافا عن السلطان يعقوب قال ابن خلدون وظهرت شواهده عليه بعد حين ورجع أمير المسلمين من غزوته الى الجزيرة منتصف ربيع الاول من سنته فقسم الغنائم في المجاهدين وما أخذوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم بعد اخراج الخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرف في مصارفه وكان مبلغ الغنائم في هذه الغزوة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفا ومن الاسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين أسيرا ومن الكراع أربعة عشر ألفا وأما الغنم فشيء كثير خارج عن الحصر وكذا السلاح وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما

﴿ غزوة أخرى ﴾

بعد فراغ الغزوة السابقة ورجوع السلطان الى الجزيرة واقامته أياما خرج غازيا من الجزيرة الى اشبيلية فجاس خلال ديارها وتتبع نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها ثم ارتحل الى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح ثم رجع الى الجزيرة بعد شهرين ثم رجع الى المغرب من السنة المذكورة بعد ان رتب في الاندلس جيشا يقيم هناك ليدوم الغزو والجهاد للكفار

﴿ غزوة أخرى لبنى مرين للاندلس ﴾

في سنة ست وسبعين وستمائة تجهز السلطان يعقوب بن عبد الحق وسار بجموعه ونزل بطريف آخر المحرم ثم ارتحل الى رندة ووافاه الرئيسان أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقه وأخوه أبو اسحق صاحب قمارش يريدان الغزو معه ولم يأته ابن الاحمر محمد الفقيه

صاحب غرناطة فارتحل السلطان ومن معه الى منازلة اشبلية وكان باشبيلية اذ ذاك ملك الجلالقة ابن اذ فونش نخار وجبن عن اللقاء وبرز الى ساحة البلد محاميا عن أهله فرتب أمير المسلمين جيوشه وجعل ابنه يوسف في المقدمة وزحف في التعبية فانحجز العدو الى البلد واقتحموا أثرهم في الوادى وأثخنوا فيهم الى ان جاء الليل وبات العسكر ليلتهم على ظهور خيولهم وقد أضرموا النيران بساحة العدو وضربوا الحصار عليهم وبثوا السرايا والغزوات في سائر النواحي حتى أبادوا عمرانها وملكوا حصن قطيانة عنوة وكذا حصن جليانة وحصن القليعة وأثخنوا في القتل والسبي ثم ارتحل السلطان الى الجزيرة الخضراء بالغنائم فارتحل وقسم الغنائم في المجاهدين

غزوة أخرى

في منتصف ربيع الثاني من السنة المذكورة فارتحل السلطان من الجزيرة الخضراء غازيا الى شريش فأذاقها نكال الحرب واقفر نواحيها وقطع أشجارها وحرق كثيرا من ديارها وأعمالها ونواحيها واثخن فيها بالقتل والاسر وتحصن العدو بمدينة شريش وجبن عن اللقاء فأراد السلطان أخذ الاطراف ليسهل حصار البلد وبعث ابنه يوسف في سرية للاغارة على اشبيلية وحصون الوادى فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح اشبيلية وانكفأ الى أمير المسلمين فقفلوا جميعا الى الجزيرة الخضراء فأراحوا وقسموا الغنائم في المجاهدين

غزوة أخرى

ثم لما كان السلطان بالجزيرة الخضراء حث المسلمين على غزو قرطبة ورغبهم في عمرانها وثروة مساكنها وخصب بلادها فانعطفوا الى جانبه وارسل لابن الاحمر يستنفره ودارت بينهما مكاتبات فيها عتاب زال به ما كان في نفس ابن الاحمر فعزم على لقاء السلطان وخرج أمير المسلمين من الجزيرة الخضراء لاول جمادى ووافاهم ابن الاحمر بناحية ارشدونة فأكرم وصوله فنازلوا جميعا حصن بني بشير وملكوه عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء ونفلوا الاموال وخربوا الحصن ثم بث السرايا والغارات في البسائط فاكتسحها وملأت الايدى وثرى العسكر وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا ساحة قرطبة وتحجزت حامية العدو من وراء الاسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها وترددوا على جهاتها وملكوا حصن بركونة عنوة ثم ارجونة كذلك وجبن العدو عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه فجنح

الى السلم وارسل لامير المسلمين يطلب السلم فدفعه الى ابن الاحمر وجعل الامر في ذلك اليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه فاجابهم ابن الاحمر الى الصلح بعد عرضه على أمير المسلمين واذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الاندلس اليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم وقفل أمير المسلمين من غزواته وجعل طريقه على غرناطة كرسي ملك ابن الاحمر احتفالا به وخرج له أمير المسلمين عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الاحمر وقال له السلطان يعقوب يكون حظ بني مرين من هذه الغزوة الاجر والثواب مثل مافعل يوسف بن تاشفين مع أهل الاندلس يوم الزلاقة ودخل أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء في أول رجب من العام المذكور فأراحهم ونظر في ترتيب المصالح على الثغور وكان بنو اشقيلولة مع أمير المسلمين في هذه الغزوة وفارقوه بعد فراغ الغزو ولما قفلوا اعتل أبو محمد صاحب مالقة ثم مات غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد السلطان آخر شهر رمضان وهو بالجزيرة فنزل للسلطان عن مالقة ودعاه الى احتيازها لانه رأى ابن الاحمر يطمع في انتزاعها منه ولا قدرة له على دفاعه وقال للسلطان ان لم تحزها اعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الاحمر فقبلها السلطان منه وعقد عليها أمير المسلمين لابنه أبي زيان منديل ثم سار أمير المسلمين اليها بعد انقضاء شهر الصيام فوافاها سادس شوال وبرز اليه أهلها في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بقدومه ودخولهم في ايالته وأقام فيها الى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيي وكان من صنائع دولتهم وأنزل معه المسالح وزيان ابنه أبي عباد بن عبد الحق في طائفة من أبطال بني مرين واستوصاه بمحمد ابن اشقيلولة ولما علم ابن الاحمر ان أمير المسلمين تملكها شق عليه ثم ارتحل السلطان الى الجزيرة ثم الى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب بما أعطاه الله من نصر المسلمين لكن نشأ من تملكه مالقة غيظ لابن الاحمر وعظم عليه الامر فتظاهر بطاغية النصارى واتفق معه على منع دخول السلطان الاندلس بعد هذه المرة ان أراد ذلك فاغتنم الطاغية مظاهرة ابن الاحمر له فنكث عهد أمير المؤمنين واغزى اساطيله الجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره واحتال ابن الاحمر على عامل مالقة فأخذها منه وراسلوا بعض الثائرين على السلطان بالمغرب وحثوهم على افساد الثغور واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش وبلغه ان المسلمين في الجزيرة الخضراء في شدة من ضيق الحصار فعقد لابنه على الغزو واغزى الاساطيل في البحر الى جهاد العدو

غزوة أخرى لبني مرين بالاندلس

لما بلغ أمير المسلمين ماتقدم من نكث الطاغية العهد ومظاهرة ابن الاحمر فعقد السلطان لابنه فوصل الى طنجة في شهر صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وأوعز الى البلاد البحرية لاعداد الاساطيل بسبتة وطنجة وسلا وقسم الاعطاآت واستنفر الناس فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت ولما رأى ابن الاحمر مانزل بالمسلمين في الجزيرة الخضراء من حصار الطاغية لها واشرافه على أخذها أخذته الحمية الاسلامية وأعد أساطيله وكانت اثنى عشر وبعثها مددا للمسلمين واغاثة لهم وكانت اساطيل أمير المسلمين تناهز السبعين وقيل اثنين وسبعين وبعث الامير صاحب سبتة خمسة وأربعين اسطولا واساطيل الطاغية تناهز أربعمائة وتلاقوا مع العدو واخلصوا لله عزائمهم وصدقوا في نياتهم ووعظهم خطباؤهم والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن الا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل فانكشفوا وتساقطوا في البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرفأ الجزيرة وفرضتها عنوة فاختل عسكر الطاغية ودخلهم الرعب وخرج الناس المحصورون من البلد وانتشرت النساء والصبيان بساحته فغنموا كثيرا من الحنطة والادام والفواكه حتى ملؤا أسواق البلد من ذلك أياما وأجاز الامير يوسف من حينه الى الاندلس وارهب العدو في كل ناحية ثم صده عن التوسع شأن الفتنة مع ابن الاحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية صلحا ويصل به يدا ليناذل غرناطة كرسى ملك ابن الاحمر فأجابه الطاغية الى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الاحمر في اعداده المدد لاهل الجزيرة وتظاهر الطاغية بالعداوة لابن الاحمر وبعث الطاغية اساقفته لعقد الصلح فأجازهم الامير يوسف الى أبيه أمير المسلمين فغضب لذلك وأنكر على ابنه ولم يرض بما أراده ابنه وزوى عنه وجه رضاه وأرجعهم الى طاغيتهم مخفقي السعي وجاء أهل الجزيرة الخضراء الى أمير المسلمين فلقوه بأرض السوس فولى عليهم ابنه أبا زيان منديل فنزل بالجزيرة وأتم الصلح مع الطاغية ونازل المرية برا وبحرا وكانت لابن الاحمر فامتنع أخذها عليه وانضوى اليه أهل الحصون القريبة بطاعتهم حذرا من الطاغية فتقبلهم ونازل الطاغية ابن الاحمر بغرناطة وحصره فرجع ابن الاحمر مسالمة بني مرين وبعث لابي زيان ابن السلطان في طلب الصلح فأنهى الامر الى أبيه فأشفق السلطان على المسلمين وعلى ملك ابن الاحمر من منازلة الطاغية فراسله السلطان الى أن تم الصلح بينه وبين ابن الاحمر ورحل الطاغية من غرناطة واشترط السلطان على ابن الاحمر رجوع مالقة للسلطان

﴿ غزوة أخرى ﴾

من لطف الله بالمسلمين وعنايته ببني مرين ان اوقع الخلف بين الطاغية ابن اذفونش وابنه شانجة حتى سلب اباه ملكه وتغلب عليه فوفد على السلطان بطارقة الطاغية وزعماء دولته مستصرخين على ابنه شانجة مخبرين بأنه خرج على ابيه في طائفة من النصارى فغلبوه على أمره فجاؤا يطلبون النصرة من أمير المسلمين ليرجع للطاغية ملكه وينتزعه من ابنه ففرح أمير المسلمين بافتراقهم وأحب الدخول الى الاندلس ليقضي مأربه من جهاد الكفار فأجاب أمير المسلمين رسل الطاغية ووعدهم بالقيام مع الطاغية ليرجع ملكه اليه وينتزعه من ابنه الغاصب له فأوغر الى الناس بالجهاد وأمرهم بالنفير وجهز الجيوش واجاز الى الجزيرة الخضراء فاحتل بها في ربيع الثاني سنة احدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه مسالح الثغور بالاندلس وسار حتى نزل صخرة عباد فوافاه الطاغية بنفسه ذليلا لعز الاسلام مؤملا صريخ السلطان فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظم قدره وذكر ابن خلدون وابن الخطيب ان هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما لقدره وخضوعا لعزه فدعا السلطان بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هناك من جموع المسلمين والفرنج والتمس الطاغية من السلطان ان يمده بشيء من المال يستعين به فأمده لنفقاته مائة الف من مال المسلمين استرهن فيها الطاغية تاجه بقي بيد المسلمين فخرا للاعقاب ودخل السلطان معه دار الحرب حتى نازل قرطبة وبها شانجة ابن الطاغية الخارج على ابيه السالب للملكه فقاتلها اياما ثم تنقل في جهاتها ونواحيها وارتحل الى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى الى حصن مجريط من اقصى الثغر فامتلأت ايدي المسلمين من الغنائم وضاق معسكره منها ورجع السلطان الى الجزيرة فاحتل بها لشعبان من السنة ولما اتصلت يد السلطان يد الطاغية خشي ابن الاحمر غائلته فجنح الى موالاة شانجة الخارج على ابيه ووصل يده بيده وأكد له العقد وأضرمت له الاندلس نارا وفتنة ولم يغن ذلك شانجة شيئاً فلم يزل السلطان مع الطاغية حتى ظهر على ابنه وذلك ان السلطان كان اشترط على ابن الاحمر ارجاع مالقة فلم يفعل فنهض السلطان الى مالقة ونازلها فاتح ثنتين وثمانين فتغلب على الحصون القريبة ثم حاصر مالقة فضاق النطاق على ابن الاحمر فلتجأ الى الامير يوسف ابن السلطان وخاطبه مستصرخا لرقع هذا الخرق وجمع كلمة الاسلام فأجابه واجاز لشهر صفر فوافي السلطان أمير المسلمين بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الاحمر والتجافي عن مالقة فاسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضاء الله في جهاد عدوه واعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط امل ابن الاحمر

وتجددت عزائم المسلمين وقفل السلطان الى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثاني من سنة ثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى الى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح حصونا ثم رجع الى الجزيرة في شهر رجب وقسم الغنائم ثم رجع الى المغرب وفي فاتح سنة ثلاث وثمانين بلغه مهلك الطاغية ابن اذفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج على ابيه فتحركت الى الجهاد عزائم السلطان

﴿ غزوة أخرى ﴾

في سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على جهاد العدو بالاندلس فجمع الجيوش ونهض من مراكش في شهر جمادى الآخرة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى صومه ثم شرع في ارسال الجنود الى الجزيرة الخضراء الى خاتمة سنته ثم اجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة اربع وثمانين ولما انتهى الى الجزيرة سرح في بلاد العدو وبث السرايا والغارات في جميع النواحي فأثخنوا القتل والتخريب والسبي للنساء والذرية وركب غازيا بنفسه كثيرا من تلك الجهات وجرى في هذه الغزوات مايطول الكلام بذكره وتعداد الجهات والحصون التي أخربوها وسلبوا مافيها وبقي النصارى متحصنين في حصونهم المنيعة لايقدرون على المبارزة لقتال ولا على الخروج من حصونهم فاستيقن الطاغية شانجة واهل ملته أن بلادهم قد فنيت وارضهم قد خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية فجنحوا الى السلم وضرعوا الى أمير المسلمين في كف عاديته عنهم واجتمع النصارى الى طاغيتهم شانجة خاشعة ابصارهم وسألوه ان يبعث الى أمير المسلمين الملأ من كبار النصارى يسألونه الصلح فأجابهم شانجة الى مادعوه اليه فأوفد الى أمير المسلمين وفدا من بطارقتهم وكبار دولتهم فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم فأعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط أمير المسلمين ماشاء من عز دينه وقومه فأسعفهم أمير المسلمين لمايتقى ذلهم لعز الاسلام ولانه اراد الرجوع الى المغرب لاصلاح مافسد من الرعايا بقيام بعض الثوار الخارجين عن طاعته فعقد الصلح مع طاغية النصارى واشترط عليهم ماأراد من ذلك أنهم يقفون عند مرضاته في ولاية جيرانه من ملوك أوعداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين المقيمين بدار الحرب من ممالكهم وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة

﴿ ذكر وفادة الطاغية على السلطان ﴾

ثم رجعت رسل الطاغية اليه بعقد الصلح ووفد على الطاغية رسل ابن الاحمر يعقد سلم

معه دون أمير المسلمين وان تكون يده ويده واحدة على السلطان فأخبرهم بما عقده مع أمير المسلمين ثم قال هذا أمير المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا ثم اشار عليه بعض رجال دولته بالوفادة على أمير المسلمين لتتمكن الالفة فقبل اشارتهم والتقى قبل ذلك بولي عهد أمير المسلمين وهو ابنه يوسف وكان نازلا على فراسخ من شريش فلقيه وبات في معسكر المسلمين ثم ارتحل من الغد للقاء أمير المسلمين فأمر المسلمين بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه واظهار شعار الاسلام وأبهته فاحتفلوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يليق بها مثله من عظماء الملل وقدم هدية سنية لامير المسلمين وابنه فقبلاها منه وقابلاه بكفائها ومضاعفتها وكمل عقد الصلح وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الاسلام وانقلب الى قومه وسأله السلطان ان يبعث له من كتب المسلمين التي استولى عليها النصارى فلما رجع بعث اليه ستة عشر حملا وقفل أمير المسلمين الى الجزيرة في آخر شعبان وصام بها رمضان ثم أعمل نظره في الثغور وترتيب المصالح ثم اعتل وهو بالجزيرة واستمر به المرض الى ان توفي لآخر المحرم من سنة خمس وثمانين وستمائة فكانت مدة ملكه تسعا وعشرين سنة وكان ابنه ولي عهده في أقصى المغرب بعثه أبوه لتفقد الاحوال وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فأخذ البيعة له وزراء أبيه وعظماء قومه وحضر بنفسه في شهر صفر فأخذوا البيعة على الخاصه والعامة وكان أول شيء أحدث من أمره ان بعث الى ابن الاحمر وضرب موعدا للقائه فبدر اليه ولقيه بظاهر مربالة لاول ربيع فلقيه هو بعزة وتكريم وتجاوزله عن جميع الثغور الاندلسية التي كانت لمملكة والده السلطان يعقوب ماعدا الجزيرة وطريف وتفرقا على أكمل حالات المصافات والوصلة ورجع السلطان يوسف الى الجزيرة فوافاه بها الطاغية شانجة فجددوا عقد السلم الذي عقد له أمير المسلمين يعقوب رحمه الله فأجابه

غزوة أخرى

في سنة سبع وثمانين لما اخبر السلطان يوسف بن يعقوب بأن الطاغية انتقض العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فأرسل السلطان الى قائد المسالح بالاندلس ان يدخل الى دار الحرب وينازل شريش ويشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك وجاس خلالها وتوغل في اقطارها وأبلغ في انكاية وفصل السلطان في ربيع الآخر سنة تسعين من تازى غازيا واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في اجازتهم البحر وبعث الطاغية أساطيله فالتقوا مع أساطيل السلطان في شعبان فاقتتلوا وانكشف المسلمون ووقعت عليهم هزيمة

قدرها الله عليهم واستشهد كثير منهم محصهم الله تعالى ثم أغزاله ثانيا فجبنت أساطيل الطاغية عن اللقاء ثم ملكتها أساطيل السلطان

غزوة أخرى

ثم أجاز السلطان بنفسه في أواخر رمضان سنة احدى وتسعين واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصنا منيعا ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو وردد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها الى ان بلغ الغاية في النكاية للعدو والاثخان وقضى من الجهاد وطرا وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع المسيرة عن العسكر فأفرغ عن الحصن ورجع الى الجزيرة ثم أجاز الى المغرب فاتح سنة ثنتين وتسعين

غزوة أخرى

في سنة اثنتين وتسعين تظاهر ابن الاحمر والطاغية واتفقا على منع السلطان أن أراد المجيء بعد المرة السابقة وسبب ذلك انه لما أجاز السلطان الى الاندلس سنة احدى وتسعين وأبلغ من نكاية العدو أهم الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته وحذر ابن الاحمر أيضا غائلة السلطان ورأى ان مغبة حاله الاستيلاء على الاندلس وان يغلبه على أمره ويستابه ملكه ففاوض الطاغية وتحدثوا ان استمكانه من الاجازة اليهم انما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حواليه فان ذلك يسهل عبور شوانيهم وسفنهم وان أم تلك الثغور طريف وانهم اذا استمكنوا منها وملكوها من المسلمين تكون أساطيلهم بمرفئها بمرصد أساطيل المسلمين فتمنع عبورها فعتزم الطاغية على منازلة طريف ليتملكها وزعم له ابن الاحمر مظاهرته على ذلك ووعده بالمدد وارسال الميرة لاقوات العسكر أيام منازلتها ووعده الطاغية انها تكون لابن الاحمر ان خلصت من أيديهم فأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات وحتات أساطيله ببحر الزقاق فحالوا بين صريخ المسلمين ووصوله الى السلطان وجمع ابن الاحمر عساكره على طريف وهيأها قريبا منه وسرب اليه المدد من السلاح والرجل والميرة من الاقوات واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد [illegible] الحصار [illegible] الطاغية في الصلح [illegible] عن البلد فصالحهم و[illegible] ووفى لهم بعهده واستشرف ابن الاحمر ان الطاغية يسلمه طريف حسبما كان [illegible] فأعرض الطاغية عن ذلك و[illegible] كان بين الاحمر [illegible] الطاغية عن ستة من الحصون عوضا عنها فسد ذات بينهم ورجع ابن الاحمر يطلب التمسك بالسلطان ليستعين به على الطاغية فوفد ابن عم [illegible]

الداني في وفد من رجال دولته على السلطان لتجديد العهد وتقرير المعذرة فوافوا السلطان فقبلهم وقبل ما اعتذروا به وأحكموا الصلح ورجعوا لابن الاحمر باسعاف غرضه من المواخاة وقد ذكرنا فيما تقدم انه كان جيش لبني مرين مقيما بالاندلس دائما للغزو فقدر الله ان في خلال ذلك توفي قائد الجيش الذي بالاندلس لبني مرين فعقد السلطان لابنه ولي عهده أبي عامر على ثغور الاندلس التي في طاعته مع النظر في أمر الجيش الذي بالاندلس وأنفذه الى قصر المجاز بعساكر فوافاه ابن الاحمر هنالك وقدم له هدية وللسلطان هدية أيضا فتلقاه الامير أبو عامر واحتفل في مبرته ثم قدم ابن الاحمر على السلطان فوافاه بطنجة فبالغ في تكرمته وبسط له ابن الاحمر العذر في شأن طريف فقبل عذره ونزل له ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من ثغور الاندلس كانت قبل ذلك لسلطان المغرب وعاد ابن الاحمر الى الاندلس خاتمة سنة ثنتين وتسعين محبوا مجبورا وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد السلطان على حربها لوزيره عمر الحرباش فنازلها مدة فامتنع عليه أخذها فأفرج عنها وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستمائة واجتمع النصارى على ابنه اذفونش هراندة وحصل قيام ثائرين من المسلمين بتلمسان خرجوا عن طاعة السلطان فاعتزم السلطان على التجهيز والمسير اليهم بنفسه وانتشر بذلك فتنة يطول الكلام بذكرها فسار السلطان بجيوشه اليهم وطالت تلك الفتنة الى سنة احدى وسبعمائة ومات ابن الاحمر في هذه السنة بالاندلس وقام بالامر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع بن محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وبعث ولده للسلطان بتلمسان فأحكموا الامر والعهد بينهما وكتب السلطان الى رجاله المقيمين بثغور الاندلس في اعانتهم وأمدهم بالرجال سنة ثنتين وسبعمائة فكانت لهم نكاية في العدو ثم بدا لابن الاحمر محمد المعروف بالمخلوع ان يصل يده بالطاغية هراندة بن شانجة فكاتبه وأحكم عقد السلم بينه وبينه واتصل الخبر بالسلطان وهو محاصر لتلمسان فسخطه واستنفره الصريخ فبعث ابنه أبا سالم لسد تلك الفرجة وجمع اليه العساكر واستعد ابن الاحمر لمدافعة ابن السلطان فداخل أهل سبتة في خلع السلطان والقبض على عامله فتم له ذلك فسار أبو سالم ابن السلطان بعساكره الى سبتة وحاصرها مرة ثم بيتوه ليلة فاختل معسكره فأفرج عنها منهزما فسخطه السلطان واعتزم على النهوض لذلك بنفسه الا أنه قد أشرف على فتح تلمسان فلم يمكنه النهوض بنفسه وكانت هذه الفتنة متصلا بعضها ببعض وانجر الامر فيها الى سنة ست وسبعمائة فقدر الله بمهلك السلطان يوسف وهو محاصر تلمسان طعنه خصى

من عبيده وهو على غفلة بمواطأة وزير من وزراء السلطان ثم صار الاختلاف الكثير بين
أولاده واختلف بنو مرين فيمن يختارونه للملك منهم وبايعوا بعضهم ثم خلعوه وبايعوا
آخر ثم خلعوه وبايعوا آخر من اخوته والكلام على ذلك طويل لا حاجة بنا الى ذكره
ووقعت بينهم مع بعضهم فتنة هائلة واستمر الامر بينهم الى سنة عشر وسبعمائة فاستقر الملك
لاخي السلطان يوسف المطعون وأخوه الذى استقر الامر له هو أبو سعيد عثمان بن يعقوب
ابن عبد الحق وفي خلال هذه الفتن قتل بالاندلس أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه أخاه
محمد المخلوع بن محمد الفقيه بن الاحمر وذلك سنة ثمان فثار عليه ابن عمه أبو الوليد اسماعيل
ابن فرج الملقب بالرئيس ابن سعيد بن اسماعيل بن يوسف بن نصر وانقطع الملك عن أولاد
محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وصار في أولاد ابن سعيد فرج الرئيس ابن اسماعيل بن
يوسف بن نصر لانه لما ثار أبو الوليد على أبي الجيوش صالحه أبو الجيوش سنة سبع عشرة
وسبعمائة على الخروج الى وادى آش فلحق بها وجدد له بها ملكا الى ان مات سنة ثنتين
وعشرين وسبعمائة ودخل أبو الوليد غرناطة فأصل لنفسه وبنيه ملكا وفي هذه المدة التى
كانت فيها هذه الفتن اغتنم الطاغية الفرصة ونازل الجزيرة الخضراء ثم أقلع عنها على صلح
بعد ان أذاقها من الحصار شدة وبعده نازل جبل الفتح المسمى جبل طارق وتقدم ان
طارق هو أول من فتح الاندلس وتسميه العامة الآن جبل الطار فتغلب عليه الطاغية
وتملكه وذلك سنة تسع وسبعمائة وتراسل هراندة بن اذفونش مع صاحب برشلونة
وأمره أن يشغل أهل الاندلس من ورائهم فنزل المرية وحصرها ونصب عليها الآلات
وحفر العدو تحت الارض سربا مقدار ما يسير فيه عشرون راكبا وتفطن المسلمون لذلك
فاحتفروا قبالتهم منه الى ان نفذ بعضهم الى بعض فقتلوا من تحت الارض وبعث ابن
الاحمر عسكرا مددا لاهل المرية ونبذ عهد الطاغية فلقيهم جمع النصارى كان الطاغية بعثهم
لحصار مرشانة فهزمهم عسكر ابن الاحمر واستلحمهم ونزل قريب من معسكر الطاغية
وأقامت عساكر الطاغية على سبتة واسطبونة وزحفت عساكر بني مرين المقيمون بالاندلس
المجاهدون على عسكر اسطبونة وقتلوا قائده المش وثلاثة آلاف من قومه ودخل بعض
عسكر المسلمين برجين فحصرهم جموع النصارى فجاء مدد المسلمين فقتل النصارى
المحصورون له وكان الطاغية بحصر الجزيرة فوجه بريد فجاء مدد المسلمين فجمع هو
اليه في معسكره ونهبوا محلاته وفساطيطه وصار المسلمين الكرة ومنازلات بينهم من
غنائمهم وسرهم ثم هلك الطاغية بعد هذه الحروب سنة ثنتي عشرة وسبعمائة وهو شر مدة

ابن شانجة وولى بعده ابنــه الهنشة وكان طفلا صغيرا جعلوه تحت نظر عمه دون بطرة بن شانجة مع زعيم للنصارى اسمه جوان فكفلاه واستقام أمرهم على ذلك وشغل السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبــد الحق ملك المغرب بشأن ابنه على فانه خرج على أبيه وكان بينهما مايطول ذكره فاغتنم النصارى الفرصة وقوى أمرهم بالاندلس فزحفوا على غرناطة كرسى سلطنة ابن الاحمر سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأممهم فبعث أهل الاندلس صريخهم الى السلطان أبى سعيد وهو في شغله فيما كان بينه وبين ابنه وكان بالاندلس كما تقدم جيش لبنى مرين جعلوه مقيما دائما بالاندلس لقصد الجهاد ودفع العدو وكان الرئيس على أولئك المجاهدين عثمان بن أبى العلا ادريس بن عبد الله بن عبد الحق المرينى فلما جاء صريخ أهل الاندلس للسلطان أبى سعيد اعتذر اليهم السلطان بسبب ماهو مشغول به من أمر ابنــه واعتذر اليهم أيضا بوجود عثمان بن أبى العــلا رئيس الجيوش بالاندلس وكان له قوة ورياسة وكان السلطان يخشى منه التغلب على السلطنة فتفترق كلمة بنى مرين فشرط عليهم ان يقبضوا على عثمان بن أبى العلا ويدفعوه اليه برمته فيبقى عنده ويبعث اليهم من يقوم بتدبير جيوش بنى مرين بالاندلس مع مايمكنه من ارسال العساكر ثم اذا تم الجهاد يعيد ابن أبى العلا اليهم احتياطا على المسلمين لئلا تفترق الكلمة فلم يمكنهم ذلك لقوة رياســة عثمان بن أبى العلا بعصابته من قومه فأخفق سعى هؤلاء المستصرخين بالسلطان ولم تحصل لهم نجدة منــه وأطالت أمم النصرانية الحصار على غرناطة واكثروا الجيوش وطمعوا في تملكها ثم ان الله تعالى نفس محنتهم ودافع بيد قدرته كما ستراه مذكورا حالا في هذه الغزوة العظمى

غزوة عظمى

لما أراد الله حصول النصر والفرج للمسلمين الذين حاصرهم العدو بغرناطة سنة ثمان عشرة وســبعمائة وفق الله شيخ الغزاة من بنى مرين المقيمين بالاندلس للجهاد وهو عثمان بن أبى العلا المتقدم ذكره حتى كان النصر بسببه واعانته فكانت هذه من الغرائب والعجائب بل هى من أعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم في نصرة الله لامته والقصة طويلة وملخصها ان النصارى عزموا في ذلك العام على استئصال المسلمين واخراجهم من الاندلس بحيث لايبقى شئ من الاندلس تحت يد المسلمين فتجهزوا لغزو غرناطة التى فيها أبو الوليد اسماعيل بن الاحمر وأتاها الطاغيــة دون بطرة في جيش لايحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا من ملوك الفرنج وكان النصارى وملوكهم قبل ذلك رحلوا الى من يرجعون اليــه في

دينهم وهو البابا صاحب رومة فدخل ملكهم دون بطرة صاحب طليطلة على البابا وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال من بقي من المسلمين بالاندلس وأكد عزمه فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا على الاستنجاد بالسلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني صاحب فاس ومراكش وأنفذوا اليه رسلا فاعتذر اليهم كما تقدم بيانه فرجعوا الى أعظم الادوية وهو الالتجاء الى الله تعالى وأخلصوا النيات مع حصول غاية الاضطرار وأقبل الافرنج في جموع لاتحصى فقضى ناصر من لاناصر له سواه بهزيمة جيش النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطرة ومن معه وكان نصرا عزيزا ويوما مشهورا مشهودا وكان سلطان الاندلس اذ ذاك الغالب بالله أبو الوليد اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر وشيخ الغزاة المقدم بالاندلس من بني مرين الشيخ العالم أبو سعيد عثمن بن أبي العلا ادريس بن عبد الله بن عبد الحق المريني فاجتهد ابن الاحمر في تحصين البلاد والثغور فلما بلغ النصارى ذلك التحصين عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فندب ابن الاحمر لردهم وجهز الاساطيل والرجال فلما رأوا ذلك عزموا على استئصال المسلمين وتوجهوا الى طليطلة ليكملوا التأهب بذلك فأعدوا غاية الأهبة ووصلت الاثقال والمجانيق وآلات الحصار والاقوات والمراكب ووصل العدو الى غرناطة كرسي ملك بن الاحمر وامتلأت الارض بهم فتقدم ابن الاحمر الى شيخ الغزاة أبي سعيد عثمن بن أبي العلا وسأله الخروج للجهاد والجهاد المسلمين بمن معه من الغزاة والشجعان فخرج اليهم يوم الخميس موفي عشرين من ربيع الاول سنة تسع عشرة وسبعمائة ولما كانت ليلة الاحد غارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرج اليهم جماعة من فرسان الاندلس نزمة فقصعوهم من الجيش وفرت تلك السرية امامهم الى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون الى الصبح وقتلوهم فكان هذا أول النصر ولما كان يوم الاحد ركب شيخ الغزاة لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين فلما شاهدهم الفرنج نحو من قدمهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة فركب النصارى بجملتهم وحملوا على المسلمين فثبت لهم المسلمون ثم قاتلوا وهزم الله الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم سيوف المسلمين يقتلون ويأسرون الى الليل وقتل الطاغية دون بطرة ملك النصارى وقتل معه خمسة وعشرون ملكا كانوا معه بجيوشهم وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على اموال عظيمة منها من الذهب ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف وكان من جملة السبي امرأة الطاغية

وأولاده فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فلم يقبل المسلمون ذلك وزادت عدة القتلى من النصارى في هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادى مثل هـذا العدد لعدم معرفتهـم بالطرق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون واستمر البيع في الاسرى والاسـباب والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتـل من المسلمين والاجناد سوى ثلاثة عشر فارسا وقيل عشرة أنفس وكان عسكر المسلمين خمسة آلاف وخمسمائة منهم ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف رجالة وكانت الغنيمة تفوق الوصف وسلخ الطاغية دون بطرة وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقا سنوات وطلب النصارى الهدنة فعقدت لهم وكانت هذه الغزوة سنة تسع عشرة وسبعمائة وكانت وفاة شيخ الغزاة عثمان بن أبى العلا سنة ثلاثين وسبعمائة وعمره ثمان وثمانون سنة واستوفي في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة رحمه الله تعالى ورضى عنـه وكتبوا على قبره ترجمة طويلة تدل على علو شأنه في العلم والعمل والاخلاص في الجهاد وكانت وفاة ابن الاحمر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وولى بعده ابنه أبو الحجاج يوسف وتوفي السلطان عثمان المرينى سـنة احدى وثلاثين وسبعمائة وولى بعده ابنه أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى

﴿ ذكر استخلاص جبل الفتح من النصارى ﴾

قد تقدم ان الطاغية تملك جبل الفتح سـنة تسع وسبعمائة وكان هذا الجبل للمسلمين من أحسن الثغور وكان شجا في حلق العدو وهو فاصل بين افريقية والاندلس فأهم المسلمين شأنه وكان ابن الاحمر قدم على السلطان في سـنة اثنتين وثلاثين فأكبر مقدمـه وأركب المسلمين للقائه وبالغ في اكرامه فتـذاكر معه في شأن استخلاص الجبل المذكور فاتفقا على التجهيز لاستخلاصه فأمر السلطان أبو الحسن بالتجهيز لاستخلاصه وعقد لابنه الامير أبى مالك على جيش من بنى مرين وأنفذه مع ابن الاحمر لمنازلة الجبـل فاحتل بالجزيرة وتتابع اليـه الاسطول بالمدد وأرسـل ابن الاحمر حاشرين في الاندلس يجمعون الناس ويستنفرونهم لذلك فتسايلوا اليـه واجتمع معسكرهم جميعا بساحة جبل الفتح وأبلوا في حربه ومنازلته بلاء حسـنا الى ان تغلبوا عليه وملكوه سـنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة وقتلوا من كان به من النصرانيـة وغنموا ما كان معهم ووافاهم الطاغية ومعه أمم كثيرة مددا لقومـه بعد مضى ثلاثة أيام من الفتح وقد شحنه المسلمون بالاقوات ونقلوها من الجزيرة على خيولهم ولما وصل الطاغيه أناخ بجيوشه عليه وبرز أبو

مالك بعساكره فنزل بحذائه ونزل أيضا عسكر الاندلس بحذاء الطاغية وتحصن العدو في محلتهم فبادر ابن الاحمر الى لقاء الطاغية وسبق الناس الى فسطاطه وتلقاه الطاغية راجلا حاسرا اعظاما له فسأله ابن الاحمر الافراج عن هذا المعقل فرأى الطاغية ان تملكه الجبل وانتزاعه من المسلمين شديد عسر عليه فأجاب ابن الاحمر الى ماسأل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل لقوره وأخذ الامير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر وسد فرجه وأنزل الحامية به ونقل الاقوات وكان هذا الفتح فتحا طوق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر طول الدهر وكانت مدة منازلة المسلمين الى ان ملكوه ستة أشهر ثم أراد السلطان أبو الحسن ان يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لايطمع العدو في منازلته ولا يجد طريقا للتضيق عليه عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق السلطان كثيرا من الاموال وارضى العمال حتى بنى سورا أحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال ثم زاد في التحصين بعده ابنه أبو عنان

﴿ ذكر غزوة السلطان أبي الحسن الى الاندلس ﴾

كان السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على جبل الفتح اشتغل بقتال جماعة ثائرين عليه بتلمسان واستمر ذلك الى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة فرجعوا الى طاعته فتوجهت همته بعد ذلك لغزو النصارى بالاندلس فقصد أولا ولاية ابنه أبي مالك على ثغور عمله بالاندلس وصرفه اليها وكان الطاغية مدة اشتغل السلطان بقتال أهل تلمسان قد اعتز على المسلمين ونازل السلطان أبا الوليد بن الاحمر بغرناطة مرارا ووضع عليه جزية فتقبلها لعدم قدرته على دفاعه وأقبل الطاغية على التهام المسلمين بالاندلس فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أهل تلمسان دعته نفسه الى الجهاد فأوعز الى ابنه الامير أبي مالك أمير الثغور سنة أربعين بالدخول الى دار الحرب وجهز اليه عساكر كثيرة ثم شخص بنفسه غازيا فتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها وأكثر القتل والسبي وغنم عساكره غنائم كثيرة فما شرع في الرجوع عن أرضهم اتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له وأجدوا السير في تبعه فأشار عليه وزراؤه بالخروج من أرضهم وأن يصير الى مدن المسلمين ويتحصن بها فمتنع من الرجوع وكان قرما ثبتا لانه غير بصير بالحروب لصغر سنه فصبحهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل ان يركبوا وأدركوا الامير أبا مالك قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وكثير من الشهداء وقتلوا كثيرا من قومه واحتووا على عسكره بما فيه من الاموال ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن ففجعه هلاك ابنه واسترجع واسترحم له

واحتسب عند الله أجره وشرع في اجازة العساكر للجهاد وتجهيز الاساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجند وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب وارتحل الى سبتة ليباشر أحوال الجهاد فتسامعت أمم النصرانية بذلك فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله الى الموضع المعروف عندهم بالزقاق ليمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسى العدو وبعث الى ملوك بني حفص بافريقية بتجهيز أسطولهم اليه فبعثوا اليه عشرين أسطولا مشحونة بالعساكر وتوافت أساطيل المسلمين بسبتة تناهز المائة فناجزوا أسطول النصارى التي بالزقاق وزحفوا عليهم وتوقفوا ملياثم قربوا الاساطيل بعضها الى بعض وقرنوها للمصاف فلم يمض الا قليل حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح والقوا أشلاءهم باليم وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم الى مرسى سبتة استولى المسلمون عليها فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤس العدو في جوانب البلد ونظمت أصفاد الاسرى بدار الانشاء وعظم الفتح وجلس السلطان أبو الحسن للتهنئة وأنشدت الشعراء القصائد بين يديه وكان يوما من أعز الايام ولله الحمد والمنة ثم شرع السلطان في اجازة من عنده من العساكر الغزاة والمتطوعة والمرتزقة ولما استكمل جزة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين ونزل بساحة طريف وأناخ بعسكره عليها وهي بيد النصارى وأحاط عسكره بفنائها ووافاه سلطان الاندلس ابن الاحمر بعسكر الاندلس وأحاط الجميع بطريف نطاقا واحدا ونصبوا عليها الآلات وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن العسكر وطال حصارهم بعد ففنيت أزودتهم وفقدوا العلوفات واختلت أحوال العسكر واحتشد الطاغية أمم النصرانية وأعانه البرتقال صاحب اشبونة وغرب الاندلس فجاء معه في قومه وزحف على المسلمين لستة أشهر من منازلتهم ولما قرب معسكرهم أرسلوا قطعة من جيش النصارى الى طريف فدخلوها ليلا على غفلة من العس وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددا ولبسوا على السلطان وقالوا له لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفا وتزاحفوا ولما نشب القتال كان للعدو جيش كمين فبرز وخالفوهم الى معسكر السلطان وعمدوا الى فسطاط السلطان ودفعوا عنهم من كان عنده من المسلحة للحراسة فاستلحموهم وقتلوهم وكان مع السلطان في هذه الغزوة بعض نسائه فوصل هؤلاء الهاجمون الى النساء فدافع النساء عن

أنفسهن فقتلوهن وخلصوا الى حظايا السلطان عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب وفاطمة
بنت سلطان افريقية أبي يحيى الحفصي وغيرهن من حظاياه فقتلوهن عن آخرهن
واستلبوهم وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا وأحس المسلمون الذين يقاتلون
الكفار بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد ان كان ابن
السلطان هجم في طائفة من قومه حتى خالط الكفار في صفوفهم فأحاطوا به وقبضوا عليه
وولى السلطان متحيزا الى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية بنفسه
الى فسطاط السلطان أبي الحسن وأنكر على قومه قتل النساء والولدان ووقف منه لمنتهى
أثره ثم انكفأ راجعا الى بلاده ولحق ابن الاحمر بغرناطة كرسي ملكه وخلص السلطان
الى الجزيرة ثم الى الجبل ثم ركب الى سبتة ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم ولما رجع
الطاغية من طريف استأسد أي صار كالأسد على المسلمين بالاندلس وطمع في التهامهم
وجمع عساكر النصرانية ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة على مرحلة منها وجمع الآلات
والايدي على حصارها واشتد مخنقها وأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه وذلك
سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وانصرف الى بلده وأما السلطان أبو الحسن فانه لما أجاز الى
سبتة ألزم نفسه بالعود الى الجهاد وذهب الى فاس وبعث في الأمصار للاستنفار وأخرج
قواده الى سواحل البحر لتجهيز الاساطيل حتى اكتمل منها عدة وافرة ثم ارتحل الى
سبتة لمشارفتها وقدم عساكره الى العدوة مع وزيره وبعث الى الجزيرة بعض أقرب الوزير
وبعث اليهم مددا وبلغ الطاغية الخبر فجهز أسطوله وأجراه الى بحر الزقاق للمدافعة
وتلاقت الاساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على
بحر الزقاق وملكوا دور المسلمين وأقبل الطاغية من اشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ
بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وأمل ان ينظمها في مملكته مع جارتها
طريف وحشر الفعلة والصناع بالآلات وجمع الايدي عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل
العسكر بيوتا من الخشب للمطاولة وجاء السلطان أبو الحجاج بن الاحمر بعساكر الاندلس
فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح على سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه
من سبتة ليبعث المدد من الفرسان والأموال والميرة فلم يغنهم ذلك شيء واشتد الحصار عليهم
وأصابهم الجهد وأجاز اليه السلطان بن الاحمر ليفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن
طاغية له في الجواز مكر به وترصدته بعض الاساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال
وخلصوا الى الساحل بعد غص الريق وأحدقت حول الجزيرة ومن كان بها من عساكر

السلطان وسألوا من الطاغية الامان على ان ينزلوا عن البلد فبذل الامان لهم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا الى المغرب وذلك سنة ثلاث وأربعين فأنزلهم السلطان أبو الحسن ببلاده على خير نزل ولقاهم من الميرة والكرامة ماأعاضهم عما فاتهم وخلع عليهم وأجازهم بجوائز سنية لايزال الناس يتحدثون بها وانكفأ السلطان الى حضرته موقنا بظهور امر الله وانجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون ثم ثار على أبي الحسن ثائرون بالمغرب وتوالت فتن كثيرة الى ان توفي سنة ثنتين وخمسين وسبعمائة وولى بعد ابنه ابو عنان وثار بينه وبين اخوته فتن كثيرة واما سلطان الاندلس ابو الحجاج ابن الاحمر فقتل في الصلاة يوم عيد الفطر طعنه اسود مدسوس عليه وولى بعده ابنه محمدالغني بالله وذلك سنة خمس وخمسين وسبعمائة ثم خلع سنةستين ثم اعيد سنة ثلاث وستين والكلام على ذلك طويل لاحاجة لنا بذكره واستمر في ملكه الى ان توفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وكان قدقوى ملكه وسلطانه بعد رجوعه الى ملكه سنة ثلاث وستين حتى صار ملك المغرب وسلطان بني مرين تحت امره ووقع في هذه السنين فتن بالاندلس بين النصارى مع بعضهم وذلك ان الهنش ملك النصارى هلك سنة احدى وخمسين وسبعمائة وولى بعده ابنه بطرة وثارت فتن وحروب بينه وبين اخوته وانتهز الفرصة ابن الاحمر وجمع جيوش المسلمين للجهاد ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في ارض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم ثم رجع الى غرناطة وذلك سنة سبع وستين وسبعمائة ثم تشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة الخضراء الى المسلمين فتراسل ابن الاحمر مع ملك مراكش وفاس وكان السلطان حينئذ السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن واتفقا على ان ابن الاحمر يزحف بعساكره وملك المغرب يمده بمال والاساطيل لعزة جمع العسكر عليه لما كان فيه من الفتن فأوعز صاحب المغرب الى اسطيله فعمرت وسارت وبعث بمال كثير وذخائر وزحف ابن الاحمر بعساكره واستعدت الآلات للحصار فنازلها اياما قلائل فأيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد واقيمت فيه شعائر الاسلام ومراسمه ومحيت منه كلمة الكفر ومعالمه وكان ذلك في سنة سبعين وولى عليها ابن الاحمر من قبله ولم تزل تحت نظره الى ان تمحض له النظر في هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها فهدمت سنة ثمان وسبعمائة واصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس والبقاء لله وحده وتوفي الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن الاحمر سلطان الاندلس سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وولى

ابنه يوسف وتوالت فتن كثيرة فقصد الافرنج البرتغال مدينة سبتة سنة اربع عشرة وثمانمائة في مراكب كثيرة فقاتلهم اهلها ثم تغلب عليهم الفرنج فملكوها وبقيت معهم نحو مائتين وخمسين سنة ثم انتزعها الاسبانيول منهم ثم توالت فتن بين بني الاحمر مع بعضهم في الاندلس وجرت أمور يطول الكلام بشرحها وآل الامر فيها الى خروج ملك الاندلس عن ايدى المسلمين فأخذ العدو مالقة سنة ثلاث وتسعين وثمانماية وأخذوا غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة وانقرض ملك بني مرين سنة تسعين وثمانمائة وانتقل الملك لوزرائهم بني وطاس ثم منهم للاشراف السعديين والكلام على ذلك طويل ولما حاصر العدو غرناطة أصاب المسلمون وقت حصار العدو لهم بها شدة الجوع وتفاقمت عليهم الخطوب فكاتبوا العدو في الصلح واشترطوا شروطا وعقدوا وثايق ومكنوا العدو من غرناطة وكانت الشروط سبعا وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال ومنها ابقاء الناس واماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولايحكم على احد منهم الا بشريعتهم ومنها ان تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وان لايدخل النصارى دار مسلم وان لايغصبوا أحدا وان لايتولى على المسلمين في الاحكام نصرانى ولايهودى وان يفك من كان أسيرا منهم ومنها ان من اراد الجواز الى المغرب لايمنع ولايؤاخذ من قتل احدا من النصارى ايام الحرب الى غير ذلك من بقية الشروط ثم ان النصارى نقضوا تلك الشروط شيئاً فشيئاً ونكثوها عروة عروة الى ان آل الامر الى حملهم المسلمين على التنصر حتى صاروا يقولون لبعض المسلمين ان جدك كان نصرانيا فأسلم في زمن كذا فلابد ان ترجع نصرانيا كما كان اجدادك السابقون فلما فحش هذا الامر قام جماعة من المسلمين كانوا بموضع يقال له البيازين فقتلوا النصارى الذين كانوا عندهم فخرج الامر من سلطانهم بقتل المسلمين الا من تنصر فانه ينجو من القتل فتنصر خلق كثير في البادية والحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى واجتمعوا في بعض القرى متحصنين بها فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا وبقى جماعة من المسلمين صعدوا جبلا واحتموا فيه وقاتلهم العدو فقتلوا من العدو خلقا كثيرا فأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وماخف من اموالهم ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين ولم يكن متنصرا في الباطن يعبد الله في خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكينة الضعيفة فضلا من غيرها من الحديد وقام المسلمون الذين تحصنوا في بعض الجبال على النصارى مرارا ثم تغلب النصارى عليهم ولم يقيض الله لهم نصرا الى ان

كان آخر وقت أخرجهم النصارى فيه سنة الف وعشر فخرج الوف من المسلمين الى فاس والوف الى تلمسان ووهران وجمهورهم خرج الى تونس وتسلط على كثير منهم الاعراب ومن لايخشى الله ونهبوا أموالهم في البوادى والطرقات وأكثر النهب والاخذ وقع على الذين ذهبوا الى تلمسان وفاس وأما الذين ذهبوا الى تونس فأكثرهم سلم من ذلك وقد عمر هؤلآء الخارجون من الاندلس كثيرا من القرى الخالية في تلك المواضع التى ذهبوا اليها ومنهم جماعة بسلا وتطاون والجزائر واستخدم سلطان المغرب منهم عسكرا جرارا ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها لانهم كانوا عددا كثيرا لايحصيهم الا الله تعالى والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قال في نفح الطيب والسلطان الذى أخذت منه غرناطة آخر سلاطين بنى الاحمر الذى انقرضت بانقراض دولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها هو السلطان أبو عبدالله محمد ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان الغنى بالله محمد واسطة عقدهم والمشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة ابن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد فرج ابن اسماعيل بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجي رحمهم الله جميعا وانتهى السلطان المذكور الى مدينة فاس باهله واولاده معتذرا عما اسلفه متاهفا على ماخلفه وبنى بفاس قصورا قال في نفح الطيب وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة سبع وثلاثين والف يأخذون من اموال الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم هذا خلاصة ماكان بالاندلس بغاية الاختصار ولنرجع الى اتمام الكلام على ماكان بالديار الشامية وغيرها وليكن الابتداء بذكر حرب الصليب

﴿ ذكر ابتداء الحروب الصليبية ﴾

اعلم ان المسلمين منذ افتتحوا الشام في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه انما كان قتالهم في تلك الاراضى مع الروم ملوك القسطنطينية ثم صار من الخلفاء والامراء الاسلامية غزوات وفتوحات كثيرة افتتحوا فيها كثيرا من ممالك الروم وتقدم بيان ذلك ثم لما كان آخر القرن الخامس وظهر الضعف في الخلفاء العباسيين واستولى على مصر وبعض الشام الخلفاء العبيديون وتغلب على كثير من الممالك الاسلامية العمال الذين فيها طمع في ممالك الشام الافرنج الذين نشأت لهم دول في اوروبا بعد ضعف الملوك الرومانية فتجمعت جموع من الافرنج ملوك اوروبا وساروا لتملك الممالك الاسلامية التى في الشام

واعمالها وكان ذلك سنة اربعمائة وتسعين هجرية وكان من أسباب قيامهم وهيجانهم لتلك الحروب ان رجلا منهم اسمه بطرس الناسك ترهب وانفرد عن أهله سائحا متنسكا فزار بيت المقدس وأخذته الحمية في استخلاص تلك الاماكن من أيادى المسلمين فلما رجع الى بلاد ايطاليا اجتمع مع البابا وخاطبه في ذلك فوافقه البابا على استحسان افكاره وماقام بنفسه وعزم في الحال على اتخاذ الاسباب والوسائط المقتضية لاتمام هذا المشروع فأمر بطرسا ان يجول في اقطار البلاد مناديا ومبشرا للشعوب بانقاذ النصارى واستخلاص تلك الاراضي من أيادى المسلمين فأخذ بطرس يجول من مكان الى آخر منذرا ومحركا قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل فاجتاز من ايطاليا الى فرانسا ثم سار الى أكثر ممالك اوروبا زارعا بين الجميع هذه الافكار مهيجا اياهم للنهوض والقيام وفي أثناء ذلك عقد البابا عدة مجامع في ايطاليا وفرانسا وطرح فيها هذه المسئلة امام الجمهور الحاضرين منتهضا همتهم للمبادرة والاستعداد في هذا المشروع وجعل للرعايا القائمين بذلك انعامات ورفع عنهم كثيرا من الضرائب والخراجات فنهض أحد الاساقفة وطلب من البابا ان يكون أول من يجاهد في هذا السبيل فسلمه البابا راية الصليب فتبعه جملة من رؤساء الدين ومن عامة الناس ورسموا جميعا على صدورهم صورة الصليب بلون أحمر وجعلوا هـذه العلامة على الاسلحة والالوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا الصليبين ودعيت حروبهم بالحروب الصليبية واذا أراد الله ظهور أمر هيأ أسبابه فظهر لهم أمور وأسباب قوى بها عزمهم على ما أرادوا فمن ذلك ما ذكره بعض مؤرخيهم أنه في أثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهر لهم جملة من العجائب في السماء والارض منها تساقط بعض النجوم من السماء على الارض وظهر بانتقالها علامة حمراء دموية في جانب الافق وظهر لهم عمود نارى على شكل حربة ذات حديد بقرب الشمس وشوهد في الجو صورة مدن وعساكر وخيول وأسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها انه كان يرى في مدة ستة أيام متواليـة على اثواب المسيحية صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لايمكن لاحد ان يمحوها بالماء ولا بالنار فهذه المرائى التى كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لايتوقفون عن السفر وكانوا يستعدون من يوم الى يوم حتى بلغ عددهم ثلاثمائة الف مقاتل وكان الملك الـكبير منهم المتقدم في قيادة جيوشهم يسمى بردويل وكان بينـه وبين صاحب صقلية مصاهرة وصداقة فراد ان يكون مرور جيوشهم على افريقية فيتملـكوها ثم يسيرون منها الى الشام فرسل الى

صاحب صقلية يقول له قد جمعت جموعا كثيرة وأنا واصل اليك وسائر من عندك الى افريقية أفتحها وأكون مجاورا لك فجمع صاحب صقلية أصحابه واستشارهم في ذلك فقالوا وحق الانجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد كلها بلاد النصرانية فرفع رجله لهم ضرط ضرطة عظيمة وقال وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا وكيف ذلك قال اذا وصلوا الى احتاج الى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم الى افريقية وعساكر من عندى ايضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى مايصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وان لم يفتحوا رجعوا الى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم أمير افريقية غدرت بى ونقضت مابينى وبينك من العهود وتنقطع الوصلة والاسفار بيننا مع ان بلاد افريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها وأحضر رسول بردويل وقال له اذا عزمتم على جهاد المسلمين فافضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر وأما افريقية فبيني وبين اهلها عهد وايمان لايمكنى نقضها فلما لم يمكنهم صاحب صقلية من المرور عليه عزموا على التوجه الى الشام من طريق القسطنطينية فنعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده الا بسرط أنهم يحلفون له أنهم يسلمون له انطاكية اذا ملكوها وكان يظن أنهم لايقدرون على تلك البلاد الشامية لما فيها من جنود الاسلام وهو يريد هلاك الافرنج خوفا من أنهم يتغلبون عليه لانه يرى قوتهم تزيد كلما مضى زمن من الازمان فلما اشترط عليهم ان يعطوه انطاكية اذا ملكوها اجابوه الى ذلك وقبلوا شرطه وعبروا الخليج عند القسطنطينية طالبين القسطنطينية ليجتمعوا فيها وكانوا أجناسا عديدة وفرقا كثيرة من الايطاليين والفرنساويين وغيرهم من سكان أوروبا وكان بطرس الناسك المتقدم ذكره متوشحا بثوبه الرهبانى قائدا للفرقة الاولى منهم فسار بهم على طريق المانيا وهنكاريا وبلغاريا فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الاهالى وقاتلوهم وقتلوا منهم عددا كثيرا وبعد ان قاسوا اهوالا شديدة انتهوا إلى القسطنطينية فاذن لهم ملكها ان يقيموا في المدينة الى ان يحضر رفقاؤهم ثم نقلهم ملك القسطنطينية في مراكبه الى سواحل آسيا فلما انتهوا اليها التقتهم عساكر الاسلام في نواحى قونية وكانت تلك العساكر للملوك السلجوقية الذين كانت ممالكهم في الروم وأحاطوا بهم وقاتلوهم قتالا شديدا فاستظهر المسلمون عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم فلم ينج منهم الا القليل فهكذا كانت نهاية الوقعة الاولى واما بطرس الناسك فكان قد رجع الى القسطنطينية قبل حدوث هذه الوقعة متشكيا من عدم انتظام

الصليبين وعدم طاعتهم وانقيادهم لرؤسائهم ولكن لما بلغته هذه الاخبار المحزنة أقسم بانه لايرجع قط عن عزمه حتى يشاهد حربا صليبيا ثانيا

﴿ ذكر تملك الفرنج قونية وانطاكية ﴾

قد تقدم ان الروم كانوا قد استولوا على انطاكية سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبقيت بايديهم الى سنة اربعمائة وسبع وسبعين فانتزعها منهم سليمان بن قتلمش السلجوقى فلما كانت هذه السنة أعنى سنة اربعمائة وتسعين كان الامير العامل على انطاكية باغيسان التركمانى وبلغ أهل اوروبا ماحل باصحابهم من النكال حزنوا جدا وتحركت عزائمهم على أخذ الثار والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيش جرار وساروا كالاولين الى ان وصلوا الى قونيه فالتقتهم جيوش الاسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة وكانت الغلبة فيها لطوائف الافرنج فاستولوا على مدينة قونية وكان ملكها بيدقلج ارسلان السلجوقى وهو الذى قابلهم بجموعه فهزموه وملكوا منه قونية ثم تقدموا الى انطاكية فحصروها تسعة أشهر ثم ملكوها في جمادى الاولى سنة ٤٩٠ من صاحبها باغيسان التركمانى بعد ان ظهر منه الشجاعة وجودة الرأى والحزم مالم يشاهد من غيره لانهم لما قدموا على انطاكية قابلهم بجيوشه وقاتلهم قتالا شديدا وجرت وقائع متعددة وهجمات هائلة ثم لما عجز هرب ثم قتل ولما دخل الافرنج انطاكية قتلوا من فيها من المسلمين ونهبوا اموالهم ولما سمع صاحب الموصل بتملكهم انطاكية جمع عساكره وسار الى الشام وهو الامير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا ثم أقام بعساكره بمرج دابق واجتمع معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب وحمص وسنجار واجتمع كثير من الامراء وعظمت المصيبة على الافرنج وأرسلوا الى كربوقا يطلبون منه الامان لما أقبل بالجيوش على انطاكية فامتنع وقال لاتخرجون الا بالسيف وحصرهم ثم ان كربوقا المذكور أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والامراء وتكبر عليهم فخبثت نياتهم عليه ولما ضاق الامر على الافرنج وقلت الاقوات عندهم خرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم قبل خروجهم ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقيسان الذى بانطاكية وهو نحو عظيم ان وجدتموه فانكم تظفرون وان لم تجدوه فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أدخلهم موضعها جميعهم

ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم أبشروا بالظفر فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوقا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل فقال لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ولم يمكنهم من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية منهم أحد ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج وتمت الهزيمة على المسلمين ولم يضرب أحد منهم بسيف ولاطعن برمح ولارمى بسهم وانهزم كربوقا معهم فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة اذلم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المسلمين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفا وغنموا مافي العسكر من الاقوات والاموال والأثاث والدواب والاسلحة فصلحت حالهم وعادت عليهم قوتهم

﴿ ذكر تملك الفرنج معرة النعمان ﴾

ثم سار الفرنج بجيوشهم الى معرة النعمان وحاصروها وقاتلهم أهلها قتالا شديدا ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم فعملوا عند ذلك برجا من خشب يوازى سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم اذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذى كانوا يحفظونه فرآهم طائفة أخرى من المسلمين منهم ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضا من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التى يليها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج اليه على السلالم فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا مايزيد على مائة الف وسبوا السبي الكثير وملكوا المعرة وأقاموا أربعين يوما

﴿ ذكر مصالحة أهل عرقة وحمص للفرنج ﴾

ثم ساروا الى عرقة فحصروها اربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها ثم ساروا الى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة ثم ساروا الى عكا فلم يقدروا عليها

﴿ ذكر تملك الفرنج بيت المقدس ﴾

ثم ساروا لبيت المقدس وكانوا الف الف وكان فيها رجل يعرف بافتخار الدولة عاملا للعبيديين ملوك مصر لان بيت المقدس كان بايديهم انتزعوه من خلفاء بني العباس فلما وصل الفرنج اليه حصروه نيفا واربعين يوما ثم ملكوا المدينة المذكورة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هجرية وركبوا الناس بالسيف ولبث الفرنج بالبلدة اسبوعا يقتلون فيه المسلمين وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى مايزيد على سبعين الفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا فضة نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالايقع عليه الاحصاء وورد المستنفرون من الشام الى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي فاوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال وكانوا صياما في رمضان فلشدة ما أصابهم أفطروا وأنشأ الشعراء في ذلك قصائد تبكي لها العيون وتنفطر بها القلوب وكان ذلك في خلافة المستظهر بالله ابن المقتدى بأمر الله العباسي وكان في ذلك الوقت اختلاف كثير بين السلاطين السلجوقية وفتن قائمة بينهم بالعراق فلم تحصل منهم نتيجة ولامن الخليفة وبعث المصريون جيشا لقتال الفرنج لما بلغهم ماوقع بالقدس واقتتلوا مع الفرنج ثم انهزموا وحصرهم الفرنج بعسقلان وضيقوا عليهم فبذلوا لهم اثنى عشر الف دينار وقيل عشرين الفا فارتحلوا عنهم ورجعوا الى القدس وجعلوها دار ملكهم ثم استولى الفرنج على أكثر سواحل الشام فملكوا يافا وغيرها من القلاع والحصون وكانت محنة فاحشة على المسلمين ثم في سنة أربع وتسعين وأربعمائة ساروا الى مدينة عكا فلم يقدروا على فتحها وكانوا قد عمروا مدينة يافا وسلموها الى قمص من الفرنج وأقيم بملك القدس فرنجي آخر وقيل بل أقام بها بردويل بنفسه ومكث بيت المقدس بايدى الفرنج احدى وتسعين سنة وكذا ماجاوره من سواحل الشام وعجز ملوك الاسلام عن استرجاعه الى ان استرجع ذلك السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى

ﷺ ذكر تملك الفرنج مدينة سروج وحيفا وقيسارية ﷺ

في هذه السنة ملك الفرنج مدينة سروج من الجزيرة وقتلوا كثيرا من اهلها وسبوا حريمهم

ونهبوا أموالهم وملكوا ايضا مدينة حيفا بالقرب من عكا على ساحل البحر وملكوا مدينة قيسارية وقتلوا اهلها ونهبوا مافيها وفي سنة ٤٩٥ ساروا الى طرابلس الشام فقاتلهم اهلها وقتلوا من الفرنج نحو ثلاثمائة ثم هادنهم الفرنج على مال وخيل ثم رحلوا عنهم الى انطرسوس وهي من أعمال طرابلس فحصروها وملكوها وقتلوا من بها من المسلمين ثم ساروا الى حصن الطوبان فقاتلهم ابن العريض وأسر فارسا من أكابر الفرنج فبذلوا في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبهم ابن العريض الى ذلك وفي هذه السنة أيضا سار الفرنج الى حمص وقائدهم ملك من ملوكهم يسمى صنجيل فحاصروها وملكوا أعمالها ونزل القمص على عكا وضيق عليها وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات والابراج وكان له في البحر ست عشرة قطعة فاجتمع المسلمون من سائر السواحل وأتوا الى منجنيقاتهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم وكان ذلك نصرا عجيبا للمسلمين أذل الله به الكفار وفيها سار القمص الفرنجي الى بيروت وحاصرها وضايقها وأطال المقام عليها فلم ير فيها طمعا فرحل عنها وفيها في رجب خرجت عساكر من مصر الى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من بلاد الشام فسمع بهم بردويل صاحب القدس فسار اليهم وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل فاختفى في أجمة قصب فأحرقت تلك الاجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها الى الرملة فتبعه المسلمون وأحاطوا به فتنكر وخرج منها الى يافا وكثر القتل والاسر في أصحابه وفي سنة ٤٩٦ جاءتهم جيوش المسلمين من مصر ووقعت بينهم وقائع يطول ذكرها كانت الغلبة في بعضها للمسلمين وفي بعضها للفرنج وخرجت هذه السنة وبيد الفرنج لعنهم الله البيت المقدس وفلسطين ماعدا عسقلان وبيدهم أيضا يافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية ولهم بالجزيرة الرها وسروج وكان صنجيل يحاصر طرابلس الشام والمواد تأتيه وبها فخر الملك بن عمار وكان يرسل أصحابه في المراكب يغزون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا وفي سنة ٤٩٧ أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين وفي هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج الى مدينة لاذقية فيها الاجناد والتجار فاستعانوا بهم على حصار طرابلس براً وبحراً وضايقوها وقاتلوها أياما فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا الى مدينة جبيل فحاصروها وقاتلوا أهلها قتالا شديداً فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانا وسلموا البلد اليهم فلم تف الفرنج لهم بالامان وأخذوا أموالهم وعاقبوهم بالعقوبات وأنواع العذاب فلما فرغوا من جبيل ساروا الى مدينة عكا واستعانوا بملكهم صاحب القدس على حصارها فنازلوها

وحاصروها في البر والبحر ثم ملكوها وفعلوا بأهلها الافعال الشنيعة ثم ساروا الى حران ووقع بينهم وبين المسلمين وقايع يطول ذكرها كان النصر فيها للمسلمين وقتلوا من الفرنج اثنى عشر ألفاً وأسروا القمص فافتداه الفرنج بخمسة وثلاثين ألف دينار وستين أسيراً من المسلمين وفي سنة ٤٩٨ سار الفرنج الى حصن أرتاح ووقع بينهم وبين المسلمين قتال شديد وانهزم المسلمون وقتل وأسر كثير منهم وملك الافرنج الحصن وفي سنة ٤٩٩ وقع بينهم وبين المسلمين قتال على حصن كان بيد الفرنج بينه وبين دمشق يومان فملكه المسلمون وقتلوا من كان بالحصن من الفرنج واستبقوا الفرسان أسرى وكانوا مائتي فارس وملكوا أيضاً منهم حصن رفنية وهو من حصون الشام وقتلوا به خمسمائة من الفرنج وفي هذه السنة ملك الفرنج حصن افامية وكان من أمنع الحصون الشامية وقتلوا من فيه من المسلمين وفي سنة ٥٠٠ وقعت وحشة بين ملك القسطنطينية والافرنج الذين بالشام ثم وقع بينهم قتال شديد انهزم فيه الفرنج ولم يزل الفرنج يتابعون الحصار على طرابلس الشام وبيروت والكلام على ذلك طويل الى أن ملكوهما سنة ٥٠٣ وقتلوا وأسروا كثيرا من الرجال وسبوا النساء والاطفال ونهبوا من الاموال مالا يحصى ثم ملكوا بانياس وصيدا وصورا وحصن أرتاب وهو قريب من حلب وغير ذلك وفي سنة احدى عشرة وقيل أربع عشرة قصد بردويل بجيوشه الديار المصرية ليأخذها فانتهى الى غزوة ودخلها وخربها وأحرق مساجدها ورحل عنها وهو مريض فهلك في الطريق والحاصل أن الفرنج لم يزالوا يتملكون كثيراً من الممالك الشامية ووقع بينهم وبين المسلمين الوقائع الهائلة التي يطول الكلام بذكرها حتى لم يبق بيد المسلمين سوى حمص وحماه والشام وحلب وبعض القرى الحقيرة واستمر الحال الى سنة ١١٢٨ مسيحية الموافق سنة ٥٢٢ هجرية فصار ملك حلب والموصل للسلاطين السلجوقية وانتزعوهما من بعض امراء المسلمين المتغلبين عليهما فأقاموا فيها عماد الدين زنكي والد السلطان محمود نور الدين الآتي ذكره وكان لعماد الدين شجاعة وشهامة وعزم شديد على جهاد الكفار فشن على الافرنج الغارات ووالى عليهم الغزوات واسترجع كثيرا مما ملكوه وتوفي مقتولاً قتله بعض مماليكه سنة ٥٤١ وكان أبوه اق سنقر مملوكا للسلطان ملك شاه السلجوقي ولما قتل عماد الدين وصار ملك حلب لابنه السلطان نور الدين محمود كان على الافرنج أشد من أبيه وزاد في قتالهم ونكايتهم وكان من أهل العلم والصلاح والتقوى والاستقامة وله ترجمة طويلة سيأتي ذكرها فأول ما ابتدأ في ولايته انه جهز حيث قتال الافرنج وفتح مدينة ارتاح وأورق وأماكن أخر وفي سنة ١١٤٧ مسيحية توافق سنة ٥٤٢

هجرية اشتدت حروب السلطان محمود وتوالت غزواته وفتوحاته فاستمد الفرنج الذين كانوا في مدائن الاسلام بالفرنج أهل أوروبا فأمدوهم بنجدة عظيمة تحت قيادة ملك جرمانيا وألمانيا وملك فرنسا لويز السابع وقبل قدوم ملك فرانسا بأيام يسيرة وصل ملك جرمانيا الى فلسطين في حالة يرثى لها اذ كان قد تلف أكثر من نصف جيشه في الطريق بعضهم بالجوع والمرض وبعضهم بالسيف في المعارك التي أثارها عليهم الاعداء في أثناء الطريق فلما بلغ سواحل سوريا وافته مواكب السلطان نور الدين بجيوش الاسلام وفتكت بعساكره فانهزم مع باقي جيشه وبينما هو راجع التقى بملك فرنسا مع جنوده وقد وصلوا في حالة أحسن من حالته فالتقتهم جيوش الاسلام في نواحي انطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال واستمر القتال بينهم مدة أيام وكانت الدائرة على ملك الفرنسيس وجنوده فانقلب راجعا ببقية قواده وجيوشه ونزلوا في السفن وساروا الى القدس وانضموا الى ما فيه من العساكر مع بقايا العساكر الجرمانية وفي سنة احدى وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج طرابلس الغرب وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة غزا نور الدين الفرنج من نواحي انطاكية وقتل البرنس صاحب أنطاكية وهزم الفرنج هزيمة قبيحة وقتل منهم جمعا كثيرا وأسر مثلهم وأكثر الشعراء من القصائد بمدحه وتهنئته وفتح نور الدين في هذه السنة والتي تليها حصونا كثيرة وكان الفرنج نازلوا دمشق مرارا وحاصروها فلم يقدروا على تملكها واستمر القتال والغزوات بينهم وبين السلطان نور الدين الى سنة ١١٧٣ مسيحية الموافق سنة ٥٦٩ وكان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين فجهزه الى مصر سنة ٥٦٤ وتملك مصر وانتزعها من العبيديين وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ وكان السلطان صلاح الدين في العلم والتقوى والصلاح مثل السلطان نور الدين فلما توفي السلطان نور الدين سنة ٥٦٩ جمع السلطان صلاح الدين بين ملك مصر والشام فصار الملك فيهما له وتابع الغزوات في قتال الفرنج لاستخلاص ما بأيديهم من ممالك المسلمين وأول قتال وقع بينه وبين الافرنج كان في حياة نور الدين سنة ٥٦٥ وذلك انه جاءت جموع كثيرة منهم وحاصروا مدينة دمياط وضيقوا على من بها فتجهز السلطان صلاح الدين من مصر بجيوش حافلة وقاتلهم وأمده السلطان نور الدين بجيوش كثيرة وشن عليهم السلطان نور الدين الغارات بالشام ووالى على المدائن التي بأيديهم الغزوات فارتحلوا من دمياط ورجعوا خائبين وفي سنة ٥٦٦ سار السلطان صلاح الدين من مصر وأغار على الفرنج بعسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه فأتاه ملك الفرنج بعساكر ليرده فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد ان أشرف ان يؤخذ أسيرا وعاد صلاح الدين الى مصر ثم

غزا ايلة برا وبحرا وانتزعها من الفرنج وفي سنة ٥٦٩ كتب بعض أهل مصر أتباع العبيديين الذين انقرضت دولتهم الى الفرنج الذين بالشام والذين بصقلية أن يرسلوا اليهم جيوشا يستعينون بهم على اخراج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية فبعث اليهم الفرنج مائتى اسطول تحمل الرجالة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الرجالة خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة ونازلوا الاسكندرية في السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج في البر مما يلى البحر وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد القتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال الى مصر الى السلطان صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية من كان قريبا من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل جهة فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وفشل الفرنج وكثر القتل فيهم والجراح واما صلاح الدين فانه لما وصله خبر منازلة الفرنج الاسكندرية سار من مصر بعساكره وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا وسير مملوكا له مبشرا لاهل الاسكندرية بقدوم صلاح الدين والعساكر فوصل المملوك الاسكندرية وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد يبشرهم بمجئ صلاح الدين والعساكر مسرعين ثم وصل صلاح الدين بعساكره في أثر المملوك فلما سمع الناس ذلك فرحوا وعادوا الى القتال وقد زال مابهم من تعب القتال وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله وسمع الفرنج بوصول صلاح الدين في عساكر فسقط في أيديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل في الفرنج فهرب

كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق
بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شوانى الفرنج فغرقت فخاف الباقون من
ذلك فولوا بشوانيهم هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون
الى بكرة ودام القتال الى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل
واسير وكفى الله المسلمين شرهم وفي سنة ٥٧١ عظم ملك صلاح الدين فكاتبه الفرنج
وطلبوا منه صلحا وهدنة فهادنهم على شروط معلومة وفي سنة ٥٧٣ انتقض الصلح لامور
جرت فسار السلطان صلاح الدين من مصر بجيوشه قاصدا قتال الفرنج وكان ذلك في جماد
الاولى من السنة المذكورة فوصل الى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر هو
وجنوده فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا أن
الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد طمعوا وساحوا في الارض
آمنين ووصل صلاح الدين الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى
نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والافرنج قد أشرفت عليهم بجنودها وابطالها وكان
مع صلاح الدين بعض العسكر لان اكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رأى الفرنج وقف
لهم فيما معه وقاتلهم فقتل جماعة من الفريقين وقتل ابن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين
ثم صارت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل
اليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف قليلا
ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى في نفر يسير الى مصر ولقوا في
طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من الدواب جوعا وعطشا
وسرعة سير وأما العسكر الذى دخلوا بلاد الفرنج في الغارة فان أكثرهم ذهب ما بين قتيل
واسير وكان من جملة من اسر الفقيه عيسى الهكارى وكان من أشد الناس قتالا وكان جامعا
بين العلم والدين والشجاعة واسر أيضا أخوه الظهير وكان قد سارا منهزمين فضلا الطريق
فاخذوا معهما جماعة من أصحابهما وبقوا سنين في الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى
بستين ألف دينار وفدى أيضا جماعة كثيرة من الاسرى ولما حصلت هذه الهزيمة سار
الفرنج الى مدينة حماه وحاصروها وكان الامير عليها شهاب الدين الحارمى فقاتلهم هو وأهل
البلد وكاد الفرنج يملكون البلد واشتد القتال وعظم الخطب وهجم الفرنج على بعض البلد
ودام القتال ليلا ونهارا واستقل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال ثم أنزل الله
عليهم النصر فأكثروا القتل في الفرنج واخرجوهم من البلد فارتحلوا خائبين وكفى الله

المسلمين شرهم ثم ساروا وحاصروا حارم فلم يتمكن لهم أخذها فساروا عنها وفي سنة ٥٧٤ في ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعا في النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى في طريقهم وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيمون بحماه ساروا اليهم وهم قليل متوكلون على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ماغنموا من السواد وكان صلاح الدين بحمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليــه فأمر بقتــل الاسرى فقتلوا لان الامام مخير في الاسرى بين القتل والفــداء والمن بلا فداء وفي ذي القعدة من هذه السنة اجتمع الفرنج وساروا الى دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيــه ومعه كثير من العسكر فقاتلهم ونصره الله عليهم وقتل كثيرا منهم وقتل جماعة من مقدميهم منهم هنفرى كان يضرب به المثل في الشــجاعة والرأى في الحرب فأراح الله من شره وفي سنة ٥٧٥ بنى الفرنج حصنا منيعا بالقرب من بانياس عنــد بيت يعقوب عليه الســلام فكان يعرف بمخاضة الاحزان فلما سمع بذلك صلاح الدين بذل للفرنج ستين ألف دينار ليهدموه بغير قتال فامتنعوا فسار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على الفرنج ثم سار الى الحصن بعساكره فحاصروا الحصن وقاتلوا من به وعادوا الى بانياس وخيله تغير على بلاد العدو وارسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مجــدا فوافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجــا ملكهم فريدا وأسر كثيرا منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضــا أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من مشاهير فرسانهم فأما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أســير من المسلمين ثم عاد صــلاح الدين الى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فأحاط به وبث العساكر للاغارة على الفرنج في تلك الاطراف ثم زحف المسلمون على الحصن واشتد القتال وعظم الأمر ونقبوا الحصن وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور وكان عرضه تسعة أذرع بالنجاري فلم يسقط الا بعد أيام فدخل المسلمون الحصن عنوة وقتلوا كل من فيه وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا

من أسرى الفرنج وادخل الباقين الى دمشق فسجنوا واقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالارض وكان جملة من الفرنج قداحتموا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه تفرقوا وفي سنة ٥٧٨ فتح المسلمون شقيفا وأخذوه من الفرنج وهومن أعمال طبرية مطل على السواد وكان على المسلمين منه أذى شديد ولما بلغ الفرنج مسير صلاح الدين من مصر الى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة وربما عاقوا المسلمين عن السير بأن يقفوا على بعض المضايق فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه ابن أخي صلاح الدين الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام وقصد ماأيديهم من البلاد وأغار عليها ونهب وبورية وما يجاورها من البلاد وأسر الرجال وقتل وسبي النساء وغنم الأموال وفتح منهم الشقيف ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما لما كان يحصل لهم من الاذى منه ولما وصل صلاح الدين الى دمشق سار الى طبرية وكان الفرنج بجموعها نازلة بطبرية فنزل بالقرب منها وأغار ابن أخي صلاح الدين على بيسان فدخلها قهرا وغنم مافيها وقتل وسبي وأغارت العساكر والعربان في تلك الولاية حتى قاربوا مرج عكاوسار جماعة من الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وأثخنوا القتل فيهم فرجعوا ورجع صلاح الدين الى دمشق ثم سار منها الى بيروت يريد حصارها وفتحها فأتاه الخبر ان البحر ألقى مركبا للفرنج فيه جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسر المسلمون من بها بعد ان غرق كثير منهم وكان عدة الاسرى ألفا وستمائة وستا وسبعين اسيرا فضربت بذلك البشائر وسار اسطول للمسلمين من مصر في البحر فلقوا أسطولا للفرنج فيه ثلاثمائة منهم معهم الاموال والسلاح مرسلين الى فرنج الساحل فقاتلهم المسلمون فظفروا بهم واخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم وغنموا مامعهم ثم أغار صلاح الدين على بيسان فأحرقها وخربها وقتل من فيها ثم أغار على الكرك وأطرافها ثم وصل الى نابلس فأحرقها وخربها وقتل واسروسبي ولم يزل يشن على الفرنج الغارات في كل الاطراف ويطول الكلام بذكر وقايعه مع الفرنج الى أن فتح طبرية بعد قتال شديد ووقايع هائلة وأكثر القتل والاسر في الفرنج وكان جيش صلاح الدين لما حاصر طبرية ثمانين ألفا فلما اشرف عليها وحاصرها وافاه ملك الفرنج الذى ببيت المقدس بجيوش هائلة للمدافعة والمحاماة عن أهل طبرية لانها كانت عندهم من أهم مراكز البلاد وهناك التقى العسكران وماجت الارض بالعساكر واستمر القتال بين الفريقين وكانت

الدائرة على أهل الصليب فانقلبوا منهزمين على الاعقاب طالبين النجاة بعد ان فقد منهم نحو ثلاثين ألفا ووقع الملك أسيرا مع خواصه وأكابر رؤسائه في أيدى الاسلام وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين مائتين وثلاثين رجلا من أعيان الافرنج المأسورين وأما الملك فانه أرسله الى دمشق ثم سار صلاح الدين الى عكا وحاصرها وضيق عليها فطلب أهلها الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون عكا يوم الجمعه مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم تتابعت الفتوحات بعد فتح طبرية وعكا وهما فتحان عظيمان وفي الحقيقة هما أول الفتوحات والذى كان قبلهما انما كان اغارة في الاطراف وغزوات وسريات وسبب تأخر الفتوحات الى سنة ٥٨٣ مع ان السلطان نور الدين توفي سنة ٥٦٩ وصار الملك بعده لصلاح الدين ان كثيرا من عمال السلطان نور الدين الذى تحت حكمهم كثير من ممالكه امتنعوا من الدخول تحت طاعة السلطان صلاح الدين ووقع بينه وبينهم محاربات في هذه السنين يطول الكلام بذكرها حتى أدخلهم تحت طاعته وصفى له الامر وقبل ذلك ما كان متمكنا من التفرغ لقتال الفرنج كل التفرغ وأما في هذه السنة سنه ٥٨٣ فقد تفرغ لهم كل التفرغ وتوجه غاية التوجه ولما ارتحل الفرنج من عكة ودخلها المسلمون غنموا مابقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والبندقى والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله فغنمه المسلمون وأقام صلاح الدين بعكا أياما لاصلاح حالها وتقرير قواعدها ثم ارتحل وفرق العساكر الى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيوف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا بما سد الفضا وبعث أخاه سيف الدين الى مدينة يافا فحصرها وملكها وغنم مافيها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وسار صلاح الدين وابن أخيه تقى الدين وكثير من العساكر وحصروا تبنين وضايقوها وهى من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مئة ثم أرسلوا يطلبون الامان فأمنهم وسيرهم الى مأمنهم ثم رحل الى صيدا فاجتاز في طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتل ثم سار فى

صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله ثم سار عنها الى بيروت وهي من أحصن مدن الساحل فلما وصل اليها رأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد أخرى فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى غلبة وقهرا فارسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فارادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فامنهم على انفسهم واموالهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة وكان مدة حصرها ثمانية أيام ثم أراد صلاح الدين السير الى جبيل وكان صاحبها من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فامر بارساله اليه فاحضره مقيدا وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر يضرب به المثل بينهم وكان للمسلمين عدوا أزرق فكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ماسيأتى بيانه ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس عنده أهم لاسباب منها أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات فيسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع باخيه سيف الدين العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر من دمشق ملك الفرنج الذى أسر في وقعة طبرية ومعه مقدم الداوية وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فارسلا الى من بعسقلان من الفرنج يامرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينه ونصب المنجنيقات عليها وزحف بجيوشه اليها مرة بعد أخرى وتقدم النقابون فنقبوا منه شيئاً وملكهم يكرر اليهم المراسلات بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من

البحر واجلب الخيل والرجل من أقصى بلاد الفرنج وادانيهاوهم لايجيبون الى مايقول ولا يسمعون مايشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لايجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اشترطوها فأجابهم صلاح الدين اليها وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان ثم أقام صلاح الدين بظاهر عسقلان وبث السرايا من اطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرمله والداروم وغزة والخيل وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية ثم لما فرغ من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد سار الى فتح بيت المقدس وكان قد أرسل اسطولا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه وكان في بيت المقدس البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شانا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خاص فرسانهم كثيرون وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق يبلغون ستين ألفا مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض مايجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة وانه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات فيمنعون من يريد الدنو منه والنزول اليه فلما قرب صلاح الدين منه رأى على سوره من الرجال ماهاله وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقاتل كل من الفريقين أشد قتال كل يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين بن مالك وهو من أكابر الامراء

وكان محبوبا الى الخاصة والعامة فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج من مواقفهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحفوا والرمالة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس لصلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان فامتنع السلطان صلاح الدين من اجابتهم وقال لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغبه في الامان وسأله فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال أيها السلطان اعلم انا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد ان يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرى عاقبة الامر فيه عن أى شئ تنجلى ونحسب انهم أسرى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويؤخذ من الطفل من الذكور والاناث ديناران وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان يوما مشهودا

ورفعت الاعلام الاسلامية على أسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أمينا من الامراء ليأخذ من أهله مااستقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه امانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدى سبا ولو اديت فيه الامانة لملأ الخزائن وعم الناس وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه مايعطي وأخذ أسيرا ستة عشر ألف انسان مابين رجل وامرأة وصبي وأظهر صلاح الدين من علو الهمة والشفقة والرحمة مالا مزيد عليه فكان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عليهم حتى أنه أطلق ثلاثة آلاف رجل بدون فدية وكان في المدينة الملكة زوجة الملك المأسور وعند مقابلة صلاح الدين اياها أظهر لها من الرقة واللطف وكرم الاخلاق مالا يوصف وكان يكلمها ودموعه تجرى وأطلق لها مالها وحشمها واستأذنته في المسير الى زوجها وكان محبوسا بقلعة نابلس فأذن لها فأتته وأقامت عنده وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه أموال البيع منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها مالا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ مامعه يقوى به المسلمين فقال لاأغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وأمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار ولما كانت الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محمود كان قد عمل منبرا لبيت المقدس رجاء ان يفتحه الله على يديه وأمر الصناع بتحسينه واتقانه لم يعمل في الاسلام مثله فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس وكان بين عمل المنبر وحمله مايزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ثم أمر صلاح الدين بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وازالة ماأحدثوه من التصويرات وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيرها فأمر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالرخام أن القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده بيسير منها بنى له الكنيسة ويجعله في مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى فأمر بها ففرش فوقها الرخام حفظا لها فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكماد ذلك خبر وسرفوم الافرنج من حصله منهم فهو

وشرعوا في بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم واموالهم وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الافرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج التي تركوها أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق وغير ذلك وتركوها أيضا من الرخام الذى لايوجد مثله من الاساطين والالواح وغير ذلك شيأ كثيرا وساروا وفرق صلاح الدين على أرامل وايتام القتلى من الفرنج مالا كثيرا وسمح للمتولحين على القشلات والمستشفيات ان يبقوا في المدينة سنة أخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم ثم أقام صلاح الدين بظاهر القدس الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب امور البلد واحوالها وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهي في غاية مايكون من الحسن وكانت مدة استيلاء الفرنج على بيت المقدس احدى وتسعين سنة لانهم ملكوه سنة اثنتين وأربعمائة وأخذ منهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكان قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وكان تاجرا من تجارهم وقد ساسهم احسن سياسة وبالغ في تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا واقام فيها اياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لايمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار في الثاني والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد على ان الموضع الذي يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التي وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فان المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبي الساعد والقتال انما هو في الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والشروخ والدبابات والعرادات شيء أصغر من المنجنيق والشرخ نصل لم يركب والدبابة آلة تتخذ للحرب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها وكان عشيرة صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شواني وحراقات

يركبون فيها في البحر ويقفون من جانب الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالشروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم على المسلمين لان أهل البلد يقاتلونهم بين أيديهم واصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثر الجراحات في المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى بلد فأرسل صلاح الدين الى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فاحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها فكانت في البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه براً وبحراً وضايقوهم حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان خمس قطع من شوانى المسلمين باتت في بعض تلك الليالى مقابل مينا صور ليمنعوا من الخروج والدخول اليهم فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا الا بشوانى الفرنج قد نازلتهم فازالتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتلوا من ارادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشوانى في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية وأمرهم بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من في شوانى المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم ألقوا أنفسهم من شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفي بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد ان كثر القتال والقتل عليه من الفريقين ما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة ايام فلما رأى صلاح الدين ان امر صور يطول رحل عنها وندم على ما فرط منه قبل ذلك فانه كان كلما فتح مدينه وأمن أهلها الفرنج يجهزهم بأموالهم ورجالهم الى صور من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك فصار فيها بالساحل فرسان الفرنج بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصر وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلتجئون اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها و... عنهم فلا ينبغى للملك ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم ويكون الحزم أعذر له عند الناس فرحل عنها آخر شوال في

عكا واذن للعسكر بالعود الى أوطانهم والاستراحة في الشتاء والعود في الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام ومصر وبقي في حلقته الخاصة مقيما بعكا وكان قد أرسل قبل ذلك جماعة لحصار هونين فلما كان محاصرا مدينة صور أرسل أهل هونين يطلبون الامان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها فوفي لهم بالامان ولما دخل المحرم سنة ٥٨٤ سار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن ونازلها ظنا منه أن ملكها سهل وهو في قلة من العسكر فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لان البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ماعدا هذه الحصون وكان أهل هذه القلاع يقطعون الطريق على المجتازين فكان أحب شيء ان يتملكها ليأمن الطريق للمجتازين فلما حصرها ورآها منيعة يبطيء ملكها رحل عنها وجعل عليها جماعة يحاصرونها وسار الى دمشق وكتب الى البلاد جميعاً باجتماع العساكر وسار من دمشق منتصف ربيع الاول ووصل الى حمص ثم أغار على مواضع للفرنج ووصل الى قريب طرابلس وابصر البلاد وعرف من أين يأتيها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا يحصى ونزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقي من حمص وأقام الى آخر ربيع الآخر وكانت جبلة من أعمال انطاكية بيد الفرنج وفيها كثير من المسلمين ولها قاض مسموع الكلمة عند الفرنج والمسلمين وجعله الفرنج يحكم على المسلمين واسمه منصور ابن شبيل فاخذته الغيرة للدين فجاء الى السلطان صلاح الدين وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جماد الاولى فنزل بانطرسوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ماوجدوه من ذخائرهم وحاصر احد البرجين فنزل اليه من في أحدهما بأمان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته في البحر وترك من في البرج الآخر فخرب صلاح الدين ولاية انطرسوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد رحل عنها اهلها وسار والى المرقب وهي من حصونهم التي لاترام ولا تحدث احدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه والطريق تحته والحصن على يمين المجتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لايسلكه الا واحد بعد الواحد واتفق ان ابن صاحب صقلية ارسل نجدة الى فرنج الساحل ستين قطعة من الشواني وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما

رأى صلاح الدين ذلك أمر بوضع سرر واخشاب فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثانى عشر جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله كان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع اعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها واحتموا بقلعتها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائنهم يكونون عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكانوا بانطاكية وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعل فيها أميرا

ذكر فتح اللاذقية

وسار الى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لهما على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين وزحفوا اليهما ونقبوا الاسوار وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج العطب دخل اليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الاعلام الاسلامية الى الحصنين وسلم صلاح الدين اللاذقية لابن أخيه تقى الدين عمر وجعله أميرا عليها ولما نازل صلاح الدين اللاذقية وصل اسطول صقلية الذى تقدم ذكره فوقف بازاء مينا لاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم أهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها الفرنج غيظا عليهم حيث سلموها سريعا فسمع بذلك أهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية فكان ذلك سبب مقامهم فيها ثم ان مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه أنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج مافعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر مالا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه مع اظهار القوة والاستهانة بكل من يجىء من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم ماأذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

ذكر فتح صهيون

ثم رحل صلاح الدين في السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الا ان الجبل متصل به من

جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لايرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملاصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات أيضا فرأى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسى اليد والشرخ وغير ذلك فخرج اكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل فتسلقوا بين الصخور حتى التحقوا بالسور فملكوا منها ثلاثة وغنموا مافيها من ابقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقصة التى للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على انفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين فحصنه وجعله من احصن الحصون

﴿ ذكر فتح عدة حصون ﴾

ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحى فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيد وحصن الجماهرين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهى وبكاس على الطريق السهل المسلوك الى لاذقية وجبلة والبلاد التى افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لاترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا أنه أمرهم بمزاحفتهم ونصب المنجنيق اليها ففعلوا ذلك ورموا بالمنجنيق فلم يصل من احجاره الى القلعة شئ الا القليل الذى لايؤذى فبقى المسلمون أياما لايرون فيها طمعا وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم من ضرر يتطرق اليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة واعمال الحيلة في الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتى الله بنصر من عنده وفتح فبينماهم في الحديث اذ أشرف عليهم أفرنجى ونادى يطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة ايام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه وسبب استمهالهم انهم أرسلوا الى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه ان يرحل عنهم المسلمين

والا سلموها وانما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله في قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم احد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قليج وأمره بعمارته ورحل عنه وكان قد سير ولده الظاهر غازي صاحب حلب الى سرمينية فحصرها وضيق على أهلها واستنزلهم على قطعة قدرها عليهم ثم هدم الحصن وعفى أثره وكان في هذه الحصون من اسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا واعطوا كسوة ونفقة واتفق ان فتح هذه الحصون كلها في ست جمع مع انها كانت في ايدى أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من اذا اراد ان يسهل الصعب فعل وهى جميعها من اعمال أنطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى

ذكر فتح قلعة برزية

ولما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية وكان قد وصفت له وهى تقابل حصن افامية وتناصفها في اعمالها وبينهما بحيرة تجمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان أهلها أضر شئ على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الاذى فلما وصل اليها نزل شرقيها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن ان تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانها لا يقدر أحد ان يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادى المنضيف بجبالها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيراً حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليهم منجنيقاً أبطلها وكان ابن الاثير صاحب التاريخ مع صلاح الدين في هذه الغزوة طالبا للجهاد قال ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شئ اليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا ويزحف القسم الثانى فاذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفريج وينصبوا فانه لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فاذا تعبوا واعيوا سلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الاقسام وزحفوا وخرج الفرنج

من حصنهم فقاتلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفنيات والجنوبات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قربوا من الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شئ فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاصة فقاتلوا قتالا شديداً وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم اليهم وبيده جماق يردهم وصاح في القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا مايين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج مالا قبل لهم به وكان القسم الاول قد استراحوا فقاموا ايضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحرب والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة في الخيام شرقى الحصن فرأو الفرنج قد اهملوا ذلك الجانب لانهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا في الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهراً ودخل الفرنج القلعة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من اسرى المسلمين الى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحى القلعة كبروا في سطح القلعة وظن الفرنج ان المسلمين قد صعدوا أعلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا مافيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا من صاحبها وأهله وأمست خالية لاديار بها وألقي المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت قال ابن الاثير وأعجب مايحكى من السلامة انى رأيت رجلا من المسلمين في هذه الوقعة قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو في الجبل عرضا فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الارض فوق موضع الرجل فضربه المنحدر عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من

جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام الرجل حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست ام الجبان وأما صاحب برزية فانه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له ومعها زوجها فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها ثم بعد فتح برزية رحل صلاح الدين من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من انطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من عسكره

﴿ ذكر فتح درب ساك ﴾

ثم سار عنه الى درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهي من القلاع الحصينة التى يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد لمنازل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئاً يسيراً فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذى يريدان المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينظرون جوابه اما بانجادهم وازاحة المسلمين عنهم واما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم في التسليم فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الامان فأمنهم على شرط ان لا يخرج أحد الا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شئ مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب سنة اربع وثمانين وخمسمائة

﴿ ذكر فتح بغراس ﴾

ثم سار صلاح الدين عن درب ساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج ان يكون اكثر العسكر في اليزك مقابل انطاكية واذا كان الامر كذلك قل المقاتلون عليها وتتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل اكثر عسكره يزكا مقابل انطاكية يغيرون على

اعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها ان غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم تؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها نخفف الأمر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منه انسان يطلب الامان فأجيب الى ذلك فأذن له في الحضور فحضر وطلب الامان لمن في الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم الى ما طلبوا فعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين المسلمين بتخريبه فخرب ثم ندم على ذلك بعد لانه حصل منه بعد ذلك مضرة على المسلمين لان ابن اليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته وأيقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى منهم السواد الذى لحلب

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف صاحب انطاكية من ذلك وأشفق منه فأرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار صلاح الدين من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس يقترعوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فأجاب الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية في ذلك الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت صاحبها وجميع أعمالها مضافا الى ما كان له فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الاكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق أكثر العساكر وكان مع صلاح الدين الامير عز الدين ابو فليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع الى المشورة في أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق من بقى من العساكر فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج من الحصون الكرك وصفد وكوكب وغيرها ولابد من الفراغ منها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

الى الا

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصارهذه المدةالطويلة حتى فنيت ازواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل اخا صلاح الدين وكان صلاح الدين قد جعله على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هــذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى درب ساك وبغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليــه ويطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذى يحصرها فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً مايقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحيــة وألقى الاسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

ذكر فتح قلعة صفد

لمـا وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق من بقي من العسكر قال لاعدمن الافرنج من صفد وكوكب وغيرها فأقام بدمشق الى منتصف رمضان وسارعن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي اليها ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم ان تفنى في المدة التي كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم فلما رأى أهله جد صــلاح الدين في قتالهم خافوا ان يقيم الى أن يفنى مابقى معهم من أقواتهم وكانت قليـلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ماعندهم من القوت فيأخذهم فأرســلوا يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنه وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا في وسط البلاد الاسلامية

ذكر فتح كوكب

لمـا كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الافرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلا من المحاصرين كوكب خرج متصيــداً فلقي رجلا من تلك النجدة فاستغربه بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذي قدمه الى هناك فأقر بحال

ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم الى مقدم العسكر فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب في
على طائفة من العسكر الى الموضع الذى اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم في الشعاب
والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الفرنج فحملوا الى صلاح
الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما فلما أمر بقتلهما قال له احدهما ماأظن أن ينالنا سوء
وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان يفعل فيه الاعتذار والاستعطاف فلما سمع
كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل
الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبى والنهب ان امتنعوا
فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمى
الاحجار اليهم وزحف مرة بعد أخرى وكانت الامطار كثيرة لاتنقطع ليلا ولا نهاراً
فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر
الامر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون
والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجرخ فلم يقدر أحد منهم ان يخرج رأسه من
أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك
أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف القعدة وسيرهم الى صور
فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت
جموعهم وتابعوا الرسل الى الفرنج الذين في أوروبا والاندلس وصقلية وغيرها من جزائر
البحر يستغيثون ويطلبون الامداد والنجدة وفي كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط
صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك
واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى اعمال بيروت لايفصل
بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد
وكوكب سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فاقام بها حتى
انسلخت سنة ٥٨٤ ودخلت سنة ٥٨٥ وهي مسيحية سنة ١١٨٩ ففي ربيع الاول من
هذه السنة سار الى شقيف ارنوم وهى من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل
صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكراً
فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له انا محب لك ومعترف باحسانك
وأخاف ان يعرف المركيس صاحب صور مابيني وبينك فينال اولادى وأهلي منه أذى
فانهم عنده فأحب ان تمهلنى حتى أتوصل في تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر أنا وهم

عندك وتسلم الحصن اليك وأكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ما سأل فاستقر الامر بينهما على ان يسلم الشقيف في جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية فأمر تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه ان يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتيه غيرهم ويكون مقابل انطاكية لئلا يتغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهمّ لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الامداد في البحر وان ملك الفرنج الذى كان أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو وصاحب صور بعد اختلاف كان بينهما وانهما قد اجتمعوا في جمع لا يحصى وخرجوا من مدينة صور الى ظاهرها فكان هذا واشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع صاحب الشقيف في مدة الهدنة يشترى الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن به واذا قيل له عنه ماهو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى ان يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدى فضيحته ويظهر مخالفته لا يصدق فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم واحضر عنده أرناط صاحب الشقيف وقد بقي من الاجل ثلاثة ايام فقال له في معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده واهله وان صاحب صور لم يمكنه من المجيء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمله رسالته الى من بالشقيف ليسلموه فأحضروه عنده فساره بما لم يعلموا ففي ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر اهله العصيان فأرسل صلاح الدين ارناط صاحب الشقيف الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه من الذخيرة والنجدة وجاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها ان الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة في شعبان اصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل اليهم وقد فات الامر وذلك ان الفرنج قد فرقوا صور وساروا عنه لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديد يشيب له الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من اشجع

الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله تعالى ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم ولما وصل صلاح الدين الى اليزك وقد فاتته الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب في بعض الايام في عدة يسيرة على ان ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى مايشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة انه على قصد المصاف في الحرب فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخافوا السلطان وراءظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الامراء يردونهم ويحمونهم الى ان يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا ان وراءهم كمين فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فأتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم مايخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن أناموهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ماجرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم رحمهم الله تعالى ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم في عسكره فحملوا على الفرنج الى الجسر وقد اخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم في الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم الى المعسكر والمخيم ولما عاد صلاح الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متعددين فكتب الى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمينا في موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم انهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجروهم الى ان يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراآى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين ان يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين اليهم قاصدين فأتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الامر شدة على شدته وكان منهم أربعة أمراء من ربيعة طي وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلك مسالك

أصحابهم فسلكوا الوادى ظنا منهم انه يخرج بهم الى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادى فعلموا انهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة واخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من الغد الى مواضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه في كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفي ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهدا الا كان له فيه الأثر العظيم

﴿ ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها ﴾

لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه مع ان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الامان وسيرهم اليها باموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الاموال مالا يفنى على كثرة الانفاق في السنين الكثيرة ثم ان الرهبان والقسيسين وخلقا كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم وأخذهم البطرك الذى كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويحثونهم على الاخذ بثار البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربى والعربى يضربه وقد جعلوا الدماء في صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران ومن لم يستطع منهم الخروج بنفسه استأجر من يخرج عوضا عنه يعطيهم مالاً على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال مالا يتطرق اليه الاحصاء حتى ان بعض الاسرى منهم حدث ان له والدة ليس لها ولد سواه وما كانت تملك من الدنيا غير بيت فباعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاد بيت المقدس فأخذ أسيرا فكان عند الفرنج من الباعث الدينى والنفسانى ماهذا حده فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحرا من كل فج عميق وحاصروا عكا ثلاث سنين حتى ملكوها وكان ابتداء تجمعهم وسيرهم هذا المسير سنة ٥٨٥ وهى مسيحية سنة ١١٨٩ فنازلوا عكا منتصف رجب من السنة المذكورة والامداد تأتيهم في كل وقت بالمدد والرجال والمسلمون يقاتلونهم وفي سنة ١١٩٠ مسيحية وهى سنة ٥٨٦ هجرية قامت لهم التجريدة الثالثة ونفروا نفرا عاما من بلاد أوروبا

تحت راية فليب ملك فرنسا وفريد ملك جرمانيا وريكاردوس الأول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وغيرهم من الامراء فنهضوا جميعا وقصدوا بلاد فلسطين بمائتي سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات وعند وصولهم الى مدينة صور وهى الباقية بأيديهم تقدموا منها الى مدينة عكا وحاصرها مع من كان قبلهم محاصرها حتى تم عدد المحاصرين ستمائة ألف ولاقى المسلمين من حربهم أشد البلاء وكان ابتداء مسيرهم من صور ثامن رجب سنة ٥٨٥ يموج بعضهم في بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجل من بلادهم ولزموا ساحل البحر في سيرهم لايفارقونه في السهل والوعر والضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التى سلكوها فقالوا لاحاجة بنا الى احتمال المشقة في مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ماتريده منهم والرأى اننا نسير في الطريق الواسع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم الى الراحة المعجلة فوافقهم وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال ان الفرنج اذا نزلوا لصقوا بالأرض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا فخالفوه فتبعهم وساروا على طريق واسع فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم فلم يقدم الفرنج عليه مع قتالهم فلو ان العساكر اتبعت رأى صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا كان بلغ منهم غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين الى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين طريق الى عكا فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل القياطية وميسرته الى النهر الجارى ونزلت الاثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعاء العساكر فأتاه الناس من كل البلاد وكانت الامداد تأتى المسلمين في البر وتأتى الفرنج في البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكة حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريده وبات الناس على تعبئة فلما كان الغد باكرهم بالقتال بحده وحديده واستدار

عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين ابن أخي صلاح الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لايلوى أخ على أخ والتجؤا الى من يليهم من أصحابه واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ولو ان المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كثيرة

ذكر وقعة أخرى

ثم ان المسلمين نهضوا الى الفرنج من الغدر وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم في استيصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالامس وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع عن الوصول اليهم فألح المسلمون عليهم في القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مرابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم ان جماعة من الفرنج تخرج من الناحيه الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع الفرنج على عادتهم حمل عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فاحسن اليهم بالجوائز والخلع

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الواقعة المذكورة بقي المسلمون الى عشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهروا من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج جمعوا للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضروا والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون اذا حضروا فالرأى انا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العسكر والامداد اليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل انطاكية ليرد صاحبها عن اعمال حلب وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذي بقي من عسكر مصر لم يصل

لطول بكارهم فكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور الى قتال المسلمين واصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو في خيمته ومنهم من قد توجه في حاجة من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر بن اخي صلاح الدين فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا اليه فلما قربوا منه تأخر فلما رأى صلاح الدين الحال وهو في القلب أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى تقي الدين فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب وان كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين يديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ثم ان الفرنج نظروا الى ورائهم فرأوا امدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا ان ينقطعوا عن أصحابهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين فصادفوهم وهم راجعون وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع منهم معه جماعة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فاخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد وقتل أكثرهم وأخذ الباقون اسرى وكان عدة القتلى عشرة آلاف قتيل سوى من كان جانب البحر ثم أمر بالقتلى فالقوا في النهر الذي يشرب منه الفرنج وكان من جملة الاسرى ثلاثة نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل ولولا ان العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والاهلاك على ان الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلهم يفرغون منهم فجاء للمسلمين الصريخ بأن رجالهم وأموالهم نهبت وكان سبب هذا ان الناس لما رأوا الهزيمة حملوا اثقالهم على الدواب فسار بهم اوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان في عزم صلاح الدين ان يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء باحضار ما اخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهوى والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى اننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى مانحن فيه ثم ان مزاجك منحرف والالم شديد ولو وقع أرجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فأجابهم اليه لما يريد الله ان يفعله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وارسل لمن في عكا من المسلمين يأمرهم بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم أيضا في البحر تحصرها وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن في الحساب وكان اليزك كل يوم يواقعهم وهم لايقاتلون ولا يتحركون انما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل انه غير صواب وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الامر عليه وهو مشغول بالمرض لايقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليهم تمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم احضر معهم لايفعلون شيأ وربما كان من الشر أضعاف مانرجوه من الخير فتأخر الامر الى أن عوفي فتمكن الفرنج وعملوا ماأرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا أنفسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون اليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد ولما برئ صلاح الدين من مرضه كان الشتاء قد دخل فأقام بمكانه الى ان ذهب الشتاء وكان يزك وطلائعه لاتنقطع عن الفرنج وفي منتصف شوال وصلت اليه العساكر المصرية ومقدمهم الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين فقويت نفوس الناس به وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيأ كثيرا ومعه من الرجالة الجم الغفير ووصل بعده الاسطول المصرى ومقدمه الامير لؤلؤة وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر وقتال فيه ميمون النقيبة ووقع في طريقه على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها اموالا كثيرة وميرة عظيمة

ودخلت سنة ست وثمانين فلما دخل صفر سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى في المعسكر عندهم قليلا وان الوحل الذى في مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من اراد ان ينحدر الى اليزك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا نفوسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشاب المسلمين فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لاينجيهم لا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فأتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى خندقهم فاقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبه منه دمشق وحمص وحماه وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول

كان الفرنج في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوءة من المقاتلة وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التى تمنع النار من احراقها واصلحوا الطرق لهــا وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين في ربيع الأول فأشرفت على السور وقاتل بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندق البلد فاشرف البلد على ان يملك عنوة وقهرا فأرسل أهل البلد الى صلاح الدين انسانا سبح في البحر فأعلمه ما هم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدم الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما شغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا الا ان الامر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيأ وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده واذن من احرق الابراج وكان سبب ذلك ان انساناً من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على

ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسي انما اشتهي معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله فلما رأى الابراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لايمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولى الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمى في المنجنيق المحاذى لبرج من هـذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا لقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا ان نوافقه على قوله فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقي بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدر لايحرق شيأ يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذى ألقاه قد تمكن من البرج والتصق به حتى اذا جاءته النار اشتعل سريعا ألقى قدرا مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضرمت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيـه وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الاولى لاتعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيـا قبل الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون الذين مع صلاح الدين خارج البلد ينظرون ويفرحون وقد اسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله في البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفردة وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وارسل صلاح الدين يطلب العساكر الشرقية فاول من أتاه صاحب سنجار بعساكره وديار الجزيرة ثم صاحب الموصـل بعساكره ثم صاحب أربل بعساكره وكان كل منهم اذا وصـل يتقدم الى الفرنج بعساكره وينضم اليهم غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاسـطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا في طريقه اسطولا يلقاه ويقاتله فركب صـلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج

مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا ان القتل في الفرنج كان اكثر منه في المسلمين ووصل الاسطول الاسلامى سالما

ذكر وصول ملك الالمانى الشام وموته

في هذه السنة كان خروج ملك ألمان من بلاده والالمان نوع من الفرنج من أكثرهم عددا واشدهم بأسا وكان قد أزعجه تملك المسلمين بيت المقدس فجمع عساكره وازاح علتهم وسار عن بلاده وكان طريقه على القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية عقد صلحا مع صلاح الدين وصار يكاتبه ويظهر له المودة فأرسل ملك الروم لصلاح الدين يخبره بقدوم ملك الالمان وبعده انه لا يمكنه من العبور في بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن احدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على بلاد الاسلام وهى مملكة الملك قلج ارسلان السلجوقى وكان من ملوك الاسلام فلما وصلوا الى اوائلها سار بهم المسلمون فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويأخذون ماقدروا عليه من أموالهم وكان الزمان شتاء والبرد في تلك البلاد شديد والثلج متراكم فأهلكهم البرد والجوع والقتل والاخذ فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين بن قلج ارسلان السلجوقى ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية فساروا حتى بلغوا انطاكية وكانوا نيفا واربعين ألفا ووقع فيهم مرض ووباء فمات كثير منهم ودخل ملكهم في نهر ليغتسل فغرق فجعلوا ابنه ملكا عليهم بدله ثم ساروا حتى وصلوا الى عكا فلما رأوا ماناالهم من المشقات أراد كثير منهم العود الى بلادهم فركبوا في مراكب غرقت بهم ولم يبق منهم الا القليل ولما بلغ صلاح الدين اقبالهم استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل ان يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير بعض عساكره الى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله تعالى اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصارُ وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً * لكن كفى الله شرهم واقل عددهم بما اصابهم من العوارض والبلايا في طريقهم

ذكر واقعة للمسلمين والفرنج على عكا

وفي هذه السنة أعني سنة ٥٨٦ في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أخو صلاح الدين فركب المصريون واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فكر المصريون ورجعوا عاطفين عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المددعن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت أمدادهم القوا بايديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الاالشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيدعدد القتلى على عشرة آلاف قتيل ولما جرت عليهم هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم فلما كان بعد يومين أتتهم أمدادفي البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هنرى ابن أخي ملك فرانسا لابيه وابن أخي ملك انكلترا لأمه ووصل معه من الاموال شيء كثير يفوته الاحصاء فلما وصل جند الاجناد وبذل الاموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم ان الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا انهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم وكانت منزلة المسلمين قدأنتنت بريح القتلى فاختاروا الانتقال الى موضع يتسع فيه المجال فانتقلوا من مكانهم الى الخروبة في السابع والعشرين من جماد الآخرة ثم ان الكند هنرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات للتوصل الى دخول عكا فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكندهنرى بعد أخذ منجنيقاته أرادأن ينصب منجنيقا آخر فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين الذين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمي من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد فكان الفرنج ينقلون التل الى القرب من البعد بالتدريج ويستترون به فلما قرب الى البلد وصار بحيث تصل من عنده حجر المنجنيق نصبوا من ورائه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب الى عكا فتأخر انفاذها فسير الى نائبه بمدينة بيروت في ذلك فسير بطسة عظيمة مملوءة من كل مايريدونه وأمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم فرفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج انها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت مينا عكا دخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم الى ان أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحي الاسكندرية وأخذ من

معها ثم ان الفرنج وصلهم كتاب من البابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وكان قوله عندهم كقول النبيين لايخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومة الكبرى يأمرهم في كتابه بملازمة ماهم بصدده ويعلمهم انه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ويعلمه بوصول الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

﴿ذكر خروج الفرنج من خنادقهم﴾

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجندلهم الكند هنرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال من السنة المذكورة في عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين الى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ على عكا ولقي الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماه ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ماكاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربى النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية ان تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الالم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وانما لله في كل شئ حكمة وله أمر هو بالغه ولاراد لما أراد فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفي الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض جماعة أخرى من المسلمين للفرنج فخرج اليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جاوزوا الكمين

فخرج من كان في الكمين من المسلمين عليهم فقتلوهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا ولما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لانها لم تمكن من المينا فسيروها الى صور لانها كانت بأيديهم فانفتح الطريق الى عكا في البحر للمسلمين فأرسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فأمر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم فتفرق خلق كثير فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الامن سابح يأتى بكتاب ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

﴿ذكر وصول فليب ملك الفرنسيس ثم ملك انكلترى﴾

في هذه السنة أعنى سنة ٥٨٧ ثانى عشر ربيع الاول وصلت أمداد الافرنج في البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك الفرنسيس ومعه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوسهم وكان صلاح الدين يركب كل يوم ويقصد الفرنج يشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ماعنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من وصول شئ من شوانيهم الى عكا ففعل ذلك صاحب بيروت وسير الشوانى في البحر فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد المسمى دريكلدوس الاول وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها من ملك الروم لانها كانت بأيديهم فاقتتلت شوانى المسلمين مع مراكب انكلترا فغلبهم المسلمون واستظهروا عليهم وغنموا امامعهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من موضعه الذى كان فيه ونزل قريبا من خنادق الفرنج مقابلة لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجئ اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلترى ثالث عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ بعد ان استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها

بالمكر والخديعة من الروم فانه لما وصل اليها غــدر بصاحبها وملكها فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من بعكا من الفرنج فوصــل اليهم في خمس وعشرين قطعة كبار مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التى لامثل لها ولما وردت الاخبار بقدومه أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سـبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلترا مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتاله فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع مافيها وكانت عكا محتاجة الى رجال ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لاينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مسـتطيلا وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من ورائه لاينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لابالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهـم فلم يقدر لهم على نفع ولامنع

﴿ ذكر ملك الفرنج عكا ﴾

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ سبع وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من في عكا ان الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيــه ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد علي بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا واهمتهم أنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب وان الفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبا في شئ صغير وخرجا سرا من أصحابهم ولحقا بعسكر المسلمين وخرج معهما جماعة فلما أصبح الناس وعلموا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج أرسلوا الى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك واشترط ان يطلق من أسراهم بعــدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل الى من بعكا من المسلمين ان يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم انه يتقدم

الى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره فشرعوا في ذلك واشتغلوا باستصحاب مايملكونه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ماعزموا عليه من استصحاب مايملكونه لظهوره فلما عجز الناس عن حفظ البلد وزحف اليهم الفرنج بجدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على السور يحركون أعلامهم ليرها المسلمون الذين في خارج البلد وكانت هي العلامة اذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم ان الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم وكان الفرنج زحفوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب ان صلاح الدين لايقدر على نفع ولايدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيله المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل اليهم مابذل لهم وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما اجتمع عنده مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا عليه بأن لايرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك والداوية طائفة من الفرنج كان لهم وفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لانحلف ولانضمن لانا نخاف غدر من عندنا وقال ملوك الفرنج اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء له فقالوا لانحلف انما ترسل الينا المائة ألف دينار التي حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد عندنا حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لايعبأ به ويمسكون عندهم الامراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس

والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وهم خلق كثير واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذى كان جمعه وسير الاسرى والصليب الى الشام وكان ملك الفرنسيس قد توجه قبل ذلك الى صور لترتيب أموره وبقى في عكا ملك انكلترا الى ان تم استيلاؤه عليها وغدر بالمسلمين وفعل بهم ماتقدم وارتحل الى عسقلان في عشر شعبان واستمرت عكا بايديهم بعد استيلائهم عليها وبقيت عندهم مائة سنة وثلاثين الى سنة ستمائة وتسعين فافتتحوها وانتزعها منهم السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون وسيأتى انه سار اليها بجيوشه وعساكره ونصب عليها المجانيق العظيمة وقاتله عليها أشد القتال الى أن ملكها وقتل من فيها من الفرنج وغنم منها أموالاً لاتحصى وكان نزوله عليها في أوائل جمادى الاولى من السنة المذكورة أعنى سنة ٦٩٠ وفتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ومن عجائب الاتفاق ان الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه انها تفتح في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة على يد صلاح الدين بن قلاوون فكان فتوحها في مثل الشهر الذى ملكها فيه الفرنج وفي مثل اليوم الذى ملكوها فيه من الشهر ولقب السلطان الذى فتحها مثل لقب السلطان الذى أخذت منه اذ كل منهما يلقب صلاح الدين ولله في كل شئ حكمة وكل شئ عنده بمقدار لايتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص لاراد لما قضاه وقدره ثم فتح السلطان صلاح الدين قلاوون بقية البلدان التى كانت بيد الفرنج من أرض الشام وقطع دابرهم وطهرت أرض الشام وسواحلها منهم فلله الحمد على ذلك

﴿ ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان ﴾

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا رحلوا مستهل شعبان قاصدين عسقلان وكان توجههم من جهة حيفا مع شاطئ البر لايفارقونه ومراكبهم تسايرهم في البحر محاذية لهم فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا اليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة فلما وصل الفرنج حيفا نزلوا بها ونزل المسلمون قريبا منهم ثم ساروا الى

قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويقتلون من قدروا عليه منهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم
المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا ونزل الفرنج بها ونزل المسلمون قريبا
منهم ولما نزلوا قيسارية خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون
فقتلوا منهم واسروا ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها
ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة
فألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتلوا كثيراً منهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت
الخيالة منهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لايلوى أحد على أحد والتجأ
المنهزمون الى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج انها هزيمة تبعتهم واشتهرت الهزيمة
وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين قطعة كثيرة الشجر فدخلها المسلمون
فظن الفرنج انها مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق ثم سار الفرنج الى يافا
ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ثم سار صلاح الدين الى الرملة وجمع الامراء
واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا قد رأيت ما كان منا بالامس
واذا جاء الفرنج عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لاشك يقاتلونا فنزاح
عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان
العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعف بما خرج عن أيدينا
ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها
فلم يجب أحد الى ذلك وقالوا ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار
والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الامر كذلك سار الى عسقلان
وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ وألقيت حجارتها في
البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية مالا يمكن حصره وعفى أثرها
حتى لايبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها
وكان المركيس صاحب صور عنه لما تعلى [illegible] عكا أحسن من ملك انكلتار عداوة به
ليتملك منه صور فهرب من عنده الى صور خوفا منه وكان رجل شرير شجاعا وهو وكل
هذه الحروب هو الذي أثارها فلما خربت عسقلان أرسل الى ملك انكلتار يقول له مثلك
لاينبغي ان يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم
مكانك ياجاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها
صفوا عفوا بغير قتال ولاحصار فانه ماخربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو

التي ملك كانت عسقلان بأيدينا اليوم لم يخرب منها غير برج واحد وقد عمر الفرنج عسقلان في المحرم سنة ٥٨٨ وملكوها ثم ان صلاح الدين لما خرب عسقلان مضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد ثم سار صلاح الدين الى القدس وحصنها واعتبر مافيه من ذخائر وسلاح وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد الى المخيم ثامن رمضان وفي مدة اقامة الفرنج بيافا خرج ملك انكلترا من معسكره ومعه نفر من عسكره فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك انكلترا يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضاً وقعت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج كان النصر فيها للمسلمين

﴿ ذكر رحيل الفرنج الى نطرون ﴾

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته الى نطرون ثالث عشر رمضان وخيم بها فراسله ملك انكلترا يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة ان ملك انكلترا يزوج أخته من الملك العادل ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بأيدي الفرنج من البلاد لاخت ملك انكلترا مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها الاول فعرض العادل ذلك على أخيه صلاح الدين فأجاب الى ذلك فلما ظهر خبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان الى أخت ملك انكلترا وأنكروا عليها ذلك فامتنعت من الاجابة وكان الملك العادل في مدة الخوض في الصلح يجتمع في بعض الاوقات مع ملك انكلترا ويتذاكران حديث الصلح وطلب من الملك العادل مرة أن يسمعه غناء المسلمين فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ثم ان الصلح لم يتم بينهما لامتناع أخت ملك انكلترا ثم تبين أن ملك انكلترا كان يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم ان الفرنج أظهروا العزم على قصد البيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة ومعه العسكر وترك الاثقال في نطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوماً ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة مقامه بها عدة وقعات ينتصر فيها المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى نطرون ورحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب العسكران بعضهم من بعض وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين فلقوا من ذلك شدة شديدة وقوي الشتاء وحالت الاوحال والامطار بينهما

﴿ ذكر مسير صلاح الدين الى القدس ﴾

ما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم والأمطار متتابعة والناس فيها في ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العسكر قد طال عليهم البيكار فأذن لهم في العود الى بلادهم للاستراحة وسار هو الى بيت المقدس فيمن بقي معه فنزلوا جميعا داخل البلد وقدم إليه عسكر من مصر فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من نطرون ثالث ذي الحجة على قصد بيت المقدس فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعات أسر المسلمون في وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهوري الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد مارث منه فأحكم الموضع الذي تملك البلد منه واتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج لأمير يتولى عمله ثم ان الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدي به الامراء والعسكر فكان يجتمع من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام ثم ان الفرنج رجعوا الى الرملة في العشرين من ذي الحجة وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ميرتهم من الساحل فلما بعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم ميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم ان ملك انكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا الي مدينة القدس فاني ما رأيتها فصوروها فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادي وعن عمقه فأخبروه انه عميق وعر المسالك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لانا ان نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع احدى الطائفتين ولم تمكن الطائفة الاخرى أن تنجد أصحابها لانهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فالى ان يتخلصوا من الوادي ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من ايصال ما نحتاج اليه من القوت والاقوات فلما قال لهم هذا علموا صدقه ورأوا قلة ميرتهم عندهم وما يجري لمن يجلبها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين ثم دخلت سنة ٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمائة فعمر الفرنج عسقلان كما تقدم وجرى بينهم وبين المسلمين حين عمروها قتال شديد وغنائم وتوالت الغارات فكان المسلمون تارة تقع الغارة منهم وتارة تقع عليهم ميرة وأخذوا منهم قوافل كثيرة وفي شهر ربيع من هذه السنة خرج صلاح الدين

لبعضهم من الاسماعيلية عشرة آلاف دينار ان قتلوا ملك انكلترا أو المركيس صاحب صور فتمكنوا من قتل المركيس صاحب صور فقتلاه ثم قتلا فملك صور الكندى هنرى وتقدم انه ابن اخت ملك افرنسيس من ابيه وابن أخت ملك انكلترا لامه وفي تاسع جمادى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم وخربوه ثم ساروا الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق كثيرا من عساكره لاجل الشتاء ليستريحوا فعادوا ليتجهزوا لغرضهم فاجتمع صلاح الدين بقربهم منه ففرق ابراج البلد على الامراء وسار الفرنج الى بيت نوبة وهي على فرسخين من القدس فحصل عليهم البلاء وتتابعت الامطار عليهم والبرد فلم يمكنهم ... وتسلط عليهم ما أمكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون اكتافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها فقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم وقتلوا منهم واسروا وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الاولى وفي تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج خروج قفل كبير من مصر فاسرى الفرنج اليهم وأخذوا بعض القفل ونجا بعض واسروا بعض ثم ان الفرنج علموا انهم لا طاقة لهم بالمسلمين ان فارقوا البحر وبعدوا عنه فرجعوا الى عكا واقاموا بها فلما علم صلاح الدين بذلك جمع العساكر وسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنزلها وقاتل من بها الى ان ملكها بالسيف عنوة في العشرين من رجب وغنم ما فيها وقتل كثيرا وأسر كثيرا وكان بها أكثر الاموال التي غنموها من قفل مصر وتحصن من بقي من الفرنج بالقلعة فحصرهم فجاءتهم نجدة من عكا ومعهم ملك انكلتار فاخرج من بيافا من المسلمين وتبعه مدد من عكا وبرز الى ظاهر المدينة واصطف للمسلمين وحمل عليهم فلم يتقدم اليه احد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل واكل ثم رجع الى يافا

ذكر الهدنة مع الفرنج

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت الهدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وسببها ان ملك انكلتار لما رأى اجتماع العساكر وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده فأرسل الى صلاح الدين في الصلح فلم يجبه صلاح الدين وحسب منه مصانعة وخديعة فعاد الفرنجي راسله مرة بعد أخرى وترددت الرسل في ذلك حتى صالح صلاح الدين في تقرير الهدنة فأشار هو وجماعة من الامراء بالاجابة الى الصلح وعرفوا صلاح الدين ما عند العسكر من الضجر

والملل وما قد هلك من سلاحهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجي انما طلب
الصلح ليركب البحر ويعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب
في البحر نحتاج الى البقاء هنا سنة اخرى فيعظم الضرر على المسلمين واكثروا القول في هذا
المعنى فأجاب صلاح الدين حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا
على هذه القاعدة وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين من الفرنج باليان بن بارزان الذي
كان صاحب الرملة ونابلس ومن جملة ما قال لصلاح الدين ما عمل احد في الاسلام مثل
ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فاننا احصينا من خرج الينا في
البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة الف مقاتل ما عاد منهم الى بلادهم من كل عشرة واحد
بعضهم قتلته انت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل امر الهدنة اذن صلاح الدين للفرنج في
زيارة بيت المقدس فزاروه وعادت كل طائفة الى بلادها ورجع ملك انكلتر الى بلاده
واقام بالساحل الشامي ملكا على الفرنج وعلى البلاد التي بايديهم الكند هري وسار صلاح
الدين الى القدس وصام به رمضان ثم سار الى دمشق في شوال وفرح الناس به لطول غيبته
وذهب العدو عن بلاد الاسلام وكانت هذه الهدنة من الطف صنع الله للمسلمين لان الله تعالى
علم قرب وفاة صلاح الدين قدرا ووقوع هذه الهدنة لانه لو توفي صلاح الدين في مدة الحرب
لاضطلع الفرنج في بلاد الاسلام واستمر شرهم واتسع لانه لا يوجد بعده من يقوم مقامه
وكانت وفاة صلاح الدين بدمشق في سابع وعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩ تسع وثمانين
وخمسمائة بعد ان مرض [illegible] ايام وكان رحمه الله [illegible] حليما حسن الاخلاق متواضعا
صبورا كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحاته تدل على ذلك
وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة ولم يخلف دارا ولا عقارا ولم يوجد في خزانته
غير سبعة واربعين درهما ودينار واحد صوري وكانت ولادته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة
فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة وكانت مدة ملكه ديار مصر نحو اربع وعشرين
سنة وملكه الشام قريبا من تسع عشرة سنة وكان رحمه الله مشغوفا بالانفاق في سبيل الله تعالى
فكان [illegible] لاحد من عسكره فرس في سبيل الله عوضه [illegible] في [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

مجالسه حافلة بأهل العلم والدين والفضل يحب مناظرة العلماء بين يديه ويشاركهم في المناظرة احسن مشاركة في مسائل الفقه حتى صار لمداومة مجالسته للعلماء أعرف منهم بالاحكام الشرعية والأدلة الشرعية وكان كثير الاكرام للعلماء متواضعا لهم مواظبا على الفرائض الخمس لم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا في جماعة وكان متوكلا على الله لا يغفل في عزمه يوما عن يوم وكان كثير التغافل عن سيآت خدمه وتبعه وزلاتهم يسمع ما يكره ولا يتأثر به ولا يخبر بخطيئة من خطيئاتهم حتى [illegible] بسرموزة فأخطأته [illegible] الى الجهة الاخرى تغافلا عنه وصار يكلم [illegible] كاتب مات بموته لرجل وفات بفواته [illegible] الأيدي ووصلت الندى وقطعت الأرزاق وأظلمت الآفاق وفجع [illegible] الإسلام وكانت مجالسه كلها مجالس الآخرة لأنها اما في اقامة عدل ينشره أو جهاد يجهز به أو سماع الحديث النبوية [illegible] أو احسان يوصله الى ذوي الحاجات و[illegible] قرأت مع ما انطوى عليه من السجايا الحسنة والأخلاق الطاهرة [illegible] لا مزيد عليه و[illegible] لا يلحق فيه وكان يهب [illegible] لأحد وكان دائم البشر و بشاشة لا يرد سائلا ولا يصد نائلا ولا يخجل قائلا ولا يجيب [illegible] مرة بعض الأمراء عن تخلفه عن غزوة تخلف عنها فذكر [illegible] وكان ذلك الدين اثني عشر الف دينار وكان [illegible] وخواصه وجميع امرائه وجنده يقتدون به في أخلاقه وكرمه وحسن سجاياه [illegible] قال العماد الكاتب ورأى في يوم [illegible] الامام أبا محمد الجويني ذكر وهو في [illegible] بعد ذلك وكان كثير الأوراد و[illegible] وقته كله مستغرقة بعبادة علما وعملا قلبا وقالبا قد هجر [illegible] وخرج من قلبه محبتها وبهجتها فكان كالاسير في هذه الدار لا يؤمن [illegible] وكان شديد حبه لسماع الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام يسمعه بين الصفين [illegible] قيل له [illegible] يا مولانا سمعت الحديث في جميع مواطن الشريعة الا بين الصفين [illegible] فأحضر جزأ من أجزاء الحديث وقرئ عليه [illegible] بين الصفين [illegible] ويقفون أخرى و[illegible] على ملازمة ذلك وتكراره في كثير من مواقفه

وكان ذلك من أسباب النصر العظيم والفتح المبين وكان رحمه الله شجاعا من أعظم الشجعان قوى النفس والقلب شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر حتى كان يقاتل بالجمع القليل من جنده الجيوش الكثيرة من الفرنج مع ان نجدتهم كانت أيضا متواصلة وعساكرهم متواترة وهو مع ذلك لايزداد الا قوة نفس وصبر ولقد وصل في ليلة واحد من الفرنج مايزيد على سبعين مركبا عند محاربة عكا وصار بعض أتباعه يعدون تلك المراكب من بعد العصر الى غروب الشمس وكلها كانت مشحونة بعساكر الفرنج ويخبرونه بها وهو مع ذلك لايزداد الا قوة نفس وشجاعة وشهامة قال القاضى ابن شداد ولما انعقد الصلح سألت بعض ملوك الفرنج وهو جالس بين يدى السلطان يوم انقطاع الصلح عن عدتهم فقال خمسمائة ألف قلت فكم هلك منكم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فكثير لا نعلم عددهم وما رجع الى بلادهم الا القليل وكان رحمه الله اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق صفوف العساكر من الميمنة والميسرة ويأمرهم بالتقدم تارة والوقوف تارة في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاورهم ليدبر الامر على مايقتضيه الحال وكان رحمه الله له كمال المعرفة بتدبير الحرب ومكايده وما استعظم عدوه قط ولا استكثره لشدة توكله على الله تعالى وقوة وثوقه به وكان رحمه الله تعتريه أمراض في أيام منازلته للعدو فكان شديد الصبر ولا يخل المرض بشىء مما يعزمه واعتراه أيام محاربة عكا دماميل كثيرة من وسطه الى ركبتيه بحيث أنه لايستطيع الجلوس فكان لم يزل متكئا على جنبيه وهو في الخيمة وامتنع من الجلوس على الطعام مع من كان يجلس معهم لعجزه عن الجلوس فكان يأمر بالطعام ان يفرق بين الناس وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى الظهر يطوف على الاطراف ويدبر أمر جيوشه صابرا على شدة الالم وقوة ضربان الدماميل فكانوا يتعجبون من شدة صبره فكان يقول لهم اذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل وهذه كرامة عظيمة أكرمه الله تعالى بها وكان رحمه الله اذا جاء الشتاء يعطى الجيش دستورا فيتفرقون ويبقى هو في طائفة يسيرة من جنده في مقابلة العدو أكثر ممن معه بضعف مضاعفة وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين شديد الرد على المبتدعة والفلاسفة لا تأخذه في الله لومة لائم وكان حسن العشرة طيب الاخلاق حليما المحاضرة طيب المذاكرة حافظا لانساب العرب ووقائعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم عارفا بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث ان محاضره يستفيد منه ما لا يسمعه من غيره ومن محاسن أخلاقه مع خدمه انه طلب الماء مرة فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم

يحضر فقال يا أصحابنا قد قتلني العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني في احضاره وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت فلما برئ منه ادخل الحمام فكان الماء حاراً فطلب ماء بارداً فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شيء على الارض فناله منه شيء فتألم له لضعفه ثم طلب الماء البارد أيضاً فأحضر فلما قربه سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام ان كنت تريد قتلي فعرفني فاعتذر اليه فسكت عنه ومن كرمه انه خرج في مدة مقامه على عكا قبالة مرج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وما بين ذهب وثياب وسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر ومكي [illegible] من كرمه انه مات ولم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية مع ما خلفه من الاولاد الذين خلفهم كانوا سبعة عشر ولداً وبنتاً فلم يبال بكونه لم يترك لهم مالا يرثونه بعده ولا خلف داراً ولا عقاراً ولا ضيعة ولا بستاناً وذلك لشدة زهده في الدنيا وقوة وثوقه بالله تعالى وتوكله عليه ولما انقضت دولة العبيديين بمصر واستولى هو على مصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع ما يفوت الاحصاء ففرقه جميعه ولم يأخذ لنفسه شيئاً ومن تواضعه رحمه الله انه لم يتكبر على احد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين وكان يحضر عنده الفقراء الصوفية ويعمل لهم السماع المعروف عند الصوفية فاذا قام أحد منهم يرقص بوجد يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ ذلك الفقير ولم يلبس قط شيئاً مما ينكره الشرع ولما مرض مرض موته حضر عنده جماعة من [illegible] القاضي الفاضل وكان الذي [illegible] عنده [illegible] كاتب القاضي العماد فأجلسه وأسنده [illegible] فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حره فغير وعرض عليه [illegible] فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب [illegible] قال العماد فخرجت أنا [illegible] من عنده وقد اشتد به [illegible] من مرضه والقاضي الفاضل [illegible] على مفارقته والله لو أن هذا بعض [illegible] وكان رحمه الله [illegible] ملازماً مواظباً [illegible] متقياً متجنباً ثم وكان [illegible] ولا يتحيف ولا يتجبر ولا [illegible] ولا زماناً على زمان الا [illegible] حديثه فعى مذهب

أصولاً وفروعاً معتقلا له معقولا ومسموعا يدنى أهل التنزيه ويقصى أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه واستفادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون في عدله والعالمون في نصه والبلاد في أمنه والعباد في منه وكان رحمه الله حسن العقيدة وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع معتقد أهل السنة والجماعة فحفظها وكان يحفظها الصغار من أولاده وكان من القائمين بالليل للتهجد وكان يحب سماع القرآن العظيم ويشترط على من يتخذه اماما ان يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقنا لحفظه وكان رحمه الله خاشع القلب سريع الدمعة اذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه وكان شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف انه ما انفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد لصدق وبر في يمينه ولقد هجر في محبة الجهاد الاهل والاولاد والوطن والمسكن وسائر الملاذ وقنع من الدنيا في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ذات ريح وكادت تقتله لما وقعت عليه ولا يزيده ذلك الا رغبة ومسابرة واهتماما ومناقبه رحمه الله كثيرة قد أفردت بالتأليف اللهم اجعل مقره جنات النعيم وأقر عينه بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين اجمع بيننا وبينه في دار كرامتك مع الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو مع ما جمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمود نور الدين بن زنكي فان السلطان محمود نور الدين هو الذي اقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين وقد تقدم وعد بذكر ترجمة للسلطان نور الدين المذكور عند ذكر وفاته سنة خمسمائة وتسع وستين وترجمته واسعة افردت بالتأليف ولنذكر نبذة منها لعلنا ننال بركة الصالحين أنواع التشريف وقد تقدم ان السلطان نور الدين هو ابن عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر كان جده آق سنقر من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ولاه الولايات الحلبية ثم بعده ابنه عماد الدين زنكي ولي كثيرا من الولايات وفتح اعظم الفتوحات ثم صار الامر بعده لولده السلطان محمود نور الدين فكان له ولاية حلب والموصل وغيرهما من الممالك فتح كثيرا من البلاد التي استولى عليها النصارى وبعث السلطان صلاح الدين الى مصر وانتزعها من يدى العبيديين فمما ذكروه في ترجمة السلطان نور الدين انه كان عارفا فقيها على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وله ورع وزهد فمن زهده وورعه انه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين وقد شكت اليه زوجته الضيق فأعطاها ثلاث دكاكين

في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو عشرين دينارا فاستقلها فقال ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه ※ ما احسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه وسمع الحديث واسمعه طلبا للاجر من الله تعالى واما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكسا ولا عشورا بل اطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان الولاة قبله قد جاروا في ذلك غاية الجور حتى بلغوا انهم يأخذون في السنة خمسة واربعين فأبطل ذلك كله فبارك الله له في الغنائم وفتح له الفتوحات حتى استرجع هو والسلطان صلاح الدين كثيرا من الممالك الشامية وغيرها من ايدي النصارى وكانوا قد استولوا عليها قريبا من مائة سنة وقد تقدم بيان ذلك بالاختصار وكان رحمه الله يعظم الشريعة ويقف عند احكامها وله في ذلك اخبار عجيبة فمن ذلك ان بعض رعيته ادعى عليه بدعوى غير صحيحة ولا ثابتة وشكاه على القاضي الذي اقامه هو لتنفيذ الاحكام الشرعية فاستدعاه القاضي فحضر مجلس الحكم وقال للقاضي اني قد جئت محاكما فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري وساوى خصمه في المجلس وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال اشهدوا اني قد وهبت خصمي هذا كل الذي حاكمني فيه وقد كنت اعلم انه لا حق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن اني ظلمته فحيث ظهر ان الحق لي وهبته له وهذه غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الازمنة وتفرق الكلمة وما فقد تقدم في مجالس حكام جماعة من المتقدمين مثل عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهما ومن تقدمه انه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الولاة في هذه الاعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما لا يوجد في غير ولايته وكان للسلطان نور الدين شيخ يحبه ويعتقده يقال له الشيخ عمر الملاء وانما سمي الملاء لانه كان يملأ تنانير الجص باجرة يتقوت منها فقط لا شيء له من كسب يده غير ذلك وكان نازلا بالموصل وكان السلطان نور الدين يستشيره في مهماته حتى انه ... في رمضان يكون حالا فكان الشيخ عمر ... فكان نور الدين يقص عليه

وكان اذا قدم السلطان نور الدين الموصل لا يأكل الا من طعام الشيخ عمر الملا ويقبل قوله ويعمل بإشارته ويأمر عماله بالموصل والجزيرة ان يعملوا بقول الشيخ عمر ويقبلوا اشارته لعلمه وصلاحه وديانته وورعه فاتفق أنه كثر الدعار وارباب الفساد بالموصل والجزيرة فحضر العمال والنواب عند الشيخ عمر الملا وقالوا له انه قد كثر الدعار وارباب الفساد ولا يستقيم الامر الا بشيء من السياسة كالقتل والصلب واذا اخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له فلو كتبت الى السلطان نور الدين ان يأذن لنا في شيء من السياسة فوافقهم الشيخ عمر الملا وكتب للسلطان نور الدين يسأله في أن يأذن لهم في شيء من السياسة التي يمنع بها الدعار وأهل الفساد وقال اذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له فقلب السلطان نور الدين كتابه وكتب له على ظهره ان الله تعالى خلق الخلق وهو اعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه كامل فيها ولو علم ان الشريعة تحتاج الى زيادة لا تمام المصلحة لشرعه فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى فلما وصل الكتاب الى الشيخ عمر الملا جمع أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا في كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد فعرفوا أن ماقاله السلطان نور الدين هو الصواب وان الصلاح انما يكون بالعمل بالشريعة وكان السبب في اسقاطه المكوسات ان وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني رأى في منامه انه يغسل ثيابه فقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمر بكتابة اسقاط المكوسات وقال هذا تفسير منامك وكان في تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك طلب من الناس الذين أخذت منهم قبل ذلك أن يجعلوه في حل وقال والله ما أخرجناه الا في جهاد عدو الاسلام يعتذر بذلك اليهم عن أخذها منهم وكان رحمه الله لا يفعل شيأ من الاعمال الا بنية صالحة من ذلك انه كان يخرج بالعساكر ويجرون الخيل في صورة اللعب ويريد بذلك تمرين الخيل والعسكر على الكر والفر فكتب اليه الشيخ عمر ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة بينة فكتب اليه نور الدين والله ما يحملني على ذلك اللهو واللعب وانما نحن في ثغر العدو قريب منا وبينما نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب في الطلب ولا يمكننا ايضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا اذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ولا معرفة لها ايضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذي بعثني على ذلك قال ابن الاثير قد نصر الى هذا الملك العظيم العديم النظير الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين في عبادة مثله

في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو عشرين دينارا فاستقلها فقال ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وسمع الحديث واسمعه طلبا للأجر من الله تعالى وأما عدله فانه لم يترك في ممالكه على سعتها مكسا ولا عشورا بل ابطلها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان الولاة قبله قد جاروا في ذلك غاية الجور حتى وصلوا الى أنهم يأخذون في المائة خمسة وأربعين فأبطل ذلك كله فبارك الله له في الغنائم وفتح له الفتوحات حتى انتزع هو والسلطان صلاح الدين كثيرا من الممالك الشامية وغيرها من أيدي النصارى وكانوا قد استولوا عليها قريبا من مائة سنة وقد تقدم بيان ذلك بالاختصار وكان رحمه الله يعظم الشريعة ويقف عند احكامها وله في ذلك اخبار عجيبة فمن ذلك ان بعض رعيته ادعى عليه بدعوى غير صحيحة ولا ثابتة وشكاه على القاضي الذي اقامه هو لتنفيذ الاحكام الشرعية فاستدعاه القاضي فحضر مجلس الحكم وقال للقاضي اني قد جئت محاكما فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري وساوى خصمه في المجلس وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال اشهدوا أني قد وهبت لخصمي هذا كل الذي حاكمني فيه وقد كنت اعلم انه لا حق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته فحيث ظهر ان الحق لي وهبته له وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الازمنة وتفرق الكلمة والا فقد انقاد الى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهم ومن عدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما كان يوجد في غير ولايته وكان للسلطان نور الدين شيخ يحبه ويعتقده يقال له الشيخ عمر الملا ولقب بأمره بالملا لان الشيخ عمر الملا كان يملى تنانير الجص بأجرة يتقوت منها فكان لا يأكل الا من كسب يده وذلك حلال وكان نازلا بالموصل وكان السلطان نور الدين يرسل اليه من حلب من يأتيه منه بشئ يفطر عليه في رمضان يكون حلالا فكان الشيخ عمر الملا يرسل للسلطان نور الدين أكياسا فيها الفتيت والرقاق فكان نور الدين يفطر عليه

وكان اذا قدم السلطان نور الدين الموصل لا يأكل الا من طعام الشيخ عمر الملا ويقبل قوله ويعمل باشارته ويأمر عماله بالموصل والجزيرة ان يعملوا بقول الشيخ عمر ويقبلوا اشارته لعلمه وصلاحه وديانته وورعه فاتفق أنه كثر الدعار وارباب الفساد بالموصل والجزيرة فحضر العمال والنواب عند الشيخ عمر الملا وقالوا له انه قد كثر الدعار وارباب الفساد ولا يستقيم الامر الا بشيء من السياسة كالقتل والصلب واذا اخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له فلو كتبت الى السلطان نور الدين ان يأذن لنا في شيء من السياسة فوافقهم الشيخ عمر الملا وكتب للسلطان نور الدين يسأله في أن يأذن لهم في شيء من السياسة التي يمنع بها الدعار وأهل الفساد وقال اذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له فقلب السلطان نور الدين كتابه وكتب له على ظهره ان الله تعالى خلق الخلق وهو اعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه كامل فيها ولو علم ان الشريعة تحتاج الى زيادة لا تمام المصلحة لشرعه فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى فلما وصل الكتاب الى الشيخ عمر الملا جمع أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا في كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد فعرفوا أن ماقاله السلطان نور الدين هو الصواب وان الصلاح انما يكون بالعمل بالشريعة وكان السبب في اسقاطه المكوسات ان وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني رأى في منامه انه يغسل ثيابه فقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمر بكتابة اسقاط المكوسات وقال هذا تفسير منامك وكان في تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك طلب من الناس الذين أخذت منهم قبل ذلك ان يجعلوه في حل وقال والله ما أخرجناها الا في جهاد عدو الاسلام يعتذر بذلك اليهم عن أخذها منهم وكان رحمه الله لا يفعل شيأ من الاعمال الابنية صالحة من ذلك انه كان يخرج بالعساكر ويجرون الخيل في صورة اللعب ويريد بذلك تمرين الخيل والعسكر على الكر والفر فكتب اليه الشيخ عمر ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة بينة فكتب اليه نور الدين والله ما يحملني على ذلك اللهو واللعب وانما نحن في ثغر والعدو قريب منا وبينما نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب في الطلب ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا اذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذى بعثني على ذلك قال ابن الاثير فانظر الى هذا الملك العظيم العديم النظير الذى يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله

فان من يجيء الى اللعب بنيــة صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل في العالم مثله وفيه دليل على أنه كان لايفعل شيأ الا بنية صالحة وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين بعلمهم وكان رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية متبعا للآثار النبويه مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفا على قراءة القرآن حريصا على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصداً في الانفاق متحريا في المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره وأشهى ماليه كلمة حق يسمعها أو ارشاد الى سـنة يتبعها قال ابن الاثير قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى زمننا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعــدل والانصاف منه قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها واحسان يوليه وانعام يسديه فلو كان في أمة لافتخرت به أمازهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين واذا أراد أخذ شيء من الاموال المرصدة لمصالح المسلمين أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ مايحل له من ذلك فيأخذ ماأفتوه بحــله ولم يتعده الى غيره البتة ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضــة ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن ادخالهــا الى بلدما وكان يحد شاربها الحد الشرعي وكل الناس عنده فيه سواء وكان يصلي فيطيل الصلاة وله أوراد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء ينام ويستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة الى بكرة فيظهر ويشتغل بمهمات الدولة ومصالح المسلمين وأرسلت له زوجته تخبره بأن النفقة قلت عليها ولم يكفها ماكان قرره لها وطلبت منــه الزيادة فتنكر واحمر وجهه وقال للرســول من أين أعطيها مايكفيها والله لأخوض النار في هواها ان كانت تظن ان الذي بيدي من الاموال لي فبئس الظن انما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال للرسول لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها اياها فلتأخذها وكان يحصل منها قدر قليل وذلك نحو عشرين دينارا وحكى انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها وبينماهم معه في حديثها اذ قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له فقيل انها لاتصلح لهــذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له فقال اعطوها له ليبيعها وينتفع بثمنها فاني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة فسلمت الى ذلك الصوفي فسار بهــا

الى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة وقيل باعها في همدان بألف دينار وكان الملوك قبله كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه فاقتدى به عماله ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجي اليه الاموال الكثيرة فليذكر نبي الله سليمان عليه السلام فانه مع ملكه كان سيد الزاهدين في زمانه ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام الى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين من جميع العالمين وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما فمن عدله انه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشراً بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل واعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم تتسع له نفس غيره وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان القوى والضعيف عنده في الحق سواء وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلا جرم سار ذكره في شرق الارض وغربها ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن مسخرون لها نمضي أوامرها حكى أنه دخل يوما الى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره فسأل عنه فقيل له ان القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر برده واعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده كمال الدين الى الخزانة وقال اذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني انه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فانكر على النواب وقال ألم أقل لكم يعاد هذا المال الى أصحابه فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذ المال وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى يعاد قولا واحدا ومن عدله أيضا بعد موته وهو من أعجب ما يحكى ان انسانا كان بدمشق غريبا استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله تعالى فلما توفي تعدى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكا فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى

وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية والاخرج عن يدك فارسل الى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين والناس معه وطيب قلبه وأزاح ظلامته ووهبه شيأ انصفه فبكى أشد من بكائه الاول فقال له صلاح الدين لم تبكى قال أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته فقال صلاح الدين هذا هو الحق وكلما ترى فينا من عدل فنه تعلمناه ومن عدل نور الدين رحمه الله انه بنى دارا للكشف سماها دار العدل فكان يجلس فيها لفصل الخصومات في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء واماشجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية اليه فيهما فانه اصبر الناس في الحرب واحسنهم مكيدة ورأيا واجودهم معرفة بأمور الاجناد واحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك وكان الناس يقولون انهم لم يروا على ظهر الفرس احسن منه كأنما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل وكان اذا حضر الحرب أخذ قوسين وترسين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم ادركها سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فانك عمادهم ولئن أصبت والعياذ بالله تعالى في معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف واخذت البلاد فقال يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلى من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذى لا اله الا هو وكان رحمه الله يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى وأكثر ماملكه من بلادهم بحسن تدبيره في اعمال الحيل عليهم ومن جيد الرأى ما سلكه مع سليح بن ليون ملك الارمن فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً وكان يقاتل به الافرنج وكان يقول انما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة وليس لنا طريق اليها وهو يخرج منها اذ أراد فينال من بلاد الاسلام فاذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيأ من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج ولما توفي نور الدين وملك غيره وغير هذا الطريق ملك متولى الارمن بعد سليح كثيرا من بلاد الاسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه وكان رحمه الله يكرم العلماء ويكثر الاحسان اليهم ويبالغ في تعظيمهم حتى أنه اذا دخل عليه الفقيه او الصوفي او الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه مع أنه كان له هيبة عظيمة في قلوب الملوك والامراء وما كان احد من الامراء يقدر ان يجلس في مجلسه الا بعد الاذن له في ذلك وكان يكاتب العلماء بخط يده وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا واذ اعطى احدا من العلماء اوالفقراء شيأ يقول ان

هؤلاءلهم في بيت المال حق فاذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا وكان مجلسه كما روى في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء لاتنتهك فيه الحرم ولا يذكر فيه الا العلم والدين واحوال الصالحين والمشاورة في امر الجهاد وقصد بلاد العدو ولايتعدى هذا وقد حضر الحافظ ابن عساكر مجلس صلاح الدين لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجالسين فيه ما لاحد له فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعه فقام وبقي مدة لايحضر المجلس الصلاحي وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه فقال نزهت نفسي عن مجالسك فاني رأيته كبعض مجالس السوقة لايستمع فيه الى قائل ولا يرد فيه جواب متكلم وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأنما على رؤسنا الطير تعلو الهيبة والوقار فاذا تكلم انصتنا واذا تكلمنا استمع لنا فأمر صلاح الدين أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ ابن عساكر قال ابن الاثير فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله تعالى مضبوطة محفوظة وأما حفظ اصول الديانات فانه كان مراعيا لها لا يهملها ولا يمكن أحداً من الناس من اظهار ما يخالف الحق ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان يبالغ في ذلك ويقول نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والاذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الاصل وحكي ان انسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر النسك والزهد وقد كثر أتباعه وأظهر شيأ من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه فطيف به في البلد جميعه ونودي عليه هذا جزاء من اظهر في الدين البدع ثم نفاه الى حران فأقام بها الى أن مات وكان لنور الدين رحمه الله مجالس يقرأ فيها كتب الحديث مع جماعة من العلماء فمر به يوما ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفه وكان من عادة الجند انهم يربطون سيوفهم بأوساطهم فلما سمع هذا الحديث أبطل ما كان عليه الجند وخرج من غد ذلك اليوم متقلداً سيفه فاقتدى به الجند وفعلوا مثل ما فعله فهذا يدل على أنه لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل سنة تبلغه عنه وأمر رحمه الله باسقاط ألقابه في الدعاء له على المنبر وطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما ينبغي أن يدعى له به فكتب له اذا أراد الخطيب أن يدعو له يقول اللهم أصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك المجاهد في سبيلك المرابط لاعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه مقصودي ان لايكذب

على المنبر انا نحل بكل مايقال لاافرح بمالا أعمل وكتب في آخر الرقعة ثم تبدأ بالدعاء اللهم أره الحق اللهم أسعده اللهم انصره اللهم وفقه من هذا الجنس ودخل في أيام نور الدين الى حلب تاجر موسر فمات بها وخلف ولدا صغيرا ومالا كثيرا فكتب بعض من كان بحلب الى نور الدين يذكر له أنه مات تاجر موسر وخلف ولدا صغيرا وخلف عشرين ألف دينار وحسن له أن يرفع المال الى الخزانة وينفق على الصغير شيء يسير ويمسك الباقي الى الخزانة فكتب على رقعته أما الميت فرحمه الله وأما الولد فأنشأه الله وأما المال فثمره الله وأما الساعي فلعنه الله وكفى السلطان نور الدين منقبة ما ذكره العلامة السيد السمهودي في تاريخ المدينة المسمى خلاصة الوفا في اخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم ان السلطان المذكور رأى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة يا محموداً انقذني من هذين الشخصين وهما شخصان أشقران تجاهه فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر ذلك له فقال هذا أمر حدث بالمدينة النبوية ليس له غيرك فتجهز بمقدار ألف راحلة وما يتبعها وسار حتى دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ثم أمر بكتابة أسماء الناس ليتصدق عليهم وتصدق باموال كثيرة ولا يعطى كل انسان الا بيده لينظر اليه رجاء ان يرى الشخصين الاشقرين اللذين أراه اياهما النبي صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق أحد ولم يشاهد فيمن حضر عنده الشخصين الاشقرين فسأل هل بقي أحد فقالوا لم يبق الا رجلان مجاوران من أهل الاندلس نازلان في الرباط الذي في قبلة حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فجدوا في طلبهما حتى أحضروهما فلما رآهما قال للوزير هما هذان فسألهما عن حالهما فقالا جئنا للمجاورة فقال لهما أصدقاني وعاقبهما حتى أقرا أنهما من النصارى وانهما وصلا لكي ينقلا من بالحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهما ووجدهما قد حفرا الارض من تحت حائط المسجد القبلي لجهة الحجرة الشريفة ويجعلان التراب في بئر في الرباط وقيل كانا يجعلان التراب في محفظتيهما ويخرجان يلقيانه في الخارج فضرب اعناقهما عند الشباك الذي هو شرقي الحجرة خارج المسجد ثم أحرقهما بالنار وحفر خندقا حوالى الحجرة الشريفة وسكب فيه الرصاص والنحاس المذاب واستحفظه غاية الاستحفاظ ثم ركب السلطان نور الدين راجعا الى الشام وكان السلطان محمود المذكور موصوفا بكثير من الصفات الحميدة وقد اتسع ملكه وخطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن ويذكرون اسمه بعد ذكر الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وترجمته واسعة قد أفردت بالتأليف وفي هذا القدر كفاية وانما ذكرنا ترجمته وترجمة السلطان صلاح الدين لغرابة وجودهما في الزمن

الذى كثر فيه جور الملوك والسلاطين ليعلم أنهما فتحا البلاد وانتزعاها من النصارى بالعدل لاسيما في بيت المال وليعلم أيضاً أن الخلفاء الراشدين انما فتحوا البلاد بالعدل في بيت المال وقد ذكر كثير من العلماء ان الدعاء مستجاب عند قبر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين اللهم اجعل مقرهما جنات النعيم وأقر أعينهما بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين واجمع بيننا وبينهما في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اه ولنرجع الى تمام الكلام على ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات فنقول بعد وفاة السلطان صلاح الدين وقع اختلاف كثير بين أولاده ليس هذا محل ذكره وصار ملكه مقسما بين أولاده وأخيه الملك العادل ثم تغلب أخوه عليهم فمنهم من انتزع الملك منه ومنهم من مات في ملكه ثم صفا الامر لاخيه فقسم الممالك بين أولاده كما سيأتي ذكره ولما مات صلاح الدين كان ملك مصر لولده الملك العزيز عثمان فجدد الهدنة من الفرنج وزاد في مدة الهدنة واستمر الامر الى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائه وكان الملك الافضل علي بن صلاح الدين ملك دمشق بعد وفاة أبيه فانتزعها منه أخوه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وجعل فيها عمه الملك العادل وأعطى الافضل صرخد وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك الى الملك العادل أخي صلاح الدين وكان بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا اسامة من ذلك فأرسل الفرنج الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون ان لم تنجدونا والا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة سنة ٥٩٣ وكان أكثرهم من ملك ألمان فلما سمع الملك العادل بذلك أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب العساكر وكذا من بقية الاطراف واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال سنة ٥٩٣ ورحلوا الى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التي بها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف وأخذوا كل من بها اسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بما وقع فعادوا وعاد المسلمون الى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فعزم المسلمون على تخريب بيروت فسار اليها الملك العادل بجمع من العسكر فهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة سنة ٥٩٣ وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز

بينهم الليل وسار الفرنج سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها فان صلاح الدين كان قد خرب أكثرها وسافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين ثم أتاهم الخبر ان الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكراً يحمونه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة ٥٩٤ أربع وتسعين وخمسمائة وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب منه الحضور بنفسه فسار العزيز مجدا بمن معه من العساكر فلما سمع الفرنج بوصوله رحلوا الى عكا وعاد العزيز الى مصر وبقي العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج وانعقد بينهم صلح وعاد العادل الى دمشق

﴿ ذكر ملك الفرنج القسطنطينية ﴾

في سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة ملك القسطنطينية في شعبان وانتزعوها من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك ان ملك الروم تزوج أخت ملك الفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا وكان لملك الروم أخ فوثب الاخ على الملك فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولد الملك الى خاله ملك افرنسيس مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ بيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لاصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محارباً لهم فوقع القتال بينهم في ذى القعدة سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخل الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى أطراف البلاد وقيل ان ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان في الروم من يريد الصبي فالقوا النار في البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من ابواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي وليس له من الحكم شيء وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام في البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الأناجيل من ذلك أيضا فعظم

ذلك على الروم وتحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبي الذي تملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد واغلقوا الابواب واستحضروا الملك وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ٦٠٠ ستمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فأرسلوا الى السلطان زكي الدين السلجوقي صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لايظهر أمرهم فتواطؤاهم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فأصبح الروم كلهم مابين قتيل أو فقير لايملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى أيا صوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بأيديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة وكان رؤساء الفرنج الذين ملكوا القسطنطينية ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وكان شيخا أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والثالث يقال له كندا فلند وهو أكثرهم عددا فلما استولوا على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة أقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسي البلاد التي هي في الخليج مثل أزنيق ولازيق ولكن لم يحصل لاحد منهم شئ غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يسلم له من به من الروم بل دافعوا عما بأيديهم وبقي لهم واما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين السلجوقي ومن جملتها زنيق فانه تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه كسكرى وبقيت بيده ولم تزل القسطنطينية بأيدي الفرنج من هذا التاريخ الى سنة ستين وستمائة فتجمع الروم وقصدوها وقاتلوا الفرنج وانتزعوها منهم وعادت ملكهم ولما ملك الفرنج القسطنطينية في السنة المذكورة أعني سنة ٦٠٠ تقوى ملكهم بالشام فخرج كثير منهم من القسطنطينية في البحر الى الشام وأرسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس حرسه الله فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحي الأردن وسبوا وفتكوا في المسلمين وجاء اسطول منهم

الى فوة من الديار المصرية فاستولوا عليها ونهبوها خمسة أيام وعساكر مصر في مقابلتهم وبينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم سفن وكان الملك العادل بدمشق فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر فساروا ونزل من القرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على بعض الاطراف منها فأخذوا كل من بها ودام الأمر في اغارات بينهم وبين المسلمين الى ان انقضت السنة ودخلت سنة احدى وستمائة فانعقد صلح بينهم وبين الملك العادل على أن دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام يبقى له ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها وأعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماه فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين بن أخي صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان في قلة فهزموه الى البلد فخرج العامة الى قتال الفرنج فقتلوا منهم جماعة ثم عاد الفرنج الى عكا بعد أن انعقد صلح بينهم وبين صاحب حماه وفي سنة ٦٠٣ ثلاث وستمائة ملك غياث الدين السلجوقي أنطاليه باللام مدينة للروم على ساحل البحر وهي غير أنطاكية بالكاف وكان تملكها بعد قتال وحصار لأهلها ثم قتل من كان فيها من الفرنج ﴿ ذكر غارات الفرنج بالشام وحصن الاكراد ﴾

في سنة ٦٠٤ أربع وستمائة كثر الفرنج الذين بطرابلس الشام وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركو قوة ولا قدرة على دفعهم ومنعهم فاستنجد بالملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد الا الظاهر غازي فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم ان الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فحاصرها وغار على أطرافها فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من اطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص ثم منها الى طرابلس وحاصر موضعا منها يسمى القليعات ثم ملكه صلحا وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس فنهب واحرق وسبى وغنم وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح فلم يتم ودخل الشتاء فجعل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وكان سبب خروج الملك العادل من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا في رد ما أخذوه ويقول له نحن في صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم وتعذرت عليهم الاقوات وعاد حكم قبرس الى

صاحب عكا فأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل بينهما حال فسار بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحب عكا الى ماطلب وأرسل الاسرى ثم لم تزل الوقائع تتوالى وتتتابع والصلح يتم تارة وينقطع أخرى الى أن دخلت سنة أربع عشرة وستمائة فحصلت وقائع شتى

﴿ ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى مصر وملكهم دمياط ﴾

كان من أول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وحاصلها أنه في سنة أربع عشرة وستمائة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال الا أن المتولي لها كان صاحب رومية البابا لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لايرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمي الفرنج وأمر كل ملوك الفرنج ان يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى الدويرز وسار الفرنج من عكا ليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه في قلة بالنسبة اليهم لان عساكره كانت متفرقة في البلاد فلما رأى الملك العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد في تجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان أهل بيسان وتلك الاعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم ان الفرنج لايقدمون عليه فلما أقدموا كان اقدامهم على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة الا القليل فأخذ الفرنج كل مافي بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا في القرى فوصلت الى خسفين ونوى واطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والاسرى مالا يحصى كثرة سوى ماقتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا فيها ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذي سلم من تلك البلاد وكان مختفيا قدر على النجاة ولما سار العادل الى مرج الصفر رأى رجلا في طريقه يحمل شيأ وهو يمشي تارة ويقعد تارة يستريح فعدل العادل اليه وحده

فقال له ياشيخ لاتعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال ياسلطان المسلمين أنت لاتعجل فانا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل قال ابن الاثير وبالجملة فالذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر بالبقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش الى نابلس يمنع الفرنج عن بيت المقدس ولما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا في جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق ان بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوك الفرنج فعادوا عن القلعة وتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر الى ديار مصر فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى أن ألحقها بالارض لانها قريبة من عكا يتعذر حفظها

﴿ ذكر حصر الفرنج دمياط الى أن ملكوها ﴾

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا في البحر الى دمياط فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فان بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط وقد بنى المسلمون في النيل برجا كبيرا منيعا وجعل فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها في النيل الى سور دمياط تمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد في النيل الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لايقدر أحد على منعها من أقاصي ديار مصر وأدانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات وأبراجا يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج الذي للمسلمين في النيل ليقاتلوا من فيه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط ليمنع العدو من العبور الى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشيء وكسرت آلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم انهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل

عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضاً مقابل المنزلة التى كان فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه فيها وكانت دمياط تحجز بينهم وبينه فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل ان الملك العادل والد الملك الكامل توفي بالشام في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة فلما جاء خبر وفاته لابنه الملك الكامل ضعفت نفوس الناس لان الملك العادل هو السلطان في الحقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا أنهم تحت حكمه والامر اليه وهو الذى ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الامراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون له ويطيعونه لاسيما الاكراد فاتفق هذا الامير مع غيره من الامراء ان يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الملك الكامل ففارق المنزلة ليلا مع بعض أصحابه وسار الى قرية يقال لها أشمون طناح فنزل عندها فأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقي بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد فلم يروا أحدا من المسلمين على شاطيء النيل كجارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر واذا قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم في العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما في عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج قد ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل بعد هذه الحركة بيومين وصل الى أخيه الكامل

والناس في أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر ابن الملك العادل ولم يمهل الله تعالى ابن المشطوب بل أخذه أخذة رابية فانه بعد اتصاله بالملك الاشرف والتحاقه بجنده وقعت منه خيانة فقبض عليه وحبسه الى أن مات ولما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شئ على أهل دمياط انها لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها براً وبحراً وعملوا عليها خندقا يمنعهم ممن يريد من المسلمين وكانت هذه عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة مايجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا صبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم نحو ثمانية أشهر من أواخر ذى القعدة الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد من هذا التاريخ بالأمان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا

﴿ ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج ﴾

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا السرايا في كل ماجاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلى أهلها عنها وشرع الفرنج في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى انها بقيت لاتكاد ترام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب بيت المقدس في ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة وانما فعل ذلك لان الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة الخسف في شرق الارض وغربها لأن التتر أقبلوا من المشرق حتى وصلوا الى نواحي العراق وأذربيجان وايران وغيرها وأقبل الفرنج من الغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على ان تملك وخافهم الناس كافة وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من

كل جانب ولو مكنهم الملك الكامل من الجلاء لتركوا البلاد خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى أخويه الملك المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه فسار الملك المعظم بنفسه الى الملك الاشرف فرآه مشغولا بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن يطيعه فعذره وعاد عنه وبقي الامر كذلك مع الفرنج الى سنة ثماني عشرة وستمائة ثم ان الملك الاشرف زال عنه الخلاف ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت له الامور والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثماني عشرة وستمائة علم الملك الكامل بزوال المانع للاشرف عن انجاده فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار الملك الاشرف بعساكره الى دمشق ثم سار الى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمونه بحر اشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس انهم يملكون الديار المصرية فلما سمع الملك الكامل بقرب أخيه الملك الاشرف فرح بذلك فلما وصل الى مصر توجه اليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفراً وأما الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار الى دمياط ظنا منه ان أخويه وعسكريهما قد نازلوا دمياط وقيل بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجهوا الى دمياط فسابقهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى الخليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شواني المسلمين من النيل وقاتلوا شواني الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم والرسل مترددة بينهم وبين الفرنج في تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيداً وجبلة واللاذقية وجميع مافتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك فبينا الامر في هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم مايقوتهم عدة أيام ظنا منهم ان العساكر الاسلامية لاتقوم لهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ماأرادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين

الى الأرض التي عليها الفرنج ففجروا النيل وخرقوا مواضع منه حتى خرج منـه ماء كثير وسال كالبحر فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الملك الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبر العساكر عليها فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دميـاط فلم يبق لهم خلاص واتفق في تلك الحال انه وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليه شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمركب المذكور وما معه من الحراقات وأخـذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقتهم دمياط في أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وارادوا ان زحف على المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين مايشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا انهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وان ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وان المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة اذ أقبل جيش كبير له وهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط كما تقدم فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقماصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط وكان أولئك الملوك الذين صاروا رهاين كثيرين منهم فليب ملك الفرنسيس ونائب بابا صاحب رومية وملك عكا وكندريش وغيرهم وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط في تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمراً كان مفعولا ومما اتفق انه لما انعقد الصلح وحضر ملك الفرنسيس وملوك الفرنج عند الملك الكامل محمد وكان في مجلس الكامل أخواه الملك المعظم عيسى والملك الاشرف موسى وكثير من ملوك الاسلام قام راجح الحلي وأنشد قصيدة بليغة مهنئة للملك الكامل محمد وفيها بيت ظريف وهو قوله أعباد عيسى ان عيسى وحزبه * وموسى جميعا يخدمون محمدا

وأشار الى الملك المعظم عيسى والملك الاشرف موسى والملك الكامل محمد ولما أراد ملوك الفرنج الحضور عند الملك الكامل طلبوا منه رهينة تكون عندهم فأرسل لهم ولده الملك الصالح أيوب وعمره خمس عشرة سنة ثم لما تم الصلح وتسلم المسلمون دمياط ارتحل ملك الفرنسيس فليب ومن معه من الملوك الى بلادهم وكانت مدة ملك فليب على الفرنسيس ثلاثا وأربعين سنة وهلك سنة ستمائة وعشرين هجرية ولما دخل المسلمون دمياط رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ورده الى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التي بالشام ليعيدوا لهم دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد التي بالشام بأيديهم على حالها فالله تعالى هو المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفاهم أيضا شر التتر كما سيأتي

﴿ذكر وفاة الملك العادل التي تقدمت الاشارة اليها﴾

قد تقدم أن الفرنج لما دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ساروا في البحر الى دمياط ووصلوها في صفر وكان الملك العادل بالشام في مرج الصفر ثم انتقل الى عالقين ومرض وتوفي سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ونقل الى دمشق ودفن بها وكان ابنه الملك الكامل أقامه هو ملكا في مصر نيابة عنه وكان وقت وفاة أبيه مشتغلا بقتال الفرنج النازلين على دمياط كما تقدم وكان عمر الملك العادل لما توفي خمسا وسبعين سنة لان ولادته كانت سنة أربعين وخمسمائة وقيل ثمانية وثلاثين وخمسمائة وكان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل حازما للامور صالحا محافظا على الصلوات في أوقاتها متبعا لارباب السنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب تأسيس التقويس وذكر اسمه في خطبته وسيره اليه من بلاد خراسان وكان الملك العادل في حياة أخيه صلاح الدين تابعا له تحت طاعته ينقله في الولايات وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ وقع بينه وبين أولاد أخيه صلاح الدين أمور يطول الكلام بذكرها الى أن استقل بمملكة الديار المصرية والشامية وكان استقلاله بمملكة الديار المصرية سنة ست وتسعين وخمسمائة واستقلاله بمملكة الديار الشامية سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وملك بلاد اليمن سنة اثنتي عشرة وستمائة وسير اليها ولد ولده الملك المسعود ابن الملك الكامل ثم ان الملك العادل لما انتزع الملك من أولاد أخيه صلاح الدين واستقل به قسم ممالكه بين أولاده وكان رجلا مسعودا وكذا أولاده لم يخالف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ودانت لهم العباد وملكوا خيار البلاد وكان يتردد بينهم

وينتقل اليهم من مملكة الى أخرى وكان بالغالب يصيف بالشام لاجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد وعاش في أرغد عيش وكان يأكل كثيراً خارجا عن المعتاد حتى يقال كما في تاريخ ابن خلكان انه كان يأكل وحده خروفا لطيفاً مشويا وخلف ستة عشر ولداً ذكرا غير البنات رحمه الله تعالى

﴿ ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا وتملكهم بيت المقدس ﴾

لما توفي الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل طمع الفرنج في الشام وكانت وفاة الملك المعظم سنة أربع وعشرين وستمائة في ذي القعدة وصار ملك دمشق لولده الناصر داود ثم انتزعها منه عمه الملك الكامل وأعطاه الكرك بدلا عن دمشق وبعد وفاة الملك المعظم خرج كثير من الفرنج من بلادهم القاصية الى بلادهم التي ملكوها في الشام عكا وصور وغيرهما فكثر جمعهم وكان معهم أمبراطور الالمان واسمه فرديك وقيل بل هو صاحب جزيرة صقلية ومعنى الامبراطور بلغة الفرنج ملك الامراء فاستولوا على صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين فملكوها وعمروا سورها وكان خرابا وأزالوا عنها حكم المسلمين فعظمت شوكتهم وقوى طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وكانت عند ملك انكلترا ولما بلغ الملك الكامل أنهم يقصدون دمشق وبيت المقدس خرج بعساكره من مصر وترددت الرسل بينه وبين الامبراطور واستقرت القاعدة بينهما على الصلح ان المسلمين يسلمون للفرنج بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من اعماله ويكون باقي البلاد للمسلمين مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وكان سور بيت المقدس قد خربه الملك المعظم كما تقدم فلما تسلم الفرنج بيت المقدس شرط عليهم عدم عمارة السور واستعظم المسلمون تملك الفرنج بيت المقدس وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه وكان تسلمهم اياه سنة ست وعشرين وستمائة وفي سنة ٦٢٨ ثمان وعشرين وستمائة انتهى تاريخ ابن الاثير المسمى بالكامل وتوفي مؤلفه سنة ثلاثين ببلاده الموصل وفي سنة ثمان وعشرين أيضاً قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهي من المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وكانت حلب بيد شهاب الدين أتابك تابع الملك العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين وكان شهاب الدين الاتابك مملوكا للسلطان الظاهر غازي فلما بلغه دخول الفرنج مدينة جبلة سير اليهم العساكر فقاتلوا الفرنج وقتل كثيراً منهم وأخرجهم واسترد الاسرى والغنيمة وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة أغار الفرنج على ربض دير ساك وهي لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر فيهم القتل والاسر

وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤس الفرنج وكانت هــذه الوقعة من أعظم الوقائع وفي سنة خمس وثلاثين توفي الملك الكامل وأخوه الملك الاشرف موسى وكثر الاختلاف بين أولاد الملك الكامل وليس هــذا محل ذكره وكان الملك الكامل من أعظم الملوك وله مشاركة في العلوم وملك مصر أربعين سنة عشرين نيابة عن أبيه وعشرين استقلالا وتوفي وعمره ستون سنة

﴿ ذكر استرجاع بيت المقدس للمسلمين ﴾

في سنة سبع وثلاثين وستمائة قصد الناصر داود بن الملك المعظم القدس وحاصرها وفتحها وكان الناصر داود ابن الملك المعظم له ملك الكرك أعطاه اياه عمــه الملك الكامل بعد ان انتزع منه دمشق كما تقدم فصار بيت المقدس له أيضاً لما فتحه وتقدم ان تسليم بيت المقدس للافرنج كان سنة ست وعشرين فتكون مدة بقائه تحت أيديهم الى أن اســترجعه الناصر داود احدى عشرة سنة ومن غريب الاتفاق ان الناصر صلاح الدين استخلص بيت المقدس أولا والناصر داود استخلصه ثانيا ولذلك قال جمال الدين بن مطروح

المسجد الاقصى له آيةٌ * سارت فصارت مثلا سائراً * اذ قدغدا للكفر مستوطناً
أن يبعث الله له ناصراً * فنــاصر طهــره أولاً * وناصر طهــره آخــراً

وفي سـنة اثنتين وأربعين وقع اختلاف بين صاحب دمشق وهو الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل وبين ابن أخيه صاحب مصر وهو الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل وأدى ذلك الاختلاف الى القتال فلما كان القتال بينهما استعان صاحب دمشق بالفرنج الذين في عكا ووعدهم بجزء من بلاد مصر فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بعسكر دمشق ووصل لقتالهم عسكر مصر مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب والتقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج وعسكر دمشق واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وبيت المقدس انتزعه من الناصر داود ووصلت الاسرى والرؤس الى مصر ودقت بها البشائر عدة ايام ثم استولى الملك الصالح أيوب على دمشق سنة ثلاث وأربعين وستمائة وانتزعها من عمه الصالح اسماعيل ابن الملك العادل وفي سنة خمس وأربعين وستمائة فتح الملك الصالح عسقلان وطبرية بعسكر جهزه مع فخر الدين بن الشيخ وقد كان تسليمها للفرنج سنة احدى وأربعين وستمائة فاستمرتا الى الآن ففتحتا

﴿ ذكر ملك الفرنج دمياط مرة أخرى غير المرة السابقة ﴾

في سنة سبع وأربعين وستمائة سار لويز ملك الفرنسيس في خمسين ألفا وقصــد دمياط وحاصرها ثم ملكها في شهر صفر وكان ذلك في مدة سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل فركب في عصايب المسلمين لقتالهم فحاصرهم واستمر محاصراً لهم الى أن

توفي في شعبان وكان ولده توران شاه غائباً بحصن كيفا فقام بالامر شجرة الدر زوجة أبيه الملك الصالح الى أن حضر ابنه توران شاه فقام مقام أبيه وتقدم الفرنج عن دمياط الى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان وقعة عظيمة ثم نزل الفرنج شرمساح ثم قربوا من المسلمين ثم كبسوا المسلمين على المنصورة ثم اشتد القتال بينهم وبين المسلمين برا وبحرا فكان النصر أخيرا للمسلمين بعد ان كان أولا للفرنج وكانت لهم مراكب كثيرة بالبحر وفي حسن المحاضرة للجلال السيوطي ان الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان مع عسكر المسلمين فقال بأعلى صوته مشيرا الى الريح ياريح خذيهم فجاءت ريح قوية على مراكب الفرنج فكسرتها وحصل الفتح والنصر للمسلمين وغرق أكثر الفرنج وصرخ صارخ في المسلمين قائلا الحمد لله الذى أرانا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر الله له الريح وحمل المسلمون على الفرنج فردوهم على أعقابهم وأخذ المسلمون من مراكبهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شواني فضعف الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض السواحل الشامية ويتركون دمياط فلم تقع الاجابة الى ذلك وكانوا قد فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط فان المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط اليهم فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا متوجهين الى دمياط فركب المسلمين أكتافهم وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم الا القليل وبلغت عدة القتلى ثلاثين ألفا وانحاز ملكهم ومن معه من الملوك الى بلد هناك وطلبوا الامان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ثم أحيط عليهم وأحضروا الى المنصورة وقيد ملكهم وأركب على جمل وطيف به ثم حبس في دار ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح ثم انعقد الصلح معه على تسليم دمياط وان يطلق ويدفع ثمانمائة ألف دينار وقيل انه افتدى نفسه بقناطير من الذهب تبلغ سبعة ملايين فرنك فأطلق ورجع الى بلاده فلما وصلها أخذ في الاستعداد ونوى الرجوع لحرب المسلمين فندم المسلمون على اطلاقه فأنشأ جمال الدين بن مطروح قصيدة كتبت وأرسلت اليه وأنشدها القاصد بين يديه وهو قائم منها قوله

قل للفرنسيس اذا جئته * مقال صدق عن قؤول نصيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها * تحسب ان الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لايرى منهم * غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم ان أضمروا عودة * لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صبيح

فلما سمع المقالة ذلت نفسه ونأى عن العودة الى مصر ثم أراد ان يأخذ ثاره من تونس لامر جرى بينه وبين ملكها وهو أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر

بالله وحاصل ما كان بينه وبين ملك الفرنسيس المذكور انه جرى ذكره يوما عند المستنصر فهضم من جانبه وقال هو الذى أسره هؤلاء وأطلقوه وأشار الى بعض الاتراك الذين كانوا يخدمون بين يديه وكان قد استخدم منهم جماعة فبلغت مقالة المستنصر ملك الفرنسيس فحقد عليه وتجهز بجنوده يريد أخذ تونس وذلك سنة ثمان وستين وستمائة فسار ومعه ثلاثون ألفا وأساطيله ثلاثمائة بين كبار وصغار وحاصر تونس ستة أشهر فقال بعض أدباء تونس

يا فرنسيس هذه أخت مصر * فتهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فقدر الله هلاك ملك الفرنسيس وهو محاصر تونس قيل أصابه سهم فقتله وقيل أصابه مرض الوباء فقتله وذلك سنة تسع وستين وستمائة وهلك كثير من جنده بالوباء وتملك بعده ابنه فعقد صلحا مع أهل تونس وارتحل عنهم وكفى الله شرهم وذكرنا قصة تونس قبل مجيء الموضع الذى ينبغى ان نذكر فيه أعنى سنة تسع وستين لتتصل هذه القصة بالقصة السابقة لما بينهما من التناسب

﴿ ذكر خروج التتر وتملكهم بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد ﴾

قال ابن خلدون ان التتر من شعوب الترك وان الترك كلهم من ولد كومر بن يافث بن نوح عليه السلام ومساكنهم بلاد الصين مما وراء نهر سيحون وهم أمم كثيرة وسيحون نهر مما وراء النهر قريب خجند بعد سمرقند وهو في حدود بلاد الترك ويطلق أيضاً على نهر أذنه وأما جيحون فهو نهر خوارزم وجيحان نهر بالشام وفي سنة ست وخمسين وستمائة كان استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية وينبغى قبل ذلك ان نذكر ابتداء أمر التتر وكيف كان خروجهم على أهل الاسلام ذكر كثير من المؤرخين ان حادثة التتر حادثة عظمى ومصيبة كبرى عمت الخلائق وخصت المسلمين بشدة بلائها فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم عليه السلام الى وقت خروج التتر لم يبتل بمثلها لصدق فان التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها ومن أعظم مايذكرون من الحوادث مافعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس وما بيت المقدس بالنسبة الى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى من تبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا أحداً بل قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام والنساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل

وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من أطراف الصين وعبروا نهر سيحون فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها مما سنذكره ثم تعبر منهم طائفة الى خراسان فيفرغون منها ملكا وقتلا وتخريبا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وأرمينية وغيرهما ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر في أقل من سنة هذا مالم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وأرمينيه ساروا الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان واللزك ومن كان هنالك من الامم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا الا بقدر مسيرهم لاغير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة واعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسيحان وكرمان ففعلوا فيها مثل مافعل هؤلاء وأشد هذا مالم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة انما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة في نحو سنة ولم يبت أحد من أهل البلاد التى يطرقونها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لايحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم بل كان معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لاغير وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لاتعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لايحتاجون الى شئ من خارج وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير والحشرات وبنى آدم ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لايعرف أباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون في مدتهم بمصائب لم يبل بها أحد من الامم فهؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وكانوا كلما ملكوا مدينة قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام وخربوا الجوامع وأحرقوا المصاحف

وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها وفي مدتهم أيضا كان خروج العرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام ثم قصدوا ديار مصر وانتشرت الفتن في ممالك الاسلام فانا لله وانا اليه راجعون قال ابن الاثير نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وهؤلاء التتر نوع من الترك ومساكنهم كانت جبال طمغاج من بلاد الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مايزيد على ستة أشهر ومملكة الصين متسعة دورها ستة أشهر وهي منقسمة ستة أجزاء كل جزء مسيرة شهر وعلى كل جزء ملك يقال له عندهم خان وواحد منهم رئيس على الجميع ولما انتهت الرياسة الى واحد منهم يقال له جنكز خان كان ابتداء خروجهم على بلاد الاسلام وذلك سنة ست عشرة وستمائة في خلافة الناصر لدين الله العباسي بن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله بن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد وكانت مدة خلافة الناصر ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر لأنه كانت ولايته الخلافة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ووفاته سنة ثنتين وعشرين وستمائة فكان أكثر فتنة التتر في مدته وكان سبب خروجهم ان ملكا من ملوك الاسلام كان مالكا لخراسان وما وراء النهر يقال له خوارزم شاه كان بينه وبينهم فتنة فاقتتلوا معه واتسع أمرهم حتى كان منهم ما كان وكان خوارزم شاه منتسبا الى شخص يقال له أنوش تكين وهو مملوك لبعض أمراء السلجوقية وكان حسن الطريقة فترقى الى أن صار مقدما مرجوعا اليه فولد له ابن يقال له محمد خوارزم شاه وانتشأ عارفا أديبا واشتهر عنه العقل وحسن التدبير فقدر الله ان وقعت فتنة في خوارزم سنة أربعمائة وتسعين وقتل أمير خوارزم وكانت تحت حكم السلاطين السلجوقية والخلفاء العباسية فولوا ملك خوارزم لمحمد خوارزم شاه ابن أنوشتكين ثم توارث الملك بنوه واتسع ملكهم وعظم أمرهم وصار كل ملك منهم يقال له خوارزم شاه ولم يزل ملكهم يقوى ويتسع حتى تغلبوا على الممالك وصار ملكهم من حد العراق الى تركستان وملكوا خراسان جميعه وغزنة وكابل وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وبعض فارس فلم يزالوا يتوارثون الملك الى سنة خمسمائة وست وتسعين فكان أملك منهم في التاريخ المذكور لمحمد خوارزم شاه بن تكش بن ارسلان بن أطسن بن محمد خوارزم شاه ابن أنوش تكين فاتسع ملكه غاية الاتساع حتى صار يتطلب تملك بغداد قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء في وصف خوارزم شاه المذكور أنه أباد الملوك وأخذ

الممالك وعزم على قصد الخليفه ثم تهيأ له مدة وكان خوارزم شاه قسم ممالكه بين أولاده وكانوا أربعة وضرب لكل منهم نوبة مثل نوبته وكان تحته سبعة وعشرون ملكا تضرب نوبة لكل واحد منهم في أوقات الصلوات وانفرد هو بنوبة ذى القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها وكانت سبعا وعشرين دبدابة والدبداب هو الطبل الكبير وكانت هذه السبع والعشرون من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر فلما انتهى أمر ملكه الى هذا الحد حقر أمر التتر سكان الصين وصار يغازيهم ويغير على بلادهم وهم أيضا يغازونه ويغيرون على بلاده ثم انعقد صلح بينهم وبينه ومهادنة وصار تجارهم يأتون الى بلاده ثم ان عامل خوارزم شاه على آخر مملكته مما يليهم كانت له قوة ومعه عشرون ألف فارس وكان خال خوارزم شاه فشرهت نفسه الى أموال التجار واتفق انه دخل في محل ملكه كثير من التجار والاتراك معهم أموال للتجار من التتر وأموال لملك التتر فكتب ذلك العامل الى خوارزم شاه يقول له ان هؤلاء القوم قد جاؤا بزى التجارة وماقصدهم الا التجسس وان أذنت لى فيهم قبضت عليهم فأذن له فقبض عليهم وأخذ أموالهم ثم وقعت مكاتبات بين ملك التتر وخوارزم شاه في اطلاقهم وكتب ملك التتر لخوارزم شاه يهدده ان لم يطلقهم فغضب وأمر بقتلهم فقتلهم ذلك العامل وسير اليه ما كان معهم من الاموال وكان شيأ كثيرا ففرقه خوارزم شاه على تجار سمرقند وبخارى وأخذ منهم قيمته فلما بلغ الخبر جنكز خان أرسل جماعة الى خوارزم شاه يهدده ويقول أنت قتلت جماعتى فاستعد للحرب فانى واصل اليكم بجمع لاقبل لكم به فقتل خوارزم شاه كبير هؤلاء الجماعة وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى جنكز خان فقالوا له ان خوارزم شاه يقول لك انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم منك وافعل بك كما فعلت بأصحابك وتجهز خوارزم شاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم وأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم ير فيها الا النساء والصبيان والاطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار أنهم ساروا لمقاتلة ملك من ملوك الترك فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم في الطريق الخبر بمافعل خوارزم شاه بمخلفيهم فجدوا السير وأدركوه قبل ان يخرج من أرضهم وتصافوا للحرب واقتتلوا اقتتالا لم يسمع بمثله ثلاثة أيام بلياليها وجرى الدم في الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته وأحصى من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم ثم رجع الكفار الى بلادهم ورجع المسلمون الى بخارى واستعدوا لمجىء جنكز خان اليهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿تم الجزء الأول من الفتوحات الاسلاميه ويليه الجزء الثانى أوله ذكر تملك جنكز خان بخارى﴾

﴿ الجزء الثاني ﴾

من الفتوحات الاسلامية * بعد مضى الفتوحات النبوية * لمؤلفها
فريد العصر والاوان * علي الهمة عظيم الشان * شيخ
الاسلام بالاقطار الحجازية * ومفتي السادة الشافعية
بمكة المحمية * الاستاذ السيد احمد ابن
السيد زيني دحلان * أسكنه الله
بحبوحة الجنان
آمين

﴿ طبعت على ذمة حضرة مصطفي افندي فهمي ﴾
﴿ وحضرة حسين افندى شرف بخط الازهر المنير ﴾

﴿ الطبعة الاولى ﴾

{ بالمطبعة العامرة الشرقية بشارع الخرنفش بمصر }

﴿ سنة ١٣٢٣ هجريه ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم ٣٣٣

﴿ ذكر تملك جنكزخان بخارى ﴾

ثم جاءهم جنكزخان بعد خمسة أشهر بجيوشه وحاصر مدينة بخارى وفيها خوارزم شاه واقتتلوا ثلاثة أيام متتابعة ولم يكن لعسكر خوارزم شاه قوة لمقاومة جنكزخان ففارق خوارزم شاه بعساكره بخارى وسار الى خراسان فارسل أهل بخاري الشيخ بدر الدين قاضي خان الى التتر ليطلب الامان للناس فاعطوهم الامان وكان قد بقي من عسكر خوارزم شاه طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكزخان الي الامان فتحت أبواب المدينة وكان ذلك رابع ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخاري ولم يتعرضوا الي أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادي في البلد أن لا يتخلف احد ومن تخلف قتل فحضروا جميعهم فأمرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والتراب حتى ان الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن ويلقونها في الخندق فانا لله وانا اليه راجعون ثم تابعوا الزحف الي القلعة وبها نحو أربعمائة من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد ولم يزالوا كذلك حتي زحفوا اليهم ووصل النقابون الي سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام فغضب اللعين جنكزخان ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا في القتال وقد تعب من في القلعة وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتي قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤساء البلد ففعلوا ذلك فلما عرضت أسماؤهم عليه أمر باحضارهم فحضروا فقال أريد منكم الاموال التي باعكم خوارزم شاه التي كانت مع التجار الذين قتلهم خوارزم شاه في أول ابتداء الامر كما تقدم ذكرهم وقال لهم انها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين الذين أخرجهم من البلد فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضا وأصبحت بخارى خاوية على عروشها

كان لم تغن بالامس وارتكبوا من النساء الامر العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيأ مما نزل بهم فنعهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى مانزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين امام زاده وولده فانهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب لطلب المال

﴿ ذكر مسير جنكزخان الى سمرقند ﴾

لما انقضى أمر بخارى ارتحل جنكزخان وجنوده نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عن مقابلتهم وكان هو بمكان بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والاثقال ومع كل عشرة من الاساري علم فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بسمرقند وفيه خمسون الف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة أهل البلد فلا يحصون كثرة فخرج اليهم شجعان أهله وأهل القوة والجلد رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد وقتلوا عن آخرهم شهداء رضى الله عنهم وكانوا سبعين ألفا فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الامان فاجابوهم الى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم تقدر العامة على منعهم وخرجوا الى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا الينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخاري من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وافتضوا الابكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة وكان خوارزم شاه بمنزلته كلما اجتمع اليه عسكر سيره الى سمرقند فيرجعون ولا يقدرون على الوصول اليها نعوذ بالله من الخذلان * سير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير مرة عشرين

الفافعادوا أيضا

﴿ ذكر سير التتر الي خوارزم شاه وانهزامه وموته ﴾

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا خوارزم شاه اين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة بتشديد الراء المكسورة لانها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم و بين غيرهم منهم لانهم هم الذين أوغلوا في البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدا موضعا يسمى بنجاب ومعناه خمس مياه منها نهر جيحون فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الاحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة اليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزم شاه الا وقد صاروا معه على أرض واحدة وكان المسلمون قد ملؤا رعبا وخوفا منهم وقد اختلفوا فيما بينهم فانهم كانوا قبل ذلك ثابتين متماسكين بسبب أن نهر جيحون بينهم فلما عبروه اليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع اليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم جموعا فلما سمع بقربهم منه رحل الي مازندران وهي له أيضا فرحل التتر المغربون في أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل من منزلة نزلوها فوصل الي مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون وله هناك قلعة في البحر فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا فهم الذين قصدوا الري وما بعدها كما نذكره وقيل ان خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل الي الري ثم منها الي همذان والتتر في أثره ففارق همذان في نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الي مازندران وركب في البحر الى هذه القلعة ثم لما وصل الي القلعة المذكورة قدر الله تعالى انقضاء أجله فتوفي بها وكان رحمه الله عالما فاضلا بالفقه والاصول وغيرهما مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ويحب مناظرتهم بين يديه وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل علي اللذات انما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لاهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم ومناقبه رحمه الله كثيرة وكان قد اتسعت ممالكه من جهة العراق الي تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند

﴿ ذكر استيلاء التتر المغربة علي مازندران ﴾

لما أيس التتر المغربة من ادراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها فانها لم تزل ممتنعة في قديم الزمان وحديثه حتى ان المسلمين لما ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق الى أقاصي خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد الى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا الامر يريده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الرى فرأوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة وكان سبب ذلك ان والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل الى أصفهان وهمذان وبلاد الجبل تمتنع فيها فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الى الرى فكان فيما معها ما ملأ عيونهم وقلوبهم ومما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع والنفيس من الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع الى جنكزخان بسمرقند

﴿ ذكر وصول التتر الى الري وهمذان ﴾

في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله الى الرى في طلب خوارزم شاه محمد لانهم بلغهم انه مضى نحو الرى منهزما منهم فجدوا السير في أثره وقد انضاف اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضا من المفسدين الذين يريدون النهب والشر فوصلوا الى الري على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا الا وقد وصلوا اليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الاطفال وفعلوا الافعال التي لم يسمع بمثلها ولم يقيموا بل مضوا مسرعين في طلب خوارزم شاه فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الرى وأحرقوا وخربوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والاطفال فلم يبقوا على شئ وتموا على حالهم الى همذان فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الاموال والثياب والدواب وغير ذلك جعله هدية لهم ليطلب الامان لاهل البلد فأمنوهم ثم فارقوها وساروا الى زنجان ففعلوا أضعاف ما فعلوا من قبل ثم وصلوا الى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا في قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصى ثم فارقوا قزوين فعد القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل رحمهم الله تعالى

﴿ ذكر وصول التتر الى أذربيجان ﴾

لما هجم الشتاء على التتر في همذان وبلد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا متراكما فساروا الى أذربيجان ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا الى تبريز وبها صاحب اذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدث نفسه

بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لايفيق وانما أرسل اليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع اليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لانه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لاجل دوابهم فوصلوا الي موقان وتطرقوا في طريقهم الى بلاد الكرج فجاء اليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوهم والكرج فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج الي اوزبك صاحب اذربيجان يطلبون منه الصلح وازالة ما كان بينهم وبينه وان يتوافق معهم علي دفع التتر فاصطلحوا علي أنهم يجتمعون اذا انحسر الشتاء وكذلك أرسلوا الى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم ان التتر يصبرون من الشتاء الي الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف اليهم مملوك تركي من مماليك اوزبك صاحب اذربيجان اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع معه خلق كثير وأرسل التتر في الانضمام اليهم فأجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر الي الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا الي قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها اليهم فلقيهم اقوش أولا فيمن اجتمع اليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال وقتل منهم أيضا كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا أقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى كثرة وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة سبع عشرة وستمائة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جري لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لاتنقضي عليهم سنة حتي يصل بعضهم الى بلاد ارمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان قال ابن الاثير في الكامل وكان هو موجودا في ذلك العصر مطلعا على تلك الاحوال قال وتالله لا أشك ان من يجيء بعدنا اذا بعد العهد ويري هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فمتى استبعد ذلك فلينظر اننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا هذا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوي في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو الى أمر عظيم ومن الملوك المسلمين الي من لاتتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل ما دفعوا اليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وخربوها وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر الي خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم الي الري وبلاد الجبل واذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهروا

من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقي ديار مصر على خطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ومن أعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزم شاه محمد قد عدم ولم يعرفوا حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفي موته وتارة يقال انه دخل اطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته وهذا أمر عظيم حيث أصبح مثل خراسان وعراق العجم وغيرهما سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد على أنهم لم يبقوا على مدينة الا خربوها كلما مروا عليه نهبوه وما لا يصلح لهم أحرقوه فكانوا يجمعون الابريسم تلالا ويلقونه في النار وكذلك غيره من الامتعة

﴿ذكر تملك التتر مراغة﴾

في صفر سنة ثمان عشرة وستمائة تملك التتر مدينة مراغة من اذربيجان * وسبب ذلك انا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لانهم رأوا ان بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج الى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم اذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه الى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لان صاحبها كانت امرأة وهي مقيمة بقلعة رويفذ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة * فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها فكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوهم فكانوا يقاتلون من امامهم كرها فكانوا كما قيل كالاشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر وكان التتر يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل أولا في المسلمين الاسارى وهم بنجوة منه فأقاموا على المدينة عدة أيام ثم ملكوها عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها فقتل منها ما يخرج عن الحد والاحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم وما لا يصلح لهم احرقوه واختفى بعض الناس عنهم وكانوا يأخذون الاسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا فاذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل قال ابن الاثير وبلغني ان امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح واذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا قال وسمعت من بعض أهل مراغة ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد منهم يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا من مراغة قاصدين نحو مدينة اربل فوصل الخبر الينا بذلك في الموصل فخفنا حتى ان بعض

الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب اربل الي بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جمعا صالحا من عسكره وأراد أن يمضي الى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز اليه ووصلت كتب الخليفة الناصر ورسله الي الموصل والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فانهم ربما عدلوا عن جبال اربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من اربل في صفر وسار اليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا الى الملك الاشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق ان الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق الى أخيه الاشرف يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر يستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر الملك الاشرف الى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وان لم يتداركها خرجت هي وغيرها وشرع يتجهز للمسير الي الشام ليدخل مصر ففعل ذلك واستنقذوا دمياط كما ذكرناه فيما سبق فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الامراء في نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأي قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر وحكي مظفر الدين قال لما أرسل الي الخليفة في معني قصد التتر قلت له ان العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواش فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم ان العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الاسلامي عند دقوقا فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا الى بلادهم

﴿ ذكر تملك التتر همذان وقتل أهلها ﴾

وهمذان بفتح الميم وبالذال المعجمة بعدها ألف ونون اسم مدينة بناها همذان بن الفلوج بن سام بن نوح واما همدان بسكون الميم وبالدال المهملة بعدها ألف ونون فاسم قبيلة باليمن لما تفرق العسكر الاسلامي عاد التتر الي همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة أي حاكم يحكم فيها فأرسلوا اليه يأمرونه ليطالب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذي يسعي في أمور أهل البلد من التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الاموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل

همذان مايحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه انسان فقيه قدقام في اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قدأفنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا ومايفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره فقال الشريف اذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا الا مصانعتهم بالأموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له في القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ماشئتم فأشار الفقيه باخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد فتقدم التتر اليهم وحصروهم وكانت الاقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام الا قليلا وأما التتر فلا يبالون بعدم الاقوات لانهم لا يأكلون الا اللحم من أي حيوان كان ولو من الحشرات والوحوش وبني آدم ولا تأكل دوابهم الا نبات الارض حتى انها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الاول وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الاول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج في اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجدوه وكان قد هرب في سرب صنعه الى ظاهر البلد هو وأهله الى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون الا انهم اجتمعت كلمتهم على القتال الى أن يموتوا فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج اليهم من البلد طمعوا واستدلوا بذلك على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم وذلك في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس في الدروب فبطل السلاح للزحمة واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصيه الا الله تعالى وقوي التتر على المسلمين فأفنوهم قتلا ولم يسلم الا من كان عمل له نفقا يختفي فيه وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ثم ألقوا النار في البلد فاحرقوه ورحلوا عنها الى مدينة اردويل وكان السبب في ملكها أعني همذان ان أهل البلد لما شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار عليهم بمكاتبة الخليفة ليفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب الى الخليفة ينهي اليه ماهم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزي ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال الى التتر يعلمهم ذلك فأرسلوا الى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا الى الرئيس ينكرون عليه الحال فيجحد فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط في أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى القتال كما ذكرنا الى أن

ملكوهم ﴿ ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم اردويل وغيرها ﴾

لما فرغ التتر من همذان ساروا الي اذربيجان فوصلوا الي اردويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا القتل وخربوا أكثرها وساروا منها الي تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان وكان أميرا متخلفا لا يزال منهمكا في الخمر ليلا ونهارا يبقي الشهر والشهرين لا يظهر واذا سمع هيعة طار بجفلا لها وله جميع اذربيجان واران وهو اعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارقهو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه الي خوي ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائي بأمر البلد وجمع الكلمة وقوي نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني وحصن البلد بجهده وطاقته فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة علي قتالهم وانهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا السور والخندق أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الامر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا الي مدينة سراو فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها الى بيلقان من بلاد اران فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقري وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها فلما وصلوا الى بيلقان حصروها فاستدعى أهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله أهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم انهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتي انهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم اليه يدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا الى مدينة كنجة وهي أم بلاد اران فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج وحصانتها لم يقدموا عليها فأرسلوا الى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم

﴿ ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج ﴾

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان واران بعضه بالتملك وبعضه بالصلح ساروا الي بلاد الكرج من هذه الاعمال أيضا وكان الكرج قد أعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كبيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها فوصل اليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فاخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد قال ابن الاثير ولقد بلغني انهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون الي تفليس وبها ملكهم جمع جموعا أخري وسيرهم الى التتر أيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا الى تفليس فأخذوا البلاد

فقعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا منها وداخل الكرج منهم خوف عظيم قال ابن الاثير حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا انه قال من حدثكم ان التتر انهزموا أو أسروا فلا تصدقوه واذا حدثتم انهم قتلوا انصدقوا فان القوم لا يفرون أبدا ولقد أخذنا أسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للاسر

﴿ ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه ﴾

لما عاد التتر من بلاد الكرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتل الناس منهم وممن قتل من غيرهم وألقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا تلك الليلة فانتنت تلك الجيف وانهضمت فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء فضعفوا فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الاموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فارسلوا رسولا الى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا ليسعي بينهم في الصلح فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فاخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين ان أنتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الامن وان لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فسار وا معهم الى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوا الدربند وراء ظهورهم

﴿ ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق ﴾

لما عبر التتر دربند شروان ساروا في تلك الاعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفار وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا اعندهم جمعا من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر احدي الطائفتين بالاخري فأرسل التتر الى قفجاق يقولون نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم انا لا نتعرض اليكم ونحمل اليكم من الاموال والثياب ما شئتم وتتركوا بيننا وبينهم فاستقر الامر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا اليهم ما استقر وفارقهم قفجاق فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا الى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم الا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الاول فالاول وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا اليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وأبعدوا فمنهم من اعتصم

بالغياض ومنهم من اعتصم بالجبال ومنهم من لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى وهي غياض على ساحل البحر ووصلوا الى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فانها على بحر خزرية والمراكب تصل اليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطاس والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو في بلادهم وبحر خزرية هذا متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر الى سوداق ملكوها وقتلوا أهلها وتفرق أهلها الذين سلموا من القتل فمنهم من صعد الجبال بأهله وماله ومنهم من ركب البحر وسار الى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج ارسلان السلجوقي

﴿ ذكر مافعله التتر بقفجاق والروس ﴾

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق أهل قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا اليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتران قصدوهم وأقام التتر بمدينة قفجاق مدة ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس فسمع الروس بقفجاق وخبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا الى طريق التتر ليلقوهم قبل ان يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا انهم عادوا خوفا منهم وعجزوا عن قتالهم فجدوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثني عشر يوما ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرة منهم لانهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم ان التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل في المنهزمين فلم يسلم منهم الا القليل ونهب جميع مامعهم ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا مايعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الاسلام في عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق الا أن الناس نجوا وكانت العادة جارية ان السلطان له [illegible] المركب الذي ينكسر فأخذ من ذلك شيأ كثيرا وسلم باقي المراكب وأخبر من بها بهذه الحال

﴿ ذكر عود التتر من بلاد قفجاق والرووس الى ملكهم ﴾

لما فعل التتر بالروس ماذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا اليهم فلقوهم [illegible] واستجروهم

الي أن جاوز واموضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراءظهورهم وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل فساروا الى سقسين عائدين الى ملكهم جنكز خان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم من قفجاق الي بلادهم وكان الطريق منقطعا منذ دخلها التتر فلم يصل منهم شيء من البرطاس والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل الي تلك البلاد فلما فارقها التتر وعاد القفجاق اليها اتصل الطريق وحملت الامتعة كما كانت هذه أخبار التتر المغربة ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع

﴿ ذكر مافعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند ﴾

قد ذكرنا مافعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكز خان لعنه الله الي خوارزم شاه وأما جنكز خان فانه بعد أن سير هذه الطائفة الي خوارزم شاه وبعد انهزام خوارزم شاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام سير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر الى ترمذ وسير قسما آخر منها الي كلانة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون فسارت كل طائفة الى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والاسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع العذاب مثل مافعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكز خان وهو بسمرقند فجهز جيشا آخر فعبروا جيحون الي خراسان

﴿ ذكر تملك التتر خراسان ﴾

لما سار الجيش المنفذ الي خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فأمنوهم فسلم البلد وكان ذلك سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا اليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوي وقاريات فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا الي أهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتي وصلوا الي الطالقان وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشيء فأرسلوا الى جنكز خان يعرفونه عجزهم عن تملك هذه القلعة لكثرة مافيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه اليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى فأمرهم بمباشرة القتال والا قتلهم فقاتلوا معه وأقام عليها أربعة أشهر اخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والاخشاب ماأمكن جمعه ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب ولم يزالوا كذلك حتي صار تلا عاليا يوازى القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب ونجوا وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء

والاطفال ونهبوا الاموال والامتعة ثم ان جنكزخان جمع أهل البلاد الذين أعطاهم الامان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده الى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الاعراب والاتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل التتر اليهم التقوا واقتتلوا وصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين ان قيل ان التتر يقتلون فصدقوا وان قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر التتر واقدامهم ولوا منهزمين فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ولم يسلم الا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل التتر الى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا الى مرو وحصروها وجدوا في حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والاسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر الى الامير الذي بها مقدما على من فيها يقولون له لاتهلك نفسك وأهل البلد واخرج الينا فنحن نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنك فارسل يطلب الامان لنفسه ولاهل البلد فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض علي أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه اقطاعا ويكون معنا فلما احضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال اكتبوا لي تجار البلد ورؤساءه وأرباب الاموال في جريدة واكتبوا لي أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى وأعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف علي النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسي من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الاجناد الذين قبض عليهم فاحضروا وضربت أعناقهم صبرا والناس ينظرون اليهم ويبكون وأما العامة فانهم قسموا الرجال والنساء والاطفال والاموال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل وأخذوا أرباب الاموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الاموال فربما مات أحدهم من شدة الضرب ولم يكن بقي له مايفتدي به نفسه ثم انهم أحرقوا البلد وأحرقوا تربة السلطان سنجر السلجوقي ونبشوا القبور طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم أجمعين وأمر باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فهم العلماء والصلحاء والزهاد والعباد كما كان مثل ذلك من التتر المغربة فيما أخذوه من البلاد كما تقدم فانا لله وانا اليه راجعون مما جري على المسلمين وسبحان من يدبر ملكه كيف يشاء ولا يسئل عما يفعل ثم ساروا الى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامي فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال

كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخرجون و يفتشون المنازل على الاموال وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم ان قتلاهم سلم منهم كثير لكونهم لم يتمموا قتلهم حتي تزهق أرواحهم وان كثيرا منهم نجوا الي بلاد الاسلام فأمروا باهل نيسابور أن تقطع رؤسهم لئلا يسلم من القتل أحد ففعلوا ذلك فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس ففعلوا بها كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي الرضا بن موسى الكاظم والذى فيه هارون الرشيد وجعلوا الجميع خرابا ثم ساروا الي هراة وهى من أحصن البلاد فحصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا الي غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه لانه كان متملكا ذلك القطر فقاتلهم وهزمهم كما سنذكره فلما سمع بذلك أهل هراة وثبوا على الشحنة فقتلوه فلما عاد المنهزمون الى هراة وجدوا عسكرا جاءهم مددا من جنكزخان فانضموا اليهم ودخلوا هراة قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا الى بلاد خراسان ففعلوا بخراسان مثل مافعلوا في غيرها ولم يسلم من شرهم وفسادهم شئ من البلاد وكان جميع مافعلوا بخراسان سنة سبع عشرة وستمائة

﴿ذكر تملكهم خوارزم وتخريبها﴾

وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان الى خوارزم فانها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد فساروا حتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير من المسلمين وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير الا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لان المسلمين كان يحميهم السور فارسل التتر الي ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا الي البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوه فلم يقدروا علي اخراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ثم انهم فتحوا السد الذي كان يمنع ماء جيحون عن البلد فدخل الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الابنية وبقى موضعه ماء كالبحر ولم يسلم من أهله أحد البتة فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقي نفسه بين القتلي فيظنون أنه مقتول فينجو وأما أهل خوارزم فمن اختفى منهم من التتر غرقه الماء أو قتله الهدم فاصبحت خرابا يبابا

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ✽ أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فانالله وانااليه راجعون قال ابن الاثير وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لان القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرين ومضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان

﴿ ذكر تجهيز جنكزخان الجيوش الى غزنة لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه ﴾

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا الى ملكهم جهز جيشا كثيفا وسيره الى غزنة وبها جلال الدين ابن خوارزم شاه مالكا لها وقد اجتمع اليه من عسكر أبيه نحو ستين ألفا وذلك غير من كانوا عنده من عسكر مملكته ولما وصل التتر الي أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع جلال الدين بن خوارزم شاه فالتقوا في موضع يقال له بلق فاقتتلوا هناك قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة ايام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد الي ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه فسير اليهم جنكزخان عسكرا فاجتمعوا مع المنهزمين من غزنة ودخلوا هراة وملكوا البلد وقتلوا أهله وخربوه وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ثم ان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد ان هزم جيش جنكزخان أرسل رسولا الي جنكزخان يقول له أي موضع تريد يكون فيه الحرب حتى نأتي اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الاول مع بعض أولاده وسيره اليه فوصل الي كابل فتوجه العسكر الاسلامي اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم التتر ثانيا وقتل منهم كثير وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم وحلوهم ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة مع بعضهم لاجل الغنيمة وسبب ذلك ان أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الاتراك كان شجاعا مقداما ذارأى في الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعبا وهو الذي كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزم شاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الاميران في الغنيمة فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لاجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر وسار الي الهند فتبعه من العسكر ثلاثون الفا كلهم يريدون ان يكونوا تبعا له فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه اليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبينما هم كذلك اذ ورد الخبر ان جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لاجل من فارقهم من العسكر عزم على مفارقة غزنة ولم يقدر على المقام فسار نحو بلاد الهند فوصل الى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره

مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان بجيوشه فاضطر المسلمون حينئذ الي القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا في ذلك كالاشقر ان تأخر ينحر وان تقدم يعقر فصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم أن ما مضي من الحروب كان لعبا بالنسبة الى هذا القتال وبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الامير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل في الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون انهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فارسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون الى الهند ومعهم جلال الدين وقيل انهم عبروا بغير سفن وان جلال الدين اقتحم النهر العظيم هو وعساكره وما نجا منهم الا أربعة آلاف حفاة عراة ورمي الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصه الى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام ثم وجدوه واعتقدوا إعقدمه عيدا ثم جري بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين وملك الى لهاور من الهند وأما جنكزخان وعساكره فانهم عادوا الي غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الي الهند وبعدهم عنهم فلما وصلوا اغزنة ملكوها لخلوها من العساكر والحامي فقتلوا أهلها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ولم يبقوا أحدا من العلماء والصلحاء وغيرهم وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها وما حولها من المدائن والقري كذلك فأصبحت تلك الاعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية علي عروشها كان لم تغن بالامس ثم رجع جنكزخان بجيوشه الى بلاده وأما الممالك التي ملكها وخربها فترك الكثير منها ولم يجعل له عمالا فيها فرجع اليها أهلها وتملكها ملوكها الذين كانوا فيها (غريبة عجيبة) لما وصل جلال الدين الي حافة نهر السند ولم يجد من السفن ما يعبر فيه وجنكزخان خلفه يقص أثره ضاقت الارض بما رحبت علي جلال الدين ومن معه ورأي والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يبكين ويصحن يقلن له بالله عليك اقتلنا أو خلصنا من الاسر فامر بهن فغرقن في النهر وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا

﴿ ذكر عود التتر الي الرى وهمذان وغيرهما ﴾

في سنة احدى وعشرين وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا اخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهل الرى قد عادوا اليها وعمروها فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا في أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا الى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم الى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر الاولين فانهم لم يقربوهما ولا أصيب أهلهما بأذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا

الي الري رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الي اذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا الا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم الى تبريز وأرسلوا الى صاحبها اوزبك بن البهلوان يقولون له ان كنت موافقنا وعلى طاعتنا فسلم الينا من عندك من الخوارزمية والا فعرفنا انك غير موافق لنا ولا في طاعتنا فعمد ابن البهلوان الى من عنده من الخوارزميه فقبض عليهم ثم قتل بعضهم وجعل بعضا منهم اسري وأرسل رؤس من قتلهم الي التتر وأرسل معها الاسري وأنفذ مع الجميع من الاموال والثياب والدواب شيأ كثيرا فعادوا عن بلاده وساروا نحو خراسان وفعل التتر هذا كله في هذه العودة وليسوا في كثرة بل كانوا نحو ثلاثة آلاف وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ست آلاف فارس ولكن وقع الرعب في قلوبهم من التتر وان كانوا قليلا وكان عسكر ابن البهلوان أكثر من ذلك كله ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم قال ابن الاثير فنسأل الله ان ييسر الاسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا الى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الاموال واسترقاق الاولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد

﴿ ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق ﴾

في أول سنة اثنتين وعشرين وصل جلال الدين بن خوارزمشاه الى بلاد خوزستان والعراق واستناب نوابا في ممالك الهند واستولى على كرمان وأصفهان وباقي عراق العجم وفارس وقاربت جيوشه بغداد فخاف أهل بغداد منه ثم سار الي تبريز واذربيجان وكثرت عساكره واستفحل أمره وصار ينتزع الممالك من يد الملوك الذين كانت الممالك بأيديهم والكلام على ذلك طويل وصار يفعل في كثير من البلاد التي يتملكها من القتل والاسر والنهب مثل ما يفعل التتر وفي هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله وكانت مدة خلافته قريبا من سبع وأربعين سنة قيل ان أصل قيام التتر كان بمكاتبته لهم يأمرهم بقتال خوارزمشاه ليشغلوه عن تطلبه ملك العراق والله أعلم بحقيقة الحال وولي الخلافة بعد الناصر ولده الظاهر بأمر الله ومكث تسعة أشهر وتوفي وولي ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ثم المستعصم ختام خلفائهم كما سيأتي ولما قوي أمر جلال الدين بن خوارزمشاه واستفحل ملكه بلغه سنة أربع وعشرين وستمائة أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الي دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينه وبينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين مدة أيام بقتل ويأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر اذ أتاه الخبر بأن كثيرا منهم واصلون اليه فأقام ينتظرهم فوصلوا اليه في سنة خمس وعشرين وجري بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر لهم عليه وفي الاخير كان الظفر له عليهم نهزمهم وهؤلاء التتر الذين جاؤه في هذه المرة كانوا قد سخط

جنكز خان علي مقدمهم وأبعدهوأخرجه من بلاده فقصد خراسان هو وجيوشه فرآها خرابا فقصد الري ليتغلب على تلك النواحي والبلاد فلقيه بها جلال الدين واقتتلوا أشد القتال الى ان كانت آخر هزيمة علي التتر كما ذكرنا وجاءت مكاتبة من طولي بن جنكز خان لجلال الدين يقول له ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا انما نحن أبعدناهم فلما آمن جانب ابن جنكز خان أمن وعاد الي اذربيجان وانما كانت المكاتبة مع ابن جنكز خان لان جنكز خان كان قد هلك سنة أربع وعشرين وستمائة وكانت مدة ملكه نحو ثلاث وعشرين سنة ولما أيس من الحياة جمع أولاده وقسم بينهم الممالك وجعل التخت للرئيس عليهم وهو ولده الصغير طولي خان ثم هلك عن قرب وتولى مكانه ولده هلاكو الذي كان علي يده أخذ بغداد

﴿ ذكر خروج التتر الى اذربيجان وما كان منهم ﴾

في أول سنة ثمان وعشرين وصل التتر من بلاد ماوراء النهر الي اذربيجان وكان جلال الدين قد ضعف ملكه لانه كان سيء السيرة قبيح التدبير لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك ووقع بينه وبينهم حروب وهزموه في آخر الامر في كثير منها فضعفت شوكته وكتب الي التتر بعض الملوك الذين كان يحاربهم يحثونهم علي المجيء لاستئصال جلال الدين ويعرفونهم ضعفه عن لقائهم فهذا كان أيضا من أسباب مجيئهم فلما أقبل التتر في هذه المرة ولم يقدم جلال الدين على لقائهم وقتالهم فدخلوا بلاده واستولوا على الري وهمذان ومابينهما من البلاد ثم قصدوا أذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به وجلال الدين لا يقدر على منعهم من البلاد قد ملئ رعبا وخوفا وانضاف الي ذلك ان عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب في ذلك ان أمرا غريبا فعله جلال الدين أظهر من قلة عقله مالم يسمع بمثله وذلك أنه كان له خادم خصي وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق أن ذلك الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه مالم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلى وأمر الجند والامراء أن يمشوا في جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى جلال الدين بعض الطريق راجلا فالزمه أمراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل الي تبريز أرسل الي أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم ففعلوا فأنكر عليهم حيث لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصي وانما كان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكي وامتنع من الاكل والشرب وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج ولا يتجاسر أحد أن يقول انه مات فانه قيل له مرة انه مات فقتل القائل له ذلك انما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون يقولون انه يقبل الارض ويقول انني الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والانفة من هذه الحالة ماحملهم علي مفارقة طاعته والانحياز مع وزيره نبقي

حيران لا يدري ما يصنع لاسيما الخرج التتر هذه المرة فحينئذ دفن الغلام الخصي وأرسل الى الوزير واستماله الى أن حضر عنده فلما وصل اليه بقي أياما ثم قتله جلال الدين وهذه نوادر غريبة لم يسمع بمثلها تدل على الخذلان

﴿ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عندها وما كان منه﴾

في سنة ثمان وعشرين أيضا حصر التتر مراغة من اذربيجان ثم ملكوها بالامان وقتلوا في البلد الا أنهم لم يكثروا القتل واشتد خوف الناس منهم باذربيجان فلما رأى جلال الدين ما يفعله التتر باذربيجان ورأى ما هو عليه من الضعف والوهن فارق اذربيجان يريد الخليفة وملوك الاطراف ليعضدوه على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم فلم يشعر وهو بالقرب من آمد الا وقد كبس التتر ليلا وخالطوا مخيمه فهرب جلال الدين ثم لم يزل يتنقل في الهرب من موضع الى موضع وهو بغاية الذل بعد ذلك العز الى أن دخل قرية من قرى ميافارقين فلحقته التتر في تلك القرية فهرب الى جبل هناك فيه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وشلحوه وأرادوا قتله فقال جلال الدين لاحدهم اني أنا السلطان فاستبقني أجعلك ملكا فجعله الكردي عند امرأته ومضى الى الجبل فحضر كردي آخر معه حربة فقال للمرأة لم لا تقتلون هذا الخوارزمي فقالت المرأة قد أمنه زوجي فقال الكردي انه السلطان وكان قد قتل كاخا بخلاط خيرا منه وضربه بالحربة فقتله وكان ذلك منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة فسبحان من لا يزول ملكه وفي ذلك عبرة لاولى الابصار* ومما ينبغي ان يذكر في هذه الاخبار العجيبة الدالة على كمال قدرة الله تعالى وانه يتصرف في عباده كيف يشاء قصة الصناديق التي كانت لابيه محمد خوارزم شاه وذلك ان خوارزم شاه لما هرب من التتر كما تقدم تفصيل ذلك والتتر تتبعه نزل لما وصل عراق العجم عند بسطام وأحضر خوارزم شاه كاتبا كان معه عشرة صناديق ثم قال انها كلها جواهر لا تعلم قيمتها ثم أشار الى صندوقين منها وقال ان فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الارض بجملتها ثم أمر بحمل العشرة الصناديق الى قلعة ازدهن وهي من أحصن قلاع الارض وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة فلما استولى جنكز خان على تلك البلاد حملت اليه الصناديق بختومها فأخذ جميع ما فيها ولم ينتفع خوارزم شاه الذي جمعها بشئ منها وقد تقدم أنه مات في مهربه ذلك قال ابن الاثير فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولما دخل التتر ديار بكر والجزيرة يطلبون جلال الدين وقع منهم من الفساد والنهب والقتل والتخريب شئ كثير ونهبوا سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة اسعرد فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتر الامان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم الا من اختفى وقليل ما هم قال ابن الاثير وحكي لي بعض

التجار وكان قد وصل من آمد أنهم حزروا القتلى فكانوا يزيدون على خمسة عشر الف قتيل وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ الى قولها فمشت معه قليلا فقتلا جميعا وورثها ابن اخ الام فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما وان مدة الحصار كانت خمسة أيام ثم ساروا منها الى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وساروا من طنزة الى وادي القريشية وكان فيه طائفة من الاكراد وفيه مياه جارية و بساتين والطريق اليه ضيق فقاتلهم الاكراد فمنعوهم منه وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا الى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين بقلعة ماردين ثم وصلوا الى نصيبين والجزيرة ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا الى سنجار ووصلوا الى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا الى الخابور فوصلوا الى عرابان فنهبوا وقتلوا ومضى طائفة منهم الى الموصل فوصلوا الى قرية تسمى المونسة من الموصل فنهبوها واحتمى أهلها بخان فيها فقتلوا كل من فيه قال ابن الاثير وحكى لي عن رجل منهم انه قال اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي وكنت أراهم في نافذة في البيت فكانوا اذا أرادوا قتل انسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم ويقولون لا بالله ومضى نصف طائفة منهم الى نصيبين الروم فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا الى آمد ثم الى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة قال ابن الاثير وحكى لي انسان من أهلها قال ولو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لان الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم ساروا من بدليس الى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهي من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة ارجيش من أعمال خلاط وهي مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا في ذي الحجة من سنة ثمان وعشرين وستمائة قال ابن الاثير ولقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده الى ذلك الفارس ولقد بلغني ان انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح فوضع رأسه على الارض ومضى التتري فأحضر سيفا فقتله به وحكى لي رجل قال كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا مقالا يأمر نافيه ان يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله

ماجسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وامثال هذا كثيرة فهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه مايقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد العدو عنهم * والعجب ان هذا العدو فعلوا هذه الافعال فى هذه المرة وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف في وجوههم فارس فسبحان من بيده ملكوت كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا يسئل عما يفعل وهم يسألون * ولما وصل التتر بلاد اذربيجان أطاعهم أهلها جميعا وحملوا اليهم الاموال والثياب الخطائي والخوبي والعتابي وغير ذلك * وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم الي آمد من التتر تفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وأربل وخلاط مافعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف في وجوههم فارس وملوك الاسلام منحجزون في الاثقاب وانضاف الي هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له فى ذلك الوقت خبر ولا علموا له حالا سقط في أيديهم وأذعنوا التتر بالطاعة وحملوا اليهم ماطلبوا من الاموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التى هي أصل بلاد اذربيجان ومرجع الجميع اليها والى من بها فان ملك التتر نزل في عساكره بالقرب منها وأرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته ويتهددهم ان امتنعوا عليه فأرسلوا اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الابريسم وغيرها وكل شيء حتى الخمر وبذلوا له الطاعة فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدمهم عنده فقصده قاضي البلد ورئيسه وجماعة من أعيان أهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائي وهو الذى يرجع الجميع اليه الا انه لا يظهر شيأ من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائي فقالوا انه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الاصل فسكت ثم طلب ان يحضروا عنده من صناع الثياب الخطائي وغيرها يستعمل للملكهم الاعظم فان هذا هو من أتباع ذلك الملك فأحضروا الصناع فاستعملهم في الذي أرادوه وزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاه أي خيمة للملكهم أيضا فعملوا له خركاه لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الاطلس الجيد المزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيأ كثيرا ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم الي ديوان الخلافة والي جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون جلال الدين بن خوارزم شاه قال ابن الاثير ولقد وقفت علي كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل الي الموصل وأقام بها هو ورفقاءه ثم سافر الي الرى في العام الماضي قبل خروج التتر فلما وصل التتر الي الري أطاعهم أهلها وساروا الى أذربيجان سار هو معهم الي تبريز فكتب الي أصحابه بالموصل يقول أن الكافر لعنه الله ما قدر نصفه ولا كثرة جموعه حتي لا تنقطع قلوب المسلمين فان الامر عظيم ولا تظنون ان هذه الطائفة التي وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التى وصلت الي اربل ودقوقا كان قصدهم النهب انما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا

أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وان البلاد خالية من ذلك ومن العساكر فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما بقي عندكم مقام الاان كان في بلد الغرب فان عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وعشرين وستمائة كان انتهاء مافي الكامل تاريخ ابن الاثير وكانت وفاته سنة ثلاثين وستمائة وهو الامام عز الدين علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري ولد بجزيرة ابن عمر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ثم سار الى الموصل وسمع من كثير من الاشياخ المقيمين بالموصل ثم رحل الى بغداد ثم الى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ثم عاد الى الموصل وانقطع في بيته عاكفا على العلم تعليما وتصنيفا وكان اماما في علم الحديث حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة خبيرا بأنساب العرب وأخبارهم وله تصانيف كثيرة منها أسد الغابة في اخبار الصحابة وهو كتاب جليل ومنها التاريخ الكبير المسمى بالكامل وله غير ذلك ومن تلامذته الذين أخذوا عنه ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور ونسبت الجزيرة الى ابن عمر قيل هو رجل من أهل برقعيد من اعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بني هذه المدينة فاضيفت اليه ثم ان العساكر الخوارزميه الذين كانوا عند جلال الدين تفرقوا في ديار بكر والموصل وحلب وأكثروا العيث والفساد وفعلوا امثل أفعال التتر من الزنا والفواحش والقتل وكذلك التتر أكثروا العيث والفساد فيما استولوا عليه من البلاد ولم يزل يشتد بالمسلمين وشرح ماجرى في تلك السنين من الخوارزمية والتتر يطول والقصد الاختصار *وفي سنة احدى وأربعين وستمائة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو السلجوقي صاحب بلاد الروم فارسل واستنجد بالحلبيين فأرسلوا اليه نجدة مع ناصح الدين الفارس وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة وقتل التتر منهم خلقا كثيرا وأسروا كثيرا وتحكمت التتر في البلاد واستولوا أيضا على خلاط وآمد وهرب غياث الدين كيخسرو الي بعض المعاقل ثم أرسل الى التتر وطلب الامان ودخل في طاعتهم وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ولم يكن للتتر بهم طاقة فولي التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل ثم لما قدر الله وأراد في الازل انه لابد من استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية قدر سبحانه وتعالى لذلك أسبابا وجعل لذلك علامات ومقدمات أما الاسباب فأعظمها خروج المسلمين عن كمال الاستقامة وانهماكهم في المعاصي والشهوات وأما العلامات والمقدمات فقد أوجد الله في تلك السنين علامات ومقدمات كان الناس يظنون عند مشاهدتها ان القيامة تقوم في تلك السنين ثم تبين بعد ذلك انها مقدمات وعلامات لانقراض الدولة العباسية وضعف أهل الاسلام قال الجلال السيوطي في حسن المحاضرة كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات نبه

عليم العلماء منها أنه في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة هبت ريح عاصفة شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة فما سكنت الريح الا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ومكثت احدي وعشرين يوما ليس عليها كسوة وقال الحافظ عماد الدين بن كثير وكان هذا فألا على زوال دولة بني العباس ومنذرا بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى ومنها قال ابن كثير في سنة سبع وأربعين طغي الماء ببغداد حتي أتلف شيأ كثيرا من المحال والدور الشهيرة وتعذرت اقامة الجمعة بسبب ذلك وفي هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقا من المسلمين وفي سنة خمسين وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار فيقال ان الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصدا وفي سنة اثنتين وخمسين ظهرت نار في أرض عدن في بعض جبالها بحيث انه يطير شررها الى البحر في الليل ويصعد منها دخان عظيم في أثناء النهار فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد وشرعوا في أفعال الخير والصدقات وفي سنة أربع وخمسين زادت دجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من أهل بغداد ومات خلق تحت الهدم وركب الناس المراكب واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ودخل الماء من أسوار البلد وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون دارا وانهدم مخزن الخليفة يعني موضع خزانة أموال المسلمين وهلك شئ كثير من خزانة السلاح قال السبكي في الطبقات وكان ذلك من جملة الامور التي هي مقدمة لواقعة التتار وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل جمادي الآخرة وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة وأقام على هذه الحالة يومين فلما كان ليلة الاربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة رجفت منها الارض والحيطان واضطرب المنبر الشريف واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة الي يوم الجمعة خامس الشهر فظهر من الحرة نار عظيمة وسالت اودية منها سيل الماء وسالت الجبال نارا وسارت نحو طريق الحاج العراقى فوقفت وأخذت تأكل الارض أكلا ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل الي ضحوة واستغاث الناس بنبيهم صلى الله عليه وسلم وأقلعوا عن المعاصي واستمرت النار فوق الشهر وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر وكسفت الشمس في غدوة وبقيت أياما متغيرة اللون ضعيفة النور واشتد فزع الناس وصعد علماء البلد الي الامير يعظونه فطرح المكس ورد على الناس ما كان تحت يده من أموالهم ولما جاء النجاب الى بغداد بخبر هذه النار قال له الوزير الى اى الجهات ترمي شررها قال الى جهة الشرق وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق المسجد الشريف النبوي ابتداء حريقه من زاويته الغربية من الشمال وكان قد دخل أحد خدمة المسجد الي خزانة هناك ومعه نار فعلقت في الآلات واتصلت بالسقف بسرعة ثم دبت في السقوف فأعجلت النار عن قطعها فما كان الا ساعة حتى احترق سقوف المسجد أجمع ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة واحترق المنبر

الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب عليه وعدما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من الآيات وكانت كلها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات انتهى ماذكره الجلال السيوطي في حسن المحاضرة وذكر السيد السمهودي في خلاصة الوفا زيادة ايضاح لسبب ذلك الحريق فقال احترق المسجد النبوي ليلة الجمعة أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبي بكر بن أوحد الفراش الحاصل الذي في الزاوية الغربية الشمالية لاستخراج قناديل لمنائر المسجد وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل فيه مشلق فاشتعلت النار فيه وأعجزه طفؤها وعلقت ببسط وغيرها مما في الحاصل وعلا الالتهاب حتى علقت بالسقف بسرعة أخذت قبلة وأعجلت الناس عن اطفائها بعد ان نزل أمير المدينة واجتمع معه غالب أهلها فلم يقدروا على وطئها وما كان الا أقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد وما احتوى عليه من المنبر النبوي والابواب والخزائن والمقاصير والصناديق ولم يبق خشبة واحدة أي كاملة وكذا الكتب والمصاحف ووقع السقف الذي كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبي صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا في الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة ولم يكن في ذلك الزمن قبة على القبور المقدسة وانما كان سقف فقط وأول من جعل ذلك السقف قبة السلطان المنصور قلاوون الصالحي سنة ثمان وسبعين وستمائة فجعلت قبة صغيرة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤس السواري المحيطة بالحجرة الشريفة ولما كانت عمارة السلطان قايتباي للمسجد النبوي سنة سبع وثمانين وثمانمائة جعلت القبة المشرفة متناهية في العلو وجعلت من الآجر وأسس لها دعائم عظام بارض المسجد وقد بسط العلامة السمهودي في خلاصة الوفا الكلام على النار التي ظهرت بالحرم لانها من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم من حيث انه أخبر عنها قبل وقوعها فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تظهر نار وفي رواية للبخاري تخرج نار في أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصري وفي مسند الفردوس وكامل ابن عدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يسيل وادمن أودية الحجاز بالنار تضيء له أعناق الابل ببصري ثم أطال الكلام في بيان ذلك ثم قال قال النووي تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام وكانت في زمنه أي النووي وكان ابتداء ذلك زلزلة بالمدينة مستهل جمادي الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها واشتدت في يوم الثلاثاء وظهرت ظهورا عظيما ثم ليلة الاربعاء ثالث الشهر في الثلث الاخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جدا أشفق الناس منها واستمرت تزلزل بقية الليل ثم الى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد فتموج الارض وتتحرك الجدران حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثمان عشرة حركة ونقل عن أبي شامة عن القاشاني قال

تزلزلت الارض يوم الجمعة زلزلة عظيمة الي أن اضطربت منائر المسجد وسمع لسقفه صرير عظيم فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار فثار من محل ظهورها في الجو دخان متراكم غشى الافق سواده فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار فظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة المشرق وقال القرطبي وكانت تري على صفة البلد العظيمة عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومنائر ويري رجال يقودونها لا تمر على جبل الا دكته وأذابته ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد يأخذ الصخور بين يديه واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم فانتهت النار الى قرب المدينة ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر قال وقال لي بعض أصحابنا رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصري وقال القطب القسطلاني وكان موجودا في ذلك العصر وهو جد القسطلاني شارح البخاري ان ضوءها استولي علي ما بطن وظهر حتي كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران وصار نور الشمس علي الارض يعتريه صفرة ولونها هي يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف وقال أبو شامة انها رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ومن ينبع قال وأخبرني من أثق به ممن شاهدها بالمدينة انه بلغه انه كتب بتيماء علي ضوئها الكتب وتيما اسم موضع والشمس والقمر في مدتها ما يطلعان الا كاسفين قال أبو شامة وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور علي الحيطان وكنا حياري من ذلك الى أن بلغنا خبرها وقال القطب القسطلاني وقد أخبرني جماعة انهم شاهدوها من جبال ساية وجاء من أخبر أنه أبصرها بتيماء وبصرى شيء منهما مثل ما هي من المدينة في البعد وقال العماد بن كثير أخبرني قاضي القضاة صدر الدين الحنفي قال أخبرني والدي الشيخ صفي الدين مدرس مدرسة بصرى انه أخبره غير واحد من الاعراب صبيحة الليلة التي ظهرت فيها هذه النار انهم رأوا صفحات أعناق ابلهم في ضوء تلك النار فظهر أنها الموعود بها وتمت بذلك المعجزة لحصول ما أخبر به صلي الله عليه وسلم وأنارتها بتلك الاماكن البعيدة ليتم الانذار واختصاص ظهورها يوم الجمعة لا يخفي وكانت نعمة في صورة نقمة أي لانه نعمة من كونها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم دالة على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم وكانت أيضا سببا لتوبة الناس والتجائهم الى الله تعالي ونقمة من حيث الانذار والتخويف فوجلت القلوب منها واشفقت وأعتق أمير المدينة وهو عز الدين منيف بن شيحة جميع مماليكه ورد على الناس مظالمهم وأبطل المكس وهبط للنبي صلى الله عليه وسلم وبات في المسجد ليلة الجمعة والسبت ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار وأهل النخل يتضرعون ويبكون كاشفين رؤسهم مقرين بذنوبهم مستجيرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم فصرف الله تعالي عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال فمالت من وادي احيليين الى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر فطالت مدتها ليشتهر أمرها ويزجر عامة الخلق بها وعظم أمرها

ليشاهد منها شوان نار الآخرة وأرسل أمير المدينة عدة من الفرسان اليها لم تجسر الخيل علي القرب منها فترجل أصحاب الخيل وقربوا منها فذكروا أنها ترمي بشرر كالقصر ولم يظفر والجلية أمرها فجرد الامير عزمه لذلك فوصل منها الى قدر غلوتين بالحجر ولم يستطع أن يجاوزه وقفه من حرارة الارض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله مايتصاعد من اللهب فماين نارا كالجبال الراسيات والتلال المجتمعة السائرات تقذف بزبد الاحجار كالبحار المتلاطمة الامواج وعقد لهيبها فى الافق قتاما حتي ظن الظان ان الشمس والقمر كسفا اذ سلبا بهجة الاشراق في الآفاق وقال القطب القسطلاني انها لم تزل مارة علي سبيلها وهى تسحق ما والاها وتذيب مالاقاها من الشجر الاخضر والحصي وان طرفها الشرقي آخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت وان طرفها الشامى وهو الذى يلي الحرم اتصل بجبل يقال له عير على قرب من شرقي جبل احد ومضت في الشظاه التى فى طرفها وادى حمزة رضى الله عنه حتى استقرت تجاه حرم النبي صلى الله عليه وسلم فطفئت قال وأخبرني شخص أعتمد عليه أنه عاين حجرا ضخما من حجارة الحرم كان بعضه خارجا عن حد الحرم فعلقت بما خرج منه فلما وصلت الي ما دخل منه في الحرم طفئت وخمدت وقال أبو شامة ان سيل هذه النار انحدر مع وادي الشظاه حتي حاذى جبل احد وكادت النار تقارب حرة العريض ثم سكن قتيرها الذي يلي المدينة وطفئت مما يلي العريض ورجعت تسير فى المشرق وقال كثير من المؤرخين انها سالت سيلا ذريعا في واديكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهي تجرى على وجه الارض والصخر يذوب كما يذوب الرصاص ولم يزل يجتمع منه في آخر الوادى عند منتهي الحرم أى في المشرق حتي قطعت في وسط وادي الشظاه الى جهة جبل عير فسدت الوادى المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار قال السيد السمهودى وآثار ذلك السد موجودة اليوم هناك ويسمى المحبس وانقطع وادى الشظاه بسبب ذلك وصار السيل يتحبس خلف السد المذكور حتي يصير بحرا مد البصر عرضا وطولا وأما ما ذكره بعضهم من ان تلك النار ليس لها حر فلعل ذلك كان آخر أمرها فهذه الآيات كلها مقدمات لاخذ التتار بغداد وانقراض الدولة العباسية وظهور الضعف والخلل لاهل الاسلام وذكر الامام القرطبي في تذكرته ان هؤلاء التترهم الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله يقاتلونكم قوم صغار الاعين كان وجوههم المجان المطرقة يتبع الرعاء الدد وفي رواية عراض الوجوه ذلف الانوف غلاظها وأطال فى بيان روايات الحديث وقال ان هذا الامر الذى أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قد وقع كما أخبر ونقل مثل ذلك عن الحافظ ابن دحية وغيره وأطال في بيان ذلك والله سبحانه وتعالي أعلم

﴿ ذكر أخذ التتر بغداد وقتلهم الخليفة ﴾

قدتقدم ماتملكه التترمن ممالك الاسلام في السنين المتقدمة وصاروا بعد ذلك يدبرون الامر في أخذ بغداد ويتخوفون من كثرة العساكر الموجودة عند الخليفة وعزموا على أخذها في سنة ثلاث وأربعين وستمائة فانهزمت عساكرهم وضعف عزمهم ولما كان أخذهم اياها مقدرا في علم الله تعالى محدودا بأيام مخصوصة سهل لهم الاسباب التي توصلهم الى ذلك عند مجيء وقته فمن ذلك ان وزير الخليفة كان رافضيا ويحب نقل الخلافة من بني العباس الى العلويين وسولت له نفسه ان ذلك يسهل اذا قويت شوكة التتر وأنه يعقد معهم صلحا وينقل الخلافة للعلويين على زعمه فصار يكاتب التتار ويظهر لهم أنه يحب استيلاءهم وان أمر المسلمين يكون تابعا لامرهم وكان الخليفة المستعصم بالله مفوضا أمور الخلافة الى الوزير المذكور فينقاد له ويقبل اشارته ويصغي لما يقول مع ان الخليفة المذكور كان صحيح العقيدة يعتقد مذهب أهل السنة ويميل الى الخير والصلاح ويحب أهل الخير والصلاح لكنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك مهملا للامور المهمة محبا لجمع المال فأهمل أمر التتار وانقاد الى وزيره محمد بن محمد بن العلقمي حتى كان في ذلك هلاكه وهلاك الرعية فان ابن العلقمي كتب كتابا الى هلاكو ملك التتر وهو ابن طولي بن جنكز خان أنك تحضر الى بغداد وأنا أسلمها لك وكان من جملة الاسباب التي حملته على ذلك وقوع فتنة في تلك الايام بين الرافضة وأهل السنة في بغداد أدت تلك الفتنة الى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة فغضب لذلك ابن العلقمي وجسر التتار على العراق ليتشفى من أهل السنة فلما كتب لملك التتر يحثه على الحضور كتب له ملك التتر ان عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقا فيما قلته وداخلا في طاعتنا فرق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه الى الوزير دخل على الخليفة المستعصم وقال له ان جندك كثيرة وكانوا أكثر من مائة الف وعليك كلفة كثيرة والعدو قد رجع والصواب أنك تعطي دستور الخمسة عشر الفا من العساكر ليتوفر معلومهم فأجابه المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسمهم من دفتر الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الاولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان ثم كتب الى ملك التتر بما فعل وكان تدبير الوزير أن التتر اذا قدموا بغداد يقتلون الخليفة ويضعفون شوكة بني العباس ثم يعودون الى سبيلهم فيبقى هو على ماهو عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع ثم يضع السيف في أهل السنة هكذا كان قصده ولما بلغ ملك التتر مافعل الوزير ابن العلقمي من محو العساكر واضعاف أمر الخلافة سار بجيوشه في أول سنة ست وخمسين وستمائة ومعه أيضا الكرج وعسكر الموصل وخلائق لايحصون وقصد بغداد ونزل عليها وصار الخليفة المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب التتر وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال التتر وخرجوا الى ظاهر بغداد وقاتلوا التتر قتالا عظيما وكثرت الجراحات والقتلى في الفريقين الى ان

نصر الله عساكر بغداد وانكسر التتر أقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالاسرى ورؤس القتلى الى ظهر بغداد ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدو وانهزامه فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط الدجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيلهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرسا يركبها وأرسل الوزير الى ملك التتر يعرفه بما فعل ويأمره بالرجوع الى بغداد فرجع بعساكره الى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردهم فلما أصبحوا خرج لهم طائفة من عسكر المسلمين وعليهم الدويدار فالتقوا مع طلائع التتر فانهزم المسلمون لقلتهم وأحاطت عساكر التتر ببغداد فقال الوزير ابن العلقمي للخليفة المستعصم بالله انى أخرج الي تلافى هذا الامر واعقد الصلح واقرره فأذن له في ذلك فخرج وتوثق لنفسه ورجع وأخبر الخليفة ان ملك التتر رغب أن يزوج بنته بابنك وان تكون الطاعة له كما كانت للملوك السلجوقية ويرحل عنك فخرج المستعصم في أعيان دولته وأعيان العلماء واكابر أهل الوقت ليحضروا العقد فلما حضروا اخذ ملك التتر أمر بالقبض عليهم وضربت أعناقهم وقتلوا الخليفة بوضعه وولده في عدلين وأمر التتار برفسهما الى ان ماتا وقيل أغرقهما ودخلت التتر بغداد واقتسموها وكل أخذ ناحية وبقي السيف يعمل أربعة وثلاثين يوما وقل من سلم ولم يرحموا شيخا كبيرا لكبره ولا صغيرا لصغره ولا عالما لعلمه ونهبت دار الخلافة ومدينة بغداد حتى لم يبق فيها الا ماقل ولا ماجل ثم أحرقت بغداد بعدان قتل أكثر أهلها قيل ان عدة من قتل يزيد على ألفي ألف وثلاثين ألف انسان ثم نادوا بالامان وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم هذا وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاثة سنين ونصف سنة وكانت مدة خلافة المستعصم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وعمره نحو سبع وار بعين سنة وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد فلم يلبث أن أمسكه ملك التتر بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها انه لم يكن له خير في مخدومه ولا في دينه فكيف يكون له خير في ملك التتر ثم انه قتله شر قتلة قيل ان ابن العلقمي بعد قتل المستعصم وقبل قتله هو بقي يركب اكديشا فنادته عجوز يا ابن العلقمي أهكذا كنت تركب في أيام المستعصم فلم يجبها وكان بعد أن قتل الخليفة يظن ان رياسته تبقى له فأبقوه له أياما الي ان قتلوه قيل انه في تلك الايام التي أبقوا له الرياسة فيها بعد قتل الخليفة دخل عليه بعض التتر ممن ليس له وجاهة راكبا فرسه فسار الي ان وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد وبال الفرس على بساط الوزير وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ولما انعكست عليه الامور ندم حيث لا ينفعه الندم وكان يقول بعد ذلك وجرى القضاء بعكس ما أملته لانه عومل بأنواع الهوان من اراذل التتار والمرتدة وقال له بعض أهل بغداد يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قتل من الاشراف الفاطميين

ما لا يحصى وكان دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم في العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة وبقي الوزير ابن العلقمي الى أوائل المحرم سنة سبع وخمسين فتكون المدة التي بقي فيها بعد قتل الخليفة سنة واحدة وقيل انما مكث بعد قتل الخليفة أياما قلائل وان التتر لم يقتلوه وانما مات غما وكمدا لما انعكست عليه الامور وعض يده ندما وفي تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدين يوسف ابن البقال أحد الزهاد وقال كنت بمصر فبلغني ما وقع ببغداد من القتل الذريع فأنكرته بقلبي وقلت يارب كيف هذا وفيهم أطفال ومن لا ذنب له فرأيت في المنام رجلا وفي يده كتاب فأخذته فاذا فيه

دع الاعتراض فما الامر لك * ولا الحكم في حركات الفلك

ولا تسأل الله عن فعله * فمن خاض لجة بحر هلك

قال الجلال السيوطي في حسن المحاضرة بعد ذكره ذلك قلت أجرى الله عادته ان العامة اذا زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية في أثر آية فان لم ينجع ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا ثم قال الجلال وقد وقع في هذه السنين ما يشبه الآيات الواقعة في مقدمات واقعة التتار وأنا خائف من عقبى ذلك فاللهم سلم سلم انتهى واذا كان هذا في زمانه وهو القرن التاسع فما بالك بزماننا وهو القرن الرابع عشر فنسأل الله السلامة وحسن الاستقامة فقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في بعض خطبه والله لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها

﴿ فائدتان ﴾

* الاولى استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد قد جاء الاخبار به قبل وقوعه مأثورا عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فانه كان يقول ان الخلافة تصير الى ولده حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال والظاهر ان مثل هذا الخبر لا يقال بالرأي ولا بالحدس والتخمين وانما يكون بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم فيكون الاخبار بذلك قبل وقوعه من معجزاته صلى الله عليه وسلم وهذا الذي ذكرناه مأثورا عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ذكره كثير من المؤرخين منهم الملك المؤيد صاحب حماه في تاريخه وكذلك ابن الوردي وغيرهما وعبارة ابن الوردي بلغ بعض خلفاء بني أمية عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما انه يقول ان الخلافة تصير الى ولده فأمر الاموي بعلي بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفتري ويقول ان الخلافة تكون في ولده فكان علي بن عبد الله يقول أي والله لتكونن الخلافة في ولدي ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال والعلج المذكور هلاكو وفي تاريخ ابن خلكان ان الاموي الذي أمر بضربه وحمله على جمل هو الوليد بن عبد الملك ثم قال ابن الوردي قلت قال ابن خلكان في تاريخه ان عليا رضي الله عنه افتقد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يوما وقت صلاة الظهر فقال لاصحابه

مابال أبي العباس لم يحضر الظهر فقالوا ولد له مولود فلما صلى علي رضي الله عنه قال امضوا بنا اليه فأتاه فهناه فقال شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ماسميته فقال أو يجوز ان أسميه حتى تسميه فأمر به فأخرج اليه فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده اليه وقال خذ اليك أبا الأملاك قد سميته عليا وكنيته أبا الحسن ودخل علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يوما علي هشام بن عبد الملك ومعه ابنا ابنه محمد وهما السفاح والمنصور ابنا محمد بن علي المذكور فأوسع له هشام علي سريره وسأله عن حاجته فقال ثلاثون ألف درهم علي دين فأمر بقضائها ثم قال علي لهشام وتستوصي بابني هذين خيرا ففعل فشكره وقال وصلت الرحم فلما ولى علي بن عبد الله بن عباس قال هشام لاصحابه ان هذا الشيخ قد اختل وأسن وخلط فصار يقول ان هذا الامر سينتقل الى ولده فبلغ ذلك علي بن عبد الله بن عباس فقال والله ليكونن ذلك وليملكن هذان يعني السفاح والمنصور فكان الامر كذلك وكان علي بن عبد الله هذا عظيم المحل عند أهل الحجاز وكان يلقب بالسجاد كان يصلي كل يوم الف ركعة لانه كان له خمسمائة أصل زيتون يصلي في كل يوم الى كل أصل ركعتين وكان أجمل قرشي علي وجه الارض وأوسمهم وكان اذا قدم مكة حاجا أو معتمرا عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلسه اعظاما واجلالا وتبجيلا له فان قعد قعدوا وان نهض نهضوا وان مشي مشوا خلفه وحوله ولا يزالون كذلك حتي يخرج من الحرم وكان اذا طاف كان الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله وكان مع هذا الطول يكون الى منكب أبيه عبد الله وكان عبد الله الي منكب أبيه العباس وكان العباس الي منكب أبيه عبد المطلب نظرت عجوز الي علي بن عبد الله بن عباس وهو يطوف فقالت من هذا الذي فرع الناس (فرع) بالعين المهملة أي علا عليهم فقيل لها علي بن عبد الله بن عباس فقالت (لا اله الا الله) ان الناس ليرذلون عهدي بالعباس يطوف بهذا البيت كانه فسطاط أبيض وذكر هذا كله المبرد في الكامل وذكر ان العباس كان عظيم الصوت وجاءتهم مرة غارة وقت الصباح فصاح واصباحاه فلم تسمعه حامل في الحي الا وضعت والله سبحانه وتعالى أعلم اه وتوفي علي بن عبد الله المذكور سنة سبع عشرة ومائة وعمره ثمانون سنة وكانت مدة خلافة بني العباس خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة لان ابتداء دولتهم سنة اثنتين وثلاثين ومائة وانتهاؤها سنة ست وخمسين وستمائة وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة فسبحان الملك الحق الذي لا يزول ملكه وهو الباقي بعد فناء خلقه

﴿ الفائدة الثانية ﴾

أول خلفاء بني حرب بن أمية معاوية رضي الله عنه وآخرهم معاوية وأول خلفاء بني الحكم مروان ابن الحكم وآخرهم مروان بن محمد وأول خلفاء بني العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المستعصم واول ملوك بني الاحمر الذين تداولوا ملك الاندلس في آخر المدة محمد بن يوسف بن نصر

ميافارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب فحاصره التتر وضايقوا ميافارقين مضايقة شديدة وصبر أهل ميافارقين مع الملك الكامل على الجوع الشديد ودام ذلك سنتين حتى عجزوا وسلموا فملك ميافارقين والبلاد والجزيرة وسير هلاكو جيوشه الى حلب والديار الشامية وارتجت الارض منهم وتزلزلت الناس في جميع الارض وسار في سنة سبع وخمسين الى خدمة هلاكو عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان ابنا كيخسرو السلجوقي صاحب الروم وأقاما معه مدة ثم عادا الى بلادهما وكذلك صانع هلاكو بدر الدين لولو صاحب الموصل وحمل اليه الاموال ووصل الى خدمة هلاكو بعد أخذ بغداد وفي سنة سبع وخمسين أيضا نازل هلاكو شرقي الفرات وحران وملكهما وأرسل ولده سموط بن هلاكو الى الشام فوصل الى ظاهر حلب في أواخر ذي الحجة من سنة سبع وخمسين وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج وأكمن لهم التتر عند الباب المعروف بباب الله وتقاتلوا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون وخرج كمين التتر فطلب المسلمون دخول حلب هاربين والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر الى اعزاز فتسلموها بالامان وفي تاسع صفر من سنة ثمان وخمسين استولت التتر على حلب وذلك ان هلاكو حصرها بجيوشه الى أن ملكوها وقتل من المسلمين خلق كثير وصعد الى القلعة خلق ودام القتل والنهب نحو أسبوع ثم نادى هلاكو بالامان ولم يسلم من القتال الا جماعة كانت بأيديهم فرمانات بالامان من التتر ولما افتتحت حلب وصل كبراء حماة الى حلب بمفاتيح حماه وحملوها الى هلاكو فأمنهم وأرسل اليهم بشحنة والشحنة بالكسر ضابط البلد وفي الفارسي بالفتح ولما بلغ الناصر وهو بدمشق أخذ حلب رحل بمسا كره الى الديار المصريه ومعه المنصور صاحب حماة ثم وصل التتر الى نابلس واستولوا عليها ثم استولوا على دمشق وسائر الشام الى غزة وشحنوا البلاد وقدم على هلاكو صاحب حمص فقبله وأعادها اليه ثم رحل هلاكو الى حارم فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب فاحضر وسلمت اليه فغضب هلاكو وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبي النساء ثم عاد هلاكو الى الشرق وتقدم ان ميافارقين ملكوها بعد محاصرتها سنتين وصاحبها الكامل محمد بن المظفر غازي مصابر ثابت حتى ضعف من عنده عن القتال فاستولوا عليها في هذا الوقت وقتلوه وطافوا برأسه في البلاد بالمغاني والطبول وعلق رأسه بباب الفراديس من أبواب دمشق فلما عادت دمشق للمسلمين دفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس وأما دمشق فملكوا المدينة بالامان فما نهبوا ولا قتلوا وعصت

قلعتها فنصبوا عليها المجانيق ثم تسلموها بالامان ونهبوا ما فيها وخربوا سور القلعة وأحرقوا آلاتها و زردخاناتها ثم نازلوا قلعة بعلبك ثم ملكوها وخربوا قلعتها وكانوا اعتقلوا نقيب قلعة دمشق ووالیها ثم بعد شهرين ضربوا أعناقهما ثم ان العساكر الاسلامية اجتمعت بمصر وسار بهم الملك المظفر قطز مالك مصر يريدون الشام لقتال التتر وبلغ ذلك كتبغا نائب هلاكو على الشام فجمع من الشام من التتر وسار الى قتال المسلمين فالتقوا عند عين جالوت واقتتلوا فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا وقدر الله كمال النصر للمسلمين بهذه الهزيمة واسترجع المسلمون دمشق وغيرها مما ملكوه من الديار الشامية بعد حصول اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكرا الا هزموه وكان النصر والفتح العظيم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ولما أراد الملك قطز أن يتجهز من مصر للخروج لقتال التتر بالشام أراد أن يأخذ من الناس شيأ من المال يستعين به على قتالهم فجمع العلماء فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى في بيت المال شيء وتبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات و يقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا في ذلك هم والعامة وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الاموال والآلات الفاخرة فلا ذكره في حسن المحاضرة للجلال السيوطي وذكر أيضا عن الامام النووي أنه أفتى السلطان بيبرس المتولي بعد قطز بمثل ما أفتى به العز بن عبد السلام وأرسل له الفتوي من الشام ونص المقصود من ذلك ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع أو غير ذلك قال وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا قال الجلال السيوطي ولما أراد السلطان الظاهر بيبرس الخروج الى الشام لقتال التتر أخذ فتاوي العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال هل بقي أحد فقيل نعم بقي الشيخ محيي الدين النووى فطلبه فحضر فقال اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع فقال ما سبب امتناعك فقال أنا أعرف انك كنت في الرق للامير بندقدار وليس لك مال ثم من الله عليك وجعلك ملكا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلي فاذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا عن الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب السلطان الظاهر بيبرس من كلامه وقال اخرج من بلدي يعني دمشق فقال السمع والطاعة وخرج الى نوى فقال الفقهاء ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فاعده الى دمشق فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال

لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر قال الحافظ الذهبي كان الظاهر بيبرس خليقاً للملك لولا ما كان فيه من الظلم قال والله يرحمه ويغفر له فان له أياما بيضا في الاسلام ومواقف مشهودة وفتوحات معدودة وقال أيضا في حسن المحاضرة في موضع آخر وكان في الظاهر بيبرس محاسن وغيرها وظلم أهل الشام غير مرة وأفتاه جماعة بموافقة هواه فقام الشيخ محيي الدين النووي في وجهه وأنكر عليه وقال أفتوك بالباطل وكان بمصر منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع ان يخرج عن أمره حتى انه قال لما مات الشيخ عز الدين ما استقر ملكي الا الآن ومن محاسنه ما حكاه ابن كثير في تاريخه انه حضر الى دار العدل في محاكمة في بئر بين يدي القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز فقام الناس له لما جاء سوي القاضي فانه أشار اليه ان لا يقوم فقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة به فانتزعت البئر من يد الغريم وهو احد الامراء * ومن محاسن الظاهر بيبرس انه أكمل عمارة المسجد النبوي من الحريق المتقدم ذكره وصنع منبرا للمسجد النبوي وحج في سنة سبع وستين فغسل الكعبة بيده بماء الورد وزار المدينة الشريفة فرأى الناس يلتصقون بالقبر فقاس ما حوله بيده وارسل في العام الذي يليه درابزين من خشب فأدير حول القبر الشريف

﴿ ذكر عود التتر الى الشام ﴾

لما وصل الخبر الى التتر بانهزام عساكرهم من الشام وخروجه من تحت أيديهم جهز واجيشا من سنتهم تلك ووصلوا الى حلب في آخر السنة اعني سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وبذلوا السيف في اهلها فأفنوا اغالبهم وسلم القليل منهم واجتمع كثير من عساكر الاسلام بحمص وسار اليهم التتر فالتقوا بظاهر حمص خامس المحرم من سنة تسع وخمسين وستمائة وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير ففتح الله على المسلمين بالنصر وولي التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤا وسار من سلم من التتر الى أفامية فقاتلهم المسلمون عندها فرحلوا وتوجهوا الى الشرق

﴿ مبايعة شخص بالخلافة واثبات نسبه ﴾

في شهر رجب من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستمائة قدم شخص الى مصر من بني العباس الذين سلموا في بغداد من قتل التتر واسمه أحمد بن الظاهر بن الناصر فعقد وا له مجلسا بمصر حضره العز بن عبد السلام وغيره من العلماء والسلطان الظاهر بيبرس وأثبتوا نسبه وعلى هذا يكون عم المستعصم وجاء جماعة من العرب العارفين به فشهدوا بنسبه فبايعه الملك السلطان بيبرس والعلماء والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بأمره واحتفل به وجهز معه عساكر كثيرة ووجههم لقتال

التتر طمعا أنه يستولى على بغداد ثم جاءت الكتب منه انه استولى وعساكره على عانة والحديثة وان كتب أهل العراق وصلت اليه يستحثونه على الوصول اليهم ثم قبل أن يصل الى بغداد وصلت اليه التتر وقاتلوا الخليفة المذكور وقتلوه وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم وجاءت الاخبار الى مصر بذلك فى آخر السنة المذكورة وفى آخر سنة ستين من ذي الحجة حضر أيضا شخص آخر من بنى العباس الذين سلموا من قتل التتر اسمه أيضا أحمد بن حسن بن أبي بكر بن على بن حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر فاثبتوا نسبه وبايعه السلطان بيبرس والعلماء ولقبوه الحاكم بأمر الله وأشركه السلطان في الدعاء لاغير وبقى عقبه بمصر يبايعهم السلاطين وليس بيده من الملك والتصرف شئ بل الامر بيد السلاطين المتملكين مصر واستمر ذلك الى دخول السلطان سليم مصر سنة تسعمائة واثنين وعشرين وفي سنة احدى وستين وستمائة جهز الملك الظاهر عساكره من مصر وأغاروا على عكا وأعمالها وهي بيد الفرنج فغنموا وعادوا ثم ركب الملك الظاهر بنفسه ومعه جماعة اختارهم وأغار ثانيا على عكا وبلادها وهدم برجا كان خارج البلد وهدم الكنيسة المسماة بالناصرة وكانت من أكبر مواطن عبادات النصارى لان منها خرج دين النصرانية وتوجه عسكر كثير الى أنطاكية وبلادها وهي أيضا بيد الفرنج فساروا اليها وأغاروا على أطرافها وضايقوها وعادوا ومعهم ماينوف عن ثلثمائة أسير وفى سنة ثلاث وستين سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره المتوافرة الى جهاد الفرنج بساحل الشام ونازل قيسارية وضايقها وفتحها بعد ستة أيام وأمر بها فهدمت ثم سار الى ارسوف وفتحها وفى سنة أربع وستين سار من مصر بعساكره المتوافرة الى الشام وجهز عسكره الى ساحل طرابلس الشام وكانت بيد الفرنج ففتحوا القليعات وعرقة ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ولاصق جند القلعة وكثر القتل والجراح في المسلمين ثم فتحها وقتل أهلها عن آخرهم ثم بعث كثيرا من العسكر الى بلاد سيس يقتلون ويأسرون كيف شاؤا وفي سنة ثلاث وستين هلك هلاكو بن طولي بن جنكزخان واستقر ولده أبغا على ما كان بيده من الممالك واستمر الى سنة احدى وثمانين وهلك واستقر بعده أخوه تكدار بن هلاكو ثم أسلم وتسمى أحمد وخاطب بذلك الملوك الكثيرة في عصره وأرسل الى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة وصار يأمر التتر بالاسلام فثار لذلك فتنة بين التتر مع بعضهم الى أن قتلوا أحمد المذكور سنة اثنتين وثمانين وستمائة وتملك أرغون بن ابغا وعدل عن دين الاسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الاصنام وانتحال السحر والرياضة وأصابه داء الصرع وهلك سنة تسعين وتملك كنجختون بن أبغا الى سنة ثلاث وتسعين فقتل وتملك بيدو بن طرغاي بن هلاكو وقتل سنة خمس وتسعين وتملك قزان بن أرغون بن ابغا بن هلاكو سنة ثلاث

وسبعمائة فولي بعده أخوه خربندبن ارغو وابتدأ أمره بالدخول في الاسلام وتسمي بمحمد وتلقب غياث الدين ثم صحب الروافض وساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ونقش أسماء الأئمة الاثنى عشر على سكته ثم أنشأ مدينة بين قزوين وهمذان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتا لطيفا بلبن من الذهب والفضة وأنشأ بازائها بستانا جعل فيه أشجار الذهب يثمر اللؤلؤ والفصوص وأجرى اللبن والعسل أنهارا وأسكن به الغلمان والجواري تشبيها له بالجنة وأفحش في التعرض لحرمات قومه وهلك مسموما سنة ست عشرة وسبعمائة وخلف ابنه أباسعيد طفلا ابن ثلاث عشرة سنة فبويع له وأظهر الاسلام واستقامت الامور بواسطة وزير لابيه يسمى جوبان واستمر أبو سعيد الى أن مات سنة ست وثلاثين وسبعمائة وكان قد انعقد صلح بينه وبين مالك مصر الملك الناصر قلاوون سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وحج الاكابر من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقين واتصلت المهاداة بينه وبين الملك الناصر ولما مات أبو سعيد لم يعقب واختلف أهل دولته وانقرض الملك من بني هلاكو وافترقت الاعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في خراسان وفي عراق العجم وفارس واذربيجان وكذلك في بلاد الروم ولما هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين نصب امراء قومه الوزير غياث الدين والملك موسي خان من أسباطهم وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن يبقا بن املكان وهو ابن عمة السلطان أبي سعيد فتغلب وتمكن الشيخ حسن وصار الملك والحل والعقد بيده الي أن توفي سنة سبع وخمسين وسبعمائة فولي مكانه ولده أويس وتوفي سنة ست وسبعين وسبعمائة وتملك ابنه حسين بن أويس ثم تغلب عليه أخوه أحمد بن أويس وقبض عليه وقتله سنة احدي وثمانين وسبعمائة واستمر أحمد بن أويس الى سنة خمس وتسعين وسبعمائة فجاء تيمورلنك بجموعه وملك العراق وبغداد فقدم أحمد بن أويس على سلطان مصر السلطان برقوق مستجيرا به مستصرخا به على طلب ملكه وكان ذلك في ربيع سنة ست وتسعين وسبعمائة فأجاب صريخه ونادي في عسكره بالتجهيز وسيأتى اتمام الكلام على ذلك عند ذكر تيمورلنك وذكرنا ملوك التتر متتابعين الى آخرهم ليتصل الكلام بعضه * ولنرجع الى ذكر بقية فتوحات الملك الظاهر مع بقية محاربات التتر وملوك مصر بالشام

﴿ ذكر فتح يافا وانطاكية وعكا ﴾

في سنة ست وستين وستمائة توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوفرة الي الشام وفتح يافا وأخذها من الفرنج ثم توجه الي انطاكية ونازلها وشدد الحصار عليها الي أن ملكها بالسيف وقتل أهلها وسبي الذراري والنساء وغنم أموالا جليلة ثم توجه الي بغراس فملكها وفي سنة تسع وستين نازل حصن الاكراد الى ان ملكه ثم رحل الى حصن عكا ونازله وجد في قتاله الي ان

ملكه ثم توجه الى حصن القرين ونازله وملكه وفي سنة سبعين وستمائة أغارت التتر على عينتاب وعلى سروج وقيطون وانتهوا الى قرب أفامية ثم رجعوا ثم نازلوا البيرة ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها فسار اليهم الملك الظاهر بيبرس وأراد عبور الفرات الى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين وفي سنة ثلاث وسبعين توجه الملك الظاهر بيبرس الى بلاد سيس فدخلها بعساكره المتوافرة فغنموا ثم رجعوا الى دمشق وفي سنة أربع وسبعين وستمائة قصد التتر البيرة ونازلوها فتوجه اليهم الملك الظاهر بعساكره فلما سمعوا به ارتحلوا وفي سنة خمس وسبعين غزا الملك الظاهر بلاد الروم بعساكره المتوافرة والتقى في طريقه بجيش من التتر فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيرا منهم وقتل مقدمهم وأسر كثيرا منهم ثم سار الى قيسارية فملكها ثم سار الى عمق حارم بقتل ويأسر ثم عاد الى دمشق وفي سنة خمس وسبعين أيضا كان ابتداء عمل المحمل في مدة الملك الظاهر بيبرس يطوفون به في مصر قبل خروجه لترغيب الناس في الحج وتهييجهم ثم يسافرون به مع كثير من الحجاج من طريق البر وعند رجوعهم يزورون النبي صلى الله عليه وسلم وفي سنة ست وسبعين حج الملك الظاهر بنفسه وزار النبي صلى الله عليه وسلم وتصدق بصدقات كثيرة على أهل الحرمين وغسل الكعبة بيده بماء الورد ثم رجع ثم توفي في الثامن والعشرين من المحرم سنة سبع وستين وستمائة ومدة ملكه نحو سبع عشرة سنة وولي بعده ولده الملك السعيد بركة وخلع سنة ثمان وسبعين وولي ولده الآخر سلامش وخلع بعد شهرين وولي الملك المنصور قلاوون الصالحي وكل هؤلاء يقال لهم المماليك البحرية ويقال لدولتهم الدولة التركية والذين بعدهم يقال لهم الجراكسة الى أن تملك مصر السلطان سليم *والحاصل ان ملوك مصر بعد الفاطميين الملوك الايوبية وأولهم السلطان صلاح الدين وآخرهم الملك الاشرف موسى بن يوسف ابن الملك المسعود اقسيس ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب والملك العادل أخو السلطان صلاح الدين توارث الملك بنوه بعده الى سنة ثمان وأربعين وستمائة وكانوا استكثروا من المماليك البحرية فتغلبوا على الملك وصار فيهم بعد سادائهم وبقي الملك في المماليك البحرية مائة وستة وثلاثين سنة من سنة ثمان وأربعين وستمائة الى سنة أربع وثمانين وسبعمائة وعدد ملوكهم أربع وعشرون وكان لهم مماليك من الجراكسة فتغلبوا على الملك وأول ملوك المماليك البحرية عز الدين ايبك وآخرهم الملك الصالح شعبان بن الحسين بن الناصر قلاوون وملوك الجراكسة هم مماليك المماليك البحرية وأولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم قانصوه الغوري ومدة ملك الجراكسة مائة وثمان وثلاثون سنة من سنة أربع وثمانين وسبعمائة الى سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وعدد ملوكهم ثلاث وعشرون والسبب الجاري بتقدير الله تعالى لتملك المماليك البحرية أنه في آخر

الدولة الايوبية كان هجوم الفرنسيس على دمياط وتملكهم اياها وكان ملك مصر يومئذ الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد فمرض ومات وأوصي بالملك لولده توران شاه وكان غائبا في قلعة حصن كيفا وكانت زوجة الملك الصالح شجرة الدر أم ولده خليل مدبرة للامور فأخفت موت الملك الصالح وأقامت على ذلك مدة وهي قائمة بالامر والنهي الي أن حضر ولده توران شاه وقاتل الفرنسيس وهزمهم وقتل منهم أكثر من مائة ألف وأسر ملكهم كما تقدم ذلك كله ثم شرع في ابعاد مماليك أبيه واهانتهم وكانوا اهم الامراء فاتفقوا على قتله وقتلوه ثم اتفقوا على اعطاء السلطنة لشجرة الدر فكانت تعلم على المناشير ويدعى لها على المنابر فكان الخطيب يقول بعد الدعاء للخليفة واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح ويكتب اسمها على السكة ثمانين يوما وجعلت النائب عنها في الاحكام عز الدين ايبك وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ثم أطلقت ملك الفرنسيس بشروط كما تقدم ثم تزوجت بنائبها فجاءهم مكتوب من بغداد من الخليفة العباسي يوبخهم فيه على تمليك امرأة ويقول لهم ان لم يكن عندكم رجل نرسل اليكم رجلا يتولي عليكم فاتفقوا على أن يملكوا رجلا من بني أيوب فملكوا الملك الاشرف موسى المتقدم ذكره وكان صغيرا وأشركوا معه شجرة الدر ونائبها عز الدين ايبك ثم خلعوا الملك الاشرف وجعلوا السلطنة لعز الدين ايبك استقلالا ثم انه أراد أن يتزوج بنت ملك الموصل فشق ذلك على زوجته شجرة الدر فاتفقت مع الطواشي محسن الجوهري على قتل عز الدين ايبك فهجموا عليه في الحمام فقتلوه فلما سمع مماليكه بقتله عزموا على قتل شجرة الدر فسبقتهم زوجة عز الدين أم ولده فدخلت هي وجواريها على شجرة الدر فقتلوها بالقباقب وأقاموا في السلطنة نور الدين ولد عز الدين ايبك وعمره عشر سنين وجعلوا النائب عنه احد مماليك أبيه وهو الامير قطز ثم لما هجم التتر على الاقطار الشامية استحسن أهل الحل والعقد أن يخلع الملك الصغير نور الدين وان تكون السلطنة استقلالا للأمير قطز يستقل بتدبير الملك والقيام بقتال التتر فأقاموا قطز في السلطنة ولقبوه الملك المظفر وخلعوا نور الدين بن عز الدين ايبك ثم خرج الملك المظفر قطز بالعسكر الي الشام لقتال التتر فالتقى معهم عند عين جالوت من أرض كنعان فقاتلهم قتالا شديدا الي ان هزمهم وأسر منهم خلقا كثيرا وتعلق المنهزم منهم برؤس الجبال وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم وأسر ابنه وأرسل قطز خلفهم بيبرس ومعه عسكر فتبعهم الي أطراف البلاد وأتم المظفر قطز السير بالعساكر الى دمشق وتضاعف شكر العالم لله تعالى على هذا النصر العظيم من بعد اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام لأنهم ماقصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكرا الا هزموه وكان القتال مع التتر وهزيمتهم

يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة وفي يوم دخول قطز دمشق شنق جماعة من المسلمين المنتسبين للتتر ولما قرر قطز أمر الشام وحلب وغيرها سار من دمشق بالعساكر راجعا الى مصر وكان الامير بيبرس سأله أن يوليه حلب فامتنع فاتفق مع بعض الامراء الذين كانوا مع قطز على قتله وساروا معه من دمشق يترقبون الفرصة فلما وصل الى موضع بينه وبين الصالحية مرحلة وقد خرج النائب بمصر مع العساكر الذين بمصر لاستقبالهم من الصالحية فبينما الملك قطز سائر اذ ثارت أرنب بين يديه فساق جواده خلفها وساق معه بيبرس والذين تواطؤا معه على قتل قطز وأبعدوا عن العساكر السائرة معهم ثم وقفوا فتقدم واحد منهم وشفع عند قطز في انسان فأجابه الى ذلك فأهوى ليقبل يديه وقبض عليها فحمل عليه بيبرس وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه وكان ذلك سابع ذي القعدة من السنة المذكورة ثم سار بيبرس ومن معه حتى وصلوا الصالحية فوجدوا العساكر التي خرجت من مصر لاستقبالهم ومعهم نائب السلطنة فارس الدين أقطاي ينتظرون قدوم الملك قطز فلما علم نائب السلطنة الخبر منهم سألهم من قتله منكم فقال له بيبرس انا فقال نائب السلطنة ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة ومعنى خوند الكبير الشأن فجلس واستدعى العساكر للتحليف فحلفوا له واستقر الملك لبيبرس ثم ساق وسبق العساكر الى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها وكانت مصر قد زينت لقدوم قطز فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس فسبحان من يدبر ملكه كيف يشاء ولا يسئل عما يفعل فان له في كل شيء حكمة وكان بيبرس في الاصل مملوكا لايدكين البندقدار الصالحي ثم اشتراه الملك الصالح نجم الدين بن أيوب قال ابن الوردي في تاريخه ان الملك الظاهر بيبرس كان على قدم من الديانة وكان ملازما للخمس في أوقاتها والزم حاشيته بها وحكي عنه انه ماشرب خمرا قط ومنع كل مسكر وكان يحصل من مكس المسكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله ولما حج رؤي بباب الكعبة محرما يأخذ بأيدي ضعفاء رعيته ليصعدوا وعمل الستور لديباج للكعبة والحجرة النبوية وخطب مرة مجد اسماعيل الواسطي والسلطان بيبرس حاضر فقال في الخطبة أيها السلطان انك لن تدعى يوم القيامة بأيها السلطان لكن تدعى باسمك وكل منهم يسئل عن نفسه الا أنت فانك تسئل عن رعاياك فاجعل كبيرهم أبا وأوسطهم أخا وصغيرهم ولدا فاستعذب وعظه وأجزل عطاءه وكان له في السنة عشرة آلاف أردب تفرق في الفقراء والمساكين ووقف أوقافا على جهات عديدة واستن سنن العمرين ونصب للناس خليفة وفتح انطاكية وبغراس والقصير وحصن الاكراد وحصن عكا والقرين وصافيتا ومرقبة وأمنت لهيبته السبل ويكفيك فعله بالتتر بعين جالوت وخوضه اليهم غمرات الموت مرات فشكر الله سعيه واذا ذكرت مبدأ دولة المماليك البحرية والجراكسة

الى آخر ماتقدم استطرادا وان كان خارجا عما التأليف بصدده وتكثيرا الفوائد ولما في ذلك من الاعتبار لذوي الابصار والله ولى التوفيق ولنرجع الى ما نحن بصدده في سنة ثمانين وستمائة جاءت جيوش من التتر الى البلاد الشامية وكان ذلك في مدة سلطنة الملك المنصور قلاوون بمصر فخرج لقتالهم فكان المصاف العظيم بين المسلمين والتتر بظاهر حمص فنصر الله المسلمين بعدما كانوا أيقنوا بالبوار وانهزم التتر هزيمة قبيحة وكثر القتل والاسر فيهم وكان عدة جيش التتر ثمانين ألفا وعاد السلطان الى دمشق والاسرى والرؤس بين يديه وفي سنة أربع وثمانين وستمائة سار الملك المنصور قلاوون بعساكره ونازل حصن المرقب وهو حصن في غاية العلو والمتانة والحصانة لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجار ون فيه النقب ونصبت عليه عدة مجانيق فلما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الامان فأجابهم السلطان رغبة في ابقاء عمارته لو أخذه بالسيف لهدمه فيحصل التعب في اعادة عمارته فأعطى أهله الامان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلم الحصن وقرر أمره ورتبه وارتحل الى الوطاة بالساحل وأقام بمروج ثم سار ونزل تحت حصن الاكراد ثم سار ونزل على بحيرة حمص وفي سنة ست وثمانين سار الى قلعة صهيون ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار فأجابه صاحبها الى تسليمها بالامان فتسلمها ثم سار الى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته فركب طريقا اليه في البحر بالحجارة وحاصر البرج المذكور ثم تسلمه بالامان وهدمه ثم رجع الى مصر وأرسل جيشا الى النوبة فغنموا وعادوا وفي سنة ثمان وثمانين سار السلطان بعساكره ونازل طرابلس الشام وكانت بيد الفرنج ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار وشدد عليها القتال حتى فتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوة فهرب بعض أهلها الى المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم ونساؤهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وكان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة فهرب اليها كثير من الفرنج رجالا ونساء فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وسبوا من فيها من النساء والصغار وغنموا ما فيها من الاموال وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس الشام سنة ثلاث وخمسمائة فبقيت في أيديهم الى هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وستمائة فتكون مدة لبثها مع الفرنج مائة سنة وخمسا وثمانين سنة وشهورا وتوفي الملك المنصور قلاوون سنة تسع وثمانين وأقيم في السلطنة بعده ولده الملك الاشرف صلاح الدين خليل

ذكر فتح عكا

في سنة تسعين وستمائة جهز السلطان صلاح الدين خليل بن قلاوون عساكره لوافرة لفتح عكا

وصحب معه المجانيق وآلات الحصار ونازلها وشدد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى ظهر يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة بالسيف ولما هجمها المسلمون هرب جماعة ممن كانوا فيها من الفرنج الى المراكب وقتل المسلمون من بقي منهم بعكا وكانوا كثيرين وغنموا شيأ يفوت الحصر ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من السلطان صلاح الدين الايوبي ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم فبقيت تحت أيديهم مائة سنة وثلاث سنين فقدر الله في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان صلاح الدين فكان فتوحها في مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه وكذلك لقب السلطانين اذ كل منهما يلقب صلاح الدين وتقدم التنبيه على ذلك عند ذكر أخذ الفرنج لها

﴿ ذكر فتوح عدة حصون ﴾

لما فتحت عكا ألقى الله الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها المسلمون وهرب أهل مدينة صور فارسل السلطان من تسلمها ثم تسلم عثليث ثم انطرطوس واتفق لهذا السلطان من السعادة مالم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام وكان أمرا لا يطمع فيه ولا يرام وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد ان كانوا أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام فلله الحمد والمنة على ذلك وقد تقدم فتح حلب سنة أربع وستين وكان التتر قد خربوا قلعتها فأمر السلطان بعمارتها فتمت في سنة احدى وتسعين وكان تخريبها في سنة ثمان وخمسين فكان لبثها على التخريب نحو ثلاث وثلاثين سنة

﴿ ذكر فتح قلعة الروم ﴾

هي قلعة على جانب الفرات في غاية الحصانة سار الى فتحها السلطان صلاح الدين قلاوون في سنة احدى وتسعين بكثير من الجيوش ونصب عليها المجانيق واشتدت مضايقتها ودام حصارها وفتحت بالسيف وقتل أهلها وسبيت ذراريهم واعتصم جماعة من أهلها بالقلة فحوصروا ورمي عليهم بالمنجنيق فطلبوا الامان فلم يؤمنهم الا على أرواحهم خاصة وان يكونوا أسرى فأجابوا الى ذلك ثم أمر السلطان بعمارة القلعة ورجع الى دمشق وفي سنة ثلاث وتسعين قتل السلطان صلاح الدين قتله بعض مماليك أبيه وتسلطن بعده أخوه الملك الناصر وفي سنة سبع وتسعين وستمائة تجهزت العساكر من مصر ثم ساروا الى الشام ثم ساروا الى بلاد سيس وشنوا عليهم

الغارات وكبسوهم وغنموا وعادوا ثم ساروا مرة أخرى ونزلوا على حمص وحاصروها وضيقوا على أهلها وكان بها من الارمن جمع كثير فقل عليهم الماء واشتد بهم العطش وهلك النساء والاطفال فاخرج أهل حمص منها نحو الف ومائتين من النساء والصبيان فتقاسمهم العساكر وغنموهم واستمر الحصار فضاقت على الارمن الارض بما رحبت وهلكوا من كثرة من قتل منهم وغنم منهم المسلمون غنائم كثيرة فطلبوا الامان وسلموا حمص وحموص وجميع البلاد التي في جنوبي نهر جيحان ثم سلمت تل حمدون بعده ثم باقي الحصون في شوال سنة سبع وتسعين وستمائة فرتب المسلمون فيها من يقوم بها ويحميها وفي سنة تسع وتسعين وستمائة أقبلت التتر بجموع كثيرة وعبروا الفرات الى حلب ثم الى حماه فخرجت لهم جموع المسلمين والتقوا بجمع الروم من شرقي حمص واقتتلوا قتالا شديدا وانهزمت جيوش المسلمين وساق التتر خلفهم الي غزة والقدس وبلاد الكرك وغنموا من المنهزمين شيأ كثيرا وأخذ أهل دمشق الامان وملكه التتر وعصت عليه القلعة فحاصر وها فصبر المسلمون على الحصار ولم يسلموها وأحرقت الدور التي حول القلعة والمدارس ثم ان عساكر مصر لما وصلوا الى مصر رمم لهم بالنفقة فانفق السلطان عليهم أموالا جليلة وأصلحوا أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم وخرجوا من مصر في العشر الاول من رجب من سنة تسع وتسعين وكاتبوا المسلمين الذين بالشام في السر وصاروا معهم فلما خرجت العساكر من مصر بلغ ذلك التتر فخافوا وساروا من وقتهم الي الديار الشرقية وخلا الشام منهم فوصلت العساكر الاسلامية الي الشام ورتبوا أمراءها وغيرهم ونملوا مثل ذلك بحلب وحماه وغيرها ولما استولى التتر علي الشام طمع الارمن في البلاد التي افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها فتركها الذين كانوا بها وأخلوها من العسكر والرجال فاستولى الارمن عليها وارتجعوا حموص وتل حمدون وكوبر وسرفندكار والنقير وغيرها ولم يبق مع المسلمين من جميع تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان واستولى الارمن أيضا على غيرها من الحصون والبلاد التي كانت جنوبي نهر جيحان وفي سنة سبعمائة عادت التتر وقصدت الشام وعبروا الفرات في ربيع الآخر وجفلت المسلمون منهم وخلت بلاد حلب وأقامت التتر ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون و يقتلون وكان ذلك في مدة السلطان الناصر قلاوون فسار السلطان والعساكر الاسلامية لقتالهم من مصر ووصلوا الى العوجاء واتفق في تلك المرة تتابع الامطار الى الغاية واشتدت الوحول حتى تقطعت الطرقات وتعذرت الاقوات وعجزت العساكر عن المقام علي تلك الحال فرحل السلطان والعساكر وعادوا الي الديار المصرية فوصلوا مصر في عاشر جمادى الاولى من هذه السنة وأما التتر فانهم أقاموا ينتقلون في بلاد حلب وأعمالها نحو

ثلاثة أشهر ثم ان الله تعالى تدارك المسلمين بلطفه و رد التتر على أعقابهم بقدرته فعادوا الي بلادهم وعبروا الفرات في أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة ورجع عساكر حلب الى حلب وتراجعت الجفل الي أماكنهم ولما كان أوائل هذه القصة وجاءت الاخبار الى مصر بعود التتر الي الشام أخرج غالب الاغنياء من أهل الشام ومصر ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة واعانتهم وفى سنة احدي وسبعمائة خرجت العساكر الاسلامية لقتال الارمن وانتشروا في بلاد سيس وحرقوا الزروع وقتلوا من وجدوه وغنموا شيأ كثيرا وفي سنة اثنتين وسبعمائة غزا المسلمون جزيرة أرواد وهي جزيرة فى بحر الروم قبالة انطرطوس قريبا من الساحل اجتمع فيها كثير من الفرنج وافيها حصونا وسوروا وتحصنوا فى هذه الجزيرة وكانوا يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين فى ذلك الساحل فاتخذ المسلمون اسطولا وساروا اليها من الديار المصرية في بحر الروم ووصلوا اليها في المحرم من هذه السنة وجرى بينهم وبين الفرنج قتال شديد ونصر الله المسلمين وملكوا الجزيرة المذكورة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها وعادوا الى الديار المصرية بالاسرى والغنائم

﴿ ذكر دخول التتر الى الشام وكسرتهم مرة بعد أخرى ﴾

في سنة اثنتين وسبعمائة عاودت التتر قصد الشام وساروا الى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسارت منهم طائفة قدر عشرة آلاف وأغاروا على القريتين وتلك النواحى وكانت العساكر الاسلامية قد اجتمعت بحماه وأرسلوا جماعة من العسكر لقتال الذين أغاروا علي القريتين فالتقوا بالتتر سابع شعبان في موضع يقال له الكوم واقتتلوا وصبر الفريقان ثم نصر الله المسلمين وولي التتر منهزمين وترجل منهم جماعة كثيرة عن خيلهم وأحاط بهم المسلمون بعد فراغهم من الواقعة وبذلوا لهم الامان فلم يقبلوا وقاتلوا بالنشاب وعملوا اسروج الخيل ستائر وشغلهم العساكر القتال من الضحي الى انفراك الظهر ثم حملوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم فكان هذا النصر عنوان النصر الثانى على ما نذكره ثم عاد المسلمون الي حماه منصورين ثامن عشر شعبان

﴿ ذكر المصاف الثانى والنصرة العظيمة ﴾

ثم بعد وقعة الكوم سار التتر بجموعهم العظيمة ووصلوا الي حماه فى الثالث والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وجاء كثير من العساكر الاسلامية من دمشق ومصر وجاء السلطان الناصر بباقى العساكر الاسلامية والتقى الفريقان فى ثاني رمضان واشتد القتال بينهم واستشهد من المسلمين خلق كثير ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهزموا التتر وأكثروا القتل فيهم وولوا منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض وحال الليل بين الفريقين فنزل التتر على جبل هناك بطرف

مرج الصفر وأشعلوا النيران فأحاط المسلمون بهم فلما أصبح الصباح وشاهد التتر كثرة المسلمين انحدروا من الجبل يبتدرون الهرب فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان في طريقهم أرض متوحلة فتوحل فيها عالم كثير من التتر فأخذ بعضهم أسرى وقتل بعضهم وساق كثير من العساكر الاسلامية في أثر التتر المنهزمين الى القريتين ووصل التتر الي الفرات وهي في قوة زيادتها فلم يقدروا على العبور والذي عبر فيها هلك فساروا علي جانبها الي جهة بغداد فانقطع أكثرهم علي شاطيء الفرات وهلك من الجوع وأخذ منهم العرب جماعة كثيرة وأخلف الله تعالى بهذه الوقعة ما جرى على المسلمين في المصاف الذى كان ببلدة حمص سنة تسع وتسعين وستمائة وفى سنة ثلاث وسبعمائة خرجت العساكر من مصر ودخلوا بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالامان وارتجعوها من الارمن وهدموها الي الارض

﴿ ذكر اغارة عسكر حلب علي بلاد سيس ﴾

عند الدروب المجاورة لحلب وكانت كرسي ملك الارمن والارمن قوم دخلوا فى الملة النصرانية وكانت مواطنهم ارمينية ثم لما ملك المسلمون بلادهم وضربوا عليهم الجزية وأخذوا منهم خلاط وكانت كرسي ملكهم فانتقل ملكهم الى سيس وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين ولما ظهر التتر دخلوا في طاعتهم وأجابوا معهم فى غزواتهم الى الشام ثم صار ملوك مصر يغزون بلادهم ويغيرون عليهم ففي أوائل المحرم من سنة خمس وسبعمائة خرجت عساكر من حلب للاغارة على بلاد سيس فدخلوها وكان أمير العسكر ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلا بشرب الخمر ففرط في حفظ العسكر ولم يكشف خبر العدو واستهان بهم فجمع صاحب سيس جموعا كثيرة من التتر وانضم اليهم الارمن والفرنج ووصلوا على غرة الى عسكر حلب فالتقوا بالقرب من اياس ولم يكن للحلبيين قدرة بهم فتولوا يبتدرون الطريق وتمكنت منهم التتر والارمن فقتلوا وأسروا غالبهم واختفى من سلم من تلك الجبال ولم يصل الي حلب منهم الا القليل عرايا بغير خيل وفي هذه السنة سار عسكر من دمشق الي جبال الظنيين وكانوا عصاة مارقين من الدين فأحاطت بهم العساكر الاسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين وطهرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطرق بعد ذلك فانهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار وفي سنة ثمان وسبعمائة ملك الفرنج مدينة رودس وأخذوها من الروم قال الحافظ ابن حجر في تاريخ مصر فتحت رودس في خلافة معاوية رضي الله عنه وأمر جماعة من المسلمين بالاقامة بها فلما ولي يزيد أمرهم بالتحول خشية عليهم ففعلوا وتركوها ووضع الجزية

والخراج على أهلها ثم ملكها الروم واستولوا عليها وتغلبوا ثم أخذتها الفرنج منهم وفي سنة ثلث عشرة وسبعمائة أقبلت التتر بجموعها وجفل أهل حلب وبلادها عند سماعهم الاخبار باقبال التتر ثم وصلت التتر الى بلاد سيس وكذلك وصلوا الى الفرات ثم نازلوا الرحبة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وأخذوا نهبا النقوب فقام أهل الرحبة بحفظ القلعة أحسن قيام وصبروا على الحصار وقاتلوا أشد القتال فتجهزت العساكر الاسلامية من كل ناحية لانجادهم وأصاب التتر شدة جوع وغلاء وفناء وتعذرت عليهم الاقوات وسمعوا باقبال جيوش الاسلام فارتحلوا خائبين بعد حصار نحو شهر وتركوا المجانيق وآلات الحصار على حالها فنزل أهل الرحبة واستولوا عليها ونقلوها الى الرحبة ورجعت عساكر الاسلام وكفى الله المؤمنين القتال

﴿ ذكر فتح ملطية وكانت بيد الارمن ﴾

في سنة خمس عشرة وسبعمائة فتحت ملطية وهي مدينة مشهورة بأرض الروم ذات أشجار وأنهار وهي قاعدة الثغور ويحف بها جبال قيل انه كان بها اثنا عشر ألف نول يعمل الصوف وسبب تجهز الجيوش لفتحها انه كان بها جماعة من المسلمين اختلطوا بالنصارى حتى انهم زوجوا الرجل النصراني بالمسلمة وكانت الاجناد من المسلمين لا ينقطعون عن الاغارة على العدو ببلاد الروم وغيرها وكانت طريقهم في غالب الاوقات تكون قريب ملطية فاتفق أن أهل ملطية ظفروا ببعض الغيار المذكورين فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين فلما جرى ذلك أرسل السلطان ناصر الدين قلاوون عسكرا ضخما من الديار المصرية فسار والى دمشق ورسم السلطان لجميع عساكر الشام بالمسير معه وكذا عسكر حماه وحلب وسار الجميع حتى وصلوا ملطية ونازلوها في الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة فأحدقوا بها وحاصروها وخرج جماعة منها وطلبوا الامان لانفسهم فأمنوا واتفق أن الباب الذي فتح لخروجهم قبالة عسكر حماه فهجموا على المدينة من الباب المذكور وخرج الامر عن الضبط لكثرة العساكر الطماعة فنهبوا جميع ما فيها من أموال المسلمين والنصارى حتى لم يدعوا فيها الا ما كان مطمورا ولم يعلموا به وكذلك استرقوا جميع أهلها من المسلمين والنصارى ثم بعد ذلك وقع الانكار التام على من استرق مسلما أو مسلمة وعرضوا الجميع فأطلق جميع المسلمين من الرجال والنساء وأما أموالهم فانها ذهبت واستمرت النصاري في الرق عن آخرهم ثم لما كان من نهب ملطية ما ذكرناه ألقى العسكر فيها النار فاحترق غالبها وخرب العسكر ما أمكن من أسوارها وأقام جيش المسلمين بها يوما واحدا وليلة ثم ارتحلوا عائدين الى بلادهم وبعثوا رسلا الى صاحب بلاد سيس في اعادة البلاد التي في جنوبي جيحان وزيادة القطيعة فزاد القطيعة حتى جعلها نحو ألف درهم

﴿ ذكر الاغارة علي سيس وبلادها ﴾

في سنة عشرين وسبعمائة برزت المراسيم السلطانية من السلطان الناصر قلاوون بتجهيز العساكر والاغارة على بلاد سيس فخرجت عساكر من مصر والشام وحماه وحلب ودخلوا بلاد سيس في منتصف ربيع الآخر ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور وغنموا اغنائم كثيرة وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي وكان شيأ كثيرا وأقاموا ينهبون ويخربون ورجعوا سالمين منصورين

﴿ ذكر فتوح اياس من بلاد سيس ﴾

في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة توجهت العساكر حتى نازلوا اياس من بلاد سيس وحاصروها وملكوها بالسيف وعصت عليهم القلعة التي في البحر فأقام المسلمون عليها منجنيقا عظيما وركب المسلمون اليها طريقين في البحر الي أن قاربوا القلعة فهربت الارمن منها وأخلوها وألقوا في القلعة نارا فملك المسلمون القلعة وهدموا ماقدروا على هدمه وعاد كل عسكر الى بلاده وفى سنة سبع وعشرين وسبعمائة في رمضان ورد الى دمشق مائة وأربعون أسيرا من بلاد الفرنج وذلك أن قاضي القضاة جلال الدين أشهد أنه جعل لكل من يحضر أسيرا مبلغا عينه وكتب بذلك مكتوبا وعرف الفرنج ذلك فجعلوا الاسرى من تجاراتهم وأحضروهم فاعطوا من وقف الاسرى ستين الف درهم وأطلقوا الاسرى بحمد الله تعالى

﴿ غزوة عساكر حلب بلاد سيس ﴾

في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة غزا عسكر حلب بلاد سيس وخربوا في اذنة وطرسوس وأحرقوا الزرع واستاقوا المواشي وأتوا بمائتين وأربعين أسيرا وماعدم من المسلمين سوي شخص واحد غرق في النهر وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم في خان ثم أحرقوه فقل من نجا فعلوا ذلك نحو ألفي رجل من التجار البغاددة وغيرهم في يوم عيد الفطر فلله الامر من قبل ومن بعد وفي سنة سبع وثلاثين وسبعمائة توجهت العساكر المصرية والشامية لغزو بلاد الارمن فنزلوا في ثاني شوال على مينا اياس وحاصروها ثلاثة أيام ثم قدم رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب من نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا القلاع والبلاد التي في شرقي نهر جيحان فتسلموا منهم ذلك وهو شيء كثير وملك كبير كالمصيصة وكوير اوالهارونية ومرفند كار واياس وباناس ونجيمة والنقير فخرب المسلمون برج اياس الذي في البحر واستنابوا في البلاد نوابا وعادوا سالمين ولله الحمد وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك الارمن جسدا بلا روح وفي سنة احدي وأربعين وسبعمائة

توفي السلطان الملك الناصر محمد قلاوون واقيم بعده ولده الملك المنصور أبو بكر وفي سنة أربع وأربعين أغارت التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا وشفوا الغليل من الارمن وفي سنة أربعين ملكت التركمان قلعة كابان بالحيلة وهي من أمنع قلاع سيس وقتلوا رجالها وسبوا النساء والاطفال فبادر صاحب سيس لاستنقاذها فصادفه ابن دلقادر فاوقع بالارمن وقتل منهم خلقا وانهزم الباقون

﴿ واقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ سبع وستين وسبعمائة ﴾

قال ابن خلدون كان أهل قبرس من أمم النصرانية من بقايا الروم وانما ينسبون هذا العهد الى الافرنج لظهور الافرنج على سائر الامم النصرانية وكان على أهل قبرس جزية معلومة يؤدونها لصاحب مصر ومازالت من لدن فتحها على يد معاوية وكانوا اذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لاداء الجزية وكان الظاهر بيبرس بعث اليها سنة تسع وستين وستمائة اسطولا من الشوانى فطرقت مرساها ليلا فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها في كل ناحية ثم غلب لهذه العصور أهل جنوة من الافرنج على جزيرة رودس حازتها من يد لشكرى صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمائة وأخذوا اخذتها وأقام أهل قبرس معهم بين فتنة وصلح وحرب آخر أيامهم وجزيرة قبرس هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصبة على سواحل الشام ومصر فاطلعوا في بعض الايام على غرة في الاسكندرية فاخبروا حاجبهم فعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض في اساطيله واستنفر من سائر الافرنج ووافى مرساها سابع عشر من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة في اسطول عظيم يقال انه بلغ سبعين مركبا مشحونة بالعدة والعدد ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم فلما أرسى بها قدمهم الى السواحل وعبى صفوفه وزحف وقد غص الساحل بالنظارة برزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالا لما هم فيه ولا ينظرون مغبة امره لبعد عهدهم بالحرب وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلم خليل بن عوام غائب يومئذ فى قضاء فرضه فما هو الا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا القوم بالنبل فاجفلوا متسابقين الى المدينة وأغلقوا أبوابها وصعدوا الى الاسوار ينظرون ووصل القوم الى الباب فاحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم فى بعض ثم أجفلوا الى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما قدروا عليه من أموالهم وسالت بهم الطرق والاباطح ذاهبين في عرض وجه حيرة ودهشا وشعر بهم الاعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم وتوسط الافرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق

البر ودكاكين الصيارفة ومقاعد التجار وملؤا سفنهم من المتاع والبضايع والذخيرة والصامت واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والاسرى وأكثرما فيهم الصبيان والنساء ثم تسايل اليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ لافرنج الى اساطيلهم ومكثوا فيها بقية يومهم وأقاموا من الغدوثار الخبر الى كافل الدولة بمصر الامير بيبقا لأن السلطان الاشرف شعبان كان صغيرا وكان بيبقا كافل دولته وقائما بتدبير أمر دولته فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عوام نائب الاسكندرية منصرفا من الحج ومعهم كثير من الامراء والعساكر ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو فلم يثنه ذلك واستمر الى الاسكندرية وشاهد ماوقع بها من معرة الحرب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك واصلاحه ورجع الى دار الملك وقد امتلأت جوانحه غيظا وحنقا على أهل قبرس فأمر بانشاء مائة اسطول معتزما على غزو قبرس بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من آلات الحصار ومن السلاح وكمل غرضه من ذلك كله ثم لم يقدر على انجاز غرضه الا في سنة ثمانمائة وتسع وعشرين كما سيأتي ان شاء الله وسبب هذا التأخير كثرة الفتن الواقعة بين أمراء مصر مع بعضهم

﴿ انقراض دولة الارمن والاستيلاء على سيس ﴾

في سنة ست وسبعين وسبعمائة في دولة الملك الاشرف شعبان بن حسن بن الناصر قلاوون تجهز جيش المسلمين لغزو بلاد سيس وكان قائد الجيش المارديني نائب حلب فحاصرهم شهرين ونصب عليها المجانيق واستدعى أصناف التركمان للقتال فلما طال الحصار عليهم واشتد الضيق بهم نزل رئيسهم تكفور بالامان فأرسله الى مصر ودقت البشائر بذلك قال ابن خلدون سافر نائب حلب سنة ست وسبعين بالعساكر الى بلاد الارمن ففتح سائر أعمالها واستولى على ما لكها تكفور بالامان فوصل بأهله وولده الى الابواب السلطانية ورتبت لهم الارزاق واستولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن وجعل السلطان نيابة سيس ليعقوب شاه ثم أضيف اليها طرسوس واذنة واياس وغيرها وفي سنة ثمانين وسبعمائة نازل الافرنج طرابلس الشام فجهز السلطان عدة مراكب صحبة يلبغا الناصري فالتقى بهم فهزمهم ثم أمر العساكر أن يتأخروا فطمع فيهم الفرنج الى أن بعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعساكر فهزمهم وقتل كثيرا منهم وفر من بقي وطلعوا الى المراكب وفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة نزل الفرنج بيروت في عشرين مركبا فراسله المسلمون نائب الشام فتقاعد عنهم واعتل باحتياجه الى مرسوم من السلطان فنادي اينال اليوسفي بالغزو والجهاد فنفر معه جماعة فحال بين الافرنج والبحر وقتل كثيرا منهم ونزل اليه بقية الافرنج من المراكب يقاتلونه فهزمهم وقتل كثيرا منهم وغنم من مراكبهم ستة عشر مركبا قبضها واستولى عليها فكان للمسلمين

بذلك سرور عظيم وفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة أنشأ المسلمون شواني كثيرة لغزو الافرنج في البحر الرومي واجتهدوا في عملهم وسيروا الشواني الى دمياط فوجدوا بساحل دمياط غرابا للافرنج فكبسوا عليه واستولوا عليه وأسروا من فيه وفي سنة تسعين وسبعمائة كانت وقعة عظيمة بناحية سيواس بين المسلمين والتتر كان النصر فيها للمسلمين وفي هذه السنين كان ظهور تيمورلنك بالديار الهندية وخراسان والعراق وكان ظهوره من أشد المحن والبلايا على هذه الامة أفسد في الارض وأهلك الحرث والنسل ولنذكر تلخيص وقائعه * ثم نعود الى اتمام الكلام على فتوحات ملوك مصر والروم واقفا المستعان وسيأتي ان مسير تيمورلنك الى الشام كان سنة ثلاث وثمانمائة وحل انذار من الله بذلك المسير الذى كان فيه البلاء قبل وقوعه وذلك ان أول انذار هو الحريق الذي وقع في المسجد الحرام سنة اثنتين وثمانمائة قال النجم ابن فهد وتحدث أهل المعرفة بأن هذا ينذر بحادث جليل يقع في الناس وكان كذلك فقد وقعت المحن العظيمة بقدوم تيمورلنك الى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبي ذراريهم ونهب أموالهم واحراق مساكنهم ودورهم وكان ذلك الحريق الواقع في المسجد الحرام المنذر بذلك في أواخر شوال سنة ثمانمائة واثنتين في مدة سلطنة الملك الناصر فرج ابن برقوق وكان الحريق من جهة الجانب الغربي واتصل منه بالسقف وعم الحريق الجانب الغربي وبعض الرواقين المقدمين من الجانب الشامي الى محاذاة باب الباسطية بما كان من السقوف والاساطين وكانت السقوف كلها من الخشب الساج وصار التعمير لهذا كله بعد ذلك وأعيد السقف خشبا كما كان وفرغوا من التعمير سنة ثمانمائة وأربع وكان أمير مكة الشريف حسن بن عجلان

﴿ذكر ظهور التيمور﴾

انما ذكرنا التيمور وقتاله وان كان يدعي الاسلام لان قتاله مثل قتال الكفار لانه فعل أفعالا مع المسلمين أكثر مما تفعله الكفار من القتل والاسر والتخريب وكان رافضيا شديد الرفض وسبب خروجه ان ملوك التتر اقتسموا الممالك وانتشرت الفتن بينهم مع بعضهم وكثر عليهم الثوار والخارجون وكان ذلك كله سببا لضعف دولة التتر وموجبا لقيام تيمور وغيره واختلفوا في نسب تيمور فقيل ان نسبه ينتهي الى جنكزخان ملك التتر * وفي تاريخ ابن خلدون ان تيمور ينسب هو وقومه الى جغطاى بن جنكزخان وجزم بعضهم بأن نسبه الى جغطاى بن جنكزخان انما هو من جهة أمه لا من جهة أبيه وكان أول ظهوره سنة سبعمائة وثلاث وسبعين وأرخه بعضهم بقوله (عذاب) ٧٧٣ وهو أحد الدجالين الموعود بهم في الاخبار النبوية فانه تغلب على الممالك الاسلامية وأكثر القتل وأفسد الارض وأهلك الحرث والنسل وكان مبدأ أمره وأمر أبيه أنهما كانا فقيرين وكان أبوه اسكافيا من قرية من أعمال كش وهي مدينة من مدائن ماوراء النهر ونشأ ولده تيمور جلدا قويا

ذا جسم غليظ فكان لشدة فقره يسرق كثيرا فسرق في بعض الليالي شاة واحتملها فشعر به الراعي فرماه بسهمين أصاب بأحدهما فخذه وبالآخر كتفه فأعابهما فكان أعرج اليمناوين ولذلك كان يقال له نصف انسان ومع هذا لم يترك السرقة فما زال كذلك حتى اشتهر أمره وافساده فظفر به السلطان حسين ملك هراة فأمر بضربه ثم بصلبه فضرب ثم تشفع في ترك صلبه الأمير غياث الدين ابن السلطان حسين المذكور فقال له أبوه السلطان حسين هذا أصل مادة الفساد لئن بقي ليهلكن العباد والبلاد فقال له ابنه غياث الدين وما عسي ان يصدر من نصف آدمي وقد أصيب بالدواهي فما زال يراجع أباه حتي قبل شفاعته ووهبه له وعفى عنه ثم ان غياث الدين اصطحبه معه وقربه وأدناه وجعله من خواصه وزوجه أخته ورقاه حتي صار من وزرائه فلما صار الملك لغياث الدين بعد موت أبيه حسين ازدادت منزلة تيمور وصار مقدما علي كثير من الجند فطغي وبغى على مولاه غياث الدين ومبدأ ذلك ان زوجة تيمور وهي أخت السلطان غياث الدين وقع بينها وبين تيمور شئ أغضبه فقتلها ولم يراع حرمة مولاه ثم لم يسعه الا الخروج على السلطان غياث الدين وخلع الطاعة والتمرد والطغيان فتملك بما كان تحت يده من الجند كثيرا من الممالك حتي استصفى ممالك ماوراء النهر وذلت لاوامره ملوك الدهر وشرع فى استخلاص بقية البلاد واسترقاق العباد فكان يجري في جسد العالم مجرى الشيطان من بنى آدم ويدب فى البلاد دبيب السم في الاجساد ثم أرسل الي مخدومه سلطان هراة الملك غياث الدين يطلب منه الدخول في طاعته ليجازيه على احسانه باساءته فيتحقق بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم كتب الله على كل نفس خبيثة أن لا تخرج من الدنيا حتى تسئ الي من أحسن اليها فأرسل غياث الدين يقول له أما كنت خادمالي وأحسنت اليك وأسبلت ذيل نعمتي عليك وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب فان لم تكن انسانا يعرف الاحسان فكن كالكلب فلم يصغ لذلك بل عبر جيحون بمن معه من الجند وتوجه الى محاصرة مولاه غياث الدين بهراة ولم يكن لغياث الدين قوة الى قتاله والوقوف بين يديه فحصن نفسه فى القلعة فحاصره وضيق عليه ثم أمنه وقبض عليه وحبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات جوعا وعطشا ثم عاد الي خراسان فاتتم أولا من أهل سجستان فوضع السيف فيهم وأفناهم عن آخرهم ثم خرب المدينة ورحل عنها ولم يزل هذا دأبه حتي تخلص له جميع ممالك العجم ودانت له ملوكهم والامم ووصفه بعضهم بقوله وكان رجلا ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة عظيم الجبهة والرأس شديد القوة والبأس أبيض اللون مشربا بحمرة عظيم الاطراف عريض الاكتاف مستكمل البنية مسترسل اللحية أعرج اليمناوين وعيناه كشمعتين جهير الصوت

لايهاب الموت وكان من ابهته وعظمته ان ملوك الاطراف وسلاطين الاكناف مع استقلالهم كانوا اذا قدموا عليه وتوجهوا بالهدايا والتقاديم اليه يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة نحوا من مد البصر من سرادقاته واذا أراد من منهم واحدا أرسل من الخدمة نحوه قاصدا فينادى ذلك الواحد باسمه فينهض في الحال يعدو نحوه ممتثلا أمره ودخل تحت طاعته ملوك السلجوقية أصحاب قونية كما كانوا داخلين تحت طاعة التتر ولما ملك أصبهان وعراق العجم والري وفارس وكرمان بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم وخربت ديارهم وسبيت نساؤهم خافه السلطان أحمد بن أويس المتملك بغداد بعد التتر كما تقدم فجمع عساكره وأخذ في الاستعداد له ثم عدل الى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه ومازال تيمور يخادعه بالملاطفة والمراسلة الى أن فتر عزمه وفرق عساكره فنهض اليه يسرع السير في غفلة عنه حتى انتهى الى دجلة وسبق النذير الى السلطان أحمد فأسرى بغلس ليله وحمل ما أقلته رواحله من أمواله وذخائره وترك سفن دجلة ومر بنهر الحلة وصبح مشهد على رضي الله عنه ووافى تيمور وعساكره دجلة في حادى عشر شهر شوال سنة خمس وتسعين وسبعمائة ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ونازل بغداد وبعث عساكر في اتباع السلطان أحمد فساروا الى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها وأدركوا السلطان أحمد بمشهد على واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليهم في جموعه وقتل الامير الذى كان عليهم فرجع بقية عسكرهم ونجا السلطان أحمد الى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وأرسل النائب بالرحبة يخبره الى سلطان مصر السلطان الظاهر برقوق فسرح بعض خواصه فتلقوه بالنفقات والازواد ثم قدم السلطان أحمد الى مصر وخرج السلطان الظاهر برقوق الى ملاقاته وأمر الامراء بالمشي في خدمته وأكرمه وأخبره السلطان أحمد أن تيمور أخذ بلاد العجم والعراق وانه أرسل قصاده الى السلطان برقوق فكتب السلطان برقوق الى نائب الرحبة أن يقتل قصاد تيمور ففعل ذلك وأخبر السلطان أحمد الملك الظاهر برقوق بأنه جاء مستنصرا مستصرخا به على من أراد انتزاع الملك منه فأجاب الملك الناصر صريخه ووعده بالنصر وتجهيز الجيوش وكان قدوم السلطان أحمد على الملك الظاهر في شهر ربيع الاول سنة ست وتسعين وسبعمائة لانه كان أصابه مرض فى طريقه تأخر بسببه عن سرعة الوصول وكان السلطان أحمد ترك نائبا له على بغداد ثم جاءتهم الاخبار بأن تيمور لنك حاصر بغداد ثم تملكها وعاث فيها وكان دخوله بغداد يوم عيد الاضحى فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين وقتل خلقا كثيرا ثم أمر عسكره بأن يأتيه كل واحد برأسين من أهل بغداد فأتوا بالرؤس فجمعها وأمر أن يبنى منها مآذن على صور المنائر وعجز بعض الجند عن المجيء برؤس الرجال فقطع رؤس النساء والاطفال واستصفى ذخائر السلطان أحمد واستوعب

موجود أهل بغداد بالمصادرات لاغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيث ثم ان تيمور بعد ان استولى على بغداد زحف في عساكره الى تكريت وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه فقتل من قتل منهم ثم خربوها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر الى الرها ووقفوا عليها ساعة من النهار فملكوها وانتسفوا نعمها وافترق أهلها فبلغ الخبر الى الملك الظاهر برقوق فنادي في عسكره بالتجهز الى الشام وأفاض العطاء واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند وارتحل الى الشام ومعه السلطان أحمد بن أويس وكان العدو تيمور قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً وملكها وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها الى بلاد الروم ومر بقلاع الاكراد وأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها وفي هذه المدة جهز السلطان برقوق عساكر كثيرة وبعثها مع السلطان أحمد الى بغداد فملكها وضرب السكة باسم السلطان برقوق كذا ذكر ذلك العلامة ابن الشحنة في تاريخه وبقي السلطان برقوق بالشام مستجمعا لعساكره مترقبا لقتال تيمور والوثبة به متى استقبل جهته فبلغ ذلك تيمور فلم يتجرأ على الاقدام بل رجع الى بلاد خراسان ولم يقدر على الرجوع ودخول الديار الشامية الا بعد وفاة السلطان برقوق كما سيأتي ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر كتاب تيمور الى السلطان برقوق ﴾

كتب تيمور الى الملك الظاهر السلطان برقوق كتابا يقول فيه بعد البسملة اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اعلموا أنا جند الله في أرضه مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا قد خربنا البلاد وأيتمنا الاولاد خيولنا سوابق وسيوفنا صواعق وسهامنا خوارق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ملكنا لا يرام وجارنا لا يضام من سالمنا سلم ومن رام حربنا ندم فان أنتم قبلتم شرطنا وأطعتم أمرنا لكم مالنا وعليكم ما علينا وان خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا الا أنفسكم وذلك بما كسبت أيديكم فالحصون لا تمنع والعساكر لا ترد ولا تدفع ودعاؤكم لا يسمع لانكم أكلتم الحرام وأضعتم الجمعة وارتكبتم الآثام فأبشروا بالمذلة والهوان فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وتقولون انه قد صح عندنا أنا كفرة فقد ثبت عندنا أنكم فجرة وقد سلطنا عليكم من بيده أمور مدبرة وأحكام مقدرة فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل وقد أوضحنا لكم الخطاب فأسرعوا برد الجواب قبل ان ينكشف الغطا ويدخل علينا منكم الخطا وترمي الحرب نارها وتلقي أوزارها وتدعون منا بأعظم داهية ولا يبقى

لكم باقية و ينادي عليكم منادي الفناء هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزا الآن قد انصفنا كم اذ راسلنا كم فردوا وسلنا بجواب هذا الكلام والسلام فلما سمع السلطان برقوق هذا الكتاب اغتاظ غيظا عظيما وأمر بكتابة الجواب فكتب الجواب بانشاء ابن فضل الله العمري وصورته بعد البعدية والاصدار قد حصل الوقوف علي كتاب ورد فقولكم انكم مخلوقون من سخطه مسلطون علي من يحل عليه غضبه وانكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم فذلك من أكبر عيوبكم وهذه صفات الشياطين لا صفات السلاطين قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ففي كل كتاب لعنتم وعلي لسان كل رسول بالسوء ذكرتم وبكل قبيح وصفتم وعندنا العلم بكم من حين خلقتم وأنتم الكفرة كما زعمتم ألا لعنة الله على الكافرين نحن المؤمنون حقا لا يدخلنا عيب ولا يخامرنا ريب القرآن علي نبينا نزل والرب بنا رحيم لم يزل انما النار لكم خلقت ولجلودكم أضرمت اذا السماء انفطرت ومن أعجب العجاب تهديد الرتوت بالتوت والسباع بالضباع والكمات بالكراع ونحن خيولنا برقية وسهامنا يمنية وسيوفنا شديدة المضارب وذكرنا في المشارق والمغارب ان قتلنا كم فنعم البضاعة وان قتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون وقولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم وكثير الحطب يكفيه قليل من الضرم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين الفرار الفرار من الرزايا لا من المنايا ونحن من الطمأنينة على عادة الامنية ان قتلنا فشهداء وان عشنا كنا سعداء ألا ان حزب الله هم الغالبون أبعد أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين يعني الخليفة العباسي الذي كان اذ ذاك بمصر تطلبون منا طاعة لا سمعا لكم ولا طاعة وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطا ويدخل علينا منكم الخطا هذا الكلام في نظمه تركيك وفي سلكه تفكيك لو كشف لبان بعد التبيان أكفر بعد ايمان واتخاذ رب ثان لقد جئتم شيأ ادّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدّا قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقالته وصل كتاب كصرير الباب أو كطنين الذباب فسنكتب مايقول ونمدله من العذاب فلما وصل الكتاب الي تيمور غضب غضبا شديدا وقدر الله بوفاة السلطان برقوق بعد ذلك بقليل وكان تيمور ألقي الله الرعب في قلبه من السلطان برقوق فلما بلغه خبر وفاته استبشر وأنعم على مخبره بجملة مستكثرة وكانت وفاته في سنة احدى وثمانمائة وأقيم بعده في السلطنة ولده الملك الناصر فرج فأخذ تيمور في التجهيز بالجيوش لقصد بلاد الشام والروم وكان في نفسه من قتل السلطان برقوق قصاده ومن اعانته السلطان أحمد بن أويس على تملك بغداد وكان في نفسه أيضا علي السلطان بايزيد العثماني لانه تملك بلادا كثيرة كانت للسلطان

السلجوقي وقرابته تملكها السلطان بايزيد بعد وفاته وكان السلطان السلجوقي قد كاتب تيمور وأعطاه الطاعة خوفا من السلطان بايزيد وكانت تلك البلاد لبني قاج أرسلان من ملوك السلجوقية وهم الذين افتتحوها وأقاموا فيها دعوة الاسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية وأضافوا اليها كثيرا من أعمال الارمن ومن ديار بكر فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم وكان كرسيهم بقونية ومن أعمالها أقصرا وانطاكية والعلايا وطغرل ودمرلو وقراحصار ومن ممالكهم اذربيجان ومن أعمالهم آقشهر وكامخ وقلعة كعونية ومن ممالكهم قيسارية ومن أعمالها نكرا وفلبة ومنال ومن ممالكهم أيضا سيواس وأعمالها ومن أعمالها نيكسار واماسية وتوقات وكنكرة كوريه وساءول وصفوى وكسحونية وطرخواوبرلوا وبما استضافوه من بلاد الأرمن خلاط وأرمينية الكبرى ووان وسلطان وأرجيس وأعمالها ومن ديار بكر خربوت وملطية وسميساط ومسارة فكانت لهم هذه الاعمال وما يتصل بها من الشمال الى مدينة بروسية ثم الي خليج القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم وكان ملوك مصر ينازعونهم في بعضها ثم طرق دولة السلجوقية الهرم والفشل كما يطرق الدول ولما استولى التتر علي ممالك الاسلام استولوا أيضا علي كثير من هذه الممالك ولحق غياث الدين السلجوقي مع عياله بقونية ثم استقر في طاعة التتر هو واخوانه واقتسموا ممالكهم عمالا للتتر ثم بقيت بيد بنيهم بعدهم يتوارثونها الى ظهور تيمورلنك وكان في ذلك الوقت ظهور قوة السلطان بايزيد العثماني فاستولى علي كثير من تلك الممالك فأرسل الباقون من ملوك السلجوقية الى تيمور يعطونه الطاعة ليحتموا به من السلطان بايزيد فقدر الله فى تلك الايام موت بعض ملوكهم وظهور الضعف فيهم فاستولى السلطان بايزيد أيضا علي بعض ممالكهم هذا هو السبب في ان تيمور كان له قصد قوى في التوجه الي قتال السلطان بايزيد وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر تجهيز تيمور الجيوش لقصد الشام ﴾

قد ذكرنا أن تيمور فرح واستبشر بوفاة السلطان برقوق ثم انه في سنة ثلاث وثمانمائة أخذ فى التجهز الى المسير الى الديار الشاميه فجمع عساكر كثيرة تبلغ ثمانمائة ألف فاجتاز أولا علي سيواس فحاصرها وأخذها وكان فيها عامل للسلطان بايزيد قيل انه أمن أهلها وحلف لهم أن لايضع السيف فيهم فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء وكانوا ثلاثة آلاف مسلم ثم حرقها وخربها وتوجه نحو البتين فوجد أهلها قد رحلوا عنها فخربها وأحرقها ثم توجه الى ملطية فهرب منها من كان بها قبل أن يصل اليه فخربها ثم اجتاز علي بهسنى فحاصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا ثم نازل حلب تاسع ربيع الاول

من السنة المذكورة وكان فيها من العساكر الاسلامية جمع كثير من دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة وغيرها فاختلفت آراؤهم بين قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار وقائل اخرجوا ظاهر البلد بالخيام وكان الامير علي حلب نائب السلطان دوالامير دمرداش الخاصكي لما رأى اختلافهم أذن للناس في اخلاء البلد والتوجه حيث شاؤا وكان نعم الرأى لو فعلوا به فلما لم يفعلوا برأيه ضربوا خيامهم بظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد مرسل من تيمور فقتله الامير القائم علي عسكر دمشق قبل أن يسمع كلامه وبئس ما فعل وفي اليوم العاشر من ربيع وقع قتال يسير وفي الحادي عشر زحف تيمور بجيوشه وفيلته فدهم المسلمين خلق كأمواج البحر فولوا على أدبارهم منهزمين نحو البلد وازدحموا في الابواب ومات منهم خلق كثير والعدو وراءهم يقتل ويأسر وتعلقت أمراء عساكر المسلمين بالقلعة ومعهم خلق كثير فاقتحمت عساكر تيمور المدينة وامتدت أيديهم في اقطارها وجالت خيولهم بارجائها فتكوا ونهبوا وأسروا واحتمى بالمساجد خلق كثير من النساء المخدرات والكواعب وغيرهم فدلوا عليهم فقبضوهم أسرى في الحبال وأسرفوا في قتل كثير من الرجال والاطفال ونهب الاموال وتخريب المنازل وافتضاض الابكار وانتهاك الستور واستمر الحال علي هذا المنوال ثلاثة أيام وهم مع ذلك مشتغلون بنقب القلعة وهدم الخندق وكان المسلمون قد جعلوا أكثر أموالهم بالقلعة ثم اعتصم بها الامراء وخلق كثير فلما رأى دمرداش أمير حلب اشتداد الامر نزل مع طائفة من الامراء من القلعة يطلبون الأمان فأجابهم تيمور وخلع عليهم فاطمأن خاطرهم نزل بقية أصحابهم من القلعة كل أمير مع طائفته فنظم تيمور كل رجلين في قيد وفرقهم في قومه ثم أذن لهم في النهب قال ابن الشحنة أخذ القلعة بالامان والأيمان التي ليس معها ايمان وفي ثاني يوم صعد بنفسه الي القلعة وأقام بحلب نحوا من شهر وأصحابه تعدو في نهب المدينة والقرى وتعيث بقطع أشجارها وهدم أحجارها وأمر أن يبنى من رؤس الرجال شبه المآذن فبنيت مرتفعة في الهواء نحو عشرة أذرع ودورها نيف وعشرون ذراعا والوجوه بارزة تسفي عليها الرياح وعدة تلك المنائر المتخذة من الرؤس عشر وعلم من قتله كثير من العلماء وغيرهم واختفوا ثم أعطاهم الامان قال ابن الشحنة ولما طلع القلعة في ثاني يوم كان طلوعه في آخر النهار فطلب علماء حلب فحضرنا اليه فأوقفنا ساعة ثم أمرنا بالجلوس وطلب من معه من أهل العلم فقال لامير من أمراء دولته وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفي كان نعمان الدين المذكور من العلماء المشهورين بسمرقند قل لهم اني سائلكم عن مسئلة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التي افتتحتها ولم يوضحوا لي الجواب فلا تكونوا مثلهم ولا يجيبني الا أعلمكم وأفضلكم ليعرف ما يتكلم به فاني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وألفة ولي في طلب العلم طلب قديم قال

ابن الشحنة وكان قد بلغنا عنه انه يعنت العلماء في الاسئلة ويجعل ذلك سببا لقتلهم أو تعذيبهم فقال الشيخ القاضي شرف الدين موسى الانصاري الشافعي هذا شيخنا يعني الشيخ محمد بن الشحنة وهو مدرس هذه البلاد ونقيبها واليه المرجع سلوه والله المستعان فقال عبد الجبار مخاطبا ابن الشحنة مترجما مقالة تيمور سلطاننا يقول انه بالامس قتل منا ومنكم فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم فوجم الجميع وقالوا في أنفسهم هذا الذي بلغنا عنه من التعنت فسكت القوم وفتح الله بالجواب على ابن الشحنة فاستحضر سريعا جوابا بديعا فقال هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صاحبه القاضي شرف الدين موسى الانصارى بعد ان انقضت الحادثة والله العظيم انك لما قلت هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه اختل عقلي مع أن القاضي شرف الدين كان محدث زمانه وهو معذور بما شاهد من الاهوال في تلك الايام ومثل هذا السؤال لايمكن عنه الجواب في هذا المقام لشدة سطوة تيمور بمن خالف مرامه ووقع في نفس الامير عبد الجبار مثل ذلك فقال لابن الشحنة يسخر من كلامه كيف سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أجاب وألقى تيمور سمعه وبصره الى ابن الشحنة فقال ابن الشحنة جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله ان الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه فأينا في سبيل الله فقال عليه الصلاة والسلام من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فمن قاتل منا ومنكم لاعلاء كلمة الله فهو الشهيد فقال تيمور خوب يعني طيب واستحسن ذلك الجواب وقال عبد الجبار ما أحسن ما قلت وانفتح باب المؤانسة فقال تيمور اني رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتر فقلت اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الامة ولا تقتل أحدا فقال والله اني لم أقتل أحدا قصدا وانما أنتم قتلتم أنفسكم في الابواب يعني الازدحام والله لا أقتل منكم أحدا يعني الآن وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم وتكررت الاسئلة منه والاجوبة من العلماء وطمع كل واحد من الفقهاء الحاضرين في التقدم وجعل يبادر الى الجواب ويظن انه في المدرسة بين طلبته والقاضي شرف الدين ينهاهم ويقول اسكتوا ليجاوب هذا الرجل يعني ابن الشحنة فانه يعرف مايقول وآخر سؤال سأل عنه ماتقولون في علي ومعاوية ويزيد فأسر القاضي شرف الدين الى ابن الشحنة وكان الى جانبه وقال اعرف كيف تجيبه فانه شيعي فلم يفرغ من كلامه الا وقد قال القاضي علم الدين القفصي الصيفي المالكي كلاما ما معناه ان الكل مجتهد فغضب تيمور غضبا شديدا وقال علي على الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وأنتم حلبيون تبع لاهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين فأخذ ابن الشحنة في ملاطفته بالاعتذار عن المالكي

بأنه أجاب بشيء وجده مكتوباً في كتاب لا يعرف معناه فعاد الى دون ما كان عليه من البسط وأخذ عبد الجبار يباسط ابن الشحنة والقاضي شرف الدين فقال عن ابن الشحنة هذا عالم مليح وقال عن القاضي شرف الدين هذا رجل فصيح فسأل تيمور ابن الشحنة عن عمره فقال مولدي سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقد بلغت الآن أربعا وخمسين سنة وقال للقاضي شرف الدين كم عمرك فقال أنا أكبر من هذا يعني ابن الشحنة بسنة فقال تيمور أنتم في عمر أولادي فان عمري اليوم بالغ خمسا وسبعين سنة وحضرت صلاة المغرب فأمنا عبد الجبار وصلى تيمور الي جانب ابن الشحنة قائما يركع ويسجد ثم تفرقوا وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الاموال والاقمشة والامتعة مما لا يحصى حتى قيل انه لم يكن أخذ من مدينة قط مثل ما أخذ من هذه القلعة ولا ما يقارب به وعوقب غالب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجير ومسجون ومرسم عليه ونزل تيمور من القلعة بدار النيابة وصنع وليمة على زي المغل ووقف سائر الملوك والنوابين في خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر والمسلمون في عقاب وعذاب وسبي وقتل وأسر وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب ولما كان آخر شهر ربيع الاول طلب ابن الشحنة والقاضي شرف الدين وأعاد عليهما السؤال في حق علي ومعاوية ويزيد فقال ابن الشحنة الحق كان مع علي وليس معاوية من الخلفاء فانه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلافة بعدي ثلاثون سنة وقد تمت بعلي والحسن فقال تيمور قل علي على الحق ومعاوية ظالم فقال ابن الشحنة قال صاحب الهداية يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فان كثيرا من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية وكان الحق مع علي في نوبته فانسر لذلك وطلب الامراء الذين عينهم للاقامة بحلب وقال لهم موصيا على ابن الشحنة والقاضي شرف الدين ان هذين الرجلين نزل عندكم فأحسنوا اليهما والى أصحابهما ومن ينضم اليهما ولا تمكنوا أحدا من أذيتهما ورتبوا لهما علوفة ولا تدعوهم في القلعة بل اجعلوا اقامتهما في المدرسة يعني السلطانية التي تجاه القلعة وتعلوا ما أوصاهم به لأنهم لم ينزلوا من القلعة وقال لهما الذي ولي الحكم بحلب اني أخاف عليكما قال ابن الشحنة والذي فهمته من نسق تيمور في مملكته انه اذا أمر بسوء فعلوه بسرعة ولا محيد عنه واذا أمر بخير فالامر لمن وليه وفي أول ربيع الآخر برز الى ظاهر البلد متوجها نحو دمشق وفي ثاني يوم أرسل يطلب علماء حلب فحملوا اليه والمسلمون في أمر مريج وفي قطع رؤس فقال العلماء لما طلبوا ما الخبر فقيل لهم ان تيمور طلب من عسكره ان يأتوه برؤس من المسلمين على عادته التي كان يفعلها في البلاد التي يأخذها فخاف العلماء ان تقطع رؤسهم وتحمل اليه مع ما وقع لهم من الامان منه فلما وصلوا اليه أرسلوا اليه رسولا يقول له انهم قد حضروا وهو قد حلف

أن لا يقتل أحدا منهم صبرا فجاء الرسول وهم ينظرون اليه من بعد وهو يأ كل من لحم سليق بين يديه في طبق فتكلم معه يسيرا ثم أرسل اليهم بشئ من ذلك اللحم ليأ كلوه فلم يفرغوا من أكله الاوزعجة قائمة وتيمور صوته عال وساق شخص هكذا وآخر هكذا وجاء أمير يعتذر الي العلماء وقال لهم ان سلطاننا لم يأمر باحضار رؤس المسلمين انما أمر بقطع رؤس القتلى وان يجعل لناقبة اقامة لحرمته على جاري عادته ففهموا عنه غير ما أراده وانه أطلقكم فامضوا حيث شئتم وركب تيمور من ساعته وتوجه نحو دمشق فعاد علماء حلب الي القلعة ورأوا أن المصلحة في الاقامة بها وأخذ الامير موسى في الاحسان اليهم وقبول شفاعتهم وتفقد أحوالهم مدة اقامته بحلب وأما تيمور فانه توجه قاصدا دمشق وكان الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق قد جاء من مصر بعساكره لتحصين حمايتها من تيمور وجاء معه الخليفة العباسي الذي كان بمصر وهو المتوكل على الله فلما دخل الملك الناصر فرج دمشق أقام بها يومين ثم خرج في اليوم الثالث وخيم بقبة يلبغا

﴿ ذكر دخول تيمور دمشق ﴾

في اليوم العاشر من جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانمائة حلت عساكر تيمور بأطراف دمشق وظهر بعض عسكر تيمور علي جبل مما يلي عقبة دمر وهم مقدار ألف فارس فخرج اليهم من عسكر الملك الناصر فرج دون المائة فاقتتلوا معهم فانهزم أصحاب تيمور هزيمة قوية ثم رجعوا علي عسكر الملك الناصر وقبضوا علي ثلاثة فوارس وجاؤا بهم الي تيمور فأمر عساكره تلك الليلة أن يضرموا نارا عظيمة في مواضع متعددة لتخيل للسلطان الملك الناصر فرج بن برقوق ان عسكر تيمور ملأ الارض بقدر أماكن النار وأخذ تيمور اثنين من الاسارى وأدخلهما في أسياخ وشواهما على النار كالغنم وأطلق الثالث فرجع وأخبر السلطان فرج بذلك وسمعت العسكر بذلك فانقطع قلوب العسكر ففي تلك الليلة ارتحل السلطان فرج ورجع الي الديار المصرية هاربا وصحبه الخليفة والامراء مع كل أمير مملوكان أو ثلاثة ليس معهم خيل ولا قماش وتشتت بقية العسكر حفاة عراة وأما أهل دمشق فلم يعلموا برجوع السلطان فأصبحوا ورأيهم جميعا المناصبة للحرب فركبوا الاسوار وأعلنوا بالنداء يستحث بعضهم بعضا علي الجهاد فتراموا مع التتر عسكر تيمور وقتلوا منهم وغنموا من خيلهم وكانت بينهم مقاتلة هائلة حتى قتلوا من التتر نحوا من ألف وفي آخر النهار حضر اثنان من أصحاب تيمور ينادي أحدهم بطلب الصلح وان يحضر أحد ممن يعقل حتى يكلمه الملك فوقع الاختيار علي ارسال القاضي ابن مفلح الحنبلي فغاب ثم رجع وأخبر أنه اجتمع بتيمور وتلطف معه حتى قال له تيمور بلد الانبياء وقد أعتقتها صدقة عن أولادي وأخذ ابن مفلح يحل

عزايم أهل البلد حتى صار وافرقتين فرقة تري مايراه ابن مفلح من بذل الطاعة وهم الفقهاء ونحوهم وفرقة باقية علي المحاربة وهم سواد الناس فباتوا تلك الليلة علي ذلك ثم أصبحوا وقد غلب رأى ابن مفلح ومن عادة تيمور اذا أخذ بلدا صلحا أن يخرج اليه أهل البلد من كل نوع تسعة أشياء ويسمون ذلك الطقزات فطلب منهم تجهيز ذلك وهموا باخراجه من باب النصر فمنعهم نائب القلعة وهددهم باحراق البلد فأعرضوا عن ذلك وتدلوا من أعلى السور فباتوا في مخيم تيمور ورجعوا وقد تقرر منهم قضاة ووزير ومستخرج للاموال ومعهم فرمان ومرسوم فيه تسعة أسطر يتضمن الامان لاهل دمشق خاصة فقري ذلك على المنبر وفتحوا الباب الصغير وقعد امير من أمراء تيمور ثم شرعوا في جباية الاموال التي قرروها عليهم وهي ألف ألف دينار وحملت اليه فلما وضعت بين يديه غضب وأمر أن يحمل اليه ألف ألف تومان والتومان عشرة آلاف دينار فرجعوا يأخذون في جباية الاموال فتزايد البلاء وفي اثناء الجبايه حرقوا مابين الجامع والقلعة بالنار وذلك نحو من ثلث البلد ثم سلم الناس الذين كانوا محاصرين في القلعة بعد تسعة وعشرين يوما من الاستيلاء على البلد وجمعت الاموال التي قرروها ثانيا وحضرت بين يديه فقال لابن مفلح وأصحابه هذه ثلاثة آلاف دينار بيلادنا وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف ألف أراكم عجزتم عن الاستخلاص ثم طلب منهم ماتركه العسكر من كل شيء ثم طلب جميع مافي البلد من الاموال والدواب فكان عدتها نحوا في عشر القائم طلب جميع مافيها من السلاح فلما انقضى ذلك كله أمر باستكتاب خطط دمشق وكتب بها أوراقا وفرقها على أمرائه فحينئذ طمت الامواج فنزل كل أمير في خط وطلب سكان ذلك الخط فكان الرجل يطالب بالمال الثقيل الذي لايقدر عليه فاذا امتنع عوقب بانواع العذاب ثم تخرج نساؤه وبناته فيوطئن بين يديه فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما فلما علموا أنهم قد أتوا على مافي البلد خرجوا منها وهجم عليهم بعد خروج الامراء بقية عساكرهم كالجراد المنتشر فانهبوا مابقي وسبوا النساء والشباب والرجال وتركوا الاطفال وأطلقوا النار في الجامع والبلد فاحترقت حتى صارت ترمى بشرر واستمر ذلك ثلاثة أيام حتي اندرست رسومها وفي ثالث شعبان ركب تيمور وسار نحو حلب راجعا بلاده وكانت مدة اقامته بدمشق أربعة وسبعين يوما ثم بعد رحيله كل من بقي يعدو عليهم ويعريهم البادية والفلاحون وجري عليهم منهم مالايجرى من تيمور وفى السابع عشر من شعبان وصل تيمور الي الجبول شرقي حلب ولم يدخل حلب بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريب القلعة واحراق المدينة وقتل كثير من الناس ففعلوا ونزلوا من القلعة قال ابن الشحنة فبقيت النار تضرم في أرجائها وبعد ثلاثة أيام ارتحل عنا من كان بحلب من أصحاب تيمور ولم يبق من التتر أحد ولم يقدر منا أحد على الاقامة ببيته من

الفتن والوحشة ولا يمكن السلوك في الازقة من ذلك ثم عمرت حلب وتراجع الناس وجاءها أمير من السلطان وفي سنة أربع وثمانمائة كان مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد بن مراد

﴿ ذكر القتال الواقع بين تيمور والسلطان بايزيد ابن السلطان مراد ﴾

سبب مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد ان جماعة من ملوك الطوائف ببلاد الروم الذين اقتلع ممالكهم السلطان بايزيد ساروا الي تيمور يشكون اليه من السلطان بايزيد ويرغبونه الي الروم ويستنجدون به عليه في رد ممالكهم فأجابهم تيمور الي سؤالهم فسار في سنة أربع وثمانمائة الي بلاد الروم وأرسل للسلطان بايزيد في الصلح على عادته من المكر والدهاء وكتب للسلطان بايزيد انك رجل مجاهد في سبيل الله وأنا لا أحب قتالك ولكن انظر أي البلاد التي كانت مع أبيك وجدك فاقنع بها وسلم الي البلاد فلما وقف السلطان بايزيد على كتابه قال لرسله أيخوفني بهذه الترهات ويستفزني بهذه الخزعبلات أو يحسب أني مثل ملوك الاعاجم أو التتر الدشت الاغنام أو ما يعلم أن أخباره عندي ان أول أمره حرامي سفاك الدماء نقاض العهود الي غير ذلك من أمثال هذا الكلام وكتب له الجواب علي هذا المنوال وكان السلطان بايزيد في تلك السنة محاصرا مدينة القسطنطينية وقد قارب أن يفتحها فتركها وتوجه لقتال تيمور وأجرى عساكره كالسيول الهامرة وكان قد استخدم عنده كثيرا من عسكر التتر حتى صاروا أكثر جنده فأرسل تيمور الي زعمائهم ورؤسائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا فوعدوه بالمعاونة وكان تيمور قد نزل انقورية تجاه السلطان بايزيد بجيوشه ووقع القتال الشديد بينهما ثم اندفع التتر من عسكر السلطان بايزيد واتصلوا بعسكر تيمور كما وعدوه واستمر القتال من الضحي الي العصر فانهزمت بقية عساكر السلطان بايزيد وصار القبض عليه أسيرا بيد تيمور وأكثروا القتل والفساد وكان ذلك يوم الاربعاء سابع عشر ذي الحجة سنة أربع وثمانمائة ورجع به تيمور معه الي تبريز فمرض هناك وتوفي هناك رابع شعبان سنة خمس وثمانمائة وقسم تيمور بلاد الروم علي الملوك الذين استنصروا به وزعموا ان السلطان بايزيد انتزعها منهم ثم ان السلطان محمد ابن السلطان بايزيد استرجع ذلك الي ملكه لما استقرت السلطنة له كما سيأتي وفي سنة خمس وثمانمائة انعقد صلح بين تيمور وسلطان مصر وحصل بينهما مودة ومهاداة وأرسل تيمور الي سلطان مصر هدية وفيلا وفي سنة ست وثمانمائة عدا قرا يوسف حاكم اذربيجان على السلطان احمد بن أويس وانتزع بغداد منه ورحل السلطان أحمد الى حلب ودخلها في زي فقير ثم مشي عسكر تيمور على بغداد وكبسوا بها قرا يوسف ونهبوه وأخذوا بغداد وتوجه قرا يوسف هاربا الى الشام فامسك وحبس حسب مرسوم سلطان مصر ثم ورد مرسوم بطلب السلطان أحمد من حلب وارساله

الي دمشق ثم ورد مرسوم آخر باساكه واعتقاله بها فامسك وفي سنة سبع وثمانمائة كان هلاك تيمور بمدينة ترار وحملوه الى سمرقند ودفن بها وعمره قد جاوز ثمانين سنة ومدة ملكه نحو ست وثلاثين سنة وتملك بعده حفيده خليل بن أمير شاه بن تيمور ومكث قليلا وهلك وتفرق ملكهم بأيدي المتغلبين وتغلب على بغداد ملوك من التركمان الى ان انتزعها منهم اسمعيل شاه سلطان العجم ثم انتزعها منه الدولة العثمانية والبقاء لله وحده وبقي لتيمور عقب كان منهم سلاطين في الهند ولنرجع الى اتمام الكلام على فتوحات سلاطين مصر ثم نذكر ابتداء الدولة العثمانية وفتوحاتها اعلم ان سلاطين مصر بعد السلطان برقوق كثرت بينهم الفتن لاجل طلب السلطنة واستمر الحال الى سنة خمس وعشرين وثمانمائة فتسلطن الملك الاشرف سيف الدين أبو النصر برسباي فجهز جيوشا لقتال أهل قبرس

﴿ ذكر تجهيز الجيوش لقتال أهل قبرس ﴾

قال العلامة القطبي قبرس بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام وهي جزيرة في البحر الشامي مقدارها مسيرة ستة عشر يوما وبها قرى ومزارع وأشجار ومواشي وبها معدن الزاج القبرسي ومنها يجلب الى سائر الاقطار وبها ثلاث مدن ومن قبرس الي طرابلس الشام مجريان في البحر وقد تكرر استيلاء المسلمين عليها وانتزاع الكفار اياها وقد تقدم ان أول من غزاها معاوية رضي الله عنه وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار فنقضوا ثم غزاهم ثانية فقتل وسبى سبيا كثيرا وروي انه لما افتتحت مدائن قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبي فيما بينهم بكي أبو الدرداء رضي الله عنه وتنحي عنهم ثم احتبي بحمائل سيفه ودموعه على خديه فقيل له أتبكي في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله وأذل الكفر وأهله فضرب على منكبيه وقال ويحك ما أهون الخلق على الله تعالى اذا تركوا أمره فبينما هي قوة ظاهرة وقوة قاهرة لهم على الناس اذا تركوا أمره فصار حالهم على ما ترى من السبي والاهانة ويريد بذلك ان رغبتهم في السبي وحب المال دليل على تهاونهم بالقيام بأمر الله فيرجع أمرهم الى الذل والهوان وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسيرة يوم واحد وانما سميت جزيرة قبرس بونن هناك كان يسمي قابرس يعظمه الكفار ويعظمون لاجله جزيرة قبرس وهي جزيرة رخاؤها شامل والخير بها كامل وأهلها موصوفون بالغنا واليسار وبها معادن الصفر ويجمع منها اللاذن الحسن الرائحة ويعض منه يغلب رائحة العود في طيبه وهو الذي يجمع من على الشجر خاصة وكان يحمل الي ملك القسطنطينية لانه أفضله وما يتساقط على وجه الارض يبيعونه للناس وكان الاوزاعي يقول انا نرى هؤلاء يعني أهل قبرس أهل عهد وان صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم وانه لا يسعهم نقضه الا بأمر

عنيف عندهم ورأى عبد الملك بن صالح في حدث أحدثوه ان ذلك نقض لعقدهم فكتب الى عدة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو اسحاق الفزاري ومحمد ابن الحسن فاختلفوا عليه وأجاب كل واحد بما ظهر له وانتهى خراج قبرس الذي يؤدونه الى المسلمين بعد المائتين من الهجرة الى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وأربعين ألفا وقد كان الملك الاشرف سيف الدين أبو النصر برسباى سلطان مصر كثير الغزو الى طرف الفرنج وتسلطن سنة ٨٢٦ فني سنة ست وعشرين وثمانمائة كثرت الاخبار بأن الفرنج تحركوا على المسلمين فجهز عدة أجناد الى السواحل فندب عدة الى دمياط وعدة الى اسكندرية وعدة الى غيرها وجهز مركبين أحدهما من بيروت والآخر من صيدا فنازلوا جزيرة الماغوص سنة ٨٢٧ فانتهبوها وأحرقوا ما بها من القرى وما بساحلها من المراكب وقتلوا وأسروا وقدموا سالمين غانمين وكان عدد الاسرى ألفا وستمائة نفس وفي سنة ثمان وعشرين جهز جندا كثيرا وتوجه بصحبتهم عدد كثير من المتطوعة وسافروا الى دمياط وكان ملك قبرس بعث تسعة أغربة يقفون على فم دمياط لمنع الاغربة من الدخول في البحر المالح فلما أبصروا مراكب المسلمين وجيوشهم انهزموا بغير قتال ثم توجه المسلمون من جهة طرابلس فوصلوا الى الماغوصة فطلع الخيالة وأكثر المشاة الى البر وضربوا خيامهم وأرسل صاحب الماغوصة يطلب الامان فاعطوه ثم ركبوا في الحال وداسوا من قدروا عليه وأوسعوهم تحريقا وتخريبا وأوقع الله الرعب في قلوب الكافرين حتى كان الثلاثة من المسلمين ينتصرون على أكثر من مائة كافر وجاء اخو صاحب قبرس في ألف فارس وثلاثة آلاف راجل فلم يقدر أن يقدم فرجع من غير قتال فلما تمت للمسلمين هذه الحالة في الماغوصة قصدوا المالحة وأحرقوا أماسوا عليه الى مكان يقال له رأس العجوز نخيموا هناك وجهزوا من الغنائم شيأ كثيرا ثم ساروا في المراكب وحاصروا الحصن الذي هناك الى ان اخذوه عنوة وملؤا أيديهم من الغنائم والاسرى وأحرقوا الحصن وكان عدة من قتل من الفرنج في شهرين خمسة آلاف ولم يقتل من المسلمين في هذه الغزوة الا ثلاثة عشر نفرا ثم رجعوا ثم بلغ الاشرف أن صاحب قبرس ارسل الى ملوك الفرنج يستنصر بهم على المصريين يشكو عليهم ما جرى على بلاده فأرسل كل منهم له نجدة من المراكب والفرسان فامر الملك الاشرف بزيادة تجديد مراكب و بذل الاموال حتى كان عدة تلك المراكب مائة قطعة وأزيد وندب الناس لجهاد الكفار فأجابه الى ذلك كثير من الامراء والعساكر والمتطوعة وساروا متوجهين في شعبان سنة تسع وعشرين وثمانمائة فلما وصلوا الى المسون وجدوا الحصن الذي كانوا اخربوه قد عمر وشحن بالمقاتلة فأحاطوا به وصعدوا على سلالم فلكوا البرج الاول وهزموا الفرنج ثم أحاطوا بقرية من قرى قبرس فطلب أهلها الامان فأمنوهم

ثم أرسلوا الرسل الي ملك قبرس يدعونه الي الطاعة فأبي وقتل الرسول فهاج المسلمون لقتاله والتقوا بجنوده فقاتلوهم واشتد الامر فاتفق ان ملك قبرس أراد الهرب فركب ثم وقع عن فرسه فأركبوه فوقع ثانيا فأركبوه فكبا به الفرس فاندهش قومه من ذلك وانهزموا وولوا الادبار فرآه بعض الاتراك فأراد قتله فصاح أنا الملك فأسروه واستمر المسلمون خلف الافرنج ورشقوهم نبلا فلم يزالوا كذلك الي أن غربت الشمس وكان جملة من قتل من الافرنج في ذلك اليوم ستة آلاف وقيد ملك قبرس وقتل اخوه ولم يسلم من الافرنج الا من بادر الى البحر وركب وهرب وملك المسلمون كثيرا من مراكبهم ثم حمل ملك قبرس الى مصر وطيف به ثم قرروا عليه مائتى ألف دينار يحمل منها وهو بمصر النصف ويرسل النصف اذا رجع والزم بحمل عشرين ألف دينار كل سنة والف ثوب صوف وكان الافرنج قد طمعوا فى تملك السواحل فلما وقع هذا الفتح عظم فرح المسلمين وانقطعت اطماع الفرنج من تملكهم بلاد المسلمين قال بعض المؤرخين ومن مناقب السلطان برسباى انه اخذ بلاد قبرس واسر ملكها وهو في تخت مملكته بمصر لم يتحرك

﴿ ذكر الغزو الي رودس ﴾

في سنة أربع وأربعين وثمانمائة جهز الملك الظاهر جقمق سلطان مصر ستة عشر غرابا مشحونة بالمقاتلة للغزو الي بلاد رودس وفى سنة خمس واربعين اهتم لذلك اهتماما كثيرا وفى سنة سبع واربعين وثمانمائة سارت المراكب المجهزة لغزو رودس فى جمع كثير ونزلوا علي قشتيل ووقع بينهم وبين من فيه من الكفار قتال وقتل جمع من الطائفتين واشتغل بعض المسلمين بما لا يليق من الفساد كالزنا ونحوه ولم يحصلوا علي طائل وقتل من المسلمين أكثر من مائة وجرح اكثر من خمسمائة قال البدر العيني كانت سفرتهم هذه ملعبة وارتد منهم عدة مماليك ولما وصل المسلمون الي رودس وجدوا اهلها مستعدين استعدادا هائلا وهي محصنة بآلات الحصار والقتال بكل ما امكنت قدرتهم ثم حصل القتال بينهم فعادوا من غير ان ينالوا طائلا وفي تاريخ القرماني غير هذا فانه ذكر ان في سنة خمس واربعين انتصر الجيش المجهز الي رودس ورجعوا ومعهم بنت الملك وكثير من الاسري ومن السبي من النساء والصبيان وصحبتهم من الذهب العين ثمانية عشر صندوقا يبلغ ما فيها نحو ثلاث قناطير من الذهب ومعهم ايضا اثنتا عشرة جرة من النحاس مختومة الفم بالرصاص في كل جرة قنطار ونصف من الذهب وغير ذلك من الجواهر واليواقيت والتحف اخذ ذلك كله من قلعة قشتيل من اعمال رودس وهدمت القلعة في هذه الغزوة وفى سنة ست وستين وثمانمائة بعث الملك الظاهر خوش قدم سلطان مصر تجريدة من العسكر الى قبرس لتقرير الملك لصاحبها القائم بها ودفع المتغلبين عليه ففعلوا ذلك وعادوا سالمين وفي هذه السنين

انتشرت فتن كثيرة بمصر زيادة عما كان قبل ذلك وكلها كانت بين الامراء بمصر لطلب السلطنة فضعف أمر الغزو والجهاد منهم وظهرت قوة للدولة العثمانية بأرض الروم وأكثروا الغزو والجهاد وفتحوا كثيرا من البلاد فلنذكر ما حصل الوقوف عليه من ذلك على سبيل الاختصار

﴿ ذكر الدولة العثمانية وفتوحاتها ثبت الله ملكهم ووفقهم لما يحبه ويرضاه ﴾

اتفق العلماء على أن من وقف على سير الدول الاسلامية يعلم علما قطعيا ان الدولة العثمانية سيرتهم من أحسن سير الدول الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين لأنهم متمذهبون بمذهب أهل السنة صحيحو العقيدة ناصرون لاهل السنة قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ليس عندهم شيء من الزيغ والابتداع ولهم الفتوحات الشهيرة والجهاد والغزوات الكثيرة قائمون بشعائر الاسلام لاسيما في الحرمين الشريفين فان لهم فيهما الصدقات والخيرات الكثيرة وقائمون أيضا بشعار الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار فيجب على كل مسلم أن يدعو لهم بالتثبيت والتأييد والاعانة والنصر والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه واشتهر أنهم من التركمان وأن نسبهم ينتهي الى يافث بن نوح عليه السلام وقيل ان أصلهم من العرب فقد ذكر العلامة السنجاري في تاريخه نقلا عن صاحب درر الاثمان في أصل منبع آل عثمان أن أصلهم من عرب الحجاز وأنهم من المدينة المنورة وان جدهم الاعلى هاجر من بلاد الحجاز قال مؤرخ الدولة العثمانية الشهير بخير الله أفندي لا نريد ان ندخل في هذا البحث لكن غاية ما نقول ان هذه العائلة الشريفة هي أشرف العشائر الاسلامية ثم ذكر أن جدهم عثمان هو أول من تسلطن منهم بالروم وهو ابن ارطغرل بن سليمان شاه وسليمان شاه كان سلطانا في بلاد ماهان بالقرب من بلخ فلما ظهر التتر أفسدوا في الارض وخربوا البلاد وكان من جملة ما خربوه بلخ وأعمالها فترك سليمان شاه البلاد مع من تركها من الملوك وغيرهم وقصد بلاد الروم وكان قد سمع بدولة السلجوقية التي في الروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم الى الكفار نخرج وتبعه في ذلك خلق كثير فلما وصلوا الى أذربيجان تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيأ كثيرا ثم قصدوا ناحية حلب فوصلوا الى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر فعبروا النهر فغلب عليهم الماء فغرق سليمان شاه ومات غريقا شهيدا فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره هناك مشهور يزار ويتبرك به وكان مع سليمان شاه أولاده الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدى وأرطغرل فلما وصلوا الى موضع يقال له ياسين أومسي رجع سنقور وكون طوغدي أبناء سليمان شاه الى بلاد العجم وتخلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة وهم كوندز ألب وصاروبتي وعثمان ومكث أرطغرل في ذلك الموضع يجاهد الكفار ثم أرسل ابنه صاروبتي الى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين السلجوقي يستأذنه في الدخول

الى بلاده ويطلب منه موضعا ينزل فيه فعين له جبال طوماج وجبال أرمينك وما بينهما موضعا للسكنى فأقبل أرطغرل مع أربعمائة بيت من قومه فتوطنوا في قره‌جه‌طاغ وفي سنة خمس وثمانين وستمائة نازل السلطان علاء الدين السلجوقي بعساكر كثيرة ومعه الامير أرطغرل قلعة كوتاهية وهي يومئذ بيد الكفار ففوض أمر القلعة الى الامير أرطغرل وسار هو الى قتال التتر بسبب تعرضهم لبعض بلاده ولم يزل الامير أرطغرل يجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الاموال شيأ كثيرا فازداد عند السلطان علاء الدين قربا ومنزلة ولم يزل الامير أرطغرل يجاهد في سبيل الله حتى توفي في سبيل الله سنة سبع وثمانين وستمائة فتأسف عليه وعين مكانه ولده الامير عثمان فلما رأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده في الجهاد وعلم نجابته في فتح البلاد أكرمه وأمده بأنواع الاضافة والامداد وجعله سلطانا مشاركا للسلطان علاء الدين في السلطنة وأرسل اليه الراية السلطانية والخلع السنية والطبل والزمر فلما ضرب الطبل بين يدى (السلطان عثمان) نهض قائما على قدميه اعظاما للسلطان علاء الدين ومازال قائما حتى فرغوا فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة في الاسفار والاعياد وكانت سلطنة السلطان عثمان سنة تسع وتسعين وستمائة وكانت سلطنته على البلاد التي افتتحها أبوه والتى افتتحها هو قبل أن يتسلطن منها مدينة قراحصار وحصن قرا وقصبة ويني كوى وقلعة بلاجك ومدينة يني شهر وغير ذلك ولما تسلطن جعل كرسي سلطنته قراحصار ثم نقله الى يني شهر وكان كثير من التتر تغلبوا على بعض ممالك السلجوقية فقاتلهم أبوه ثم قاتلهم هو وأبادهم وانتزعها منهم قبل أن يتسلطن وكان ذلك من جملة أسباب محبة السلطان علاء الدين له قال بعض المؤرخين ان الوقوف على ترجمة هؤلاء السلاطين وفتوحاتهم العجيبة يستوجب أن يعتقد أنهم أعظم ملوك الاسلام فان كل واحد منهم فعل أفعالا باهرة وغزا غزوات قاهرة تستحق أن تخلد في بطون الاسفار لكى يقتدى بهم الملوك الذين يأتون بعدهم ويعلموا ان أفعال هؤلاء السلاطين تستحق أن تقدم على أفعال الاكاسرة والقياصرة وبقية الملوك والسلاطين الذين تدونت أسماؤهم في كتب التواريخ ومن طالع تواريخ هؤلاء السلاطين تظهر له عظمة أفعالهم وبطشهم وشجاعتهم التي قاوموا بها جميع الدول المحيطة بهم فكانوا يفتحون المدن العظيمة والحصون المشيدة ويقهرون الجبابرة العظام ويتسلطون على الممالك برا وبحرا الى أبعد مكان فكانت ترتعد من سطوتهم قلوب جميع الدول الافرنجية ويعطونهم الطاعة والخضوع وكان السلطان عثمان جدهم وواسطة عقدهم ومؤسس دولتهم وكان السلطان علاء الدين قد كبر وشاخ وطعن في السن حين أن أشرك معه السلطان عثمان لانه تولى السلطنة سنة أربع وخمسين وستمائة واستمر الى أن توفي سنة سبعمائة وبقى بعض ممالكهم

تحت يدبنيه و ابناء عمه مع ضعفهم عن حفظها و آخر من بقي في السلطنة منهم السلطان مسعود بن كيكاوس وتوفي مسعود سنة ثماني عشرة و سبعمائة فاضمحلت دولتهم وكان لهم من التتر عساكر كثيرة كانوا متغلبين عليهم فاستولى عليهم السلطان عثمان و بنوه من بعده وصارت الممالك كلها بأيديهم ومن الممالك التي افتتحها السلطان عثمان بعد سلطنته حصن الصنصاف المعروف بقلعة بياجك وكان الخليفة هرون الرشيد غزا بنفسه الروم ففتح هذا الحصن ثم استولي عليه الكفار واستمر بأيديهم الي أن افتتحه الغازي السلطان عثمان المذكور وسيأتي ذكر بقية فتوحاته وكان السلطان عثمان المذكور ملكا عادلا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة شجاعا مرابطا في سبيل الله مجاهدا يراعي الابطال ويحسن للايتام والارامل ومن زهده في الدنيا انه لما توفي لم يترك من المال شيأ وانما ترك بعضا من الخيل وشيأ من الغنم التي ترعى في نواحي بروسا باسم السلاطين العثمانية وهي من نسل تلك الاغنام وترك أيضا بعد وفاته قفطانا وعمامة وبعض مناطق من القطن وملعقة و مملحة فهو سلطان مبارك خرج من صلبه السلاطين العظام الذين شيدوا أركان الاسلام وكان صحيح العقيدة علي عقيدة أهل السنة يحب الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ويحسن اليهم و يعظمهم و يقوم بحقوقهم وكان شديد التعظيم لشعائر الدين والقرآن العظيم *يحكي أنه قبل أن يتسلطن سافر الي موضع ونزل في طريقه ضيفا عند انسان فلما أراد النوم هيأله صاحب المنزل موضعا لينام فيه فلما دخل ذلك الموضع رأي مصحفا معلقا في جدار ذلك الموضع فكبر عليه أن ينام وذلك المصحف معلق بذلك الموضع ورأى أن ذلك يخل بتعظيم القرآن فوقف علي قدميه قائما الي الصباح مستقبلا المصحف ويداه علي صدره وذلك دليل علي قوة ايمانه وصحة اعتقاده رحمه الله تعالى وكان كثيرا التردد علي الشيخ العارف بالله تعالى أده بالي القرماني فرأى السلطان عثمان ليلة في منامه أن قمرا خرج من حضن الشيخ المذكور فدخل في حضنه ثم نبتت من سرته شجرة عظيمة ملأت أغصانها الآفاق ورأي تحتها جبالا راسيات وتجرى عندها عيون وأنهار والناس يشربون من تلك المياه و يملؤن منها و ينتفعون من تلك المياه فلما استيقظ السلطان عثمان قصد الشيخ المذكور وقص رؤياه عليه فقال له الشيخ وكان من المكاشفين لك البشرى بمنصب السلطنة و سيعلو أمرك وينتفع الناس بك و بأولادك واني زوجتك ابنتي هذه فقبلها السلطان عثمان وتزوج بها فولدت له أولادا منهم السلطان اورخان وهو جد السلاطين آل عثمان أيد الله دولتهم على ممر الزمان و بسط الكلام علي فتوحات السلطان عثمان الغازي وغزواته مذكورة في التواريخ المبسوطة لاسيما التواريخ التي باللسان التركي وكذلك مناقبه و بقية سيرته كل ذلك شئ طويل مذكور في التواريخ مذكورة وانما الذي يمكن

ذكره هنا من ذلك شيء يسير من مناقبه وغزواته وفتوحاته فمن غزواته وفتوحاته قراحصار وجعلها كرسي ملكه كما تقدم الى أن فتح يني شهر فنقل كرسي ملكه اليها ثم فتح حصن يارحصار وقصبة اينه كول ويني شهر وأظهر فيها شعار الاسلام وفي سنة سبعمائة اشتغل بقتال الكفار في طرف أزنيق حتى أعجزهم أمره مقدار خمس سنين فارسل صاحب أزنيق الى ملك الروم صاحب القسطنطينية يستنجد به فامده بجيوش كثيرة في سفائن عديدة فلما وصلوا الى الساحل من طرف بلاق أوه كمن لهم المسلمون فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة فلم ينج منهم الا الشاذ النادر وفي غضون ذلك توفي السلطان علاء الدين السلجوقي في سنة سبعمائة وكثر الهرج والمرج في بلاده فتحقق أكثر علمائها كره بالغازي السلطان عثمان كذلك وفي سنة سبع وسبعمائة فتح السلطان عثمان ناحية مرمره وفي هذه السنة اتفق كثير من ملوك الروم على قتال السلطان عثمان المذكور فاجتمعوا في جحافل كثيرة نحو ثلاثين ألفا فقاتلوا المسلمين أمام قيسون حصارى فكان يوما شديدا على الكفار قتل فيه كثير من الكفار ومن رؤسائهم وهرب الباقون وتحصنوا بحصن من أعمال بروسا وفاز المسلمون بالغنائم واستولوا على حصن كستل ثم ساروا الى اولوبار فغلبوا عليها واصطلح معهم صاحبها على خراج يؤديه وفي هذه السنة أيضا استولى على حصن كته والبلاد الملحقة بها وقسم البلاد على أولاده وأقطعهم اياها واستقر هو في يني شهر وتمكن بها وجعلها دار الامان وبني فيها البقاع وأشاد القلاع وأسكن فيها جند* وفي سنة ثمان وسبعمائة فتح حصن لفكة وحصن آق حصار وحصن توق حصار وأسكن فيها المسلمين وأظهر شعائر الدين وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وسبعمائة كان أول حدوث البارود وأما حدوث المدافع فكان سنة اثنتين وستين وسبعمائة وفي سنة ثنتي عشرة وسبعمائة فتح حصن كبوة وحصن طرقلو يني جه مي وحصن تكور بيكاري وغيرها وفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة افتتح حصن أونوس وبلادها وعينه كلي وراوينس حصار وغير ذلك وفي سنة اثنتين وعشرين نازل الغازي السلطان عثمان المذكور مدينة بروسا وحاصرها مدة ثم لما اشتد الحصار أمر ببناء قلعتين في طرف المدينة وأسكن فيها الجند وأمرهم بالتضييق على أهل البلد وقطع الميرة عنهم وجعل في احد القلعتين أحد بني عمه وفي القلعة الأخرى أحد الشجعان من عبيده ثم رجع السلطان الى يني شهر وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة فتحت قلعة قدكرية وبلادها وبلاد ملارني وبلاد اقبازى وفي سنة عشرين فتحت بلاق آباد وحصن قاندرى وهذه البلاد تعرف الآن بقوجه نسبة الى فاتحها الان الامير الذي فتحها يقال له قوجه ومعناه باللغة التركية الشيبة وفي هذه السنة فتحت حصون كثيرة منها حصن يولي وحصن صحانون وما ينضم اليها وفيها فتحت بلاد قره مرسل على يد

الامير قره مرسـل فسميت تلك البلاد باسم فاتحها وفي بلاد كثيرة يخرج منها الفواكه الكثيرة تجلب فواكهها الى القسطنطينية وفي هذه السنة أيضاً أرسل السلطان عثمان ابنه أورخان الى فتح بروسا وصحبته عساكر كثيرة وكان السلطان عثمان اذذاك مريضاً بعلة النقرس فتخلف عن ذلك الغزو وقعد في يني شهر وفي مدة حصار ابنه مدينة بروسا توفي السلطان عثمان المذكور وقيل بل عاش بعد فتح المدينة اياما فكانت وفاته سنة ست وعشرين وسبعمائة ومولده سنة ست وخمسين وستمائة وعمره تسع وستون سنة ومدة ملكه ست وعشرون سنة ولما توفي كان بيده الممالك التي افتتحها هو وأبوه أرطغرل والممالك التي افتتحها السلجوقية فكانت بايديهم وكان ملكهم لها على التدريج في سنين متعددة وهي قونية ووان واقصرا وقيسارية وسيواس وبلاد آيدين ومنيسا وصاروخان وحميد وكرسان وبرقسطموني وأنكورية وملطية ومرعش والبستان وتوقات واماسية ونيكسار وأرزنجان وسامسون وجانيق وعنتاب وتسلطن بعده ولده (أورخان) في ابتداء سنة سبع وعشرين ولما توفي السلطان عثمان جاء الخبر لابنه السلطان اورخان وهو محاصر مدينة بروسة كما تقدم

﴿ ذكر فتح بروسا ﴾

ثم انه بالغ وبذل جهده في حصار أهلها وقاتلهم حتى افتتحها واستولى على القلعة وأسكنها المسلمين وجعلها دار الاسلام بعد ان كانت معقلا لاهل الاوثان والازلام ونقل كرسي ملكه اليها وجعلها دار السلطنة وبنى بها جامعا ومدرسة وتكية يطبخ فيها الطعام للفقراء والايتام والغرباء وهذه المدينة من أعظم المدن الاسلامية وأعمرها وهي مدينة كثيرة الثمار والعيون

﴿ ذكر فتوحاته في بلاد اليونان ﴾

ولما نقل السلطان أورخان كرسي الملك الى مدينة بروسة أخذ في الاهتمام والاستعداد لافتتاح مدن جديدة فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل اهلها بالشفقة والرحمة حتى ان كثيرا من النساء الروميات اللاتي فقدن أولادهن ورجالهن في تلك الحروب كن يستغثن به ويقعن على قدميه ويطلبن منه المساعدة والرعاية فكان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فمالت اليه قلوب الناس ومازال يتقدم في فتوحاته حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز كليبولي واجتاز ابنه سليمان بوغاز شنق قلعة وفتح مدينة كليبولي وهي مفتاح القسطنطينية وفي سنة احدى وثلاثين وسبعمائة سار السلطان أورخان بعساكر ففتح حصون قيسون حصاري وفتح أزميد وفتح مدينة ازنيوب وكانت من معظم مدائن الكفار ومجمع عظمائهم فغنم المسلمون منها غنائم كثيرة وفتح حصونا كثيرة وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة أمر السلطان أورخان ولده الامير سليمان أن يجتاز البحر الابيض الى طرف روم ايلي لجهاد

ولم يكونوا يملكون السفن فعملوا ألواحا شبه السفن فركبوا عليها في الليل من موضع يقال له كمر فوصلوا الى ذلك البر فصادفوا حصنا يسمى جمنا فاستولوا عليه بما فيه ثم هجموا على قلاع أخر فاستولوا عليها قهرا

﴿ ذكر القتال مع أهل كليبولى ﴾

وكان الامير سليمان بن أورخان المذكور على جانب عظيم من الشهامة والعدالة فلما رأى الكفار حسن سيرته ونشر عدله وضبط جنده أطاعوه ورضوا به فصار أمر المسلمين ينمو وصيتهم يسمو فخرج لقتالهم صاحب كليبولي في عسكر كثير وكان المسلمون في عسكر قليل فتوكلوا على الله وتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوهم قتالا شديدا فانتصر المسلمون واستولوا على عدة حصون منها مدينة كليبولي وهي مدينة جليلة على شاطئ البحر وبينها وبين القسطنطينية ستة وثمانون ميلا ونصف ميل ومنها قلعة قره جك وقلعة خيره بول وهي بلاد متسعة ومنها قلعة دركور ومنها تكفور طاغي وغير ذلك وأخرب الكنائس والبيع وبنى مكانها مساجد ومعابد وفي سنة ستين وسبعمائة خرج الامير سليمان المذكور للصيد فكبا به الفرس فمات لوقته فجزع عليه أبوه جزعا شديدا وفي هذه السنة عبر الامير مراد الغازي ابن السلطان أورخان الى طرف روم ايلي من خليج كليبولي ففتح مدينة جورلى وهي من القسطنطينية مسيرة ثلاث مراحل ولم يزل مراد الغازي يحاصر البلاد ويقاتل الكفار حتى فتح مدينة ديمتوقة وهي من كبار البلاد الاسلامية وفي سنة احدي وستين وسبعمائة توفي السلطان أورخان وعمره ثلاث وثمانون سنة ودفن بمدينة بروسه ومدة ملكه خمس وثلاثون سنة وكان ملكا جليلا ذا سيرة مرضية وكرم وافر وعدل متكاثر طاهر الاعتقاد سليم الفؤاد عدوا لاهل الكفر والالحاد وكان كثير الغزو والجهاد وبنى كثيرا من الجوامع والمدارس وأجرى فيها الخيرات الكثيرة رحمه الله تعالى وتسلطن بعده ولده (السلطان مراد الاول) فلما جلس على سرير الملك سار وحاصر مدينة انكورية وكانت عصت عليه ففتحها عنوة وكانت من أمنع الحصون فلما سمع بخبره ابن قرمان صاحب مدينة لارندة خشي على بلاده فجمع جموعا من التتر وورشق وطورغود والتركمان وغيرهم وسار بجموع لا تحصى لقتال السلطان مراد المذكور فجرى بينهما قتال شديد وحرب أكيد ثم انجلى الامر عن هزيمة ابن قرمان وانتصار السلطان مراد

﴿ ذكر فتح أدرنه ﴾

وفي هذه السنة أيضا جهز السلطان مراد جيشا وأرسله لفتح أدرنة وجعل عليه شاهين لالا الاتابك فاقتتلوا قتالا شديدا وعجزوا عن أخذها وسألوا السلطان مرادا أن يقدم عليهم بنفسه فسار

السلطان مع جيوش الموحدين وغزاة المجاهدين فاجتاز البحر فلما سمع الكفار بقدومه تزلزلت أركانهم وهرب سلطانهم فلما سمع المسلمون بذلك هجموا على المدينة فأخذوها وأرسلوا اعلموا السلطان فحمد الله وأثنى عليه وجاء فدخل المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا تجري من تحتها أنهار ثلاثة بينها وبين القسطنطينية سبعون ميلا ثم أرسل لالاشاهين الاتابك ففتح مدينة قلية ثم فتح زغرة بنواحيها وعادوا الى مدينة بروسة *ومن غزواته أنه سار الى اقليمي الصرب والبلغار وفتح فيها فتوحات وأثخنهم قتلا وأسرا وكان بين الاناطول جملة من أمراء الاتراك لم يزالوا باقين على الاستقلال فحاربهم وأخضعهم واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهية وخضع لسلطنته معظم مقاطعة مكدونيا وبلاد الارناؤوط وفتح كثيرا من بلاد اليونان وعبر بحر مرمرا وفتح مدنا وقلاعا جهة تاساليا

﴿ ذكر ابتداء اختراع عسكر الانكشارية ﴾

وفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة أشار خليل باشا على السلطان بأن يأخذ خمس الاسارى من الغانمين على زقاق كليبولي وكان الغزو والجهاد في بلاد الروم ايلي متتابعا فكانت تسبي الاسارى وتأتيه كالسيل الهامي والبحر الطامي فاجتمع منهم عند السلطان طائفة كثيرة فأمرهم السلطان بتعليم علم الرمي بالبندق فتعلموا ثم ميزهم وأرسلهم الى خدمة الشيخ العارف بالله تعالى الحاج بكتاش ليعلمهم بعلامة ويسميهم باسم ويدعو لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند الشيخ قطع كم قبائه وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة وسماهم ينك جري والجاري على الالسن انكشاري ومعناه العسكر الجديد لان السلطان عثمان كان أكثر عساكره من فرسان التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكري ولا انتظام لهم حال القتال فقصد السلطان أورخان ترتيب عساكره على هذا الوجه فأحدث وجاق الانكشارية ورتبه ولم يتممه وصار تمام انتظامه على يد ابنه السلطان مراد واستمر وجاق الانكشارية الى زمن السلطان محمود الثاني فأبطله وأبادهم كاسيأتي سنة احدى وأربعين ومائتين وألف وأحدث النظام الجديد الموجود الآن وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة اشترى السلطان مرادخان من صاحب بلاد حميد خمس قلاع وهي يلواج ويني شهر وآق شهر وقره أغاج وسيدي شهر وفي سنة احدى وتسعين وسبعمائة خرج السلطان مراد المذكور الى قتال رئيس الكفار ابن لازقا وكان قد تجمع لقتاله أهل اليونان والصرب والافلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار وتحزبوا جميعا عليه فاتفق دوافاته بعسكر الكفار بموضع يقال له قوصوه ببلاد الروم ايلي فانحم بين الفريقين القتال الى ان هبت رياح النصر للمسلمين وقتل رئيس القوم الكافرين وانقلب الكفار

على أدبارهم صاغرين

﴿ ذكر استشهاد السلطان مراد الاول ﴾

ثم انه لما انهزم الكفار أقبل من أمرائهم أمير يقال له يلواش فى خيله ورجله مظهرا للطاعة فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان في كمه فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك واحد من طرف كمه وآخر من كمه الآخر احترازا من ذلك فمات السلطان سنة سبعمائة واثنتين وتسعين من ضربة ذلك الخنجر وخرجت أمعاؤه فدفنوا أمعاءه هنك وحملوا جسده ودفنوه بمدينة بروسة وقتلوا ذلك الكافر الذي ضربه وقطعوه بالخناجر وكان السلطان مراد المذكور رحمه الله ملكا جليلا عادلا عارفا وكان أفني عمره في الجهاد وكان شجاعا مقداما عالي الهمة توفي وعمره خمس وستون سنة ومدة سلطنته احدي وثلاثون سنة وتسلطن بعده ولده (السلطان السعيد يلدرم بايزيد خان) وبعد جلوسه أخذ في محاربة الصرب الذين كان أبوه يحاربهم ونقوت عساكره الى أن وصلت الى ودين وتملكوا مدينة أسكوب والتزم ملك الصرب أن يزوج أخته للسلطان المذكور وأن يدفع خراجا سنويا ومن فتوحاته أنه استولى على جزيرة رودس وكانت للمسلمين فتملكها النصارى وتكرر انتزاعها منهم مرة بعد أخرى وآخر الامر انتزعها هذا السلطان منهم وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فتح السلطان المذكور قرطوه وهي معدن الفضة الخالصة التي لا نظير لها وفتح بلاد أسكوب وهي من أجل البلاد الاسلامية وفتح قلعة ودين فخاف ابن آيدين من السلطان المذكور وسلم مفاتيح قلاعه اليه وفيها أطاع السلطان أهل بلاد قرمى وصاروخان وفيها هرب صاحب قسطموني وهو ابن منتشا فأرسل السلطان من يضبط تلك القلاع ولما نقض العهد علاء الدين صاحب بلاد قرمان وبلغ السلطان أنه أغار علي بعض بلاد أناطولي هجم عليه السلطان فانهزم فلحقه بموضع يقال له آق جاي فاسر هو وأبناؤه ونازل السلطان مدينة قونية وهي كرسي مملكته وحاصرها وكان وقت ادراك الغلال فرسم السلطان بان لا يتعرض أحد لشئ من الغلال وان لا يظلموا أحدا وأذن لاهل القلعة بان يخرجوا ويشتغلوا ويبيعوا على مقدار ما شاؤا فخرج أهل القلعة وأصلحوا شأن غلالهم وحصادهم وباعوها من العسكر على أبلغ وجه أرادوا فلما شاهدوا ذلك رجعوا الي أنفسهم فقالوا ان ما كان بلغ منا هذا المبلغ لا ينبغي ان نعصيه ونخرج عن طاعته فحضروا برمتهم طايعين وسلموه مفاتيح القلعة وقالوا أنت أحق بها وأهلها فلما رأى أهل سائر القلاع ما فعل أهل قونية وهي عمدة بلاد قرمان رغبوا في المتابعة بمفاتيح قلاعهم وهي بلدة آق سراي ونيكده وقيصرية ودولي قره حصار وسلموها الى السلطان المذكور ثم رجع الي مقر مملكته بروسة بعد

ماقتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة وبقيا الى أن أطلقهما الخارجي التيمور وفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة استولى السلطان المذكور على سيواس واماسية ومدينة توقات ونيكسار وجانيك وصامسون وكلها كانت بيد السلجوقية وعمالهم وفي آخر هذه السنة بلغه ان صاحب قسطموني أغار على بعض البلاد التي بيد السلطان بايزيد وعاث فيها نهبا وتخريبا فلما بلغه ذلك وكان قد جاز البحر لغزو الكفار الى طرف روم ايلي فترك الغزو ورجع لقتال صاحب قسطموني فمات قبل ان يصل اليه السلطان بايزيد وتملك ابنه وأرسل الى السلطان يستعطفه ويسترضيه ويقول ان أبي قد جني وقد مات وأنا مطيع لاوامر مولانا السلطان ومن جملة ممالكه فالمناسب لعدله أن لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره وأرجو من مكارمه أن يترك لي مدينة سينوب وهي مدينة أبي وسقط راسي ويجعلني فيها نائبا عنه فأجابه السلطان الى سؤله وعاد الى مدينة بروسة ثم أرسل السلطان بايزيد الى صاحب القسطنطينية يقول له اما أن تخرج من البلاد وتسلمها واما سرت اليك فأتيتك في أعز مساكنك فخاف منه ملك القسطنطينية وتراسل معه الى أن قر الامر بينهما بأنه يدفع خراجا في كل سنة عشرة آلاف ذهب وان يبني للسلمين في داخل المدينة محلة يسكنون فيها ويكون لهم فيها مسجد وجامع وقاض يقضي لهم الخصومات فرضي بذلك وفعله واستمر ذلك الى وقعة تيمور فنقض العهد وأخرب الجامع وأخرج المسلمين من البلد وساقهم الى الروم قال الحافظ ابن حجر في كتابه انباء الغمر في أبناء العمر واشتهر يلدرم بايزيد بالجهاد في الكفار حتى بعد صيته وكاتبه الظاهر برقوق صاحب مصر وهاداه ووفد اليه أمير بعد أمير بالهدايا ولم يبق أحد من ملوك الأرض حتى كاتبه وهاداه قال الحافظ وسمعت شيخنا ابن خلدون يقول انما يخاف أن تملك مصر من ابن عثمان وكذا كان يقول الظاهر برقوق أنا لا أخاف من الكفار فان كل أحد يساعدني عليهم وانما أخاف من ابن عثمان والحاصل ان هذا السلطان افتتح ايالات كثيرة في الاناطول وروم ايلي واستولى على مدينة سلانيك ثم شن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الافرنج ثم وجه عزمه وهمته لفتح القسطنطينية وأخذ في تدبير ذلك وشرع في محاصرتها ثم قدر الله بسير التيمور الى قتاله وفي سنة اثنتين وثمانمائة اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم بايزيد وساروا الى تيمور مستغيثين به يشكون اليه من السلطان بايزيد ويرغبونه الى المسير الى الروم ويستنجدون به عليه في رد ملكهم فأجاب تيمور سؤالهم وسار بجيوش كثيرة ووقع بينه وبين السلطان بايزيد مكاتبات كثيرة فلم يرجع عن قصده والكلام على ذلك قد تقدم عند ذكر تيمور مبسوطا وكان السلطان بايزيد محاصر القسطنطينية وقد قارب فتحها وأشرف عليه فتركها وتوجه بما كره لقتال تيمور وكان غالب

عسكر السلطان من التتار فارسل تيمور الي زعمائهم والكبار من رؤسائهم وأمرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا فوعدوه بالمعاونة وكان تيمور قد نازل أنقورية فقصده السلطان والتقت الجيوش بقرب انقورية واشتد القتال فانهزم التتار الذين مع السلطان بايزيد فتبعهم كثير من العسكر في الانهزام فانهزموا وبقي السلطان بايزيد يقاتل بنفسه الى أن وصل الي تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه أسيرا وكان رحمه الله من خيار الملوك وكان مجاهدا مرابطا قد فتح من بلاد الكفار ومدنهم الكبار مالم يسمها من المسلمين خف ولا حافر وكان قوي النفس شديد البطش علي الهمة ولما أخذ السلطان بايزيد أسيرا صحبة تيمور معه الى بلاد العراق قاصدا خراسان ومكث في أسره الى أن توفي في تبريز سنة خمس وثمانمائة ثم وقعت فتن كثيرة في أراضي الروم بين أولاد بايزيد مع بعضهم واستمرت الى سنة عشرة وثمانمائة فتم الملك والسلطنة (للسلطان محمد الاول بن بايزيد) وكان أصغر اخوانه فالله سبحانه وتعالى يؤتي الملك من يشاء ولا يسئل عما يفعل وكان دأبه الاشتغال بالحروب وكان من جملة من خرج عليه وحارب (قره دولقشاه) من التتار في نواحي اماسية فسار عليه وهزمه وبدد شمله ثم قصد قتال صاحب سينوب وجرى بين الفريقين قتال شديد انتصر فيه السلطان محمد وانهزم صاحب سينوب أقبح هزيمة واستولى السلطان محمد على جميع ممالكه ثم بعد ذلك صفا له الدهر وانتظم له الامر ولم يبق من ينازعه في ملكه وفتح مدينة ازمير ونقل كرسي السلطنة الي ادرنة وأتته رسل ملوك الافرنج بالهدايا وبالتهاني وعقدوا معه صلحا خوفا منه وأعاد رونق السلطنة ووسع نطاقها ثم لما بلغه ان ابن قرمان نقض العهد وتعرض لأخذ بعض البلاد سار اليه بجيش عظيم فقاتله فهزمه وتبعه حتى أسره وولديه فاحضر بين يدي السلطان فعاتبه على سوء صنعه ثم عفا عنه وعن ولديه وأطلقهما وعين لهما بعض بلادهما وأخذ عليهما العهد والميثاق أن لا يخونا بعد ذلك واستولى على عدة قلاع لابن قرمان فيها قلعة صوري حصار وقلعة قير شهر وقلعة نيكده وقلعة آق شهر وقلعة سيدي شهر وقلعة أوغازي وقلعة يني شهر وقلعة سعيد ايلي ثم سار واستولي علي صامسون وغالب هذه البلاد وكانت قد افتتحها السلطان بايزيد ثم لما قدم تيمور الى بلاد الروم ردها الي أصحابها فارتجعها منهم السلطان محمد المذكور وكان السلطان محمد المذكور ملكا جليلا مهابا محبا للعلماء والصلحاء وهو أول من عين الصرة لاهل الحرمين واستمر في ملكه ثمانية أعوام وعشرة أشهر وتوفي سنة أربع وعشرين وثمانمائة وعمره ثمان وأربعون سنة وعهد بالسلطنة لولده مراد الثاني وكان ولده المذكور اذ ذاك غازيا في أقصي بلاد روم ايلي فأخفى الوزراء موت السلطان محمد مدة احدي وأربعين يوما حتي وصل ولده (السلطان مراد)

الى مدينة بروسة واستقر على التخت ثم بعد ذلك أظهروا موت السلطان وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة ظهر رجل ادعى أنه مصطفى ابن السلطان يلدرم بايزيد وكان مصطفى المذكور فقد في محاربة التيمور فادعى أنه هو وأقام في نواحي سلانيك فاجتمع عليه خلق كثير واستولى على جميع بلاد الروم ايلي وعلي مدينة ادرنة ثم اجتاز البحر الي طرف أناطول ليقاتل السلطان مراد وكان السلطان مراد بعث قبل ذلك وزيره بايزيد باشا وصحبته عساكر كثيرة لقتال الخارجي المذكور فقاتلوه بقرب أدرنة فانتصر الخارجي وانهزم عسكر مراد وأسر والوزير بايزيد باشا وقتله الخارجي فسار السلطان مراد بنفسه لقتاله بعساكر وافرة فقدر الله ان الخارجي المذكور أصابه الرعاف واستمر به ثلاثة أيام حتى ضعف جدا وجعل يخلط في الكلام واختل عقله فلما تحقق ذلك أركان دولته ووجوه عسكره تيقنوا خذلانه فداخلهم الخوف فتفرقوا شذر مذر وهرب الخارجي مع ضعفه الى طرف روم ايلي فلما شاهد ذلك عسكر السلطان مراد اجتازوا خلف المنهزمين فأسروا منهم خلقا كثيرا وقتلوا غالبهم وغنموا منهم أموالا ودواب كثيرة ثم أمر السلطان بعض أمرائه حتى لحق الخارجي بقرب أدرنة فظفر به فقتله وانتظم الامر للسلطان مراد وارتجع جميع ممالكه وكان حريصا على فتح القسطنطينية فأقام بمائتي ألف مقاتل وحاصرها حصارا شديدا فقاوموه أهلها أشد مقاومة ثم رفع الحصار عنها ورجع الي دار ملكه لتسكين الفتن التي أضرمها الروم بتلك النواحي فقاتلهم حتى أخمد تلك الفتن واستخلص تلك المدن ومازال يتقدم حتي داخل بلاد المورة فلما ذاع عند الفرنج خبره نهض البابا وعقد عهودا بين ملوك الافرنج علي محاربته فأجاب الى ذلك الفرنسيس وجرمانيا والمجر وبولونيا فكان بينه وبينهم حروب كانت الغلبة في بعضها لهم وفي بعضها له ثم عقد معهم صلحا سنة سبع وأربعين وثمانمائة وفي سنة تسع وأربعين نزل السلطان مراد عن السلطنة لولده السلطان محمد وخلع نفسه عن السلطنة واختار لنفسه مدينة مغنيسا فانتقل اليها واعتزل عن الملك وشاع هذا الخبر في الآفاق وقال ملوك الكفار بعضهم لبعض ان ملك المسلمين قد صار شيخا كبير فاعتزل عن الملك وجعل منصبه لولده وهو صبي صغير لا يختشى منه فاتفق قرال أنكروس وقرال الالمان وقرال جه وقرال له وأمير لاطين وأمير بوسنة وصاحب افلاق و بغدان وطوائف الافرنج على قتال المسلمين وان لا يدعوا من بلاد الاسلام حجرا على حجر فلما بلغ ذلك أركان الملك خافوا واستصوبوا أن يدعوا السلطان مرادا من مغنيسا ليكون معهم لانه سلطان شاع بذكره الاخبار وطال ما نكى الكفار فأرسلوا يطلبونه فامتنع وقال سلطانكم دونكم فخذوه وخلوني فلم يزالوا يدخلون عليه حتى رضي

﴿ ذكر غزوة عظمي ﴾

وسار مع ولده السلطان محمد الى طرف العدو فلما تصاف الطائفتان والتقى الجمعان تكاثر كل من الفريقين على الآخر وانهزم المسلمون وجعل الكفار يطردونهم ويقتلونهم ولم يبق الا السلطان مراد خان في القلب فلما شاهد ذلك الحال رفع يده الى الله تعالى وسأله النصر والعون وتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم لم تمض ساعة حتى اغتر قرال أنكروس وهو كبيرهم فبرز من بين عسكره فانفرد وجعل يدعو السلطان مرادا للمبارزة ثم هجم على المسلمين فتقنطر به فرسه فسار اليه المسلمون فقتلوه وحزوا رأسه ورفعوه على رمح وجعلوا يصيحون هذا رأس قرال الملعون فلما رأى الكفار ذلك انهزموا عن آخرهم وساق المسلمون خلفهم وقتلوهم قتلا ذريعا وكان يوم غم ثم سرور والعاقبة للمتقين وأما الغنائم والأسر فلا تحصى ولا تحصر ثم ان السلطان مراد لما رجع من الغزو أمضى سلطنة ولده السلطان محمد خان على ما كان عليه وسار هو الى طرف مغنيسا واستمر الحال الى أن تحرك طائفة الينكجرية وعادوا وكبسوا بيوت الأمراء والوزراء ونهبوها وكان ذلك في سنة خمسين وثمانمائة

﴿ ذكر غزوة أخري ﴾

فعند ذلك رأي الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مرادا الى الملك ليسترهبوهم فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك وعاد ابنه السلطان محمد الى مكان أبيه مغنيسا وبقي بها الى أن توفي أبوه فجلس بعده على تخت السلطنة واستمر السلطان مراد يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار وسار الى بلاد المورة وباقي الاقاليم المجاورة لها فأخضعهم ورتب عليهم الخراج وجرت على آثار ذلك حروب كثيرة بينه وبين الارناؤوط والمجر الى أن توفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة وعمره تسع وأربعون سنة ومدة سلطنته احدى وثلاثون سنة وكان ملكا جليلا صالحا يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء مهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين وكان مقداما فتاكا شجاعا كريما واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ذهبا وللشرفاء من خزينته في كل عام مثل ذلك رحمه الله تعالى وأوصى ابنه محمدا ان يهتم بفتح القسطنطينية ويوجه اليها جنوده فتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثاني) فاتح القسطنطينية وهو السلطان الجليل الفاضل النبيل أعظم الملوك جهادا وأقواهم اقداما واجتهادا وأكثرهم توكلا على الله واعتمادا وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين وصارت كالطوق في أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والايام ومآثر لا يمحوها تعاقب

السنين والاعوام ولما السلطان كان عمره تسع عشرة سنة خرج الي قتال صاحب قرمان فخاف منه صاحب قرمان وصالحه فعاد الي مقر ملكه

﴿ ذكر فتح القسطنطينية ﴾

ثم لم يكن له هم الا فتح القسطنطينية فشرع في مهماتها ومقدماتها وهي من أعظم البلدان وأكبرها أهلا وأمنعها حصنا لانها أحاط بها البحر من كل صوب الا الطرف الغربي وهو طرف يسير وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية وذلك في سنة ست وخمسين وثمانمائة ثم طلب من طرف بلاده أرضا مقدار جلد ثور يبني بها له فاستقل ذلك صاحب القسطنطينية وقال سبحان الله ما يفعل به نهوله فأرسل السلطان الوزير وجماعة من البنائين والصناع فاجتازوا الخليج الداخل من بحر نيطش وهو البحر الاسود الي بحر الروم فقدوا جلد الثور قدرا رقيقا فبسطوه علي وجه الارض علي أضيق محل من فم الخليج فبنوا علي القدر الذي أحاطه ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا إذ خنا فركب فيه المدافع الرعدية والمكاحل الشهابية ثم بني السلطان في مقابلة ذلك الحصن في بر أناطولي حصنا آخر وهو في طرف بلاده فشحنه بالآلات النارية والمرامي الرعدية حتي ضبط فم الخليج فلم يقدر ريسلكه بعد شيء من مراكب البحر الاسود الي القسطنطينية والي بحر الروم ثم وجه عزمه الي مدينة ادرنة فأمر بانشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا في بنائها ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لاجل فتح القسطنطينية فأكثروا منها ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الاسباب المتعلقة بالقتال قدر الله ان انتقضت المسالمة التي كانت بينه وبين ملك القسطنطينية لاسباب جرت فأرسل ملك القسطنطينية يهدده بكلام غليظ فكان ذلك سببا للاستعداد لقتاله وقوة عزمه علي ذلك ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه علي قتاله أرسل الي ملوك الافرنج يستنجد بهم ووعدهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية الي الكنيسة الرومانية الغربية ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الافرنج فلم يجد ذلك نفعا اذ لم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معا ومن ذلك الوقت جرت البغضاء في قلوبهم لملك القسطنطينية وتخاذلوا عنه في المدافعة والمحاماة حتي قال بعض أكابرهم أحب ان أري في القسطنطينية تاج السلطان ولا أري اكليل البابا فنهض في أوائل شهر جمادي الاولي سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كثير وجيش كبير يبلغ مائتين وستين ألفا بعزم صارم ورأي حازم في أسعد أوقات الحركات متوكلا علي فائض الخيرات والبركات فخيم الي القسطنطينية ونزلها من طرف الشمال وكان له أربعمائة غراب قد أنشأها هو

وأبوه قبل ذلك التاريخ فأرساها عند الحصن الذي أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغاز كسن وأمر بتلك الاغربة فسحبت الى البر بعد ان جعلت تحتها دواليب تجري عليها كالعجلة وشحنها بالرجال والابطال ثم أمر بنشر قلاعها فنشرت في ريح شديدة موافقة فساروا في البر على هذه الهيئة حتى أنصبوا الى الخليج الواقع شمالي البلد من طرف مدينة غلطة فامتلأ الخليج من تلك الاغربة ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل فسارت جسراً ممدوداً ومعبراً لطيفاً وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها وانما كان خوفهم من جهة البر فكانوا حصنوها وغفلوا عن هذه الجهة لامر يريده الله تعالى فشرع المسلمون في الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدة احدى وخمسين يوما حتى أعيي المسلمين أمرها وما زالوا مصابرين الحصار والقتال فجمع ملك القسطنطينية أعيان الامراء والقواد لما اشتد عليهم الامر وأخذ يحرضهم على القتال وبعد خطاب طويل أخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضا بقصد الوداع ثم قصدوا الاسوار وتحصنوا فيها

﴿ ذكر دخول المسلمين القسطنطينية بعد فتحها ﴾

فلما كان اليوم التي فتحت فيه وهجم العساكر العثمانية ودخلوها قاتل ملكهم قتالا شديدا الى أن قتل في المعركة وقتل معه خلق كثير فدخلها المسلمون وأسروا أهلها وأحرقوا مكاتبها يقال ان عدد ما فقد منها مائة وعشرون ألف مجلد وكان السلطان محمد قد أرسل وزيره أحمد باشا بن ولي الدين باشا قبل هذا التاريخ الى خدمة العارف بالله شيخ آق شمس الدين والى خدمة الشيخ آق بيق يدعوهما للجهاد والحضور معه في فتح القسطنطينية فحضرا وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر وقال ستفتح ان شاء الله تعالى قسطنطينية على يد المسلمين في هذا العام وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني من هذا العام وقت الضحوة الكبري وأنت تكون حينئذ واقفا عند السلطان محمد فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تنتح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان فذهب الى الشيخ فمنعوه من الدخول اليه لانه أوصي جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فاذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكي فما رفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة الا وقد قام الشيخ على رجليه وكبر وقال الحمد لله الذي منحنا فتح هذه المدينة قال الوزير فنظرت الي جانب المدينة فاذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت الذي كان أشار به وكانت دعوته تخرق السبع الطباق فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر الي جانبه فاذا وزيره ابن ولي الدين واقف عنده فقال هذا ما أخبر به الشيخ وقال ما فرحي بهذا الفتح وانما فرحي بوجود مثل هذا الشيخ في زماني ومن مناقب هذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوي

الابدان كما هو طبيب لداء الارواح *يحكى ان الاعشاب كانت تناديه وتقول له أنا أنفع لمرض الفلاني وكان فتح مدينة القسطنطينية نهار الاربعاء لعشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت أيام محاصرتها احدي وخمسين يوما فغنم المسلمون من الاموال والاسباب والدواب مالم يسمع بمثله في عصر من الاعصار لان السلطان لما شاهد الهى والفتور من العسكر في الحصار أمر بأن ينادي ان الغنائم كلها لهم ويكفيني فتح المدينة فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله فتح المدينة فلما شاع خبر هذا الفتح في الآفاق هابه ملوك العالم فأرسل اليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب الغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنونه بالفتح ولاشك ان هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة وكم من الخلفاء والملوك من رام فتح هذه المدينة وصرفوا هممهم وبذلوا جهدهم وأموالهم وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فلم ينالوه انما حباه الله تعالي لهذا السلطان الجليل والملك الجميل لكونه أخلصهم نية وطوية وأحسنهم سيرة وضمن بعضهم هذا المعنى في تاريخ الفتح فقال

رام أمر الفتح قوم أولون * حازه بالنصر قوم آخرون

وقع لفظ آخرون تاريخا بفتح المدينة المذكورة بعدد حساب الحروف ٨٥٧ وقيل في تاريخها أيضا بلدة طيبة ٨٥٧ بحساب كل تاء مربوطة أربعمائة وذلك جائز عن بعضهم وهي كذلك في طيب الهواء ولما دخل السلطان مدينة القسطنطينية سارع بالتوجه الي كنيستها العظمى آياصوفيا فدخلها وطهرها من خبائث الكفر وصلي فيها ودعا الله تعالي وحمده وأثنى عليه وجعلها مسجدا جامعا للمسلمين وعين له أوقافا ومرتبات ثم ان السلطان محمدا التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع قبر أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه فقال الشيخ اني شاهدت في موضع نورا لعل قبره هنالك فجاء اليه وتوجه زمانا ثم قال اجتمعت معروحه فهنأني بهذا الفتح وقال شكر الله سعيكم الذي خلصتموني به من ظلمة الكفر فاخبر السلطان بذلك فحضر بنفسه الي هناك وقال التمس منك يامولانا الشيخ أن تريني علامة أراها بعيني ويطمئن بذلك قلبي فتوجه الشيخ ساعة ثم قال احفروا في هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبراني فلما حفروا ظهر رخام عليه خط عبراني فقرأه من يعرفه وفسره فاذا هو قبر أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه فغلب على السلطان محمد حال حتي كاد يسقط لولا أن أمسكوه ثم أمر ببناء قبة عليه وقد روى الامام أحمد باسناد حسن في مسنده والحاكم عن بشر الغنوي لتفتحن بنت الملك مدينة القسطنطينية ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش جيشها وهذا الحديث معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلم من أعلام نبوته لان فيه الاخبار بالغيب ووقع كما أخبر صلي الله عليه وسلم وهو صادق على السلطان محمد خان هذا وعلى جيشه وان كان الغزو الى القسطنطينية وقع في زمن

الصحابة ومن بعدهم وافتتحوا اطرافا منها في خلافة معاوية رضي الله عنه في الغزوة التي استشهد فيها أبو أيوب الانصاري رضي الله عنه ثم استرجع الروم الطرف الذي افتتح في ذلك الزمن فالفتح التام انما هو هذا الذي كان في زمن السلطان محمد الفاتح في الحديث منقبة عظيمة له وروى الامام أحمد والبخاري ومسلم عن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فهذا يحمل على أول غزوة وجهت للقسطنطينية وهي التي كانت في زمن معاوية رضي الله عنه سنة اثنتين وخمسين من الهجرة وكان فيها كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم رضي الله عنهم وكان في ذلك الجيش يزيد بن معاوية قيل كان هو أمير الجيش وقيل كان الامير سفيان بن عوف وقوله مغفور لهم مشروط بكون المغفور له منهم من أهل المغفرة بأن يموت مؤمنا فلو ارتد واحد والعياذ بالله من ذلك الجيش ومات كافرا كان خارجا من عموم تلك المغفرة وهكذا يقال في كل حديث يذكر فيه أن من فعل كذا غفر له أو دخل الجنة فان ذلك مشروط بالوفاة على الايمان ومثل ذلك قد يرد في كلام بعض الاولياء بأن يقول أحدهم مثلا من رآني دخل الجنة أو من أكل طعامي دخل الجنة فان ذلك مشروط بالوفاة على الايمان فلا يشكل عليك شيء من ذلك وبنى السلطان محمد عند قبر أبي أيوب جامعا عظيما وبعد تمام بنائه ذهب اليه بموكب عظيم وأقام الصلاة فيه وقلده الشيخ شمس الدين سيفا بيده ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذي يجلس على تخت الملك يذهب الى هذا الجامع ويتقلد بالسيف وهو بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى

﴿ ذكر الغزو الى بوسنة ﴾

وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة غزا السلطان محمد بلاد بوسنة بعسكر كثير وقاتلهم أشد قتال واستولى على عامة بلادهم وخيتهم الكفار ثم بعد ذلك هناك وفي سنة احدي وستين وثمانمائة وجه همته الى فتح جزيرة رودس فتهدد أهلها وطلب منهم الخراج فامتنعوا وأرسلوا الى البابا صاحب رومية يستنجدونه فأخذ يحث ملوك الافرنج على محاربة الدولة العثمانية فلما بلغ السلطان محمد ذلك الخبر نهض بمائة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كاد يفتحها فأخذ أحد الرهبان غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين على المدافعة عن تلك المدينة فاستمالوا نحو أربعين ألفا من العساكر النمساوية وقادهم قائد من المجر فاضر بالسفن العثمانية بواسطة مدد النجدة واستمر السلطان محمد أربعين يوما وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة ثم ارتحل عنها وأمدة ايتمد حيشهم الذي هو من المجر فجرح جرحا بليغا هلك به وبعد هذه الغزوة زحف السلطان محمد على ولاية أتينا من بلاد اليونان ففتح دوكة أتينا وهي

المدينة الشهيرة فيها

﴿ ذكر الغزو الى بلاد السرب والبوسنا والارناؤوط ﴾

وفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة توجه الي بلاد السرب وفتح فيها فتوحات وفي سنة ست وستين فتح أيالة طرابزون وولاية سينوب وأتي بصاحبها أسيرا الي القسطنطينية فقتله السلطان محمد وكان له أولاد ثمانية فقتلهم معه وكان صاحب سينوب يكاتب ملك العجم ويعينه علي السلطان محمد وفي سنة سبع وستين وثمانمائة توجه الى اغتنام تملك اقليم بوسنه وشن الغارات على ولايات الافلاق والبغدان والصقالبة ثم صوب عزيمته الى فتح بلاد الأرناؤوط وهم صنف من النصاري يتصبرون علي المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة قيل أصلهم من عرب الشام من بني غسان ارتحلوا من الشام بعد ماأتى الله بالاسلام فقدموا من الشام وتوطنوا هذه البلاد وقيل أصلهم من البربر عبروا البحر من المغرب الى هذا الصوب ثم غلب عليهم الجهل فتنصروا فدخل السلطان بلاد الأرنووط فنهبها واستولي علي عدة قلاع هناك وأمر ببناء قلعة حصينة في ثغر عظيم هناك كالسد بيننا وبين الكفار وشحنها بالرجال وسماها آق حصار وأودع فيها من المدافع والمكاحل مايقيها وفى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة غضب السلطان محمد على صاحب قونية ولارندة فانتزع منه ولاية قرمان وجعل فيها ابنه السلطان مصطفى ثم استولى على قلاع عاصية هناك مثل قلعة اركلي وقلعة آق سراي وقلعة كولك وقلعة كولي وجعل الجميع لابنه المذكور وفي سنة خمس وسبعين فتح جزيرة أرغيوز من أعمال البندقية بعد أن أوقع بأهلها وقتل أكثرهم ثم استولى على بقية بلاد الارنؤوط بأسرها

﴿ ذكر اغراء العجم واتتر على الاغارة والنهب ﴾

وفي سنة ست وسبعين وثمانمائة بعث صاحب العجم حسن بك الطويل ويوسفجه بك مع عسكر اتتر الى نهب بلاد العثمانيين فجاؤا ونهبوا مدينة توقات وأضرموا فيها النار وأغاروا عليها ثم اغتر يوسفجه بك فهجم علي بلاد قرمان وأغار عليها وكان واليها يومئذ السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وكان في غاية من الشجاعة فقاتل العدو وهزمه وأسر رئيسهم يوسفجه بك وكبله في الحديد وأرسله مع عدة من الاساري الى أبيه السلطان محمد فكان ذلك عنوان الفتح ومقدمة النصر وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة وقع قتال بين السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وبين زينل شاه ولد حسن الطويل فانتصر عليه السلطان مصطفى وانهزم جيشه وصارت الجيوش العثمانية يطردونهم ويقتلونهم ويأسرونهم وظفر بزينل شاه فقتله ثم سار مصطفى الى قره حصار الشرقي وهو من بلاد حسن الطويل فاستولى عليها وأدرجها في جملة ملكه وفي هذه السنة

بعث السلطان محمد وزيره كدك أحمد باشا لفتح بلاد كفة فحاصرها حتى غلب عليها وفتحها ثم افتتح منه عدة حصون وقلاع

﴿ ذكر الغزو الى البغدان ﴾

وفي سنة تسع وسبعين سار السلطان محمد الى قتال كفار البغدان فخاف منه كبيرهم استفان فهرب الى أقصى بلاده فدخل السلطان بلاد بغدان وتوغل فيها وقتل من قدر عليه فكانوا خلقا لا يحصى وأسر وسبي ونهب حتى أذعن رئيسهم استفان المذكور بالطاعة وأعطى الجزية وفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة صمم السلطان محمد على افتتاح جزيرة رودس فأرسل اليها أساطيل بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة أشهر فلم يتيسر فتحها لأنها كانت حصينة ثم ارتحلوا عنها وفي سنة ست وثمانين جهز جيشين عظيمين أحدهما لمحاربة جزيرة قبرس والآخر لقتال العجم ثم أدركته الوفاة قبل تمام الأمر فتوفي ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين وثمانمائة وعمره احدي وخمسون سنة ومدة ملكه استقلالا بعد وفاة أبيه احدي وثلاثون سنة وشهران وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه وكانت همته لا تكل ولا تعجز ولا تفتر عن الفتوحات رحمه الله تعالى قال العلامة القطبي عن بعض أوصاف السلطان محمد المذكور والمرحوم المقدس قلادات منن لا تحصى في أعناق المسلمين لاسيما العلماء الأكرمين قلدها في أجيادهم فهي باقية الي يوم الدين ولو ذكرت مناقبه لشحنت بها مجلدات أسكنه الله تعالى فسيح الجنان وأنزل على قبره سحائب الرحمة والرضوان وتسلطن بعده ولده (السلطان بايزيد الثاني) ونازعه أخوه السلطان جم ووقع بينهما حروب يطول الكلام بذكرها وكان الانتصار للسلطان بايزيد واستقر الملك له وكان رحمه الله ملازما للغزو في سبيل الله مظفرا على أعداء الله محبا لفعل الخيرات مكرما للعلماء والصلحاء وفي سنة ثمان وثمانين وثمانمائة سار بعساكره الى بلاد قره بغدان فافتتح قلعة كلي وقلعة آق كرمان وفيها أيضا فتحت قلعة ملوان وقلعة متون وقلعة طرسوس وقلعة نقشة وقلعة كولك والحاصل انه استولى على كثير من بلدان البغدان وغيرها مما في تلك الاطراف وفي سنة سبع وتسعين وثمانمائة توجه الوزير يعقوب باشا لغزو بلاد البوسنة فظفر بملكها ادرنجيل وقيده في وثاق وأرسله الى السلطان بايزيد وفي سنة تسعمائة وثلاث بعث جيوشا الي بلاد الأرنؤوط برا وبحرا وخرج في أثرها بنفسه ومعه أيضا جيوش كثيرة قاصدا بلاد السرب وبلاد الأرنؤوط وحارب في تلك الغزوة بولونيا واوقع بها واستولى على جانب عظيم منها وأخذ منها عشرة آلاف أسير ثم عاد اليها مرة ثانية فنكبها نكبة عظيمة وفي سنة خمس وتسعمائة سار

السلطان بايزيد بعساكره فاستولي علي قلعة اينه بختي وعلى قلعة قرون وكان السلطان بايزيد ابن السلطان محمد من المجاهدين في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا فما زال غازيا في سبيل الله مظفرا على أعداء الله فكانت به كلمة الاسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة وكان محبا لبذل الخيرات مثابرا على بذل الانعام والصدقات محبا للعلماء والمشايخ والاولياء من أهل الكرامات ودخل في طريق السادة الصوفية ودخل الخلوة وجلس الاربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ولما دخل الخلوة كان معه والد مولانا أبي السعود المفسر وهو مولانا الشيخ محيي الدين افندي وبني السلطان بايزيد المذكور الجوامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكيات والزوايا والخانقات ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتي الاعظم ومن في رتبته من العلماء العظام في زمنه في كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرس الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد في كل عام سبعة آلاف عثماني ولمدرس شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرس شرح التجريد ألفي عثماني وكذلك رتب لمشايخ الطريق الى الله تعالي من أهل الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه وهذا غير كسوة الصيف من الاصواف ونحوها وغير كسوة الشتاء من الفراء والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته وصار ذلك قانونا جاريا مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن اليهم احسانا كثيرا ورتب لهم صررا في كل عام غير ما كان مرتبا من آبائه الكرام وكان يجهز الى فقراء الحرمين الشريفين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها الآخر على فقهاء المدينة ولم يكن حكم الحرمين في ذلك الوقت عنده فكانوا يتسعون بها ويرتفقون بها ويدعون له فكان ذلك من أسباب تسهيل دخول أهل الحرمين تحت طاعة ولده السلطان سليم كما سيأتي ان شاء الله تعالى وكان اذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين يكرمه ويحسن اليه ويرجع من عنده بصلات عظيمة ومواهب جزيلة

﴿ ذكر ظهور اسماعيل شاه سلطان العجم ﴾

مما كان من العجائب في زمن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ظهور اسماعيل شاه في بلاد العجم وكان ظهوره واشتهار أمره سنة تسعمائة وخمس وكان له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من الاعاجيب فانتشر أمره وفتك في البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والالحاد وغير اعتقاد كثير من الخلق وصار يدعو الناس الي الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد والله تعالي يفعل في ملكه ما أراد وظهر من أتباع

اسماعيل شاه شيطان تولى بالروم أهلك الحرث والنسل وعم الفساد والقتل وقويت شوكته وعظم على المسلمين فتنته فارسل السلطان بايزيد وزيره الاعظم علي باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغي فاستشهد علي باشا في ذلك القتال ولكن قتل الله ذلك الباغي وانهزم من كان معه من الجنود وقتل كثير منهم وكفى الله شر أولئك الاشرار وذلك سنة تسعمائة وخمس عشرة واسماعيل شاه المذكور هو اسماعيل بن حيدر بن جنيد بن ابراهيم بن سلطان خواجه بن علي بن صدر الدين موسى بن صفي الدين اسحاق الاردبيلي وكان اهل هذا البيت يقال لهم الصفويون نسبة الى الشيخ صفي الدين الاردبيلي المذكور آنفا وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل الولاية والصلاح والمشايخ أرباب الطريق والسلوك والزوايا وسلسلة طريقهم تنتهي الى الامام أحمد الغزالي أخي الامام محمد حجة الاسلام الغزالي وقيل ان لهم نسبا ينتهي الى موسى الكاظم وكان جدهم الشيخ صفي الدين له شهرة كبيرة في مشيخة الطريق وتوفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ثم صارت المشيخة في ولده صدر الدين ثم في ولده علي ثم في ولده سلطان خواجه ثم في ولده ابراهيم ثم في ولده جنيد ثم في ولده حيدر ولما كانت المشيخة في جنيد كثر أتباعه ومريدوه واشتهر أمره وانتشر صيته وصار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والاتباع وكان جهان شاه التركماني صاحب شروان واذربيجان متغلبا على ملك العراق وبغداد فتوهم من جنيد وكثرة اتباعه وخشي أنه يتغلب عليه وينتزع الملك منه فأخرج جنيدا ومن معه من أردبيل فتوجهوا الى ديار بكر ثم قوي أمرهم فقاتلوا سلطان شروان فانهزم الشيخ جنيد ثم قتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على ابنه حيدر فقاتلوا أيضا سلطان شروان فقتل الشيخ حيدر وأسر بنوه ومنهم ابنه اسمعيل شاه وكان صغيرا واستمر محبوساهو واخوانه وهرب بعض اخوانه من الحبس سنة ثمانمائة وست وتسعين ثم هرب اسماعيل شاه سنة تسعمائة وست وعمره ثلاث عشرة سنة واجتمع عليه خلق كثير بعد خروجه من الحبس كانوا يعتقدون الخير في أبيه حيدر فغير اعتقادهم الى مذهب الرافضة فقصد بجموعه الاخذ بثار أبيه وجده وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته وتمذهب بمذهب الرافضة تعلم ذلك وسرى اليه وهو صغير حين كان في الحبس قيل في تاريخ ظهوره مذهبنا حق ٩٠٦ سمع ذلك بعض أهل السنة فقال مذهب ناحق على النفي فان نا في الفارسي اداة نفي فقاتل بمن اجتمع معه شروان شاه وكان كلما سار منزلا كثرت جنوده فنازلوا شروان شاه وقاتلوه فهزموه ثم أسروه فأتوا به الى اسماعيل شاه فأمرهم أن يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك في تلك الازمان من التركمان وغيرهم فما كان ينهزم له جيش ولا يتوجه الى بلاد الا ويفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب أموالهم

الى أن ملك تبريز واذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان وتعاظم أمره حتى كاد يدعى الربوبية وكان ظالماً غشوماً أفنى وأباد من الامم بالقتل مالا يحصى من العدد وكان عسكره يسجدون له اذا خرج اليهم و يأتمرون بأمره قال العلامة القطبي فى تاريخه قتل خلقا لا يحصون يوفون على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد فى الاسلام ولا فى الجاهلية من القتلى ولا في الامم السابقة مثل ما قتله اسماعيل شاه وقتل من أعاظم العلماء خلقا كثيرا ولم يبق أحدا من علماء أهل السنة الذين كانوا في بلاد العجم وأحرق كتبهم ومصاحفهم لانها مصاحف أهل السنة وكان كلما مر بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه واخراج عظامه ثم يحرقها واذا قتل أميرا من الامراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر * ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله الناشئة عن تكبره وتجبره انه جعل كلبا من كلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الامراء من الخدم والكواخى والسماط والاوطاق والفراش الحرير وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند اليها كالامراء وأقام لخدمة ذلك الكلب جملة من خواص خدمه ومن تكبره وطغيانه أنه سقط مرة من يده منديلا الى البحر وفعل ذلك قصدا وكان في جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فصار عسكره واتباعه وخدمه يلقون أنفسهم في البحر خلف المنديل ليأتوه به تقربا اليه وليلتمسوا بركة المنديل الذى مسته يده حتى أحصي من رمي نفسه منهم فكانوا نحوا ألف صار وايتخبطون في البحر حتي غرقوا قيل انهم كانوا يعتقدون فيه الالوهية وأنه لا ينهزم له جيش الى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي كانوا يعتقدونها فيه * ومما يحكي عن اسماعيل شاه سلطان العجم انه كان فى ابتداء أمره تنهزم جيوشه ولا يثبت هو أيضا للقتال بل ينهزم معهم فاتفق انه اجتاز مرة بامرأة وهو متنكر فأضافته هو ومن معه وقدمت لهم طعاما حارا في صحفة فشرع الشاه اسماعيل يأكل من وسط القصعة وهي حارة والمرأة تنظر اليه فقالت له ما أشبهك أيها الرجل الا باسماعيل شاه الذى ظهر في هذا الزمان فانه يريد أن يقصد وسط الدولة محل الشوكة والقوة فيأخذه وذلك خطأ فينبغى له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط فانت كل من الاطراف حتى يبرد الوسط ثم كل منه فتنبه من قولها وعمل باشارتها فصار يقاتل أطراف الممالك حتى صار له ما صار وملك جميع اقليم العجم وبواسطته انتشر التشيع وظهر في العجم وسلاطين العجم الموجودون الى وقتنا هذا من ذريته وسيأتي ذكر ما وقع بينه وبين السلاطين العثمانيين من القتال وكذا ما وقع بينهم وبين ذريته وانما أطلت الكلام في بيان أحوال اسماعيل شاه وأصوله ليعلم من ذلك أن كثرة بغيه وطغيانه من جملة الاسباب التى دعت السلطان سليم الى قتاله الذى سنذكره مع ما انضم الى ذلك مما كان بينه وبين السلطان سليم من العداوة التى سنذكر أسبابها

﴿ذكر الحروب والقتال الذي كان بين السلطان بايزيد وولده سليم﴾

لا بد قبل ذلك من ذكر الاسباب الالهية الخفية التي كانت بتدبير الربوبية ليعلم بذلك أن الاسباب الظاهرية لا بد معها من أسباب خفية قدرها الله تعالى من الازل قال العلامة القطبي في تاريخه ان منجما حاذقا كان في عصر السلطان بايزيد الثاني قد ألهمه الله على أمر يتعلق بالسلطان بايزيد فأخبره به وهو ان هلاكه وذهاب ملكه يكون على يد مولود يولد له وكان السلطان بايزيد قد ولد له أولاد قبل اخبار المنجم وكان اخباره له بذلك قبل ان يولد السلطان سليم فطلب السلطان بايزيد امرأة كانت معتمدة عنده بيدها أمر جواريه الموطوءات وهي قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات فقال لها اذا وضعت احدى الجواري بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيا واذا ولدت أنثى اتركيها لتعيش مع بناتي وأكد عليها في ذلك غاية التأكيد فاستمرت على ذلك الى ان ولدت واحدة منهن صبيا فلما رأته أمه التي ولدته حزنت عليه لكونه تخنقه القابلة فلما تناولته القابلة لتخنقه رأته صورة جميلة ووقع حبه في قلبها فرقت له وقالت في نفسها بأي وجه ألقى الله تعالى اذا قتلت هذا الطفل والله لا أقدم على قتله فاظهرت أنه بنت وقالت للسلطان بايزيد انه حصل له من فلانة بنت جميلة حسنة الصورة فلما أخبرته بذلك سماها سليمة واستمر الأمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه الا الله تعالى والقابلة وأم الولد وصار كلما كبر وانتشأ تظهر عليه أوصاف الذكور من الاستيلاء والغلبة والقهر واذا اجتمع بالبنات وجلس بينهن لطم من كان منهن الى جانبه ونهب ما يوجد بأيديهن من مأكولات الأطفال وغير ذلك وكن يحذرن منه فدخل السلطان بايزيد يوما الى داخل السراية وكان يوم عيد واستدعى بناته وأجلسهن بين يديه وأمر أن يوضع بين يدي كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وحضر معهن ذلك الغلام المسمى سليمة فشرع في أمره كان يفعله مع البنات من الخطف والنهب والضرب وكلهن خائفات منه هائبات له فتعجب السلطان بايزيد وصارت له جدا وفكر في أمره وفي أثناء ذلك دار بينهن يعسوب كبير وأردن أن يمسكنه فعجزن وهو يلسع من يريد امساكه فهربوا منه فأومأ الغلام المسمى سليمة بيده اليه وهو طائر فأمسكه وعرسه وعقصه ورماه من يده فازداد تعجب السلطان بايزيد منه وقال لنفسه لو اتفقت هذا لا يكون أنثى فكشفوا لي عنه فبادرت القابلة وقالت نعم هذا صبي وليس بنت فقال لها كيف خالفت أمري وما قتلتيه فقالت خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتي من قتل معصوم ولا ذنب له فتفكر طويلا ثم قال ما قدره الله فهو كائن لا مفر عنه وأمر بتربيته وأن يلبسوه لباس الذكور وسماه سليما الى أن كان من أمره ما كان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا واذا أراد الله أبرز ما أراده وقدره من الازل من

ذهاب ملك السلطان بايزيد على يد ولده سليم أنشأ سبحانه وتعالى أسباب الحرب والقتال بينهما بايجاد أسباب لا يحكم العقل فيها بأنها ينشأ عنها الحرب والقتال وذلك ان السلطان بايزيد شاخ وكبر سنه وتعطلت رجله عن الحركة بعلة النقرس فأراد النزول عن الملك لولده احمد وكان أكبر أولاده وأحبهم اليه قد جعله قبل ذلك أميراً ماسية ثم جمع الوزراء وأعيان الدولة وعهد اليهم بأن ولده أحمد ولي عهده فاغتاظ سليم من ذلك وعزم على الخروج على أبيه وعلى خلع طاعته وقتاله وكان قد ولاه أبوه أدرنة فجمع العساكر وتوجه بهم الى القسطنطينية مظهراً أنه يريد زيارة أبيه وتقبيل يده وأنه راض بما يصنعه أبوه من جعل أخيه أحمد ولي العهد وأنه ليس له غرض في الملك واطلع ابوه بقرائن الاحوال على مراد ولده سليم وأنه انما يريد السلطنة والملك فنهض السلطان بايزيد من القسطنطينية بعساكره وخرج مستقبلا ولده المذكور فلاقاه بين القسطنطينية وادرنة والتقى الجيشان ووقع القتال بينهما بقرب أدرنة وجرى بينهما حرب شديد ثم انجلى الأمر عن هزيمة سليم وانتصار أبيه عليه وأراد العسكر أن يطردوا خلف سليم ليقبضوا عليه فمنعهم أبوه السلطان بايزيد وقال اتركوه لعله ينصلح وتوجه سليم هارباً وركب البحر وقصد بلاد كفة فبينما هو فيه اذ بعث السلطان بايزيد الى ولده أحمد يدعوه الى أن يقلده الملك ويتنزل له عن السلطنة حالا فامتنع وقال لا يمكن أن يقبل ذلك في حياة والده تعظيما لوالده وقال أيضا انه يخاف من عسكر الانكشارية لان هواهم ورغبتهم في سليم فلما علم أبوه انه ليس لابنه أحمد نصيب في الملك وان الملك لله يؤتيه من يشاء وخاف على الملك أن يتغلب عليه أجنبي أرسل الى ولده سليم يدعوه لينزل عن الملك ويسلمه له فقدم سليم بالرأي الحازم والسيف الصارم حتى قرب من القسطنطينية فأمر السلطان بايزيد العساكر ووجوه الامراء والوزراء فاستقبلوه وهنوه بالملك ولما دخل على أبيه قبل يده فدعا له بخير وسلمه الملك وأوصاه بأشياء تليق بالسلطنة ثم أمر من يومه بتجهيز أسباب السفر لأبيه للاقامة بمدينة ديمتوقه وقال السيفان لا يجتمعان في قرب واحد فلما كان السلطان بايزيد ببعض الطريق رام أن يتوضأ لصلاة الظهر فوضعوا له السم في الماء فلما توضأ تساقط شعر لحيته فأحس بذلك فقال ردوني ردوه فتوفي قبل أن يصل الى القسطنطينية ثم حمل اليها ودفن بجامع مدرسته التي أنشأها بالمدينة المذكورة وكان مدة ملكه احدى وثلاثين سنة الا أياما لان وفاته سنة ثمان عشرة وتسعمائة وولايته كانت سنة سبع وثمانين وثمانمائة وعمره ثنتان وستون سنة لان مولده سنة ست وخمسين وثمانمائة وله رحمه الله مناقب كثيرة تقدم بعض منها * ومن مناقبه انه كان يجمع في كل منزل حل فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه فلما دنا أجله أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر بأن توضع معه في القبر تحت خده الايمن ففعلوا

ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله صلى الله عليه وسلم من اغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار ولما توفى السلطان بايزيد المذكور واستقر ابنه (سليم على تخت الملك) نازعه في ذلك أخوه أحمد وقصد كل منهما الآخر سنة تسع عشرة وتسعمائة بجيش عظيم فتقاتلا أمام مدينة يني شهر فانتصر السلطان سليم وأمر بأخيه أحمد فخنق وكان اسماعيل شاه سلطان العجم المتقدم ذكر ترجمته يتعصب للسلطان أحمد ويحامي له فلما خنق أحمد هرب بعض أولاده والتجؤا الى السلطان الغورى وبعضهم الى اسماعيل شاه فأرسل له السلطان سليم يطلب منه ان يبعثهم اليه فامتنع فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم واسماعيل شاه مع ما تقدم من انتشار ظلم اسماعيل شاه وسفكه الدماء واهلاكه الحرث والنسل وكان للسلطان بايزيد أيضا أولاد غير أحمد نازعوا سليما وقاتلوه فانتصر عليهم ولا حاجة بنا الى ذكر ذلك

﴿ذكر الحرب بين السلطان سليم واسماعيل شاه سلطان العجم﴾

ذكر كثير من المؤرخين أن السلطان سليما كان سلطانا قاهرا قوى البطش عظيم القتل كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه الى أهل النجدة والبأس عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفا بمسالك الطرق والممالك يغير زيه ولباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الاخبار ويستكشف الاسرار وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة وفي الاسواق والجمعيات والمحافل ومهما سمعوا به ذكروه له في مجلس المصاحبة فيعمل بمقتضى ما يسمعه بعد الوثوق منهم ولما استقر له الملك بعد قتل اخوته وانتصاره عليهم شرع في قهر الملوك والاستيلاء على الاقاليم والممالك وبدأ بقتال شاه اسماعيل ابن حيدر الصفوى وكان ذلك سنة عشرين وتسعمائة وكان السبب في قتاله ان بعض أولاد أخي السلطان سليم التجأ الى اسماعيل شاه فأرسل يطلبه منه فامتنع مع ما انضم الى ذلك من بغي اسماعيل شاه وطغيانه وافساده في الارض حتى أهلك الحرث والنسل كما تقدم بيان ذلك في ترجمة اسماعيل شاه فتوجه السلطان سليم من مقر سلطنته بعسكر كثيف وسار نحو الشرق لقتال اسماعيل المذكور فالتقيا في مكان يقال له جلدران وكان جيش السلطان مائة وأربعين الفا في أول خروجه من مقر سلطنته ثم أردفها بأربعين الفا ولما التقى الجيشان اشتد القتال بينهما ثم انهزم عسكر العجم هزيمة قبيحة واستولى عسكر السلطان سليم على خزائنهم وأموالهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم الا القليل وفر اسماعيل شاه وتحصن بشوامخ الجبال واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه ونسائه ومنع العسكر من السير خلف المنهزمين ودخل السلطان سليم مدينة تبريز وهي كرسي مملكة العجم وصلى فيها الجمعة وخطب باسمه وكان مراده أن يطيل الاقامة ببلاد العجم ليفتح جميع بلادهم ويدخلها في ملكه ويرتبها لكن اشتد عليه الغلاء لان السلطان

الغوري قطع الميرة عن السلطان سليم ومنع السائرين بها اليه لأنه كان بينه وبين اسماعيل شاه صداقة ومحبة ومكاتبة حتى ان بعضهم اتهم السلطان الغوري بانه يعتقد مذهب الرافضة وكان من أسباب الغلاء على جيش السلطان سليم ان اسماعيل شاه كان تحت يده كثير من الغلال والذخائر فلما تحقق الهزيمة عليه أمر بحرقها فاحرقت قال القطبي وكان من أمر اشتداد الغلاء ان العليقة بيعت بمائتي درهم و بيع الرغيف بمائة درهم قال العلامة القطبي وقد أدركت جماعة ممن كانوا مصاحبين لمولانا السلطان سليم وكانوا يكثرون مجالسته وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه وذوقه وفهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه في اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه فصحاء الطائفتين ثم قال العلامة القطبي ورأيت بيتين بالعربي بخطه الشريف كتبهما في علو المقياس في الكشك الذي أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة والبيتان هما هذان

الملك لله من يظفر بنيل منى * يردده قسرا و يضمن بعده الدركا

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة * فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وتحتهما ماصورته وكتبه سليم قال العلامة القطبي ولعمرى ان كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البراعة ونهاية في التمكن من الصناعة فيدل على تملكته رحمه الله في اللسان العربي أيضا لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربى الفصيح البليغ المنسجم وان كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه رتبة عالية في حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقها وهذا القدر يستعظم و يستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها ولما فرغ السلطان من قتال اسماعيل شاه واشتد عليهم الغلاء رجع الى الروم وشتى في مدينة اماسية ولما دخل الربيع رجع الى بلاد الشرق وافتتح قلعة كماخ وهي من أمنع الحصون ثم افتتح مدينة بيبورد وأرسل وزيره فرهاد باشا بعسكر كثير الي قتال ملك مرعش البستان فانتصر فرهاد باشا واستولى على تلك البلاد وفي هذه السنة أحب أهل آمد أن يدخلو في طاعة السلطان سليم فأخرجوا واليهم الذي كان من قبل سلطان العجم وأغلقوا أبواب المدينة وأرسلوا يطلبون أميرا من السلطان سليم فعين لهم بيقلو محمد بك الآمدي فوصل الى تلك البلاد ثم حاصر مدينة ماردين مدة أربعين يوما وافتتحها ثم افتتح بلاد الموصل وجنة وحديثة وهيت وسنجار وحصن كيفا وجمشزك وحصن سوران وسائر بلاد الأكراد وعامة جزيرة الأكراد فدخلت هذه البلاد كلها في طاعة السلطان سليم ولم تكن قبل من الممالك العثمانية بل كان بعضها عند العجم وبعضها

عند الملوك من غير العجم تغلبوا عليها

﴿ ذكر محاربة السلطان سليم للسلطان الغوري ﴾

وفي سنة ثنتين وعشرين وتسعمائة قصد السلطان سليم محاربة السلطان الغوري صاحب مصر والشام وحلب لانه كان متواطئا مع سلطان العجم على محاربة السلطان سليم وقد تقدم أنه قطع الميرة عنه فخرج من القسطنطينية بجيش مقداره مائة وخمسون ألفا وخرج الغوري من مصر بجيش كثيف لمحاربته والتقى الجيشان في مرج دابق بقرب حلب واقتتل العسكران فانهزم جيش مصر وقتل الغوري في المعركة ودخل السلطان سليم مدينة حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤسهم يستقبلون السلطان سليما ويهنونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح فقابلهم بالجميل ودخل مدينة حلب وخطب له فيها وكان الخطباء يقولون في أوصاف سلاطين مصر خادم الحرمين الشريفين فلما خطب الخطيب بحلب قال في وصف السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين ففرح بذلك واستبشر مولانا السلطان سليم وعلم أن الله تعالى نصره على الغوري حتى تكون خدمة الحرمين الشريفين له وخلع على الخطيب حلته التي كانت عليه وكانت تساوي خمسين ألف غرش ثم سار الى الشام فاستقبله أهلها بالاكرام والاحترام وسألوا منه اللطف والانعام فعاملهم بالجميل وصلى عندهم الجمعة وخطب باسمه ومكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفا ثم سار يريد البلاد المصرية وافتتح في مسيره مدينة بيت المقدس ثم سار وفتح مدينة غزة وطرية وصفد وللجون والرملة ووصل الى مصر في الثالث عشر من المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وكان قد تسلطن بمصر بعد مقتل الغوري السلطان الاشرف طومان باي قيل ان الغوري خاله وكان معه أربعون ألفا من الجراكسة فخرج لقتال السلطان سليم ليمنعه من دخول مصر فوقع القتال بين العسكرين فانهزم طومان باي وعسكره وقتل منهم خلق عظيم ثم قبض عليه وبعد عشرة أيام صلبه السلطان سليم في باب زويلة وأقام السلطان بمصر نائبا عنه خير الدين بيك الجركسي وخرج السلطان سليم من مصر في شعبان من السنة المذكورة وقدم الى دمشق وعين لامارتها مع أعمالها الامير جان بردي فاستولى على مدينة ملطية وديوركي ودارنوه وبهسني وكركر وكاخته البيرة وعنتاب وانطاكية وقلعة الروم واطاعته قبائل العرب المجاورين للشام ومصر ولما رجع السلطان سليم الى القسطنطينية أخذ في تكثير المهمات والاستعداد لحروب وغزوات جديدة فطلع له دمل في جنبه ولم يزل يتعاظم هذا الدمل حتى اتسع وصار جرحا عظيما واتسع الخرق على الراقع وتعطل السلطان عن الحركة وعجزت حذاق الاطباء في علاجه وكانت توضع الدجاجة في جرحه فتذوب واستطال به ذلك المرض الى أن توفي سنة ست

وعشرين وتسعمائة تاسع شوال وعمره أربع وخمسون سنة ومدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر

﴿ فائدتان استطراديتان لهما تعلق بالفتوحات المذكورة هنا ﴾

*الاولى ذكر كثير من المؤرخين أن العلامة ابن كمال باشا استخرج من القرآن العزيز الاشارة الى الدولة العثمانية وانتصار السلطان سليم وظهور أمره من بعد سنة تسعمائة وعشرين وأن الدولة العثمانية من عباد الله الصالحين وان السلطان سليم منهم فقال ابن كمال باشا ان ذلك كله يستخرج بطريق الرمز والايماء والاشارة من قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون *وبيان ذلك ان قوله ولقد اذا حسب على قاعدة الحساب بحروف أبجد يخرج عدده مائة وأربعين ويقابله لفظ سليم فان حساب عدد حروفه يبلغ مائة وأربعين وقوله من بعد الذكر اشارة الى ان ذلك بعد تسعمائة وعشرين لانه عدد حروف ذكر بعد اسقاط أداة التعريف على قاعدتهم في ذلك فتكون الاشارة في ذلك سليم بعد تسعمائة وعشرين مكتوب في الزبور أنه يرث الارض وانه من عباد الله الصالحين قيل ان السلطان سليم لما أخبروه بهذا الاستخراج فرح واستبشر وكان ذلك من أقوى الاسباب لخروجه لقتال الغوري وقد حقق الله له النصر فظهر بذلك صحة هذا الاستخراج والله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أسرار كثيرة وله في كل شيء حكمة والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه وبغيرها

﴿ الفائدة الثانية ﴾

ان مولانا السلطان سليم لما استقر بمصر وتم له تملك الديار المصرية كما تم له تملك الديار الشامية اشتاقت نفسه الى تملك الاقطار الحجازية ليقوم بخدمة الحرمين الشريفين فأراد أن يجهز جيشا ويسيره الى الحجاز وينتزعه من عمال السلطان الغوري وكان أمير مكة في ذلك الوقت الشريف بركات بن محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان وقد كان في سنة ثمان عشرة وتسعمائة أرسل ولده الشريف أبا نمي الى مصر لمقابلة السلطان الغوري فأكرمه وأشركه مع أبيه في امارة مكة وكان عمر أبي نمي في ذلك الوقت ثماني سنين وكان السلطان الغوري حبس بمصر جماعة من أعيان أهل مكة منهم العلامة القاضي صلاح الدين بن أبي السعود بن ظهيرة وكان سبب حبسه مع من معه ان الغوري طلب منهم مال المصادرة وطلبها مبلغه عشرة آلاف دينار فعجزوا عن تحصيله فأمر بحملهم الى مصر واعتقلهم في الحبس فلما قتل الغوري وتسلطن طومان بيك أطلقهم وقيل انما أطلقهم السلطان سليم فلما عزم السلطان سليم على تجهيز جيش الى الحجاز اجتمع القاضي صلاح الدين بن ظهيرة بوزير مولانا السلطان سليم وقال له لا حاجة الى تجهيز جيش فان الشريف بركات يكفيكم هذا الامر ويحصل لمولانا السلطان المطلوب وعرفه عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والعلم وانه أول من

يطيع مولانا السلطان ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والاقطار الحجازية ويكفي بدلا عن الجيش أن تبعثوا له توقيعا شريفا من مولانا السلطان فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم فاستحسنه وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات وان يكون ولده أبو نمي مشاركا له كما كان في مدة السلطان الغوري وكتب القاضي صلاح الدين للشريف بركات الاخبار بذلك ووجه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلعتان عظيمتان واحدة للشريف بركات والاخرى لولده الشريف أبي نمي وجعل ذلك صحبة الامير مصلح بيك وبعث معه محملا وكان ذلك على اقبال شهر الحج فلما قدم الامير مصلح مع المحمل ومعه الخلعتان والتوقيع الشريف وخلعة الكعبة المعظمة خرج لمقابلته الى الزاهر الشريف بركات وولده أبو نمي وكثير من الاشراف وغيرهم في موكب عظيم ولبس الشريف وولده الخلعتين ودخلوا مكة وأخذوا البيعة لمولانا السلطان سليم ودعوا له في الخطبة وحصلت طاعة الناس وانقيادهم بالرضا والقبول ثم أرسل الشريف ولده الشريف أبا نمي سنة ثلاث وعشرين الى مصر لمقابلة مولانا السلطان سليم فقابله وأكرمه وأبقاه على مشاركة أبيه بركات ثم توفي بركات سنة احدي وثلاثين وتسعمائة واستقل ولده أبو نمي بالامارة وجاءه التأييد من مولانا السلطان سليم واستمر الشريف أبو نمي مستقلا بامارة مكة الى أن توفي سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة وعمره ثمانون سنة لان ولادته كانت سنة احدي عشرة وتسعمائة وكانت مدة ولايته امارة مكة مشاركة لابيه واستقلالا ثلاثا وسبعين سنة ولم يعهد ذلك لغيره من أمراء مكة الذين قبله والذين جاؤا بعده وهو جد سادتنا أشراف مكة ولما ورد الامير مصلح بيك الى مكة صحبة المحمل والتوقيع والخلعتين وكسوة الكعبة أقام بعد الحج بمكة بأمر من مولانا السلطان سليم وأجري له خيرات كثيرة يرجع ثوابها اليه منها انه قرر لمولانا الشريف صاحب مكة خمسمائة دينار زيادة على ما كان له من سلاطين مصر قبل ذلك وكتب دفتر قرر فيه أسماء جماعة من المجورين ورتب لكل شخص منهم مائة دينار تؤخذ من خزينة مصر وقرر ثلاثين نفرا يقرؤن كل يوم ختمة وعين لكل واحد اثني عشر دينارا وقسم الامير مصلح أيضا الذخيرة وهي صدقة كانت تخرج من خزينة مصر تخرجها سلاطين مصر للعربان أصحاب الادراك وفقراء أهل مكة فأبقاها السلطان سليم ورتب مولانا السلطان سليم سبعة آلاف اردب حب لأهل الحرمين الشريفين منها خمسة آلاف لاهل مكة وألفان لاهل المدينة وجاء الامر للامير مصلح بيك أن يوزع ذلك فجلس في الحرم الشريف وطلب حضور المفاتي وبقية العلماء والاعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطاني واستشارهم في توزيع ذلك فقالوا له لابد من عرض ذلك على شريف مكة مولانا الشريف بركات فكتبوا صورة الامر السلطاني وأرسلوه الي

مولانا الشريف واستدعوا رأيه العالي في ذلك فكتب اليهم الجواب يأمرهم بالمبادرة الى امتثال الامر الشريف السلطاني وأن يوزع ذلك على المستحقين بحسب الآراء من أعيان المجالس فاجتمعوا ثانيا بعد وصول الجواب من مولانا الشريف واتفق رأيهم على بيع شئ من ذلك القمح ليصرف في نقله من جدة الى مكة وبأن يكتب أسماء الناس على العموم ويصرف لكل واحد مايخصه فكتبوا بيوت كل محلة ومافي كل بيت من عدد الانفار رجالا ونساء وأطفالا وخدما ماعدا التجار والسوقة والعسكر فبلغ عدد الأنفار الذين كتبوهم اثنى عشر ألفا تخص كل نفر ست رباعي بكيل الربع الكبير الذي هو أربع كيل عن أربع وعشرين قدحا بالكيل المصري ودفعوا الكل نفر دينارا من قيمة القمح الذي باعوه لأجل نقله من جدة الى مكة وجعلوا لكل واحد من المفاتي الأربعة ثلاثة أرادب وزيد في أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت قال العلامة القطبي وهذه الصدقة أول صدقات الحب الشريف السلطاني ثم قال فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مدى الزمان فان دولتهم الشريفة عماد الاسلام واحسانهم مازال متواصلا الى كافة الانام سيما جيران بيت الله الحرام وجيران نبيه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام فانهم فازوا بالانعامات الوافرة في أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة في نوبة هذه السلطنة القاهرة مالم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم سلطانهم كما أدام علينا احسانهم اه كلام القطبي وقال العلامة ابن علان ان السلطان سليما كان كثير المحبة لاهل الحرمين من قبل أن يأخذ مصر وهو أول من بعث اليهم صدقة الحب انتهى ثم ان السبعة الآلاف الارادب المذكورة لم يزل أبناؤه من السلاطين يزيدون فيها حتى صار لاهل مكة اثناعشر ألف أردب ولاهل المدينة سبعة آلاف أردب فالله تعالى يديم العز والبقاء لهذه السلطنة العثمانية السنية ويوفق كل قائم منهم بها الكل خصلة حميدة مرضية ومما فعله الامير مصلح بيك من الخيرات لمولانا السلطان سليم أنه جدد بناء مقام الحنفي بمكة فانه وسعه وجعله قبة بعد أن كان مسقفا على أربعة أعمدة في صدره محراب وكانت صنعة التسقيف المذكور سنة ثمانمائة وثنتين في مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق واستمر كذلك الى أن جعله الامير مصلح قبة سنة تسعمائة وثلاث وعشرين واستمر على ذلك خمسا وعشرين سنة ثم هدمت القبة وبني المقام مربعا وجعلت الطبقة العليا للمكبرين وموضع هذا المقام كان في الجاهلية موضع دار تجتمع فيه قريش للمشورة ويسمونها دار الندوة ثم اشتراها معاوية رضي الله عنه في زمن خلافته وصارت ينزلها الخلفاء اذا قدموا الحج يخرجون منها الى المسجد للصلاة والطواف ثم خربت وتهدمت وعمرت في

خلافة المعتضد سنة مائتين وثمانين وأدخلت في المسجد وفتحت جوانبها الى المسجد وجعلت سقوفها على أساطين ثم غير هذا البناء وأعيد على وضع أحسن منه سنة ثلاثمائة وست ثم سنة ثمانمائة وثنتين الى ان كانت عمارة الامير مصلح ثم غيرت عمارته بعد خمس وعشرين سنة وسيأتي ذكر مايكون بعد ذلك وقد كانت مذاهب الائمة الاربعة عليها العمل والاعتماد في الحرمين وغيرهما من أول ظهور الائمة الاربعة الى مابعدهم وقد كان الائمة المجتهدون كثيرين ولكن لم يقدر الله بقاء مذاهبهم وبقيت مذاهب الائمة الاربعة وتحررت وتواردت عليها أنظار العلماء حتى ان أهل السنة والجماعة أوجبوا تقليد مذهب منها لمن لم يكن فيه أهلية الاجتهاد وحرموا الخروج عنها نقل العلامة السنجاري عن التقي الفاسي ان صلاة هذه الائمة على هذه الصفة قديمة لكن قال لاأعلم في أي وقت كانت ثم قال مايدل على ان الحنفي والمالكي كانا موجودين مع الشافعي سنة أربعمائة وسبع وتسعين وان الحنبلي لم يكن موجودا وانما كان امام الزيدية ثم قال ووجدت مايدل على ان الحنبلي كان موجودا في عشر الاربعين وخمسمائة وفي البحر العميق وكان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة وأما كيفية الصلاة في هذه المقامات فانهم يصلون مرتبين الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي وكلام ابن جبير يقتضي ان المالكي كان يصلي قبل الحنفي ثم تقدم عليه الحنفي من بعد سنة تسعين وسبعمائة واضطرب كلام ابن جبير في الحنفي والحنبلي لانه ذكر مايقتضي ان كلا منهما يصلي قبل الآخر وهذا كله في غير صلاة المغرب أما فيها فانهم يصلون جميعا في وقت واحد ثم بطل ذلك كله في موسم سنة احدى عشرة وثمانمائة بأمر الملك الناصر بن برقوق وصار الشافعي يصلي بالناس المغرب وحده واستمر ذلك الى ان ورد أمر من الملك المؤيد صاحب مصر أن يصلي المغرب الائمة الثلاثة في وقت واحد كما كانوا يصلون قبل ذلك ففعلوا ذلك وأول وقت فعل فيه ذلك ليلة السادس من ذي الحجة سنة عشر وثمانمائة اهـ والحاصل ان الامر كان مختلفا في تقدم بعضهم وتأخر بعضهم واستقر الامر في عصرنا هذا بعد خروج الوهابي من مكة وجريان أحكام الدولة العلية بالحجاز من سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين ان الشافعي يصلي في الصبح أولا ثم المالكي ثم الحنبلي ثم الحنفي وأما بقية الاوقات فيصلي أولا الحنفي ثم الشافعي ثم المالكي لكن لا يصلي في المغرب الا الحنفي ثم الشافعي فقط وكان الحنبلي لا يصلي في مقامه الا الصبح فقط وفي سنة احدى وثلاثمائة وألف صدر الأمر من سيدنا الشريف عون الرفيق ابن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون ومن والي ولاية الحجاز السيد عثمان نوري باشا بأن الحنبلي يصلي أيضا بقية الصلوات غير المغرب وتكون صلاته بعد أن يصلي المالكي واستحسن الناس ذلك لأن مكة قد كثر فيها الخلق المجاورون بها فصار كثير من الناس لايدركون صلاة

الا ئمة الثلاثة فيصلون جماعات متفرقة فلما صار الحنبلي يصلي أيضا صاروا يصلون معه ومما يدل على أن الناس قد كثروا بمكة وزادوا عما كانوا عليه قبل ذلك ما ذكره العلامة القطبي في تاريخه حيث ذكر أن عمارة مكة زادت وكثر الناس فيها بوجود دولة الدولة العثمانية خلد الله ملكهم الى أن قال وكنت أشاهد في سن الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين حتى انى أدركت الطواف وحدي من غير أن يكون معي أحد مرارا كثيرة كنت أترصده خاليا لكثرة ثوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده في جميع الدنيا وهذا لا يكون الا بالنسبة الى الانسان فقط وأما الملائكة فلا يخلو عنهم المطاف الشريف بل يمكن أن لا يخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا يظهر صورته ويطوف خافيا عن أعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثابر على هذه العبادة كثير من الصلحاء لانه ليس معنا عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد في جميع الدنيا ولا يشاركه غيره في تلك العبادة عينها الا الطواف فانه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر حتى حكى لي والدي رحمه الله ان وليا من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهارا ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم يشرع واذا بحية تشاركه في ذلك الطواف فقال لها من أنت من خلق الله تعالى فقالت له اني من الجن واني أرصد ما رصدته قبلك بمائة عام فقال لها حيث كنت أنت من غير البشر فاني فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأتم طوافه قال وحكى لي شيخ معمر من أهل مكة انه شاهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس الى الصفا وتدخل من باب الصفا الى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندي وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خاليا عن الباعة وكنا نرى القوافل تأتي بالحنطة من بجيلة فلا يجد أهلها من يشتري منهم جميع ما جلبوه فكانوا يبيعون ما جلبوه بالاجل اضطرارا ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الاسعار رخيصة جدا لقلة الناس وعزة الدراهم وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون في ظلال السلطنة الشريفة خائضون في بحر انعامها واحسانها ونعمتها الوريفة أدام الله هذه السلطنة الزاهرة وخلد دولتها القاهرة وخلافتها الباهرة وأما بناء المقامات في المسجد الحرام فأما مقام الحنفي فقد علمت بناءه مما سبق وأما الشافعي فيصلي في مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأما مقام المالكي والحنبلي ففي البحر العميق كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة وفي تاريخ القطبي بعدما ذكر عمارة الحريق الواقع في زمن سلطنة السلطان فرج بن برقوق ذكر أن فراغ العمارة كان سنة سبع وثمانمائة في مدة امارة مكة الشريف حسن بن عجلان وأنه في تلك العمارة عمروا في صحن المسجد من مقامات الاربعة التي وضعت بمذاهب الاربعة على هيئة

القديمة اه ومقتضى قوله على الهيئة القديمة أنها كانت موجودة قبل هذا التعمير ولم أقف على كتاب فيه ذكر هذا البناء السابق ولا على فعله ولا على تاريخ فعله وعبارة البحر العميق تقتضى ان التعمير الواقع سنة سبع وثمانمائة هو أول احداث مقام المالكي والحنبلي حيث قال كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ومقام المالكي بين الركن اليمانى والركن الغربى ومقام الحنبلي على حذاء الركن الذى فيه الحجر الاسود وفى سنة ألف وثلاثمائة قال كثير من الناس ان المقام المذكور منحرف وبسبب انحرافه يحصل انحراف لصفوفه يكون سببا لعدم تحقق استقبال القبلة لبعض الصفوف وسببا لانحراف صف الثاني الاول الذى خلف مقام ابراهيم عليه السلام فان الصف الاول المذكور عند محاذاته مقام الحنبلي يحصل فيه انحراف وعدم استقامة فلو جعل مقام الحنبلى متوسطا بين الركن اليمانى والركن الذى فيه الحجر الاسود بوضع ليس فيه انحراف لكان أولى ورفع الامر الى أمير مكة سيدنا الشريف عون باشا ووالى ولاية الحجاز دولتلو السيد عثمان نورى باشا ثم وقع الاشراف على ذلك بحضورهما وحضور جمع من العلماء والمهندسين فاتفق الجميع على استحسان جعله متوسطا فأنهي الامر الى باب السلطنة السنية وجاء الاذن بذلك من مولانا السلطان عبد الحميد الثانى فهدم المقام المذكور سنة ثلاثمائة وجعل متوسطا كما هو موجود الآن فجاء في غاية الحسن هذا وقد طال الكلام الاستطرادي لارتباط تناسب الكلام مع بعضه تكثير الفوائد فلنرجع الى اتمام الكلام الاول فنقول ان الامير مصلح بيك لما أتم ما كان مأمورا باجرائه بمكة من الخيرات توجه الى المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام وقسم الصدقات التى لاهل المدينة المنورة وأجري كثيرا من الخيرات ثم توجه الى دار السلطنة السنية

﴿ ذكر ولاية مولانا السلطان سليمان ﴾

ولما توفي السلطان سليم كان ولده السلطان سليمان ولى عهده وكان غائبا في سروخان واليا عليها فأخفى الوزراء موت السلطان سليم الى أن حضر ولده السلطان سليمان فأجلسوه على تخت السلطنة ثم أظهروا موت السلطان سليم وكان جلوسه على تخت السلطنة من غير مخالف ولا منازع وكان محبا للجهاد ولنصرة دين الله ومرغما أنوف أعدائه بلسان سيفه ولسان قناه وكان مؤيدا فى حروبه ومغازيه مشهودا في وقائعه ومراميه أيان سلك ملك وأين توجه فتح وفتك وأين سافر سفر وسفك وصلت سراياه وجيوشه أقصى الشرق والغرب وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب وأيد الدين الحنيفى بحدود سيفه البتار وأقام الملة الحنيفية وأحيا ما هامن مآثر ونصر مذهب السنة السنية وأظهر شعائر الشرائع ودفع أهل الالحاد وقمعهم فما لهم من ناصر وكان رحمه الله سلطانا رفيع القدر حسن الطبع في الحرب والسلم

موصوفا بالعلم والحلم والحزم قال العلامة القطبي في وصفه وكان مجددين هذه الامة المحمدية في هذا القرن العاشر فقد وردأن لكل قرن مجدد اشأنه ظاهر هذامع الفضل الباهر والعلم الزاهر والا دب الغض الذى يقصر عن شأنه كل أديب وشاعر وكان يعرف الا لسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية وينظم نظما بارعا حسنا وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة وله ديوان فائق بالتركي وآخر عديم النظير بالفارسي يتداولهما بلغاء الزمان وكان رؤفا شفوقا صادقا صدوقا اذا قال صدق واذاقيل صدق لايعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوى الاخلاق بل هو صافي الفؤاد صادق لاعتقاد منور الباطن كامل الايمان سليم القلب خالص الجنان لايرتاب أحد في كمال ديانته ولا يشك في صلاحه وولايته قال القطبي بعدماذكر

وماتناهيت في ثى محاسنه * الا وأكثر مماقلت ماأدع

ولد رحمه الله سنة تسعمائة وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وتسعمائة في شوال وأطال الله عمره وطول دولته حتى بلغت ثمانية وأربعين سنة وشهورا وعاش أربعا وسبعين سنة وكان رحمه الله شجاعا كريما حسن الخلق والخلقة فانه كان ذاصورة جميلة ظاهرا وباطنا وهو الذى أسس قواعد الدولة العثمانية ومهد الملك لهم وسهل الأمور وفتح البلاد ووضع كثيرا من القوانين الموافقة للشرع النافعة للعباد رحمه الله رحمة واسعة وكان شديد المحبة للغزو والجهاد للكفار فأكثر الغزوات وفتح الفتوحات

﴿ ذكر أول فتح له وانتصار ﴾

أول فتح لمولانا السلطان سليمان وانتصاره انتصاره على والي دمشق المخلوع عنه عندسماعه بموت أبيه وأراد أن يكون سلطانا وهو الامير جان بردي بيك الغزالي وأصل ذلك أن المرحوم السلطان سليم استخدم من أصحاب الغوري أميرين وهما خير الدين بيك وجان بردى بيك الغزالي وكلاهما من اجراكسة وكان بينهما وبين الغوري عداوة وكان يكرههما وهما يكرهانه فلما كان القتال بين الغوري والسلطان سليم بمرج دابق أمرهما الغوري أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما مع عسكرهما حجابا أمامه ووقف الغوري مع خواص عسكره الذين يعتمد عليهم متأخرين عنهما وأراد بذلك أن يقتلا بالبنادق في أول القتال فيستريح هو ومن معه منهما ففطن خير الدين بيك والغزالي لذلك فأرسلا الى السلطان سليم وطلبا منه الأمان فأرسل السلطان سليم لهما بالامان وتعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ذلك منه واتفقا على ذلك قبل القتال فلما تلاقي العسكران فرخير الدين بيك بمن معه من الميمنة وفر الغزالي

بمن معه من الميسرة وبقي السلطان الغوري ومن معــه في القلب فهلك من هلك وهرب من هرب وقتل الغوري تحت سنابك الخيل فلما تم الامر للسلطان سليم واستقر له ملك الشام ومصر قرب خير الدين بيك والامير جان بردي وأدناهما ثم ولى الامير جان بردى دمشق والامير خير الدين مصر فعلا شأنهما وانتشر ذكرهما فلما بلغ الامير جان بردي والي دمشق وفاة السلطان سليم خلع الطاعة وأراد أن يتسلطن بدمشق ونواحيها فجمع جموعا وسار الى مدينة حلب ليستولى عليها فحاصرها مدة فلم يقدر عليها وكان نائب حلب اذ ذاك قرجه أحمد باشا فجد في دفعه واجتهد فرجع جان بردى الى دمشق وزاد في تحصين القلعة وترميمها فارسل اليه السلطان سليمان وزيره فرهاد باشا في عسكر كثير فالتقوا مع عسكر جان بردى في موضع يقال له المصطبة بارض القابون وذلك في صفر سنة سبع وعشرين وتسعمائة فانهزم جان بردى وعسكره وذهبوا تحت أرجل الخيل ولم يبق له ولا لجنوده أثر وقال القطبي انهم قبضوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه الي الباب العالي فدخل فرهاد باشا الشام ورتب أمورها ورجع الى دار السلطنة فخلع عليه السلطان وزاد في قدره ورتبته

﴿ ذكر غزوات مولانا السلطان سليمان ﴾

الغزوة الاولى قتال قرال انكروس لارش ويقال لهم المجر كان من سعودات السلطان سليمان أنه في أول ولايتــه كان بين دول الافرنج اختــلاف واضطراب وفتن كانت بين الفرنسيس واسبانيا وايطاليا فاغتنم السلطان سليمان هذه الفرصة وزحف بعسكر جرار سنة سبع وعشرين وتسعمائة وكان رحمه الله محبا للجهاد في سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه لاعلاء كلمة الله لم ترتفع راية الاســلام علي رأس أحد من الســلاطين العظام أكثر منــه جهادا ونصرة للدين فبرز بجيوشه بنفسه من القسطنطينية بر الاحدى عشرة ليلة مضت من جمادي الآخرة ســنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرار وجيش كثير وأمر بتجهيز أساطيــل كثيرة بحرا فجعل منها خمســين للمجاهدين وأربعمائة للدواب والاثقال وسيرهم حتي دخلوا في نهر الطونة فارســوا بقرب بلغراد وهو مدينــة حصينة لهــا سور منيع وقد أحاط بها نهران عظيمان وهما نهر الطونة ونهر منارة قيل ان السبب في هــذه الغزوة ان المجر قتلوا المباشر الذي كان عندهم من طرف السلطان لجمع الخراج فكان ذلك سببا لغضب السلطان وجعــل السلطان خروجه علي طريق وارنه ومعه عساكر كثيرة وبعث جيشا حاصر واقلعة بوكردلوه وهي قلعــة حصينة على شاطئ نهر صاوه فحاصروها حتي ملكوها ثم توجهوا الى بلغراد ثم لحق بهم السلطان وصاروا جميعا محاصرين بلغراد ولم يزل يشــتد الأمر ويعظم القتال

حتى فتح الله على المسلمين وقتلوا كثيرا من الكفار وفازوا بغنائم لاتحصى واستولى السلطان على بلادهم بعد أن أخرب كثيرا منها فلما شاهد الكفار هذا الفتح العظيم جاؤا له بمفاتيح ثماني قلاع منيعة هناك ثم أمر السلطان بتعمير ماتهدم من قلعة بلغراد وعين لها أميرا وقاضيا ورجع الى كرسي سلطنته سالما غانما في شهر ذي القعدة الحرام من سنته

﴿ الغزوة الثانية غزوة رودس ﴾

هي جزيرة في وسط البحر ما بين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصنا حصينا فكان في غاية الاستحكام مكينا جعلوه لاخذ المسلمين وأتقنوه في غاية الاتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه الى تخوم الارضين وارتفع رأسه الى نجوم الشرطين والبطين ينظرون من أعلى القلعة الى السفائن التي تمر في البحر من مسافة بعيدة فيتهيؤن للتحصن ان كان ذلك عسكرا من المسلمين ويأخذونهم ان كانوا من سفار البحر وتخذته النصارى معبدا يجهزون أموالهم اليه الصرف في استحكام بنائه وتقانه وجعلوا من أعلاه الى أسفله من جميع جوانبه ثقوبا وضعوا فيها المدافع الكبيرة ترمي على من يقصده من الخارج فتصيب كل من قصدها من جميع الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة في وسط البحر تمنع المراكب من الوصول الى الباب ويهيؤن أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة اذا أحسوا بسفينة في البحر من الحجاج أو التجار أخرجوا اليها تلك الاغربة وأخذوها وغنموا مافيها من الاموال وأسروا المسلمين فيقطعون الطريق على هذا الاسلوب ويجمعون الاموال ويصرفونها على مقاتليهم وكان هذا دأبهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم ودام أذاهم للمسلمين وقد تكرر غزو المسلمين بلاد رودس وتكرر انتقاضهم وقد تقدم بعض ذلك فلما تحقق السلطان سليمان كثرة الاذى الحاصل للمسلمين من أهل رودس تجهز بنفسه لغزوهم وقتالهم وكان سفره الميمون الهمايوني ونزوله بخيمه الشريف في اسكدار متوجها الى هذا الغزو لعشر بقين من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله الى رودس ونزوله عليها في شهر رمضان من السنة المذكورة وكان عدة الجيش الذي جهزه مؤلفا من مائتي ألف مقاتل وسفائن بحرية تبلغ أربعمائة سفينة فأحاطت الجيوش برا وبحرا بجزيرة رودس وحصروها فأرسل ملكها يستنجد بملك افرنسيس وملك أسبانيا فلم يجيبوه لما كان بين ملوكهم من الفتن فأرسل البابا صاحب رومة اليهم يحثهم على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة لانها من الحصون اللازمة للمسيحيين من مصادمة العثمانيين فلم يلتفتوا الى كلام البابا وفي رابع رمضان طلع السلطان سليمان على محل رفيع مشرف على حصن رودس فرآها قلعة حصينة كان بانيها ماهرا في هندسة بحيث انه بنى سور قلعة تحت

الارض وعمل لها خندقا عريضا عميقا وجعل للبلد سورين في عرض سبعة أذرع وملأ مابينهما وهو مقدار عشرة أذرع بالتراب والحجارة ولها من جانب البحر مينا عظيمة مدورة كالحوض ولها باب مخصوص جعلوا عليه سلسلة من حديد ولها بعض بروج تناغي في الرفعة والاحكام سمك السماء وحضر خير الدين بيك صاحب مصر في أربعة وعشرين غرابا امدادا للمسلمين واستمروا في أمر الحصار يقاتلونهم بالبنادق والمدافع مدة تزيد على ثلاثين يوما وقيل بل ستة أشهر فلم يغنوا شيأ قال العلامة القطبي وما أمكن من في البحر أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذي حولها مع صونه بالمدافع العظيمة ولا أمكن أيضا القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد في البحر والرمي على من يقربها بالمدافع الكبار فصار وا يصيبون المسلمين بمدافع ولا يصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصن وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البر قليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبل وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا الى أن وصل التراب في الخندق وامتلأ به وقرب من الجدار وارتفع عليه فصار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون فطبق الخنادق ونقب الاسوار من تحت الارض ثم انهم ملؤا النقوب بالبارود وأضرموها بالنار فانفتح بسبب ذلك عدة من مواضع يمكن العبور منها الى القلعة فلما شاهد الكفار ذلك طلبوا الأمان فأمنهم السلطان ثم رجعوا عن ذلك لأنه أتاهم مدد من الكفار في عدة مراكب في الليل فشرع المسلمون في الحرب ثانيا قيل انهم ضربوا على رودس أكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع فصارت خرابا حتى اضطر الكفار وطلبوا الأمان وأرسل أمير القلعة خمسين نفرا من كبارهم بالرسالة فقبل السلطان سؤاله فأمنهم وأذن لهم في المسير مع جماعة وأمرهم أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا عددا كثيرا مأسورين عندهم من الاشراف والاعيان والعباد من مدة متطاولة في السلاسل وأغلال فأطلقوهم وخرج صاحب رودس وتبعه أربعة آلاف من أهل رودس فأعطاهم البابا مدينة ويتسر به من بلاد ايطاليا فأقاموا فيها الى أن نقلهم الملك شركان أمبرطور اسبانيا الى جزيرة مالطة فنسبوا اليها فكانوا يقال لهم شقا لريه مالطة وصارت من ذلك العهد دار اقامتهم الى أن استخلصها منهم بونابارت وهو آت الى مصر سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة ثم دخل المسلمون عسكر السلطان سليمان مدينة رودس وأخربوا الكنائس وجعلوها جوامع ثم رتب السلطان أمور رودس وجعل الجزية على من بقى بها وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسعمائة وتسع وعشرين وحصل لاهل الاسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس لذلك تواريخ ألطفها   يفرح المؤمنون بنصر الله وفتحت ٩٢٩

عدة قلاع في ذلك العام ورجع السلطان الى القسطنطينية كرسي ملكه سالما غانما

﴿ ذكر عصيان أحمد باشا والى مصر وخلعه السلطان وأخذه البيعة من الناس لنفسه ﴾

كان السلطان سليمان له وزير مقرب تربى معه ونشأ فى خدمته وملازمته اسمه ابراهيم باشا وكان لوالده السلطان سليم وزير آخر يسمى أحمد باشا فظن ان وزارة الصدارة لا تتعداه الى غيره لكونه من خواص مماليك السلطان سليم ووزرائه فأعطى السلطان سليمان الصدارة لابراهيم باشا فزاحمه أحمد باشا وصار يخدم السلطنة فى كثير مما يتعلق بالصدارة فشكاه ابراهيم باشا الى السلطان ودبر في ازالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له ولاية مصر وأعطاه أقطاعا كثيرة يستجلب بها خاطره فمضى الى مصر واليا وصار يتعقبه ابراهيم باشا في أشياء كثيرة للعداوة السابقة ويرميه عند السلطان بما يوجب قتله فبرز الامر لجماعة من الامراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه في محله بالامر الشريف السلطاني ويتولى أحدهم مكانه الى أن يرد الامر الشريف باقامة من يختاره السلطان وأرسلت هذه الاحكام الى الامراء المذكورين فوقعت تلك الاحكام بيد أحمد باشا قبل أن تصل الى الامراء المذكورين فجمعهم في ديوانه وذكر لهم ان الامر الشريف السلطاني ورد اليه بقتلهم فأذعنوا للامر الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أنه يأوي الى جبل يعصمه من السلطان وانه يقابل ويقاتل الجيش يلفقه من مصر فأبدى الطغيان وادعى السلطنة لنفسه وأمر الناس أن يبايعوه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر فى أيام الجمع ورتب عسكرا بمصر من الموالية وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى عليه أهل قلعة الجبل وجمع عليهم الشطار فأخذوها بالحيل وقتلوا من فيها من عسكر السلطان وقد ثارت الفتنة والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوي ومحمود بيك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرزا ونصبا صنجقا سلطانيا ونادى من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه فاجتمع تحت الصنجق السلطاني خلق كثير وجم غفير وصار سردارهم محمود بيك وجانم الحمزاوى بمثابة الوزير وتوجها بالعسكر الى الحمام فكبسا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وعجل النصف الثاني هجوم العسكر السلطاني عليه فهرب الى السطح وتخلص من مكان الى مكان وخلص الى البر والتجأ الى شيخ من مشايخ العرب بناحية الشرقية يسمى عبد الدائم وقوي العسكر السلطاني ونهبوا ما جمعه من الاموال بالظلم والمصادرة وخرجوا اليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة فأتاهم به فقطعوا رأسه وطافوا به مصر

وعلقوها في باب زويلة ثم جهزوها الى الاعتاب السلطانية وذلك في سنة تسع وعشرين وتسعمائة وضبط مصر محمود بيك وجانم الحمزاوى الى أن جاء قاسم باشا من دار السلطنة متوليا مصر واستمر ابراهيم باشا في وزارته العظمى ثم أرسله السلطان وهو وزير أعظم الى مصر لاصلاحها فجاء اليها بغاية العظمة والاقبال ونظر في أحوالها وأموالها وولى على مصر قاسم باشا ورجع ابراهيم باشا الى دار السلطنة فكان مقبولا معظما عند السلطان نافذ الامر والنهى الى أن أفرط في الدلال وزاد في الادلال فاستبد بالامور واستقل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة تحيه وادلاله وكثر حاسدوه فوشوا به الى السلطان سليمان وقالوا له انه يريد قتل السلطان والجلوس على تخت السلطنة فلما بلغ السلطان سليمان ذلك أراد أن يختبر حقيقة الامر فقال يوما لابراهيم باشا وهما في مجلس أنس اني أريد أن أجعل السلطنة لك فقال العفو يا مولانا السلطان فان العبد لا يبلغ مرتبة السيد فقال له السلطان لابد من ذلك فقال ابراهيم باشا يكفى أن يتفضل مولانا السلطان على بأن يأمر في دار الضرب أن يجعلوا على وجه السكة اسم مولانا السلطان وعلى الوجه الآخر اسمى فانى أكتفى بالمشاركة في السكة فلما اطلع السلطان على صحة ذلك الامر بالقرائن التى ظهرت له أمر بقتله فطلبه السلطان في ليلة من ليالى أواخر رمضان الى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس انعامات وافرة ووهب له جميع ما كان في مجلسه من أوانى الذهب المرصعة بالجواهر الغالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية وأمره أن يبيت عنده في مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه وصبر عليه الى أن غلب سلطان المنام على مقلته وأماقيه فأمر بذبحه فذبح وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيرا وكان السلطان قريبا من موضعه وقد صمم فى أمر قتله فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفى نبراسه وأخمدت أنفاسه ولعل كثرة احسانه الى الناس ونشر مكارمه التى زادت على الحد والقياس نفعته عند الله تعالى في الدار الآخرة ولعله صدقت نيته في بعضها فصادفت قبولا وصارت له عند الله ذخرا فكم من عمل صالح يكون سببا للنجاة من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء الأبرار وما ربك بظلام للعبيد وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة تسعمائة واحدى وأربعين وفي قصته وقصة أحمد باشا خصمه عبرة للناظرين وأولى الابصار والمستبصرين ورحم الله القائل

ومصاحب السلطان مثل سفينة * في البحر ترعد دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه في جوفها * أدخلها وماءها في جوفه

وفي سنة ثلاثين وتسعمائة هلك سلطان العجم اسماعيل شاه وقام بالملك بعده ولده طهماسب شاه

﴿ ذكر استغاثة ملك الفرنسيس بالسلطان سليمان ﴾

في سنة اثنتين وثلاثين حضر الى دار السلطنة رسل من ملك الفرنسيس ومعهم مكاتبة لمولانا السلطان سليمان مضمونها الشكاية اليه من تغلب بعض الملوك أعدائه على مملكته فهو يستغيث بمولانا السلطان سليمان ويطلب منه أن ينجده بمدده وذكر في تلك المكاتبة تفخيما وتبجيلا وتعظيما كثيرا لمولانا السلطان يستعطفه به فأجابه الى مطلبه وأنجده وجهزله جيوشا كثيرة برا وبحرا فكانت تلك الجنود مع الفرنسيس الي أن انقضى مرامه ودفع المتغلب عليه بل غلبه وقهره فمن ذلك الوقت صار الفرنسيس يعدون أنفسهم خدما وأتباعا للدولة العثمانية

﴿ الغزوة الثالثة الى الانكروس ﴾

في سنة اثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين بلغ مولانا السلطان أن طائفة الانكروس وهم المجر كثر بغيهم وفسادهم وطغيانهم وتكرر ذلك منهم المرة بعد المرة ولم ينجع فيهم التخويف والموعظة فتجهز مولانا السلطان لقتالهم وجهزلهم جيشا يبلغ مائتي ألف مقاتل وقيل ثلاثمائة ألف وخرج بنفسه فلما وصل الى بلغراد لم يزل مشغولا بفتح الحصون والقلاع وجاء أكثر أهلها يطلبون الأمان وسلموا مفاتيح القلاع ثم سار مولانا السلطان حتى انتهى الي نهر صاوة وهو من أعظم أنهار الدنيا فأمر مولانا السلطان فاتخذوا عليه جسرا ممدودا امام قلعة هرسك فاجتاز العسكر منه الي بلاد الكفار ثم أمر السلطان برفع الجسر فرفع فبقي المسلمون في بلاد الكفار وذلك يدل على شهامته وقوة عزمه وقطع أطماع العسكر من الفرار الى بلادهم وسمع القرال لارش ويقال له أيضا لارس وهو رئيس كفار انكروس أعني المجر جمع جنوده وسار بهم من كرسي مملكته الى طرف عسكر المسلمين نحو خمس منازل يريد مهاجمة المسلمين وان يبادرهم في القتال اغترارا بمن معه من الجند وخيم في مفازة هناك تسمي صهارج وأشرف المسلمون على محل الكفار وربوة القتال فرتبوا الميمنة والميسرة والقلب وأخذوا أهبة الحرب وتضرع السلطان الى الله تعالى وسأله النصر وتوجه اليه بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعل أمام العسكر في هيئة الحاجز بين العسكر بن مائة وخمسين عجلة كانت تجر المدافع الكبار وركبوا عليها المدافع وقيدوا بعضها ببعض بالسلاسل ووقف عساكر السلطان الانكشارية تسعة صفوف كما هي عادتهم في الحرب وهجم الكفار بجمعهم على القلب فرأوا أنه لاسبيل الي العبور بسبب العجلات فانحازوا الى طرف اليمين فوقع بينهم وبين عسكر المسلمين هارروملي مقتلة عظيمة فلما علم الكفار أنهم لا طاقة لهم انحازوا الي طرف عسكر اناطولى فقتلوا أيضا معهم قتالا شديدا وكان قد أصاب رئيس الكفرة القرال

لارش مدفع من جهة المسلمين كان به هلاكه وتلفه فتضعضعت جنوده عن المقاومة وامتد القتال الي غروب الشمس ثم انتصر المسلمون وانهزم الكافرون وصاروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتي صارت أجساد الكفار كالتلال وجرت الدماء كالسيل وغنم المسلمون من الاموال والدواب شيأ لايحصى قيل ان القتلى من الكفار عشرون ألفا ثم أغار الجند علي بلاد انكروس وتوغلوا فيها مسيرة عشرة أيام وجاؤا بالاسرى والغنائم واستولى مولانا السلطان على الحصون والقلاع الواقعة في الجهة الجنوبية من تلك المملكة ثم رجع قافلا الى القسطنطينية في أواخر شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة

﴿ الغزوة الرابعة الي بلاد النيمسا وقرادنز ﴾

كانت هذه الغزوة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وسببها انه اجتمع كفار النيمسا وألمان وقرادنز وأغاروا على قلعة للمسلمين تسمى بدون أخذوها من المسلمين بحيلة وعلى غرة وغفلة فلما بلغ الحضرة السلطانية مافعلوه استشاط غيظا وأمر بالتجهز للغزو ليحصل قمعهم فبرز من دار السلطنة الي حلقة لو بكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر راحلا بجيوش كثيرة الي أن وصل الي المخيم العالي فجاءته امرأة من ملوك أنكروس تطلب الأمان لجماعة من قومها والتزمت بخراج أنكروس كل عام فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها بالامان وعادت الى بلادها واستمر الوطاق السلطاني وتوجه كثير من العساكر الى محاصرة قلعة بدون التي كانوا أخذوها فحاصروها وضيقوا علي من فيها الى أن فتحها الله كما فتح سائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد وكان فتحها بعد حرب شديد ثم ولوا هاربين ومأسورين ومقتولين لاربع مضين من محرم سنة ست وثلاثين ثم فتحت قلعة تياق حصاري ثم توجه العساكر الي محاصرة قلعة أخري قريب تخت النيمسا كانت من أعظم قلاع الكفار فأحاط الجند بها وحاصروها فطلب أهل القلعة الامان وأتوا بمفاتيحها الى حضرة مولانا السلطان ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود الاسلام غير مأمونة من هجوم الكفار أمر حضرة مولانا السلطان بهدمها فهدمت وأخربت ونهبوا من كانوا نازلين باطرافها وحواليها وسبيت أولادهم ونساؤهم وعاد السلطان الى تخت ملكه بالنصر والتأييد أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة

﴿ الغزوة الخامسة الي بلاد النيمسا أيضا ﴾

في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة غزا مولانا السلطان سليمان بنفسه من القسطنطينية بمائة

وعشرين ألف مقاتل وأربعمائة مدفع لحرب النيمسا ونازل مدينة فيناعاصمة مملكة النيمسا وأقام عليها الحصار فقاتلوا أشد القتال وحصلت أمطار شديدة تأذى المسلمون منها وفاض النهر وأخذ الخيام وجملة من العسكر وصعد بعضهم علي الاشجار هربا من الماء ومكثوا يومين وليلتين وهم في مشقة شديدة حتي انكشفت المياه ولما رأى السلطان ذلك تحول وارتحل عن المدينة وقتلت عسكر الانقشارية الاسرى الذين كانوا تحت أيديهم ولما وصل مولانا السلطان الى مدينة موهكز من بلاد المجر أتاه حاكمها وبذل الطاعة فقبله وأكرمه وأجلسه عن يمين كرسيه ولما أراد الانصراف خلع عليه خلعة ثمينة وأعطاه ثلاثة أفراس من جياد الخيل عليها سروج مرصعة ورجع السلطان الى مقر سلطنته سالما

﴿ الغزوة السادسة الي بلاد ألمان ﴾

لما كانت سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وصلت الاخبار الى الابواب السلطانية أن قرال النيمسا جمع طائفة من كفار الالمان وأراد الافساد والطغيان فتوجهت همة مولانا السلطان سليمان الى المبادرة الي قتال هذا اللعين فجهز الجيوش برا وبحرا وأرسل في شعبان من طريق البحر أحمد باشا القبودان لحفظ وجه البحر من النصارى ومعه عشرون غرابا مشحونة بالعساكر الابطال فافتتح عدة قلاع من بلاد الفرنج وأرعبهم غاية الرعب وقتل وسبي كثيرا منهم وتوجه مولانا السلطان برا من دار السلطنة في رمضان من السنة المذكورة فوصل بجيوشه الي مملكة الالمان وأحاط بأنها من الحصون والقلاع بعساكره وضيقوا عليهم ونهبوا قراها وضياعها المعمورة وسبوا كثيرا من ذرارى الكفار وغنموا مالا يحصى من الاموال وقتلوا من الرجال مالا يخطر بالبال وهرب ملوكهم وتركوا صعلوكهم وبذل ما بقي معهم من الاموال والذخائر علي بذل الامان لهم ثلاثة أعوام فاجيبوا من جانب السلطنة السنية الى سؤالهم وكتب لهم توقيع الامان وعاد مولانا السلطان الى دار ملكه المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود في أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة

﴿ الغزوة السابعة الي بلاد السرب ﴾

في سنة تسع وثلاثين خرج مولانا السلطان سليمان بمائتي ألف مقاتل لمحاربة السرب فافتتح في طريقه أربع عشرة قلعة واستولي علي أكثر حدود بلاد النيمسا ثم رجع الي القسطنطينية سالما غانما وفي سنة أربعين عقد صلحا مع ملوك الفرنج أهل أوروبا ليتفرغ لمحاربة العجم لكثرة الخلاف الحاصل منهم

﴿ الغزوة الثامنة الي بلاد العجم ﴾

في سنة أربعين وتسعمائة توجهت همة مولانا السلطان سليمان الي محاربة العجم فجهز جيوشا كثيرة وأرسلها مع الصدر الاعظم في أوائل شهر ربيع الاول فافتتح كثيرا من القلاع والحصون والمدائن ثم خرج مولانا السلطان سليمان بنفسه في ثامن ذي القعدة حتى انتهى الي تبريز فاستقبل الصدر الاعظم قبل وصوله الي تبريز بمن معه من العساكر وتوجها بجميع العساكر لاستئصال مملكة العجم وهرب سلطان العجم وصار يتنقل في الجهات والاطراف حتى انتهي في هربه الى خراسان ولما وصل مولانا السلطان الي تبريز استقبله أهلها وهنوه بالقدوم فلما جاء الشتاء توجه الى مدينة بغداد وكانت بيد سلطان العجم وكان له نائب بها وهو بكلو محمد خان فلما سمع بقدوم مولانا السلطان بعث اليه بالطاعة ثم هرب الى بلاد العجم فدخل مولانا السلطان بعساكره مدينة بغداد وقصد زيارة الامام الاعظم أبي حنيفة رضي الله عنه وكان اسماعيل شاه نقض تربته وهدمها فجددها مولانا السلطان وجعل عليه مشهدا عظيما وبنى فيه تكية يطبخ فيها الطعام وبنى في بغداد قلعة حصينة وشحنها بالمدافع والعساكر وكان دخول مولانا السلطان بغداد في ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدي وأربعين وتسعمائة ولما اقبل الربيع نزل منزلا يقال له صاروجه قمش ثم نهض بعساكره يريد سلطان العجم فتوغل في بلاده حتى وصل الى مدينة دركزين فجاءته رسل سلطان العجم وتكرر مجيئهم يطلبون الصلح وكتب اليه سلطان العجم انه لا يقاتل أبدا ويرجو من كرم السلطان أن يرحم الرعايا فقد خربت ديارهم وهلكت دوابهم ويسأل العفو أن يعود مولانا السلطان الى بلاد الروم وأعطي العهود انه لا يخون وتكون البلاد التي أخذها السلطان تحت حكمه لا ينازع السلطان فيها أبدا وانه يكون تحت خدمته يلبيه كلما دعاه فلما تحقق السلطان منه ذلك عقد معه صلحا وأمر العساكر بالرجوع فرحل بهم ورجع الي مقر سلطنته فدخل دار السلطنة رابع عشر رجب سنة احدى وأربعين وتسعمائة وزينت المدينة واستبشروا بقدومه والطف تاريخ قيل في ذلك * فتحنا العراق *

﴿الغزوة التاسعة الي مملكة اسبانيا وجزائر الغرب﴾

كانت هذه الغزوة في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة كما في التاريخ القطبي وذكر بعض المؤرخين أنها كانت في سنة خمس وأربعين وحاصلها ان مولانا السلطان توجه بنفسه الشريفة من طريق البر ومعه عساكر كثيرة وأرسل من طريق البحر خمسمائة غراب مشحونة بالعساكر والذخائر والسلاح وعليها خير الدين باشا فافتتح عساكر البر والبحر قلاعا وحصونا كثيرة بعد حروب كثيرة وتملكوا أربعة وثلاثين حصنا وخمسا وعشرين جزيرة من جزائر البندقية وهم طائفة من النصارى خليفتهم البابا وضربوا مراكب البندقية وكانت مائة وسبعا وستين فتملكوها وسلمت البندقية لمولانا

السلطان قلاع نابولى ورومانيا وغيرهما ودفعت لمولانا السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع سالما منصورا مظفرا وكانت غنيمة المسلمين من أموال الكفار وسباياهم مما لا يحصى

﴿الغزوة العاشرة الى البغدان﴾

وكانت هذه الغزوة فى سنة أربع وأربعين وتسعمائة توجه مولانا السلطان بنفسه الشريفة ومعه كثير من عساكره المنصورة الى بلاد البغدان وقتل فيها وفتك وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وغنم أموالا كثيرة وأسر نفوسا عديدة غير محصورة وعاد الى تخت ملكه الشريف مؤيدا من عند الله تعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل الى دار السلطنة لست بقين من ربيع الاول سنة أربع وأربعين وتسعمائة

﴿الغزوة الحادية عشر الى اسطبور من بلاد انكروس﴾

سبب هذه الغزوة ان مولانا السلطان كان قد أنعم على امرأة من أبناء ملوكهم يقال لها اردل بانو تلك البلاد ثم توفيت فأراد قرال النيمسا أن يتملك تلك البلاد فتوجه مولانا السلطان بعساكره المنصورة سنة ثمان وأربعين وتسعمائة الى قتال قرال النيمسا فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطاني فر هاربا الى الجبال وتقهقر عن القتال فتبعته الابطال ففر منهم فجالت العساكر المنصورة فى تلك البلدان وقتلوا أهل البغي والعدوان وسبوا الاولاد والاطفال والنسوان وتركوا ديار الكفر قاعا صفصفا وغنموا مغانم كثيرة وفتحوا قلعة سطبور وفتحت أيضا قلعة رشوة وقتلوا من الكفار ما لا يحصى وعاد مولانا السلطان بعساكره الى مقر سلطنته منصورين مؤيدين

﴿الغزوة الثانية عشر غزوة استرعون﴾

كانت هذه الغزوة سنة خمسين وتسعمائة وذلك ان مولانا السلطان توجهت همته لتنظيف بلاد انكروس من طوائف الكفار بالغزو والجهاد فتوجه من دار سلطنته بالجيوش متواترة وسار الى أن أحاط بقلعة واليوه وقلعة شقلاوشور وهما من أحكم القلاع وأعظم الحصون فحاصرهما الى أن فتحهما في غرة ربيع الاول من العام المذكور ثم افتتح قلعة استرعون هي قلعة في غاية الاستحكام مشحونة بالذخائر والاموال مملوءة بالعدد والعدد الوافر فحاصرها وألقى الله الرعب فى قلوب أهلها ثم افتتحها وأخذ من فيها أخذا وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الاموال وسبيت النساء والاولاد والاطفال وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع والقلاع وكذلك فتحت قلعة استولين بلغرد وهي قلعة سامية العماد وعين لها وغيرها من القلاع الامراء الحفاظ النبلاء الايقاظ ونصب لكل منهم قاضيا يجرى الاحكام الشرعية ومنجقا للاستحفاظ وصارت من الممالك المحروسة السلطانية وصيرت البيع والكنائس مساجد

للصلاة والعبادات ورجع مولانا السلطان الي كرسي ملكه مظفرا منصورا

﴿ الغزوة الثالثة عشر سنة أربع وخمسين وتسعمائة ﴾

هذه الغزوة كانت الي الهند لكن لم يخرج فيها مولانا السلطان بنفسه وانما جهز الجيوش وأرسلها وسببها ان طائفة من الفرنج يقال لهم البرتوقال كانوا يغيرون بمراكبهم وعساكرهم في بحر الهند فأرسل سلطان الهند الي مولانا السلطان سليمان يستغيث به ويشكو اليه بأن الطائفة المذكورة تغلبوا علي ممالكه ويطلب نجدة من مولانا السلطان فجهز اليه عساكر في مراكب بحرية وبعثهم مع الوزير سليمان باشا فوصل بها الي الهند ودفع البرتوقال فصار سلطان الهند من جملة المنتسبين الى السلطنة السليمانية الداعين لها القائمين بخدمتها ورجع سليمان باشا الي اليمن ثم الى دار السلطنة سالما غانما

﴿ الغزوة الرابعة عشر الي بلاد العجم ﴾

كانت هذه الغزوة أيضا سنة أربع وخمسين وتسعمائة الي بلاد العجم وسببها ان سلطان العجم طهماسب كان له أخ يسمي القاسب ميرزا كان قد ولاه مدينة شروان ثم وقع بينهما اختلاف آل الامر منه الى القتال ولم يكن للقاسب طاقة مقاومة أخيه وجيوشه ففر هاربا مع جماعة من خواصه الى الروم ملتجئا الى مولانا السلطان سليمان فلما وصل دار السلطنة السنية أكرمه مولانا السلطان سليمان ووهب له من الذهب الاحمر شيأ كثيرا ووهب له عدة أحمال من الاقمشة وعدة خيول وأعطاه الطبل والعلم ووعده بالنصر ثم تجهز مولانا السلطان بنفسه الي المسير لقتال طهماسب وأمر أخاه القاسب ميرزا بالتقدم وقواه بطائفة من العسكر وفي ثامن شهر صفر سنة خمس وخمسين وتسعمائة توجه السلطان سليمان بنفسه قاصدا بلاد العجم فلما قرب من حدود اذربيجان نزل ببرهان واستخلص شروان من يد جماعة طهماسب وفي عشرين من جمادي الآخرة من هذه السنة وصل الي تبريز وفوض أمرها الي القاسب ميرزا أخي سلطان العجم وأعطاه من العسكر والمدافع الكبار ما يكفيه فلما تولي القاسب امارة تبريز جعل يصادر الرعايا والبرايا ويظلمهم علي عادة ملوك العجم فلما تحقق السلطان سليمان منه ذلك استصحبه معه وكان قصد السلطان أن يسير علي مدينة وان ويخلصها من طهماسب لانه ملكها من نواب السلطان بعد ان ملكوها فوصل اليها في عاشر رجب وكان طهماسب شحنها بالرجال والابطال وأحصنها غاية الاحصان ولم تزل العساكر يلازمون الحصار بضرب المدافع وعمل النار حتى أخربوا أكثرها فلما تيقن من بالقلعة أنهم مأخوذون تدلي بعضهم من القلعة بحبل واجتمع بالقاسب ميرزا وتضرع اليه واستشفع به فشفع القاسب عند السلطان سليمان في اعطائهم الامان والعفو عنهم فقبل شفاعته

فخرجوا من القلعة وسلموها لصاحبها فدخلها أهل السنة والجماعة ونصبوا عليها الاعلام الاسلامية وولي السلطان اسكندر باشا الدفتري أمير الأمراء بها ولما قرب الشتاء قصد السلطان أن يسير الى طرف ديار بكر فسار يشق حتى وصل الي مدينة آمد فبينما هو مخيم فيها اذ ورد ان العجم لما بلغهم عود السلطان دخلوا مدينة اذربيجان وأحرقوها وشردوا أهلها وقتلوا من قدروا عليه وأحرقوا الزروع فلما بلغ ذلك السلطان أمر الوزير أحمد باشا بالمسير اليهم وعضده بجماعة من العسكر واستخبروا بأن جماعة سلطان العجم مخيمون بقرب مدينة تبريز فساروا وكبسوهم بالليل وقاتلوهم وشردوهم ثم ان القاسب أخا سلطان العجم تضرع الى السلطان سليمان أن يعطيه جماعة من العسكر ليسير بهم الى بلاد أصفهان وقم وقاشان لان بها معظم أموال أخيه سلطان العجم وخزائنه فأجابه السلطان الى سؤله وعضده بطائفة من عسكر الاكراد والاعجام واجتاز السلطان سليمان بنهر الفرات ووصل الى حلب ووصل القاسب بمن معه الى حدود عراق العجم فتوغل بها وبدأ بالنهب والتحريق والتخريب حتى وصل الي حدود فارس وأخرب ضياعهم وأحرق بيوتهم وأسر أولادهم وأزواجهم ثم عاد الي بغداد وشتى بها ووقع بينه وبين الوزير محمد باشا المتولي بغداد من طرف مولانا السلطان سليمان وحشة اقتضت الى أن عرض محمد باشا الى السلطان سليمان بأن القاسب ترفض ورفض طاعة السلطان ولم يكن الامر على حقيقته وانما هو مكيدة فعلها في حقه بغضا وعداوة فلما طلع القاسب على ذلك خاف على نفسه من صولة السلطان فهرب الي بلاد الاكراد ونزل بها حتى قدر عليه أخوه طهماسب سلطان العجم فقتله قتلة شنيعة

﴿ الغزوة الخامسة عشر الي بلاد العجم أيضا ﴾

وفي سنة ستين وتسعمائة كثرت مخالفات سلطان العجم لطاعة مولانا السلطان وكثر ظلمه وكثرت الشكايات فيه من جماعته وغيرهم فقصد مولانا السلطان سليمان التوجه لمحاربة العجم فسار بعساكر كثيرة ودخل حلب في غرة ذي الحجة ولما وصل الى اذربيجان كتب الي سلطان العجم يدعوه للمبارزة ويعيره على ترك الحرب والاختفاء في الكمون ثم توجه مولانا السلطان سليمان حتى وصل الي مدينة وان وهي من أحسن مدن الدنيا وأنزهها فأخربها العسكر جميعه وكان دأبهم كذلك من حين دخلوا بلاد العجم ثم نزالوا كذلك حتى وصلوا في سادس عشرين شعبان من سنة احدي وستين وتسعمائة الي مدينة نخجوان مقر سلطان العجم وفيها دور وقصور رشاقة الاركان رفيعة البنيان ودور أولاده وأحفاده ووزرائه وسائر أعيان دولته فلما دخلها العسكر وجدوها خالية فقطعوا أشجارها وخربوا قصورها فصارت البلد كأنها أرض قفراء ما عمرت قط وأغار بعض العسكر على مدينة تبريز فنهبوها وقتلوا من قدروا على قتله ثم غزوا علي مراغة

فنهبوا وأحرقوا واقتلوا مع ألوف من جماعة سلطان العجم فانتصروا عليهم وأخذوا نيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم وفي أثناء ذلك وصل وافد من جانب سلطان العجم ومعه مكتوب محصله انه ندم على ما أظهر من العداوة وأظهر التذلل والاستغفار والتجأ الى عتبة السلطان يطلب منه الصلح فأجابه السلطان الى مسؤله وخلع على الوافد ثم توجه السلطان وشتى بمدينة اماسية ثم رجع الى كرسي مملكة القسطنطينية

﴿ الغزوة السادسة عشر الى سلطان المغرب ﴾

هذه الغزوة خبر عجيب غريب لم يذكره تواريخ أهل المشرق وهو يدل على ضخامة ملك مولانا السلطان سليمان وقوة سلطنته وعلو همته فيستحق أن يلحق بالغزوات وان لم يخرج فيها السلطان بنفسه فينبغي ذكره لغرابته تتميما للفوائد وهو ما ذكر في تواريخ أهل المغرب منها التاريخ المسمى نزهة الحادي في أخبار أهل القرن الحادي وهو تاريخ مخصوص بذكر ملوك المغرب للعلامة الشيخ محمد بن عبد الله الافراني المراكشي وذلك أنه ذكر هذا الخبر في ترجمة السلطان الملقب بجد أبي عبد الله محمد المهدي ابن أبي عبد الله القائم ثالث الخلفاء السعديين الذين ملكوا مراكش مرة وحاصل ذلك الخبر ان السلطان المذكور لما تم له ملك المغرب ودانت له حواضره وبواديه طمح بالمهدي وتاقت همته الى بلاد المشرق فكان يقول لا بد لي أن أذهب الى مصر وأخرج الترك من أحجارهم وأثارهم في ديارهم فبلغت مقالته مولانا السلطان سليمان العثماني وكان أبو عبد الله لا يسمي سلطان العثمانيين الا سلطان الحواتة لكون الغالب على الاتراك سفرهم في السفن فأنهي ذلك للسلطان سليمان العثماني فبعث له أناسا برسالة فلم يحتفل بهم ابو عبد الله بل قال أخبروا صاحبكم اني مقتحم عليه بلاده ومتوجه للقائه فلما رجعت الرسل للسلطان سليمان وأخبروه بمقالة أبي عبد الله الشيخ وما قاله لهم بعث السلطان سليمان لبعض وزرائه الذين بالجزائر ان يأتوا برأس أبي عبد الله فبعثوا رجالا من أبطال جندهم في شرذمة من الاجناد مظهرين أنهم هربوا من السلطان العثماني ورغبوا في خدمة أبي عبد الله ونيتهم المكيدة به والاغتيال له حيث أمكنهم ذلك فلما قدموا على السلطان أبي عبد الله فرح بهم غاية الفرح وأظهر السرور لمقدمهم عليه وكان عنده جماعة من الاتراك استخدمهم قبل ذلك وكان يركب معهم ويدنيهم ويأمن بهم فلما حضر هؤلاء الاتراك فرح بهم الاولون اذ كل غريب للغريب نسيب وان الغريب يعجب الغريب فلم يزل الاتراك القادمون قائمين بخدمته مختصين به يتربصون الفرصة ويترقبون المكيدة للفتك بأبي عبد الله فسافر لقتال بعض العصاة عليه فلما كان بجبال درنة بموضع يقال له ائلائة دخلوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسكر وبقية الخدم فضربوا رأسه بشاقور ضربة واحدة أبانوه بها واحتملوه في

مخلاة وذهبوا به في الظلماء عامدين الى جهة سجلماسة كأنهم رسل الى تلمسان لئلا يفطن بهم أحد ثم أدركوا في بعض المواضع فقاتل منهم طائفة حتى هلكوا وهرب بعضهم بالرأس الى أن أبلغوه للسلطان سليمان بالقسطنطينية فلم يزل الرأس معلقا بها الى ان تلاشى وكان قتله في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة وحمل جسده الى مراكش ودفن في قبور الاشراف انتهى

﴿ الغزوة السابعة عشر لم يخرج فيها السلطان بنفسه ﴾

في سنة أربع وستين أيضا سارت جيوش للسلطان سليمان الى اليمن لاصلاح اليمن وتملكه ودفع المتغلبين فيه فكان لهم غاية النصر والاستيلاء والتمكن وتمام الاصلاح دفعوا البرتقال التي كانت تقطع البحر وتغير على بلاد الاسلام بعد امتداد الفتن الى سنة ثمان وستين وتسعمائة

﴿ الغزوة الثامنة عشر ﴾

وفي سنة سبع وستين وتسعمائة توجه القبطان سنان باشا بعمارة عظيمة الى جزيرة جربا في افريقا وتملكها بعد حصار ثلاثة أشهر وأخذ حاكمها أسيرا وأتى به الى القسطنطينية فلما بلغ ذلك ملك اسبانيا ركب على بلاد الجزائر وأخذ بعض قلاع ومراكب تخص الدولة فغضب السلطان من ذلك وعزم على فتح مالطة ففي سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة خرج القبطان سنان باشا من مينا القسطنطينية بعمارة تحتوى على مائة واحدى وثمانين مركبا ومعه السرعسكر مصطفى باشا فلما وصلوا الى الجزيرة المذكورة خرجت العساكر وأخذوا في عمل خنادق أمام القلعة وأقاموا عليها الحصار الشديد الى أن أخذوها وأخذوا أسرى كثيرين وسمروا على أخشاب وطرحوا في البحر أمام المدينة وهي محاصرة وكان قد وقع في يد حاكم المدينة أسرى من الانقشارية فلما رأى ذلك أمر بقطع رؤسهم ووضعها في المدافع وضرب بها المحاصرين ووقع عشر هجمات على المدينة وفقد عساكر كثيرة فلم يمكن أخذ المدينة فرفعوا الحصار عنها وارتحلوا

﴿ الغزوة التاسعة عشر ﴾

وفي أثناء هذه المدة كان قد وقع الحرب بين الدولة والمجر وأخذت عساكر الدولة جملة بلدان من ممالك المجر فأرسلوا يطلبون الصلح ولم يرسلوا الخراج المنكسر عندهم فغضب السلطان وامر بحبس رسولهم وعزم على السفر اليهم بنفسه فبلغهم الخبر فخضعوا وأعطوا الطاعة وبذلوا المنكسر وضاعفوه بأضعاف كثيرة فعفا عنهم وأمنهم

﴿ الغزوة المكملة عشرين ﴾

وفي سنة أربع وسبعين وتسعمائة نهض مولانا السلطان سليمان خان لفتح مدينة نصارى مجر

تسمى سكدوار والحال انه قد شاخ وكبر وهرم وازدادت عليه علة النقرس وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين فنهته الاطباء عن السفر فلم يقبل منهم لمحبته الجهاد وقال أريد أن أموت غازيا فخرج لتسع مضين من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة فسار بعسكر كثير متزاحم الافواج متلاطم الامواج وبعث وزيره برتو باشا الى فتح قلعة كولة فلم يلبث الا قليلا حتى فتحها وأما السلطان فانه وصل الى بلغراد بعد مشقة عظيمة بسبب المرض الذي به وكثرة الامطار وسار منها الى سملين فتسلمها وفتح جملة قلاع وبلدان وأما قلعة سكدوار فهي قلعة في غاية الحصانة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء في حضيض الماء شامخة الارتفاع في الهواء الى عنان السماء مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بجيوش النصارى وأبطالهم فكانت في المتانة في حد الغاية وقد أحاطت بها المياه والاوحال من كل جانب فلم يزدد من القلعة الا استعصابا واشتد مرض السلطان وهو محاصر لها حتى أحس بالموت فدعا الله أن يعجل بالفتح ونصر المؤمنين وقال قد تحقق عندى أن الفتح يتيسر ان شاء الله ويكتب في التواريخ ان سليمان افتتح هذه القلعة العظيمة وهو ميت فاستجاب الله دعاءه وحقق أمله وأوصى بالسلطنة لولده السلطان سليم الثاني ثم انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى وأخفى الوزير الاعظم محمد باشا وفاته شفقة بجيوش المسلمين أن يصيبهم فشل ودعا رئيس الاطباء فشق بطنه وملاه بالاجزاء الحارة ودفن أمعاءه هناك ثم لم يزالوا يجدون في أمر الفتح حتى فتحوها بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام وقتلوا اصحابها وقتلوا ثلاثة آلاف ممن معه وكان من جملة أسباب فتحها ان النار اشتعلت في خزينة بارود الكفار وهي مخزونة في القلعة المذكورة فأخذت جانبا كبيرا من القلعة ورفعته الى عنان السماء وزلزلت الارض زلزلة هائلة وتطايرت جلاميد الصخار الى الهواء ورمت شررا ولهبا ودخانا الى أن امتلأ الفضاء وقتلت كثيرا من الكفار الذين كانوا بالقلعة فضعفت قلوب من بقي منهم فتزاحم المسلمون على دخولها والهجوم على من فيها فأقاموا من أيدي الكفار ووضعوا السيف في جميع الكفار وقتلوهم عن آخرهم وساقوهم الى جهنم وبئس القرار وما ذكرنا من ان الفتح انما كان بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام هو ما في بعض التواريخ وفي تاريخ قطبي ان الفتح كان قبل وفاة السلطان وانه لما جاءه خبر الفتح وهو في غاية المرض فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن ثم انتقل الى رحمة الله تعالى وكان فتحها يوم السبت سابع شهر صفر الخير سنة أربع وسبعين وتسعمائة ولم يزل العسكر هناك في ترميم القلعة واصلاحها حتى بعث الوزير محمد باشا الى السلطان سليم يدعوه الى سكدوار وكان يومئذ على امارة كوتاهية فلما جاءه الخبر دخل القسطنطينية على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك في التاسع من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة

وتمت له البيعة واطمأن الناس ثم خرج في اليوم الثالث وتوجه الى سكدوار فلحق العسكر ولم يختل عليهم شئ فحملوا السلطان سليمان رحمه الله تعالى في العجلة ونقلوه الى القسطنطينية ودفن بها وعمره أربع وسبعون سنة ومدة سلطنته ثمان وأربعون سنة وكان قدوم ولده السلطان سليم الى القسطنطينية من سكدوار في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان الحرب لم يزل قائما بين العساكر العثمانية وملك النيمسا * ومن العجائب التدبير الذى حصل من الوزير الاعظم محمد باشا عند وفاة مولانا السلطان سليمان فانه بعد وفاته كتم وفاته وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والانعامات وأعطى الامراء الترقيات وامر بارسال البشائر الى سائر الاطراف والجهات بحصول النصر والظفر وأرسل سرا يستدعي ولي العهد السلطان سليمان الثاني و يستعجله في سرعة الوصول وكتم ذلك عن جميع العسكر والامراء والوزراء والانام وأحسن التدبير في هذا الكتم واستمرت أمور المملكة في غاية الانتظام وهو في ديار الكفار وذلك من كمال العقل التام والرأي الصائب الى أن وصل حضرة السلطان سليم والحرب قائم ثم وقع الصلح على الهدنة ثمان سنين ودفع ملك النيمسا لخزينة السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع مولانا السلطان سليم الى مقر تخت سلطنته وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع الى وطنها ورثت الشعراء مولانا السلطان سليمان بقصائد كثيرة

﴿ ذكر خبر عجيب ﴾

يدل على قوة ديانة مولانا السلطان سليمان وشدة ورعه وخوفه من الله تعالى وذلك انه قبل وفاته أحضر بقشة وأوصى أن تجعل معه في القبر فلما أخبر بذلك شيخ الاسلام المولى أبو السعود العمادى رحمه الله قال لابد من الاطلاع على ما في هذه البقشة قبل أن نجعلها معه في القبر فلما فتحوها وجدوا فيها الاسئلة التي كان مولانا السلطان يسأل عنها شيخ الاسلام المذكور وعلى كل سؤال الجواب منه فبكى شيخ الاسلام المذكور وقال ان مولانا السلطان أراد ليبرئ ذمته عند السؤال عن هذه الاحكام وجعل السؤال متوجها الى من كتب ما فيها فاسأل الله النجاة والخلاص

﴿ الغزوة الحادية والعشرون من غزوات مولانا السلطان سليمان التي لم يحضرها بنفسه ﴾

هذه الغزوة وكانت في الحجاز وهي مما ينبغي أن تلحق بغزوات مولانا السلطان سليمان وان كان المباشر لها مولانا الشريف أبا نمي * وحاصلها أن طائفة البرتوقال من طوائف الفرنج قد تقدم أنهم كانوا يقطعون البحر ويغيرون على كثير من ممالك الاسلام فمن ذلك أن نفوسهم الخبيثة سولت لهم الاستيلاء على الحرمين وجزيرة العرب وكان ذلك في أواخر سنة

ثمان وأربعين وتسعمائة فدخلت طائفة عظيمة من الفرنج المذكورين كثيرا من بنادر الاسلام وخربت وأفسدت فيها ثم قصدت بندر جدة المعمورة ونزلت بالمرسى المعروف بأبي الدوائر في خمسة وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح والذخائر فقاتلهم مولانا الشريف أبو نمي أمير مكة بنفسه وترك الحج ونزل الي جدة في جيش عظيم بعد ان أمر بالنداء بالجهاد في نواحي مكة وقال من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة فبلغ المبادرون للجهاد مبلغا عظيما لايحد ولا يعد ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عددا وعددا وعيشا رغدا وخدم مولانا الشريف أبي نمي يتوجهون الي أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام و يشترونه بأغلى الاثمان حتي فرغت الحبوب والاقوات وكادت تعدم فأقبلوا علي نحر الابل فكان مولانا الشريف يأمر بأن ينحر لكل مائة نفس بعير أو ناقة واستمر الامر علي ذلك مدة فقال له بعض الناس ان هذا الفعل يستأصل ماعندك من الابل فأجابه بأني نويت أن أنحر ماعندي من الابل فاذا فنيت أمرت بنحر الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله فلما قرب وقت الحج برز أمره الشريف لابنه الشريف أحمد أن يقابل بمكة أمراء الحج ويلبس الخلعة الواردة ويحج بالناس على عادة أجداده الكرام فلما وصل أمراء الحج قابلهم وفعل مثل ما أمره والده وحج بالناس فلما قضوا الحج توجهوا الى جدة لمقابلة مولانا الشريف أبي نمي والباسه الخلع الواردة فلاقاهم وهو شاكى السلاح لابسا درعه في هيئة المقاتل ولما قدموا عليه أمر باطلاق المدافع فاطلقت لمقابلتهم نحو ثلاثمائة مدفع فكان مشهدا عظيما فالبسوه الخلع الواردة معهم وأضافهم وأكرمهم بغاية الاكرام وانصرفوا راجعين ولما رأي الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خاسئين ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان ذلك زاد في اكرام مولانا الشريف أبي نمي وسمح له بنصف معلوم جدة وأوصل اليه غير ذلك من الانعامات التى لاتحصى وهذه القصة فيها منقبة عظيمة لسيدنا الشريف أبي نمى تدخله في عداد الغزاة المجاهدين في سبيل الله ولم تكن لاحد غيره من أسلافه وأحفاده امراء مكة فرحم الله الجميع رحمة واسعة

﴿ تنبيه ﴾

ذكر العلامة الفاسي في الاعلام بأخبار بلد الله الحرام أن الحبشة جاءت الى جدة في خلافة الرشيد سنة ثلاث وثمانين ومائة فأوقعوا بمن فيها فخرج الناس هاربين الى مكة فخرج معهم أهل مكة مجاهدين وأميرهم حينئذ عبد الله بن محمد بن ابراهيم المخزومي فلما رأت الحبشة ذلك هربوا الى المراكب فجهز وراءهم صاحب مكة غزاة في البحر وقيل ان هذه القصة كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة وقد ورد في فضل ثغر جدة أحاديث كثيرة منها ماذكره شيخ الاسلام الحافظ ابن

حجر العسقلاني في كتابه المسمى لسان الميزان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان على رأس السبعين والمائة فالرباط بجدة من أفضل الرباط وفي رواية عن ابن عمر أيضا يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط بجدة وروي أيضا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من أبواب الجنة في الدنيا الاسكندرية وعسقلان وقزوين وعبادان وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت وفي شفاء الغرام للعلامة الفاسي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رباط وجدة جهاد وكان عطاء يقول انما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتي به الى مكة لا يخرج الا منها وروى ابن جريج ان فضل مرابطي جدة على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان وعن فرقد السنجي أنه يكون في آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الارض مثلهم شهداء وقال الامام حجة الاسلام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ان بعض الاولياء كوشف فرأى ان جميع الثغور تسجد لعبادان وعبادان تسجد لجدة اه قال صاحب السلاح والعدة ينبغي لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوي الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الكفر والعناد فبالنية يحصل له ثواب ما ينويه من الجهاد اذ العبادات متوقفة على النية لقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات

﴿ ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان ﴾

اعلم ان الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين في كل الجهات كل ذلك معدود من الفتوحات وفتوحات مولانا السلطان سليمان في ذلك كله كثيرة وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين فمن ذلك انه جدد عمارة مولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة خمس والاثنين وتسعمائة وفي سنة ست وخمسين وتسعمائة أرسل منبرا من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ومكتوب عليه انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام وفي سنة ستين جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب علي والاخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة وكل من المنارتين يسمى بالسليمانية وهما أحسن منائر المسجد الحرام وفي أربع مدارس للمذاهب الاربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة وعمر وتعمير كثيرا في الكعبة المعظمة وجدد سقفها وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وبصلاح رخام المطاف ثم في سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة فجدد وفي سنة سبع وستين وتسعمائة أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتي

دخلت مكة وعم الانتفاع بها وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة في تحصيل الماء وكان تمام هذا التعمير في مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط في التواريخ وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى لاسيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد أدام الله سلطنتهم على الانام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام * ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان في الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لاهل الحرمين وهي مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فهي وان كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام الا انه هو الذي ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغا كبيرا وقد تقدم ان صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرز لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لاهل الحرمين وجعل من ريعها لاهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولاهل المدينة المنورة ألفي أردب وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحته قضاة العسكر بالديوان الشريف العالي ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالي وهي جمع جالية ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها وهي من أجل الاموال اذا أخذت على وجهها المشروع ولاجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء فلما كانت أيام سلطنة مولانا السلطان سليمان نور الله مرقده وحفه بالرحمة والرضوان بحث عنها وتحرى فيها ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها فاجتهد في تحريرها وضبطها واستوعب صرف جميعها للمذكورين وزاد على ذلك قدرا كثيرا أخرجه من خزائنه الخاصة به واستوعب بالضبط جوالي مصر والشام وحلب وغير ذلك من الممالك الاسلامية واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء الموجودين في الممالك الاسلامية وجعل لكل واحد ما يليق به وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الاطعمة للفقراء وناهيك بكثرة هذه المصارف في وجوه الخيرات فالله تعالى يبقي هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة الى أن تنقضي الدنيا وتقوم الآخرة ومن خيرات مولانا السلطان سليمان وفتوحاته انه وقف أوقافا كثيرة متفرقة في ممالك الاسلام وجعل وظائف للمدرسين والطلبة في جميع ممالك الاسلام ورتب لهم معلومات جليلة تصرف من ريع تلك الاوقاف والكلام على ذلك طويل مبسوط في التواريخ وجعل تلك المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم في العلوم ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا الى عدة مجلدات فالله تعالى يجعل سعيه مشكورا وعمله مبرورا

﴿ ذكر فتوحات مولانا السلطان سليم الثاني ابن مولانا السلطان سليمان ﴾

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد وفاة والده سنة أربع وسبعين وتسعمائة وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة يوم الاثنين ورجوعه من سكدوار موضع وفاة والده في شهر جمادي الآخرة كما تقدم وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهما شجاعا ذكيا مائلا الي التقوي ووجوه الخير مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر صحيح العقيدة حنفي المذهب كبقية أسلافه مكرما للعلماء والصالحين محبا لهم مواظبا على الصلوات الخمس في الجماعات وكان احسانه يصل الى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن فلما جلس على كرسي السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات

﴿ ذكر أول غزوة من غزواته ﴾

شاع في أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثاني على تخت السلطنة عصيان بني عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة فجهز عليهم عساكر كثيرة وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها حتى استولوا على معظم قلاعهم وأخربوا أماكنهم وعادوا سالمين في أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة وفي سنة ست وسبعين سارت جيوش السلطان سليم الى اليمن لاتمام الاصلاح ودفع المتغلبين صحبة عثمان باشا ثم أردف بسنان باشا وغيره فتنصروا وأزالوا المتغلبين والمتمردين من البرتقال وملكوا صنعاء وغيرها

﴿ الغزوة الثانية الي قبرس ﴾

وهي تتضمن غزوات لايزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة بعد أخرى فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور الى التجهيز على جزيرة قبرس فجهز عساكر كثيرة في البحر ثلاثمائة وستين مركبا وجعل عليها الوزير مصطفى باشا سنة ثمان وسبعين وتسعمائة فلما وصلت العساكر الى الجزيرة المذكورة استقرت الآراء علي حصار قلعة لفقوسة أولا وهي مدينتهم الكبرى وقاعدة مملكتهم فحصروها مدة شهر ثم افتتحوها وقتلوا كثيرا من عظماء أهل لفقوسة وبعثوا برؤسهم في طباق من فضة الي أهل قلعة كرينة فلما شاهدوهم خافوا وذلوا فطلبوا الأمان وبعثوا بمفتاح القلعة فتسلمها ثم مهد الوزير المذكور قواعد مدينة لفقوسة وبني ماخرب منها وتوجه الي حصار قلعة ماغوسة وهي من أمنع الحصون وأصعب المعاقل وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل وشحنوها بالرجال وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مائة ذراع وعشرة أذرع وعمقه تسعة وعشرون ذراعا وقد ركبت في هذه القلعة من المدافع سبعمائة وأربعة وستون مدفعا كبيرا ومن البنادق مالا يعلم عددها الا الله تعالى فحصرها العسكر حصارا

شديدا وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والاحجار المنجنيقية ونقبوا بطون الأرض شقا وفتقوا قعورها فتقا وبعث أهل قبرس الى ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الامان فأمنهم الوزير المذكور وطلب كثير منهم المسير الي بلادهم فمكنهم من ذلك وتسلم المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الاسلام وعمروا ماتخرب منها وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم سارت الجيوش الاسلاميـة الي جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا بنيانهـا ثم الي جزيرة كورفس وهي مفتـاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعاثوا فيها نهبـا وتحريقا ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزر هناك فلما طال مكثهم علي وجه البحر ورأوا أن العدو ماقبلهم اغتروا فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر وقدماؤا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها فسابقته العساكر مرسين في الميناء فوصل اليهـم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم فهاهم سائرون عليكم وواصلون اليكم في جموع كثيرة من ملل شتي وقبائل متفرقة واتحد البابا وملك اسبانيا مع البندقية علي حرب العثمانية فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض فكان رأى الوزير الاعظم برتو باشا في ذلك أن لايقابلهم ولا يقاتلهم وكان ذلك مقتضى طبعه لأنه كان جبانا الى الغاية وكان مارآه هو الانسب بمقتضى الحال وخالفـه كاشف البحر علي باشا في ذلك وكان رجلا شجاعا بطلا مغوارا فقال لابد من لقاء الكفار فان وهج العار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالاسلام وزادنا قوة وبسطا فلو سارت أغربتنا وهي خالية من عسكر الاسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر مايفي بالمقابلة ولم يزل يناظرهم حتي غلب علي رأيهم فاتفق الجميع علي لقاء العدو فالتقي الجمعان في السابع عشر من جمـادى الاولي سنة تسع وسبعين وتسعمائة وتقابل الفريقان في طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين وألجأتهم الي البر فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس الى الغروب وقتل المرحوم علي باشا المذكور وجماعة كثيرة لاتحصى وغنم الكفار مامعهم من الاموال والاسبـاب والاغربة والشواني ومافيها وقل من سلم من هذه الوقعة وكانت عند الافرنج أفراح عظيمة وجعلوا زمان تلك الغلبة عيدا يعيدونه كل سنة فسبحان الحكيم الصمد القادر الذي يفعل مايشاء

﴿ الغزوة الثالثة الى قبرس أيضا ﴾

ثم كان ماتقدم اهتم السلطان في انشاء مراكب وسفائن أخري مع مايناسبها من المدافع فجدوا حتي تم لهم مارآموا في مدة سبعة أشهر وما كان ذلك الا عناية من الله تعالي كأن لم يمسهم ضر ولا شر وفي سنة ثمانين وتسعمائة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطيني صحبة كاشف البحر قلج علي باشا القبودان في مائة وخمسين غرابا غير ماانضم اليهم من المراكب فسار يحمي البلاد عن هجوم

العدو فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الافرنج فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فاغرقها ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء وفي هذه السنة أرسلت مشايخ البندقية تطلب الصلح على شروط تعود الى شرف الدولة فصدر الامر بالقبول وتوقف الحرب

﴿ الغزوة الرابعة الى البغدان ﴾

في تلك الايام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع عن دفع الخراج فأرسلت اليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيرا والمحضر ضربوا عنقه

﴿ الغزوة الخامسة الى تونس ﴾

كانت هذه الغزوة في سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة خرجت عمارة عظيمة في سفن وأغربة وغلايين وشونيي مشحونة بالرجال وآلات الحرب صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر علي باشا قاصدين فتح حلق الوادي وتخليص مدينة تونس فساروا وحاصروا حلق الوادي وهو من أمنع الحصون فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الافرنجي وأسروا صاحبها الاصلي محمدا الحفصي وكان قد تحصن فيها خوفا من العثمانية واستعان بالافرنج الاسبانيين فلم يغنوا عنه شيأ فأسره عساكر السلطنة السنية ووجهوا به الى القسطنطينية وصارت تونس من الممالك العثمانية وهذه الغزوة كانت عظيمة الشان اختصرها بعض المؤرخين وبسط الكلام عليها العلامة القطبي فقال ان سلاطين تونس كانوا آل حفص وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدي وان سلطنتهم كانت بتولية بني عبد المؤمن لهم من سنة ستمائة وثلاثة واستمرت الى ظهور الدولة العثمانية قال القطبي ثم ضعف الحفصيون ووهنوا ووقع بينهم الاختلاف وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الافرنج فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع في تلك البلاد ويواصلون جنود النصارى الى بلاد المسلمين ويولي النصارى سلطانا من الحفصيين يكون تحت حكمهم الى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم للمسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس في موضع يقال له حلق الوادي كأنه بناء شداد وشحنوه بالابطال وملؤه بآلات الحرب والقتال وصارت البرتغال تكمن للمسلمين ويرسلون منها الاغربة والمراكب في البحر على المدن والمؤمنين ويقطعون الطريق على المسافرين ويأخذون كل سفينة غصبا وكبير ملوكهم صاحب اشبيلية جزيرة الاندلس بعد ان أخذوها من المسلمين أعادها الله دار اسلام ببركة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كان خير الدين باشا مالك الجزائر متعهدا به لترتيبه

أحد ملوك تونس فأجابه وسار معه بجنود الي أن تملك تونس في قصة طويلة ففزع الحسن بن محمد الحفصي الي اسبانيا فبعثوا معه جنودا وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره وقصة ذلك طويلة فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة وبعثها مع سنان باشا في مائتي سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة احدى وثمانين وتسعمائة فاحاطوا بتونس وحاصروها وضيقوا عليها ورموا عليها المدافع الكثيرة وقاتلوها قتالا شديدا وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد وكان عمق الخندق ستين ذراعا وقعره متصل بالبحر ثم حمل الوزير ومن معه من الابطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادى الاولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة * ومن أعجب الاتفاق ان هذه القلعة بناها النصارى في سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وأحكموا بنيانها واستكملوه في ثلاث وأربعين سنة وافتتحها الوزير المذكور في ثلاث وأربعين يوما من أيام محاصرتها فكانت الايام بعدد السنين التي أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور ان ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية تحتاج الي مؤنة كثيرة وخزائن من الاموال فأمر بهدمها وتخريبها حتى لا تصير ملجأ للنصارى المخذولين ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه الي تونس وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضا الى أن فتحوها وأسروا صاحبها الافرنجي وصاحبها الاصلي الحفصي وبعثوا بهما الي دار السلطنة وصارت تونس من الممالك العثمانية وانقضت دولة الحفصيين بعد ان انقضى لهم فيها ثلاثمائة وثمان وسبعون سنة هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار * ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثاني المعنوية اضعافه المبرات والخيرات لاهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام فانه كان مسقفا بالخشب وتوالي عليه الحريق والتعمير وصار في غاية من الخراب والوهن فبرز أمره السلطاني بتعميره وان يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قببا وطواجن كما هو مشاهد الآن وبرز الأمر بالتعمير سنة تسع وسبعين وتسعمائة وكان الشروع فيه في منتصف المحرم سنة ثمانين وتسعمائة وتوفي مولانا السلطان سليم المذكور قبل اكمال التعمير فأتمه ولده مولانا السلطان مراد فكان التمام سنة أربع وثمانين وتسعمائة فجاء نزهة للناظرين والكلام على ذلك طويل مبسوط في التواريخ وتوفي مولانا السلطان سليم سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وكان سبب وفاته أنه انشأ حماما بدار السعادة وأحكمه غاية الاحكام بحيث انه لم يبصر أحد مثله فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشي فيه اذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة

اسودمنها جنبه الذي سقط عليه فمرض منها أياما ثم توفي رحمه الله وأقيم في السلطنة بعده ابنه (السلطان مراد الثالث) وكان وقت وفاة أبيه غائبا في مغنيسا فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوما الى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكا جليلا تربى في حجر السعادة واشتغل بالعلوم حتى حصلها وفاق كثيرا من أسلافه واشتغل بعلم التصوف ولم ينقل عنه أنه صدر منه شيء من الكبائر وكان مكرما للعلماء والصالحين والفقراء محبا لهم كثير الاحسان اليهم وكان واقفا عند مراد ربه لا يتعداه عاملا في أمره بتقوى الله مراعيا العدل والاحسان فيما استرعاه لم يزل قائما بنصرة الدين وحماية بيضة الاسلام وتقوية جناح المسلمين ولو لم يكن من مناقبه الا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلا على كرامة الله له بين الانام وكان له نظم فائق باللسان العربي والتركي والفارسي

﴿ ذكر أول غزوة من غزواته الى بلاد العجم ﴾

كان أهم شيء عنده بعد جلوسه في السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة ما يقع منه من الغدر ونقض العهود وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وقام بعده ولده محمد خدابنده فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس فتوجه في سنة ست وثمانين وتسعمائة بعسكر كثير الى بلاد الشرق فبنى قلعة قارص وشحنها بالمدافع والمكاحل ثم سار الى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج الى أن استولى عليها ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالا شديدا فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ثم سار وحاصر قلعة تفليس الى أن افتتحها وكان المسلمون افتتحوه قديما وغلب عليها الكرج ولما افتتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجي ملكة تلك البلاد ابنها الى الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثماني قلاع فرحب به الوزير وآنسه وعين له مرتبة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدي الوزير ثم سار الى طرف شروان بعد أن نصب أميرا على تفليس وبث سراياه الى الاطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا ابن ازدمر واليا بها فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا الى طرف بلاد السلطان ليشتي هناك للاغارة في الربيع على بلاد العجم ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو ثلاثين ألفا قتال عثمان باشا فوقع بينهم قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر عسكره ثم وقع بينه وبين عسكر الشاه هنالك ما ينوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائما لعثمان باشا ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفا وقصدوه في شروان فقاتلهم أربعة أيام ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ثم ترك في شروان جعفر باشا وتوجه الى القسطنطينية يطلب ليكون صدرا أعظم وقال في

مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم والوصل الى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه

﴿ الغزوة الثانية الى بلاد العجم أيضا ﴾

وفي سنة ثمان وثمانين وتسعمائة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا الى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل الى حدود العجم فأرسل اليه الشاه في الصلح وبعث للسلطان أحد وزرائه يدعى ابراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة وظن سنان باشا ان هذه الحالة مما تعجب السلطان فلم يكن الامر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا وفي سنة احدى وتسعين وتسعمائة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر الى بلاد العجم فسار وتوغل في بلاد اذربيجان واستولى على مدينة وان وبنى بها حصنا حصينا نصب فيه يوسف باشا واليا وفي سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة الى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع وفي هذه السنة أيضا سار الوزير الاعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة الى قتال العجم فشتى ببلاد قسطموني وسار الى بلاد العجم في سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ومعه من العساكر مالا يعلم عدده الا الله فعارضه الاعجام في الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم دخل تبريز في أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس فقابلهم الوزير باللطف ثم شرع في بناء قلعة حصينة ثم في بناء سور المدينة فأتم الجميع في مدة خمسة وثلاثين يوما ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر في أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم ولم ينج منهم الا النساء والاطفال ثم مرض الوزير وخرج متوجها الى بلاد الروم بعد أن أبقى في مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفا صحبة جعفر باشا فلما كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة مرزا ابن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع عسكر كثير فتهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بنفسه الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة فاستمر الحرب من غلس الصبح الى الظهر فلما رأى الوزير امتداد الامر أمر برمي المدافع الكبار وكانت ثمانمائة مدفع فأصابت خلقا كثيرا من عساكر الاعجام وانجلى الامر عن هزيمتهم ثم نزل الوزير في ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لاجل اعطاء الترقي والعطية للعساكر فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق وانتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى وأقام مقامه سنان باشا جغاله زاده فلما رحلوا اعترضهم العدو يمينا وشمالا ووقع بينهم مناوشات فلما وصلوا الى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور في نحو ثلاثين ألفا فوقع بين العسكرين قتال كثير وانجلى الحرب عن هزيمة الاعجام بعد أن حصد غالبهم بالسيف

﴿ الغزوة الثالثة الى بلاد العجم أيضا ﴾

في سنة أربع وتسعين وتسعمائة جهز السلطان مراد فرهاد باشا مع عساكر عظيمة الى بلاد العجم وصلوا الى مدينة تبريز وحصنوا قلعتها ورمموا سورها وكانت الشاهية حاصروها مرارا عديدة وقربوا من أخذها ثم بنى هناك بين وان وتبريز قلعتين وشحنهما رجالا وسلاحا ولم يزل الوزير المذكور يشتي ببلاد الروم ويرجع في الصيف الى بلاد العجم حتى مهد البلاد التي أخذت من الكرج وبني قلاعا وحصونا كثيرة وقاتل قرمباغ محمد خان فكسره وغنم أمواله وعاد الى بلاد الروم * والحاصل ان الحرب بين الدولة العثمانية والعجم كانت سجالا ثم انعقد بينهما صلح وجعل لكل منهما حد لا يتعداه أحدهما وكان ذلك في مدة الشاه محمد خدابنده بن طهماسب بن اسماعيل وخلع محمد خدابنده سنة خمس وتسعين وتسعمائة لانه كان أعمى وأقيم بعده ولده عباس شاه

﴿ الغزوة الرابعة الى بلاد المجر ﴾

في سنة احدى بعد الألف عين السلطان الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر وأرسل معه العساكر ففتح تلك السنة قلعة يستريم وقلعة طاجة وشتي بمدينة بلغراد وفي السنة الثانية فتح قلعة قرآن بضم القاف وقلعة يانق وهي من حصن القلاع وأصعبها قد أحاط بها الماء وهي مدينة مانت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقيها واستعلاء مراميها وذلك بعد ان نال المسلمين شدة عظيمة قيل ان النصارى رموهم بمدافع فجاء مدفع بصنجق النبي صلى الله عليه وسلم فتلقاه رجل قبل السقوط فلم يسقط ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم موتان فجعلوا يموتون في فرشهم من غير قتال فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجدوها قد جانت من الموتى وسر المسلمون بذلك سرورا عظيما وتوفي السلطان مراد خان الثالث سنة ثلاث بعد الالف وعمره خمسون سنة ومدة ملكه عشرون سنة وثمانية أشهر وتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثالث) قال في خلاصة الأثر عند ذكره الملك الاعظم الباهر الشأن كان سلطانا عظيم القدر مهابا جوادا عالي الهمة مظفرا في وقائعه صالحا عابدا ساعيا في اقامة الشعائر الدينية مراعيا الاحكام الشريعة مطيعا الاوامر الله منقادا لما يقرب اليه مداوما للجماعة والاوقات الخمس قائما بالسنن والرواتب * ومن عادته المرضية انه كان اذا ذكر صلى الله عليه وسلم نهض قائما وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة وقال القرماني في تاريخه كان كامل الاوصاف محبا للعدل والانصاف محبا للعلماء والصلحاء مكرما لهم بانواع الاكرام شديد المحبة للجهاد ونصرة الاسلام

﴿ الغزوة الاولى من غزواته ﴾

كانت هذه الغزوة الى المجر في أول مدة سلطنته خرج عن الطاعة ميخاييل ملك الافلاق واجتمع معه ملك النيمسا وبلاد الاردل وعاثوا في بلاد روم ايلي فبعث السلطان محمد جيشا تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الاعظم فنكسر الافرنج كسرة هائلة وقتل من جيشه خلق كثير فقتل السلطان فرهاد باشا وولى مكانه سنان باشا وكان شيخا مسنا فلم ينجح بل كسر أيضا فعزله السلطان وأعاده الى الصدارة فأشار على السلطان أن يخرج بنفسه للحرب فخرج بنفسه في شوال سنة أربع بعد الالف بجيش غفير قاصدا بلاد المجر فوصل لغراد وحاصر مدينة كراي ففتحها وكان فيها قلعة في غاية المنعة واتحصين فنازلها بجنوده وأطلق أمره في ضربها بالمكاحل فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها في أواخر صفر سنة خمس بعد الالف ووصل خبر أخذها الى ملك الانكروس فقام وقعد وأرغي وأزبد لانها كانت عندهم من القلاع المعتبرة فكاتب ملوك النصاري فطلب الامداد منهم بالعساكر والذخائر فاجتمع اليه ملك النيمسا وحاكم الاردل وحاكم البغدان وحاكم الافلاق وسواكن الجزائر من حكام البحر وكثير من ملوك الفرنج فجاؤا الى امداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء وكان السلطان محمد سار بعسكره بعد الفتح السابق الى القلعة التى بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة اذ دهمته النصاري من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الاسلام حينئذ غير مستعد والنصارى في غاية الكثرة جدا بحيث ان جمعهم المخذول لا يحصى فوقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله الى أن دخل الليل فتفرقوا وكان ذلك يوم الخميس ثانى شهر ربيع الاول وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضا واستعدت النصارى أزيد من اليوم الاول فكانوا غرقى فى الفولاد ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بددا ووصلوا الى مخيم السلطان فطلب السلطان اليه معلمه الخوجه سعد الدين وكان فى صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله تعالى فلم يكن بأسرع من أن قوى المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا اشمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال وتراجع جميع العسكر مسعفين فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارون حتى قتل بعضهم بعضا من الزحام وغيره ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار الا من هرب وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة وأحصيت قتلى المسلمين فكان الذي استشهد من القواد ما يقرب من أربعمائة ومن الصناجق أصحاب الالوية بضعة عشر رجلا ومن الامراء الكبار أربعة أنفار ومن العساكر كثير ومن الكفار ما لا يحصى والحاصل ان ما وقع له من النصر لم يتفق لاحد من ملوك آل عثمان وذلك انما هو بمحض لطف الحى وامداد ربانى غير متناه ولقد حكى ان ملوك الفرنج تطابق على هذا السلطان صاحب القران وهذا الوصف انما

هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لا تسامي وأنهم على عادتهم يصورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رزقها وفي خلاصة الاثر أن بعض العلماء رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يتذاكرون أمر هذه الغزوة فقال الصديق الاكبر رضي الله عنه ان انهزام المسلمين كان مقدار الكن لما كان السلطان محمد سعيد أكرمه الله تعالى فأمده بملائكة النصر حتى حصل له الظفر والتأييد ودخل السلطان الى مقر ملكه ثالث جمادى الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل

﴿ الغزوة الثانية الى بلاد الانكروس ﴾

في هذه السنة عين محمد باشا الساطورجي سردارا على بلاد الانكروس فتقابل مع الكفار بجيش جرر ووقع بينهما قتال ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا التبرياقي اهمال في مساعفته ولولا ذلك ما خلص أحد من الكفار

﴿ الغزوة الثالثة جهز مولانا السلطان محمد جيشا مع محمد باشا ﴾

في سنة سبع فتح محمد باشا المذكور قلعة وار دار وفي هذه السنة استولى الكفار على قلعة يانق و بعض قلاع وفيها أيضا كبس ميخاييل اللعين على غفلة قرب نيكبولي ففر محافظ الطونة أحمد باشا منهزما فحاصر اللعين قلعة نيكبولي مدة ثم رحل عنها وفيها غضب السلطان على محمد باشا الساطورجي لاهماله في أمر المحاربة وتعذيبه العسكر واسرافه في المصارف و نزاع يافق في زمانه واقتلاع بعض قلاع فأرسل اليه السلطان من قتله

﴿ الغزوة الرابعة جهز مولانا السلطان محمد جيشا ﴾

في سنة ثمان بعد الالف فتح قلعة قانيره وكان فتحها على يد الوزير الاعظم ابراهيم باشا وكان فتحا عظيما يعادل فتح اكراي وسر بها المسلمون وزينت البلاد لهذا الفتح ثلاثة أيام وكان في أيام محاصرتها وقع اضطراب عظيم فرأى بعض الصالحين في منامه شيخ الاسلام صنع الدين جعفر وهو يأمر بقراءة هذا الدعاء وهو اللهم قو قلوب المؤمنين بقوة الكرام البررة وألق الرعب في قلوب الكفرة الفجرة فشاع هذا الدعاء وداوم على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد وفي هذه السنة استولت النصارى على استون بلغراد ثم استرجعت منهم

﴿ الغزوة الخامسة الى بلاد المجر ﴾

في سنة عشر بعث مولانا السلطان سنان باشا ابن جغال لمحاربة المجر ففتح تلك السنة قلعة قنجة

﴿ الغزوة السادسة الى بلاد العجم ﴾

في سنة احدى عشرة جاء الخبر بأن شاه العجم نقض الصلح واستأسر محافظ تبريز واضطرب أمر

المسلمين فضمت تبريز الي وان ووجهتا لكافل حلب نصوح باشا وعين السلطان عسكرجرار وأردف بهم نصوح باشا ثم توفي السلطان محمد قبل تمام الامر وكان تمامه في مدة سلطنة ابنه (السلطان أحمد الاول) وكانت وفاة السلطان محمد سنة اثنتي عشرة بعد الالف وعمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وشهران وتسلطن بعده ابنه السلطان أحمد الاول وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان والقمر ليلة الرابع عشر يسمى بدرا لذلك قال بعضهم ان السلطان أحمد يستحق أن يسمى بدرا لانه أضاء به الملك فانه لما تسلطن كان البغاة والخارجون قد كثروا في كل ناحية من أواخر سلطنة والده فسعي السلطان أحمد في اخمادهم وجد في قطع دابرهم حتى أبادهم وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء وآل البيت والصحابة متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشرا لارباب الفضائل سمح الكف جوادا لا تزال احسانا ته للفقراء واصلة وعطاياه لارباب الاستحقاق مترادفة وجاء تاريخ جلوسه في السلطنة هو خير السلاطين ومن خيراته ومآثره أنه في سنة أربع وعشرين وألف أرسل للحجرة الشريفة النبوية فصين من الالماس قيمتهما ثمانون ألف دينار فوضعهما فوق الكوكب الدري وهذا الكوكب هو الذي تجاه الوجه الشريف في الجدار وهو في مسمار من الفضة مموه بالذهب في رخامة حمراء ومن استقبله كان مستقبل الوجه الشريف وله صدقات كثيرة في أهل الحرمين

﴿ ذكر غزوة من غزواته ﴾

جهز جيشا في ابتداء دولته وأرسله مع وزيره الاعظم علي باشا الي بلاد المجر فمات علي باشا وهو متوجه فأقيم بدله محمد باشا الذي كان سردارا في الروم ايلي ثم سعي مراد باشا بالصلح بين مولانا السلطان أحمد والمجر والهدنة عشرين سنة ودخل الي دار السلطنة ومعه رسل المجر ومعهم الهدايا والتحف لتقبيل مولانا السلطان أحمد ذلك

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

في سنة ثلاث عشرة بعد الالف جهز جيشا وبعثه مع محمد باشا البوسنوي أحد الوزراء العظام لفتح قلعة استرغون فسار اليها ولم يتمكن من فتحها تلك السنة ثم فتحها في سنة أربع عشرة

﴿ ذكر غزوة الي بلاد العجم ﴾

في سنة ألف وأربع عشرة جهز جيوشا الي بلاد العجم وكان عليها سنان باشا بن جغال فوصل اليهم وقاتلهم وانتصر في أول الامر ثم خالف أمره بعض الوزراء الذين كانوا معه فكان ذلك سببا لانهزام الجيوش فانهزموا وقتل منهم خلق كثير

﴿ ذكر غزوة أخرى الي بلاد العجم أيضا ﴾

في سنة ست عشرة وألف جهز جيشا عظيما يقوده مراد باشا وكان قد كبر وشاخ فجعل الامر لنصوح باشا وتأخر في ديار بكر ومرض ومات فتقدم نصوح باشا لمحاربة العجم فقاتلهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب سلطانهم عباس شاه والتجأ الى بعض الجبال وأرسل يطلب الصلح فأجابهم نصوح باشا الى ذلك بعد أن اشترط عليه أن يذكروا اسم السلطان في بلاد العجم ويدعوا له في الخطبة وان الشاه عباس يدفع مصاريف الحرب ويقوم بالخسارة التي أحدثها في بلاد السلطنة العثمانية فقبل الشاه عباس ذلك وانعقد الصلح ورجعت العساكر العثمانية الى بلادها

﴿ ذكر غزوة أخرى الى بلاد العجم أيضا ﴾

في سنة خمس وعشرين وألف نقض الشاه عباس تلك العهود ولم يف بالشروط فتجددت الحرب ثانيا بين الدولتين وأرسلت الجيوش العثمانية مع نصوح باشا فغلب وانتصر واستولت الجيوش على بعض القلاع بعد حرب شديد ثم وقفت الحرب بسبب كثرة الثلج والبرد ومات من العسكر جانب عظيم وأشيع ان الشاه انما نقض الصلح بمكاتبة جاءته من نصوح باشا وعده بالاعانة فأمر مولانا السلطان أحمد بقتل نصوح باشا فقتل سنة خمس وعشرين والف وفي سنة ست وعشرين توفي السلطان أحمد وعمره خمس وعشرون سنة ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وأوصى بالسلطنة لاخيه مصطفى بن محمد لان أولاد السلطان أحمد كانوا صغارا وأخوه أكبر منهم وكان أبوه السلطان محمد أوصاه به فكان يرعاه فبويع أخوه (السلطان مصطفى) وخلع بعد ثلاثة أشهر لانه كان صالحا زاهدا متقشفا فلم تظهر كفاءته للسلطنة لشدة بذله الاموال وكثرة ركوبه الى المحلات البعيدة من غير تقيد بأمر مركوب ولا غيره لانه تارك للدنيا وليس براغب فيها بحيث انه كان في مدة سلطنته لابسا جوخة خضراء بأكمام عربية وأما أكله فانه لم يأكل الدسم مطلقا وانما كان يأكل الكمثرى اليابسة واللوز والبندق وأنواع الفواكه وأما أمره في النساء فانه لما أحضرت له جوارى عديدة فلم يقبل منهن واحدة وكان لا يدرى من أحوال الملك الا ما يلقى اليه فلما رأي أركان الدولة أن الامر به لا ينتظم ذهب المفتي المولى اسعد بن سعد الدين الى اسكدار الى الشيخ محمود المعتقد الصالح العالم العامل يستشيره في خلعه فأشار بخلعه وأن يولى مكانه السلطان عثمان ابن السلطان أحمد ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى أغا ضابط الحرم قرب العشاء من ليلة الاربعاء ثالث شهر ربيع الاول فأرسل قائم مقام الى البوابين اذ جاءتك في غد ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الابواب فقال سمعا وطاعة وكان الصدر الاعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة السلطان مصطفى وأما مصطفى آغا فانه ومن معه مضى من ليلة الاربعاء مدة ست ساعات ذهب الى باب السراي وفتحها جميعا وكذا أبواب الامكنة التي فيها كان

الخدم وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذى فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه بأحسن الفرش وذهب من حينه الى السلطان عثمان فى مجلسه الذي هو فيه وهو محل عمه مصطفى الذى كان فيه في حياة السلطان أحمد وفتح عليه الابواب فحصل له رعب وتخوف من أن يكون عمه أرسله اليه ليقتله فقال له لاتخف أنت صرت سلطانا فلم يصدق ذلك فصار يحلف له ان القول صحيح ولا زال يتلطف به الي أن أدخله الى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه علي التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السرايا بابا بابا ويدخل من كان داخل الابواب للمبايعة حتي لم يبق أحد في السرايا بغير مبايعة هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته ثم أرسل مصطفى أغا للمفتي وقائم مقام الوزير فحضروا ليعلمهم ذهبوا الى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج اليهم وقال لهم ماجاءبكم فى هذا الوقت فكان أول من تكلم شيخ الاسلام أسعد فقال له ان أمر المملكة حتل وان الاعداء تسلطت علينا ونحن نختى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة فأجابه بقوله أنا ماطلبت منكم الملك ولا أردته وليس لي به مصلحة فقالوا جميعا لانكتفي بقولك هذا ولا بد أن تذهب معنا ونبايع ولد أخيك (السلطان عثمان) فاناقد أجلسناه على التخت فقال جعله الله مباركا وليس عندي مخالفة وذهب وبايع السلطان عثمان فقالوا الآن نحضر جميع الوزراء وأركان الدولة وأشهد علي نفسك بالخلع فقال لهم أفعل ذلك فأرسلوا وأحضروا الوزراء وقاضى العسكر وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه وأرسل القائم مقام الورقة الموعود بها الي الصو باشى وفيها لامر بالمناداة وتولية السلطان عثمان فنودي بذلك وتم الامر ومما انتطح في ذلك عنزان وكان ذلك يوم الاربعاء ثانى من شهر ربيع الاول سنة سبع وعشرين وألف وكان السلطان عثمان المذكور من أحسن السلاطين خلقا وخلقا وأجملهم شيما وطبعا له ادب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية وكان ينظم الشعر التركي

﴿ذكر أول غزوة من غزواته﴾

كان الصدر الاعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم فى مدة السلطان مصطفى فلما بلغه خلعه رجع يطلب الانتقام ممن خلع السلطان مصطفى فلما وصل الي دار السلطنة وعلم حقيقة الامر قاد الوزير المذكور الجيش ثانية لمحاربة العجم في مدة السلطان عثمان سنة ثمان وعشرين وألف ونجح في هذه التجريدة كل النجاح وارتجع من العجم الممالك التى اختلسوها وأرسل عباس شاه سلطان يطلب الصلح على شروط موافقة للسلطان فأجابوه لي ذلك

﴿غزوة ثانية الى البغدان﴾

كان صاحب البغدان قد ألقى فتنة بين أهل بولونيا والدولة وحرضهم على العصيان فأرسل السلطان

عثمان اليهم اسكندر باشا فاستظهر عليهم وقتل منهم عشرين الفا وأسر عشرة آلاف ثم قتلهم وقطع رأس رئيسهم الذي حملهم على العصيان وأرسلها الى دار السلطنة وألزم أهل بولونيا ان تدفع مائة ألف ريال وألزمهم أيضا بمصارف الحرب

﴿غزوة ثالثة الى بولونيا﴾

في سنة ثلاثين خرج السلطان عثمان بنفسه لقتال أهل بولونيا وهم القزاق وكان الذي خرج معه من الجيش ستمائة ألف مقاتل فأرسل أهل بولونيا يستنجدون بملوك الافرنج فأنجدتهم دولة الروسيا وفرانسا والبابا والمجر والنيمسا وبعد محاربة شديدة طويلة فقد فيها من الطرفين نحو مائتي ألف انتصر عليهم وأخذ عدة قلاع وغنم غنائم كثيرة ثم عقد صلحا معهم ورجع الى مقر ملكه بعد أن أخذ منهم الجزية فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت دائرة الملك في أيامه وكان فيه صلاح وتعفف وخشوع وأمر في أيامه بتعطيل خانات الخمور ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها

﴿ذكر ارادته الخروج للحج المؤدي الى قتله﴾

في شهر رجب من سنة احدى وثلاثين وألف عزم السلطان عثمان على الحج من طريق البر وأراد التوجه الى الشام وأخرج خيامه وسرادقه الى اسكدار سابع رجب وصمم على هذا الامر فحصل اللغط من العسكر في ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت العساكر واتفقوا على عدم السفر معه وأخرجوا فتوى ان السلاطين لا يكلفون بالحج فلما بلغ السلطان ذلك غضب غضبا شديدا ولم يلتفت الى كلام المفتي فأخذ المفتي وأصحابه يهيجون العساكر ثم تجمعوا في المكان المعروف آت ميداني واتفقوا على قتل الوزير الاعظم دلاور باشا وضابط الحرم السلطاني والدفتر دار ومعلم السلطان المولى عمر بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرك السلطان الى السفر للحج ثم هجموا في ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم السلطان ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه ثم في وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الاعظم وضابط الحرم أو يقتلهم هو حتى تسكن الفتنة وأبرموا عليه بالسؤال فامتنع ثم تفرق العسكر وفي ثاني يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضا والعسكر كلهم بالاسلحة وآلة الحرب وذهبوا الى المولى وجمعوهم بالجامع الجديد الذي عمره السلطان أحمد وأرسلوا قاضي عسكر وقاضي دار السلطنة وبعض الموالي الى السلطان بطلب جماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولا فامتنع من تسليمهم واستمروا في مراجعته الى وقت الظهر وملّ العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى في الموضع المحبوس فيه نائما على فراش بال وعنده خادمان أخرسان جالسين امامه ومملوك يدعى درويش آغا فاستيقظ السلطان مصطفى فاستعظم أمرهم وظن أنهم يريدون قتله فمد ظهره عنقه بكل خشوع

فأكبوا على أقدامه يقبلونها قائلين له ياسلطاننا عساكرك ينتظرونك خارجا فانهض بنا ورفعوا السلطان مصطفى وأنزلوه الي فسحة الجنينة وأركبوه علي حصان المفتي وساروا به الي جامعهم ولما علم السلطان عثمان ذلك تحير في أمره فأخذ معه الوزير الاعظم السابق حسين باشا وذهب به الى بيت ضابط الجند ليدبر أمره وقال له السلطان تذهب وتأخذ خاطر العسكر وتجعل لكل انسان منهم خمسين شريفيا وخمسة أذرع من الجوخ وألزمه بذلك فذهب الى العسكر وكلمهم في ذلك فما كان جوابهم الا أن قتلوه وذهبوا من وقتهم الي بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا علي السلطان وأحضروه بين يدي السلطان مصطفى فأرسله الي يدي قله وأحضروا ادلاور باشا وضابط الحرم وقطعوا رأسيهما وعلقوا رؤس الجميع على جامع السلطان بايزيد ووقعت البيعة العامة (للسلطان مصطفى) فجعل زوج أخته داود باشا وزيرا أعظم وبعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا الي يدي قله من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد وذلك في اليوم الثامن من رجب وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة وقيل في تاريخ قتله

مات سلطان السرايا * فهو في الاخري سعيد
قال لي الهاتف أرخ * ان عثمان شهيد
٣١٩ ٦٦١ ٥١

١٠٣١

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة والف ووفاته سنة احدى وثلاثين ومدة خلافته أربع سنوات وشهر وعمره سبع عشرة سنة بعد تمام البيعة للسلطان مصطفى بيومين جمهرت العساكر الصباحية امام سرايا داود باشا وزير الصدارة يسألونه لماذا قتلت السلطان عثمان ونشأ من ذلك فتنة أخري آل الامر فيها الى قتل داود باشا فقتل بعد عشرين يوما وصار البحث عن الاشخاص الذين تداخلوا في قتل السلطان عثمان فقتلوهم واضطربت أمور السلطنة والوزارة وقام أهل الاناطول وأمراؤها ونوابها على ساق الطلب دم السلطان عثمان وأظهروا الاستقلال التام في ولايتهم وامتنعوا من الدخول في بيعة السلطان مصطفى ولم يزل الامر يزداد شدة الي ان خلعوا السلطان مصطفى رابع ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين والف فمدة سلطنته سنة واحدة وأربعة أشهر وماعاش بعد ذلك كثيرا وكانت ولادته سنة الف رحمه الله ولما خلعوه أقاموا في السلطنة (السلطان مراد الرابع) أخو السلطان عثمان بن أحمد قال في خلاصة الاثر وكان عمره احدى عشرة سنة وسبعة أشهر وجاء تاريخ ولايته * مراد خان العادل * ١٠٣٢

ومع صغر سنه كان له عقل ثاقب ورأي سديد وكانت تظهر عليه أمارات الشجاعة وقوة القلب فكان من أعظم ابطال ذلك الزمان وكان اسكندر الثاني في تلك الايام بل كان من أعلى السلاطين مقدارا وأوسطهم همة واقتدارا خضعت لعظمته رؤساء الاكاسرة وذلت لحرمته وقهره تصاب في قمع المفسدين سديد الرأى في أمره كان من أمره أنه ابتدأ أولا باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتتبع قتلهم وأجاد وبلغ من قوته أنه رمى بقوس الى درقة مطبقة احدى عشرة طبقة فثبت العود فيها فلم يقدر أحد على انتزاع العود منها فارسلها الى مصر وبرز أمره الى العساكر المصرية باخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد في علوفته فحاولوا اخراجه فعجزوا عن ذلك

﴿ذكر استيلاء العجم على مدينة بغداد﴾

لما بلغ العجم قتل السلطان عثمان واعادة السلطان مصطفى وعلموا اضطراب الدولة العثمانية وضعوا أيديهم على كثير من البلاد التي افتتحها العثمانيون وملكوها فمن ذلك مدينة بغداد وكانت بغداد في كفالة الوزير يوسف باشا فوقع بينه وبين واحد من كبار عسكره اختلاف يقال له بكر الصوباش فحاصر بكر الوزير في قلعة بواسطة العسكر فاصاب الوزير رصاصة مات منها فتغلب بكر على بغداد فلما رأى اضطراب أمر الدولة أظهر العصيان والاستبداد فبعث اليه الدولة جانبا من العسكر لتأديب هذا العادى وجعلوا أمر هذا العسكر تحت رياسة حافظ باشا فلما بلغه ذلك كتب الى شاه العجم أن يحضر لكي يسلمه بغداد فأرسل من يستلم منه مفاتيح المدينة مع جانب من العسكر نحو ثلاثة آلاف وأنعم على بكر الصوباش بعمامة قزل باش وقبل وصول العجم الى بغداد وصلت عساكر الدولة وأقامت الحصار على بغداد فارسل بكر الصوباش لحافظ باشا يطلب منه أن لقبه بكلر بك لكي يطرد الاعجام فيقبل منه حافظ باشا ذلك وفي أثناء ذلك وصل رسول العجم الى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا ان بكر الصوباش صار يخص شاه العجم فاذا كنت تريد حفظ الصداقة بيننا فارحل عن بغداد فغضب حافظ باشا من كلامه هذا وأجابه كلاما غليظا واشتبك القتال فلما رأى حافظ باشا انه لا يمكنه فتح بغداد لانها كانت حصينة وتكاثرت عليه عساكر العجم قام عنها وذهب على طريق الموصل بعد أن كتب الى بكر الصوباش انه والى بغداد يريد بذلك ترغيبه ليمتنع من تسليمها للعجم ففرح بذلك بكر الصوباش ورأى أنه بلغ غاية مرامه فقتل جماعة شاه العجم وعلق رؤسهم على شرافات السور وأخذ العمامة التي بعثها اليه الشاه عباس ووطئها برجليه وأرسل رسولا الى حافظ باشا يشكر فضله على ذلك وأما الشاه عباس فانه لما بلغه ما فعله بكر من الانتقاض والخيانة حضر

بنفسه ومعه جيش جرار وأرسل لبكر يطلب منه تسليم المدينة فامتنع وأجابه بأنه لا يسلمها ولا يقدر الشاه عباس على فتحها ولو أحضر لحصارها عشرة شاهات نظير الشاه عباس فجاءت جيوش الشاه عباس وأحاطت بأسوار مدينة بغداد فامر بكر الصوباشي باطلاق المدافع من الابراج على الاعجام واشتبك القتال بين الفريقين وأرسل بكر الى حافظ باشا يخبره بقدوم جيش الاعجام ويستنجده فانجده بفرقة من العساكر تحت رياسة كورحسين باشا فلما وصل الى قرب بغداد نزل بعساكره في موضع يقال له قروان سراى فلما علم قائد عسكر العجم بقدوم عساكر الدولة صنع خديعة وأرسل يطلب كورحسين باشا ليتحادث معه في أمر الصلح فذهب ومعه بعض كبار العسكر فبينما هم في أثناء الطريق وثب عليهم جماعة من الاعجام كانوا كامنين لهم في الطريق فقتلوهم وقدموا رؤسهم للشاه عباس عوضا عما فعله بكر بقتله الاعجام الذين علق رؤسهم على شرافات السور ومكث الحصار على بغداد ثلاثة أشهر فكانت الاهالي تشكو امن الجوع واشتد الحصار حتى أكل الآدميون بعضهم وخرج كثير منهم الى معسكر الاعجام وكان لبكر ولد يقال له محمد وكان مثل أبيه في الخيانة وكان هو المتسلم محافظ قلعة بغداد فأرسل له الشاه عباس يغره ويعده ويمنيه بأن يجعله حاكم بغداد عوض أبيه فاغتر وقبل وعد الشاه وفى الليلة الثانية فتح أبواب القلعة ليلا للاعجام فهجموا ودخلوا المدينة بضجة عظيمة وكان ذلك سنة ثنتين وثلاثين وألف وكان بكر نائما فانتبه مذعورا من ذلك الضجيج وصراخ الاعجام وكانوا أصعدوا ناسا منهم الى المنائر يصرخون بقولهم قد انتصر الشاه عباس وتملك بغداد فلتطمئن الاهالي وتفتح الاسواق وترجع الناس الى أشغالها وذهب منهم جماعة الى بكر في منزله فقبضوا عليه وأتوا به الى الشاه فلما وصل امامه رأى ولده جالسا الى جانب الشاه وأخذ الولد يوبخ أباه على الخيانة الاولى التى حصلت منه في حق الشاه ثم أمر الشاه ان تسلب جميع أموال بكر وتعطى لولده ثم انهم أخذوه ووضعوه في قفص من حديد ووكلوا ولده بحراسته وفى اليوم السابع طرحوا ذلك القفص الذى فيه بكر في موقد نار لكي يقرروه عن المكان الذي أخفى فيه الاموال ثم أخذوا ذلك القفص ووضعوه في قورب مشحون بالزفت والكبريت وأضرموا فيه النار ليلتهب في الدجلة أمام الناس وحصل في بغداد قتال بين أهل السنة والاعجام بسبب هذه الفتنة ولما كان بينهم سابقا من العداوة حتى جرى الدم في أزقة المدينة وأخذ الاعجام خطيبين مشهورين من أهل السنة أحدهما يدعي نورى أفندي والآخر عمر أفندي وأمروهما أن يسبا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فامتنعا فعلقوهما في نخلة وأطلقوا عليهما الرصاص فماتا من ذلك وأما الشاه عباس الذى كان قد وعد محمد بن بكر بالولاية في مكان أبيه فانه أخذه وأرسله الى خراسان وأمر بقتله هنالك فقتل وبعد ذلك أقام الشاه عباس في بغداد مدة

ثم سار بالعسكر لمقاتلة حافظ باشا ونزل على الموصل وأقام عليها الحصار مدة فلم ينجح فرجع الى بغداد وذهب حافظ باشا الى القسطنطينية ثم عاد بعساكر نحو عشرين ألفا وسار لمحاصرة بغداد وتخليصها من العجم وانتشب بينهم القتال وطال الحصار فسئمت العساكر وقاموا على حافظ باشا فعزلوه وحبسوه في قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزلوه وأرجعوا حافظ باشا ثم قاموا عليه أيضا ليقتلوه فهرب منهم واختفى في موضع يقال له قلعة الامام ثم اصطلح مع العساكر ونهض بهم راجعا عن حصار بغداد فسير الشاه عباس خلفه جانبا من عساكره ليضربوه في الطريق فقاتلهم حافظ باشا وهزمهم هزيمة هائلة وقليل منهم رجع الى بغداد ثم قام على مراد باشا فقتله لانه السبب في اختلال الامور ثم سار حافظ باشا بعسكره الى الموصل فأقام مدة ثم جاءت الأوامر من الدولة أن يتقدم الى حلب الى أن تأتيه نجدة من العساكر وبعد مدة عزل حافظ باشا وأقيم مكانه خليل باشا ثم مات وولي بدله خسرو باشا وكان الجيش الذى مع خسرو باشا مائة وخمسين ألف مقاتل فجاء وحاصر بغداد وحصل قتال شديد ولم يحصل نتيجة فرجع الى الموصل وصنع وليمة لكثير من العسكر فلما حضروا قتلهم زاعما انهم السبب في اختلال الامور وأرسل يطلب أربعين ألفا وجرت أمور يطول الكلام بذكرها* ومات الشاه عباس سنة ست وثلاثين وألف وبقيت بغداد بيد العجم الى سنة ثمان وأربعين وألف ففتحها مولانا السلطان مراد بنفسه

﴿ ذكر فتح بغداد ﴾

في سنة ثمان وأربعين وألف تجهز مولانا السلطان مراد وتوجه لفتح بغداد ومعه مائة ألف مقاتل ثم تتابعت الجنود حتى بلغت ثلاثمائة ألف ولما خرج من دار السلطنة كان لابسا لبس العرب القدماء وعلى رأسه خودة من البولاد اللامع محاطة بشال أحمر مدورة أطرافه على أكتافه ولما وصلوا الى بغداد أحاط العساكر بأطرافها ولما بلغ الشاه ذلك جاء من تبريز ومعه عساكر كثيرة لينجدهم بعساكره الذين في بغداد والتقى بعساكر الدولة على شاطئ الدجلة فقاتلوه قتالا شديدا وهزموه هزيمة قبيحة وكان يوما مهولا مشؤما على الاعجام ثم شددوا الحصار على بغداد وضربت مدافع السلطان على الابراج وكانت مائتي برج فخرقتها وهدمت كثيرا منها وأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فانهدم جانب عظيم من جدار السور فلما رأى أهل بغداد ما دهمهم بعثوا الى الشاه انهم يريدون التسليم فبعث الشاه الى السلطان في طلب الصلح فلم يقبل ثم شدد السلطان الحصار ووالى القتال الى أن يسر الله فتحها يوم الجمعة ثامن شعبان وكانت مدة حصارها أربعين يوما ودخلها العسكر ومولانا السلطان في دفترداره وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفا وأسروا كثيرا من رؤسائهم وقيل ان الذين قتلوا من العجم في هذه الفتح خمسون

ألفا وبقي منهم ثلاثون ألفا طرح البعض منهم نفسه في نهر بغداد والبعض تشتتوا في القفار وأمر السلطان بقتل كل من يختفي عنده رجلا عجميا فجمعوا منهم بعد ذلك ألف رجل وأتوا بهم الى السلطان فأمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وكان الذي فقد من عسكر السلطان عشرة آلاف ثم أمر مولانا السلطان بتجديد عمارة مشهد الامام الاعظم أبي حنيفة ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما وأزال ما كان أحدثه الاعاجم في المشهدين وأمر ببناء ما تهدم من السور والقلعة وشحنها بالعساكر وترك في بغداد عشرة آلاف من العسكر وعين لكفالة بغداد وولاية وزيرا ورجع الى دار سلطنته ومقر ملكه سالما غانما منصورا وكان لدخوله القسطنطينية احتفال عظيم فدخل وكان معه خمسون من خانات العجم مقيدين بالسلاسل وكان حاملا بيده حزمة من السلاح وأكتافه مغطاة بجلد نمر كما فعل اسكندر لما فتح مدينة بابل وبالجملة فقد كان هذا السلطان من أعظم ملوك آل عثمان * ومما كان في مدة سلطنته أنه أمر بتبطيل القهاوي في جميع ممالكه ومنع من شرب الدخان بالتأكيدات البليغة ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره الى أهل الحرمين الشريفين وأمره المتولي الجهات خصوصا مصر باجراء حبوبهم وارسال مغلات أوقافهم فما من أمر يرد منه الا وفيه الحث على ذلك * ومن ذلك أيضا التفاته الى أخبار الرعية مطلقا والبحث عن أحوال ولاة البلدان التفاتا وبحثا تامين بحيث ان ولاة الجهات لا يجاوزون حدا ومن سعادته العظمى عمارته الكعبة المشرفة وتجديدها كلها وذلك ان في سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بمكة ودخل المسجد الحرام وهدم بعض جوانب الكعبة واتفق العلماء والمهندسون انه لا بد من تجديد الجميع فعرضوا الامر الى مسامع مولانا السلطان مراد المذكور فبرز أمره العالي بالتعمير فهدموا الباقي وعمروا الجميع فهذا البناء الموجود الآن من مفاخر مولانا السلطان مراد وتم التعمير في شعبان سنة أربعين وكان أمير مكة في ابتداء العمارة مولانا الشريف مسعود بن ادريس ابن حسن بن أبي نمي وتوفي في اثناء التعمير وولي امارة مكة مولانا الشريف عبد الله بن حسن ابن أبي نمي وهو جد مولانا الشريف محمد بن عون فكان تمام التعمير في مدته وجاء تاريخ ذلك * رفع الله قواعد البيت * ولبعضهم

﴿ ١٠٤٠ ﴾

* مراد بني بيت الاله وزاده * سناء بهاء يزدهي زيد مجده *

٨٠٩ ٢٣٠ ١٠٣٩

ولما حصل هذا التعمير أبقوا باب الكعبة القديم على حاله ثم في سنة خمس وأربعين برز الامر السلطاني بتجديد الباب فجدد ووضع عليه حلية الباب الاول ووزنت قبل وضعها فجاءت مائة

وأربعين رطلا خارجا عن الزرافين فوزنها وما شابهها مما كان على الباب ثمانية عشر رطلا وكتب على الباب الجديد اسم مولانا السلطان مراد وذلك موجود الى الآن وأرسل الباب القديم الى دار السلطنة وجعل في الخزائن السلطانية وكانت ولادة مولانا السلطان مراد سنة احدى وعشرين وألف وتوفي تاسع شوال سنة تسع وأربعين وألف وعمره تسع وعشرون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى

﴿ ذكر ولاية مولانا السلطان ابراهيم بن أحمد مع ذكر أول غزواته ﴾

لم يخلف المرحوم السلطان مراد ولدا وبقي من اخوته السلطان ابراهيم فبويع بعد وفاة أخيه قال في خلاصة الاثر كان ملكا معظما حسن النظر سمح الكف وكان زمانه أنضر الازمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن واعتدل به الزمن وبعد مضى سنتين من ولايته جهز جيشا لمحاربة القزاق فلم ينجحوا ثم أرسل عساكر وحاصروا أزوفة فلما تضايق أهلها أحرقوا المدينة وانهزموا فدخلتها العساكر السلطانية وعمرتها وأقامت فيها جانبا من العساكر للمحافظة

﴿ غزوة أخرى لمحاربة جزيرة كريد ﴾

سنة خمس وخمسين وألف جهز السلطان ابراهيم جيشا في مراكب بحرية نحو أربعمائة مركب لمحاربة جزيرة كريد بثلثمائة ألف مقاتل وسبب ذلك أن مراكب مالطة كانت قد تعدت على بعض مراكب الدولة ثم ذهبت فاحتمت عند مشيخة البندقية في كريد فلما وصلت عساكر الدولة العلية أقامت الحصار على مدينة قنديه وهي من أعظم مدن هذه الجزيرة وفي أقرب زمن استولوا عليها وجعلوا كنائسها جوامع ورجعوا الى القسطنطينية بعد أن تركوا فيها احدا من العسكر فأرسلت لهم مشيخة البندقية عساكر فاستولوا على ما كان بأيدي العساكر السلطانية واستأسروا جانبا منهم فغضب السلطان من هذا الامر وجهز عليهم تجهيزا آخر فاخرجوهم واستولوا على المدينة المذكورة وحاصروا قلعة رتمو وكانت قلعة حصينة الى أن ملكوها واستعانوا بالالغام حتى أهلك خلقا كثيرا ثم ملكوا بقية جزيرة كريد لا قلعة قنديه وطال أمرها مدة طويلة فتركوها وسيأتي ذكر فتحها في مدة سلطنة السلطان محمد بن ابراهيم وجزيرة كريد من أعظم جزائر وأكبرها تشتمل على بلاد واسعة ورساتيق كثيرة وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى أربعة وعشرين ألف قرية وأن دورها مسيرة خمسة عشر يوما وهي ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار وخيراتها وفيرة ثم ان رجال الدولة خلعوا السلطان ابراهيم سنة ثمان وخمسين وألف بسبب أنه كان منهمكا في اللذات والشهوات مسرفا في انفاق الاموال وسلاطين آل عثمان تمتعهم شهواتهم يزهدهم في الدنيا وعدلهم في بيت المال وقد حكي أن بعض سلاطينهم تواعد مع شيخ الاسلام الذي كان في

وقته أن يجتمعا في جامع من جوامع دار السلطنة في وقت مخصوص بالخفية للتشاور في بعض القضايا فحضر السلطان في الوقت الذي تواعدوا فيه وأبطأ شيخ الاسلام في الحضور وما جاء الا بعد مضى مدة فلما حضر سأله السلطان عن سبب تأخره فقال لما أردت الخروج رأيت عمامتي وسخة فكرهت أن أقابل بها مولانا السلطان فأمرت أهلي أن يغسلوها وانتظرتها حتى جفت فلبستها وجئت فهذا يدل على انه ليس عند شيخ الاسلام غيرها فقال له السلطان لو كان عندي غير هذه التي على رأسي لاعطيتك اياها فانظر الى زهد هذا السلطان وزهد شيخ الاسلام فالاصل كله الزهد في الدنيا والعدل في بيت المال فالخلفاء الراشدون انما فتحوا البلاد ومصروا الامصار بالزهد في الدنيا والعدل في بيت المال لا بكثرة الصلاة والصيام فالسلطان ابراهيم لما رأوه مسرفا في الانفاق رأوه مخالفا لما عليه أسلافه فكانت أفعاله عندهم غير مرضية فخلعوه وأجلسوا في السلطنة ولده محمدا فكانت مدة سلطنة السلطان ابراهيم ثمان سنين وتسعة أشهر وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكان ميمون النقيبة منصور الكتيبة طالعه سعيد ما جهز جيشا الى ناحية الا انتصر ولا قصد فتح ناحية الا افتتحها ولولا ما نقموا عليه به من الاسراف في بيت المال وجميع السلاطين الذين جاؤا من بعده كلهم من ذريته

﴿ فائدة ﴾

في خلاصة الاثر انه اتفق للسلطان ابراهيم المذكور ما لم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم وذلك أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه ووالده ثم ذكر انه استقرى من ولي السلطنة وكان اسمه ابراهيم فوجدوا لم يتم لاحدهم أمرها وقال الراغب في محاضرته قال أبو علي النظام كان المهدي يحب ابنه ابراهيم فقالت له أم ابراهيم ألا ترشحه الى الخلافة فقال لا ولا يليها من اسمه ابراهيم ان ابراهيم الخليل أول نبي عذب بالنار وان ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعش وبويع ابراهيم بن المهدي فلم يتم له الامر وأحكم ابراهيم الامام أمر الملك ليكون أول خلفاء بني العباس فقتل قتله مروان بن محمد بن مروان وطلب الخلافة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى فقتل وبايع المتوكل لابنه ابراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل فسبحان من دبر الامور على طبق علمه وأجراها بحكمته وفي مروج الذهب للمسعودي قال ابراهيم بن المهدي كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو الموصل والمدادون يمدون الشطرنج بين أيدينا فلما فرغنا قال الرشيد يا ابراهيم ما أحسن الاسماء قلت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما الثاني بعده قلت اسم هارون اسم أمير المؤمنين قال فما أسمجها قلت ابراهيم فزبرني وقال ويلك ابراهيم خليل الرحمن عز وجل قلت بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من نمرود وألقي في النار قال وابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لا جرم لما سمي بهذا الاسم لم يعش قال فابراهيم الامام قلت بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة وأزيدك يا أمير المؤمنين ابراهيم بن

الوليد خلع وابراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ولم أجد أحدا اسمي بهذا الاسم الا رأيته مقتولا أو مضروبا أو مطرودا فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته يا ابراهيم يا عاض كذا وكذا من أمه أى بظهر ما قال فالتفت الى الرشيد فضحك حتى فحص برجليه اهـ

﴿ولاية السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم﴾

كانت ولايته سنة ثمان وخمسين وألف بعد خلع أبيه وكان عمره اذذاك سبع سنين وكانت أمور الدولة في ذلك الوقت مرتبكة عديمة الانتظام مزعزعة الاركان قد كثر حسادها وأعداؤها وكانت من جهة المالية في ضيق وعسر والعساكر غير منقادة لاولياء أمورها وأصبح وكلاء الدولة في الولايات غير مبالين في تنفيذ أوامرها فمن هذه الاحوال نبعت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والاكابر فكان الوزير يتولى أياما ثم يعزل أو ينفى واستمر الحال هكذا نحو عشر سنين والدولة في تعكير والسلطان مع صغر سنه لا يزال يبحث هو وأمه عن رجل فيه الياقة لان يتبوأ مسند الصدارة الى أن عثروا على محمد باشا كوبرلي وكان مستحاذقا ذا دراية وخبرة وسياسة كاملة لان طول الايام علمه ما لم يعلمه غيره فولي الصدارة سنة سبع وستين وألف وشرع في سد الخلل الذي أوقع الدولة في الانحطاط وبرهة قصيرة انتظمت أمور الدولة على أحسن نظام

﴿ذكر غزوة في أيام السلطان محمد لقتال المجر والقزق﴾

كانت هذه الغزوة بتدبير الوزير محمد باشا كوبرلي جهز جيوشا لقتال المجر والقزق وجميع العصاة الخارجين على الدولة حتى أهلكهم وأبادهم وفي سنة ثمان وستين وألف استولى على مراكب البندقية وأخذ جزيرة بفداس وجزيرة ليمنوس

﴿ذكر غزوة أخرى يتبعها أخرى﴾

وجهز جيشا لقتال السرب فانتصر عليهم وقتل منهم مائة وخمسين ألفا وخرج جماعة من الروم في بلاد الافلاق وأظهروا العصيان فأرسل اليهم عسكرا فقاتلوهم وانتصروا عليهم وجهز جيشا لقتال البندقية فاخترمته نوفة سنة اثنتين وسبعين وألف قبل تمام الامر فأسندت الصدارة لابنه أحمد باشا الفاضل وكان أكثر من أبيه في الحذق وحسن السياسة وكان أبوه أقرأه العلوم حتى مهر فيها وكان صائب الرأي كامل الفراسة (والفراسة عجيبة) مما نسب اليه من الفطنة أنه جاءه يوما شخص بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع فأعطاه لبعض أتباعه وأمره بحفظه حتى مضى على ذلك ست سنوات فجاءه يوما شخص آخر برقعة الملم رهط صاحب ذلك التوقيع يحي به فقابله على الرقعة فاذ الخط واحد ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره فلما مثل بين يديه رده التوقيع وقال أليس هذا بخطك فأقر فأمر بقطع يمينه وعين له من بيت المال ما يكفيه

﴿ غزوة ايوار ﴾

ومن الغزوات التي وقعت في أيام وزارته غزوة ايوار عينه السلطان محمد لفتحها فسار بجميع العساكر وحاصرها ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظيمة ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيمن تدبيره ثم افتتحها سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمي القلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها

﴿ ذكر غزوة مضى الى كريد ﴾

وفي سنة سبع وسبعين توجه بجيش الى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية التي كانت بقيت في هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح كما تقدم شرح ذلك فلما وصلها بني بالقرب منها مكانا كان متهدما لتهيئة مهمات الحصار ثم نزلها بمن معه من العساكر وكان أهل قندية حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها وأضافوا لسورها سورا آخر عمروه من داخل السور القديم وطال الحرب بين الفريقين مدة وأرسل أهل قندية الي فرانسا يستنجدونهم فأنجدوهم بعمارة بحرية فيها خمسة عشر ألف مقاتل وجاءهم أيضا نجدة من مالطة ومن البابا فاجتمعت مع عسكر فرانسا ونزلوا الي البحر وهجموا علي العساكر العثمانية واقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيه لعساكر الاسلام فقتلوا أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل فرجعت مراكب الفرنج بالخيبة ثم ان أهل قندية أرسلوا للوزير يطلبون منه الصلح فأجابهم الى ذلك وأخرجهم منها ووضع فيها العساكر الاسلاميــة ورجع الوزير الى مقر الملك ومعه جملة من مراكب مالطة وغيرهم غنيمة وكثير من الاسري وفي غرة جمادى الاولي سنة ثمانين وألف وردت البشائر الي الاطراف بالزينة وكثرت تباشير الناس بفتحها وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ومن نوادرها التاريخ اللفظى المعنوى للفاضل الشيخ أحمد الصفدي وهو قوله (في عام ألف وثمانين عام)

﴿ غزوة الي بلاد القرم يتبعها أخري الى بولونيا ﴾

وفي سنة أربع وثمانين توجه الوزير بجيش لمحاربة القرم المعروفين بالليسة من النصارى فافتتح قلعة قنجة وفي سنة خمس وثمانين وألف توجه بالعساكر الي بولونيا وفتح مدينة كمينا كرة الشهيرة في متانة قلعتها وفتح بعدها جملة بلاد وحصون ثم عقد صلحا مع أهل بولونيا ووضع عليهم خراجا سنويا ولما رجعت العساكر الاسلامية بلغهم ان أهل بولونيا بدسائس النيمسا والبابا تحركوا وأظهروا العصيان وانضم اليهم عصاة من الافلاق والبغدان والقزق واتسع الامر وتوفي الصدر أحمد باشا الفاضل سنة سبع وثمانين وألف وحزن السلطان وجميع الناس عليه وولى الصدارة مصطفى باشا وكان قد خدم الوزير محمد باشا وابنه أحمد باشا الفاضل وترقي في الخدم والمناصب وتعلم كثيرا من

سياساتهما وان لم يكن مثلهما

﴿ ذكر غزوة عظمي الي جهرين ﴾

وكان أول سفرة باشرها بعد ولايته سفرة جهرين فتوجه بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوي على المملحة التي بالقرب منها وهذه المملحة من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى انهم يبالغون فيها يدخل منها حد المبالغة وسبب ذلك ان بلاد النصارى المعروفين بالموسكوف والقزق محتاجون اليها وليس في بلادهم مملحة غيرها ولما افتتحت هذه القلعة سر الناس سرورا عظيما لان فتحها كان في غاية الصعوبة وكان كثير من نصاري الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤن بالوزير المذكور في قصدها وشاعوا أخبارا في انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم وكانوا يظهرون الشماتة وسبب ذلك مايعرفونه من أنهم تابعة لملك الموسكوف وهو أكثر ملوك النصاري جيوشا وأكبرهم ملكا وبالجملة فان فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات وبعد فتحها زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد اذذاك ببلدة سلسترة بروم ايلي فكتب الى قائم مقام القسطنطينية أنه يريد القدوم الى دار المملكة وانه لم يتفق له رؤية زينتها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخري ثم قدم السلطان فشرعوا في الزينة وبذلوا جهدهم في التأنق فيها واتفق أهل ذلك العصر علي أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الادوار ثم وقع بعده حريق في القسطنطينية حرق فيه نحو اثني عشر ألف بيت ثم تراسل الحريق في كثير من المحلات حتي حسب ماوقع منه فكان تسعين حريقا كل ذلك في سنة واحدة فكان ذلك الفرح سببا لهذا الترح فلاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم

﴿ ذكر غزوة في بلاد النيمسا ﴾

ثم طلب الوزير مصطفي باشا من السلطان محمد الاذن بالسفر علي بلاد الكروس وافتتاح مدينة بينا قصبة بلاد النيمسا فاذن له السلطان وشرع في تهيئة الاسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد وامساكر وجمع من الجيوش والجنود مالايدخل تحت حصر حاصر ولم يتفق جمع مثله من الزمان الغابر ثم طلع الوزير المذكور من القسطنطينية بأبهة عظيمة مصمما علي حسم النصاري بالقوة الجسيمة ولم يزل بمن معه من العساكر سائرين الي أن وصلوا قلعة بلغراد يوم الخميس ثاني عشر رجب سنة اربع وتسعين والف ثم توجه يوم السبت قاصدا قلعة يانق واطلق أمره في نهب القلاع والقري التي علي الطريق فما كان لعسكر مشغلة الا نهبها واحراقها واتلاف زروعها فأحرقوا من القلاع المعمورة نحو مائة قلعة ومايتبعها من قري أشياء كثيرة جدا وكل قرية من هذه القري بمثابة بلدة تحتوي علي ألف بيت أو أكثر وجميع هذه قلاع وقري

في نهاية الاحكام وحسن البناء والبيوت في غاية من اتقان الصنعة مسورات بالرخام وفيها من السماق مالا يوصف وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاثة طبقات الثالثة منها مصنوعة بالدق والخشب وعاثت العسكر في بلاد الكفار الى قريب قرب ألمانيا التي هي محل الانكروس المعروف بالبابا ونهبوا ماقدروا عليه وحرقوه ومن أغرب ماوقع في هذا الأثناء ان سوقة العسكر كانوا كلما يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناسا قلائل من النساء والرجال العاجزين عن الحركة فيقتلونهم ويستولون على القلعة ثم يطلقون فيها النار ففعلوا هذا في أكثر من أربعين قلعة وغنم المسلمون غنائم لاتحصر وأسروا نحو مائة ألف أسير بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش وهرب عسكر النصارى من ج ونواحيها وأخذوا معهم كثيرا من الاموال فلحقهم جماعة من العسكر فاستأصلوهم قتلا ولما وصل الوزير المذكور الى ج وهي مدينة فينا وكانت النيمسا قد حصنتها تحصينا عظيما وضرب خيمهم وهي قلعة عظيمة يحيط بها من جوانبها الثلاث الدور والابنية والعمارات والحدائق ومن جملة ذلك سبعة عشر مكانا باسم الملك تحتوى هذه الاماكن على عجائب الزخارف والفواكه والفساقي ومن السماقي والرخام وقد تقدم ان عسكرهم كانوا قد هربوا وكذا هرب أهل الخارج من الرعية ولم يبق الا نحو عشرين ألف رجل وعشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية في داخل القلعة فأمر الوزير بمحاصرة القلعة فنصب عليها المكاحل وشرع العسكر في رميها بآلات الحرب من المدافع والقلل حتى هدموا الدور والكنائس حتى ضاق بمن فيها الخناق في قليل من قليل والتجؤا الى أن يسلموها طوعا فأبى الوزير خوفا من أن تنهب العسكر مافيها من المال فراجعه الوزراء والعسكر في المبادرة الى دخولها صلحا خوفا من أن يأتي أمر فقال ان ضمنتم لي العسكر في أن لا يأخذوا شيأ فعلت فأبوا فتمادى الامر يومين أو ثلاثة وهو وبقية الوزراء في اعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة ومالهم علم بما سيحدث وكان ملوك النصارى قد تكاتبوا لتجتمع جيوشهم ويستعين بعضهم ببعض على قتال المسلمين وكان ملك النيمسا لما سمع بقدوم المسلمين بالجيوش فر من مقر ملكه واحتمى ببعض القلاع من بلاده وأرسل يخاطب ملك بولونيا في الاتحاد وقتال من يعاديهما فاتفقت النيمسا وبولونيا وكثير من الفرنج على قتال المسلمين وكان البابا يحرضهم على ذلك ويرغبهم فيه وكانت مدة الحصار خمسا وأربعين يوما فبينما الوزراء يدبرون في الفتح عنوة اذا بطلائع الكفار أقبلت وفي أثرها عسكر سد الفضاء وشبت نيران القتال لايبالون بقتل ولا ضرب بل يقدمون على الموت بجنان من الصخر وهجموا دفعة واحدة والعسكر في غفلة عما يرادبهم واحتاطوا بهم طامعين في قتلهم وسلبهم وأخذوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف ولم يكن أسرع

مما انقلب العيان وجمدت في الوجوه العينان وكان المقدم من المسلمين من عمد الى الفرار ولم يقر له في تلك الحركة القرار فقتل من قتل ونجا من نجي واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفاز وا بما كان يتعسر اليه الوصول وكر الوزير بمن معه هاربا وتفرق العسكر في تلك البراري والوهاد ونفد ما كان معهم من الزاد ونفذ أمر العلي الكبير وهو على جمعهم اذا يشاء قدير ثم اجتمع كثير من العسكر مع الوزير ببلغراد وأظهرت نصارى الافلاق والبغدان والارديل العصيان وزحفت الكفار على بلاد الاسلام قال بعض المؤرخين في وصف اليوم الذي هجم فيه النصارى على المسلمين وهجموا دفعة واحدة على صنوف العسكر العثمانية واشتبك بينهم قتال مهول دائم من الصباح الى المساء حتى تخضبت الارض بالدماء وتغطى من العجاج ودخان البارود كبد السماء وصمت الآذان من صوت المدافع والقنابر وكان يوما مهولا لم يسمع بمثله في زمان غابر وبقي الوزير مصطفى باشا في بلغراد في قلق واضطراب مترقبا لما يظهر في حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب فبرز الامر السلطاني بقتله وتدميره جزاء على ما جناه من سوء تدبيره فقتل في المحرم من سنة الف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين وعين للصدارة بعده ابراهيم باشا وبعد ذلك الوقائع الشديدة والحروب المهولة أخذ البابا يحرض أهل أوربا على طرد المسلمين من قرة بلادهم فاجتمعت العساكر من كل الجهات وصمم [illegible] الاسلام من أوربا فتكفلت النمسا وتكفلت بكدونيه ببلاد بولونيا والبندقية وغيرهم من [illegible] الابيض في دلماتيا بكثير من البلاد وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الاطراف [illegible] عساكر الدولة تحارب الافرنج من جهة أما [illegible] يحرض الافرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة فلم ينجح تدبير ابراهيم باشا الصدر فعزل وأقيم مكانه سليمان باشا سنة سبع وتسعين وألف [illegible] عساكر بلاد المجر وكان هذا الصدر يريد أن يتمثل بمحمد باشا كوبرلي لكنه كان قصر في التدبير فأراد العساكر قتله فتركهم وهرب الى القسطنطينية فقتله السلطان سنة ثمان وتسعين وألف وأقيم في الصدارة سياوش باشا وكان السلطان مشغولا بالصيد واللهو وقد حفت المصائب بالدولة من كل جانب وكثر الجوع والغلاء والحرائق فتآمر أهل الحل والعقد من رجال الدولة وخلعوا السلطان محمدا سنة تسع وتسعين وتوفي سنة أربع ومائة وألف وكانت مدة سلطنته أربعين سنة وخمسة أشهر

﴿ لطيفة ﴾ في مدة السلطان محمد المذكور ظهر يهودي يدعي أنه المسيح ومسلم يدعي أنه المهدي في عام واحد وهو عام ألف واثنين وسبعين أما اليهودي فظهر في ازمير زاعما أنه المسيح وكان اليهود ينتظرون النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام وهو آخر الانبياء عليهم السلام فلما بعث عيسى عليه السلام

كذبوه ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه أيضا ولم يزالوا ينتظرون النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام فاذا ظهر المسيح الدجال يتبعونه ويقولون انه هو النبي المبعوث في آخر الزمان الذي وعدهم به موسى عليه السلام فلما ظهر هذا اليهودي بازمير ادعى انه المسيح عيسى ليغتر به كل من المسلمين واليهود ويتبعوه وأظهر لليهود انه هو النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام وكان فصيح اللسان جميل المنظر وزعم أنه يوحى اليه وانه انما يتكلم بالوحي فصار يعظ الناس ويجتمعون عليه ثم انتقل الى بيت المقدس وكاتب اليهود الذين هم في الممالك العثمانية فأجابوه وآمنوا به وصاروا يأتونه أفواجا فيتبركون به ويبالغون فيما يحكونه عنه من اظهار عجائب وخوارق عادات كان يوهمهم عليهم بها ويصنعها بالحيل كالحواة فيزعمون أنها معجزات فانتشر اسمه وكثر أتباعه وكان ذلك كله في مدة سلطنة السلطان محمد بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم فاتح مصر فأراد الوزير المتولي دمشق أن يقبض على ذلك اليهودي المدعي لهذه الدعوى لما رأى من كثرة أتباعه وكان اليهود الذين بالقسطنطينية قد كاتبوه وطلبوا منه أن يأتي اليهم فتوجه اليهم واستعدوا لملاقاته ليأخذوا بيده ويتبعوه فأرسل الصدر الاعظم وقبض على ذلك اليهودي وهو في المركب الذي جاء فيه ووضعه في السجن فكان اليهود يطلبون الاذن من الصدر الاعظم ليأذن لهم في زيارته في السجن وتقبيل أقدامه فكانوا يأتون لذلك من جميع الجهات فوضع الوزير على كل من جاء لزيارته مالا جزيلا يأخذه منهم وجمع من ذلك مالا كثيرا فكان السجن يضيق عن هؤلاء الذين يأتون لزيارة مسيحهم ثم ان السلطان محمدا أحضر ذلك اليهودي بين يديه فأخذ يتكلم باللسان التركي كلاما ضعيفا غير فصيح فقال له السلطان محمد ان مسيحا مثلك يجب أن يكون فصيح اللسان بكل اللغات ثم قال له السلطان هل تصنع شيأ من العجائب فقال نعم في بعض الاوقات فقال له السلطان محمد اني أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة وأمر أن يجرد من ثيابه ويوقف في فسحة الميدان ويرمى عليه بالرصاص فان نجا ونبت علم صدقه فيما يدعيه فلما سمع هذا الكلام خر راكعا على الارض وقال ان قوتي لا تقدر على هذه العجيبة فأمر السلطان بقتله فرمى نفسه على قدم السلطان يقبلها ويعترف بالتوبة وتكذيب نفسه والدخول في الاسلام فقبل السلطان محمد منه ذلك فأسلم وحسن اسلامه وصار يدعو اليهود فأسلم منهم خلق كثير وأما الرجل المسلم الذي ادعى انه المهدي فانه رجل من الاكراد ظهر أيضا في هذا العام في ناحية الموصل وتبعه خلق كثير فقبض عليه وأتي به الى السلطان محمد أيضا فحضر وعرض عليه مثل ما عرض على اليهودي فأبت نفسه الشقية أن يعترف بالتوبة ويكذب نفسه بل رضي ان العساكر ترمي عليه بالرصاص فرموا عليه فمات من ذلك وبعد خلع السلطان محمد وأقيم في السلطنة أخوه السلطان سليمان الثاني ابن

ابراهيم

﴿ ولاية السلطان سليمان الثاني ﴾

فولي السلطنة وأمور الدولة في غاية الارتباك وزيادة على ذلك هاج العساكر الانقشارية وقتلوا كبيرهم وقصدوا كثيراً من الوزراء ليقتلوهم وقتلوا الصدر الاعظم سيواس باشا وأقيم بعده اسماعيل باشا واستولى النيمسا على كثير من ممالك الدولة وكذا البندقية وبعد ثلاثة أشهر عزل اسماعيل باشا عن الصدارة وأقيم مكانه تكفور طاغلي مصطفى باشا سنة ألف ومائة وواحدة وفي تلك السنة توجهت العساكر العثمانية الى ناحية ادرنه وفي ذلك الوقت كانت عساكر النيمسا محاصرة بلغراد ثم ملكوها تلك السنة بعد حصار طويل

﴿ ذكر غزوة السلطان سليمان الثاني ﴾

ولما بلغ الدولة أخذ بلغراد أمر السلطان بتجهيز العساكر لكي يخرج بنفسه وكانت الخزينة خالية من المال ففرضوا على أهل القسطنطينية ان كل عائلة تجهز خيالين وفي أثناء ذلك توجه من طرف الدولة الى فينا بلاد النيمسا ذو الفقار افندى لاجل المخاطبة في عقد الصلح فعرض عليه امبراطور النيمسا انه عند دخوله يسجد أولاً عند باب القلعة وثانياً في وسط الاوطة امام كرسيه ثم قبل ذيله ويضع كتاب السلطان بين يديه ويرجع ساجداً كذلك فأبى وأقام عشرة أشهر في هذه المنازعة ولما رأى السلطان انه قد طال أمر هذه المخاطبة أمر بالذهاب الى الحرب فتقدمت العساكر الى بلاد المجر وحاربتهم وأخربت قلاعهم واستولت على أكثر البلاد وكان الجرنال درسكوفيس قد خرج على عساكر الدولة في نواحي بلاد اليونان وكسرهم وكان عددهم خمسين ألفاً وأما عساكر النيمسا الذين كانوا في نواحي الطونة فقتلتهم العساكر العثمانية وشتت شملهم فتركوا البلاد والقلاع وفروا في منهم

﴿ ذكر غزوة الى بلاد النيمسا ﴾

ولما وصل ذو الفقار من بلاد النيمسا الى بلاد القسطنطينية وأعلم السلطان بما جرى له في بلاد النيمسا لم يستحسن مصطفى باشا الصدر أن يتغافى عن ذلك فعزم على حرب النيمسا فأمر بتجهيز العساكر وأخذ في استجلاب قلوب الناس الذين كانوا تحت حماية النيمسا حتى احتموا بالدولة وأخذ جميع الآنية الفضية والذهبية التي كانت عنده وعند السلطان وأرسلها الى دار الضرب فسبكها معاملة ثم توجه لمحاربة النيمسا ومعه نحو مائة ألف ففتح بلاد بودين وسمندريا وبلغراد ثم رجع الى القسطنطينية مظفراً منصوراً

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

وفي سنة ألف ومائة واثنتين بلغ الدولة تقدم النيمسا فزحف عليهم مصطفى باشا بعسكر

المنصورة وتوفي السلطان سليمان في رمضان من هذه السنة بداء الاستسقاء وعمره خمسون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وتسعة أشهر

﴿ذكر ولاية السلطان أحمد الثاني ابن ابراهيم وأول غزوة من غزواته﴾

وجلس على تخت السلطنة بعده أخوه السلطان أحمد بن ابراهيم وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا سائراً بالعساكر لمحاربة النيمسا وكانت عساكر الدولة قد قدمت الي قرب بزرزدين واشتبك الحرب والقتال بين الجيشين وانهزم من جيش المسلمين رئيس العساكر الاكراد فلما شاهد ذلك مصطفى باشا صرخ عليهم بصوت عظيم واقتحم في وسط المعركة يحرض العساكر على القتال والسيف بيده واذ برصاصة أصابته في رأسه فوقع قتيلا رحمة الله عليه وبموته ثبتت عساكر النيمسا على العساكر الشاهانية ووقعت الهزيمة وقتل خلق كثير من المسلمين قيل ان عدد القتلى كان ثمانية وعشرين ألفا وفي ذلك الوقت كانت عساكر المسلمين البحرية منصورة على الافرنج نصراً شديداً وبعد موت الوزير أقيم مكانه عربجي علي باشا ثم عزل سنة أربع وأقيم بدله مصطفى باشا وحدث في هذه السنة حريقة في القسطنطينية أحرقت ربع المدينة

﴿ذكر غزوة في خلافة السلطان أحمد الثاني﴾

في ذي القعدة من هذه السنة توجه الوزير الي بغراد لمحاربة النيمسا وكانت محاصرة بغراد فلما بلغ النيمسا قدوم الوزير رفع الحصار وهرب من امامه فأمر الوزير بترميم الاماكن التي أخربتها عساكر النيمسا ورجع بعد ذلك الى أدرنة وبقي جيش الدولة محافظ هناك وكانت دولة انكلترا تداخلت مع دولة هولندا في اتمام الصلح مع الباب العالي والنيمسا ولم يتم وفي سنة خمس ومائة وألف توجهت العساكر لمحاربة المجر وبسبب الامطار الكثيرة رجعوا الى بلغراد وفي سنة ست توفى السلطان أحمد وعمره أربع وأربعون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر

﴿ذكر ولاية السلطان مصطفى الثاني وغزوة بتلوها غزوات﴾

وأقيم في السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم وبعد جلوسه عرض عليه قضية الصلح فلم يقبل بل اصدر فرمانا شريفا يقول فيه لايجوز لاسلافنا الآن يتمتعوا بالراحة وهم على تخت السلطنة فمن الآن وصاعداً احتم ان التلذذ والكسل يهجر من دولتي العلية لان الاعداء قد أحاطوا بمملكة الاسلام واستأسروها وسوف آخذ ثأرهم ان شاء الله تعالى وأسير امام جيوشي لان جدي سليمان المعظم الذي تصاعدت رائحة الطيب من قبره لم يكن يرسل وزرائه فقط للجهاد بل كان يخرج بنفسه للمبارزة في الجهاد المقدس حتى ان فخره ومجده قد انتشر في جميع الاقطار المسكونة والاسوف اصنع نظيره فضعوا أمير المؤمنين والسلام وكان السلطان مصطفى المذكور محبا

للعلوم والمعارف مديناعادلا وعلى جانب عظيم من الرقة والحذق ثم اجتمع رجال الدولة واتفقوا على أن السلطان لا ينبغي أن يخاطر بنفسه فلم يلتفت الى كلامهم

﴿ ذكر غزوة من غزوات السلطان مصطفى ﴾

ثم عزم على الخروج بالعساكر فأمر بجمع الجيوش وأرسل عمارة بحرية فضربت مراكب مشيخة البندقية بقرب ساقس وكسرتهم كسرة مهولة وشتتهم في جهات البحر الابيض وتملكت عساكر الدولة جزيرة ساقس وسار السلطان بنفسه مع العساكر وعبروا نهر الطونة وقاتلوا عساكر النيمسا ومكواجة بلاد وقلاع وقطعوا رأس الجنرال فيتراني وكانت عساكره أكثر من عساكر الدولة بخمس مرات وأخذوا مدافعهم ومهماتهم وهدموا القلاع والحصون وعند دخول الشتاء رجع السلطان بجانب من العساكر الى أدرنة وترك الباقي يحارب النيمسا ثم دخل بالعساكر القسطنطينية في موكب حافل ومعه أساري كثيرة ومدافع وبيارق من غنائم النيمسا وفي أثناء ذلك حاصر ملك المسكوف قلعة أزوف فكسرته عساكر الدولة تحت أسوارها وقتلت من عساكره ثلاثين الفا ورجع عنها بعد حصار ثلاثة أشهر وتملك المسكوف بحر أزوف وبنى على سواحله قلاعا

﴿ ذكر غزوة عظمى ﴾

بلغ السلطان ان النيمسا جمعت عساكر كثيرة وجعلت قائدها أوجين الفرنساوي وكان متدربا في الحروب فسار السلطان سنة ثمان ومائة والف بثمانين ألف مقاتل الى مدينة أدرنة وأرسل الجيوش من المحاربة النيمسا فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا وكان النصر للمسلمين فقتلوا من النصارى عددا كثيرا وشتتوهم في جميع الجهات ورجع السلطان الى مقر ملكه

﴿ غزوة أخرى ﴾

في سنة تسع بلغ الباب العالي رجوع عساكر النيمسا مع الجنرال أوجين الفرنساوي فخرج السلطان بنفسه بالعساكر وصحب معه وزيره الصدر الاعظم محمد الماس باشا واستولوا في طريقهم على عدة قلاع ثم التقوا بجيوش النيمسا التي مع أوجين الفرنساوي ووقع بينهم وقعات ثم صارت الهزيمة على عساكر المسلمين وقتل الصدر الاعظم في ميدان الحرب وأقيم مكانه حسين باشا ثم نهزم ورجع الى بلاد المجر وفي أثناء ذلك سعت دولة فرانسا وانكلترا وهولاندا في الصلح واختاروا مدينة كرلوفتز لانعقاد الجمعية بهذا الصدد والسبب ان الدولة كانت كلت وقلت جنودها من كثرة الحروب فحصل قبول هذه الجمعية فاجتمعت عمد الدولة العلية ودولة فرانسا وانكلترا والموسكوف والنيمسا والبندقية وبولونيا وهولاندا وبعد ستة وثلاثين جلسة

في برهة اثنين وسبعين يوما تم الصلح في رجب سنة ألف ومائة وعشرة وانعقدت شروطه باتفاق الجميع وتلك الشروط تعرف بشروط كارلاويز وكان من جملة الشروط حصول الهدنة ومتاركة الحرب مع النيمسا خمسا وعشرين سنة وأما المسكوف فلم يقبل الا بهدنة سنتين وبعد انعقاد الصلح هاجت الناس والعساكر بسببه وانتشر من ذلك فتنة عظمى وطالت الى أن قاموا على السلطان وخلعوه وقتلوا شيخ الاسلام فيض الله افندى قيل ان السلطان مصطفى لما بلغه أنهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد وأخبره بذلك وترك له كرسي السلطنة فكانت مدة ملكه ثمان سنين وأربعة أشهر وكان خلعه سنة خمس عشرة ومائة وألف ومات في السنة التي بعدها فعمره احدى وأربعون سنة (ولاية السلطان أحمد الثالث) وتسلطن بعده أخوه السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم وكان من الصالحين المحبين للجهاد وإقامة الحق ولما جلس على تخت السلطنة كان أهم شئ عنده أخذ القصاص من العصاة الذين كانوا سببا في تلك الفتنة وقتل كثيرا منهم

﴿ ذكر غزوة في زمن السلطان أحمد الثالث ﴾

ثم جهز عمارة بحرية لمحاربة البندقية في جهة المورة فملكوا أكثر الجزائر واستأسروا كثيرا من البندقية واستولوا على مراكبهم وفي سنة ست عشرة ومائة والف قامت الحرب على ساق وقدم بين قيصر الروسية بطرس وكارلوس ملك السويد واسترسلت الى سنة فانكسر أخيرا كارلوس المذكور وفاز عليه قيصر الروسية بطرس الاكبر ولما انهزم ملك السويد دخل في حدود الدولة فأمر السلطان وقتئذ أن يكرم غاية الاكرام وأن تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة ومكث في بلاد الدولة مداوما الالحاح عليها لمحاربة الروسية اعانة له فامتنعت الدولة من اجابته

﴿ ذكر غزوة الى الروسية ﴾

ثم أجابته في سنة ثلاث وعشرين ومائة والف وأشهرت الحرب على الروسية وجهزت جيشا تحت قيادة محمد باشا البلطجي فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر برت وبعد كفاح شديد تقهقر جيش الروسية وأمسى القيصر في خطر مبين ولولم تتدارك الامر زوجته كاترينا بحذقها ودرايتها لاصبح زوجها أسيرا انعقدت صلحا مع الوزير الاعظم تحت شروط منها ترجيع بحر ازوف الى الدولة وهدم الحصون التي على سواحل هذا البحر ويترك للدولة المدافع التي فيها وعدم مداخلة الروسية فيما يخص القزق وان تتعهد لملك السويد بحرية الرجوع الى بلاده وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين أرسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وأمر بعزله ونفيه

فمات بعد شهر وأقيم مكانه يوسف باشا ثم رأي رجال الدولة على ابطال ذلك الصلح مع الروسية واشهار الحرب عليهم بعد قتل جملة أشخاص كانوا السبب مع ذلك الوزير في تلك العهود وكان يوسف باشا الصدر الجديد لا يريد الحرب فلذلك صار يؤخر في تجهيز المهمات الحربية واجتهد في تجديد الصلح مع الروسية على هدنة خمس وعشرين سنة فلما بلغ السلطان ذلك أمر بعزل يوسف باشا وأقام مكانه سليمان باشا وذلك سنة ألف ومائة وأربع وعشرين ثم ان ملك السويد أراد الرجوع الى بلاده وطلب من الدولة ألف كيس فأمرت له بها ثم طلب ألفا أخرى فأمرت له بها فغضب الوزير وأراد اخراج ملك السويد بالعنف وجرى بينه وبينه أشياء يطول ذكرها فعزل السلطان الوزير سليمان باشا وأقيم مكانه ابراهيم باشا ثم بعد عشرين يوما عزل وأقيم مكانه داماد علي باشا فعقد الصلح مع الروسية على خمس وعشرين سنة وفي أثناء ذلك حضر الى ملك السويد كتاب من أخته تقول له ان حضوره لازم لاجل راحة المملكة فعزم على الرحيل واستأذن الدولة في الرجوع فأمرت له بستمائة جاويش لاجل محافظته في الطريق وأهدته ثمانية أفراس من جياد الخيل وصيوانا مطرزا بالذهب وسيفا مرصعا بالاحجار الثمينة فرحل من بلاد الدولة سنة ست وعشرين ومائة وألف شاكرا افضال الدولة على ما صنعته معه من الغيرة والمساعدة ونحو ذلك من الاعمال الممدوحة التي تستحق ان ترقم في صحايف التواريخ لتكون تذكارا بين الملوك وأهل السويد لا ينسون هذا الجميل الذي فعلته الدولة العلية في حق ملكهم

﴿ ذكر غزوة عظمى ﴾

وفي سنة ست وعشرين أيضا فتحت الدولة الحرب على البندقية واستولت العساكر العثمانية على أكثر بلاد المورة وعلى جزائر البنادقة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة وألف وكانت مشيخة البنادقة استنجدت بملك النيمسا وهو ذ ذ نذا امبراطور ذ ذ ذ فلبى دعوتها وبعث الى الدولة العلية يطلب منها أن ترسل معتمدا من طرفها الى حدود بلاد المجر لاجل المخابرة معه لجهة جمهورية البندقية وان أبت عن ذلك فانه مستعد أن يشهر الحرب عليها فحجب الدولة هذا الطلب

﴿ ذكر غزوة ﴾

بل أرسلت على الفور الصدر الاعظم بستمائة وخمسين ألف مقاتل محاربة نيمسا فوجد فيهم ثمانون ألفا من عساكر الالمان تحت قيادة الامير أوجين الفرنساوي والتقى الجيشان عند كرلوفيتز والتحم القتال بين الفريقين مدة أيام وكان الصدر الاعظم داماد علي باشا من أحسن أبطال زمنه

فكان ينزل في ميدان الحرب و يقاتل بنفسه أشد القتال نقدر الله انه قتل في ميدان القتال فانهزمت الجيوش العثمانية انهزاما مهولا واستولت عساكر العدو علي المهمات والمدافع ثم تقدموا الي مدينة تيفار وحاصروها شهرين وملكوها

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

و ولي الصدارة خليل باشا فجهز جيشا لقتال العدو وسار الي أدرنة ومنها الي بلغراد واشتبك القتال بين الجيشين سنة ١١٢٩ ولسوء تدبير هذا الوزير وقعت الهزيمة أيضا على جيش المسلمين وملك العدو مدينة بلغراد فعزل الصدر وأقيم مكانه محمد باشا وعزل بعد ثمانية أشهر وأقيم مكانه داماد ابراهيم باشا وكان جانب من عساكر الدولة مشتغلا بالحرب مع العدو في جهة بوسنة ولما بلغت هذه الاخبار ديوان السلطنة فتحت المخابرة في الصلح سنة ثلاثين ومائة والف وكان السلطان يريد عقد الصلح مع كل من دولة المانيا وجمهورية البندقية على حدته فأجاب الامبراطور أوجين بأن الأمبراطور لا يفتح المخابرة الا تحت شرط عقد الصلحين سواء تحت نظره وأردف هذا الطلب بأن يعطى له ماعدا مصاريف الحرب ومدينتي بلغراد وتيفار اقليما بوسنة والصرب الواقعان في الجهة اليمنى من نهر الدانوب والافلاق من حدود بغدان الى نهر دينتر وأن ترجع المورة الى البندقية فعرضت هذه المطالب على السلطان أحمد وفضل عقد التاج على التسليم بشروط مجلبة لعار فتداخلت حينئذ دولتا انكلترا وهولاندة في نقض الخلاف وصار القرار على أن يبقى في يد كل من الدولتين الاملاك التي تكون في يدها عند امضاء المعاهدة وأن يبقى أيالة المورة للدولة العلية وفي سنة ثلاث وثلاثين حدث حريقة مهولة في القسطنطينية أحرقت نحو ربعها وبعد نهاية الصلح جددت الدولة مع الروسية وملك بولونيا شروط الصلح وروابط العهود

﴿ ذكر غزوة الي بلاد العجم ﴾

في سنة ثمان وثلاثين جاء جماعة من أهل السنة يسكنون في حدود العجم الى السلطان أحمد يشكون من الظلم والتعدي التي يجريها الشيعة عليهم ويستنجدون به ويطلبون خلاصهم من تلك المظالم فأجابهم السلطان أحمد وسير جيشا الي بلاد العجم وفتحوا جملة حصون ومدينة ارمقان ونهاوند وتبريز وشتتوا جموع الاعاجم قتلا وأسرا وامتلأت أيديهم من غنائمهم فأرسل شاه العجم يخاطب الدولة في الصلح فقبلت بشروط أن يرجع الى الدولة البلاد التي كان استولى عليها وفي اثناء ذلك مات شاه العجم حسين وملك ولده طهماست فأرسل الي الدولة يطلب ترجيع الاملاك التي أخذت من أبيه وحاصر تبريز وملكها واستولى على ستمائة حمل جمل من الامتعة فصدر الامر من السلطان

أحمد بتجهيز العساكر لحرب الاعجام وعندما كانوا على هيئة الذهاب وذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هاجت العساكر الانكشارية وتمردوا وطلبوا من السلطان قتل الصدر الاعظم ابراهيم باشا وشيخ الاسلام وقبطان باش وكتخدا بيك لشكايا يشكون منها فلم يقبل السلطان منهم ذلك فقالوا نسمح عن شيخ الاسلام فقط ثم قتلوا الصدر الاعظم ابراهيم باشا وكتخدا بيك ثم ان بعض العسكر أنكروا أن المقتول ابراهيم باشا وقالوا ان المقتول رجل يشبهه وليس هو ورجعوا يطلبون من السلطان احضار ابراهيم باشا وأخذوا يصرخون بعيش السلطان محمود وساروا يطلبون السلطان محمود في المكان الذي هو فيه واتوا به الي الديوان وأجلسوه علي كرسي السلطنة وبايعوه بعد أن خلعوا عمه السلطان أحمد فكان خلعه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف وتوفي سنة تسع وأربعين وعمره ستون سنة ومدة ملكه سبع وعشرون سنة واحد عشر شهرا

﴿ ولاية السلطان محمود الأول ﴾

وأما ابن أخيه الذي أقيم في السلطنة بعده فهو السلطان محمود الاول بن مصطفى بن محمد بن ابراهيم هكذا ذكر هذه القصة في كثير من التواريخ ورأيت في تاريخ مكة للرضى حكاية كيفية خلع السلطان أحمد المذكور وكيفية قتل الوزير ابراهيم باشا فقال في تاسع عشري شهر ربيع الاول من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف كان جلوس السلطان الاعظم والخاقان الاكرم الافخم السلطان محمود ابن السلطان مصطفى بن محمد ورفع عمه السلطان أحمد ابن السلطان محمد المتولي في سنة الف ومائة وخمس عشرة وكان هذا الرفع والجلوس لاسباب وأمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم وهو أنه لما تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد ابراهيم باشا ومن كيخيته حتي زاد الحال علي المسلمين اجتمع من أطراف العسكر ثلاثة عشر نفرا لا زيادة واستمروا عشرة أيام وهم في كل يوم يخرجون ويجتهدون في أن يعضدهم أحد من العسكر فلم يحصل ذلك وفي اليوم الحادي عشر تكاثرت الأمة عليهم فغاب منهم أحد عشر لا يدري أين ذهبوا ولم يبق منهم الا واحد مع آخر ذلك الواحد أمير تلك الأمة المجتمعة فأركبوه جوادا وامتثلوا له جميع ما أمر وصار عددهم فوق العشرة آلاف وفي أثناء ذلك والسلطان أحمد حافظ للوزير وكيخيته وأمير البحر المسمي بقبطان وهو في غاية الذلة والهوان أرسل اليه أمير الأمة المذكور أن ادفع الينا الوزير والكيخيا نريد أن نقتص منهما فامتنع من ذلك فضرب عليه اضطرابا فحصل عن قتل الوزير والكيخية بيده ثم قتل القبطان أيضا بيده ثم قتل الوزير بعض خدم السلطان وأرسل اليهم رؤس الثلاثة يعني أن ذلك عرض لهم فزاد الحال وكثر الجدال وقالوا ان قتل القبطان كان ضدنا لأنه لم يصدر منه ما يوجب ذلك وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه وأما قتل الوزير وكيخيته فلم يكن الا بغرض من كان مطلوبا

حضورهما حيين نطالبهما بحقوق العباد وما كان يصدر منهما في البلاد ثم صرحوا بعدم الرضا بالسلطان أيضا فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان فامتنعوا عن ذلك فرأى هو ومن لديه من أهل الحل والعقد أنه لا يطفي هذه الثائرة الا اخراج السلطان محمود من الحبس وتوليته السلطنة فقام السلطان أحمد بنفسه وذهب اليه في الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت ثم أرسل اليهم بأن يتفرقوا فأبوا الا بعزل بعض أشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم وقتل آخرين ونفي جماعة فتم لهم ما طلبوه ثم رغب منهم السلطان محمود التفرق فتوقفوا أيضا فأرسل اليهم شيخ الاسلام بأنكم اذا لم تتفرقوا والا خرجت لواء النبي صلى الله عليه وسلم وأخذت عليكم فتوي ووجهت الجهاد عليكم فعند ذلك تفرقوا فطلب ذلك الرجل الذي كان أمير هذه الأمة المجتمعة فلم يوجد له خبر ولا أثر ولا يدري أين ذهب واستقرت السلطنة العثمانية للسلطان محمود الاول وصدرت منه الاوامر العلية الي جميع ممالكه وزينت البلاد وكان من أغرب الاتفاق ان خرج تاريخ ذلك قوله تعالى فاعتبروا يا أولى الابصار

﴿ ذكر غزوة الي بلاد العجم ﴾

وقد وقع في مدة السلطان محمود المذكور محاربات بينه وبين الروسيا والنمسا عدة سنوات وكذا وقعت أيضا محاربات بينه وبين العجم

﴿ ذكر غزوة الي العجم ﴾

فمنها أن العجم جهزوا جيوشهم وأغاروا على مواضع مما كانت في حكم الدولة واخذوها وحاصروا بغداد فجهز السلطان محمود عليهم جيوشا سنة ست وأربعين ومائة وألف وأزالهم عن محاصرة بغداد وشتتهم في الجهات وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجع بعض جيوش الدولة الى كردستان ليخلصها من أيدى الاعجام واشتبك الحرب وقتل رئيس العساكر العثمانية طوبال عثمان باشا في ميدان الحرب وقد كان في السنة التي قبلها عقد صلحا مع العجم على أن تبريز تكون تحت أيدى العجم فغضب السلطان محمود ولم يرض بذلك ولما قتل طوبال عثمان باشا انهزمت عساكر الدولة فلما بلغ الخبر الباب العالي جهز السلطان جيشا آخر لقتال العجم ولما وصل الجيش الى شط نهر كوبان صدهم الموسكوف عن المسير فرجعوا ودخلت عساكر الموسكوف في بولونيا فشكتهم الدولة الي ملوك أوروبا لأن ذلك مخالف للشروط التي كانت بينهم فاعتذر الموسكوف بأن دخول عساكره في بولونيا لمنع دولة فرانسا من تسليم أحكام بولونيا فلم تقبل الدولة هذا العذر وأشهرت الحرب على الموسكوف

﴿ ذكر غزوة الي بلاد الموسكوف ﴾

وسارت العساكر في سنة تسع وأربعين ومائة وألف بعد أن عقدوا صلحا مع العجم غير الصلح

الذي تقدم ذكره على شرط رجوع حدود الدولة على ما كانت أيام السلطان مراد الرابع وفي مدة عقد هذا الصلح تقدمت عساكر الموسكوف وأخذت بعض جهات من أراضي الدولة فلما تجهزت عساكر الدولة توجهت الى القرم واقتتلوا مع الموسكوف فانتصرت عساكر الدولة وهزموهم ثم ان الموسكوف اتحدت مع النيمسا والمانيا وكانت ألمانيا تابعة للنيمسا ورجعوا واستلموا قلعة أزوف وانهزمت عساكر الدولة أمام هذه القلعة واستولت عساكر النيمسا على تمام مدن من بلاد السرب والافلاق وعلى قلعة نيش

﴿ غزوة أخرى ﴾

فرجعت اليهم عساكر الدولة وهزمت عساكر النيمسا قداه بنالوغا وتشتت في جهات البلاد وامتد الانتصار الى أن طردت عساكر الدولة النيمسا من الافلاق والبغدان وارصوقا واسترجعت قلعة نيش وحرقت لهم سبع مراكب حربية في البحر تجاه قلعة البرابت وتوسطت فرانسا في الصلح لم يقبل السلطان فلم تزل فرانسا تراجع السلطان الى أن تم الصلح بشرط أن النيمسا ترجع البلغراد للدولة وكل ما استولت عليه من الافلاق والسرب وغير ذلك وأن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر الطونة وعقدوا هدنة طويلة وهي سبع وعشرون سنة واشترطت الدولة على موسكوف أنه لا يكون لها مراكب حربية ولا تجارية في البحر الاسود وبحر أزوف وأن الموسكوف يرجع الاماكن التي استولى عليها في مدة الحرب وأن يهدم قلعة أزوف وبعد هذا الصلح طلبت دولة السويد عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بالاتفاق على حرب من يعاديهم فأجابتهم الدولة الى ذلك وعظم أمر السلطنة في تلك السنة هذا تلخيص ما كان في مدة السلطان محمود الاول وكان من أعظم سلاطين آل عثمان عقلا وهمة وتدبيرا ومحبة لجهاد ونصرة الدين وقمة الشريعة وتوفي رحمه الله سنة ألف ومائة وسبع وستين وعمره ستون سنة ومدة ملكه أربع وعشرون سنة (ولاية السلطان عثمان الثالث) وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عثمان ابن السلطان مصطفى بن محمد بن ابراهيم ومكث قريبا من أربع سنين وتوفي سنة احدي وسبعين ومائة وألف (ولاية السلطان مصطفى الثالث) وأقيم بعده في السلطنة السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن ابراهيم فلما استقر في ملكه أخذ في تنظيم ملكه وتقوية موهن منه وكان ذلك باسعاف وزيره الصدر الاعظم محمد راغب باشا المشهور بعلو التدبير وحسن السياسة وفي سنة ألف ومائة وست وسبعين توفي راغب باشا وبعد وفاته شبت نيران الحرب بين الدولة والروسية وفي هذه السنة خلعت كاترينا مرأة ملك الموسكوف بعلها عن كرسي السلطنة وجلست مكانه وسجنته ثم أمرت بقتله فقتل وأخذت تسعى في خراب اليونان عن طاعة الدولة

العثمانية وحركت اليونان في المورة والارنؤود وأخذوا يستمدون لخلع الطاعة ونهض على بيك بمصر وتغلب عليها وعلى الشام وأراد الاستقلال وارسلت الدولة من عساكرها أربعين ألفا لحماية البلاد على شاطئ نهر الطونة وأرسلت اليونان الى كتريا الملكة الموسكوف تستنجد بها فبعثت لهم جيشا لم يغن شيأ فهزمتهم عساكر الدولة غير أن عساكر الموسكوف في تلك الايام انتصرت على عساكر الدولة التي كانت على حدود الطونة واستولوا على بندر روا كرمان واسمعيل وقلاع على شاطئ هذا النهر ولما بلغ الباب العالى هذه الوقايع صدر الامر بتكثير الجيوش وفى السنة الثانية تغلبت عساكر الدولة على عساكر الموسكوف فرجعت الى بلادها بعد أن فقدت منها عساكر كثيرة في الحرب وبالطاعون وحينئذ أخذت النيمسا وبروسيا في التوسط في الصلح وتوقيف الحرب ولكن لما رأت الدولة ان مطاليب الموسكوف غير مقبولة رفضت هذا الطلب وأشهرت الحرب

﴿ ذكر غزوة الى بلاد الموسكوف ﴾

وفى سنة ألف ومائة وست وثمانين سار الصدر الاعظم محسن باشا بالعساكر لمحاربة الموسكوف فهزمهم على نهر الطونة وأخذ منهم ستمائة أسير وسار حسن باشا قبطان بشي بجانب من العساكر العثمانية وضرب عسكر الموسكوف على نهر الطونة أيضا وأخذ مدافعهم وذخائرهم وفي أثناء هذه الغلبات توفي السلطان مصطفى سنة ألف ومائة وسبع وثمانين وعمره ثمان وخمسون سنة ومدة ملكه ست عشرة سنة

﴿ ولاية السلطان عبد الحميد الاول ﴾

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عبد الحميد الاول ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن ابراهيم وكان أخوه السلطان مصطفى قد ترك له نهاية الحرب الجسيم مع الروسية فأمر بانحياز الجيوش وتكثيرها

﴿ ذكر غزوة للسلطان عبد الحميد الاول ﴾

بعث مع الصدر الاعظم أربعمائة ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين الجيوش الروسية فحصلت لهم هزيمة وانحصروا في شملة ووقعوا في صعوبة كلية فاجتهد السلطان في ارجاع قوة الدولة وكانت العساكر قد كلت من الحروب وحدث بين العساكر الانكشارية شغب فتركوا الصدر الاعظم في ميدان الحرب بجانب قليل من العساكر فرجع الى شملة وأرسل يعلم الباب العالى بذلك فصدر الامر بعقد الصلح فتم على شروط تعرف بعهد كوجيك قينارجا وهي منطوية على استقلال التتر في بلاد القرم والبوجاك والكوبان وعلى سير السفن الروسية في بحر الدولة وترك ازوف وكيل برون وبعض القلاع الي الموسكوف وقبول الدولة انقسام بولونيا والموسكوف يترك للدولة الافلاق والبغدان والجزائر

التي كانت في يدها في البحر الابيض وبعد امضاء هذه الشروط عاد الصدر الاعظم محسن باشا بمن معه من العساكر الى دار السلطنة وتوفي في طريق مدينة أدرنة وأقيم مكانه محمد عزت باشا وأخذ السلطان عبد الحميد في اصلاح أمور السلطنة وقمع العصاة الذين في ممالكه ولم تقنع الروسية بما جرى من الصلح ولم تلتزم الشروط بل كانت تتعدى من حين الى حين على حدود الدولة حتى أنها أغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد يتحمل تلك التعديات بمرارة عظيمة زمانا طويلا ويرى سلطنته مشرفة على وهدة السقوط وهو غير قادر على أن يأتيها بالعلاج الشافي ولما رأى ان كثيرا من ممالكه وقعت في قبضة الاجانب شرع في استعدادات جديدة للحرب

﴿ذكر غزوة أخرى﴾

وبعث جيوشا متعددة فيهم جيش سار به حسين باشا القبطان فقتل كثيرا من العصاة وبعث برأس ظاهر العمر الذي تغلب في جهة سورية وبرأس حاكم بغداد الذي كان يحاكيه في الشقوة

﴿غزوة أخرى﴾

ثم توجه حسين باشا المذكور لتأديب اليونان ساكني المورة فساراليهم وقتل منهم أصحاب الفتن والدسائس وأرعب قلوبهم وكسر شوكتهم وألزمهم الطاعة وطلب العفو لهم من الباب العالي وكانت كاترينا ملكة الروسية تجتهد دائما في تخفيض قوة الدولة العثمانية ومالكتها تبعث القرمفورسات الى كثير من الممالك يزرعون فيها الفتن فما انقطعت وجنود دولة تعدي الروسية على حقوق الدولة ... في ذلك ونادوا بالحرب وكانت الانكليز تحرض الدولة على ذلك وتؤكد لها الاعانة وان دولة سوج وبونيا تنهضان معها لاسعاف الاسلام وان بروسيا اتفقا والنيمسا

﴿ذكر غزوة أخرى﴾

فصدر الامر الى الصدر الاعظم يوسف باشا بالتوجه لحرب الروسية والنيمسا وكانت كاترينا ملكة الروسية حضرت الى بلاد القرم بجيش عظيم وحضر امبراطور النيمسا بجيش عظيم وكان قد تعاهدهما على محاربة الدولة وكانت من سابق متفقة مع الروسية من اوقات عساكر الدولة مع النيمسا في محاربة بلغراد مفتاح الاسلام والجزيرة الكبيرة فتقهقرت العساكر الاسلامية واستولت على كثير من القلاع والحصون

﴿غزوة أخرى﴾

وتوجهت فرقة أخرى من عساكر الدولة لمحاربة الروسية تحت رياسة الدين باشا وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النيمسا حتى كاد امبراطورها يقع في الاسر تقدمت عساكر

الروسية واستولت على البغدان وعلى كثير من القلاع والحصون ولم يحضر أحد من باقى الدول الذين وعدوا بالمساعدة والنصر فلما شاهد الصدر الاعظم ذلك كتب الى الباب العالى يستأذن في السعي في عقد الصلح وفي أثناء ذلك توفي السلطان عبد الحميد سنة ألف ومائتين وثلاث وعمره ست وستون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة

﴿ ولاية السلطان سليم الثالث وغزوة من غزواته ﴾

وجلس على تخت السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن ابراهيم وبمدجلوس السلطان سليم وجه همته الى اصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية وأمر بجمع الجيوش من جهات البلاد تكثير الجيوش المجتمعة قبل ذلك فاجتمع في وقت قريب نحو مائة وخمسين الف مقاتل وكان اجتماعهم فى مدينة صوفيا وكانت عساكر الروسية سارت مع عساكر النيمسا المحاربة العساكر الاسلامية التي كانت تحت رياسة الصدر الاعظم يوسف باشا وقبطان باشي حسين باشا فانتشب القتال بينهم وبين عساكر الدولة فى البغدان وبقي نحو شهرين فحصلت هزيمة لعساكر الدولة واستولوا علي أكثر مدافعهم ومهماتهم وبسبب ذلك عزل الصدر الاعظم يوسف باشا وأحيلت رتبة الصدارة الي كتخدا حسن باشا ثم عزل وصار بدله حجازي حسن باشا سنة ١٢٠٤ ثم توفي وصار بدله شريف حسن باشا وأما عساكر الروسية فتقدموا أيضا في البلاد واستولوا على قلعة بلغراد وقلعة بندر وايالتى الافلاق والصرب وكل المدن التي علي شاطئ الطونة وكادوا يستولون علي قلعة اسمعيل التي هي أعظم حصن في بلاد الدولة التي في تلك الجهات وبينما هم كذلك اذ حضر الخبر بموت امبراطور النمسا وكان متعاهدا مع ملكة الروسية على محاربة الدولة وجلس في مكانه أخوه فانفصل عن معاهدة الروسية وعقد معاهدة مع الدولة العلية بواسطة انكلترا وبروسيا وشرط عليه أن يرد للدولة ممالك الدولة التي افتتحها النيمسا فرد لها كل الاراضى التى افتتحها مع النيمسا وأبقى في يده روكريم الي حين تمام الصلح بين الدولة والروسية وسعى في عقد الصلح بين الروسية والدولة فلم تقبل ملكة الروسيا كاترينا وكانت مواظبة علي الحرب فتقدمت عساكرها الى قلعة اسمعيل وأقامت الحصار عليها وكان في القلعة نحو ثلاثين ألفا فقطعوا عنهم الزاد والمهمات وصرخوا على عساكرهم الموت والاقلعة اسماعيل وهجمت عساكرهم علي تلك القلعة وافتتحوها واشتد القتال من الجيشين حتى ملأ القتلى خنادق تلك القلعة وأهجم الليل صعدت العساكر علي جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا فيها حربا شديدا فكانت النساء والاولاد يجمعون سلاح القتلي ويهجمون على عساكر المسلمين وما زالوا كذلك حتي قتل رئيس العساكر مع كل الذين كانوا داخل القلعة ولم ينج منهم الا رجل واحد طرح نفسه

في النهر وذهب الى القسطنطينية وأعلمهم بأن القلعة وقعت على عساكر الدولة لانهم مكثوا ثلاثة أيام وثلاث ليال والسيف دائر فيهم حتى ان الدم جرى كالسواقي وقتل من النساء والاطفال في تلك المعركة خمسة عشر ألفا ولما وصل هذا الخبر الى القسطنطينية ماجت العساكر هيجانا عظيما وطلبوا من الدولة رأس حسن باشا صدر أعظم قائد العساكر مع أنه كان من أعظم رجال زمانه في الحروب البرية والبحرية ولكن النصر من عند الله ولا راد لقضاء الله وقدره ولاجل تسكين هذا الهيجان قتل حسن باشا وجيء لهم برأسه وأحيلت الصدارة الى يوسف باشا الذى عزل سابقا وبعد ذلك تقدمت عساكر الروسية وقابلت العساكر الاسلامية في الجهة الثانية من نهر الطونة وذلك في سنة خمس ومائتين وألف فتوسطت دولة الانقليز والبروسيا في الصلح ثم سنة ست ومائتين والف على شروط وهي أن الروسية ترجع للدولة كل الاماكن التي فتحتها خلا أوتزاكوف والاراضي الواقعة بين بوغ وساليسترة حيث أقامت الملكة كاترينا مدينة أودسا سنة ألف ومائتين وسبع تذكارا للنصر هذا وهي مدينة شهيرة أكثر سكانها تجار على البحر الاسود وسكانها نحو أربعين ألفا ثم سعى السلطان سليم في ترقية أسباب تقدم بلاده وعمرانها وأرسل يطلب من فرانسا مهندسين ومعلمي صنائع وضباطا الى غير ذلك فبعث له بجانب عظيم ثم ان العلاقات الودادية تكدرت معها لما استولت على مصر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وأقاموا فيها الى سنة ست عشرة فالتزمت الدولة العلية أن تشهر حربها الى أن أخرجتها من مصر بمعاضدة انكلترا وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غزوة في مدة السلطان سليم الثالث ﴾

وفي سنة ألف ومائتين وأربع عشرة وجهت دونانمة مع دونانمة الروسية وفتحتا السبع جزائر التي كانت لجمهورية البندقية وكانت فرانسا بوقتئذ متولية عليها وهذه هي المرة الاولى التي تحدث فيها اتحاد الدولتان وفي سنة خمس عشرة صار الاتفاق أيضا بين الدولتين المشار اليهما في صيرورة الجزائر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزائر وفي سنة سبع عشرة ومائتين وألف عقدت معاهدة صلح بين الدولة العلية وفرانسا

﴿ ذكر غزوة الى بلاد الروسية ﴾

وفي سنة احدي وعشرين اتفقت الدولة مع فرانسا على حرب الروسية فمكن ذلك دينا لتمكينها مع انكلترا لانها كانت تسعي في ملاشات شوكة نابليون امبراطور فرانسا ولكن ذا استطاع انكلترا أن تمنع السلطان سليما من محاربة الروسية لان جيوش الروسية كانت تجاوزت الحدود ودخلوا الافلاق والبغدان وذلك مخالف للعهود فاضطر السلطان سليم أن يحافظ على بلاده

ويدافع عن حقوقه فجهز الجيوش وأرسلها تحت قيادة الصدر الاعظم مصطفى باشا جلبي ومصطفى باشا البيرقدار الى الاقليمين المذكورين فحاربوا الروسية ومنعوا تقويهم على الاراضي العثمانية ولما أيست انكلترا من ايقاع المنافرة بين الدولة العلية وفرانسا سارت بمراكبها الى الاسكندرية وتملكوها فأخرجهم منها محمد على باشا حاكم مصر وكان من الاسباب في حضور الانقليز لاخذ الاسكندرية ان المناجيق المماليك الذين كانوا متغلبين على مصر كان بينهم وبين محمد على باشا محاربات وشتتهم في الارياف فأرسل كبيرهم محمد بيك الالفي الى الانقليز يستنجد بهم فحضرت مراكبهم في ثغر الاسكندرية في أول محرم سنة اثنين وعشرين ومائتين وألف وعدتها ثنان وأربعون مركبا مشحونة بالعساكر وضربوا الى الاسكندرية بالقنابر والمدافع الحادثة من البحر فهدموا جانبا من البرج الكبير وكذلك الابراج الصغار والسور فعند ذلك طلب أهل الاسكندرية الامان فرفعوا عنهم الضرب ودخلوا البلد ثم سيروا جيشا منه الى رشيد فدخلوه ثم ثار عليهم أهل رشيد وقتلوا منهم خلقا كثيرا فرجع الباقون الى الاسكندرية منهزمين واستعد محمد على باشا لمحاربتهم واخراجهم من الاسكندرية وشرع في تعمير القلاع واستنفر كافة الناس لقتالهم واستمر الحال الى أواخر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وتوجه محمد علي باشا بعساكره الى جهة البحيرة والاسكندرية وحصل بينه وبين الانقليز الذين في الاسكندرية مكاتبات ثم انعقد بينه وبينهم صلح على شروط فخرجوا من الاسكندرية وأخلوها في أوائل رجب من السنة المذكورة أعني سنة اثنين وعشرين وتفصيل القصة طويل وهذا حاصلها بالاختصار وكان محمد بيك الالفي الذي استنجد بهم قدمات قبل مجيئهم الاسكندرية وفي هذه السنة أيضا كانت فتن كثيرة بدار السلطنة وخلعوا السلطان سليما وقصة ذلك طويلة سنذكر ملخصها فيما يأتي لكن ينبغي أن يقدم قبل ذلك ذكر أشياء كانت في مدة السلطان سليم المذكور منها فتنة الوهابية بالحجاز وفتنة الفرنسيس عند دخوله مصر ولنبدأ بذكر فتنة الوهابية لان مبدأها متقدم على فتنة الفرنسيس وان كان منتهاها متأخرا

﴿ ذكر فتنة الوهابية وتملك الفرنسيس مصر ﴾

اعلم أن السلطان سليما الثالث حدث في مدة سلطنته فتن كثيرة منها ما تقدم ذكره ومنها فتنة الوهابية التي كانت في الحجاز حتى استولوا على الحرمين ومنعوا وصول الحاج الشامي والمصري ومنها فتنة الفرنسيس لما استولوا على مصر من سنة ثلاث عشرة الى سنة ست عشرة ولنذكر ما يتعلق بهاتين الفتنتين على سبيل الاختصار لان كلا منهما مذكورتفصيلا في التواريخ وأفرد كل منهما بتأليف رسائل مخصوصة أما فتنة الوهابية فكان ابتداء القتال فيما بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد وهو النائب من جهة السلطنة العلية على الاقطار الحجازية وابتداء

القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والالف وكان ذلك في مدة سلطنة مولانا السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد وأما ابتداء أول ظهور الوهابية فكان قبل ذلك بسنين كثيرة وكانت قوتهم وشوكتهم في بلادهم أولا ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم وكان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بني تميم وكان من المعمرين فكاد يعد من المنظرين لانه عاش قريب مائة سنة حتى انتشر عنه ضلالهم كانت ولادته سنة ألف ومائة وإحدى عشرة وهلاكه سنة ألف ومائتين وست وأرخه بعضهم بقوله (بدا هلاك الخبيث) ١٢٠٦

وكان في ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان أبوه رجلا صالحا من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أنه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزغاته في كثير من المسائل وكانوا يوبخونه ويحذرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذي أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك الى تكفير المؤمنين فزعم أن زيارة النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به وبالانبياء والاولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك وأن نداء النبي صلى الله عليه وسلم عند التوسل به شرك وكذا نداء غيره من الانبياء والاولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك وأن من أسند شيأ لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلي يكون مشركا نحو نفعني هذا الدواء وهذا الولي الفلاني عند التوسل به في شيء وتمسك بأدلة لا تنتج له شيأ من مرامه وأتى بعبارات مزورة زخرفها ولبس بها على العوام حتى تبعوه وألف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد واتصل بأمراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة الى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الاعراب وأهل البوادي حتى تبعوهم وصاروا جندا لهم بلا عوض وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال وكان ابتداء ظهور أمره سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين وابتداء انتشاره من بعد خمسين ومائة وألف وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه وكان ممن قام بنصرته وانتشار دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية وكان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبد العزيز بن محمد بن سعود ثم ولده سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود وكان كثير من مشايخ ابن عبد الوهاب بالمدينة يقولون سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه فكان الامر كذلك وزعم محمد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه اخلاص التوحيد والتبري من

الشرك وان الناس كانوا على شرك من منذ ستمائة سنة وانه جدد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وكقوله تعالى ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك وكقوله تعالى والذين يدعون من لا يستجيب لهم الى يوم القيامة وأمثال هذه الآيات في القرآن كثيرة فقال محمد بن عبد الوهاب من استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الانبياء والاولياء والصالحين أو ناداه او سأله الشفاعة فانه مثل هؤلاء المشركين ويدخل في عموم هذه الآيات وجعل زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء والاولياء والصالحين مثل ذلك وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الاصنام ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى قال فان المشركين ما اعتقدوا في الاصنام أنها تخلق شيأ بل يعتقدون ان الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فما حكم الله عليهم بالكفر والاشراك الا لقولهم ليقربونا الى الله زلفى فهؤلاء مثلهم ومما ردوا به عليه في الرسائل المؤلفة للرد عليه ان هذا استدلال باطل فان المؤمنين ما اتخذوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الاولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله بل هم يعتقدون انهم عبيد لله مخلوقون ولا يعتقدون انهم مستحقون العبادة وأما المشركون الذين نزلت فيهم هذه الآيات فكانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الالوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية وان كانوا يعتقدون انها لا تخلق شيأ وأما المؤمنون فلا يعتقدون في الانبياء والاولياء استحقاق العبادة والالوهية ولا يعظمونهم تعظيم الربوبية بل يعتقدون انهم عباد الله وأحباؤه الذين اصطفاهم واجتباهم وببركتهم يرحم عباده فيقصدون بالتبرك بهم رحمة الله تعالى ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة فاعتقاد المسلمين ان الخالق الضار النافع المستحق للعبادة هو الله وحده ولا يعتقدون التأثير لاحد سواه وان الانبياء والاولياء لا يخلقون شيأ ولا يملكون ضرا ولا نفعا وانما يرحم الله العباد ببركتهم فاعتقاد المشركين استحقاق أصنامهم العبادة والالوهية هو الذي أوقعهم في الشرك لا مجرد قولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله لانهم لما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تستحق العبادة وهم يعتقدون استحقاقها العبادة قالوا معتذرين ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فكيف يجوز لابن عبد الوهاب ومن تبعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الاصنام فجميع الآيات المتقدمة وما كان مثلها خاص بالكفار المشركين ولا يدخل فيه أحد من المؤمنين روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الخوارج انهم انطلقوا الى آيات

نزلت في الكفار فحملوها على المؤمنين وفي رواية عن ابن عمر أيضاً انه صلى الله عليه وسلم قال أخوف ما أخاف على أمتي رجل يتأول القرآن يضعه في غير موضعه فهو وما قبله صادق على هذه الطائفة ولو كان شيء مما صنعه المؤمنون من التوسل وغيره شركاً ما كان يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها ففي الأحاديث الصحيحة انه صلى الله عليه وسلم كان من دعائه اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وهذا توسل لا شك فيه وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه ويأمرهم بالاتيان به وبسط ذلك طويل مذكور في كتب السنة وفي الرسائل التي في الرد على ابن عبد الوهاب وصح عنه انه صلى الله عليه وسلم لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ألحدها صلى الله عليه وسلم في القبر بيده الشريفة وقال اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والانبياء الذين من قبلي انك أرحم الراحمين وصح انه صلى الله عليه وسلم سأله أعمى أن يرد الله عليه بصره بدعائه فأمره بالطهارة وصلاة ركعتين ثم يقول اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك الى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه في ففعل فرد الله عليه بصره وصح ان آدم عليه السلام توسل بنبينا صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة لانه لما رأى اسمه صلى الله عليه وسلم مكتوباً على العرش وعلى غرف الجنة وعلى جباه الملائكة سأل عنه فقال الله له هذا ولد من أولادك لولاه ما خلقتك فقال اللهم بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد فنودي يا آدم لو تشفعت الينا بمحمد في أهل السماء والارض لشفعناك وتوسل عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنه لما استسقى للناس وغير ذلك مما هو مشهور فلا حاجة الى الاطالة بذكره والتوسل الذي في حديث الاعمى قد استعمله الصحابة والسلف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وفيه لفظ يا محمد وذلك نداء عند التوسل ومن تتبع كلام الصحابة والتابعين يجد شيئاً كثيراً من ذلك كقول بلال بن الحرث الصحابي رضي الله عنه عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله استسق لامتك وكم من نداء ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور وممن ألف في الرد على ابن عبد الوهاب أكبر مشايخه وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي مؤلف حواشي شرح ابن حجر على متن بافضل فقال من جملة كلامه يا ابن عبد الوهاب اني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين فان سمعت من شخص انه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله فعرفه الصواب وأبن له الادلة على انه لا تأثير لغير الله فان أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك الى تكفير السواد الاعظم من المسلمين وأنت شاذ عن السواد الاعظم فنسبة الكفر الى من شذ عن السواد الاعظم أقرب لانه اتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية اهـ وأما زيارة قبر النبي صلى

الله عليه وسلم فقد فعله الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف والخلف وجاء في فضلها أحاديث أفردت بالتآليف ومما جاء في النداء لغير الله تعالى من غائب وميت وجماد قوله صلى الله عليه وسلم اذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادِ ياعباد الله احبسوا فان لله عبادا يجيبونه وفي حديث آخر اذا أضل أحدكم شيأ أو أراد عونا وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل ياعباد الله أعينوني وفي رواية أغيثوني فان لله عبادا لا ترونهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سافر فأقبل الليل قال يا أرض ربي وربك الله وكان صلى الله عليه وسلم اذا زار القبور قال السلام عليكم يا أهل القبور وفي التشهد الذي يأتي به كل مسلم في كل صلاة صورة النداء في قوله السلام عليك أيها النبي والحاصل ان النداء والتوسل ليس في شيء منهما ضرر الا اذا اعتقد التأثير لمن ناداه أو توسل به ومتى كان معتقدا ان التأثير لله لا لغير الله فلا ضرر في ذلك وكذلك اسناد فعل من الافعال لغير الله لا يضر الا اذا اعتقد التأثير ومتى لم يعتقد التأثير فانه يحمل على المجاز العقلي كقوله نفعني هذا الدواء أو فلان لولي فهو مثل قوله أشبعني هذا الطعام وأرواني هذا الماء وشفاني هذا الدواء فمتى صدر ذلك من مسلم فانه يحمل على الاسناد المجازي والاسلام قرينة كافية في ذلك فلا سبيل الى تكفير أحد بشيء من ذلك ويكفي هذا الذي ذكرناه حجة في الرد على ابن عبد الوهاب ومن أراد بسط الكلام فليرجع الى الرسائل المؤلفة في ذلك وقد لخصت مافيها في رسالة مختصرة فلينظرها من أرادها ولما قام ابن عبد الوهاب ومن اعانه بدعوتهم الخبيثة التي كفروا بسببها المسلمين ملكوا قبائل الشرق قبيلة بعد قبيلة ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريبا من الشام فان ملكهم وصل الى المزيريب وكانوا في ابتداء أمرهم أرسلوا جماعة من علمائهم الى الحرمين ظنا منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب والمين فلما وصلوا الى الحرمين وذكروا للعلماء الحرمين عقائدهم وماتمسكوا به رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ونظروا الى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات فبعد ان أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهم بتلك العقائد ليشتهر بين الناس أمرهم فيعلم بذلك الأول والآخر وكان ذلك في مدة امارة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفي سنة خمس وستين ومائة وألف وأمر بحبس أولئك الملاحدة فحبسوا وفر بعضهم الى الدرعية فأخبرهم بما شاهدوا فازدادوا عتوا وتكبرا وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلين تحت طاعة أمير مكة ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب

ابن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد وكان ابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والالف ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة قتل فيها خلائق كثيرون ولم يزل أمرهم يقوى ويدعهم ينتشر الي أن دخل تحت طاعتهم أكثر القبائل والعربان الذين كانوا تحت طاعة أمير مكة وفي سنة سبع عشرة بعد المائتين والالف ساروا بالجيوش كثيرة حتي نازلوا الطائف وحاصروا أهله في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ثم تملكوه وقتلوا أهله رجالا ونساء وأطفالا ولا نجا منهم الا القليل ونهبوا جميع أموالهم ثم أرادوا المسير الى مكة فعلموا أن مكة في ذلك الوقت فيها كثير من الحجاج ويقدم اليها الحاج الشامي والمصري فيخرج الجميع لقتالهم فمكثوا في الطائف الى أن انقضي شهر الحج وتوجه الحجاج الى بلادهم ساروا بجيوشهم يريدون مكة ولم يكن للشريف غالب قدرة على قتال جيوشهم فنزل الى جدة فخاف أهل مكة أن يفعل الوهابية معهم مثل ما فعلوا مع أهل الطائف فأرسلوا اليهم وطلبوا منهم الامان لاهل مكة فأعطوهم الامان ودخلوا مكة ثامن محرم من السنة الثامنة عشر بعد المائتين والالف ومكثوا أربعة عشر يوما يستتيبون الناس ويجددون لهم الاسلام على زعمهم ويمنعونهم من فعل ما يعتقدون انه شرك كالتوسل وزيارة القبور ثم ساروا بجيوشهم الي جدة لقتال الشريف غالب فلما أحاطوا بجدة رمي عليهم بالمدافع والقنابل فقتل كثيرا منهم ولم يقدروا على تملك جدة فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا الى بلادهم وجعلوا لهم عسكرا بمكة وأقاموا لهم أميرا بها وهو الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب وانما قبل أمرهم ليرفق بأهل مكة ويدفع ضرر أولئك الاشرار عنهم وفي شهر ربيع الاول من السنة المذكورة سار الشريف غالب من جدة ومعه والى جدة من طرف السلطنة العلية وهو شريف باشا ومعهم العساكر فوصلوا الى مكة وأخرجوا من كان بها من عسكر الوهابية ورجعت امارة مكة للشريف غالب ثم بعد ذلك تركوا مكة واشتغلوا بقتال كثير من القبائل وصار الطائف بأيديهم وجعلوا عليه أميرا عثمان المضايفي نصيرهم وبعض جنودهم يقاتلون القبائل التي في أطراف مكة والمدينة ويدخلونهم في طاعتهم حتي استولوا عليهم وعلى جميع الممالك التي كانت تحت طاعة أمير مكة فتوجه قصدهم بعد ذلك للاستيلاء على مكة فساروا بجيوشهم سنة عشرين وحاصروا مكة وأحاطوا بها من جميع الجهات وشددوا الحصار عليها وقطعوا الطرق ومنعوا الميرة عن مكة فاشتد الحصار على أهل مكة حتي أكلوا الكلاب لشدة الغلاء وعدم وجود القوت فاضطر الشريف غالب الى الصلح معهم وتأمين أهل مكة بتوسط أناس بينه وبينهم فعقدوا الصلح على شروط فيها رفق بأهل مكة فمن تلك الشروط أن امارة مكة تكون له فتم الصلح ودخلوا مكة في أواخر ذي القعدة سنة عشرين وتملكوا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وانتهبوا الحجرة وأخذوا ما فيها من الاموال

وفعلوا أفعالا شنيعة وجعلوا على المدينة أميرا منهم مبارك بن مضيان واستمر حكمهم في الحرمين سبع سنين ومنعوا دخول الحج الشامي والمصري مع المحامل مكة وصاروا يصنعون للكعبة المعظمة ثوبا من العباء القيلان الاسود وأكرهوا الناس على الدخول في دينهم ومنعوهم من شرب التنباك ومن فعل ذلك واطلعوا عليه عزروه بأقبح التعزير وهدموا القبب التي على قبور الاولياء وكانت الدولة العثمانية في تلك السنين في ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى ثم صدر الامر السلطاني لصاحب مصر محمد علي باشا بالتجهيز لقتال الوهابية وكان ذلك في سنة ست وعشرين ومائتين وألف فجهز محمد علي باشا جيشا في عساكر كثيرة جعل عليهم بفرمان سلطاني ولده طوسون باشا فخرجوا من مصر في رمضان من السنة المذكورة ولم يزالوا سائرين برا وبحرا حتى وصلوا الى ينبع فملكوه من الوهابية ثم لما وصلت العساكر الى الصفرا والجديدة وقع بينهم وبين العرب الذين في الحربية قتال شديد بين الصفرا والجديدة وكانت تلك القبائل كلها في طاعة الوهابي وانضم اليها قبائل كثيرة فهزموا ذلك الجيش وقتلوا كثيرا منهم وانتهبوا جميع ما كان معهم وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ست وعشرين ولم يرجع من ذلك الجيش الى مصر الا القليل فجهز جيشا غيره سنة سبع وعشرين وعزم محمد علي باشا على التوجه الى الحجاز بنفسه وتوجهت العساكر قبله في شعبان في غاية القوة والاستعداد وكان معهم من المدافع ثمانية عشر مدفعا وثلاثة قنابر فاستولت العساكر على ما كان بيد الوهابية وملكوا الصفرا والجديدة وغيرهما في رمضان بلا قتال بل بالمخادعة ومصانعة العرب باعطاء الدراهم الكثيرة حتى انهم أعطوا شيخ مشايخ حرب مائة ألف ريال وأعطوا شيخا من صغار مشايخ حرب أيضا ثمانية عشر ألف ريال ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر وكان ذلك كله بتدبير شريف مكة الشريف غالب وهو في الظاهر تحت طاعة الوهابي وأما المرة الاولى التي هزموا فيها فلم يكونوا كاتبوا الشريف غالب في ذلك حتى يكون الامر بتدبيره ودخلت العساكر المدينة المنورة في أواخر ذي القعدة ولما جاءت الاخبار الى مصر صنعوا زينة ثلاثة أيام وأكثروا من الشنك وضرب المدافع وأرسلوا بشائر لجميع ملوك الروم واستولت العساكر السائرة من طريق البحر على جدة في أوائل المحرم من سنة ثمان وعشرين ثم طلعوا الى مكة واستولوا عليها أيضا وكان ذلك بلا قتال بتدبير الشريف غالب سرا ولما وصلت العساكر الى جدة فر من كان بمكة من عساكر الوهابية وأمرائهم وكان سعود أمير الوهابية حج في سنة سبع وعشرين ثم ارتحل الى الطائف ثم الى الدرعية ولم يعلم باستيلاء العساكر السلطانية على المدينة الا بعد ذلك ثم لما وصل الى الدرعية علم باستيلائهم على مكة ثم الطائف

ولما وصلت العساكر الى جدة ومكة فر من الطائف أميرها عثمان المضايفي وفر من كان بها من عساكر الوهابية وأمرائهم وفي شهر ربيع الاول من سنة ثمان وعشرين أرسل محمد علي باشا مبشرين الى دار السلطنة ومعهم مفاتيح وكتبوا اليهم أنها مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة وأمامها البخورات في مجامر الذهب والفضة وخلفهم الطبول والزمور وعملوا لذلك زينة وشنكا ومدافع وخلعوا على من جاء بالمفاتيح وزادوا في رتبة محمد علي باشا وبعثوا له أطواقا وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده وفي شهر شوال سنة ثمان وعشرين توجه محمد علي باشا بنفسه الى الحجاز وقبل توجهه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفي الذي كان أميرا على الطائف للوهابية وكان من أكبر أعوانهم وأمرائهم فزنجره بالحديد وبعثه الى مصر فوصل في ذي القعدة بعد توجه الباشا الى الحجاز ثم أرسل الى دار السلطنة فقتلوه ووصل محمد علي باشا في ذي القعدة الى مكة وقبض على الشريف غالب بن مساعد وبعثه الى دار السلطنة وأقام لشرافة مكة ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور بن مساعد وفي شهر محرم من سنة تسع وعشرين بعثوا الى دار السلطنة مبارك بن مضيان الذي كان أميرا على المدينة المنورة للوهابية فطافوا به في القسطنطينية في موكب ليراه الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه على باب السرايا وفعل مثل ذلك بعثمان المضايفي وأما الشريف غالب فأرسلوه الى سلانيك وبقي بها مكرما الى أن توفي سنة احدى وثلاثين ودفن بها وبني عليه قبة تزار ومدة امارته على مكة ست وعشرون سنة ثم ان محمد علي باشا وجه كثيرا من العساكر الى تربة وبيشة وبلاد غامد وزهران وبلاد عسير لقتال طوائف الوهابية وقطع دابرهم ثم سار بنفسه في أثرهم في شعبان سنة تسع وعشرين ووصل الى تلك البلاد وقتل كثيرا منهم وأسر كثيرا وخرب ديارهم وفي شهر جمادى الاولى سنة تسع وعشرين مات سعود أمير الوهابية وقام بالملك بعده ولده عبد الله ورجع محمد علي باشا من تلك الديار التي وصلها من ديار الوهابية عند قرب الحج وحج ومكث بمكة الى رجب سنة ثلاثين ثم توجه الى مصر وترك بمكة حسن باشا ووصل الباشا الى مصر منتصف رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف فتكون اقامته بالحجاز سنة وسبعة أشهر ولم يرجع الى مصر الا بعد أن مهد أمور الحجاز وأباد طوائف الوهابية التي كانت منتشرة في جميع قبائل الحجاز والشرق وبقي منهم بقية بالدرعية أميرهم عبد الله بن سعود فجهز محمد علي باشا اليه جيشا وأرسله تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا وكان عبد الله بن سعود قبل ذلك تكاتب مع طوسون باشا بن محمد علي باشا حين كان بالمدينة وعقد معه صلحا على بقاء امارته ودخوله تحت طاعة محمد علي باشا فلم يرض محمد علي باشا بهذا الصلح فجهز ولده ابراهيم باشا وجعل أمر العساكر اليه وكان ابتداء ذلك في

أواخر سنة احدى وثلاثين فوصل الى الدرعية سنة ثنتين وثلاثين ونازل بجيوشه عبد الله بن سعود ووقع بينهما وقائع وحروب يطول ذكرها الى أن استولى على عبد الله بن سعود في ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين ولما جاءت الاخبار الى مصر ضربوا المدافع وعملوا شنكا وزينوا مصر وقراها سبعة أيام وكان محمد علي باشا له اهتمام كبير في قتال الوهابية وأنفق في ذلك خزائن من الاموال حتى أخبر بعض من كان يباشر خدمته أنهم دفعوا في دفعة من الدفعات لاجرة تحميل بعض الذخائر خمسة وأربعين ألف ريال هذا في مرة من المرات كان ذلك الحمل من الينبع الى المدينة عن أجرة كل بعير ست ريال دفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير المدينة عند وصول الحمل ثم من المدينة الى الدرعية كان أجرة ثلث الحملة فقط مائة وأربعين ألف ريال وقبض ابراهيم باشا على عبد الله بن سعود وبعث به وكثير من أمرائهم الى مصر فوصل في سابع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وصنعوا له موكبا حافلا ليراه الناس واركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه ولما دخل على محمد علي باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له الباشا ما هذه المطاولة فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ابني ابراهيم باشا قال ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما قدره الله تعالى فقال له الباشا أنا أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف الى بيت اسماعيل باشا ببولاق وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال له الباشا ما هذا فقال هذا ما أخذه أبي من الحجرة أصحبه معي الى السلطان فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم ير الراؤن أحسن منها ونحو ثلاثمائة حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وشريط من الذهب فقال له الباشا الذي أخذتموه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا فقال هذا الذي وجدته عند أبي فانه لم يستأصل كل ما كان في الحجرة لنفسه بل أخذه كذلك كبار العرب وأهل المدينة وأغوات الحرم وشريف مكة فقال الباشا صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك ثم أرسلوا عبد الله بن سعود الى دار السلطنة ورجع ابراهيم باشا من الحجاز الى مصر في شهر المحرم من سنة خمس وثلاثين بعد أن أخرب الدرعية خرابا كليا حتى تركوا سكناها ولما وصل عبد الله بن سعود الى دار السلطنة في شهر ربيع الاول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضا في نواح متفرقة هذا حاصل ما كان في قصة الوهابي بغاية الاختصار ولو بسط الكلام في كل قضية لطال وكانت فتنتهم من المصائب التي أصيب بها أهل الاسلام فانهم سفكوا كثيرا من الدماء وانتهبوا كثيرا من الاموال وعم ضررهم وتطاير شررهم فلا حول ولا قوة الا بالله وكثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فيها التصريح بهذه الفتنة كقوله صلى الله عليه وسلم يخرج أناس

من قبل المشرق يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق وهذا الحديث جاء بروايات كثيرة بعضها في صحيح البخاري وبعضها في غيره لا حاجة لنا الى الاطالة بنقل تلك الروايات ولا لذكر من خرجها لانها صحيحة مشهورة ففي قوله سيماهم التحليق تصريح بهذه الطائفة لانهم كانوا يأمرون كل من اتبعهم أن يحلق رأسه ولم يكن هذا الوصف لاحد من طوائف الخوارج والمبتدعة الذين كانوا قبل زمن هؤلاء وكان السيد عبد الرحمن الاهدل مفتي زبيد يقول لا حاجة الى التأليف في الرد على الوهابية بل يكفي في الرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم سيماهم التحليق فانه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم واتفق مرة ان امرأة أقامت الحجة على ابن عبد الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها فقالت له حيث انك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغي لك ان تأمر الرجل بحلق لحيته لان شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جوابا ومما كان منهم أنهم يمنعون الناس من طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم مع أن أحاديث شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لامته كثيرة متواترة وأكثر شفاعته لاهل الكبائر من أمته وكانوا يمنعون من قراءة دلائل الخيرات المشتملة على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ذكر كثير من أوصافه الكاملة ويقولون ان ذلك شرك ويمنعون من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم على المنابر بعد الاذان حتى ان رجلا صالحا كان أعمى وكان مؤذنا وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاذان بعد ان كان المنع منهم فأتوا به الى ابن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل ولو تتبعت ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والاوراق وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر قتل الصناجق المماليك المتغلبين على مصر ﴾

اعلم أن المماليك المذكورين كانوا متغلبين على مصر لما تمكن محمد علي باشا من مملكة المصرية اختلط عليهم وقتلهم سنة ست وعشرين ومائتين وألف وكانوا امراء وعساكرهم وأتباعهم كثيرين ومازالوا يعارضون محمد علي باشا في كثير من شؤنه ودواهيه ويتحذر منهم ثم جاء الامر السلطاني بتوجهه الى الحجاز لمحاربة الوهابي فطلب من الدولة أن يأتيه فرمان بولاية ولده طوسون باشا باشا على عسكر تلك الجهة يريد أن يرسلها الى الحجاز فجاءه فرمان من الدولة بذلك فجعل ذلك وسيلة الى جمع الصناجق وعساكرهم في القلعة لقراءة الفرمان المذكور وخروجهم بالالاي الحافل مع ابنه المذكور الى المرضى خارج مصر لاجل أن ينتصب خارج مصر عند قبة العزب فنبه على العساكر والصناجق في الحضور الى القلعة في اثنا من شهر صفر في ساعة أربعة من النهار ورتب في القلعة عساكر مخصوصة وجعلهم في الابراج والمكامن التي في القلعة وأمرهم بالابواب مدة تمهادا

استكمل دخولهم بغلق الباب وأمر العساكر الخاصة به الذين رتبهم في القلعة أن يقتلوا كل من دخل منهم بعد غلق باب القلعة ففعلوا ذلك وصار القتل فيهم من وقت الضحى الى غروب الشمس فقتل منهم خلقا كثيرا ثم تتبع الباقين منهم في مصر وبقية الارياف بالقتل حتى أبادهم عن آخرهم وذلك شئ كثير وعدد وفير والقصة طويلة لكن هذا حاصلها وتم له انتظام ملكه من غير معارض بعد ان قتلهم وكانت ولايته مصر سنة عشرين واستمر فيها الى سنة أربع وستين ومائتين وألف وكان في الاصل من العساكر الذين جاؤا مع يوسف باشا لما أخرج الفرنسيس من مصر سنة ست عشرة وأصله من بلاد قوله وجنسه من الارنؤود فلما كان محاربة يوسف باشا الفرنسيس قاتل معهم من قاتل واشتهر بالشجاعة في تلك الحروب ثم ترقى في مدة قصيرة الى رتبة قائم مقام الى أن تقلد زمام أحكام الديار المصرية سنة تسع عشرة ومائتين وألف ولما أخرج الفرنسيس من مصر ودخلها يوسف باشا ثم سافر يوسف باشا وأقامت الدولة وزيرا لمصر والياعليها الوزير محمد خسرو باشا واستمر الى المحرم سنة ثمان عشرة فوقع بينه وبين العساكر فتنة بسبب طلب مرتباتهم وجوامكهم واتسعت الفتنة حتى أخرجوا الوزير المذكور من مصر واتفقوا على تولية طاهر باشا قائم مقام بمصر الى أن يأتي الامر من الدولة بتولية غيره فألبسه القاضي فروا سمورا وكان الرئيس الثائر في تلك الفتنة محمد علي باشا ثم بعد ست وعشرين يوما ثاروا على طاهر باشا فقتلوه وكان قد حضر من دار السلطنة الى مصر أحمد باشا واليا على المدينة المنورة فولاه أهل مصر عليهم بعد قتل طاهر باشا فلم يذعن لذلك محمد علي وقال ان أحمد باشا لم يكن واليا على مصر وانما هو وال على المدينة المنورة وانما وليناه طاهر باشا لكونه كان محافظا للديار المصرية من الدولة العلية فلا شبهة في التولية وأما أحمد باشا فليس له تعلق بمصر فهو يخرج خارج مصر ويجهز عساكره ويتوجه الى محل ولايته ثم اشتدت الفتنة وانتشرت بين العساكر الى ان أخرجوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته بمصر يوما وليلة ثم نادي مناد بتسكين الناس وتأمينهم وان الامر يكون لابراهيم بيك كبير الصناجق وحاكم الولاية وأشركوا معه محمد علي وقبضوا علي الدفتردار وقطعوا رأسه ثم قامت العساكر على ابراهيم بيك لطلب جوامكهم وانتشرت الفتنة وأرادوا قتل ابراهيم بيك ونهبوا داره فهرب فقوى أمر محمد علي وصار الحل والعقد بيده ثم جاءت الاخبار من دار السلطنة بولاية مصر لاحمد باشا خورشيد حاكم الاسكندرية ووصل الى مصر في ذي الحجة سنة ثمان عشرة وبعد وصوله طلب من الناس أموالا جزيلة تكون معجلة عما يلزم الناس من خراج مصر فاشتد الامر على الناس وارتفعت الاسعار وأغلقت الدكاكين والاسواق واجتمع الاطفال بالجامع الازهر وصعدوا الى المنابر يصرخون ويتضرعون ويقولون يالطيف فسمعهم الباشا وهو في القلعة فأرسل الى نقيب الاشراف انا قدر فعنا عن الناس

ما كنا طلبناه وأما ابراهيم بيك ومن معه من الامراء الذين أخرجوهم من مصر فانهم جمعوا جموعا من الاريان وجاؤا لقتال الباشا ومن معه بمصر فخرج اليهم بالعساكر ووقع القتال واشتد الامر وتقطعت الطرق وشرح ذلك كله يطول ثم جاء أمر من الدولة لمحمد علي بولاية جدة فالبسه الباشا فرواً لما خرج يريد الركوب ثارت على محمد علي العساكر وطلبوا منه العلوفة فقال لهم هاهو الباشا عندكم وركب هو الى داره وصار ينثر الذهب على الناس في الطريق وأمسك العساكر أحمد باشا ومنعوه من الركوب الى بعد المغرب ثم لاطفهم وركب وأشيع بين الناس انهم حبسوه وهو قد ذهب الى القلعة ثم أشيع أنه يريد وضع فردة على الناس فهاج الناس واجتمع كثير من الناس عند بيت القاضي وصاروا يصرخون بقولهم شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ومنهم من يقول يامتجلي أهلك العثملي ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل ومنهم من يقول لانريد هذا الباشا حاكما علينا لابد من عزله وذهبوا الى بيت محمد علي يقولون ذلك فقال لهم ومن تريدون أن يكون واليا عليكم فقالوا لانرضى الا بك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولا ثم رضي فأحضروا له كركا وقام السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ الشرقاوي فألبساه ونادوا بذلك في البلد وذلك يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف ونادوا في مصر بولايته وأرسلوا الخبر الى أحمد باشا فقال اني متولٍ من السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر السلطان فكتب الناس سؤالا وكتب عليه المفاتي وحكموا بعزله وصحة تولية محمد علي باشا وحضروا في بيت القاضي فحكم بمقتضى ذلك واستمر أحمد باشا في القلعة وأراد الحرب والقتال مع أهل مصر فحاصروه في القلعة أياما الى أن أخرجوه منها وحصل بينه وبين العلماء كلام كثير وقال لهم كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فقالوا له أولو الامر هم العلماء وجرت العادة من القديم ان أهل البلد يعزلون الولاة حتى السلطان اذا جار عليهم يخلعونه والقصة طويلة جدا يطول الكلام بذكرها وطال الامر بينهم الى أن جاء الامر السلطاني بولاية محمد علي باشا واقرار مافعله العلماء وأهل مصر في شهر ربيع الثاني فتم الامر لمحمد علي باشا حتى كان من أمره ما كان وأكثر ماتقدم ذكره من القيام على الباشوات منذ تولى مدة هذه الفتنة كان بتدبير محمد علي باشا وترتيبه ولم يزل في ترق وعلو وارتفاع حتى حارب السلطان محمود وملك عكا والشام فلما توفي السلطان محمود انعقد الصلح بينه وبين السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وترك الشام والحجاز وأعطوه ولاية الاقطار المصرية مؤبدة له ولاولاده وجعلوا عليه خراجا معلوما يدفعه كل سنة واستمر الى سنة اربع وستين فأصابه مرض اختل به عقله فولي ابنه ابراهيم باشا في حياة أبيه فكانت مدة ولاية محمد علي باشا نحو خمس واربعين سنة

واستمر ابنه ابراهيم باشا نحو سنة ثم توفي فولي عباس باشا ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا واستمر الى سنة سبعين فتوفي مقتولا ثم ولي سعيد باشا ابن محمد علي باشا وتوفي سنة تسع وسبعين ثم ولي اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا وخلع سنة ست وتسعين وولي ابنه محمد توفيق باشا وهو الموجود الآن وانما ذكرنا هذا كله استطرادا تتميما للفائدة ليتصل الكلام بعضه ببعض

﴿ ذكر استيلاء الفرنسيس على مصر ﴾

كانت مصر قبل أن تملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضا من الجراكسة ومن غيرهم من الترك فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقين وفي كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة وكان منهم أمراء ورؤساء فصارت لهم عصبية قوية فتغلبوا على الاملاك والاراضي والاطيان والمحصولات والخراجات والجمارك وكانوا اذا جاء الباشا المتولي على مصر من الدولة العلية ينقادون له في الظاهر وفي الباطن هم متغلبون فكانوا يبقونه اذا أرادوا ويعزلونه اذا أرادوا ولا يصل الى الدولة العلية من محصولات مصر الا القليل والباقي بأيديهم وكان لهم رؤساء وعلى الجميع أمير كبير تحت أمر الوزير المتولي من السلطنة صورة وظاهرا فقط فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود فيتعدون كثيرا على تجارهم لا سيما على تجارهم فكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى فطمع الفرنسيس في تملك مصر وابادة هؤلاء المماليك المتغلبين وأوهموا على المسلمين انهم انما يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها للدولة العلية فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير اطلاع أحد على ذلك وجاءهم بغتة فتملكها على الوجه الآتي ذكره وكان ذلك في شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وكان الوزير المتولي على مصر من السلطنة العلية في تلك السنة هو أبو بكر باشا الطرابلسي كانت ولايته من سنة احدى عشرة ومائتين وألف وكان للمماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما ابراهيم بيك ومراد بيك كان تحت طوعهما جميع الصناجق والعساكر فلما اشاعت الاخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج من مصر الوزير المتولي من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره وتوجه الى غزة ثم منها الى دار السلطنة توجه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة وبقيت مصر بيد ابراهيم بيك ومراد بيك وصناجقهما والامراء والعساكر التي تحت أيديهما وكان أهل مصر عند خروج أبي بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون اشاعات عن مسير الفرنسيس الى تملك مصر ولم يقفوا على حقيقتها فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وصلت مراكب للفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات

الحرب وتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الاسكندرية ولم يكن أهل الاسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم لاسيما وقد جاؤهم بغتة فقاتلوهم قليلا ثم طلبوا الامان منهم فامنوهم ودخلوا الاسكندرية وملكوها فلما جاء الخبر الى مصر أخذ ابراهيم بيك ومراد بيك في الاستعداد لهم وابرزوا جيشا من العسكر الى موضع يقال له الجسر الاسود واخرجوا المدافع وآلات الحرب واضطربت الناس بمصر وكثر الهرج والمرج وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر العراق ثم جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه وبعد ذلك كلام كثير من جملته أني أعبد الله واحترم نبيه والقرآن العظيم وأنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون واثبات ذلك انهم نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصاري على محاربة أهل الاسلام ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الاسلام وكل ذلك من الكلام الذي يوهمون به على أهل الاسلام انهم موحدون لله تعالى وانهم يحبون أهل الاسلام ويحبون سلطانهم وانهم أعاجيبوا لنصرة سلطان الاسلام وابعاد المماليك المتغلبين على ممالكه ودفع ظلمهم عن الرعية ومن جملة ما في ذلك الكتاب خطابا للمسلمين وما جئتكم لازالة دينكم وانما قدمت اليكم لاخلص حقكم من يد الظالمين الصناجق المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بانواع الايذاء والتعدي ويأخذون أموالهم ويفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذي لا يوجد في كرة الارض كلها مثاله فأما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم بانقضاء دولتهم واني أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله تعالى وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العلية فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها وسابقا كان في الاراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والائمة وأعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون ومع ذلك فالفرنساوية في كل وقت من الاوقات

صار واحبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم طوبي ثم طوبي لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم طوبى أيضا الذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الي الخلاص ولا يبقى منهم أثر وان جميع القري الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرعسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وأكحل وأحمر وان كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار وان كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضا تنصب صناجق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه والواجب علي المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالي البلد ان يبقى في مسكنه مطمئنا وتكون الصلاة تامة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله تعالي علي انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثماني أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية وعلى المشايخ في كل بلد أن يختموا حالا على جميع الارزاق والبيوت والاملاك التي للمماليك وعليهم الاجتهاد التام أن لا يضيع أدني شئ منها وفي التاسع والعشرين من محرم قدموا الي مصر فاستقبلهم عسكر مصر عند الرحمانية وهزموا الي الجيزة والتقوا عند بشقيل وحصلت مقتلة عظيمة وقدر الله ان المسلمين هزموا انفر مراد بيك ومن معه الي الصعيد وفر ابراهيم بيك ومن معه في البر الشرقي الى الشام وقيل لم يقع قتال كثير وانما هي مناوشة من طلائع العساكر بحيث لم يقتل الا القليل من الفريقين وكانت مراكب في البحر لمراد بيك فاحترقت بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحترق بها رئيس الطبجية واحترق ما فيها من المحاربين فلما عاين ذلك مراد بيك دخله الرعب وولي منهزما وترك الاثقال والمدافع التي في البر وتبعته العساكر وركب ابراهيم بيك الي ساحل بولاق طرف البر الشرقي ورجع الناس منهزمين طالبين مصر فاجتمع الباشا والعلماء ورؤس الناس يتشاورون في هذا الحادث العظيم فاتفق رأيهم علي عمل متاريس من بولاق الي شبرا ويتولي الاقامة ببولاق ابراهيم بيك وكشافه ومماليكه وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث يجتمعون بالازهر كل يوم ويقرؤن البخاري وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم وكذا أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الاسماء ويوم الاثنين حضر مراد بيك الي برانبابة

وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة الى بشتيل وتولى ذلك هو وصناجقه وامراؤه وكان معه في ذلك علي باشا الطرابلسي ونعوم باشا واحضروا المراكب الكبار والغلايين التي انشأها بالجيزة واوقفها على ساحل انبابة وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الغربي والشرقي مملوأين بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة ومع ذلك فقلوب الامراء لم تطمئن بذلك فانهم من وصول الخبر الاول لهم من الاسكندرية شرعوا في نقل امتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التي لا يعرفها احد واستمروا طول الليالي ينقلون الامتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وارسلوا البعض منها لبلاد الارياف واخذوا ايضا في تشهيل الاحمال واستحضار دواب الشيل واسباب الارتحال فلما رأى اهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الاغنياء واولو المقدرة للهرب ولولا ان الامراء منعوهم من ذلك لما بقي بمصر منهم احد وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس فاغلق الناس الدكاكين والاسواق وخرج الجميع لبولاق فكانت كل طائفة من طوائف اهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما او يجلسون في مكان خراب او مسجد ويرتبون لهم فيمن يصرف لهم ما يحتاجون اليه من الدراهم التي جمعوها ويجعلون فيما عليهم يباشر ذلك وبعض الناس يتطوع على بعض في الانفاق ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والاكل وغير ذلك بحيث ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق موجودهم فلم يشح احد في ذلك الوقت بشيء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر وخرجت الفقراء وارباب الاشاير بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون باذكار مختلفة وصعد السيد عمر مكرم نقيب الاشراف الى القلعة فاخرج بيرق كبير تسميه العامة بيرق النبي صلى الله عليه وسلم فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وامامه وحوله الوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك واما مصر فانها صارت خالية الطرق لا تجد بها سوى النساء في البيوت وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة وغلا سعر البارود والرصاص جدا بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفا والرصاص بتسعين نصفا وغلا اجناس انواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعية بالنبابيت والعصي والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بيك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله تعالى بالنصر واقام غيرهم من الرعية بالبيوت والزوايا والخيام ومحصل الامر ان جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق واقاموا من حين نصب ابراهيم بيك العرضي هناك الى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون الى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون الى بولاق وارسل ابراهيم بيك الى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم ان يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما والاها وكذلك اجتمع عند مراد

بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيمان وأولاد علي والقناوية وغيرهم
وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما
لتعطل الاسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على
بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم وكذلك العرب أغارت على الاطراف والنواحي
وقامت الارياف على ساق يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا وصار قطر مصر من أوله الي آخره
في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر واغارة علي الاموال وافساد زروع وغير ذلك من أنواع
الفساد الذي لا يحصى وطلب أمراء مصر تجار الافرنج الذين بمصر وحبسوهم في القلعة وفي بعض
أماكن غير القلعة من بيوت الامراء وصاروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها
وكذلك يفتشون بيوت النصاري الشوام والاقباط والاروام والكنائس على الاسلحة والعامة
لا ترضى الا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت
هذه الفتنة ثم في كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيس الى مصر وتختلف الناس في الجهة التي
يجيؤن منها فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربي ومنهم من يقول انهم واصلون من الشرقي
ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين وليس لاحد من الامراء همة ان يبعث جاسوسا أو طليعة
تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم الى فناء مصر بل كل من ابراهيم بيك ومراد بيك جمع
عساكره ومكث في مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل
وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس
الي الجسر الاسود وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا
والفلاحين والمجاورة بلادهم لمصر ولكن الاجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم
حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون في ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم
مرتبكون في رؤيتهم مغمورون في غفلتهم وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم وقد
كان الظن بالفرنسيس ان يأتوا من البرين بل أشيع ذلك فلم يأتوا الا من البر الغربي ولما كان وقت
القيلولة ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي وتقدموا الي ناحية بشتيل بلدة مجاورة لانبابة
فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة لرمى
وألى الارتقان وقتل أيوب بيك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بيك الالفي ومماليكهم وتبعهم
طابور من الافرنج نحو الستة آلاف وكان رئيسهم الكبير بونابارته لكنه لم يشهد الوقعة بل حضر
بعد الهزيمة كان بعيدا عن هؤلاء بكثير ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامي
الفريقان بالمدافع وكذلك العسكر المحاربون البحرية وحضر عدة وافرة من عساكر الارنؤد من

دمياط وطلعوا الى انبابة وانضموا الى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغا من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفعوا الاصوات بقولهم يارب يالطيف ويارجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم فكان العقلاء من الناس يأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الصوت والصراخ والنباح فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع وركب طائفة كبيرة من الامراء والاجناد من العرضي الشرقي ومعهم ابراهيم بيك الوالي وشرعوا في التعدية الى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا الى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين من هذا وهب ريح العاصفة واشتد هبوبها وهاج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه مع شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه ثم ان الطابور الذي تقدم لقتال مراد بيك انقسم على ترتيب معلوم عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتابعة والمدافع ترمي واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الاسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس ان الارض تزلزلت والسماء عليها سقطت واستمر الحرب والقتال نحو ثلثي ساعة ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربي فغرق الكثير من الخيالة في البحر لاحاطة العدو بهم وظلام الدنيا والبعض وقع أسيرا في يد الفرنسيس وملكوا المتاريس وفر مراد بيك ومن معه الى الجيزة فصعد الى قصره وقضى بعض أشغاله في نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب الى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والامتعة والاسلحة والفرش ملقاة على الارض ببر انبابة تحت الارض وألقى كثير نفسه في البحر ولما انهزم العسكر الغربي حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب في الحال ابراهيم بيك والامراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الاثقال والخيام كما هي ولم يأخذوا منها شيئاً فأما ابراهيم بيك والامراء فساروا الى جهة العادلية وأما الرعايا فنجوا ومروا ذاهبين الى جهة المدينة ودخلوها أفواجاً أفواجاً وهم جميعاً في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون الى الله تعالى من شر هذا اليوم الصعيب والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب ثم استقر ابراهيم بيك بالعادلية وصار يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الامراء وركبوا النساء على الخيول والبغال والحمير والجمال

والبعض ماش كالجوارى والخدم واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريته والبعض ينجو بنفسه ولا يسئل أحد عن احد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الاكثر وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء متوقعا للمكروه وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الامور والذى أزعج قلوب الناس بالاكثر أن في عشاء تلك الليلة شاع في الناس ان الافرنج عدوا الى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وان أولهم وصل الى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء وكان السبب في هذه الاشاعة ان بعض عسكر مراديك الذين كانوا في الغليون لرسي أنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذى هو فيه وكذلك مراديك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه الى الجهة القبلية فمشوا به قليلا فوقف في الطين لقلة الماء وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضا فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا ازيادة عماهم فيه من الفزع والروع والجزع وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكبرهم ونقيب الاشراف وبعض المشايخ القادرين فلما عاين العامة والرعية ذلك واشتد خوفهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون وأى طريق يذهبون وأى محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون وبيع الحمار الاعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل واستمروا على ذلك بطول ليلة الاحد وصبحها وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر بحيث ان الاموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك لان معظم الاموال عند الامراء والاعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم وغالب مساتير الناس وأهل المقدرة أخرجوا أيضا ما عندهم والذي أقعده العجز وكان عنده ما يعجز عليه حمله من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قاتلوه من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والاعيان فمنهم من رجع عن قريب

وهم الذين تأخروا في الخروج وباتهم ما حصل للسابقين ومنهم من جازف متكلا على كثرته وعزوته
وخفارته فسلم أو عطب وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا
بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين قال الشاهد فما راء كمن سمعا ولما أصبح يوم الاحد المذكور
والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير
من الفارين وهم في أسوء حال من العري والفزع فتبين ان الفرنج لم يعدوا الى البر الشرقي وان الحريق
كان في المراكب المتقدم ذكرها فاجتمع في الازهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم
على ان يرسلوا مراسلة الى الافرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك وأرسلوه صحبة شخص
مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبته فغابا وعادا وأخبرا انهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها
عليه ترجمانه وأنهم أن مضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان الترجمان وأين عظماؤكم
ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش في وجوههم
فقالا نريد أمانا منكم فقال قد أرسلنا لكم سابقا يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم فقالا وأيضا
نريد أمانا لاجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها انا أرسلنا لكم في السابق كتابا
فيه الكفاية وذكرنا لكم اننا ما حضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون الفرانساوية
بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم
بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ونحن في طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصري وأما
العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم مرتاحين ونحو ذلك
من الكلام ثم قال لهم لابد أن المشايخ والشربجية يأتون الينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة
أشخاص عقلاء يدبرون الامور وورد الجواب بذلك فاطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى
الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون الى الجيزة فتلقاهم وصحبتهم وقابلهم المشايخ
الكبار فأعلموه ان المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال لأي شيء يهربون اكتبوا لهم بالحضور
ونعمل لكم ديوانا لاجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور
والامان ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا الى مصر واطمأن برجوعهم الناس وكانوا في
وجل وخوف على غيابهم وأصبحوا ذاهبين الى المشايخ فحضر الشيخ ... الشيخ
الشرقاوي ومشايخ ومن انضم اليهم من الناس الفارين من ناحية بصرة وأما السيد عمر أفندي نقيب
الاشراف فانه لم يطمئن ولم يحضر وكذلك الروزنامجي والافندية وفي ذلك اليوم حضرت
الجمعية وأوباش الناس ونهبوا بيت ابراهيم بيك ومراد بيك وأحرقوهما ونهبوا أيضا عدة من
بيوت الامراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الاثمان

﴿ ذكر دخول الفرنسيس مصر ﴾

وفي يوم الثلاثاء عدت الفرنساوية الي مصر وسكن بونابارته بيت محمد بك الالفي بالازبكية الذي أنشأه الامير المذكور في السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة فما دخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه انما كان يبنيه لامير الفرنسيس وكذلك حصل في بيت حسن كاشف بالناصرية ولما عدي كبيرهم وسكن بالازبكية كما ذكر استمر غالبهم بالبر الآخر ولم يدخل المدينة الا القليل منهم ومشوا في الاسواق من غير سلاح ولا تعدبل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريالا فرانسي ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم فلما رأي منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك من السكر والصابون والدخان والبن وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الاسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى واطمأن الناس

﴿ ذكر ترتيب ديوان لفصل الخصومات ﴾

وفي يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ و الوجاقلية عند قائم مقام مصر عسكر فلما حضروا انتدبوهم في تعين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات فوقع الاتفاق على الشيخ عبدالله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ أحمد العريشي والشيخ يوسف الشبرخيتي والشيخ محمد الدواخلي وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتخدا والقاضي وقلدوا محمد أغا المسلماني أغاة مستحفظان وعلى أغا الشعراوي والي الشرط وحسن أغا أمين احتساب وذلك باشارة أرباب الديوان فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم ان سوقة مصر لا يخافون الا من الاتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذا الفقار كتخدا بك كتخدا بونابرته وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت فقالوا هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس فقال لاى شئ يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها فقالوا هذا أمر لا قدرة لنا على منعه وانما ذلك وظيفة الحكام ثم أمروا بالنداء بالامان وفتح الدكاكين والاسواق والمنع من النهب فلم يسمعوا ولم ينتهوا واستمر غالب الاسواق والدكاكين معطلة والناس غير مطمئنين وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلوقة التي للامراء

ودخلوها وأخذوا منها أشياء وخرجوا منها وتركوها مفتوحة فعند ما يخرجون منها يدخلها طائفة الجيعدية يستأصلون ما فيها ثم ان عسكرهم صارت تدخل المدينة شيأ فشيأ حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا في البيوت ولم يشوشوا على الناس ويأخذون المشتروات زيادة عن ثمنها و بعد أيام طلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال من التجار فأخذوا في تحصيلها بعد مراجعتهم في تخفيفها فلم يفعلوا ونادوا بالامان لنساء الامراء وأمروا كل من عنده شيء من متاع زوجها تأتي به وصالحت زوجة مراديك عن نفسها وأتباعها من نساء الامراء بمائة وعشرين الف ريال واستخرجوا من الخبايا شيأ كثيرا ثم طلبوا من أهل الحرف والاسواق مبلغا من المال يعجزون عنه فاستغاثوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم فلطفوها لهم ولما جاء وقت مولد النبي صلى الله عليه وسلم أمروا بصنعه على المعتاد واعطوا من عندهم اعانة على ذلك ثلاثمائة ريال وصنعوا اشتكا ليلة المولد وجاءت مراكب الانقليز وحاربت مراكب الفرنسيس وأحرقوا لهم مركبا كبيرا واستمر أياما ثم ذهبوا وأما ابراهيم بيك ومراديك فذهبوا الى غزة ثم رجعوا الى جهة الفيوم وفي شهر ربيع الثاني طلبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم ووضعوا عليها قدرا معلوما من الدراهم وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتابا مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم وانهم من المحبين للسلطان وانهم محترمون للقرآن والاسلام ففعلوا وفي عاشر جمادى الاولى جمعوا الناس وقرروا على الاملاك أموالا زيادة عما كان قبل ذلك وهاج عامة الناس ونادوا الجهاد ووقع قتال قتل فيه خلق كثير ثم صار المنادي بالامان ثم تتبعوا كثيرا ممن كان قائما في ثورة الفتنة فقتلوهم وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب في نظامات دواوينهم فهو طويل لا حاجة لذكره وكذا ما كان يجري من الحوادث ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر الى الحجاز قام شيخ عالم مغربي بمكة يقال له محمد الجيلاني واستنفر الناس للجهاد فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا الى الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس ولم يقدروا على استخلاص الاقطار المصرية منهم فقاتلوا حتى قتل أكثرهم ورجع القليل منهم ثم جهز الفرنسيس جيشا لمحاربة أحمد باشا الجزار في عكا فملكوا كثيرا من قرى الشام وحصروا أحمد باشا في عكا ثم عجزوا عن أخذها فارتحلوا عنها وأجروا عمل ما يعتاده أهل مصر من مولد السيد احمد البدوي وغيره على حسب المعتاد وكذا اخراج المحمل والحج وحصل بينهم وبين أهل الارياف محاربات كثيرة حتى ملكوهم كلهم وصاروا يتبعون الامراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به وحضرت مراكب الى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب فسمحوا عن عشورها وحصل بينه وبينهم مكاتبات ومهادات بهدايا عندهم ووضعوا الشيخ العريشي قاضيا

للمسلمين بحكم بالشرع وتوجه بانوبرته الي بلاد الفرنسيس سنة أربع عشرة وجعل ساري عسكرهم نائباعنه بمصر ثم ترقي بانوبرته حتي صار ملكا على كافة الفرنسيس وفي شهر رجب من سنة أربع عشرة جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا جعلوه واليا على مصر وهو الذي يقال له أيضا ناصف باشا وساروا من جهة الشام حتي وصلوا الى العريش فاستعد الفرنسيس لقتالهم وخرج بجنوده الى الصالحية ثم توسط الانقليز في الصلح على شروط كثيرة منها أن الفرنسيس يتنحي عن الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر ففي تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخرون بهم ويقول بعضهم لبعض سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون ذلك عليهم وكشف همج الناس نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا في عواقب الامور حتي أن فقهاء الاطفال كانوا يجمعون الاطفال ويمشون فرقا وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفي باعلى أصواتهم بلعن النصاري وأعوانهم وافراد رؤساسائهم كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الرمان ولم يملكوا الانفسهم صبرا حتي تنقضي الايام المشروطة على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأخذ الفرنساوية في أهبة الرحيل وشرعوا في بيع أمتعتهم ومافضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا اغالب الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس ثم ان العثمانيين تدرجوا في دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ووصل الوزير يوسف باشا الي بلبيس والتقي بالامراء المصريين وأخلي الفرنساوية قلعة الجبل وباقي القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع اليها أحد من العثمانيين وطلع كثير من العلماء والتجار للسلام على الوزير في مدينة بلبيس في رمضان فقابلوه وقابلوا والى مصر نصوح باشا وخلع عليهم خلعا وانصرفوا ثم في شهر شوال وقعت حادثة كانت سببا للنقض وذلك ان جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوي فثار من ذلك فتنة ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت لكن لم تطب نفوس الفرنسيس ثم ان الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لاقرب تمامها فاعطوهم مهلة الثمانية أيام ونصبوا وجاق عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلا باطراف مصر ممتدا الي شبرا وترددوا الى القلاع وهي لم يكن بها أحد وشرعوا باجتهاد في رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع واجتهدوا في ذلك ليلا ونهارا والناس يتعجبون من ذلك وأشيع ان الوزير اتفق مع الانقليز على الاحاطة بالفرنساوية اذا صاروا بظاهر البحر وكان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا الي جهة العرضي تفرسوا في عرضي

العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم فلما حصل ما ذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة وردوا آلاتهم الى القلاع فلما تمموا أمر ذلك وحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه بها من عساكرهم خرجوا بأجمعهم الي ظاهر المدينة جهة قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحي ولم يبق منهم بالمدينة الا من كان بداخل القلاع وأشخاص بيت الألفي وبعض بيوت الازبكية وغلب علي ظن الناس انهم برزوا للرحيل فلما كان يوم الثالث والعشرين من شوال ركب صاري عسكرهم قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه الى عرضي الوزير ومنهم من مال علي جهة المطرية فضربوا عليهم بالمدافع فلم يسعهم الا الجلاء والفرار وتركوا اخبيتهم ووطاقهم وركب نصوح باشا ومن كان معه وطائفة من جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين الي جهة العرضي بعد ان نهبوا ما في عرضي ناصف باشا من المتاع والاغنام وسمروا أفواه المدافع التي لنصوح باشا وهو ناصف باشا وتركوها وساروا الى جهة العرضي فلما قاربوه أرسلوا الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات فلم يسعه الا الارتحال والفرنساوية في أثره وعساكره متفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال وظلم الفقراء وأما أهل مصر فانهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال فهاجوا وماجوا ورمحوا الي أطراف البلد وخرج نقيب الاشراف وتبعه كثير من العامة وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدي الكثير منهم النبابيت والعصي والقليل معه السلاح وتحزب كثير من طوائف العامة والاوباش واخشرت وجعلوا يطوفون بالازقة ولهم صياح بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق ثم خرج الكثير منهم الى خارج البلد بناحية الدمورة فلما انفصل النهار حضر بعض الاجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم لجهلهم أيضا حقيقة الحال ثم لم يزل الحال كذلك الى العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد وفيه صياح وخلفهم ابراهيم بيك ثم بقية الامراء ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر والسيد عمر نقيب الاشراف وصار نصوح باشا يقول بالعامة اقتلوا النصاري وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا قوله هاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصاري القبط والشوام وغيرهم وساروا الى حارات النصاري يقتلون ويأسرون وينهبون فتحزبت النصارى واحترسوا وجمعوا كل ما قدروا عليه من الفرنساوية والاروام فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصاري ترمي من طاقات البيوت علي المجتمعين بالازقة من العامة والعسكر يحامون على أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون البيوت ويتسورون عليهم فلما أصبح

الصباح أرسلوا الى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة فعالجوها حتى فتحوها وأمر الباشا بجر المدافع الى الازبكية وضربوا منها على بيت الالفى وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمر الحرب بين الفريقين الى آخر النهار فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر وفى هذا اليوم وضع أهل مصر والعسكر متاريس بالاطراف كلها وشرعوا فى بناء جهات السور واجتهدوا فى تحصين البلد بقدر الطاقة وبات الناس فى هذه الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع وتوالى الضرب فأجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الاقوات لان غالب قوت أهلها يجلب من قراها كل يوم بيوم وربما امتنع وصول ذلك اذا تجسمت الفتنة فاتفقوا على الخروج بالليل وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم للخروج وغصت الطرق بالازدحام عند الخروج وازدحم الناس بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال وركب الناس بعضهم بعضا ووقع للناس فى هذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف مالا يوصف وأناس من أهل خان الخليلى جؤا الى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة معظم الناس على مساطب الحوانيت وأزقة الحارات فلما أصبح يوم السبت تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذى لاقوة له على الحرب وذهب المعظم الى جهة الازبكية وسكن الكثير فى البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضا عن القلل للمدافع وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالازبكية ثم فرقوا الناس فى أطراف البلد والمتاريس للاحتراس وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أوفرنساوى ذهب به الى كتخدا وأخذ البقشيش فيحبس البعض ويقتل البعض وأحضروا الحدادين لانشاء مدافع وجملوا معملا لعمل البارود والقلل وغير ذلك من المهمات واهتموا لذلك اهتماما زائدا وأنفقوا أموالا جمة وأما الفرنساوية فانهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الالفى وماوالاه وأما الوزير فانه لما ارتحل بالعرضى ووصل الى الصالحية تكلموا معه فى الرجوع فاعتذر بعدم الاستعداد ثم ساروا الى الشام فرجع طائفة من عسكر الفرنساوية الذين ساروا خلف الوزير الى أصحابهم الذين بمصر نجدة لهم فقويت بهم نفوسهم ووقف جملة منهم بباب النصر ومنعوا الداخل والخارج وذلك كله بعد مضى ثمانية أيام من ابتداء الحركة وقطعوا الجالب الى البلد وأحاطوا بها احاطة السوار بالمعصم فعظم

الكرب وأكثروا من الرمي بالمدافع على البيوت من القلاع وعدمت الاقوات وارتفعت الاسعار وهلكت البهائم وتهدمت البيوت وكثر صريخ النساء والصغار وفي كل ساعة تهجم الفرنساوية الذين هم خارج البلد على جهة من جهات مصر ويملكون بعض المتاريس واستمر الحال الى عشرة أيام فرددوا الرسل للصلح فقال الفرنساوية لابد من خروج العثمانية من مصر ونعطيهم مايحتاجون من المؤنة حتى يصلوا الى جماعتهم وخرج اليهم الشيخ الشرقاوي والمهدي والسرسي والفيومي وغيرهم وتمموا الصلح على ذلك فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه عساكر الانكشارية العثمانية وسائر الناس قاموا على المشايخ وسبوهم وضربوا الشيخ الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء بكثير من الفضول فأرسلوا للفرنسيس ان الباشا والعساكر والناس لم يرتضوا بالصلح ثم جاء مطر شديد وتوحلت جميع السكك فاشتغل الناس بتخفيف المياه والاوحال فاغتنم الفرصة الفرنسيس وهجموا على مصر وبولاق من كل ناحية وعملوا فتائل بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية معمولة بالنفط ملوية على أعناقها مشربة بقطران تشعل وتقوى لهيبها وتابعوا رمي المدافع والبنبات من القلاع وصاروا يهجمون وأمامهم المدافع وخلفهم بوارديه يرمون بالبندق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يرمون بها السقائف والحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيأ فشيأ والمسلمون بذلوا جهدهم وقتلوا بشدة وزلزلوا زلزالا شديدا وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان والنيران تأخذهم من كل جهة والامطار متوالية بالليل والنهار ومثل ذلك كان في بولاق بل زيادة عن ذلك لانهم في آخر الامر قتلوهم وحرقوا بلادهم وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم وذراريهم والحاصل ان هذه الفتنة قد شاهد الناس فيها من الهول مايشيب منه النواصي وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والازقة واحترقت الابنية والدور والقصور وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالخذلان فنجوا بأنفسهم الى الجهة القبلية ثم أحاطوا بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والحواصل والبضائع والودائع وملكوا الدور ومابها من الامتعة والاموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال ومالا تسعه السطور ولايحيط به كتاب ولا منشور وكان جماعة من المسلمين في هذه الشدة يدهنون الفرنسيس وأخذوا منهم أمانا وهم مع المسلمين فاطلع المسلمون عليهم فأخذوهم وعذبوهم أنواع العذاب وقتلوا بعضهم واتهموا الشيخ البكري بموالاة الفرنسيس وانه يرسل اليهم الاطعمة فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة فنهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه

وأحضروه الى الجمالية وهوماش على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له اهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدي الكتخدا أهاله ذلك واغتم غما شديدا ووعده بجبر وطيب خاطره وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه الى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الفتنة وكان جماعة من الامراء والرؤساء يذهبون ويجيؤن من الفرنسيس الى المسلمين ومن المسلمين اليهم يسعون في الصلح بين الفريقين واستمر الحال الى السادس والعشرين من الشهر حتى هلكت الناس وتنوا دخول الفرنسيس وخروج العثمانيين ثم تم الصلح على وقف الحرب وخروج العثمانيين بعد مهلة ثلاثة أيام ثم خرجوا وارتحلوا وزودهم الفرنسيس وأعطوهم دراهم وجمالا وغير ذلك وخرج أيضا ابراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه وخرج معهم بعض الرؤساء منهم نقيب الاشراف والمحروقي رئيس التجار سنة ١٢١٥ وأما مراد بيك فكان بالصعيد وكان قد انعقد بينه وبين الفرنسيس صلح ومهادنة وكانت مدة الحرب والحصر بالثلاثة الايام المدنة سبعة وثلاثين يوما وما وقع فيها من الحروب والكروب وعظائم الامور مالا يحيط به الا الله تعالى ودخل الفرنسيس مصر وضبطوها في أول ذى الحجة سنة خمس عشرة وأمنوا الناس واستولوا على ما كان اصطنعه العثمانيون وأعدوه من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ في عصر ذلك اليوم وذهبوا الى كبير الفرنسيس فلما جلسوا أبرزلهم ورقة مكتوب فيها النصرة لله الذي يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس وبناء على ذلك يريد سرعسكر أن ينعم بالعفو العام على أهل مصر ولو كانوا يخالطون العثمانيين في الحروب ويأمرهم أن يشتغلوا بمعاشهم وصنائعهم ثم نبه عليهم بالحضور الى قبة النصر بكرة تاريخه ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالاسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والامان فلما كان الغد ذهبوا الى قبة النصر وصنع لهم سماطا عظيما ضيافة وزينت البلاد ثلاثة أيام ثم بعد أيام أمرهم بالحضور بدار الازبكية فلما وصلوا جلسوا احصة طويلة في الديوان الخارج ثم أدخلوا وجلسوا احصة فخرج اليهم سرعسكر وصحبته ترجمانه وجماعة من أعيانهم فوضع له كرسي في وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان فكلمه سرعسكر بكلام طويل بلسانهم فالتفت الترجمان وأخبرهم بما قاله سرعسكر *وملخص ذلك القول ان سرعسكر يقول انا ما احضرنا الى لدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولامرهم يمتثلون ثم انكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالاحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة وأوهمتمونا ان الرعية لكم ينقادون ولامركم ونهيكم يرجعون فلما حضر العثملي فرحتم لقدومهم

وقمتم بنصرتهم وثبت عندنا ذلك نفاقكم لنا فقالوا له نحن ما قمنا مع العثملي الا عن أمركم لانكم
عرفتمونا أنكم ونحن في حكم العثملي وان البلاد والاموال صارت له وخصوصا وهو سلطاننا القديم
وسلطان المسلمين وما شعرنا الا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم علي حين غفلة ووجدنا أنفسنا
في وسطهم فلم يمكننا التخلف عنهم فقال لهم لاى شئ لم تمنعوا الرعية عما فعلوا من قيامهم ومحاربتهم
فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصا وقد تقووا علينا بغيرنا وسمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا واهانتنا عند
ما أشرنا عليهم بالصلح فقال لهم واذا كنتم لا يمكنكم تسكين الفتنة فما فائدة رياستكم وأي شئ يكون
نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم الا الضرر لانكم اذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم واياهم علينا واذا
ذهبوا رجعتم الينا معتذرين فكان جزاؤكم القتل وحرق البلاد وسبي الحريم والاولاد كما فعلنا باهل
بولاق ولكن حيث أعطيناكم الامان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وانما نأخذ منكم الاموال فالمطلوب
منكم عشرة آلاف ألف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألفا ألف فرانسه
عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزنة مصري منها خمسمائة ألف فرانسه على مائتين على
شيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ألفا وعلي الشيخ الجوهري خمسون ألفا
وعلي أخيه الشيخ فتوح خمسون ألفا وعلي الشيخ مصطفى الصاوي خمسون ألفا وعلي الشيخ العناني
مائتان وخمسون ألفا جعلوا ذلك عليه وعلي الفارين مع العثملي مثل السيد عمر مكرم نقيب الاشراف
والمحروقي وما بقي من المبلغ المطلوب تقررونه وتوزعونه علي أهل البلد وتتركوا عندنا منكم خمسة
عشر شخصا انظروا من يكون منكم عندنا رهينة حتى توفوا ذلك المبلغ وقام من كرسيه من فوره
ودخل مع أصحابه الى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية علي الباب الآخر يمنعون
من يخرج من الجالسين فبهتت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظروا الى بعضهم وتحيرت أفكارهم ولم
يخرج عن هذا الامر الا البكري والمهدي لكون البكري حصل له ما حصل في حادثته والمهدي
كان يداهنهم وحرق بيته بمرأى منهم ولم يكن فيه الا الحصر لانه كان قد نقل ما فيه بداره
التي في الخرنفش ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل واحد منهم أنه لم يكن شيئا مذكورا
ولم يزالوا علي ذلك الحال الى قريب العصر حتى بال أكثرهم علي ثيابه وبعضهم شرشر بوله
من شباك المكان وصاروا يدخلون علي نصارى القبط ويقعون في عرضهم فمن كان معهم
ومن يكن معدودا من الرؤساء اخرجوه فخرجوا مسرعين حتى ان بعضهم ترك مداسه وخرج
حافيا وما صدق بخلاص نفسه هذا والنصارى والمهدي يتشاورون في تقسيم ذلك وتوزيعه
وتدبيره وترتيبه في قوائم حتى وزعوها علي أصحاب الحرف وأهل البيع والشراء وجميع الناس حتى
القرداتية جعلوا علي كل طائفة مبلغا له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسه وأربعين ألفا وخمسة علي

أجرة الاملاك والعقار أجرة سنة كاملة ثم استأذنوا للمشايخ الخالص منهم الذى ليس عليه شئ يتوجه حيث أراد والمشبوك يلازمه جماعة من العسكر حتى يؤدي المطلوب منه وأما الصاوي وفتوح والجوهري فحبسوهم ببيت قائم مقام والعناني هرب فلم يجدوه وداره أحرقت فأضافوا غرامته على غرامة شيخ السادات وانفض المجلس على ذلك وركب صاري عسكر من يومه ذلك وذهب الى الجيزة ووكل يعقوب القبطى يفعل في المسلمين مايشاء ونزل شيخ السادات وركب الي داره فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره فلما كان حصة من الليل حضر اليه مقدار عشرة من العسكر أيضا وأركبوه وطلعوا به الى القلعة وحبسوه فى مكان ثم تشفع له أناس وكفلوه لينزل الى داره ويحصل لهم المطلوب منه فتحصل عنده من الدراهم ستة آلاف ريال وقاوموا ماوجدوه من المصاغ والفراوى والملابس فبلغ خمسة عشر ألف ريال فكان الجميع أحدا وعشرين ألف ريال ثم صاروا يفتشون داره ويحفرون الارض الخبايا حتى نحوا الكنف فلم يجدوا شيأ ثم نقلوه الى بيت قائم مقام وضربوه وأهانوه وأودعوا زوجته وابنه عند أغاة الانكشارية ثم ان المشايخ وهم الشيخ الشرقاوي والامير والمهدى وغيرهم تشفعوا في نقل الزوجة الى بيت الفيومي ثم وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ فتوح والصاوي فجملوا على كل واحد خمسة عشر ألف ريال وردوا الباقي على الفردة العامة وأما الجوهري فاختفى فلم يجدوه فنهبوا داره ثم وكلوا بالفردة العامة يعقوب القبطى وأعطوه عسكرا لتحصيلها ودهي الناس بهذه النازلة التي لا يصابون بمثلها وفرغت الدراهم من عند الناس وباعوا أمتعتهم وجميع ماعندهم ولم يجدوا من يشترى الاثاث والفرش والملبوس بأبخس الاثمان ودفعوا لهم أيضا جميع مايملكون من البغال والخيل والحمير ومنعوا المسلمين من ركوبها سوي خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والامير والفيومى وابن محرم وتطاولت النصارى من الشوام والقبط على المسلمين بالضرب والسب وفي كل وقت يشتد الطلب وتنبث المعينون والعسكر في طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر ويهدلهم وحبسهم وضربهم والذي لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فان لم يجدوا شيأ ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته ونالوا من الناس أغراضهم وأظهروا حقدهم وصاروا يصرخون بانقضاء ملة الاسلام وأيام الموحدين هذا والكتبة والمهندسون والبناؤن يطوفون ويحررون أجرة الاملاك والعقارات والوكائل والحمامات ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها وخرج كثير من الناس من المدينة وأجلوا عنها وهربوا الى القري والارياف واستمرت الحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والمصائب عميمة والمطالب عظيمة والامر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد واستمر شيخ السادات محبوسا الى غاية شهر صفر من سنة خمس عشرة فأفرجوا عنه ونزل الى بيته بعد ان غاق الذي عليه واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاويةأسلافه وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وان لا يركب بدون اذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه ويقال اتباعه وفي شهر ربيع الاول من السنة المذكورة نادوا على الناس الفارين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر بعد ثمانين وثلاثين يوما من وقت المناداة نهبت داره وأحيل بوجوده وكان من المذنبين واشتد الامر بالناس وضاقت انفسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ونزل بالمسلمين الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الاقباط والشوام والاروام حتى صار واياهم ونهم بانقيادهم عندمرورهم ثم شددوا في ذلك حتى كانوا اذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم اليه بعض الناس على أقدامه رجعت اليه الاعوان وقبضوا عليه وأصعدوه الى الحبس بالقلعة وضربوه واستمر عدة أيام في الحبس ثم يطلق بشفاعة بعض الاعيان وأما الاموال المطلوبة فأخذوه وما بقي شيء الناس الا واستولوا عليه ومابقي جعلوه على الاطيان والفدادين ومشايخ القرى والبلدان وتفصيل ذلك كله طويل ولم يزل الناس معهم في شدة وكرب الى أن قضى الله ماقدره وأذن بخروجهم وانقضاء دولتهم

﴿ ذكر خروج الفرنسيس من مصر ﴾

في أواخر شوال من سنة خمس عشرة برز الامر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز الى مصر برا وبحرا أما العساكر التي من البر فهي بمعية يوسف باشا وأما البحر فتعهدت به الانكليز ثم في أوائل ذي القعدة ورد جماعة من الانكليز بمراكب الى ثغر الاسكندرية وطلع جماعة منهم فالتقوا وتحاربوا مع أمير الاسكندرية ومن معه من الفرنسيس ثم في أول ذي القعدة جاءت الاخبار الى الفرنسيس بمصر بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا الى العريش فجمعوا المشايخ والاعيان بمصر وقالوا لهم انه يحب المسلمين ويميل اليهم بالطبع وخصوصا العلماء أهل الفضائل ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ولا يحب لهم الا الخير لكن سياسة الاحكام تقتضي بعض الامور المخالفة للمزاج والآن بلغنا ان يوسف باشا وعساكر العثمانية تحركوا الى هذا الطرف فلزم الامر تعويق بعض الاعيان وذلك من قوانين الحرب عند نا وعندكم ولا يكون عندكم تكدر ولا هم بسبب ذلك فليس الا الاعزاز والاكرام أينما كنتم ثم انفض المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي والشيخ الصاوي والشيخ الفيومي فأصعدوهم الى القلعة في

الساعة الرابعة من الليل مكرمين وكان هؤلاء الاربعة من أهل الديوان المرتب في مصر لفصل القضايا وكان معهم في الديوان الشيخ الامير والبكري والشربيني فأبقوهم في الديوان على حالهم السابق ثم وقع حرب أيضا بالاسكندرية في البر بين الانقليز والفرنسيس في الرابع عشر من ذي القعدة وكانت الهزيمة على الفرنساوية وقتل منهم كثير وانحازوا الى داخل الاسكندرية وأرسل الفرنسيس من كشف عن متاريس الانقليز فوجدوها في غاية الوضع والاتقان ثم وقع قتال آخر فقتل فيه من الفرنسيس خمسة عشر ألفا ثم طلبوا عساكر من مصر نجدة لهم فأطلق الانقليز حبوس المياه المالحة حتى أغرقت طرق الاسكندرية وصارت جميعا لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك الا من جهة العجمي الى البرية وتترس الانقليز قبالهم من جهة الباب الغربي ووقع في مصر في هذه السنة طاعون مات فيه خلق كثير منهم مراد بيك مات في الصعيد رابع ذي الحجة من السنة المذكورة وكان قد اصطلح مع الفرنسيس وأعطوه امارة الصعيد وهو من مماليك محمد بيك أبي الذهب ومحمد بيك مملوك علي بيك وعلي بيك مملوك ابراهيم بيك كتخدا اشتري مراد بيك سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ثم أعتقه وترقي عنده وأكرمه وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ولما انفرد سيده محمد بيك بامارة مصر كان مراد بيك وابراهيم بيك أكبر الامراء المشار اليهما دون غيرهما واتسعت لهما الاموال والاملاك والضياع ثم لما مات محمد بيك سنة ثمانين وثمانين ومائة وألف صارت الرياسة في ملك مصر لهما ولكن كان ابراهيم بيك مقدما وكان مراد بيك منهمكا على اللذات والملاهي وكان لكل منهما مماليك هم الصناجق والامراء وكانت وفاة ابراهيم بيك بدنقلة سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف

﴿ ذكر ما كان من استعداد الفرنسيس ﴾

في خامس المحرم من سنة ست عشرة ومائتين وألف أكثروا من نقل الماء والدقيق والاقوات الى القلعة بمصر وكذلك البارود والكبريت والقلل والقنابر والبنب ونقلوا الاساور والبيوت من الفرش والامتعة والاسرة الى القلعة ولم يبقوا بالقلاع الصغار الا مهمات الحرب وطلبوا المزياتين وألزموهم باثنى قنطار زيت وسمر واجهة من حوانيتهم لتحصيل ذلك واجتهدوا في وضع متاريس خارج البلد وحفر واخنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونه للعمل وألقوا الاحجار العظيمة ومراكب بحر انبابة لتمنع المراكب من العبور وهدموا جانبا من الجيزة من الجهة البحرية وبلغهم ان عساكر الانكليز القادمة من البر الغربي قربت ووصلت ترعة الفرعونية وان العساكر الشرقية وصلت الى بنها وأن طائفة من الانكليز في جهة الاسكندرية وأن الحرب قائم بها وأن الفرنساوية محاصرون بداخل الاسكندرية ويحاربهم

الانكليز ومن معه من العثمانية من الخارج وان جماعة من الانكليز قصدوا في الاماكن التي يمكن الفرنسيس النفوذ اليها وقطعوا عليهم الطرق من كل ناحية وأطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح منه الا الجسر المقطوع حتى سالت المياه وردغت الاراضي المحيطة بالاسكندرية وخرج عن طاعة الفرنسيس الامراء الذين بالصعيد وردوا مكاتبهم التي أرسلوها لهم بعد مراد بيك وحضرت لهم الاخبار المتواترة بوصول القادمين من الانكليز والعثمانية الى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون وجاءتهم الاخبار أيضا بأنهم تملكوا رشيد ودمياط وفي العشرين من المحرم يوم الاثنين جاءتهم الاخبار بأن الوزير وصل دجوة فطلبوا مشايخ الديوان عند قائم مقام فقال لهم ان الخصم قد قرب منا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيس وأن تنصحوا أهل البلد والرعية أن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلون في الشر والشغب فان الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد والواجب على الوالد نصيحة ولده وتأديبه على الطريق المستقيم حتى يكون فيه الخير والصلاح فانهم ان داموا على الهدو حصل لهم الخير ونجوا من كل شر وان حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم وسبيت نساؤهم وتيتمت أولادهم وألزموا بالاموال والفردات التي لا طاقة لهم بها فقد رأيتم ما حصل في الوقائع السابقة فاحذروا من ذلك فانكم لا تدرون العاقبة ولا نكلفكم المساعدة ولا المعاونة لحرب عدونا وانما نطلب منكم السكون والهدو لا غير فأجابوا بالسمع والطاعة وقرأ عليهم ورقة بمعنى ذلك وأمروا بالمناداة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة والا يفزعوا من ذلك فانه شنك وعيد لبعض أكابرهم وأمروا أن يجتمع بالديوان في الغد الاعيان والتجار وكبار الاخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك فكان كذلك وفي غاية شهر محرم جاءتهم الاخبار بأن الوزير وصل الى بلبيس وكذلك عسكر الانقليز فجمعوا المشايخ بالديوان وأعلموهم أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فيلزم اعتقادكم ذلك وأركزوه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم فانهم لا يخرج من أيديهم شيء أبدا وهؤلاء الانقليز من خوارج حرمية وصناعتهم قطع الطريق والسرقة والمداومة والبغي والعثملي مغتر بهم فان الفرنساوية كانت من الاحباب خصوصا متعلقي فرنسيز وحتى وقعوا بينه وبينهم العداوة وشرور وان بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة ولكن بينهم وبين الفرنساوية طريق مسلوكة من البر لا تحمي أرضهم ونحمي ذكرهم من زمان مديد وتدبير في ذلك وأي شيء خرج من أيديهم فلهم الآن ثلاثة أشهر من حين طلوعهم الى البر والى الآن لم يصلوا الينا والفرنسيس عند قدومهم وصلوا في ثمانية عشر يوما وكان فيهم همة وشجاعة وصولة متى

وصولنا وكلام كثير من هذا النمط وفي ثالث صفر وصلت عساكر العثمانيين واتصبوا الى العادلية في الجهة الشرقية والى انبابة في الجهة الغربية وجرى القتال بينهم وبين الفرنسيس وكان النصر لعسكر السلطنة العلية ثم انعقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر وتسليمها للدولة العلية فتجهزوا وخرجوا آمنين في أواخر صفر ولما انعقد الصلح أطلقوا المشايخ الذين كانوا بالقلعة رهائن وهم الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي وكانت مدة حبسهم في القلعة نحو مائة يوم وسافرت عساكر الفرنسيس على رشيد وأبي قير ودخل الوزير يوسف باشا مصر في التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل وكانت مدة تملك الفرنسيس مصر ثلاث سنين وشهرا قال الشيخ الشرقاوي في تاريخه وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا الى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة اباحية طبائعية يقال لهم نصارى كاتوليكية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقولون ان الله واحد ولكن يقولون بالتعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون لاحكام ويضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون ان الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة اليهم هي قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان في ذلك رحمة الله تعالى بأهل مصر فانهم جعلوا من جملة ذلك ديوانا فيه جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذي أوجب لاهل مصر وقراها بعض الانقياد اليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وانهم عند قدومهم كتبوا كتبا وفرقوها في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لانهم يقولون ان الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وانهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن وانهم يحبون العثملي ولم يأتوا الا لطرد المماليك الظلمة لانهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا في شيء لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الالف وهتكوا بعض الاعراض في مصر وقراها فان كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علمائه ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه ان أهل البلد ظنوا ان العسكر لا تدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع ونثروا الكتب التي في الخزائن يعتقدون ان بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم

كتبا ومصاحف نفيسة وكان خروجه بهمة مولانا سلطان سلاطين أهل الارض مولانا السلطان سليم خان لازال محفوفا برعاية الخالق المنان وبتدبير وزيره الاعظم وكان مكث بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية في مصر سبعة أشهر ثم ذهب لقتال أحمد باشا الجزار بعكا ثم توجه الى بلاد الفرنسيس وجعل له نائبا منهم بمصر ولما وصل بونابارته الى بلاد الفرنسيس ويقال له نابليون استعانوا به في اصلاح خلل كان حاصلا ثم ساق جيوش المحاربة ايطاليا والنيمسا وانتصر عليهم وفي سنة تسع عشرة ومائتين وألف أقاموه امبراطورا على فرانسا كافة وشن الغارات على دول أوروبا وحارب الروسية والنيمسا والانكليز والبروسية ووقائعه طويلة افردت بالتأليف ثم تجمعت جميع ملوك أوروبا واتفقوا على حرب فرانسا فأصاب فرانسا من ذلك شدائد عظيمة وسئموا من كثرة الحرب فاتفقوا على خلع بونابارته ودعوا لويز الثامن عشر ليملكوه عليهم فلما علم ذلك بونابارته استعفى وذلك سنة ثلاثين ومائتين وألف فملكوا لويز الثامن عشر وأعطوا بونابارته جزيرة الالب ليملك عليها ثم بعد سنة أتى باريس فهرب الوزير الثامن عشر وعاد الى انكلترا فنهضت الدول لمحاربة بونابارته واعادة الويز الى ملك فرانسا وجرت أمور يطول ذكرها وآخر الامر تنازل عن الملك الى ابنه فلم تقبل الدول المتحدة أن يتبوء الملك احد من سلالته فذهب بونابارته الى رشفورت وطلب من حكومة الانكليز أن تقبله ضيفا في بلادها فأجابته أولا الى ذلك فركب الى أحد المواني الانكليزية وقبل أن ينزل الى البر أرسلت اليه الحكومة الانكليزية تخبره أنه أسير الدول المتحدة ثم شيعوه الى جزيرة هيلانه فبقي أسيرا الى ان هلك سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وعمره أربع وخمسون سنة ولنرجع الى تتمة الكلام على ماكان في بقية زمن السلطان سليم

﴿ ذكر خلع السلطان سليم ﴾

سبب ذلك أنه كان السلطان سليم يرغب أن يلاشي وجاق الانكشارية ويقيم مكانه عسكرا جديدا على الطريقة الافرنجية لان الانكشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم وكان قد نظم في العام الماضي بعض الفرق من النظام الجديد فهاج الانكشارية من ذلك وأثاروا في القسطنطينية شغبا عظيما يطول الكلام بذكره واعانه بوا عصبة واحدة وكان ممن وافقهم على منع النظام الجديد عطاء الله أفندي شيخ الاسلام وقائمقام صدر أعظم فقوى أمرهم به وقالوا انه لايجوز أن تكون عساكر الاسلام متشبهة بالكفار وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار فقويت هذه الحجة في صدورهم وقاموا وأرادوا ملاشاة النظام الجديد وقتل من الوزراء الذين أفسدوا ظاهرة الايمان بفعلهم الشنيعة وحافظوا على ملاشاة وجوهات العسكر الانكشارية الذين هم أعمدة مملكة الدولة العلية وبعد هذا الحديث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من

رجال الدولة يريدون قتلهم أرسلها اليهم المفتي عطاء الله أفندي فأخذوا يتلونها ويسمون الاشخاص الذين يريدون قتلهم ثم ساروا يفتشون على أولئك الاشخاص فوجدوا بعضاً منهم فقتلوهم واختفى كثير من أولئك الاشخاص في بيوت النصارى واليهود وقتلوا خلقاً كثيراً وأحضروا سبعة عشر رأساً من أعظم رجال الدولة وكان هذا جارياً في القسطنطينية ثلاثة أيام ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه وصاروا يقولون بأن هذا السلطان المغشوش بهذه التعاليم ليست تحت أمير المؤمنين بل وضاعن الاتكال على الله القادر العظيم الذي يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد وأردت تشبه الاسلام بالكفرة وغضبت الله فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين وتحامي عن دين الاسلام ... وقد فتنة بك والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تنحط وتعتزل على كل شيء شرفاً للايمان وسلامة الاسلام وبعد كلام كثير صارت قراءة الفتوى التي مضمونها أن السلطان الذي يخالف القرآن الشريف هل يترك على تخت السلطنة فجوب كلا ثم قال القاري فاذا صار معلوماً عندكم أنه يحتم عزل السلطان فما قولكم الآن هل تسلمون له أن يقسم ميخائيل الاسلام فصرخت العساكر كلا كلا ثم كلا لا نقبل له سلطنة علينا فليعزل وصرخوا باسم السلطان مصطفى بن السلطان عبد الحميد وقالوا ليعش السلطان مصطفى وأرسلوا المفتي الى السلطان سليم ليتنازل عن السلطنة من دون مقاومة فدخل عليه المفتي منخفض الرأس قائلا يا مولانا اني قد حضرت بين يديك برسالة محزنة رجوت قبولها لتسكين الهيجان وليس خفي على مسامعكم الشريفة ان العساكر الانكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك ... عليه فلا بد لا ميل لي مقاومة فالتسليم للامر أوفق من كل شيء ولم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث وقبل كلام المفتي ونزل عن السلطنة وكان ذلك في أحد وعشرين من ربيع الاول سنة اثنين وعشرين ومائتين وألف فمدة سلطنة السلطان سليم ثمان عشرة سنة وثمانية أشهر وقد كان ذهب يختلي في مكان منفرد عن السراية فأتى اليه السلطان مصطفى قدما ليجلس مكانه على تخت السلطنة فقال له يا أخي أهنئك بالعرش العتيد لان تجلس عليه أنت لاني أردت وضع تعليمات لتقوية المملكة والدين وصلاح حال العسكر الذين جهلوا تعاليمهم وتركوا قوانينهم ثم هاجت على العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون مني التنازل عن تخت السلطنة ونادوا باسمك فها أنا اخرج بكل رضا أعيش منفرداً وأما أنت فانك سعيداً أكثر مني وأرغب اليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى ثم لم يصغ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يمكنه من معانقته فلما وصل السلطان سليم الى المكان الذي يريدون وضعه فيه وجد السلطان محموداً أخا السلطان مصطفى هناك في ذلك الموضع عليه آثار

الرقة والنباهة وعندما شاهد السلطان سليم التقاء فقبل يده ذا رفاد موعا غزيرة فحرك السلطان سليم الى البكاء وجلسا فى ذلك الموضع وطالما كانا يتحدثان دائما بالامور المشيدة أركان الدولة والدين هذا ما كان من أمر السلطان سليم والسلطان محمود

﴿ ذكر ولاية السلطان مصطفى بن عبد الحميد ﴾

وأما السلطان مصطفى فانه بوصوله الى اماما أولئك العساكر فرحوا به فرحا عظيما وأجلسوه على تخت السلطنة وبسبب هذه الحادثة العظمى والفتنة الظلماء حصل الخوف لجميع أهل القسطنطينية وقفلت الحوانيت ووقع الرعب في قلوب الجميع ثم أطلقت المدافع علامة على جلوس السلطان مصطفى ونودي فى اثنا ير اسمه وتقدم المفتي شيخ الاسلام وقائمقام موسى باشا الى الجموع التى كانت مجتمعة في فسحة آت ميدان وأخبروهم ان السلطان مصطفى قد وعد بابطال ما كان مهتما به السلطان سليم من وضع النظام الجديد وبارجاع العوائد القديمة فلما سمع الجميع هذا الحديث تفرقوا وبعد أن جلس السلطان مصطفى على تخت السلطنة سلم زمام الاحكام بيد القائمقام كوسج موسى باشا والى المفتي شيخ الاسلام عطاء الله افندي ولما بلغت هذه الاخبار الصدر الاعظم جلبي مصطفى باشا وكان رئيس الجيوش التي خرجت لقتال الروسية كما تقدم حزن لذلك وغضب غضبا شديدا هو ومن معه من العساكر وكان من جملتهم مصطفى باشا البيرقدار فعقدوا صلحا مع الروسية ورجعوا بالعساكر قاصدا ركوا هذا الامر وأرسلوا العساكر الانقشارية الذين بالقسطنطينية يقولون لهم انهم قادمون لنجدتهم وتقوية رغبتهم ليفتشوا بذلك وما دخلوا القسطنطينية الا بعد مشاق وأراد البيرقدار مصطفى باشا رجوع السلطان سليم والقبض على السلطان مصطفى وطلب من الصدر الاعظم المساعدة على ذلك فانكر عليه ذلك مبينا سوء عواقب الامور فغضب البيرقدار غضبا شديدا وأمر بحبسه وبلغ الخبر السلطان مصطفى فأرسل أناسا يقتلون السلطان سليم فدخلوا عليه وهو يصلي صلاة العصر فلم يمهلوه الى أن يتم الصلاة بل وثبوا عليه وطرحوه على الارض فنهض لهم كالاسد وصرعهم وكان قويا جدا ثم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ورجعوا به الى السلطان مصطفى مسرعين وطرحوه ميتا امامه وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين والف وعمر السلطان سليم ثمان واربعون سنة ثم أرسل أناسا وأمرهم بخنق أخيه السلطان محمود وكان البيرقدار هجم بجماعة مسرعين لانقاذ السلطان سليم فوجدوه قد مات فعلموا بامر السلطان محمود وقال لهم البيرقدار عليكم بنجدة السلطان محمود لانه هو الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقي من سلالة آل عثمان فأخذت العساكر تطلب السلطان مصطفى وتبحث عن السلطان محمود لان السلطان محمود جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله فأمر رفقاءه أحدهم

بخنجر أصاب يده فهرب وصعد على سطوح السرايا فلما نظرته جماعة البيرقدار وضعوا له سلما فنزل الى صحن الدار حيث كان البيرقدار وعندما نظر اليه البيرقدار فرح فرحا عظيما وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه وصار يقبل قدميه

﴿ ذكر ولاية السلطان محمود بن عبد الحميد ﴾

ثم دخل به قاعة وأجلسه على تخت السلطنة وأرسل جندا قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه فلما تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا بيرقدار صدرا أعظم وسلمه زمام الاحكام فأخذ يجتهد في حفظ النظام من مين قتلوا السلطان سليم ثم شرع في تنظيم العسكر الجديد وأرسل فطلب [illegible] من [illegible] والمقدمين من جند النوبة فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الضرر [illegible] كرصة [illegible] حرب [illegible] بآرائهم في ذلك فصادقوه مذعنين لأمر السلطان وتعهدوا بالمساعدة في كل ما يؤول لنجاح المملكة وفي الحال أخذ الصدر الاعظم في وضع ترتيبات جديدة أوجبت الملام عليه من كثيرين وأضمروا له السوء وصاروا يطلبون فيه جهارا ويدعونه بالكافر وعلقوا أوراقا في الاسواق وعلى باب داره مكتوبا فيها قد قرب موت الصدر الاعظم وأرادوا بساحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد فأخذوهم بغتة وشتتوهم وأحضروا بنزله وطرحوا فيها النار ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها وانقسم الناس فريقين فريقا يريد التعليم الجديد وفرقة يكرهه وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثير وأحرقت دور كثيرة وحصروا الصدر الاعظم في الدار التي كان بها وأطلقوا عليهم الرصاص وقتل كثيرا منهم ثم نار عليه صناديق بارود كانت في داره فمات بسبب ذلك وكان قد أخرج جواريه وحريمه من الدار قبل ذلك وأحيلت الصدارة الى يوسف باشا وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعزل شيخ الاسلام عطاء الله افندي وأحيلت المشيخة الى عرب زاده محمد عارف افندي وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتابا للعساكر الانكشارية يحرضهم على الغيرة ورجوعه الى السلطنة فوقع ذلك الكتاب في يد بعض العلماء فذهب به الى شيخ الاسلام فجمع كثيرا من العلماء وأخذوا يتحدثون في عواقب هذه الامور ويتشاورون في اطفاء هذه الفتنة وأرادوا انه اذا بقي السلطان مصطفى في قيد الحياة لا تنطفي الفتنة فاختاروا رجلا من بينهم يقال له منيب افندي كان قاضي اسلامبول ليعرض على السلطان محمود رأي العلماء ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى فسار منيب افندي الى السلطان محمود وعرض عليه ذلك فاجابه السلطان محمود ان هذا أمر محال وكيف يتصور أن يصدر أمري بقتل أخي مع كوني قادرا على منعه من هذه الاعمال وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة في ذلك وقال له منيب افندي في غضون تلك المحاورة قد جاء في الحديث الشريف اذا اجتمع خليفتان فاقتلوا أحدهما نشق ذلك على

السلطان محمود وحول وجهه الى شباك هناك ولم يجبه بشيء لشدة أسفه على أخيه فقال منيب افندي
ان السكوت قرار ففي الحال أرسل منيب افندي الى كبير البستانجية وقال له ان مولانا السلطان
قد صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى فاذهب وأتم أمره فذهب البستانجي باشا ومعه
جماعة من أعوانه الى الموضع الذي كان فيه السلطان مصطفى فأحس بهم السلطان مصطفى وعرف
مقصدهم فاختبى بين فرش كانت هناك فدخلوا فلم يجدوه ورأوا أمام تلك الفرش خفية فقلبوا تلك
الفرش الى الارض فوجدوا السلطان مصطفى مختبأ فيه فقتلوه خنقا وكان العلماء الذين اجتمعوا عند
شيخ الاسلام وأرسلوا منيب افندي للسلطان محمود ينتظرون رجوعه اليهم بالجواب فلما أبطأ
عليهم ظنوا أن السلطان محمود لم يقبل ما رأوه فتوجهوا جميعا للسلطان محمود تقوية لمنيب أفندي
وتصديقا له فدخلوا على السلطان محمود يلتمسون منه اتمام ما عرضه عليه منيب افندي فاتفق انهم حين
دخولهم قبل أن يبتدؤا بالحديث نظر السلطان محمود من الشباك ورأى اخراج جثة أخيه ميتا
فتألم من ذلك جدا والتفت اليهم وعيناه مغتسلتان بالدموع وقال لهم أسرعوا واهتموا بتكثير الجيوش
واحضار المهمات وارسال العساكر لانني أنا اليوم بحزن عظيم على موت أخي فحينئذ علم العلماء
موت السلطان مصطفى فتوقفوا عما كانوا يريدون عرضه عليه وأخذوا يدعون له بطول العمر
ويعزونه ويسلونه على فقد أخيه وكان ذلك في شهر جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين
وألف فمدة سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة وشهران وعمره ثلاثون سنة ولما استقرت
السلطنة للسلطان محمود كانت أمور الدولة في غاية الارتباك والاضطراب فمن ذلك ان عساكر
الروسية كانت تتقدم في جهة الطونة مسرعة تبعث السكان من حيث عظيم صدمتهم فلم يقدر أن
يوقف سيرهم فطلبت دولة فرانسا أن تتوسط في الصلح فرفض السلطان محمود مداخلتها لانه
تأكد من شروط السرية التي عقدها نابليون ملك فرانسا مع اسكندر ملك الروسية في تيلسيت
التي من شأنها تقسيم دول أوروبا فيما بينهم حتى بلاد الدولة العلية واستمر في مقاومة الروسية
ومحاربتهم ولكن كانت الغلبة لهم فاستولوا على مدينة شملة وقلعة اسمعيل وعلى عدة من المراكز حصينة
وضيقوا على العساكر العثمانية أشد مضايقة وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة واذا بطالع سعيد
بزغ في أفقهم وذلك أن نابليون الاول ملك فرانسا قد أعلن الحرب على الروسية سنة ألف ومائتين
وثمان وعشرين وسار بجيوشه الجرارة الى بلادها فالتزمت الروسية أن تخرج جيوشها من حدود الدولة
العلية وعقدت صلحا مع الباب العالي ولم تفقد الدولة العثمانية شيئا فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح
لتسكين الثورات في الولايات كبغداد والمدينة وغيرهما فانه في سنة ألف ومائتين وست وعشرين أخذ
سليمان باشا والي بغداد العصيان فأرسل اليه السلطان محمود من قتله

﴿ ذكر حرب المورة ﴾

وفي سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين تحركت اليونان في المورة وجاهروا بالعصيان على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون ويرمون الفتن في جميع الأطراف فشق ذلك على الدولة العلية وأرسلت العساكر لردعهم وادخالهم في الطاعة فنشبت الحرب بينهما وقامت على ساق وقدم وبعث الباب العالي الى محمد علي باشا والي ولاية مصر يأمره أن يرسل جيشا لمحاربتهم فأرسل ولده ابراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين ألف مقاتل مع عمارة بحرية ولما وصل الى المورة فتحها بجيشه في حين ستة أشهر ودارت نيران الحرب ولما أيس الاروام من محاربته طلبوا الاستقلال مستنجدين بالدول الاوروبية فبادرت دولتا فرانسا وانكلترا الى التوسط في الامر والسعي بالصلح ثم خابرت السلطان محمود فلم يقبل فانضمت اليهما العمارة الروسية وطلبوا الى ابراهيم باشا أن يوقف الحرب فأجاب أنه لا يقدر على ذلك الا بأمر من السلطان فعند ذلك أطلقوا النار على عمارتي الدولة ومحمد علي باشا فأحرقوهما وكان ذلك سنة ألف ومائتين واحدى وأربعين وبالنتيجة اضطر السلطان محمود الى اجابة سؤال الدول المتحدة وأمضى الصلح بشروط مخصوصة بعد حرب ونال الاستقلال الاروام

﴿ ذكر قتل عسكر الانكشارية ﴾

وفي سنة احدى وأربعين أيضا شرع السلطان محمود في تعليم بعض العسكر التعليم الجديد وشرع في تدبير الامر في تدمير الانكشارية وعدم وجودهم ثم أمر السلطان بأن يتحصن أقدم في وجاق الانكشارية وبيان الخلل الواقع منهم وتعديهم على الدولة وقتلهم بعض السلاطين وأمر ابراهيم باشا الصدر الاعظم أن يجمع العلماء في بيت شيخ الاسلام ويعلمهم الامر بذلك ففعل ذلك فأجابوا بالامتثال بتصديق الامر بالاتفاق وتعهدوا بانفاذه وكان مع الحاضرين جماعة يميلون الى الانكشارية فتعصبوا لهم سرا وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق فهجموا على بيت الصدر الاعظم وبعض عظماء من رجال الدولة وأخذوا ينادون في شوارع اسلامبول ويقولون اليوم قتل العلماء ورجال الدولة وكل من كان السبب في وضع النظام الجديد ويقتلون كل من صادفوه منهم وينهبون البيوت ويطرحون فيها النار ففر الصدر الاعظم منهم وجاء الى السلطان محمود وأخبره بتلك الحوادث فأمره أن يجمع الطوبجية وسائر أهل الاسلام أمام باب السرايا فاجتمع في ذلك النهار جم غفير من العلماء ورجال الدولة ينتظرون خروج السلطان اليهم فلما خرج اليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم فقسم جميعهم على أنهم يريقون دماءهم في صيانة أوامره وتنفيذها والتمسوا منه اخراج السنجق الشريف النبوي ليهجموا على العصاة فأراد السلطان أن يكون معهم فتوسلوا اليه

أن لا يتناول الى ذلك وأرسلوا ينادون في شوارع المدينة ويدعون أهل الاسلام للاجتماع تحت الصنجق الشريف فلما علم بعض الانقشارية بذلك أرسلوا أناسا من جماعتهم ينادون لاجتماع الانقشارية فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الاسلام أسرعوا الى فسحة السرايا أفواجا أفواجا ففرقوا عليهم السلاح وسلم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الاسلام قاضي زاده طاهر أفندي وعاد الى كرسيه الملوكي وكان يشرف على الجميع أمام السرايا وسار سليم باشا الصدر الاعظم أمام تلك الجموع التي كانت أكثر من خمسين ألفا وشنوا الغارة على الانقشارية صارخين الله أكبر على الاشقياء وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص وكان يوما مهولا عظيما فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف والباقون فروا الى قشلهم وتحصنوا فيها فهجم عليهم العساكر والاهالي وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم ومن بقي ولوا الادبار ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم في فسحة آت ميدان وبعد ذلك دعا السلطان اليه العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء الذين قتلهم العصاة الانقشارية طالبا ثمن دم السلاطين فأجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس فصدرت الاوامر بتدمير الانقشارية في الاستانة العلية وفي جميع الجهات فقتل منهم عدد كثير واستراحت الدولة والناس من مظالمهم وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية لكونهم يميلون اليهم ويساعدونهم ويصنعون في تكاياتهم أفعالا شنيعة محرمة وبدعا مستهجنة فأمر السلطان بقتل أكثرهم وهدم تكاياهم وأخذت الدولة في تكثير العساكر النظامية والجد في تعليمهم وأبطلت وجاق الانقشارية وفي أثناء ذلك حصل تغيير [illegible] السلطان محمود لبسه ونزع العمامة واتخذ زيا بزي العسكر الجديد على هيئة الاوروباويين ووضع الطربوش الصغير ومنع أقوال المعترضين

﴿ ذكر الفتنة مع الروسية ﴾

في سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند ظهور الدولة وسيرت جيشا الى جهة الاناطول فأرسلت الدولة عساكر لصدمتهم تحت قيادة الصدر الاعظم سليم باشا فوقع بين الفريقين حرب شديد وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة واستولوا على جهة [illegible] وتقدمت عساكرهم في [illegible] حتى [illegible] واستولوا على مدينة [illegible] الصدر الاعظم [illegible] في [illegible] بعض عساكر الدولة في [illegible] الروسية [illegible] وكانوا قد استولوا على [illegible] وكانت عساكر الروسية [illegible] الاناضول تتقدم [illegible] و [illegible] و [illegible] جيوش الروسية [illegible]

مقاتل وحاصروا أدرنة حصارا شديدا الى ان استولوا عليها ولما اشتد الامر على رجال الدولة وعلى السلطان محمود اضطربت الامور اضطرابا كثيرا الا ان السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان في وسط تلك الاخطار المحدقة به وبدولته ثم تداخلت دول أوروبا في الصلح وأتموه بشروط سنة خمس وأربعين ومائتين والف ومن تلك الشروط استقلال الاروام وتنازل الدولة عن اقاليم الصرب والافلاق والبغدان ونحو ذلك من أهل تلك البلاد تحت نظارة ملك الروسية وعن بعض جزائر عند فمهم اللطونة وعن بعض ارض في الاناطول مع غرامة حربية قدرها مائة وعشرة ملايين ريال قال بعض مؤرخي الغرب يتعجب تعجبا قويا كيف ان الدولة التي سادت على غالب ممالك العالم ووقعت الرعب في قلوب جميعهم لم تستمر في نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها الى ان يرتضوا هذه الشروط فاذا نظر الى هذا الامر بعين خبيرة عن غرض يحقق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف أمكن هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل في داخليتها بسبب أصحاب البغي والفساد وقلة الاموال والتزعزع أركانها لما شمرت في سلك الشدة العجيب ولم تستطع قوة أو سببا آخر ان يثنيها او يصدمها في هذه الاسباب حين مدى وقع فوق الانكشارية وعدم تمام انتظام الترتيب العسكر الجديد وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب والالة لا هو الا ترتيبها فحق العجب كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلا وسقطت ان تنقرض في هذه الدرجة مستهينة بكل الموانع التي عرضت في عهد أعظم رجالها على عظمها وسطوتها انتهى كلامه وأقول ان هذا سر الهي الذي يؤيدها وهو سر بركة الاسلام وسر بركة النبي صلى الله عليه وسلم وسر روحانيته التي يؤيد بها أمته وأهل دينه والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ذكر استيلاء الفرنسيس على الجزائر﴾

وفي سنة خمس وأربعين وألف ومائتين استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مدعين ان اهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر في تلك الجهات ويفتكون بهم فلما بلغ الباب العالي ذلك أرسل طاهر باشا قبودان باشا الي الجزائر ليتعاطى الصلح بينهم وبين احمد باشا والى الجزائر المذكورة وأراد النزول في البرمنتة الفرنساوية فعاد راجعا الى قسطنطينية والجزائر المذكورة كانت في حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان فانقضت مدة صار الولاة الذين فيها يتوارثون الولاية بالتغلب ويدفعون خراجا للدولة ويكون تحت أمر الدولة ظاهرا ومتغلبين باطنا فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعاليم الجديدة منعوا في الجزائر من ذلك يعني اكرها ولم يمتثلوا أمر السلطان في ذلك فقيل ان السلطان محمود

هو الذي سلط عليه الفرنسيس لتأديبه فجاؤا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر الى ان قبضوا على الباشا المتولي عليها وذهبوا به الى بلادهم وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر فلما تملكها الفرنسيس لم يرجع تلك الجزائر لحكم الدولة بل استولى عليها وبقي على ذلك الى عصرنا هذا

﴿ذكر القتال بين محمد علي باشا والسلطان محمود﴾

في سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وجه محمد علي باشا والي مصر جيوشه برا وبحرا لتملك الشام وجعل قيادتها لولده ابراهيم باشا فحاصر عكا وفتحها مظهرا الانتقام من عبد الله باشا والي عكا لأسباب كانت بينهما وفتح في طريقه غزة ويافا وحيفا فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد علي باشا برجوع العساكر وأنه اذا كان بينهما دعوى يقدمان الى الباب العالي فيحكم بينهما فلم يمتثل لأوامر الدولة فأبرزت الدولة فرمانا بعصيان محمد علي باشا وتنزيله عن ولاية مصر وصدر الأمر السلطاني لوالي حلب بجمع العساكر لمحاربة ابراهيم باشا وخرج حسين باشا بعساكر من الاستانة وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس فهزمهم ابراهيم باشا واستولى على الأقطار الشامية وقبض على عبد الله باشا والي عكا وأرسله الى الاسكندرية لأبيه محمد علي باشا ولما وصل ابراهيم باشا الى داريا قرب دمشق خرج اليه علي باشا وزير دمشق واشتبك الحرب بينهما فهزمهم ابراهيم باشا وخرج أهل دمشق يسألونه الأمان فأمنهم ودخلها وتقدم الى حمص واشتبك القتال بينه وبين والي حلب وكان يوما عظيما وحربا شديدا من أشهر الوقائع قتل فيه خلق كثير واستولوا على مهماتهم جميعها وانهزم والي حلب ورجع اليها فقفلت في وجوههم الأبواب فساروا الى انطاكية ولما وصل ابراهيم باشا الى حلب خرج أهلها لاستقباله فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات وأمن أهلها ثم سار الى انطاكية وهزمهم ثم الى بوغاز بيلان ولما بلغ الباب العالي تقدم العساكر المصرية سير رشيد باشا الصدر الأعظم بالجيوش لحربه فتقدم الى قونية والتقى الجيشان واشتبك القتال وانهزمت عساكر الدولة وقبض على رشيد باشا الصدر الأعظم وأتي به الى ابراهيم باشا فقابله بكل اكرام ثم خلى سبيله وامتدت هذه الفتنة والحروب الى سنة خمس وخمسين ومائتين وألف ثم صدرت الأوامر السلطانية الى حافظ باشا بتسيير محاربة ابراهيم باشا فالتقى الجيشان بقرب من مرعش واقتتلا ووقعت هزيمة أولا على عساكر ابراهيم باشا وكان في واد عسر فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادي وصعد الى أن كان تجاه معسكر حافظ باشا وأخذ يطلق عليهم المدافع فانفصل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم ثم هجم عليهم بعساكر هجمة ثانية فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين الى مرعش وقتل من الفريقين خلق كثير وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التي وقعت في تلك الحروب وأعقبها ابراهيم باشا بفتح

أكثر الجهات في تلك البلاد ولم تصل أخبارها الى القسطنطينية الا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام ومن فتوحاته اخراج الخوارج الوهابية من مكة والمدينة وتطهير الحرمين منهم وقد تقدم ذلك عند ذكر السلطان سليم بن مصطفى لكون ابتداء القتال مع الوهابية كان في مدة سلطنته لكن تمام الامر ماكان الا في زمن مولانا السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد فذلك من فتوحاته ومن فتوحاته المعنوية عتقه رقاب أهل الحرمين كان الاعتقاد انه صدرت الارادة الشاهانية من دونه بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية ووجد أن أكثر ذلك بيد الاغنياء والتجار كانوا يأخذونه من الفقراء بعوض حقير فصار الفقراء ليس لهم شيء فصدر الامر الشاهاني بنقض ذلك وتجديد كتابة دفاتر باسماء المستحقين فحصل تجديد ذلك في المدة التي كان فيها محمد علي باشا بمكة حين جاء لقتال الوهابية وكتب الله ذلك صدقة جارية في صحيفة مولانا السلطان محمود وصحيفة كل من كان له اعانة وتسبب في ذلك ومن حسنات السلطان المذكور وفتوحاته انه كان في مدة سلطنته تجديد قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة خديجة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة آمنة والدة النبي صلى الله عليه وسلم وقبة سيدنا عبد الله بن عباس بالطائف فان القبب المذكورة هدمها الوهابي وجددها مولانا السلطان محمود وهدم الوهابي أيضا قبابا كثيرة بالمدينة على قبور الصحابة وبعض الاولياء فجددها مولانا السلطان المذكور ومن خيراته وفتوحاته المعنوية انه جدد لاهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذي كان مرتبا لهم من أسلافه وذلك انه في سنة احدى وخمسين بعد المائتين والالف رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين والقائمين بخدمة المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة بعضها شهريات وبعضها سنويات واشترى لذلك عقارات كثيرة وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة فصارت حسنة جارية الى هذا الوقت يحصل منها كمال النفع والاعانة للمذكورين على معاشهم ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة ولم يكن ذلك موجودا قبل ذلك ثم ان ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم الى ذلك الترتيب مثله في مدة سلطنته كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكره وكانت مدة سلطنة السلطان محمود اثنتين وثلاثين سنة وعمره خمس وخمسون سنة وكانت وفاته تاسع عشر ربيع الاول سنة خمس وخمسين ومائتين وألف

﴿ ذكر ولاية السلطان عبد المجيد ﴾

وجلس على تخت السلطنة بعده ولده السلطان عبد المجيد فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد علي باشا واخراجهم من الشام وأعانه على ذلك دولة انكلترا وكانوا مرضوا على السلطان محمود

الاعانة لابي فلما توفي وتسلطن ولده السلطان عبد المجيد قبل اعانتهم فأعانوه وسير جيوشه الى الشام فهزموا عساكر ابراهيم باشا وأخرجوهم من الاراضي الشامية وأرادوا التوجه الى مصر والاسكندرية لاخراج محمد علي باشا فتوسطت دولة انكلترا بالصلح الى أن أتموه بشرط ان تكون الاسكندرية ومصر وأقطارها لمحمد علي باشا ولاولاده من بعده وضربوا عليه خراجا معلوما يدفعه في كل سنة ويرجع الى الدولة الشام والحجاز وتم الامر على ذلك وكانت مدة تملكه الاقطار الشامية قريبا من تسع سنين وفي مدة السلطان عبد المجيد قوي الاتحاد مع دولتي فرانسا وانكلترا الخنو له احدث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية فصدر منه الفرمان السلطاني بذلك سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وهي سنة جلوسه على تخت السلطنة

﴿ ذكر الحرب مع الروسية ﴾

في سنة تسع وستين ومائتين وألف كانت الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسية المسماة بحرب القرم وسببها انه وقع اختلاف بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القمامة وبعض الاماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهم تدعي لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستيلاء مفاتيحها ثم أخذت هذه المسئلة تتعاظم بينهما وتمتد يوما بعد يوم الى أن آل الامر الى النزاع والجدال في سنة ثمان وستين ومائتين وألف فوقع الباب العالي في ارتباك وحيرة من جهة تسكينها واخماد نارها لان الروسية كانت تحامي عن حقوق الروم وفرانسا تحتشد لطرف اللاتين ثم دخل سفير انكلترا في صرف هذا المشكل ورسم ترتيبا لائتلاف الملتين المتخالفتين فقبلته فرانسا ولم تقبله الروسية لان مقصدها الاتحد ولم يكن مقتصرا على المحاماة عن حقوق الروم بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها وهو ابعاد الدولة العثمانية من قارة اوروبا والاستيلاء على أقاليمها ولا يتم ذلك فتهز امبراطور روسيا القولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لها ولبغيته وبلوغ اربه فبعث سفيرا الى القسطنطينية لمقابلة السلطان عبد المجيد بعد ان كان جمع جيشا يبلغ مائة وأربعة وأربعين ألفا الى نهر الطونة ليكون مستعدا لوقت اللزوم والحاجة فلما وصل السفير المذكور الى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية ودخل رأسا على الحضرة الشاهانية وعرض عليه مطالب الامبراطور نقولا في مسئلة المتعلقة بالاماكن المقدسة وان جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية يكون تحت حمايته من الآن وصاعدا وان بطرك الروم القسطنطيني وباقي أساقفة الطائفة يكون نصبهم وتغييرهم منوطا به وان شكوى ودعوى التي تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لانها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للاصول وقوانين الدولة

فأتى السفير راجعا من حيث أتى واعلم الامبراطور نقولا بواقعة الحال فاستشاط غضبا أصدر أمرا إلى العساكر التي أرسلها إلى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولي على تلك الأطراف فاجتازت النهر وشنت الغارات على امارات الافلاق والبغدان واستولت عليها ولما تحقق الباب العالي قدوم ذلك الجيش إلى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية في تطلباتها لم تكن إلا وسيلة لاشهار الحرب فجهز جيشا وأرسله إلى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجري لردع الروسيين وقد تأكدت الدول الأوروباوية بغية الروسية ومقاصدها بادرت انكلترا وبروسيا والنمسا إلى عقد جمعية للنظر في اجراء وفاق بين الدولتين وأرسلت كل دولة منهن معتمدا من طرفها إلى مدينة فيينا حيث وجد هناك سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هناك مجلسا في سنة ألف ومائتين وسبعين هجرية فلم تأت بالمرغوب فلما لم يمكن ترتيب الصلح شهرت الدولة العلية الحرب وصدم سليم باشا العساكر الروسية في الأناضول وانتصر عليهم في عدة مواقع وهاجمهم عمر باشا في الرومايلي وانتصر عليهم أيضا وأما العمارة الروسية في البحر الأسود فصادمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديدة فأغرقتها وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاث مراكب حربية ثم إن انكلترا وفرانسا خافتا سوء نتائج هذه الحرب فاتحدتا لمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية في سنة احدى وسبعين ابتدأتا في نقل رجالهما ومهماتهما إلى ساحة الحرب واشتبكتا في القتال وأما باقي دول أوروبا فكانت محافظة على الحيادة وكانت دولة انكلترا قد أرسلت عمارة بحرية إلى بحر بلتيك فاستولت على قلعة بومارسوند ثم على جزيرة آلند ولكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظرا لحصانتها وإذ كانت سيواستبول أعظم قوات الروسية التي يعولون عليها في البحر الأسود وجهت انكلترا وفرانسا قوتهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فأرسلتا فرقة من عساكرهما عددها ستون ألفا وكان أكثرهم من الفرنساويين فنزلوا في بوبا سرايا وفيما كانوا يتقدمون إلى سيواستبول صادفتهم العساكر الروسية فتقاتل الفريقان قتالا شديدا إلى أن دارت الدائرة على الروسيين فانهزموا عند نهر الما وكان جيش عساكر الروسية يحاصر مدينة سلسترة ولم تقدر على أخذها فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا إلى الآخرين وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواستبول التي إليها وجهت الروسية كل قوتها من المهمات والعساكر والذخائر وصادم جيش من الانقليز جيشا للروسيين عند بالاكلا فانتصروا عليهم بعد ما فقد منهم خلق كثير وكان جيش للروسية محاصرا في قكرمان وعددهم ستون ألفا فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر

العثمانية والانقليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين وانجلت بانهزام الروسية والتزموهم حصن المدينة ولم يكن حينئذ في قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواسطبول مع انهم كانوا يزيدون في قوتهم الحربية ويكثرون مهماتهم وقنابرهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة وان يمنعوا المساعدات التي كانت تأتيها من داخل البلاد ولقد قاست العساكر المتحدة لاسيما الانقليز في شتاء سنة احدى وسبعين وشتاء اثنين وسبعين أهوالا وشدائد يكل اللسان عن وصفها وتعدادها فان الامراض والاوجاع قد أخذت في العساكر كل مأخذ وأهلكت كثيرا منهم فضلا عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والابخرة المنتنة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات أما ايطاليا فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت الى الدول المتحدة فأرسلت خمسة عشر ألف مقاتل بعد ما تعهدت لها انكلترا بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الاعانة واشتهرت رجالها في تلك المجامع بالشجاعة والثبات وفي خلال ذلك مات الامبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف وجلس ولده اسكندر الثاني مكانه وفي خلال ذلك وقعت وقعة ثانية بين الروسية والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسية واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف واذ لم يبق للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول في مساء ذلك اليوم وعولوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة القلعة وامتلكتها فافتتحت حينئذ مخابرات الصلح وعقدت جمعية في باريز سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحاربة وهي انكلترا وفرانسا والعثمانية والنمسا وبروسيا وسردينيا وأمضت شروط الصلح المتضمنة أربعة وثلاثين بندا أخصها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية وأن تكون مستقلة في حكمها كغيرها من الدول وان البحر الاسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيه من أي جنس كان ما عدا الدولة العثمانية والروسية فان لهما حقا في ادخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية لاجل محافظة سواحلها وأن لا يكون للدولة العثمانية ولا الروسية ترسانات بحرية حربية على شواطئ البحر الاسود الى غير ذلك من الشروط ثم انسحبت العساكر الى مواطنهم وانتهت الحرب التي ذكرناها دع عنك مطامع وفي سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالي مكة وعساكر الدولة بسبب ورود مرسوم بمنع الرقيق و نهت في رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة وتولية الشريف محمد بن عون و الكلام عليها طويل وفي سنة أربع وسبعين وقعت فتنة في جدة بين أهالي جدة والنصارى الذين بها بسبب اختلاف بعض أهل المراكب في وضع البيرق الاسلامي أو الانكليزي على بعض المراكب والكلام عليها أيضا

طويل وفي سنة ست وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام والكلام عليها أيضا طويل وفي سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين حدثت فتنة عظمى بين الدروز والنصارى في جبل لبنان آل الأمر الى وقوع حرب بين الفريقين وكانت النتيجة رديئة على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض وعدم انقيادهم لبعضهم ففتكت بهم الدروز فأرسل الباب العالي فؤاد باشا ليمهد الامور وينتقم من المذنبين وأرسلت فرانسا عشرة آلاف جندي للمحافظة ومنع التعدي وكذلك بقية الدول الافرنجية منها من أرسل مراكب حربية ومنها من أرسل نوابا للاصلاح الخلل وتمهيد الامور وتم جميع ما جرى ثم استحسنت الدولة العلية باتفاق الدول بوضع نظامات جديدة لاهل هذا الجبل وان تكون حكامه من الطائفة النصرانية من غير أهالي الجبل يكون تصرفهم تحت رأسة الباب العالي فتوجهت المتصرفية لداود باشا الارمني * ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية تجديد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فانه كان على بناء السلطان قايتباي وكان سقفه بالخشب فطالت مدته وحصل فيه خراب فصدرت ارادة مولانا السلطان عبد المجيد بهدمه وتجديده سنة ألف ومائتين وسبعين فهدم وجدد وجعل سقفه قببا وصار حرمه كمسجد آخر وتمت عمارته بعد مضي أربع سنين فجاء على صفة لم ير الراؤن أحسن منها وله عمارات كثيرة في الاماكن المنورة بالحرمين الشريفين وله تجديد ميزاب الكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وتوفي السلطان عبد المجيد في سابع عشر ذي القعدة سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره أربعون سنة ومدة سلطنته ثلاثة وعشرون سنة وستة أشهر

﴿ ذكر ولاية السلطان عبد العزيز ﴾

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عبد العزيز ابن السلطان محمود الثاني وفي سنة ثمان وسبعين أظهر العصيان أهل الجبل الاسود فسير السلطان عبد العزيز اليهم جيشا فقاتلهم وهزمهم ثم رجعوا الى الطاعة وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أظهر العصيان كثير من الاروام بجزيرة كريد وكثير من البندقية فجهزت الدولة عليهم جيوشا برا وبحرا وكذلك جهز صاحب مصر عساكر كثيرة برا وبحرا كانت مع عساكر الدولة ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد كان النصر فيها لعساكر الاسلام وذاقوا العصاة الويل وأرجعوهم الى الطاعة وفي سنة تسع وسبعين توجه السلطان عبد العزيز الى الديار المصرية للتنزه والتفرج وكان ذلك في ولاية اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا وفي سنة أربع وثمانين توجه السلطان المذكور الى باريز تخت ملك الفرنسيس للتنزه والتفرج أيضا ثم منها توجه الى بلاد الانكليز للتفرج والتنزه أيضا وكان في رحلته هذه مر على أدرنه وعلى قلعة بلغراد وكان الصرب قد طلبها منه وقيل النيمسا فأعطاها اياهم فحين عاين تحصينها

غضب لذلك وكانوا أخبروه أنها مهدومة وأنها مدينة كاسدة فأعطاها قبل أن يراها فلما رآها ندم حيث لا ينفع الندم وفي سنة ثمان وثمانين كانت فتنة عظمى ببلاد عسير فجهزت الدولة جيشاً تحت قيادة رديف باشا فسار حتى صعد جبال عسير وقاتلهم وهزمهم وقتل أميرهم محمد بن عائض بن مرعي وقتل معه جماعة من عشيرته وأسر كثيراً وأرسلهم الى الاستانة وصارت بلاد عسير في حكم الدولة العلية منضمة الى ولاية صنعاء واليمن وفي هذه السنة أيضاً كانت فتنة عظمى بين دولة البروسية وفرانسا آل الامر فيها الى هزيمة الفرنسيس وأسر ملكهم نابليون الثاني والكلام عليها طويل مفرد بالتأليف وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف في السابع من شهر جمادي الاولى خلع السلطان عبد العزيز ومات رحمه الله تعالى بعد خمسة أيام وعمره ثمان وأربعون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر

﴿ ذكر ولاية السلطان مراد الخامس ﴾

وأقيم في السلطنة بعد السلطان مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثاني ثم خلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام في ثالث شعبان من السنة المذكورة أعني سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف والسبب في خلعه انه وقع له خلل في عقله بعد أيام مضت بعد بيعته فلما تحققوا الخلل في عقله استفتوا فيه شيخ الاسلام خير الله أفندي فأفتى بخلعه لان شرط الخليفة أن يكون متصفاً بالعقل فخلعوه وبايعوا أخاه سلطان العصر مولانا السلطان عبد الحميد الثاني وبقي السلطان مراد المخلوع في داره وأما السلطان عبد العزيز فانه بعد خلعه بأيام قلائل أقل من الاسبوع توفي وشيع أنه قتل نفسه بقص عرق في ذراعه فأنت من ذلك وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف نفي جماعة من الوزراء الى الحجاز فحبسوهم في قلعة الطائف منهم مدحت باشا ومحمود باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد ونوري باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد أيضاً ومعهم جماعة آخرون غيرهؤلاء منهم شيخ الاسلام خير الله أفندي وفي سنة ثلاثمائة توفي مدحت باشا ومحمود باشا داماد في القلعة المذكورة وكان خلع السلطان عبد العزيز سبباً لاضطراب كثير وحوادث شتى وكان القائم الاكبر في خلعه حسين عوني باشا وكان السلطان عبد العزيز هو الذي رقاه وأعلى قدره الى أن جعله رئيساً على العساكر كلها بل صار مقدماً على جميع أهل الرتب والمناصب فرتب الامور مع الوزراء وغيرهم وزعم ان السلطان عبد العزيز تداخل مع الروسية وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة فان حسين عوني باشا وغيره يسعون في ذلك حتى تم لهم خلعه فقدر الله ان رجلا يقال له حسن جركس قتل حسين عوني باشا وذلك أن السلطان عبد العزيز كان متزوجاً أخته فأخذته حمية حين خلع السلطان عبد العزيز وعزم على قتل حسين عوني باشا فدخل عليه في دار

صدر أعظم محمد رشدي باشا فوجده مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة في بعض الامور وكان مع حسن جركس زوج من الطبنج ذوات الارواح المتعددة فضرب به ضربا متعددا وقتل جماعة من الحاضرين منهم حسين عوني باشا الساعي في خلع السلطان عبد العزيز ولم يتم لحسين عوني باشا شيء من مراده والله غالب على أمره ثم قبضوا على حسن جركس فقتلوه

﴿ ذكر ولاية سلطان العصر أطال الله عمره ﴾

هو السلطان ابن السلطان سلطان سلاطين العرب والعجم حاوي العلم والصلاح والكرم المتشرف بخدمة الحرمين الشريفين صاحب السيف والقلم * ظل الله في أرضه غياث بني آدم * نعمة الله على العباد وعدله على الحاضر والباد * ناصر الحق والدين * مؤيد شريعة سيد المرسلين * المحفوف بالسبع المثاني * أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني * أدام الله سرير الملك والخلافة بوجوده * وأعم على القريب والبعيد آثار فضله وجوده * وأنفذ في جميع البلاد أوامره وأحكامه * وأنشر على البرايا ألوية عدله وأعلامه * وأيده بتأييده وأيد به تأييدا وأجعل سلالة تلك السلطنة العلية سلسلة لا منتهي لها ولا نهاية * مستمرة على مرور الليالي والايام باقية الى آخر الزمن * آمين يا رب العالمين بويع أطال الله عمره بعد عمه وأخيه السلطان مراد في ثالث شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فكانت سلطنته زينة وبهجة وسرورا وامتد بها في مشارق الارض ومغاربها للاسلام نورا وقد كان من الحوادث في أول ولايته أنه وقع عصيان من بعض النصارى الداخلين في رعية الدولة العلية في بلاد الروم يلي بعضهم طائفة يقال لهم الصرب فجهز عليهم مولانا السلطان المذكور جيشا فقاتلوهم وكانوا قوما ضعفاء لا يحتاج الاستيلاء عليهم وقهرهم الى كلفة ولا الى كثرة عساكر الا أن الروسية تداخلت معهم وصارت تقويهم بأشياء كثيرة حتى اتسعت فتنتهم وانتشرت وأعانهم طوائف من النصارى الذين كانوا قريبا منهم الى أن صارت الحرب بين الدولة والروسية وصارت تلك الطوائف من النصارى مع الروسية وساقت الدولة بهذه الفتنة العساكر الكثيرة وأنفقت خزائن وفيرة لكن انهزمت بقدر الله جيوش الاسلام وأسر كثير منهم في بلونة وذلك بسبب محاصرة عساكر الروسية لهم في ذلك البلد وعدم امكان وصول الميرة اليهم لشدة البرد وكثرة الثلج وممن أسر من كبار عساكر الاسلام الوزير عثمان باشا الغازي قوماندان ذلك الجيش في بلونة ثم أطلق مع كثير ممن أسروا وكان اطلاقهم بعد انعقاد الصلح وملكت الروسية كثيرا من المدائن العظام الى أن وصلوا الى قريب أدرنة والكلام على هذه الفتنة طويل قد أفرد بالتأليف وختام الامر أن بقية الدول توسطت في الصلح بين الدولة العلية ودولة الروسية وانعقد الصلح سنة خمس وتسعين على أن يبقى تحت يد الروسية ما تملكوه من البلاد وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة

الحرب وكان شيأ كثيرا وتبقى للدولة أدرنة وما يليها الى دار سلطنة الدولة العلية وكان هذا الخلل انما دخل على المسلمين بعد خلع السلطان عبد العزيز ولا حول ولا قوة الا بالله وفي سنة ست وتسعين ومائتين وألف أعطت الدولة العلية جزيرة قبرس للانكليز على ان تكون بأيديهم سنين موقتة بشروط أن يدفعوا للدولة العلية قدر الخراج الذي كان يحصل منها وقد تقدم في هذا الكتاب تكرر وضع اليد على قبرس من المسلمين والنصارى مرارا كثيرة أولها من زمن الصحابة حين افتتحها معاوية رضي الله عنه وبعد ذلك صار المسلمون والنصارى يتداولونها تارة تكون بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء وفي سنة ست وتسعين ومائتين وألف خلع والي مصر اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا وقد كان محمد علي باشا انعقد الصلح بينه وبين مولانا السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف جعلت له مصر ولاولاده من بعده فلما صارت الولاية لاسمعيل باشا أراد حصر الولاية في أولاده ومنع اخوته وأولاد اخوته منها فتوجه الى دار السلطنة في مدة السلطان عبد العزيز سنة احدى وتسعين ومائتين وألف فتم له مراده وجعلوا ولاية مصر له ولاولاده الاكبر فالاكبر وكان الصدر الاعظم في ذلك الوقت في دار السلطنة هو محمد رشدي باشا الشرواني ثم ان الله قضى وقدر ان عاقبة هذا الامر الذي فعله اسمعيل باشا أول ما ظهر سوؤه عليه فانه في سنة ست وتسعين ظهر عليه كثرة ديون أخذها من الدول الاجنبية وأنفقها في غير حقها فتشوش أهل الديون على أنهم يضبطون خراجات مصر ومحصولاتها لاجل استيفاء ديونهم ثم أحس بذلك وأراد أن يجعل له عصبية ينتصر بها فاتحد مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهود ومواثيق على ان الامور كلها تكون بيد جمعية الاهالي وبشورتهم فلما أحس الانكليز والفرنسيس وغيرهم بنية هذه العصبية سعوا في خلعه ووافقهم على ذلك مولانا السلطان عبد الحميد فخلعوه في سنة ست وتسعين وجعلوا ولاية مصر لولده الاكبر محمد توفيق باشا ثم الباب تقرر قبل ذلك منع اخوته وبنيهم من دخولهم في الولاية من بعده وأن الولاية من بعده تكون لأكبر أولاده فقط مع اعانتهم ولده الاكبر وهو محمد توفيق باشا وتوجه والده اسمعيل باشا بعائلته وبعض أولاده الى بلاد ايطاليا وجعل له مرتب من محصولات مصر وخزينته وفي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف [illegible] دولة فرنسيس على تونس وأخذ [illegible] وخديعة واحتيالا فحصرت دولة فرنسيس شيأ كثيرا وأظهرت أنها تريد تأديب بعض قبائل العربان [illegible] في [illegible] تونس [illegible] وقهرهم ثم زحفوا [illegible] الى تونس ولم يستطع أحد أن يدفعهم [illegible] دخول تونس فاضطرب أهل تونس اضطرابا كثيرا ثم [illegible] صلح [illegible] طائفة من عساكرهم

تونس وأبقوا الباي علي ولايته بحسب الظاهر واستولوا في الباطن علي الاحكام والمحصولات والخرجات واستقبلوا الديون التي كانت علي والي تونس وصارت الامور كلها بأيديهم فلا حول ولا قوة الا بالله وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف كانت فتنة بمصر بين والي مصر محمد توفيق باشا وبين عرابي باشا وكان عرابي باشا من رؤساء عساكر محمد توفيق باشا واتسع الامر في ذلك فجاء الانكليز بعساكرهم بحرا لنجدة محمد توفيق باشا الي الاسكندرية وضربوا بمدافعهم علي الاسكندرية وقاتلوا الذين كانوا مع عرابي باشا وكان ذلك في شعبان ورمضان سنة تسع وتسعين ومائتين والف وطال الامر بطول الكلام بذكره وكانت الغلبة لتوفيق باشا ومن معه من الانكليز وتملكوا الاسكندرية وذهب عرابي باشا ومن معه الي مصر ثم صارت الانكليز بعساكرهم الي قتاله بمصر والكلام علي ذلك طويل وفي آخر الامر انهزم عرابي باشا ومن معه ثم دخلوا مصر وقبضوا علي عرابي باشا وعلي كثير ممن كانوا معه فقتلوا جماعة منهم ونفوا جماعة نفيا مؤقتا وجماعة نفيا مؤبدا وصار العفو عن قتل عرابي باشا ونفوه مع بعض من كانوا معه الي جزيرة سيلان من أعمال مليبار من بلاد الهند وجعلوا لهم فيها معاشات ورتبوا لهم مرتبات تكفيهم واستولي الانكليز علي القطر المصري ووضعوا عساكرهم في قلاعه وحصونه وقامت المحاكم وغير ذلك عند محمد توفيق باشا وأبقوه علي ولايته والانكليز مع ذلك كله يقولون ليس مرادنا الاستيلاء علي مصر وانما مرادنا الاصلاحات وتأييد محمد توفيق باشا واذا استقامت الامور وانتظمت أحوال مصر نخرج منها بخروج عساكرنا وفي سنة سبع وتسعين ظهر رجل بالسودان يسمي محمد احمد يقال انه المهدي وقام طالبا الامارة بحق المدعي انه المهدي ويقال انه شريف حسني وكان قبل ظهوره مشهورا بالصلاح ومن مشايخ الطرق قيل انه علي طريقة الشيخ السمان وأول ظهوره انتشرت كثرت اتباعه ومريدوه ووقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتمكنين بالسودان التابعين لصاحب مصر محمد توفيق ثم اتسع الامر بينهم وبينه الي القتال وقاتلهم مرارا وكانت الغلبة لمحمد احمد عليهم حتي استولي علي كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها فلما دخل الانكليز مصر صار الانكليز هو الذي يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الانكليز ومعهم عساكر مصر ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة يطول الكلام بذكرها والغلبة في تلك الوقائع كلها له عليهم تملك كردفان وكسلة والخرطوم وبربرة ودنقلة وغير ذلك وقتل منهم خلقا كثيرا لا يحصي عددهم وكان أمره معهم عجيبا يأتون اليه بالعساكر الكثيرة بالمدافع والآلات الشهيرة التي لا يطيق أحد مقابلتها فيقابلهم بجيوشه السودانيين وليس معهم الا السيف والرمح والسكاكين فيهجمون علي تلك العساكر في مواضعهم ومحط جيشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتي يخالطوهم ويقتلوا أكثرهم

من قرب طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف والسكاكين ويشتتون شملهم ومنهم جماعة في براري
سواكن قد ولى محمد احمد عليهم رجلا يسمى عثمان دقنه فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة
سواكن واخراج الانكليز والعساكر المصرية منها فخرجوا اليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم
ومدافعهم الشهيرة فهزمهم عثمان دقنه ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة وقتل الكثير
منهم حتى أنهم جاؤا في سنة اثنتين وثلاثة بنحو من سبعين مركبا مشحونة بالعساكر الكثيرة
والآلات والاستعدادات الوافرة وخرجوا لقتاله في البر قريبا من سواكن فهزمهم وقتل أكثرهم
وشتت شملهم وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم وأسبابهم والى هذا الوقت وهو شهر ذي
الحجة من سنة اثنتين وثلاثة وعثمان دقنه ومن معه من السودان في نواحي سواكن محاصرون
لها وفيها عساكر الانكليز وصاحب مصر قيل ان جيوش محمد احمد تبلغ الثلاثمائة ألف أو يزيدون
وأما دعوى أنه مهدي فتختلف فيها الناس من يقول انه يدعي أنه المهدي ومنهم من
يقول لم يدع أنه مهدي بل يقول انه قام لاظهار الحق واقامة الشريعة واخراج الانكليز
من مصر والله أعلم بحقيقة الحال والاكثر من الناس يقولون انه رجل صالح على غاية من
الاستقامة ومنهم من يقدح فيه وينسب اليه خلاف ذلك ويقولون ان جيوشه يقع منهم
فساد كثير وليس لهم غرض الا القتل والنهب وانهم في استيلائهم على كردفان وخرطوم
وغيرهما قتلوا جماعة كثيرا من المسلمين فيهم العلماء والصلحاء والنساء والاطفال وقيل ان
وقوع ذلك كان من بعض المفسدين منهم ولم يرض بذلك محمد احمد ولم يأمر به والله أعلم
بحقيقة الحال وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن نصر آخر هذه الامة في آخر الزمان
يكون بالسود فيحتمل أنهم هؤلاء ويحتمل أن يكونوا غيرهم وأن نصر الدين بهم في آخر
الزمن مأخوذ مما ذكره الخازن في تفسيره عند تفسير قوله تعالى * ثلة من الاولين وثلة من الآخرين
* من سورة الواقعة قال ما نصه ثلة من الاولين يعني من المؤمنين الذين قبل هذه الامة وثلة من
الآخرين يعني من مؤمني هذه الامة ويدل على هذا ما رواه البغوي باسناد الثعلبي عن عروة بن رويم
قال لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى ثلة من الاولين وقليل من الآخرين بكى عمر بن الخطاب رضي
الله عنه وقال يا رسول الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله عز وجل ثلة من
الاولين وثلة من الآخرين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال قد انزل الله
فيما قلت فقال عمر رضي الله عنه رضينا عن ربنا وصدقنا نبينا صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من آدم الينا ثلة ومني الى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الا السودان من رعاة الابل
ممن قال لا اله الا الله ه ومثل ذلك في تفسير الخطيب الشربيني وفي تفسير المسمى بالدر المنثور لجلال

السيوطي ان عمرو بن رويم يروي هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم وان الحديث المذكور أيضا رواه ابن مردويه وابن عساكر لكن اللفظ الذي ذكره في الدر المنثور وقال في آخره وأتي ثلة ولن تستكمل تلتاحق تستعين بسودان من رعاء الابل ممن يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له اه فيحتمل ان المراد من السودان هؤلاء القائمون مع محمد أحمد وعثمان دقنه ويحتمل أن يكون غيرهم والله أعلم بغيبه وكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لابد من وقوعه وروى ابن مكرم الافريقي في كتابه المسمى لسان العرب حديثا لم يذكر من خرجه وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم قد يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب اصحابه محسرون محقرون مقصون عن ابواب السلطان ومجالس الملوك يأتونه من كل أوب كقزع الخريف يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها فيمكن ان يكونوا هؤلاء السودان القائمون مع محمد احمد وغيرهم وقد ذكر كثير من العلماء بين أمور السائل في ظهور المهدي وعلاماته ان من علامات ظهوره خروج السودان منهم الجلال السيوطي والعلامة ابن حجر والعلامة المتقي والعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في كتابه المسمى بالاشاعة في أشراط الساعة ففي رسالة الجلال السيوطي المسماة بالعرف الوردي في علامات المهدي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه اذا خرجت السودان طلبت العرب ينكشفون حتى يلحقوا ببطن الارض أو ببطن الارض فبينما هم كذلك اذ خرج السفياني في ستين وثلاثمائة راكب حتى يأتوا دمشق فلا يأتي عليهم شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفا والاحاديث التي جاء فيها ذكر السفياني كثيرة شهيرة والكلام عليها طويل وهو يريد قتل المهدي عند ظهوره ثم يخسف بجيش السفياني ويهلكه الله تعالى وفي رسالة ابن حجر المسماة بالقول المختصر في أخبار المهدي المنتظر ان من علامات ظهور المهدي ألوية تقبل من المغرب وأن خروج أهل المغرب الى مصر من امارات خروج السفياني وذلك انما يكون عند ظهور المهدي وجهة السودان بالنسبة الى مصر مغرب فيحتمل أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وكذا قوله خروج أهل المغرب الى مصر يحتمل أن يكونوا هؤلاء لانه يصدق على الجهة التي ظهروا منها انها من المغرب بالنسبة لمصر ويحتمل أن يكونوا غيرهم والله أعلم بأسرار غيبه وأسرار أحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم ومن علامات ظهور المهدي الرايات السود التي تخرج من خراسان وجاء بها أحاديث كثيرة قال في الاشاعة يمكن أنها هي التي خرجت في زمن المهدي العباسي بن المنصور ويحتمل أنها أيضا تخرج عند ظهور المهدي المنتظر وفي شرح الشجرة النعمانية للشيخ صلاح الدين الصفدي عبارات تفيد ان الدولة العلية العثمانية تبقى قوتها وسلطنتها الى ظهور المهدي وانهم يكونون من أعوانه وأنصاره بأنفسهم وأموالهم وخزائنهم

وعساكرهم وآلاتهم وعددهم فيجب الدعاء للدولة العثمانية على كل مسلم والذي يقاتلهم يكون باغيا
خارجا عليهم قال والواجب على كل مسلم السعي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعدها واعانتهم في اظهار
الشريعة واحياء السنن واماتة البدع والدعاء لهم بالتوفيق فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لكل خير
وأن يلهمهم كمال الرشد والصلاح وكذا سائر وزرائهم وقضاتهم وعمالهم ثم ان هذا القائم
بالسودان وهو المسمى محمد احمد اما أن يكون باغيا خارجا على السلطان فيجب قتاله وان لم يدع
انه المهدي ويمكن أن الله أقامه لاخراج الانكليز من مصر اعانة للدولة العثمانية ولا يريد الخروج
على السلطان وانما يريد أن يكون من جملة رعايا الدولة العثمانية ثم يكون لاعانة المهدي ويؤيد
ذلك ما ذكره الجلال السيوطي في رسالته التي ألفها في علامات المهدي فانه ذكر فيها حديثا
أخرجه نعيم بن حماد عن أبي قبيل قال يكون أمير بافريقية ثنتي عشرة سنة ويكون بعده فتنة
فيموت رجل يملؤها عدلا ثم يسير الى المهدي فيؤدي اليه الطاعة ويقاتل عنه فيمكن أنه هو
هذا الرجل المسمى محمد احمد ويمكن أنه غيره والله أعلم بأسرار غيبه وقيل ان الذين يشيعون
انه هو المهدي انما هم بعض أتباعه ليرغبوا عامة الناس في اتباعه والدخول في طاعته واما هو فانه
لم يدع انه المهدي بل قال بعض من اجتمع به انه سمع منه بلا واسطة انه يقول اني لست أنا المهدي
المنتظر وانما قمت لاظهار الحق واقامة الشريعة واما ان ثبت انه يدعي انه هو المهدي المنتظر
فالأمر مشكل لان المهدي المنتظر لا يدعي انه المهدي ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل
الناس لتحصيلها ولا يبايع الا وهو مكره بل لا يبايعه الناس حتى يتهددوه بالقتل وذلك ان الله
يطلع بعض من خاصته من صالحي زمانه على علاماته فيعرفون الناس عليه فيطلبونه فيفر منهم
من زمان ثم يمسكونه ويكرهونه على البيعة ويتهددونه بالقتل ولا يكون ظهوره وبيعته الا
والناس بلا خليفة أخذا من حديث يحصل اختلاف عند موت خليفة وهو أصح حديث روي
في هذا الباب وأما الآن فالناس لله الحمد لهم خليفة وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد
ابن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد وبيعته في أعناق المسلمين وسلسلة سلطنته من أحسن
الدول الاسلامية مقيمين الشريعة السنية المحمدية بنصوصها وهم بيت نصرة أهل السنة
المحمدية قامعين أهل البدعة الردية فلا يجوز نزع بيعته ولا الخروج عن طاعته ثبت الله دولته
وأيد سلطنته فمن نزع بيعته وترك طاعته أو خرج عليه فهو باغ معتد ويشترط من علامات المهدي
المنتظر أن يكون من ولد فاطمة رضي الله عنها وذكروا أن ظهوره وبيعته يكونان في مكة
ولا يصح أن يكون ظهوره وبيعته في غيرها كما قال الجلال السيوطي في العرف الوردي في
علامات المهدي وما قاله القرطبي ان خروج المهدي يكون من المغرب فهو بعيد وقد تقدم

السيوطي على ذلك العلامة العلقمي والعلامة الصبان في رسالته التي ألفها في علامات المهدي فكل منهما قال كما قال السيوطي ان قول القرطبي ان ظهور المهدي يكون بالمغرب باطل وقال بعضهم يمكن حمل كلام القرطبي على غير المهدي المنتظر فان كثيرا من ادعى كل منهم أنه المهدي كان ظهورهم بالمغرب كمحمد بن تومرت وعبيد الله العبيدي جد ملوك افريقية ومصر وخلق كثير غير هذين ادعى كل واحد منهم أنه المهدي بالمغرب وغيره وذلك لان المهديين متعددون والمهدي المنتظر واحد وهو الذي يكون من ولد فاطمة ويكون ظهوره بمكة والناس بلا خليفة ويبايع مكرها ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس لتحصيلها ويكون في زمنه خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به ومما يدل على أن المهديين متعددون والمهدي المنتظر واحد ما ذكره العلامة ابن حجر في الصواعق المحرقة لاهل الضلال والزندقة حيث قال حكى قوم من قال ان المهدي من ولد العباس وهو والده ارون الرشيد واسمه محمد المهدي بن عبد الله المنصور بناء على الاحاديث المذكورة فيها أن المهدي من ولد العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقال انه من أحسن خلفاء بني العباس وهو فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية ثم قال ابن حجر موجها لقول هذا القائل ويمكن أنه مهدي من ولد العباس وهو غير المهدي المنتظر فان المهدي المنتظر من ولد فاطمة رضي الله عنها ويكون في زمنه خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به فهذه العبارة صريحة في تعدد المهديين وجمع بعضهم بين الاحاديث التي فيها أنه من ولد فاطمة والاحاديث التي فيها أنه من ولد العباس بطريق آخر فقال ان المهدي المنتظر من ولد فاطمة من جهة أبيه ومن ولد العباس من جهة أمه بأن تكون أمه أو أم بعض آبائه من ولد العباس وكلام ابن حجر في رسالته التي في علامات المهدي يقتضي أيضا تعدد المهديين وان المهدي المنتظر واحد فانه قال فيها والذي يتعين اعتقاده ما دلت عليه الاحاديث الصحيحة من وجود المهدي المنتظر وهو الذي يخرج الدجال وعيسى عليه السلام في زمنه وهو المراد حيث أطلق المهدي وأما من قبله فليس واحد منهم هو المهدي المنتظر ويكون بعد المهدي أمراء صالحون لكنهم ليسوا امثاله فهو الاخير في الحقيقة وكذلك غير ابن حجر ممن ألف رسائل في علامات المهدي كلهم يقتضي كلامهم تعدد المهديين وان المهدي المنتظر واحد وانما قالوا بذلك التعدد لانه قيل في محمد بن الحنفية انه المهدي وقيل في عمر بن عبد العزيز انه المهدي وقيل في محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط انه المهدي فهولاء أطلق على كل واحد منهم أنه المهدي فيثبت بذلك تعدد المهديين قطعا لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدي المنتظر فالمهدي المنتظر واحد وهو لم يظهر الى الآن فيمكن حمل كلام القرطبي على

غير المهدي المنتظر ممن كان خروجهم بالمغرب ولا يمكن حمل كلامه على المهدي المنتظر لأنه انما يظهر بمكة والناس بلا خليفة كما تقدم ايضاحه وكذلك لا يصح قول من قال انما يكون ظهور المهدي المنتظر من ماسة بالمغرب فهو قول باطل لا أصل له كما نبه على ذلك العلامة ابن خلدون في تاريخه فانه قال ان القول بظهوره من ماسة باطل لا أصل له وانما نشأ ذلك من رجل من المتصوفة خرج بالسوس الاقصى وعمد الى مسجد ماسة وزعم انه الفاطمي المنتظر تلبيسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأفهمهم أن من ذلك المسجد تكون أصل دعوته فتهافتت عليه تهافت الفراش طوائف من عامة البربر ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدسوا اليه من قتله في فراشه وانطفأت الفتنة والحاصل ان الذي تقتضيه الأحاديث النبوية وصرح به العلماء أن المهدي المنتظر الى هذا الوقت لم يظهر وذكروا له علامات كثيرة بعضها مضى وانقضى وبعضها باق لم يظهر ومن أعظم علاماته أنه يصلحه الله في ليلته وأنه من ولد فاطمة رضي الله عنها وأنه يبايع مكرها لانه يطلب البيعة لنفسه ويقاتل الناس لتحيلها اليه لا يبايع حتى يتهدد بالقتل وان ظهور بيعته له انما يكون بمكة بين الركن والمقام وأن ظهوره انما يكون عند وجود اختلاف بموت خليفة فلا يظهر ويبايع الا والناس بلا خليفة فهذه الاشياء هي أقوى العلامات عليه وله علامات كثيرة غير هذه ذكرها الذين ألفوا الرسائل في تحقيق أمره لكن تلك العلامات ظنية ويختلف في كثير منها وذلك مثل اسمه واسم أبيه وموضع ولادته ومقدار عمره ووقت ظهوره ومدة مكثه في الارض بعد ظهوره فكل هذه الاشياء مختلف فيها فقيل في مقدار عمره وقت ظهوره انه ابن اربعين وقيل انه ابن عشرين وقيل انه ابن ثمانية عشر وقيل غير ذلك وقيل في مدة مكثه بعد ظهوره انه سبع أو تسع سنين وقيل انه أربعون وقيل عشرون وقيل غير ذلك وقيل في اسمه انه محمد وقيل أحمد وهل هو من ولد الحسن أو الحسين أو العباس وجمع بعضهم بأنه من ولد أحد الحسنين من جهة أبيه ومن ولد الآخر من جهة أمه وفي بعض أمهاته من هي من ولد العباس والاحاديث التي جاء فيها ذكر ظهور المهدي كثيرة متواترة فيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن وفيها ما هو ضعيف وهو الاكثر لكنها لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة مخرجيها يقوي بعضها بعضا حتى صارت تفيد القطع لكن المقطوع به أنه لابد من ظهوره وأنه من ولد فاطمة وأنه يملأ الارض عدلا نبه على ذلك العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في آخر الاشاعة بأن تحديد ظهوره بسنة معينة لا يصح لان ذلك غيب لا يعلمه الا الله ولم يرد نص من الشارع بتحديده وقد ذكر كثير من المتقدمين من علماء تحديد ظهوره في سنين عينوها بنص وتخمين فلم يخرج فيها فخطأوا في ظنهم وتحديدهم ويؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم في المهدي يصلحه

الله في ليلة أن المهدي لا يعلم بنفسه أنه المهدي المنتظر قبل وقت ارادة الله اظهاره ويؤيد ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف المخلوقات لم يعلم رسالته الا وقت ظهور جبريل له بغار حراء حين قال له اقرأ باسم ربك الذي خلق وأما قبل ذلك فكان يرى منامات كثيرة تأسيسا لرسالته وتقوية لقلبه لكنه لم يعلم أن المراد منها تأسيس الرسالة حتى انه كان كلما رأى مناما من تلك المنامات يخبر زوجته خديجة رضي الله عنها ويشكو اليها حاله فكانت تثبته وتقول له كلاما يقوي به قلبه كما هو موضح في كتب الحديث فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد ظهور جبريل عليه السلام له وقوله له اقرأ باسم ربك فكذلك المهدي المنتظر لم يعلم انه المهدي المنتظر الا عند ارادة الله اظهاره ولذلك يمتنع من البيعة حتى يهدد بالقتل ويبايع مكرها فهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم يصلحه الله في ليلة فيستفاد من ذلك أنه لم يعلم أنه المهدي المنتظر الا وقت ارادة الله اظهاره فكل من يدعي انه هو المهدي المنتظر ويطلب البيعة لنفسه ويقاتل الناس لتحصيلها فهو مخالف لما صرحت به أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد ادعى هذه الدعوى كثيرون فيما تقدم من الازمان ولم تثبت دعواهم وكان بسببها فتن ووقائع وحروب مذكورة في التواريخ وقد جمعت أسماءهم ووقائعهم باختصار في رسالة مستقلة يعلم من وقف عليها أن كل من ادعى هذه الدعوى لا تتم له ولا تتم الا اذا جاء على طبق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لانه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى وقد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه كلاما يليق ان تعلق بهذا المبحث فنذكر ملخص ذلك تتميما للفائدة وحاصل ذلك ان الذين يدعون هذه الدعوى اما أن يكونوا موسوسين أو مجانين فلا علاج لهم الا التنكيل بالقتل أو الضرب ان أحدثوا فتنة والا يسخر بهم وتذاع السخرية بهم والصفع في الطرق أو الاسواق واما ان يكونوا من طالبي الرياسة والملك فيجعلون هذه الدعوى وسيلة لذلك ويعملون حيلا فمنهم من هلك ومنهم من ظفر واقتطع من الملوك والمناصب ما حصل لهم فتنة بهذه الدعوى وقد يكون بعض من ادعى هذه الدعوى من الصالحين يريد اظهار الحق ويتخيل له انه هو المهدي فيخطئ في ذلك ولا يعرف ما يلزمه وما يحتاج اليه في اقامة الحق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان الله لم يكتب عليه في ذلك اثارة فتنة ولا أمر الله تعالى به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول قوية راسخة لا يزحزحها ولا يزلزلها الا المطالبة القوية التي من ورائها العصبية بالقبائل والعشائر وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله تعالى بالعشائر والعصائب

وهم المؤيدون من الله تعالى بالكون كله لو شاء لكنه سبحانه وتعالى انما أجرى الامور على مستقر العادة وانه حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما ان كان من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر ان تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لان أمر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وكل أمر يجتمع عليه كافة الخلق لابد له من العصبية وفي الحديث الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق لهم العوائد في الغلبة بغير عصبية والغفلة عن هذا هي أكثر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله تعالى فيكثر تابعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين وكثير منهم يدعي أنه المهدي المنتظر ولم تصح دعواهم ويتبعهم كثير من العامة والاغمار ممن لا يرجعون الى عقل يهديهم ولا علم يفيدهم يستحيون لكثير ممن يدعون هذه الدعوى ما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر وأكثر ما يكون ذلك في الممالك القاصية وأطراف العمران بافريقية والسوس من المغرب ونجد كثيرا من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم وانهم قائمون بدعوة انه الفاطمي يزعمون ذلك زعما لا مستند له الا البعد عن القاصية عن مدى الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام في ظهور الفاطمي من ذلك الموضع لخروجه عن ربقة الدولة ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هذا لوهم وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تمثل عن وسواس وحمق وقد قتل الملوك والرؤساء كثيرا منهم ثم قال أخبرني شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر يوسف بن يعقوب المريني رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري وادعى أنه الفاطمي المنتظر وتبعه الكثير من أهل السوس من كدالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة وعلماؤهم فدس عليه السكسوي من قتله بياتا وانحل أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة في عشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي المنتظر وتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل

بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة عن مثل هـذا وهو انه صحب في حجه رجلا من أهل البيت من سكان كربلا كان متبوعا معظما كثيرا التلامذة وكان يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان وتأكدت الصحبة بيننا في الطريق ثم كشف لي عن أمرهم وانهم انما جاؤا من مواطنهم بكربلا قاصدين أرض المغرب لاظهار دعوى انه الفاطمي المنتظر فلما وصل الى المغرب وعاين دولة بني مرين وكان أمير المسلمين يوسف بن يعقوب في ذلك الوقت منازلا تلمسان فلما رأى قوة ملكه قال ذلك الرجل لاصحابه ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا وهذا يدل على أن ذلك الرجل مستبصر في أن الامر لايتم الا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك الموطن ولا شوكة له وان عصبية بني مرين في ذلك الوقت لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع الى الحق واقصر عن مطامعه وبقي عليه أن يستيقن ان عصبية الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت لاسيما في المغرب الا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لاتعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة الى الحق والقيام بالسنة لاينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه وأكثر مايعتنون باصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون به الاقصار عن الغارة والنهب ولا يعقلون في توبتهم واقبالهم الى مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها ومنها توبتهم وتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمق في فروع الاقتداء والاتباع وانما دينهم الاعراض عن النهب والبغي وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى قصدهم وشتان بين هذا الطالب للدنيا وبين من أراد اصلاح الخلق بكل ما يحتاجون اليه من أمر دينهم فاتفاقهما ممتنع لا تستحكم للاول صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعيه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة في المائة السابعة ثم من بعده لرجل من بادية رياح كان أشد دينا من الاول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمرهما وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت الفتنة بين الامين

والمأمون ابني الرشيد وقتل الامين وكان المأمون بخراسان فابطأ عن مقدم العراق وأراد انتزاع الخلافة من بني العباس ونقلها للعلويين فجعل ولي عهده عليا الرضى بن موسي الكاظم بن جعفر الصادق فهاج من ذلك فتن كثيرة ببغداد واجتمع بنو العباس وكشفوا وجه النكير على المأمون وتداعوا للقيام وخلعوه وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي فوقع الهرج وكثر القتل والنهب ببغداد وانطلقت أيدي الدعار بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الاسواق ورفع أهلوها أمرهم الى الحكام وقد ضعف أمرهم فلم ينصفوهم فتوافر أهل الدين والصلاح وتعاقدوا على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل بهم أهل الدعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر يعرف سهل بن سلامة الانصاري وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لاولئك الشطار وقال له القائم الاول وهو خالد الدريوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين فجهز ابراهيم بن المهدي بعد ان بويعه بنو العباس جيشا لقتال سهل بن سلامة فغلبه وأسره وانحل أمره سريعا وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه في اقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم ثم ذكر كثيرا من الاحاديث التي جاءت في المهدي وضعف كثيرا منها ثم قال والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون وقد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش الا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع والمدينة من الطالبيين من حسن وحسين وجعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب متفرقة فان صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته الا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى يتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه فلا يتم ذلك لما أسلفناه من البراهين الصحيحة انتهى ما أردت نقله من كلام ابن خلدون ورأيت في كثير من الرسائل المؤلفة في شأن المهدي أنه لا يتم أمره الا بالقيام بالشريعة الغراء وانه يكون على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم

والخلفاء الراشدون و يفيض الله على الخلق نورا ببركته فيتبعونه ويقتدون به في جميع شؤنه وأفعاله وأقواله وأحواله حتى يكون حالهم كحاله ووصفهم كحال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ووصفهم لان الناس على دين ملوكهم فاذا استقام خليفة المسلمين وصار كالخلفاء الراشدين فانهم كلهم يستقيمون واذا زهد في الدنيا يزهدون وملاك الامر كله هو الزهد في الدنيا وعدم التبسط فيها ومن الامثال القديمة الناس على دين ملوكهم وذكروا ان السبب في هذا المثل ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان مشغوفا بتشييد البنيان فكان الناس في زمانه ليس لهم همة الا تشييد البنيان والقصور وفي ذلك طول الامل والغرور ثم ولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مروان فكان مشغوفا بكثرة الاكل وتنويع الاطعمة وتكثير الالوان فكان الناس في زمانه يتفاخرون بالتوسعة في تنويع المأكولات وينهمكون في التلذذ بالشهوات وفي ذلك أعظم البليات ثم ولى بعد سليمان ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان الملحق بالخلفاء الراشدين فكانت همته في الاشتغال بالطاعات والعدل واقامة الدين فكان الناس في زمنه راغبين في فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات فقالوا الناس على دين ملوكهم فالخليفة الاعظم هو القدوة لجميع المسلمين وأعظم شئ يقتدون به هو فيه فيكون به صلاحهم وانتظام أمرهم واتفاق كلمتهم والزهد في الدنيا والتناول منها بقدر الضرورة والحاجة وترك الفضول الذي لا يحصل الا بتعب والحاجة فان حب الدنيا رأس كل خطيئة وبلية والزهد فيها أصل كل خصلة سنية ولا يكون الزهد من العامة الا بعد زهد الخاصة فان الخاصة هم العمدة في ذلك والمراد من الخاصة الملوك والسلاطين والامراء والقضاة والعلماء وأولى من يطلب الزهد في الدنيا الخليفة الاعظم الذي أقامه الله لاصلاح أمور الدنيا والدين واحياء الشريعة وقتال الكفار ودفع المفسدين قال الامام الطرطوشي في كتابه المسمى سراج الملوك ان الخليفة اذا عدل في بيت المال وساوى نفسه بالمسلمين في الاخذ من بيت المال بقدر الحاجة كان المسلمون كلهم عسكرا للاسلام اه والحاصل انه اذا زهد في الدنيا واقتصر على قدر الحاجة والضرورة في جميع الاحوال يتبعه على ذلك الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وجميع الناس من الرجال والنساء والاغنياء والفقراء فاذا حصل ذلك يسهل حينئذ اقامة الشريعة والقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتصير همة الجميع متوجهة لاتحاد الكلمة والاجتماع على منهج الشرع فتظهر فتحيا بذلك السنن التي أميتت وتزول البدع التي اذيعت وتقبل الناس على جهاد الكفار وفعل كل الطاعات فان الكفار انما تغلبوا على المسلمين بسبب رغبة المسلمين في الدنيا واقتحامهم المعاصي لتحصيلها فلا يزيلون منكرا لان أكثر المنكرات يتوصلون بها الى تحصيلها وازالتها مخالفة لاغراضهم الذين هم بصددها فلا يمكن استقامتهم على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

ومادامو لم يكونوا كذلك لا يستقيم لهم أمر وقد صح عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه كان كثيرا ما يقول في خطبه ومجالسه ان هذا الامر لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا يحتمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه فهذه العبارة نص صريح في أنه لا يستقيم أمر المسلمين حتى يكونوا كما كان الصحابة رضي الله عنهم ومادام الخليفة الاعظم يتبسط في الدنيا ويأخذ من بيت المال ما أراده مما زاد عن حاجته الضرورية ويتكرم في العطاء بما شاء على من شاء ولا يراعي في ذلك القواعد المشروعة ولا يسلك مسلك الخلفاء الراشدين فان الناس يتبعونه فلا يمكن حصول الاستقامة لهم ولا تتحد كلمتهم ولا ينتظم أمرهم ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر بل يصيرون كلهم يطلبون الدنيا ويتلذذون بالشهوات ويرتكبون لتحصيلها أنواع الخطيئات لان الله تعالى أجرى عادته بين العباد أن يكون الناس على دين ملوكهم فهذا هو السبب في عدم اتحاد المسلمين وافتراق كلمتهم وأما في زمن المهدي فانه يسلك مسلك الخلفاء الراشدين ويزهد في الدنيا ولا يأخذ من بيت المال الا بقدر الضرورة والناس يكونون في زمنه على طريقته يفعلون كما يفعل فظهر بهذا أنه اذا زهد الخليفة الاعظم في الدنيا وعدل في بيت المال وأخذ منه بقدر حاجته الضرورية من غير زيادة له ولخدمه وأتباعه واتخذ له من الخدم الذين يقومون بخدمته بقدر الحاجة الضرورية أيضا من غير زيادة يتبعه على ذلك كافة الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وجميع الابرار والتجار والخليفة أمين على بيت مال المسلمين لا يتصرف في شيء منه الا بحسب المصلحة العائدة بالنفع على الاسلام والمسلمين فهو مثل قيم مال اليتيم لا يتصرف الا بالمصلحة الظاهرة فان كان له مال خاص به يستعف به عن الاخذ من مال المسلمين فلا يأخذ شيئا وان لم يكن له مال يأخذ بقدر الحاجة والضرورة كما قال تعالى ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فاذا فعل ذلك اقتدى به الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وكافة الخلق فتتحد قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويقبلون على فعل الطاعات ويعرضون عن فعل السيئات ويتركون التلذذ بالشهوات فيتم اجتماعهم على نصرة الدين ويصيرون كلهم عسكرا لنصرة الاسلام ويقوي عزمهم على قتال أعدائهم من القوم الكافرين وأما اذا تبسط الخليفة في مال المسلمين وتبعه الوزراء والامراء والقضاة والعلماء فلا تطيب قلوب بقية المسلمين ببذل أموالهم وأنفسهم وأولادهم في قتال الكافرين حيث يرون ملوكهم ينهبونهم وما كان انتصار الصحابة على القوم الكافرين وتحصيلهم البلاد الواسعة مع الاتحاد واتفاق الكلمة الا بسبب مساواة أمرائهم لهم في جميع شؤونهم وما حصل افتراق الكلمة وعدم ائتلاف القلوب الا لما استبد الملوك بالاموال وتبسطوا فيها وترفعوا على بقية المسلمين وأكثروا من المكوسات والظلم بأخذ أموالهم وصرفوها في غير مصارفها فشق على

المسلمين تميزهم عنهم وترفعهم عليهم بأموالهم التي أخذوها منهم بغير حق ولا يظن ظان ان الخلفاء الراشدين انما فتحوا الامصار وانتصروا على الكفار بكثرة الصلاة والصيام بل انما كان ذلك بزهدهم في الدنيا وعدم تبسطهم بها وعدلهم في بيت المال والحرص على مساواتهم للمسلمين فطابت قلوب بقية المسلمين فبذلوا أموالهم وأنفسهم وأولادهم وجاهدوا الكفار وفتحوا البلاد حتى كان الغزاة يتجهزون للغزو من أموال أنفسهم ويجهزون من غيرهم ان قدروا على ذلك ونفوسهم طيبة بذلك وتأبى نفوسهم أن يأخذوا من بيت المال شيأ اذا كان لهم ما يفي بذلك لانهم يرون مساواة بينهم وبين الخلفاء في جميع تلك الشؤن وذلك سنة حسنة والامراء والعلماء هكذا المسلك يرتفع عن المسلمين المكوسات والضرائب وينتفي عنهم جور الحكام لانهم لا يجورون عليهم ولا يتبسطوا في أموالهم ويتلذذوا بها واذا ساوى الحكام رعاياهم وعدلوا في بيت المال تستحي نفوس الاغنياء بعطاء الفقراء ويواسونهم وتقنع نفوس الجميع بأقل القليل فلا يبقى في المسلمين فقير وينقاد الناس للحق وينصفون من أنفسهم فتزول المخاصمات التي كانت بينهم وتقل مرافعاتهم الى الحكام ويحصل بينهم كمال المحبة والائتلاف ويرتفع كل شقاق واختلاف واذا عدل الخليفة في بيت المال وسلك في ترك التبسط في الدنيا طريق النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كان قدوة للمسلمين ويكون له من الاجر مثل أجر من عمل بمثل عمله من المسلمين وكان سببا في اتحاد المسلمين وائتلاف قلوبهم واتفاق كلمتهم وانتصارهم على القوم الكافرين ويكون له في ذلك من الله الرضا والرضوان في الدنيا وجنات النعيم وتقر بذلك عين النبي صلى الله عليه وسلم فانه بالمؤمنين رؤف رحيم ويستحيل أن يحصل لهم شيء من ذلك والخليفة لم يكن كذلك لانهم انما يفعلون ما يفعل وحالهم عن ذلك لا يتحول والتبسط في الدنيا من أعظم أسباب الفسق الموجب للهلاك قال تعالى * واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا * وعدم التبسط في الدنيا هو ملاك الامر وليس على الخليفة في سلوك هذا الطريق مشقة ولا ضيق ولا منع من ادراك الحق ولا تعويق ويشبع بنيته من الاكل والشرب والنكاح بغاية الراحة والتلذذ والحاصل ان استقامة الخليفة حتى يكون كالخلفاء الراشدين في عدله في بيت المال هو السبب الاعظم في اجتماع كلمة المسلمين واتحادهم في جميع الاحوال وعدم عدله في بيت المال سبب للافتراق في الحال والمآل ولو صام النهار وقام الليالي الطوال وبدون استقامة الخليفة وعدله في بيت المال كالخلفاء الراشدين لا يرجى للمسلمين فلاح ولا يتم لهم اتحاد ولا نجاح ولذلك ذكرت نبذة مما كان من الزهد وترك التبسط في الدنيا مما كان صادرا من النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لتعلم ان انتظام أمور المسلمين بدون ذلك محال واتحادهم بغير سلوكه مكابرة وجدال

﴿ خاتمة نسأل الله حسنها نذكر فيها ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من الاقتصاد وحسن السيرة ﴾

ذكر ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم من الاقتصاد في الدنيا وما كان عليه من مكارم الاخلاق * كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس واعف الناس لم تمس يده قط امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه الى من يحتاج اليه لا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله لا يسئل شيأ الا أعطاه ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى انه ربما احتاج قبل انقضاء العام ان لم يأته شيء وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ويقطع اللحم معهن وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن اجابة الامة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب لنفسه وينفذ الحق وان عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة الى انسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال انا لا انتصر بمشرك ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وان بأصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وان وجد تمرا دون خبز أكله وان وجد شواء أكله وان وجد خبز بر وشعير أكله وان وجد حلوا أو عسلا أكله وان وجد لبنا دون خبز اكتفى به وان وجد بطيخا أو رطبا أكله لا يأكل متكئا ولا على خوان منديله باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى ايثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر وأبلغهم في غير تطويل وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا ويلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يماني ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الايمن مرة والايسر مرة يردف خلفه عبده وغيره ويركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلته الشهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى في أقصى المدينة يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ويجالس الفقراء ويواكل المساكين ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم يصل

ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم لا يجفو على أحد يقبل معذرة المعتذر اليه يمزح ولا يقول الا حقا يضحك من غير قهقهة يرى اللعب المباح فلا ينكره يسابق أهله وترفع الاصوات عليه فيصبر وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها وكان له عبيد واماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه يخرج الى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا لملكه يدعو هذا وهذا الى الله دعاء مستويا قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحاري في فقره وفي رعية الغنم يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الاخلاق والطرق الحميدة وأخبار الاولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط لكن ان أعجبه أكله وان كرهه تركه وان عافه لم يبغضه الى غيره وكان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم ان أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب وكان أكثر طعامه الماء والتمر وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الاطيبين وكان يأكل خبز الشعير غير منخول وكان يأكل ما وجد وكان أحب الطعام اليه ما كثرت عليه الايدي وكان اذا وضعت المائدة قال اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة وكان يأكل مما يليه ويأكل بأصابعه الثلاث ويستعين بالرابعة ولم يكن يأكل باصبعين ويقول ان ذلك أكلة الشيطان وكان لا يأكل الحار ويقول انه غير ذي بركة وان الله لم يطعمنا نارا فأبردوه وكان أحب الطعام اليه اللحم ويقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول انها شجرة أخي يونس عليه السلام قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول يا عائشة اذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فانه يشد قلب الحزين وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد له وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول آخر الطعام أكثر بركة وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول انه لا يدرى في أي الطعام البركة واذا فرغ قال اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وأسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه وكان اذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي آخرها ثلاث تحميدات وكان يمص الماء مصا ولا يعب عبا وأتي باناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال شربتان في

شربة واداما في اناء واحد ثم قال صلى الله عليه وسلم لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا وأحب التواضع فان من تواضع لله رفعه الله وكان يعجبه الثياب الخضر وكان أكثر لباسه البيض وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الازار فوق ذلك الى نصف الساق وكان قميصه مشدود الازرار وربما حل الازرار في الصلاة وغيرها وربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول انما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة وربما لبس الازار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه وربما أم به الناس على الجنائز وربما صلى في بيته في الازار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الازار الذي جامع فيه يومئذ وكان ربما صلى بالليل في الازار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة رضي الله عنها بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الاسود فقال كسوته فقالت ما رأيت شيئا قط كان أحسن من بياضك على سواده وقال أنس رضي الله عنه وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيها وكان صلى الله عليه وسلم يتختم وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء وكان يختم به على الكتب ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي اليها وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من علي رضي الله عنه وربما طلع علي فيها فيقول صلى الله عليه وسلم أتاكم علي في السحاب وكان اذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس واذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره وكان اذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه الا لله الا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتا وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره وكان من خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع على ما فرش له يضطجع وان لم يفرش له اضطجع على الارض وكان لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر الله تعالى وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لانه كان حيث انتهى به المجلس جلس وما رؤي قط مادا رجليه بين أصحابه وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فان أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل وما استصفاه أحد الا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطي

لكل من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس اليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم اكراما لهم واستمالة لقلوبهم ويكني من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ويكني أيضا النساء اللاتي لهن الاولاد واللاتي لم يلدن يبتدي لهن الكنى ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع في مجلسه الاصوات وكان اذا قام من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك ويستحب بعض العلماء زيادة وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم وكان اذا نزل به الامر فوض الامر الى الله تعالى وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتبه علي فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وكان علي رضي الله عنه اذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله وما سئل عن شيء قط على الاسلام الا أعطاه وان رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع الى قومه وقال أسلموا فان محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة وما سئل شيأ قط فقال لا وحمل اليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام اليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال عمر يارسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل انفق ولا تخش من ذي العرش اقلالا فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وعرف السرور في وجهه ولما قفل صلى الله عليه وسلم من حنين جاءت الاعراب يسألونه حتى اضطروه الى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته عليكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا صلى الله عليه وسلم وسيرته المذكور فيها المحاسن صفاته صلى الله عليه وسلم طويلة وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر ما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة

لما بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أصبح وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب الى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أين تريد قال السوق قال تصنع ماذا

وقد وليت أمر المسلمين قال فمن أين أطعم عيالي قال انطلق يفرض لك أبو عبيدة أي لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ففرض له قوت رجل من المهاجرين ليس بأوكسهم ولا أكيسهم وكسوة الشتاء والصيف وقال اذا أخلقت شيأ رددته وأخذت غيره وفي رواية ففرض له نصف شاة وما كساه في البطن والظهر وفي رواية أنهم قوموا ذلك بألف وخمسمائة من الدراهم وفي رواية ان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما تذاكرا أيضا في ذلك وفرضا له بمثل ماقاله أبو عبيدة وفي رواية ان عمر وعليا لما فرضا ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه انما أنتما رجلان من المهاجرين لا أدرى أرضي بذلك بقية المهاجرين أم لا فانطلق أبو بكر فصعد المنبر فاجتمع الناس فخطبهم وذكر لهم ذلك فقال الناس رضينا وأخرج ابن سعد أيضا عن ميمونة قال لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه جعلوا له ألفي درهم ثم نظروا فرأوا ذلك لا يكفيه وعياله فزادوه خمسمائة فلعل الفرض الاول كان ألفا وخمسمائة ثم زادوا في ذلك حتي أوصلوه ألفين وخمسمائة درهم في كل سنة وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص قال قال أبو بكر رضي الله عنه لما احتضر لعائشة رضي الله عنها يا بنية انا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لا نفسنا دينارا ولا درهما ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وانه لم يبق عندنا من فيء المسلمين لا قليلا ولا كثيرا الا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة فاذا مت فابعثي بهن الى عمر بن الخطاب وأخرج الطبراني عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه قال يا عائشة أنظري اللقحة التي كنا نشرب من لبنها والجفنة التي كنا نصطبغ فيها والقطيفة التي كنا نلبسها فانا كنا ننتفع بذلك حين نلي أمر المسلمين فاذا مت فاردديه الى عمر فلما مات أبو بكر رضي الله عنه أرسلت به الى عمر رضي الله عنه فقال عمر رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك وفي رواية فبكى عمر رضي الله عنه حتى سالت دموعه الى الارض وجعل يقول رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده ويكرر ذلك وأمر برفعه الى بيت المال فقال عبد الرحمن بن عوف أترجعه عمر الى عيال أبي بكر فقال لعمر سبحان الله تسلب عيال أبي بكر عبدا وناضحا وسحق قطيفة ثمن خمسة دراهم فلو أمرت برده عليهم فقال عمر لا والذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم لا يكون هذا في ولايتي ولا يخرج أبو بكر منه وأتقلده أنا وفي رواية ان عمر قال ورب الكعبة لا يتأثم بها أبو بكر في حياته وأتحملها من بعد موته أي لا آمر بردها خوفا من وقوعي في الاثم وتحمله بعد موته ثم قال رحم الله أبا بكر لقد كلف من بعده تعبا وفي رواية وأوصى أبو بكر أن يرد بعد وفاته جميع ما أخذه من بيت المال لنفقته وفي رواية فلما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له ويصرف ثمنها

عوض ما أخذه من مال المسلمين وروى أن زوجته اشتهت حلوا فقال ليس لنا ما نشتري به فقالت
أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به قال افعلي ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء
يسير فلما عرفته ذلك ليشتري به حلوا أخذه فرده إلى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط
من نفقته بقدر ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له رضي الله عنه قال المسعودي
في تاريخه المسمى مروج الذهب في صفة أبي بكر رضي الله عنه كان أزهد الناس وأكثرهم تواضعا
في خلقه ولباسه ومطعمه ومشربه وكان لبسه في خلافته الشملة والعباءة وقدم عليه زعماء العرب
وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل والبرود المثقلة بالذهب والتيجان والخبرة فلما شاهدوا عليه
من اللباس والتواضع والتنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم ١
وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من
عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلل فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه
وتزيا بزيه حتى إنه رؤي ذو الكلاع يوما في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة
فصرخت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والأنصار قال أردتم أن أكون ملكا جبارا في
الجاهلية جبارا في الإسلام لا ها الله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد في الدنيا وتواضعت
الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر انتهى كلام المسعودي ولما دفن
أبو بكر رضي الله عنه دعا عمر رضي الله عنه الأمناء ودخل بهم بيت المال منهم عبد الرحمن بن عوف
وعثمان بن عفان ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه لا دينارا ولا درهما وقيل وجدوا دينارا سقط من
غرارة فترحموا عليه قال أبو صالح الغفاري كان عمر يتعهد امرأة عمياء في المدينة بالليل فيقوم
بأمرها فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ففعل ما أرادت فرصده عمر فإذا هو أبو بكر كان
يأتيها ويقضي أشغالها سرا وهو خليفة فقال أنت هو لعمري ولما ولي الخلافة وارتدت العرب خرج
شاهرا سيفه يريد ذا القصة فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ بزمام راحلته وقال له
إلى أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
أحد شم سيفك لا تفجعنا بنفسك فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام فرجع وأمضى الجيوش
مع خالد بن الوليد رضي الله عنه قال ابن الأثير وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما رعيت له وربما
خرج هو بنفسه فيها وكان يحلب للحي أغنامهم فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب
لنا منائح دارنا فسمعها فقال بلى لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه فكان
يحلب لهم وكان قد نزل بالسنح في عوالي المدينة عند زوجته حبيبة بنت خارجة فكان يغدو
على رجليه إلى المدينة وربما ركب فرسه ويأتي المدينة فيصلي بالناس فإذا صلى العشاء رجع إلى

السنح فمكث على ذلك بعد أن بويع بالخلافة ستة أشهر ثم تحول الى المدينة وقال كان في بعض الايام يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع فرأى ذلك يشغله ثم قال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما يصلح لا التفرغ لهم والنظر في شأنهم فترك التجارة وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوما بيوم وما يحج به ويعتمر ثم أوصى ان تباع أرض له ويصرف ثمنها لبيت المال عوض ما أخذه من مال المسلمين وفي خلافته انفتح معدن لبني سليم فكان يسوي في قسمته بين السابقين الاولين والمتأخرين في الاسلام وبين الحر والعبد والذكر والانثى فقيل له في تقديم أهل السبق على قدر منازلهم فقال انما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة وانما هذه الدنيا بلاغ وكان يشتري الاكسية ويفرقها في الارامل في الشتاء ولما أسلم رضي الله عنه كان له اربعون الفا أنفقها في الله مع ما كسب من التجارة وأعتق في أول الاسلام سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون في الله أسلموا منهم بلال وعامر بن فهيرة رضي الله عنهما وكان أبو بكر رضي الله عنه أجود الصحابة رضي الله عنهم لانه جاء بجميع ماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما أبقى لنفسه شيأ وتخلل بالعباءة وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول أكيس الكيس التقوى وأحمق الحمق الفجور وأصدق الصدق الامانة وأكذب الكذب الخيانة وكان رضي الله عنه اذا أكل طعاما فيه شبهة ثم علم به استقاءه من بطنه ويقول اللهم لا تؤاخذني بما شربته العروق وخالط الامعاء فقد أشعرني في الحالة ت وكان رضي الله عنه يقول ان هذا الامر لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا يحتمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه وهذا صريح في أن أمر هذه الامة لا يصلح الا ان كانوا على سيرة الصحابة وكان خلفاؤهم كالخلفاء الراشدين في سيرهم كسيرهم وكان رضي الله عنه يقول [illegible] حتى [illegible] وكان رضي الله عنه يقول يا معشر المسلمين استحيوا من الله فوالذي نفسي بيده اني لاظل حين أذهب الى الغائط في الفضاء متقنعا استحياء من ربي عز وجل وكان رضي الله عنه يقول ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل وكان رضي الله عنه يأخذ بطرف لسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد وكان رضي الله عنه اذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له هلا أمرتنا فيقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن لا أسأل الناس شيأ وكان رضي الله عنه يقول للصحابة رضي الله عنهم قد وليت أمركم ولست بخيركم فأعينوني واذا رأيتموني استقمت فاتبعوني واذا رأيتموني زغت فقوموني وخطب يوما به خوف حتى كان يشم في فيه رائحة الكبد المشوي ولما بويع أبو بكر رضي الله عنه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه وان أضعفكم

عندي القوي حتى آخذ منه أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فان أحسنت فأعينوني وان زغت فقوموني وكان رضي الله عنه لم يشرب خمرا قط لا جاهلية ولا اسلاما ولم يسجد لصنم قط ولما سمع الحسن البصري قول أبي بكر رضي الله عنه قد وليت عليكم ولست بخيركم قال بلى ولكن المؤمن يهضم نفسه ويروى أن أبا بكر رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجرة وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ياليتني كنت مثلك والله لوددت أني شجرة الى جنب طريق فمر علي بعير فأخذني فلاكني ثم ردني ثم أخرجني بعرا ولم أكن بشرا وأخرج ابن السمان والحافظ السلفي وغيرهما أن أبا بكر رضي الله عنه بعد ما بويع وبعد أن بايعه علي رضي الله عنه وأصحابه أقام ثلاثا يقول للناس قد أقلتكم بيعتكم هل من كاره فيقوم علي رضي الله عنه في أول الناس يقول والله لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذا الذي يؤخرك وقوله قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في الصلاة حيث قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فقال الصحابة رضي الله عنهم أفلا نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا وفي رواية احتجب أبو بكر رضي الله عنه عن الناس ثلاثا يشرف عليهم كل يوم فيقول قد أقلتكم بيعتي فبايعوا من شئتم فيقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذا الذي يؤخرك وأخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال في خطبته بعد أن بويع والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت راغبا فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ولكن أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلدت أمرا عظيما مالي به من طاقة الا بتقوية الله تعالى وقوله أشفقت من الفتنة يعني لما رأى الناس اختلفوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يبايع فأراد المهاجرون أن يكون منهم وأراد الأنصار أن يكون منهم فخشي أبو بكر رضي الله عنه أن يفتتنوا فلما طلب منه أبو عبيدة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن يبايعه الناس بايعهم خوفا من فتنتهم وقال في خطبته أيضا أطيعوني ما أطعت الله تعالى ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم وكان أبو بكر رضي الله عنه قبل أن يبايعوه أخذ بيد أبي عبيدة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقال للناس بايعوا أحد هذين الرجلين في ضمن كلام كثير كره قال عمر والله ما كرهت من كلامه كلمة غير هذه ولأن أقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني الى اثم أحب الي من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه وقال أبو عبيدة والله لا نتولى عليك هذا الامر وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة وهي أفضل دين المسلمين ابسط يدك نبايعك فبايعه أبو عبيدة وعمر ثم

بقية الناس وأخرج الحافظ أبو ذر الهروي والدارقطني وغيرهما من طرق كثيرة عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال دخلت على علي رضي الله عنه في بيته فقلت له يا خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مهلا يا أبا جحيفة ألا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في قلب مؤمن وكان أبو جحيفة من أخص أصحاب علي رضي الله عنه الملازمين له وهذا الذي ذكره عن علي رضي الله عنه من تفضيل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كان يخطب به على منبر الكوفة زمن خلافته ورواه عن علي رضي الله عنه سبعون رجلا من أصحابه وقيل رواه عنه نيف وثمانون رجلا من أصحابه وأخرج الامام أحمد رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه بعد شهر من خلافته نادى في الناس الصلاة جامعة ثم خطب فقال أيها الناس وددت أن هذا الامر كفانيه غيري وفي رواية اني وليت هذا الامر وانا له كاره والله لوددت ان بعضكم كفانيه ألا وانكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدا أكرمه الله بالوحي وعصمه به انما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراعوني فان رأيتموني زغت فقوموني وفي رواية فاذا رأيتموني لا اوثر في أشعاركم وأبشاركم وفي رواية انما أنا متبع ولست بمبتدع فان أحسنت فاعينوني وان أنا زغت فقوموني قال الامام مالك رضي الله عنه لا يكون أحد اماما أبدا الا على هذا الشرط وكان عثمان بن عفان كاتب أبي بكر رضي الله عنهما وربما كتب له أيضا زيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم وحنظلة بن الربيع رضي الله عنهم ولما مرض أبو بكر رضي الله عنه مرضه الذي توفي فيه استخلف على الامة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يكتب صحيفة الاستخلاف وهذه صورتها بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب اني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا واني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي واياكم خيرا فان أقصر فيه وفي رواية فني والله ما ألوت من جهدي والراي فان عدل فذلك ظني به وعلمي به وان بدل فلكل امرئ ما اكتسب والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والسلام عليكم ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوما وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حسن قال أشرف أبو بكر رضي الله عنه على الناس من كوة فقال أيها الناس اني قد عهدت عهدا أفترضون به وفي رواية أفترضون بمن استخلفته عليكم فاني ما استخلفت عليكم ذا قرابة فقال الناس قد رضينا يا خليفة رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال لا نرضى إلا أن يكون عمر بن الخطاب قال أبو بكر فإنه عمر فبايع علي رضي الله عنه وبايع الناس ورضوا به فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده ودعا فقال اللهم إني لا أريد بذلك إلا صلاحهم وخفت الفتنة عليهم فعملت بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه وأحرصهم على ما يرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضرني فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك اللهم أصلح ولايته واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته ومما أوصاه به أبو بكر رضي الله عنه لما استخلفه أن قال له إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أوصاه بتقوى الله تعالى ثم قال يا عمر إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا في النهار لا يقبله في الليل وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلا ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا ألم تر يا عمر أنه نزلت آية الرجاء ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله تعالى ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه إلى التهلكة ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوإ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون منهم وإنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سوء فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه اللهم إني لا أريد بذلك إلا صلاحهم وخفت الفتنة عليهم فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه وأحرصهم على ما يرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضرني فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته وأخرج ابن سعد والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب وصاحبة موسى عليه السلام حين قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين والعزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه قال الزهري استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما فقام بالأمر أتم قيام وكثرت الفتوحات في أيامه كثرة عظيمة لم يقع مثلها في أيام خليفة بعده وفتح الله في أيامه الشام ومصر والروم والإسكندرية والعراق وفارس وقد أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت كأني أنزع بدلو على قليب فنزعت منها

ماشاء الله ثم أخذها أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ثم أخذها عمر بن
الخطاب فاستحالت غربا لم أر عبقريا يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن قال النووي في شرح
مسلم في هذا الحديث اشارة الى خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والى كثرة الفتوحات
وظهور الاسلام في خلافة عمر رضي الله عنه وفي قوله في أبي بكر رضي الله عنه نزع ذنوبا أو ذنوبين
وفي نزعه ضعف اشارة الى قصر مدة خلافته وقوله والله يغفر له ليس فيه اشارة الى نقص أو تقصير أو
ذنب وقع منه وانما هي كلمة تقولها العرب عند الاعتناء بالامر وقوله ثم أخذها عمر بن الخطاب
فاستحالت غربا أي دلوا عظيما الى آخر الحديث اشارة الى طول مدة خلافته والى كثرة
انتفاع الناس بها واتساع دائرة الاسلام بكثرة الفتوحات وتمصير الامصار وتدوين الدواوين
وقوله عبقريا أي رجلا قويا شديدا من الناس يفري فريه أي يعمل عمله حتى ضرب الناس بعطن أي
رووا وضربوا بعطن والعطن ما تناخ به الابل اذا رويت ومن أعظم فضائل أبي بكر رضي الله عنه
قتال العرب الذين ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم والذين منعوا الزكاة وقال والله
لاجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي وان منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال له عمر رضي الله عنه وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم مني ماله
ودمه الا بحقها وحسابه على الله تعالى فقال أبو بكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان
الزكاة حق المال وقد قال الا بحقها قال عمر فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال
فعرفت انه الحق قال سيدي محيي الدين بن العربي في المسامرة لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
وطلب أبو بكر رضي الله عنه الزكاة كفر بها قوم وقوم قالوا قد كنا ندفع أموالنا الى محمد لانه نبي
فمحمد ليس الآن وانا لانعطيه منها شيئا أبدا فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمع
القوم على التمسك بدينهم في أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لانفسهم وتخيلوا أنهم
لا يقدرون على من ارتد من المسلمين فقال أبو بكر رضي الله عنه لو لم أجد أحدا يوازرني لجاهدتهم
بنفسي وحدي حتى أموت أو يرجعوا الى الاسلام ولو منعوني عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله
صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يجاهد بأصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم حتى عاد الناس جميعا الى الاسلام ودخلوا فيه كما خرجوا منه وبعث خالد بن
الوليد الى بني أسد وغطفان فقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون الى الاسلام ثم بعث خالدا
أيضا الى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة وحاصرها أياما ثم قتل مسيلمة الكذاب
لعنه الله قتله وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه وفي السنة الثانية من خلافته بعث العلاء بن الحضرمي

الى البحرين وكانوا قد ارتدوا فقاتلهم ونصر الله المسلمين عليهم وقتل من قتل من المرتدين ورجع من بقي منهم الى الاسلام وبعث عكرمة بن أبي جهل الى عمان وكانوا قد ارتدوا أيضا وبعث المهاجر بن أبي أمية الى طائفة من المرتدين وزياد بن لبيد الانصاري الى طائفة آخرين ومانوفي أبو بكر رضي الله عنه حتى رجع العرب كلهم الى الاسلام وابتدأ التجهيز لفتوح الشام وقتال الروم حتى أن فتح الشام كان ليلة وفاة أبي بكر رضي الله عنه ومن ثم أخرج البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال والله الذي لا اله الا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية والثالثة فقيل له مه يا أبا هريرة فقال ان رسول الله صلي الله عليه وسلم جهز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما ليسير في سبعمائة الي الشام وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتوجه ذلك الجيش وارتدت العرب حول المدينة واجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا لابي بكر رضي الله عنه رد هذا الجيش كيف توجه هؤلاء الي الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة فقال والله الذي لا اله الا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشا وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حللت لواء عقده فوجه أسامة فجعل أسامة لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد الا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتي يلقوا الروم فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الاسلام واستدل العلماء على عظم علم أبي بكر رضي الله عنه بقوله والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة وبقوله والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه وقال العلماء أيضا ان أبا بكر رضي الله عنه كان أعلم الصحابة رضي الله عنهم لانهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم في المسئلة الا هو ثم ظهر لهم بمباحثته ان قوله هو الصواب فرجعوا اليه واستدلوا بذلك أيضا على عظم شجاعته رضي الله عنه بتصميمه على قتالهم من قوله لاجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي ومما يدل على عظم شجاعته ثباته يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته لجميع الصحابة ولم يثبت ذلك اليوم أحد غيره ومن ثبتوا بعد ذلك الا بتثبيته والقصة مشهورة فلا حاجة لذكرها واخرج ابن عساكر عن علي رضي الله عنه يوم وفاة أبي بكر رضي الله عنه دخل عليه وهو مسجي فقال ما أحب أن ألقي الله بصحيفة أحب الي من هذا المسجي وقد صح عنه صلي الله عليه وسلم من طرق كثيرة لو وزن ايمان أبي بكر بايمان الامة لرجحهم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخبرا عن نفسه انه ما سابق أبا بكر الى خير الا سبقه أبو بكر رضي الله عنهما واخرج أبو يعلي عن علي رضي الله عنه قال أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر ان أبا بكر أول من جمع بين اللوحين لان أبا بكر رضي الله عنه لما كان قتال أهل اليمامة وقتل كثير من الصحابة قال أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير

من القرآن فأمر زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والكتب وصدور الرجال فجمع في صحف الى أن كان زمن خلافة عثمان رضي الله عنه فجمع في المصاحف فما جمعه عثمان الا من الصحف التي جمعها أبو بكر رضي الله عنهما وكان رضي الله عنه جعل ولاية بيت المال في زمن خلافته لامين هذه الامة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأخرج البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعني ثلاث حثيات فلما جاء مال البحرين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر رضي الله عنه من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فجئت فأخبرته فقال خذ فأخذت مقدارا فوجدت عدد تلك الدراهم التي أخذتها خمسمائة فأعطاني ألفا وخمسمائة وفاء بقول النبي صلى الله عليه وسلم هكذا وهكذا وهكذا ولما مرض أبو بكر رضي الله عنه مرض الوفاة قال له الناس ألا ندعو لك طبيبا قال قد أتاني وقال لي أنا فاعل ما أريد فعلموا مراده وسكتوا عنه وكان سبب مرضه أنه سم يهودي في أرز وقيل في خزيرة أهديت لابي بكر رضي الله عنه فأكل هو والحارث بن كلدة طبيب العرب فكف الحارث وقال لابي بكر ارفع يدك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلنا طعاما مسموما سم سنة فماتا بعد سنة في يوم واحد وفي رواية والله ان فيها سم سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد وقيل سبب موته سم الحية التي لدغته في الغار تحرك عليه أثره قبل وفاته ولا مانع من تعدد هذه الاسباب وأخرج الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كان سبب موت أبي بكر رضي الله عنه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمدا وحزنا فما زال جسده ينقص حتى مات وأخرج الحاكم عن الشعبي قال ماذا يتوقع من هذه الدنيا الدنية وقد سم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسم أبو بكر رضي الله عنه وكان ابتداء مرض أبي بكر الذي منعه من الخروج أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادي الآخرة وكان يوما باردا فحم خمسة عشر يوما لا يخرج وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال وعن عائشة رضي الله عنها قالت لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه قعدت عند رأسه فتمثلت بقول القائل

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لا تقولي هذا ولكن قولي وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ثم قال انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحي أحوج الى الجديد من الميت وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودفن ليلا الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة رضي الله عنها وكان آخر ما تكلم به توفني مسلما وألحقني بالصالحين ولما توفي أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة

بالبكاء ودهش القوم كيوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المحب الطبري في الرياض النضرة أخرج الامام أبو بكر محمد بن عبد الله الخوارزمي وابن السماك عن أسيد بن صفوان وكان قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم قال لما قبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة عليه بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول انا لله وانا اليه راجعون انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر رضي الله عنه وهو مسجى فقال رحمك الله يا أبا بكر كنت الف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته كنت أول القوم اسلاما وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله وأعظمهم غنى في دين الله وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيمنهم على أصحابه وأحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هديا وسمتا ورحمة وفضلا وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه وأشفقهم عليه فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس فسماك الله في تنزيله صديقا فقال والذي جاء بالصدق وصدق به الذي جاء بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه وأخرج البزار وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تفسير قوله تعالى الذي جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه وجاء مثل ذلك في آيات كثيرة من آيات القرآن العزيز فمن ذلك ما أخرجه الحاكم والطبراني أن أبا بكر رضي الله عنه أعتق سبعة كلهم يعذب في الله تعالى فأنزل الله تعالى وسيجنبها الاتقى الذي الى آخر السورة قال ابن الجوزي اجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفيها التصريح بأنه أتقى من سائر الامة والاتقى هو الاكرم عند الله تعالى لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والاكرم عند الله تعالى هو الافضل فدلت الآية على أنه أفضل هذه الامة وجاءت أحاديث كثيرة صريحة بأن سورة والليل اذا يغشى نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أمية بن خلف وذلك أن أمية بن خلف كان يعذب بلالا رضي الله عنه ذا أسلم فشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه فأنزل الله السورة فقوله تعالى ان سعيكم لشتى أول داخل فيه أبو بكر رضي الله عنه وأمية بن خلف أي ان سعي أبي بكر وأمية مفترق الافتراق العظيم فشتان ما بينهم ثم شرح ذلك وبينه الآيات التي بعد هذه الآية بقوله وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى هو أبو بكر رضي الله عنه وقوله وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى هو أمية بن خلف وكذا قوله تعالى وما يغني عنه ماله اذا تردى وقوله لا يصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى كل هذه الآيات في أمية بن خلف وختمت السورة بقوله

تعالى وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى وهو أبو بكر رضي الله عنه وتأمل قوله تعالى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى فانها تدل على كمال اخلاص أبي بكر رضي الله عنه ولهذا عقب ذلك بقوله ولسوف يرضى ولاشئ أعلى من هذا الوعد من الرب الكريم ومن الآيات قوله تعالى ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر رضي الله عنه ومن ثم قالوا من أنكر صحبته فقد كفر بالاجماع ومن الآيات الدالة على صحة خلافته قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا قال ابن كثير هذه الآية منطبقة على خلافة الصديق رضي الله عنه وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عبد الحميد المهري أنه قال ان خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في كتاب الله تعالى في قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض الآية ومن الآيات الدالة على خلافته رضي الله عنه قوله تعالى قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن قتيبة ان هذه الآية حجة على خلافة الصديق رضي الله عنه والقوم المذكورون في الآية هم بنو حنيفة الذين ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتبعوا مسيلمة الكذاب وأبو بكر هو الذي دعا المخلفين من الاعراب الى قتالهم قال الشيخ أبو الحسن الاشعري امام أهل السنة سمعت أبا العباس بن سريج يقول خلافة الصديق رضي الله عنه في القرآن في هذه الآية قال لان أهل العلم أجمعوا على انه لم يكن بعد نزولها قتال دعوا اليه الا دعاء أبي بكر رضي الله عنه وأول من دعا اليه قتال أهل الردة ومانعي الزكاة فدل على صحة خلافة أبي بكر رضي الله عنه وافتراض طاعته لان الله تعالى يقول فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وأخبر ان المتولي عن ذلك يعذب بقوله وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما قال ابن كثير ومن فسر القوم بأنهم فارس والروم فأبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الذي دعا الى قتالهم وهو أول من جهز الجيوش الى قتالهم وتمام أمرهم كان على يد عمر وعثمان رضي الله عنهما وهما فرعان عن فرع عن خلافة أبي بكر رضي الله عنه فان قلت يمكن أن يراد بالداعي في الآية النبي صلى الله عليه وسلم قلت لايمكن ذلك مع قوله تعالى قبل ذلك لن تتبعونا ومن ثم لم يدع أولئك الذين تخلفوا الى محاربة في حياته صلى الله عليه وسلم وأما علي رضي الله عنه فلم يتفق له في زمن خلافته قتال الكفار لطلب الاسلام

بل كان قتاله لتحقيق أمر الامامة ورعاية حقوقها فتعين أن ذلك الداعي الذي يكون الاجر الحسن باتباعه والعذاب الاليم بعصيانه أحد الخلفاء الثلاثة وأبو بكر هو أولهم وأصلهم وأساسهم فيلزم صحة خلافته على كل تقدير والآيات الدالة على فضله وصحة خلافته كثيرة لاحاجة الى ذكرها فمن راجع تفاسير القرآن وكتب السنة وقف على ذلك وكان أبو بكر رضي الله عنه كثيرا مايقول في خطبه أين القضاة الحسنة وجوههم المعجبون بشأنهم أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا النجا النجا وأراد أبو بكر رضي الله عنه استنفار الناس لقتال أهل الردة ثم لقتال الروم كتب الى أهل مكة بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أبي بكر الي أهل مكة وسائر المؤمنين فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد فاني استنفرت الناس الى الجهاد وقد كتبت اليكم والي المسلمين أن تسرعوا الي ما أمركم ربكم تبارك وتعالي انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون وهذه الآية أنتم أحق بها وأهلها وأول من صدق بها وقال بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره ومن يخل استغنى الله عنه والله غني حميد فسارعوا الى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمجاهدين والانصار ومن اتبع سبيلهم من الاولياء الاخيار وحسبنا الله ونعم الوكيل وختم الكتاب ودفعه الي عبد الله ابن حذافة السهمي رضي الله عنه فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها فاجتمعوا اليه فدفع اليهم الكتاب فقرؤه فلما سمعوا قال سهيل ابو عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وقالوا أجبنا داعي الله وصدقنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة بن أبي جهل الي متى نبسط لانفسنا وقد سبقنا القوم الي المواطن وقد فاز من فاز بالصدق وان كنا تأخرنا عن السبق فالمحاق الحاق والسباق السباق فلنلحق بهم ثم خرج عكرمة بن أبي جهل في بني مخزوم وخرج عمه الحارث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة حتى بلغوا خمسمائة رجل وكتب أبو بكر بمثل ذلك لاهل الطائف فخرجوا في أربعمائة رجل ثم كتب لاهل اليمن بعد فراغه من قتال المرتدين وصورة كتابه اليهم بسم الله الرحمن الرحيم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من قرئ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن سلام عليكم أما بعد فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو فان الله كتب علي المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا قال الله تعالى انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله فالجهاد فريضة مفروضة وثوابه عند الله عظيم وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين الي جهاد الروم بالشام وقد سارعوا الى ذلك وعسكروا وخرجوا وحسنت في ذلك نيتهم وعظمت في الخير حسبتهم فسارعوا عباد الله الي فريضة

ربكم والى احدى الحسنيين اما الشهادة واما الفتح والغنيمة فان الله لم يرض من عباده بالقول دون الفعل ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين والصابرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك رضي الله عنه قال أنس فأتيت أهل اليمن جناحا جناحا وقبيلة قبيلة أقرأ عليهم كتاب أبي بكر رضي الله عنه فاذا فرغت من قراءته قلت الحمد لله وأشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني رسول المسلمين اليكم الا واني قد تركتهم معسكرين ما يمنعهم من الشخوص الى عدوهم الا انتظاركم فعجلوا الى اخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون قال وكان كل من قرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الرد علي ويقول نحن سائرون وكأن قد فعلنا حتى انتهيت الى ذي الكلاع ملك حمير فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال دعا بسلاحه وفرسه ونهض في قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك وأمر بالعسكر فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وسارعوا فلما اجتمعوا اليه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس ان من رحمة الله اياكم ونعمته عليكم ان بعث فيكم رسولا وأنزل عليكم كتابا فأحسن عنه البلاغ فعلمكم ما يرشدكم ونهاكم عما يفسدكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ورغبكم في الخير ما لم تكونوا ترغبون ثم قد دعاكم اخوانكم الصالحون الى جهاد المشركين واكتساب الاجر العظيم فلينفر من أراد النفير معي الساعة فنفر بعدد كثير من أهل اليمن وقدموا على أبي بكر رضي الله عنه قال فرجعنا نحن قبلهم بأيام فوجدنا أبا بكر رضي الله عنه بالمدينة ووجدنا ذلك العسكر على حاله ووجدنا أبا عبيدة يصلي بأهل ذلك العسكر فقدمت حمير على أبي بكر رضي الله عنه ومعها نساؤها وأولادها ففرح أبو بكر رضي الله عنه بقدومهم وذكرهم أبو بكر رضي الله عنه قال عباد الله ألم نكن نتحدث فنقول اذا أقبلت حمير تحمل أولادها ومعها نساؤها نصر الله المسلمين وخذل المشركين فابشروا أيها المسلمون فقد جاءكم النصر من الله تعالى قال وجاء قيس بن هبيرة بن مكسوح المرادي وكان من فرسان العرب في الجاهلية ومن أشرافهم وشدادهم ومعه جمع كثير من قومه حتى أتى أبا بكر رضي الله عنه وسلم ثم جلس اليه فقال متى تسرح هذه الجنود فقال أبو بكر رضي الله عنه ما كنا ننتظر الا قدومكم قال فقد قدمنا فابعث الناس الاول فالاول فان هذه البلدة ليست ببلدة خف ولا كراع قال فخرج أبو بكر رضي الله عنه يمشي فدعا يزيد بن أبي سفيان فعقد له ودعا ربيعة بن الاسود بن عامر من بني عامر بن لؤي وأوصاهم

وبينهم وقد كان أبو بكر رضي الله عنه قبل بعث الكتب حدث نفسه بغزو الروم وأسر ذلك في
نفسه ولم يطلع عليه احدا فبينما هو في ذلك اذ جاءه شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه فقال ياخليفة
رسول الله اتحدث نفسك ان تبعث الى الشام جندا فقال نعم قد حدثت نفسي بذلك وما اطلعت
عليه احدا وما سألتني عنه الا لشيء عندك فقال اجل اني رأيت فيما يري النائم كانك في ناس من
المسلمين فوق جبل فاقبلت تمشي معهم حتى صعدت علي قنة عالية علي الجبل فاشرفت علي الناس
ومعك اصحابك ثم انك هبطت من تلك القنة الي ارض سهلة دمثة فيها القرى والعيون والزروع
والحصون فقلت للمسلمين شنوا الغارة علي المشركين فاني ضامن لكم الفتح والغنيمة وانا
فيهم ومعي راية فتوجهت الى قرية فدخلتها فسألوني الامان فامنتهم ثم جئت فوجدتك قد اتيت
الي حصن عظيم ففتح لك والقوا اليك السلم وجعل لك عرش فجلست عليه ثم قيل لك انك قائل فاسئل
يفتح لك وتنصر فاشكر ربك واعمل بطاعته ثم قرأ عليك اذا جاء نصر الله والفتح ورايت
الناس يدخلون في دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا قال ثم انتبهت فدمعت
عينا ابي بكر رضي الله عنه ثم قال اما الجبل الذي رأيتنا نمشي عليه حتى صعدنا منه الي القنة العالية
فاشرفنا علي الناس فانا نكابد من هذا الجند مشقة ويكابدوننا ثم نعلو بعد ويعلو امرنا وأما
نزولنا من القنة العالية الي الارض السهلة الدمثة والزروع والحصون والعيون والقرى فانا
ننزل الى امر سهل نجد فيه من الخصب والمعاش وأما قولي شنوا عليهم الغارة فاني ضامن لكم
بالفتح والغنيمة فان ذلك توجيهي المسلمين الي بلاد المشركين وامري اياهم بالجهاد في سبيل الله
واما الراية التي كانت معك فتوجهت بها الي قرية من قراهم فدخلتها فاستأمنوك فأمنتهم فانك تكون
احد امراء المسلمين ويفتح الله علي يديك واما الحصن الذي فتح الله علي يدي فهو الفتح الذي
يفتح الله علي يدي واما العرش الذي رأيتني جالسا عليه فان الله يرفعني ويضع المشركين واما امري
بطاعة ربي وقرأ علي هذه السورة فانه نعى الي نفسي فان هذه السورة حين انزلت علي رسول
الله صلى الله عليه وسلم نعيت اليه نفسه ثم سالت عينا ابي بكر رضي الله عنه فقال لآمرن بالمعروف
ولانهين عن المنكر ولاجاهدن من ترك امر الله عز وجل ولاجهزن الجيوش الى العادلين بالله
في مشارق الارض ومغاربها حتى يقولوا الله احد او يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون فاذا توفاني
ربي لا يجدني مقصرا ولا في ثواب المجاهدين زاهدا ثم انه أمر الامراء وبعث الي الشام قال
عبد الله بن ابي أوفي رضي الله عنه لما أراد أبو بكر رضي الله عنه تجهيز الاجناد الي الشام دعا بعمر
وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح
وسعيد بن زيد ووجوه المهاجرين والانصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه وأنا فيهم فقال

ان الله تبارك وتعالى لا تحصى نعماؤه ولا تبلغ الاعمال جزاءها فلله الحمد كثيرا على ما اصطنع
عندكم قد جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم الى الاسلام ونفى عنكم الشيطان فليس
يطمع أن تشركوا بالله ولا تتخذوا الها غيره فالعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أبعثهم الى الروم
بالشام فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للابرار ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين
مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين هذا رأيي الذي رأيت فأشار امرؤ علي بمبلغ رأيه فقام
عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال الحمد
لله الذي يخص بالخير من شاء من خلقه والله ما استبقنا الى شيء من الخير قط الا سبقتنا اليه وذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء وقد والله اني أردت لقاءك بهذا الامر والرأي الذي ذكرت فما قضى الله
أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن فقد أصبت وأصاب الله بك سبل الرشاد وابعث اليهم الخيل في
أثر الخيل وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود فان الله عز وجل ناصر دينه ومعز
الاسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
قام فقال يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم انها الروم وبنو الاصفر حد حديد وركن شديد
والله ما أرى ان تقتحم الخيل عليهم اقتحاما ولكن تبعث الخيل تغير عليهم في أداني أراضيهم ثم تبعثها
فتغير ثم ترجع اليك فاذا فعلوا ذلك أضروا بعدوهم وغنموا من أداني أرضهم فقووا بذلك على
قتالهم ثم تبعث الى أقاصي أهل اليمن والى أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم اليك جميعا فان شئت بعد
ذلك غزوتهم بنفسك وان شئت بعثت على غزوهم غيرك ثم جلس وسكت وسكت الناس فقال لهم
أبو بكر رضي الله عنه ماذا ترون رحمكم الله فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه بما
هو أهله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال اني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين شفيق عليهم فاذا رأيت رأيا لعامتهم
رشدا وصلاحا وخيرا فاعزم على امضائه فانك غير ظنين ولا متهم عليهم فقال طلحة والزبير
وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والانصار صدق عثمان فيما قال
ما رأيت من رأي فأمضه فانا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ولا نتخلف عن
دعوتك وإجابتك فذكروا هذا وشبهه وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في القوم لا يتكلم
فقال له أبو بكر رضي الله عنه ما ترى يا أبا الحسن قال أرى أنك مبارك الامر ميمون النقيبة وانك ان
سرت اليهم بنفسك أو بعثت اليهم نصرت ان شاء الله فقال أبو بكر رضي الله عنه بشرك
الله بخير ومن أين علمت هذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يزال هذا الدين ظاهرا
على من ناواه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون فقال أبو بكر رضي الله عنه سبحان الله ما أحسن هذا
الحديث لقد سررتني سرك الله في الدنيا والآخرة ثم ان أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس فحمد الله

وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وقال أيها الناس ان الله قد أنعم عليكم بالاسلام وأعزكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين فتجهزوا عباد الله الى غزو بلاد الروم بالشام فاني مؤمر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم فأطيعوا أمر ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال فسكت الناس فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا معشر المسلمين ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعاكم لما يحييكم فقام خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال الحمد لله الذي لا اله الا هو بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فان الله منجز وعده ومعز دينه ومهلك عدوه ثم أقبل على أبي بكر رضي الله عنه فقال نحن غير مخالفين لك ولا متخلفين عنك وأنت الوالي الناصح الشفيق ننفر اذا استنفرتنا ونجيبك اذا دعوتنا ففرح أبو بكر رضي الله عنه بمقالته وقال له جزاك الله من أخ خيرا فلقد أسلمت مرتضيا وهاجرت محتسبا وهربت بدينك من الكفار لكي يطاع الله ورسوله وتكون كلمة الله هي العليا فسر رحمك الله فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز ثم أتى أبا بكر وعنده من المهاجرين والانصار أجمع ما كانوا فسلم على أبي بكر رضي الله عنه ثم قال والله لان أخر من رأس حالق وتخطفني الطير في الهواء بين السماء والأرض أحب الي أن أبطئ عنك وأخالف أمرك والله ما أنا في الدنيا راغب ولا على البقاء فيها بحريص واني أشهدكم اني واخواني وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله مقاتل المشركين أبدا حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا فقال أبو بكر خيرا ودعا له المسلمون بخير وقال له أبو بكر اني لأرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده باقامة كتابه واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج هو وخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته وكان أول من عسكر فأمر أبو بكر بلالا رضي الله عنه فنادى في الناس أن انفروا الى عدوكم بالشام وأرسل الى يزيد بن أبي سفيان والى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فقال اني باعثكم في هذا الوجه ومؤمركم على هذه الجنود وأنا موجه مع كل رجل من الرجال ما قدرت عليه فاذا قدمتم البلد ولقيتم العدو واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح وان لم يلقكم أبو عبيدة ولقيكم حرب فأميركم يزيد بن أبي سفيان فانطلقوا فتجهزوا فانطلق القوم يتجهزون وكان خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره الامارة واستعفى أبا بكر رضي الله عنه فأعفاه ثم ان الناس خرجوا الى معسكرهم من عشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومائة في كل يوم حتى اجتمع الناس وكثروا فخرج أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثير حتى انتهى الى عسكرهم فرأى عدة حسنة

ولم يرض كثرتها الروم فقال لاصحابه ماذا ترون في هؤلاء أترون ان نشخصهم الى الشام في هذه المدة فقال له عمر رضي الله عنه ما أرضى هذه العدة لبني الاصفر فأقبل أبو بكر رضي الله عنه على أصحابه فقال لهم ماذا ترون فقالوا نحن نرى أيضا ما رأى عمر رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه أفلا نكتب كتابا الى أهل اليمن ندعوهم الى الجهاد ونرغبهم في ثوابه فرأي ذلك جميع الصحابة رضي الله عنهم فقالوا له نعم ما رأيت فكتب اليهم فأجابوه وأقبلوا كما تقدم بيان ذلك مفصلا وتجهزوا الى الشام فكان النصر والفتوح وكان أول جيش بعثه أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش أسامة وكان بعض الصحابة استصغر واسامة بن زيد أميرا الجيش وقالوا لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه امض الى أبي بكر وأبلغه عنا واطلب منه أن يولي أمرنا أقدم سنا من اسامة فلما أبلغه عمر ذلك وثب أبو بكر رضي الله عنه وكان جالسا وأخذ بلحية عمر رضي الله عنه وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أعزله ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى أتى ذلك الجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش واسامة راكب فقال له اسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال أبو بكر رضي الله عنه والله لا نزلت ولا أركب وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله فان للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وسبعمائة سيئة تمحى عنه فلما أراد أن يرجع أوصى اسامة ومن معه فقال لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤسهم حتى كأنها أفاحيص القطا وفي رواية وتركوا منها مثل العصائب فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون استودعكم الله اندفعوا باسم الله وفعل مع يزيد بن أبي سفيان عند موادعته مثل ما فعل مع اسامة وأوصاه بمثل ما أوصاه وزاد بعضهم في وصيته ليزيد قوله اذا أمرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم في الامر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا وليدا ولا شيخا ولا امرأة ولا صبيا ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم وقال في وصيته لخالد بن الوليد رضي الله عنه اذا خرج لقتال أهل الردة سر على بركة الله فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن كله فاني لا آمن عليك الجولة واستظهر بالزاد وسر بالادلاء ولا تقاتل بمجروح

فان بعضه ليس منه واحترس من البيات فان في العرب غرة وأقلل من الكلام فان مالك ما وعي عنك واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله تعالى في سرائرهم واستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه فسار أسامة قبل كل جيش جهزه أبو بكر رضي الله عنه وأوقع بقبائل من قضاعة كانوا قد ارتدوا وغنموا وكانت غيبته اربعين يوما وكان نفاذ جيش أسامة من أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا أرادوا أن يفعلوه قال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه لقد قام مقام نبي من الانبياء في قتال أهل الردة وقال أنس بن مالك رضي الله عنه كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة وقالوا انهم أهل القبلة يعنون انهم مسلمون فتقلد أبو بكر رضي الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره وهذا دليل على شجاعة أبي بكر رضي الله عنه ثم أشار عليه عمر رضي الله عنه بالرجوع وأن يبعث الجيوش ففعل ما أشار عليه وتقدم أن عمر رضي الله عنه كان ممن توقف في قتالهم ثم شرح الله صدره كما شرح صدر أبي بكر فقال بعد ذلك والله لقد رجح ايمان أبي بكر بايمان هذه الامة جميعها في قتال أهل الردة وقال بقية المرتدين وكان من جملة مقالة عمر رضي الله عنه لأبي بكر يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم فانهم بمنزلة الوحش فقال له أبو بكر رضي الله عنه رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك جبار في الجاهلية خوار في الاسلام بماذا عسيت أن أتألفهم بشعر مفتعل أو بسحر مفترى هيهات هيهات قد مضى النبي وانقطع الوحي أينقص الدين وأنا حي والله لو وجدت في الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي وقال بعض الصحابة في معرض حجتهم دع أولئك العرب حتى ينفرج هذا الامر فان هذا الامر شديد ثورة ومهلكة من غير وجه دون طاقتنا فان العرب ارتدت فلا قبل لنا بمن ارتد بمن بقي معك وقد أطبقت العرب على الردة فمنهم من ارتد ومنع الصدقة ومنهم من ارتد ووقف ينظر ما تصنع أنت وجيشك [illegible] حرب وقولهم له [illegible] العرب على دولها وانت لا تصنع بتفريق العرب شيئا [illegible] وقد قدم عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس في رجال من أشراف العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا انه قد ارتد عامة من وراءنا عن الاسلام وليس في أنفسهم أن يؤدوا اليكم من أموالهم ما كانوا يؤدون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان تجعلوا لنا جعلا نرجع فنكفيكم من وراءنا فدخل المهاجرون والانصار على أبي بكر رضي الله عنه فعرضوا عليه الذي عرضوا عليهم وقالوا نرى أن نطعم الاقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع اليك أسامة وجيشه ويشتد امرك فانا اليوم قليل في كثير ولا طاقة لنا بقتال العرب فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه هل ترون غير ذلك قالوا لا فقال

أبو بكر رضي الله عنه بكم قد علمتم انه كان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم وان الله لن يجمعكم على ضلال واني سأشير عليكم وانما انا رجل منكم تنظرون فيما أشرت عليكم وفيما أشرتم به فتجتمعون على أرشد ذلك فان الله يوفقكم أما انا فأرى أن نشد على عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وان لا ترشوا على الاسلام أحدا وان تسيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنجاهد عدوه كما جاهدهم والله لو منعوني عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه الى مستحقه فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأيي فقالوا لابي بكر لما سمعوا رأيه أنت أفضلنا رأيا ورأينا لرأيك تبع فأمر أبو بكر رضي الله عنه بالتجهيز فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء وقال أبو هريرة رضي الله عنه والله لولا استخلاف أبي بكر ما عبد الله وأخرج الدارقطني أن أبا بكر رضي الله عنه لما قاتل أهل الردة وأراد أن يخرج بهم بنفسه شاهرا سيفه واستوى على راحلته أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بزمامها وقال الى أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع الى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للاسلام نظام أبدا فرجع وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه لقتال أهل الردة وكان الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا من أبي بكر رضي الله عنه الثبات الذي هو أعظم من هذا وهو ثباته يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فان الناس قد تزلزلت أقدامهم وذهلت عقولهم يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشك بعضهم في موته وكان أبو بكر رضي الله عنه غائبا بمنزله بالسنح في عوالي المدينة وعمر حاضر فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات وأخرس بعض وأقعد بعض واضطرب الناس فجاء أبو بكر رضي الله عنه من منزله بالسنح ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى في ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبله وقال بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يا رسول الله بعدها أبدا ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره أن يسكت فأبى فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ثم تلا قوله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين فوالله لكأن

الناس ما سمعوها الا منه وقد كان نزولها يوم واحد في السنة الثالثة من الهجرة فكأنهم نسوها لما
أصابهم من الحزن بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر والله ما هو الا أن سمعتها فعقرت حتى
وقعت على الارض ما تحملني رجلاي وعلمت حينئذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فقد
زال عنهم رضي الله عنهم ذلك الدهش الا بتثبيت أبي بكر رضي الله عنه حين خطب الناس فرجعت
اليهم عقولهم وعرفوا حقيقة الأمر فدل ذلك على انه كان أشد الصحابة رأيا وأكملهم عقلا وأوفرهم
علما وأخرج البزار في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يوما لأصحابه أخبروني عن
أشجع الناس قالوا أنت قال أما إني ما بارزت أحدا الا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس
قالوا لا نعلم فمن قال أبو بكر انه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشا فقلنا من
يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش لئلا يهوي اليه أحد من المشركين فوالله ما دنا منا
أحد الا أبو بكر شاهرا سيفه واقفا على راس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوي اليه أحد الا
أهوى اليه فهذا أشجع الناس ثم قال علي رضي الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد
أخذته قريش بمكة قبل الهجرة فهذا يجؤه وهذا يتلتله ويقولون أنت الذي جعلت الآلهة الها
واحدا قال فوالله ما دنا منا أحد الا أبو بكر يضرب هذا ويتلتل هذا وهو يقول أتقتلون رجلا أن
يقول ربي الله ثم رفع علي رضي الله عنه بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أمؤمن آل
فرعون خير أم أبو بكر فسكت القوم فقال ألا تجيبوني فوالله لساعة من أبي بكر خير من مؤمن آل
فرعون ذاك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل أعلن ايمانه فهذا الذي ذكره مع ما انضم اليه من ثبات
أبي بكر رضي الله عنه يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وثباته لقتال أهل الردة هو الذي حمل أهل
السنة ان يجزموا بأن أبا بكر رضي الله عنه أشجع الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه
عليهم أجمعين وأخرج في الطيوريات عن الامام محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي
رضي الله عنهم قال قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه نسمعك تقول في الخطبة اللهم
أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين فمن هم فاغرورقت عيناه بالدموع ثم أهملهما فقال هما
حبيباي ابو بكر وعمر اماما الهدى وشيخا الاسلام ورجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدي الى الصراط المستقيم ومن تمسك
بهما فهو من حزب الله وحزب الله هم المفلحون وأخرج البيهقي عن الشافعي رضي الله عنه قال ان
الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجدوا تحت اديم السماء خيرا من أبي بكر رضي الله
عنه فولوه رقابهم وأخرج أبو ذر الهروي والدارقطني من طرق أن بعضهم مر بنفر يسبون
الشيخين فأخبر عليا رضي الله عنه وقال له لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترؤا على ذلك

فقال علي رضي الله عنه أعوذ بالله رحمهما الله تعالى ثم نهض فأخذ بيد ذلك المخبر وأدخله المسجد وأمر باجتماع الناس فصعد المنبر ثم قبض على لحيته وهي بيضاء فجعلت دموعه تتحادر على لحيته وجعل ينظر البقاع حتى اجتمع الناس ثم خطب خطبة بليغة من جملتها ما بال أقوام يذكرون بسوء أخوي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية وصاحبيه وسيدي قريش وأبوي المسلمين وأنا بريء مما يذكرون وعليه معاقب صحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجد والوفاء في أمر الله يأمران وينهيان ويقضيان ويعاقبان لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كرأيهما رأيا ولا يحب كحبهما حبا لما يرى من عزمهما في أمر الله فقبض وهو عنهما راض والمسلمون راضون فما تجاوزا في أمرهما وسيرتهما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره في حياته وبعد موته فقبضا على ذلك رحمهما الله تعالى فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقي مارق وحبهما قربة وبغضهما مروق ثم ذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أن يصلي بالناس وهو يرى مكان علي ثم ذكر أنه بايع أبا بكر ثم ذكر استخلاف أبي بكر لعمر رضي الله عنهما ثم قال ألا ولا يبلغني عن أحد أنه يبغضهما إلا جلدته حد المفتري وكان أول من حمل على الكلام في الشيخين عبد الله بن سبأ وكان يهوديا فأسلم وكان إسلامه ظاهرا فقط وهو باق على يهوديته ونفاقه وأراد بإسلامه تحصيل وقوع الافتراق بين المسلمين وإدخال التشكيك عليهم فيما بينهم لأن الطعن في الصحابة طعن في الشريعة لأنها إنما وصلت إلى الأمة من طريق الصحابة فإذا انتفت العدالة عنهم انتفت صحة النقل من قبلهم ولا شريعة ومن ثم لما بلغ عليا سبه أحضره وسأله عما نسب إليه فذكر مسيره [illegible]

وأخرج الدارقطني من طرق أن عليا رضي الله عنه بلغه أن رجلا يعيب أبا بكر وعمر فأحضره وعرض له بعيبهما لعله يعترف ففطن فقال له علي أما والذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق أن لو سمعت منك الذي بلغني عنك أو ثبت عليك لأفعلن بك كذا وكذا ومما يستدل به أهل السنة والجماعة على صحة خلافة أبي بكر وتقدمه على علي رضي الله عنه ما أخرجه الدارقطني وابن عساكر وغيرهما أن عليا رضي الله عنه لما قام بالبصرة قام إليه رجلان فقالا له أخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه تستولي على الأمة أعهد من رسول الله عهده إليك فحدثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ما سمعت فقال أما أن يكون عندي عهد من النبي صلى الله عليه وسلم عهده إلي في ذلك فلا والله لئن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه ولو كان عندي منه عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يثبان على

منبره ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد الا بردي هذه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل
قتلا ولم يمت فجأة مكث في مرضه أياما وليالي يأتيه المؤذن يعرفه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي
بالناس وهو يرى مكاني [illegible] في رواية وماني مرض ولقد أرادت امرأة من
نسائه [illegible] عن أبي بكر [illegible] وقال أنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس
فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر في أمرنا فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله
صلى الله عليه وسلم لديننا وكانت الصلاة عظم الاسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر رضي الله
عنه وكان لذلك أهلا [illegible] بين أظهرنا بكلمة واحدة ولا مرة
واحد لا يختلف عليه منا اثنان فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في
جنوده وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما
قبض ولاها عمر فأخذها بسنة صاحبه وما يعرف من أمره فبايعنا عمر لم يختلف عليه اثنان
منا فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جيوشه وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا
أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي
وأنا [illegible] لا يعمل الخليفة بعده ذنبا إلا لحقه في قبره فأخرج
منها نفسه وولده [illegible] أحدهم وظننت أن لا يعدلوا
بي [illegible] فبايعنا عثمان
[illegible] قد أخذ لغيري فبايعنا عثمان فأديت له حقه
وعرفت له طاعته وغزوت معه في جيوشه وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب
بين يديه الحدود بسوطي [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ذلك القول من علي رضي الله عنه جزما قاطعا ليس فيه شك ولا ارتياب قال الحافظ الذهبي وقد تواتر ذلك عن علي رضي الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك في الخلوة والملا وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم ولهذا اتفق الأئمة الاربعة وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف وبقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته قال سفيان الثوري من قال ان عليا رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنه فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والانصار وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل الى السماء وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما مثل ذلك ولم ينقل عن علي رضي الله عنه انه ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافته فلو سئل عن ذلك لذكر ولو ان الرافضة فيهم من يمكنهم انكار ذلك ولم يمكنهم أيضا انكار اعتراف علي بصحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لظهوره وانتشاره عنه بحيث لا ينكره الا جاهل او معاند مكابر قالوا انما قال ذلك تقية ومداراة وذلك منهم كذب وافتراء وأحسن ما يقال في هذا المحل ألا لعنة الله على الكاذبين وكيف يتوهم من له أدنى عقل او فهم صدور ذلك من علي تقية ومداراة مع ما أعطاه الله من كمال الايمان وعظم الشجاعة والاقدام حتى انه لا يهاب أحدا ولا يخشى في الله لومة لائم وكيف يتوهم عاقل انه يقول ذلك في الخلا وعلى رؤس الملا وفي زمن خلافته وعلى منبر الكوفة وهو في ذلك الوقت أقوى ما كان أمرا وأنفذ حكما وذلك بعد انقضاء مدة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فما الحامل له على ذلك فيما افتروه [illegible] وصح خلافة علي رضي الله عنه [illegible] والصحابة رضي الله عنهم [illegible] وان عليا رضي الله عنه تماسك على النزاع في أمر الخلافة لان النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] لا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفا [illegible] يترتب [illegible] وكيف يعقل [illegible] [illegible] السيف [illegible] في حرب صفين [illegible] لأنه [illegible] بقتل [illegible] السيف [illegible] أنواع [illegible] الكفار [illegible] كلام هؤلاء [illegible]

منبره ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد الا بردي هذه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة مكث في مرضه أياما وليالي يأتيه المؤذن يؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني وإني حاضر لست بغائب وفي رواية وما بي مرض ولقد أرادت امرأة من نسائه تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال أنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرنا في أمرنا فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا وكانت الصلاة معظم الاسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر رضي الله عنه وكان لذلك أهلا لم يختلف منا اثنان وفي رواية فلقا بين أظهرنا الكلمة واحدة والأمر واحد لا يختلف عليه منا اثنان فأديت لأبي بكر حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جنوده وكنت آخذ اذا أعطاني وأغزو اذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما قبض ولاها عمر فأخذها بسنة صاحبه وما يعرف من أمره فبايعنا عمر لم يختلف عليه اثنان منا فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جيوشه وكنت آخذ اذا أعطاني وأغزو اذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي وأنا أظن أن لا يعدل بي ولكن خشي أن لا يعمل الخليفة بعده شيئا الا لحقه في قبره فأخرج منها نفسه وولده ولو كانت محاباة منه لآثر بها ولده وبرئ منها الى رهط أنا أحدهم وظننت أن لا يعدلوا بي فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا ثم بايع عثمان فنظرت فاذا طاعتي قد سبقت بيعتي واذا ميثاقي قد أخذ لغيري فبايعنا عثمان فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جيوشه وكنت آخذ اذا أعطاني وأغزو اذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما أصيب نظرت فاذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهما بالصلاة قد مضيا وهذا الذي قد أخذ له الميثاق قد أصيب فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين فوثب فيها من ليس مثلي ولا قرابته كقرابتي ولا علمه كعلمي ولا سابقته كسابقتي وكنت أحق بها منه يعني معاوية رضي الله عنه وصح من طرق كثيرة أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ابسط يدك أبايعك فلا يختلف عليك اثنان فأبى علي رضي الله عنه [illegible] ذلك ولما أخر [illegible] كما يقول الشيعة [illegible] لا [illegible] علي رضي الله عنه [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] من طرق كثيرة [illegible]

ذلك القول من علي رضي الله عنه جزماً قاطعاً ليس فيه شك ولا ارتياب قال الحافظ الذهبي
تواتر ذلك عن علي رضي الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصح بذلك في الخلوة والملا
وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم ولهذا اتفق الأئمة الاربعة
وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف وبقية
أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته قال سفيان الثوري من قال ان عليا رضي الله عنه
كان أحق بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنه فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والانصار وما
أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل الى السماء وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضي الله
عنهما مثل ذلك ولم ينقل عن علي رضي الله عنه أنه ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافته
بل اذا سئل عن ذلك أنكر وأما الرافضة فانهم لم يمكنهم انكار ذلك ولم يمكنهم أيضا انكار
اعتراف علي بصحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لظهوره وانتشاره عنه بحيث لا ينكره
الا جاهل بالآثار أو مباهت مكابر قالوا انه قال ذلك تقية ومداراة وذلك منهم كذب وافتراء
وأحسن ما يقال في هذا المحل ألا لعنة الله على الكاذبين وكيف يتوهم من له أدنى عقل أو فهم
صدور ذلك من علي تقية ومداراة مع ما أعطاه الله من كمال الايمان وعظم الشجاعة والاقدام
حتى انه لا يهاب أحدا ولا يخشى في الله لومة لائم وكيف يتوهم عاقل أن يقول ذلك في الخلا وعلى
رؤس الملا وفي زمن خلافته وعلى منبر الكوفة وهو في ذلك الوقت أقوى ما كان أمرا وأنفذ
حكما وذلك بعد مدة طويلة من وفاة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فما أحق أن يقال فيما افتروه
سبحانك هذا بهتان عظيم ومن قبيح افترائهم زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة لعلي
رضي الله عنه وانه كتم ذلك سائر الصحابة رضي الله عنهم فخالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم
وان عليا رضي الله عنه انما سكت عن النزاع في أمر الخلافة لان النبي صلى الله عليه وسلم أوصاه
أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفا وهذا منهم كذب وافتراء وحمق وجهالة مع عظيم الغباوة عما
يترتب على ذلك اذ كيف يعقل هذا الذي زعموه وكيف يعقل أنه جعله اماما واليا على الامة
بعده ويمنعه من سل السيف على من امتنع من قبول الحق ولو كان ما زعموه صحيحا ما سل السيف
في حرب صفين والجمل وقتال الخوارج وقاتل هو بنفسه وقاتل معه أهل بيته وأصحابه وجاهد وقتل
الالوف من مقاتليه وحاشاه أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيضا كيف
يعقل أنه يوصيه بعدم سل السيف على قوم زعم فيهم الرافضة أنهم كفار مرتدون جاهروا بأقبح
أنواع الكفر مع ما أوجب الله من جهاد الكفار قال بعض أئمة أهل البيت النبوي قد تأملت
كلام هؤلاء الضالين فرأيتهم قوما أعمى الله بصائرهم فما يبالون بما يترتب على مقالاتهم من

منبره ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد إلا بردي هذه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة مكث في مرضه أياما وليالي يأتيه المؤذن يعرفه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني وإني حاضر لست بغائب وفي رواية وما بي مرض ولقد أرادت امرأة من نسائه تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال أنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرنا في أمرنا فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا وكانت الصلاة معظم الإسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر رضي الله عنه وكان لذلك أهلا لم يختلف منا اثنان وفي رواية فاقتدينا به فأظهرنا الكلمة واحدة والأمر واحد لا يختلف عليه منا اثنان فأديت لأبي بكر حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جنوده وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما قبض ولاها عمر فأخذها بسنة صاحبه وما يعرف من أمره فبايعنا عمر لم يختلف عليه اثنان منا فأديت له حقه وعرفت له وغزوت معه في جيوشه وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي وأنا أظن أن لا يعدل بي ولكن خشي أن لا يعمل الخليفة بعده شيئا إلا لحقه في قبره فأخرج منها نفسه وولده ولو كانت محاباة منه لآثر بها ولده وبرئ منها إلى رهط أنا أحدهم وظننت أن لا يعدلوا بي فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا ثم بايع عثمان فنظرت فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري فبايعنا عثمان فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جيوشه وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي فلما أصيب نظرت فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما بالصلاة قد مضيا وهذا الذي قد أخذ له الميثاق قد أصيب فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين فوثب فيها من ليس مثلي ولا قرابته كقرابتي ولا علمه كعلمي ولا سابقته كسابقتي وكنت أحق بها منه يعني معاوية رضي الله عنه وصح من طرق كثيرة أن [illegible] بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد [illegible] لا يختلف [illegible] علي رضي الله عنه ولو علم بوجود نص لقابل ذلك [illegible] من كل قبيح قول الشيعة [illegible] لا خبر عن علي رضي الله عنه بصحة خلافة أبي بكر وعمر وكونهما خير الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه من طرق كثيرة [illegible] محمد بن الحنفية وغيره بحيث [illegible] من تتبعها بعصور

ذلك القول من علي رضي الله عنه جزماً قاطعاً ليس فيه شك ولا ارتياب قال الحافظ الذهبي تواتر ذلك عن علي رضي الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك في الخلوة والملا وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم ولهذا اتفق الأئمة الاربعة وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف وبقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته قال سفيان الثوري من قال ان علياً رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنه فقد خطأ أبابكر وعمر والمهاجرين والانصار وما أرى يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل الى السماء وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما مثل ذلك ولم ينقل عن علي رضي الله عنه أنه ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافته بل اذا سئل عن ذلك أنكر وأما الرافضة فانهم لما لم يمكنهم انكار ذلك ولم يمكنهم أيضاً انكار اعتراف علي بصحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لظهوره وانتشاره عنه بحيث لا ينكره الا جاهل بالآثار أو مباهت مكابر قالوا انما قال ذلك تقية ومداراة وذلك منهم كذب وافتراء وأحسن ما يقال في هذا المحل ألا لعنة الله على الكاذبين وكيف يتوهم من له أدنى عقل أو فهم صدور ذلك من علي تقية ومداراة مع ما أعطاه الله من كمال الايمان وعظم الشجاعة والاقدام حتى انه لا يهاب أحداً ولا يخشى في الله لومة لائم وكيف يتوهم عاقل أن يقول ذلك في الخلا وعلى رؤس الملا وفي زمن خلافته وعلى منبر الكوفة وهو في ذلك الوقت أقوى ما كان أمراً وأنفذ حكماً وذلك بعد مدة طويلة من وفاة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فما أحق أن يقال فيما افتروه سبحانك هذا بهتان عظيم ومن قبيح افترائهم زعمهم ان النبي صلى الله وسلم أوصى بالخلافة لعلي رضي الله عنه وانه كتم ذلك وان الصحابة رضي الله عنهم خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وان علياً رضي الله عنه انما سكت عن النزاع في أمر الخلافة لان النبي صلى الله عليه وسلم أوصاه أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفاً وهذا منهم كذب وافتراء وحمق وجهالة مع عظيم الغباوة عما يترتب على ذلك اذ كيف يعقل هذا الذي زعموه وكيف يعقل انه جعله اماماً وواليا على الامة بعده ويمنعه من سل السيف على من امتنع من قبول الحق ولو كان ما زعموه صحيحاً ما سل السيف في حرب صفين والجمل وقتال الخوارج وقاتل هو بنفسه وقاتل معه أهل بيته وأصحابه وجاهد وبرز الالوف من مقاتليه وحده أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيضاً كيف يعقل انه يوصيه بعدم سل السيف على قوم زعم فيهم الرافضة أنهم كفار مرتدون تجاهروا بأقبح أنواع الكفر مع ما أوجب الله من جهاد الكفار قال بعض أئمة أهل البيت النبوي قد تأملت كلام هؤلاء الضالين فرأيتهم قوماً أعمى الهوى بصائرهم فما يبالون بما يترتب على مقالاتهم من

الفاسد فأورثتهم غباوتهم العار والفضيحة ولم يبالوا بما يترتب على ذلك من نسبة علي رضي الله عنه
إلى الذل والعجز بل ونسبة جميع بني هاشم إلى ذلك العار اللاحق بهم الذي لا أقبح منه وبنو هاشم
أهل النجدة والشجاعة والأنفة بل يلزمهم أيضا نسبة جميع الصحابة رضي الله عنهم إلى ذلك
وكيف يتوهم مؤمن عاقل أن الصحابة يطاوعون على النص على خلافة علي رضي الله عنه فلا
يعملون به ولا يرجعون إليه وهم أطوع الناس لله وأشد الناس وقوفا عند حدود الله تعالى وأبعد
عن اتباع حظوظ النفس وقد قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم
كيف يكون ذلك وفيهم العشرة المبشرون بالجنة ومنهم أبو عبيدة أمين هذه الأمة بنص قوله
صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة وكيف يتوهم
فيهم شيء من ذلك وهم منزهون عن وصف الخيانة في دين الله أو يتركوا العمل بما ثبت عندهم عن
النبي صلى الله عليه وسلم لأن ذلك خيانة في الدين فلا يجوز عليهم ذلك لا شرعا ولا عقلا ولا عادة لأنه
يلزم من وقوع ذلك منهم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم في شهادته لهم بالخيرية وثنائه عليهم
وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم كفر ووقوع الكفر منهم محال لثبوت صدقه بالمعجزات فما
أدى إليه محال أيضا فكيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تجتمع أمتي على ضلالة
ولو جاز وقوع مثل ذلك منهم لارتفع الأمان والثقة في كل ما نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم
من القرآن والأحكام ولم يحصل جزم بشيء من أمور الدين بل يختل جميع الدين أصوله وفروعه
لأنه أخذ عن الأمة جميعهم ووصل إلينا بواسطتهم وفي نسبة الرافضة سيدنا عليا رضي الله عنه إلى
كتمان النص غاية التقصير والتقبيح في نسبته إلى الخور والعجز والخيانة والكتمان حاشاه
الله من ذلك وبهذه الرافضة هذه المقالة الشنيعة وصار بعض الملاحدة إلى تكفير علي
رضي الله عنه معتمدا على قولهم إنه كتم النص [illegible] كيف يسع من له
دين أن [illegible] وتواتر عنهم من غيرهم
[illegible] حتى [illegible] لا [illegible]
ولأبنائه في [illegible] أو سكوت
عن بعض [illegible] وشهادته له بالصدق
بقوله [illegible] رضي الله عنهم ورضوا عنه وعد
[illegible] الحسنى بقوله وكلا
وعد الله الحسنى وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم لكل منهم [illegible] فلا يقدم على
[illegible] وأحبابه

الله نار جهنم وبئس القرار فنسأل الله السلامة مما وقع فيه هؤلاء الاشرار فما أقبح قولهم ان الصحابة علموا النص على خلافة علي رضي الله عنه فلم ينقادوا له عنادا ومكابرة بالباطل وأقبح من ذلك قولهم ان عليا ترك ذلك تقية كل ذلك كذب وزور توصلوا به الى تكفير الصحابة رضي الله عنهم وقد أخرج البيهقي عن الامام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال أصل عقيدة الشيعة تضليل الصحابة رضي الله عنهم وانما نبه على الشيعة لانهم أقل فحشا في عقائدهم من الرافضة وذلك لان الرافضة يقولون بتكفير الصحابة رضي الله عنهم لانهم على زعمهم عاندوا بترك العمل بالنص على خلافة علي رضي الله عنه بل زاد أبو كامل وكان من رؤس الرافضة فكفر عليا رضي الله عنه زاعما أنه أعان الكفار على كفرهم وعلى كتمان الامر بامامته بل تواتر عن علي رضي الله عنه الاعتراف بصحة خلافة أبي بكر وعمر وأنهما أفضل الامة وقبل من عمر رضي الله عنه ادخاله اياه الشورى بل تواتر عنه كما تقدم ذلك عنه وانما تخذ الملحدون كلام الرافضة والشيعة وأمثالهم ذريعة لهم الى الطعن في الدين والقرآن لان ذلك انما وصل الينا من طريق الصحابة رضي الله عنهم ومن جملة ما قاله أولئك الملحدون كيف يقول الله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وقد ارتدوا بعد وفاة نبيهم الا نحو ستة أنفس منهم في زعمهم وجعل سبب الارتداد امتناعهم من قبول النص بتقديم علي رضي الله عنه فانظر الى كلام هذا الملحد تجده مأخوذا مما اختلقه الرافضة وأمثالهم قاتلهم الله أنى يؤفكون بل هم أشد ضررا على الدين من اليهود والنصارى وسائر فرق الضلالة وقد جاء التصريح بذلك عن علي رضي الله عنه فانه صح عنه انه قال تفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة شرها من ينتحل حبنا ويفارق أمرنا ووجهه ما اشتمل عليه كلامهم من افتراء الكذب وارتكاب قبائح البدع والعناد حتى تسلطت الملاحدة بسبب ذلك على الطعن في الدين وأئمة المسلمين بل قال القاضي أبو بكر الباقلاني فيما ذهبت اليه الرافضة مما ذكر ابطال للاسلام رأسا لانه اذا أمكن اجتماع الصحابة رضي الله عنهم على الانكار للنصوص أمكن فيهم نقل الكذب والتواطؤ عليه لغرض فيمكن ان سائر ما نقلوه من الاحاديث كذب وزور وحاشاهم من ذلك وكذلك ما ذكره سائر الامم عن جميع الرسل يجوز الكذب فيه والزور والبهتان على زعمهم لانهم اذا ادعوا ذلك في هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس فدعاؤهم اياه في باقي الامم أحرى وأولى فتأمل هذه المفاسد التي ترتبت على ما أسسه هؤلاء الملاحدة قاتلهم الله أنى يؤفكون وقد أخرج البيهقي عن الامام الشافعي رضي الله عنه أنه قال ما من أهل الاهواء أشد بالزور من الرافضة وكان اذا ذكرهم عابهم أشد العيب وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال من قال ان عليا رضي الله عنه كان أحق بالولاية من أبي بكر رضي الله

عنه فقد غاظ أبا بكر وعمر والمهاجرين والانصار وقال الامام مالك قوله تعالى فى حق الصحابة ليغيظ بهم الكفار ان الرافضة كفار لان الصحابة يغيظونهم ومن أغاظه الصحابة فهو كافر وهو مأخذ حسن يشهد له ظاهر هذه الآية ومن ثم وافقه الشافعى رضى الله عنه فى أحد قوليه بكفرهم ووافقه أيضا جماعة من الائمة قال ابن الاثير في تاريخه المسمى بالكامل في حوادث سنة ست وتسعين ومائتين عند ذكره ظهور دولة العبيديين ما نصه لما بعث الله سيد الاولين والآخرين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عظم ذلك على اليهود والنصاري والروم والفرس وقريش وسائر العرب لانه سفه احلامهم وعاب اديانهم وآلهتهم وفرق جمعهم فاجتمعوا يدا واحدة عليه فكفاه الله كيدهم [illegible] منهم من هداه الله تعالى ولما قبض صلى الله عليه وسلم نجم النفاق وارتدت العرب وظنوا ان اصحابه رضى الله عنهم يضعفون بعده فجاهد أبو بكر رضي الله عنه في سبيل الله فقتل مسيلمة واهل الردة وذل الكفر ووطأ جزيرة العرب وغزا الفرس والروم فلما حضرته الوفاة ظنوا انه ينتقص الاسلام فاستخلف عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فاذل فارس والروم وغلب على ممالكهم فدس عليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله ظنا منهم ان بقتله ينطفئ نور الاسلام فولي بعده عثمان رضي الله عنه فزاد في الفتوح واتسعت مملكة الاسلام فلما قتل وولي بعده امير المؤمنين علي رضي الله عنه قام بالامر أحسن قيام فلما يئس [illegible] أخذوا في وضع الاحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول في دينهم بامور قد ضبطها المحدثون وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه [illegible] صلى الله عليه وسلم ولم يتركوا أمرهم ويستميلوا [illegible] وتفرق دعاتهم في البلاد وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه وأكثروا الطعن في الصحابة [illegible] في الشريعة لان طريقها وصلت [illegible] فلا [illegible] تنتشر مذاهبهم [illegible] من ذلك [illegible] الله أني [illegible] أبي بكر رضى الله عنه وذكر شيء آخر من محاسنه رضى الله عنه [illegible] وهي كثيرة [illegible] خطب مرة فقال [illegible] أشقى الناس في الدنيا والآخرة [illegible] تعجلون ان من الملوك من [illegible] وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل [illegible] وتنقطع عنه مدة البقاء لا يستعمل

العبرة ولا يسكن الى الثقة به وهو كالدرهم القسي والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن فاذا أوجبت نفسه ونضب عمره وضحي ظله حاسبه الله فأشد حسابه وأقل جزاءه الا وان الفقراء هم المرحومون الا ان من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه وانكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة وسترون بعدي ملكا عضوضا وملكا عتودا وأمة شعاعا ودما مباحا فان كانت للباطل نزوة ولاهل الحق جولة يعفو لها الأثر الخير وتموت لها السنة فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة وليكن الابرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر أي بلاد جوسه ان الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها وقال رضي الله عنه في بعض خطبه ان الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم والناس يومئذ على شر حال في ظلمات الجاهلية دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته اخوانا أوصيكم بتقوي الله العظيم في كل أمر وعلي كل حال ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم فانه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير من يكذب يفجر ومن يفجر يهلك واياكم والفخر وما فخر من خلق من التراب والي التراب يعود وهو اليوم حي وغدا ميت فاعملوا وعدوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الي الله تعالى وقدموا لانفسكم تجدوه محضرا فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء باعمالكم صغيرها وكبيرها الا ما غفر الله انه غفور رحيم فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوة الا بالله ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صل علي محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك وقال في خطبة أخري بعد ان حمد الله وأثني عليه أوصيكم بتقوى الله وان تثنوا عليه بما هو أهله وان تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ثم اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم وأخذ علي ذلك مواثيقكم وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه وتبصروا فيه ليوم الظلمة فانه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ثم اعلموا عباد الله انكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم ان تنقضي الآجال وانتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك الا بالله فسابقوا في مهل بأعمالكم قبل ان تنقضي آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم ان تكونوا أمثالهم فالوحا الوحا النجا النجا فان وراءكم طالبا حثيثا أمره

بمعاصيه وكان آخر دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته اللهم اجعل خير زماني آخره
وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم ألقاك وخطب مرة خطبة فقال أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية
وتؤولونها على غير تأويلها يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم واني
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم
يفعل الا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ومن كلامه رضي الله عنه أنه قال لخالد بن الوليد رضي
الله عنه فر من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة ولما وفد عليه أهل اليمامة
بعد قتل مسيلمة الكذاب قال لهم أبو بكر رضي الله عنه ما كان يقول صاحبكم يعني فيما يزعم أنه وحي
قالوا أعفنا يا خليفة رسول الله فقال لابد أن تقولوا قالوا كان يقول يا ضفدع كم تنقين لا الشرب تمنعين
ولا الماء تكدرين لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لا يعدلون فقال
لهم أبو بكر رضي الله عنه ويحكم ما خرج هذا من آل ولا بر فأين ذهب بكم لا اله الا الله تعالى
والنجر الرجل الصالح ومن دعاء الصديق رضي الله عنه اللهم اني أسألك الذل عند النصف
من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف ولما نزل قوله تعالى من يعمل سوأ يجز به قال أبو بكر
رضي الله عنه يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا
بكر ألست تمرض ألست تصيبك اللأواء ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعني أن جميع
ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه اذا مدح يقول اللهم أنت
أعلم مني بنفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون
ولا تؤاخذني بما يقولون وروى الصديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلوا
الله العافية فانه لم يعط أحد أفضل من العافية الا اليقين وأشار باليقين الى عافية القلب عن
مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن # ومن كلامه رضي الله عنه من
[illegible] ورأى أبو بكر رضي الله عنه مرة طائرا فقال ليتني مثلك يا طائر
[illegible] لا حساب عليك [illegible] أبو بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان
أخذه من بيت المال في خلافته ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال وشرب أبو بكر رضي الله عنه
مرة لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصبعه في فيه
وجعل يقيء حتى ظنوا أن نفسه ستخرج ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما حملت العروق
وخالط الأمعاء وأخبر صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أوما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه
الا طيب وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال فيه يعني أبا بكر نزل ولمن خاف مقام ربه جنتان
ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عبدا خير بين الدنيا وما عند الله فاختار ما عند الله بكى

أبو بكر رضي الله عنه وفهم ان العبد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وان ذلك اشارة الى قرب أجله صلى الله عليه وسلم ولم يفهم ذلك المعنى أحد من الصحابة الحاضرين غير أبي بكر رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع في المسجد الاباب أبي بكر اشارة الى أنه الخليفة بعده ففتح باب له على المسجد ليدخل منه ويصلي بالناس ثم قال صلى الله عليه وسلم اني لا أعلم امرأ عندي أفضل في الصحبة من أبي بكر رضي الله عنه ولما مرض أبو بكر رضي الله عنه مرض الوفاة دخل عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال يا أبا بكر أوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها الا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر رضي الله عنه ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فقال أبو بكر رضي الله عنه من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الافق المبين قالوا وما الافق المبين قال قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير اللهم انك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل ان تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقني بمعاصيك اللهم انك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها عما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان أحدا لا يشاء حتى تشاء فجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني اليك اللهم انك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ الا باذنك فجعل حركتي في تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فجعلني من خير القسمين اللهم انك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فجعلني من سكان جنتك اللهم انك أردت بقوم الهدى وشرحت به صدورهم وأردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للايمان وزينه في قلبي وكره الي الكفر والفسوق والعصيان واجعلني من الراشدين اللهم انك دبرت الامور وجعلت مصيرها اليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني اليك زلفى اللهم من أصبح وأمسى وثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة الا بالله قال أبو بكر رضي الله عنه هذا كله في كتاب الله عز وجل وروي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ولي من أمر المسلمين شيأ فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله

منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم ومن أعطى حمى الله فقد انتهك من حمى الله ومن أخذ شيئا بغير حقه فعليه لعنة الله وروى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد أمرا قال اللهم خر لي واختر لي وروي أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الارض ويرفع له كل يوم وليلة عمل ستين صديقا وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب وروي أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال النظر الى علي عبادة وسئل أبو بكر رضي الله عنه يوما عن آية في كتاب الله تعالى فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم وقال رضي الله عنه في قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هي النظر الى وجه الله عز وجل وكان رضي الله عنه اذا عزى رجلا قال ليس مع العزاء مصيبة وليس مع الجزع فائدة الموت أهون مما قبله وأشد مما بعده اذكروا فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم تصغر مصيبتكم ويعظم الله أجركم وكان رضي الله عنه اذا صلى على الميت قال اللهم عبدك أسلمه الاهل والمال والعشيرة والذنب عظيم وأنت غفور رحيم وغضب رضي الله عنه يوما على رجل فاشتد غضبه فقال له أبو برزة الاسلمي يا خليفة رسول الله اضرب عنقه فقال له ويلك ما هي لاحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أيضا رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خالد بن الوليد سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار والمنافقين وروي أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم شدد الاسلام بعمر وروى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو لم أبعث فيكم لبعث عمر وسيرة أبي بكر معروفة وفي هذا القدر كفاية والقصد من ذلك كله بيان أن ملاك الامر كله

منحصر في سياسة الملوك وسيرة خيرة على المسلمين بسيرة الخلفاء الراشدين وقد تقدم في كلام أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها فلابد لصلاح هذه الامة من سيرة يسلك بها مسالك الخلفاء الراشدين ولا يكون ذلك الا بالزهد في الدنيا وروى الحافظ بن نعيم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه فاستسقى فأتي باناء فيه عسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ثم سكت فسكتوا ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدر أحد على مسألته ثم مسح وجهه فأفاق فقالوا ما هاجك على هذا البكاء قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يدفع عنه شيئا ويقول اليك عني اليك عني ولم أر معه أحدا فقلت يا رسول الله أراك تدفع عنك شيئا ولا أرى معك أحدا فقال هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها فقلت لها اليك عني فتنحت وقالت أما والله لئن انفلت مني لا ينفلت مني من بعدك فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه دخلت على أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته فقال والله لان يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا قال الحسن البصري لقد قال

أبو بكر رضي الله عنه في مرض موته جمع الناس اليه فقال انه قد نزل بي ما قد ترون وقد أطلق الله ايمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدي ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم فانكم ان أمرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي فقاموا في ذلك وخلوا عنه فلم يستقم لهم رأي فرجعوا اليه وقالوا رأينا يا خليفة رسول الله رأيك فقال لعلكم تختلفون قالوا لا وقال علي رضي الله عنه يا خليفة رسول الله امض لما رأيت فانا سامعون مطيعون فقال فلعلكم تختلفون قالوا لا قال فعليكم عهد الله على الرضا قالوا نعم قال فأمهلوني وانظر لله ولدينه ولعباده وفي رواية قال لهم قد حضر ما ترون ولا بد من قائم بأمركم يجمع فيئكم ويمنع ظالمكم من الظلم ويرد على الضعيف حقه فان شئتم اخترتم لانفسكم وان شئتم جعلتم ذلك الي فوالله لا آلوكم ونفسي خيرا وفي رواية قال لهم أترضون بخلافة خليفة أعينه لكم والله ما أعين لكم أحدا من أقربائي قالوا قد رضينا من اخترت لنا ثم أرسل لكثير منهم واختلى بكل واحد وحده فكانوا يشيرون عليه باستخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقبل اشارتهم وأمر عثمان رضي الله عنه بكتابة الصحيفة التي فيها استخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم أمر عثمان أن يخرج للناس ويقرأها عليهم وقال لهم أبو بكر رضي الله عنه قبل قراءتها أترضون بمن استخلفه عليكم قالوا نعم وقال علي رضي الله عنه لا نرضى الا أن يكون عمر فقال هو عمر فقال علي يا خليفة رسول الله امض لرأيك فانا لا نعلم به الا خيرا وقال عثمان وسعيد بن زيد واسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والانصار أنت أخبر به وهو أعلمنا للخير بعدك يرضي للرضا ويسخط للسخط وسريرته خير من علانيته وليس فينا مثله ولن يلي هذا الامر أقوى عليه منه ثم قرئت عليهم الصحيفة فرضوا بما فيها وعن عاصم بن عدي قال جمع ابو بكر رضي الله عنه الناس وهو مريض وأمر من يحمله الى المنبر وكانت آخر خطبة خطبها بعد أن عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس احذروا الدنيا ولا تغتروا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا فأحبوهما يبغض كل واحدة منهن بغض الاخرى وان هذا الامر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا يحتمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه وأشدكم في حال الشدة وألينكم في حال اللين وأعلمكم برأي ذوي الرأي لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما لم ينزل به ولا يستحي من التعلم ولا يتحير عند البديهة قوي على الامور لا يجوز لشيء منها حده بعدوان ولا يقصر برصد لما هو آت عنده من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب ثم نزل فدخل داره رضي الله عنه وقيل له ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر وقد ترى غلظته فقال أبو بكر رضي الله عنه أجلسوني أبالله تخوفني خاب من تزود من أمركم بظلم أقول اللهم استخلفت عليهم أفضلهم وأقواهم منهم وفي رواية قال أبالله تخوفني أقول استعملت عليهم خيرهم وأشدهم حبا لله

تعالى المسلمون إذ فارقتموه ولو افتتحوها وذكر صاحب الاكتفاء أن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه اتقى وامتنع من قبول عهد أبي بكر له بالخلافة وقال لا أطيق القيام بأمر الناس فقال أبو
بكر لابنه عبد الرحمن ارفعني وناولني السيف فقال لعمر أو تعفني قال لا فعند ذلك قبل رضي
الله عنه وفي رواية أن عمر راجع أبا بكر رضي الله عنهما وقال يا خليفة رسول الله لا حاجة لي
بها فقال له لم تكن لك حاجة بها ولكن لها بك حاجة وإني ما حبوتك بالخلافة ولكن حبوتها
بك ومعنى ذلك أني ما حبوتك بها من النفس لامرة من سوء ولكن حذرت الناس وأعلم أنهم
حاذرون منك ما خفت الله في رجل ما تركت فيه جل حلاله على هواك وكتب أبو عبيدة إلى
أبي بكر رضي الله عنهما بعد توجه جنوده إلى قتال الروم إن هرقل ملك الروم نزل قرية
من قرى الشام تدعى أنطاكية وإنه بعث إلى أهل مملكته يحشدهم إليه وإنهم نفروا إليه على
الصعب والذلول وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك والسلام فكتب إليه أبو بكر رضي
الله عنه أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم فأما منزله
بأنطاكية فهو هزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين وأما حشده أهل مملكته
وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ما كان قوم أن يدعوا سلطانهم
ويخرجوا من مملكتهم بغير قتال وقد علمت والحمد لله أنه قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون
الموت حب عدوهم الحياة يحتسبون من الله في قتالهم الأجر العظيم ويحبون الجهاد في سبيل
الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من
المشركين فالقهم بجنودك ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين فإن الله معك وأنا مع ذلك ممدك فآت
ذلك ممدك بالرجال بعد الرجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد والسلام وقوله
[illegible] فريقة [illegible] في عمي وكتب يزيد بن أبي سفيان رضي
الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه أما بعد فإن هرقل ملك الروم لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في
قلبه فتحول فنزل أنطاكية وخلف أمراء من جنده على مدائن الشام وأمرهم بقتالنا وقد تيسروا لنا
واستعدوا وقد بلغنا أن هرقل قد استنفر أهل مملكته وإنهم قد جاؤوا يجرون الشوك والشجر
فمرنا بأمرك وعجل ذلك إلينا برأيك نتبعه إن شاء الله نسأل الله النصر والصبر والفتح وعاقبة المسلمين
والسلام عليك فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحول ملك
الروم إلى أنطاكية وإلقاء الله الرعب في قلبه من جموع المسلمين فإن الله تبارك وتعالى وله الحمد قد
نصرنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب وأمدنا بملائكته الكرام وإن ذلك الدين الذي
نصرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذي ندعو الناس إليه اليوم فوربك لا يجعل الله المسلمين

كالمجرمين ولا من يشهد أن لا اله غيره كمن يعبد معه آلهة أخرى ويدين بعبادة آلهة شتى فاذا لقيتهم فانبذ اليهم بمن معك وقاتلهم فان الله لن يخذلك وقد نبأنا الله تعالى ان الفئة القليلة منا تغلب الفئة الكثيرة باذن الله وأنا مع ما هنا ممدكم بالرجال في أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا الى زيادة انسان ان شاء الله تعالى والسلام وقال الرسول أخبرهم ان مدد المسلمين آتيهم مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وسعيد بن عامر الجمحي فلما قدم الرسول بالكتاب على يزيد قرأه على المسلمين فتباشروا وفرحوا ثم ان أبا بكر رضي الله عنه دعا هاشم بن عتبة وبعثه في ألف من المسلمين فسلم على أبي بكر وودعه ثم خرج من عنده فلزم طريق أبي عبيدة حتى قدم عليه فسر المسلمون بقدومه وتباشروا به و بلغ سعيد بن عامر الجمحي ان أبا بكر يريد أن يبعثه فلما أبطأ ذلك عليه أتاه فقال يا أبا بكر والله لقد بلغني انك كنت أردت ان تبعثني في هذا الوجه ثم رأيتك قد سكت فما أدري ما بدا لك في فان كنت تريد أن تبعث غيري فابعثني معه وان كنت لا تريد أن تبعث أحدا فاني راغب في الجهاد فأذن لي رحمك الله كيما ألحق بالمسلمين فقد ذكر لي ان الروم جمعت لهم جمعا عظيما فقال أبو بكر رضي الله عنه رحمك الله ارحم الراحمين يا سعيد فأمر بلالا فنادى في الناس أن انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر الى الشام فانتدب معه سبعمائة رجل في أيام فلما أراد سعيد الشخوص جاء بلال فقال يا خليفة رسول الله ان كنت انما اعتقتني لله تعالى لأملك نفسي واتصرف فيما ينفعني فخل سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي وان الجهاد أحب الي من المقام قال أبو بكر رضي الله عنه فان الله يشهد اني لم أعتقك الا له واني لا أريد منك جزاء ولا شكورا فهذه الارض ذات الطول والعرض فاسلك أي فجاجها أحببت فقال أيها الصديق كانك عتبت على مقالتي ووجدت في نفسك منه قال لا والله ما وجدت في نفسي من ذلك واني لا أحب أن تدع هواك لهواي كيف وهو ك الى طاعة ربك قال فان شئت أقمت معك قال أما اذا كان هواك في الجهاد فلم أكن آمرك بالمقام ولو أردتك للأذان ولا وجدت لفراقك وحشة يا بلال ولا بد من التفرقة فرقة لا التقاء بعدها حتى يوم البعث فاعمل صالحا يا بلال وليكن زادك من الدنيا ما يذكرك الله ما حييت ويحسن الثواب اذا توفيت فقال له بلال جزاك الله من ولي نعمة ومن أخ بالاسلام خيرا والله ما أمرك بالصبر على الحق والمداومة على العمل ثم قال وما كنت لأؤذن لاحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وخرج بلال مع سعيد بن عامر وأمر سعيد بن عامر مع من معه أن يلحقوا بيزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما فقام بلال في الشام بقصد الجهاد وتوفي بدمشق وقيل بحلب سنة عشرين أو ثمان وعشرين وقدم مرة المدينة لزيارة فطلب منه أهل المدينة أن يؤذن فقال لا أفعل بعد أن أذنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحوا عليه فصعد فاجتمع أهل المدينة رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم وقالوا

هذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يؤذن فلما سمعوا أذانه فلما قال الله أكبر الله أكبر تذكروا زمن النبي صلى الله عليه وسلم فصاحوا وبكوا جميعا فلما قال أشهد أن لا اله الا الله ضجوا جميعا فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله لم يبق في المدينة ذو روح الا بكى وصاح وخرجت العذارى والابكار من خدورهن يبكين وصاروا كيوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ من أذانه فقال أبو بكر انه لا نعلم أن عينا بكت على النبي صلى الله عليه وسلم وأذن مرة ثانية وكان أيضا مثل ذلك وكان أبو بكر رضي الله عنه يحب علي بن أبي طالب وكافة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال النظر الى علي بن أبي طالب عبادة وروى مثله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الي من أن أصل من قرابتي وفي رواية والله لأن أصلكم أحب الي من أن أصل قرابتي لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر رضي الله عنه يا أيها الناس ان الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته فلا تذهبن بكم الاباطيل وكان أبو بكر رضي الله عنه كثيرا ما يعمل بما يشير به علي رضي الله عنه عند بعث الجنود للجهاد ولا يأذن له في الخروج مع المجاهدين حرصا على بقائه معه للانتفاع برأيه ومشورته وكذا لم يأذن في الخروج لعمر وعثمان رضي الله عنهما للاستعانة بكل منهم على تدبير أمور المسلمين ولا يعمل شيأ الا بعد مشاورتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال الجلال السيوطي كان أبو بكر رضي الله عنه يصوم الصيف ويفطر الشتاء وكأنه يختار الصيف للصوم لانه أشق على النفس وتقدم أن من دعاء الصديق رضي الله عنه اللهم اني أسألك الذل عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف فلا يخفى أنه ... كان الصديق رضي الله عنه في كل حاله يحذر من المال ووجوده ... مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذه حلالا وينفقه في طيب ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب عذب وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها وقال ان أردت اللحوق بي فيكفيك ... وتجنبي مجالسة الاغنياء ولا تنزعي قميصا حتى ترقعيه وكان أبو بكر رضي الله عنه جعل ولاية بيت المال في زمن خلافته لأمين هذه الامة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وقد تقدم أنه جاءه في زمن خلافته مال من البحرين فقسمه بين الناس وقال من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فجاءه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال قال لي رسول

الله صلى الله عليه وسلم لو جاء مال من البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعني ثلاث حفنات فقال أبو بكر رضى الله عنه خذ فأخذت مقدارا فوجدت عدد تلك الدراهم التي أخذتها خمسمائة فاعطاني ألفا وخمسمائة وفاء بقول النبي صلى الله عليه وسلم هكذا وهكذا وهكذا ولم يأخذ أبو بكر رضى الله عنه لنفسه من ذلك المال شيأ وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ما كان لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة ﴾

أخرج ابن سعد عن آصف بن قيس قال كنا جلوسا بباب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمرت جارية فقالوا سرية أمير المؤمنين فسمعهم عمر رضى الله عنه فقال ماهي لأمير المؤمنين بسرية ولا تحل له انها من مال الله تعالى فقلنا فماذا يحل له من مال الله تعالى فقال انه لا يحل لعمر من مال الله تعالى الا حلتين حلة للشتاء وحلة للصيف وما حج به واعتمر وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم انا بعد رجل من المسلمين وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وغيرهما من طرق عن عمر رضى الله عنه قال اني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم من ماله ان أيسرت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف فان أيسرت قضيت واتفق في بعض السنين انه لم يأخذ من بيت المال شيأ حتى أصابته خصاصة وحاجة فاستشار الصحابة وقال ما يصلح لي أن آخذه فقال علي رضي الله عنه غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر رضى الله عنه وذكر الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء ان ذلك كان من عمر رضى الله عنه في ابتداء ولايته فذكر انه في أول ولايته لم يأخذ من بيت المال شيأ حتى أصابته خصاصة فقال ما يصلح لي أن آخذه فقال علي رضى الله عنه غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر رضي الله عنه وقال ابن سعد قال محمد بن ابراهيم كان عمر رضى الله عنه ينفق كل يوم درهمين له ولعياله واحتاج مرة عسلا للتداوي به وكان في بيت المال عكة من عسل فقال ان أذنتم لي والا فذلك علي حرام فأذنوا له فأخذ من العكة بقدر الحاجة وكان رضى الله عنه يأكل خبز الشعير ويأتدم بالزيت ويلبس المرقوع ويخدم نفسه وكان يقول مانعنا بلذات العيش ولكنا نبقي طيباتنا لآخرتنا ولما كلمته ابنته حفصة وابنه عبد الله وغيرهم قالوا له لو أكلت طعاما طيبا لكان أقوى لك على الحق قال أكلكم على هذا الرأي قالوا نعم قال قد علمت نصحكم ولكني تركت صاحبي على جادة فان تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل ويعني بصاحبيه النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه واجتمع مرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد زهاء خمسين رجلا فقالوا لو أما ترون الى زهد هذا الرجل والى حليته وقد فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفي المشرق والمغرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة وقد رقعها باثنتي عشرة رقعة فلو سألتموه معشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يغير هذه الجبة

ثوب لين يهاب منظره ويغدى عليه بجفنة من الطعام ويراح عليه بجفنة يأكل منها من حضره من
المهاجرين والانصار فقال القوم بأجمعهم ليس لهذا القول الا علي بن أبي طالب رضي الله عنه
فانه صهره بكونه زوجه بنته أم كلثوم رضي الله عنها فقال علي لست بفاعل ذلك ولكن عليكم
أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين فانهن يجترئن عليه قال الاحنف بن قيس فسألوا
عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكانتا مجتمعتين فقالت عائشة أسأله ذلك وقالت حفصة ما أراه يفعل
وسيتبين لك ذلك فدخلتا عليه فقربهما وأدناهما فقالت عائشة رضي الله عنها أتأذن لي أن أكلمك
فقال تكلمي يا أم المؤمنين قالت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مضى لسبيله الى جنته ورضوانه
لم يرد الدنيا ولم ترده وكذلك مضى أبو بكر على أثره وقد فتح الله عليك كنوز كسرى وقيصر
وديارهم وحمل اليك أموالهما ودانت لك طرفا المشرق والمغرب ونرجو من الله المزيد ورسل
العجم يأتونك ووفود العرب تفد عليك وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثني عشرة رقعة فلو
غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ويغدى عليك بجفنة من طعام ويراح عليك بأخرى
تأكل منها أنت ومن حضرك من المهاجرين والانصار فبكى عمر رضي الله عنه عند ذلك بكاء
شديدا ثم قال سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو
خمسة أيام أو ثلاثة أو جمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله عز وجل قالت لا قال أنشدك بالله هل
تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب اليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الارض الا كان
يأمر بالطعام فيوضع على الارض قالت اللهم نعم ثم قال أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأمهات المؤمنين لكما على المؤمنين حق وعلي خاصة وقد أتيتماني ترغباني في الدنيا واني لأعلم أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة من الصوف وربما حك جلده من خشونتها أتعلمان ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة على طاق واحد وكان مسح في بيتك يا عائشة يكون
بالنهار بساطا وبالليل فراشا ننام عليه وكان يرى أثر الحصير في جنبه ألا يا حفصة أنت حدثتني أنك ثنيت
له المسح ليلة فوجد لينه فرقد عليه فلم يستيقظ الا بأذان بلال فقال يا حفصة ماذا صنعت ثنيت المهاد
حتى ذهب بي النوم الى الصبح ما لي وللدنيا وما لي ولي شغلتموني بلين الفراش يا حفصة أما تعلمين
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفورا له ولم يزل جائعا ساجدا راكعا باكيا متضرعا آناء الليل
والنهار الى أن قبضه الله تعالى الى رحمته ورضوانه لا أكل عمر طيبا ولا لبس لينا فله أسوة بصاحبيه
ولا جمع بين أدامين الا الملح والزيت ولا أكل لحما الا في كل شهر فخرجتا من عنده فأخبرتا أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل كذلك حتى لحق عمر رضي الله عنه بالله عز وجل وكان رضي
الله عنه يقول ان من ولي من أمر المسلمين شيئا وجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح

وأداء الأمانة ولما أصاب الناس القحط في العام الذي كانوا يسمونه عام الرمادة ما أكل عمر رضي الله عنه في ذلك العام سمنا ولا سمينا قال أنس رضي الله عنه قرقرت بطن عمر عام الرمادة من أكل الزيت فطعن بطنه بأصبعه وقال ليس عندنا غيره حتى يحيى الناس ومن ثم تغير لونه في هذا العام حتى صار أسمر وقال مرة لمن كلمه في طعامه ويحك آكل طيباتي في الدنيا وأستمتع بها وقال لابنه عاصم وهو يأكل لحما كفى بالمرء سرفا أن يأكل كل ما اشتهى وكان رضي الله عنه يداوم على أكل التمر ولا يداوم على أكل اللحم ويقول إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر أي ان له عادة تنزع النفس اليها كعادة الخمر وعن جعفر بن أبي العاص رضي الله عنه قال أكلت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت والخبز واللبن والخبز والخل والخبز واللحم القديد وأقل ذلك اللحم الغريض أي الطري وكان رضي الله عنه يقول لا تنخلوا الدقيق فإنه كله طعام وأتي مرة بخبز غليظ فجعل يأكل ويقول كلوا فجعلنا نعتذر فقال ما لكم لا تأكلون فقلنا لا نأكله أنت والله يا أمير المؤمنين نرجع الى طعام هو ألين من طعامك وعن حفصة رضي الله عنها قالت دخل علي عمر مرة فقدمت له مرقة باردة وصببت عليه زيتا فقال أدامان في اناء واحد لا أذوقه أبدا حتى ألقى الله عز وجل وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال دخل علينا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ونحن على مائدة فأوسعت له عن صدر المجلس فقال باسم الله ثم ضرب بيده في لقمة فلقمها ثم ثنى بأخرى ثم قال اني لأجد طعم دسم غير دسم اللحم فقال عبد الله يا أمير المؤمنين اني خرجت الى السوق أطلب السمن لأشتريه فوجدته غاليا فاشتريت بدرهم من اللحم المهزول وجعلت عليه بدرهم سمنا فقال عمر رضي الله عنه ما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أكل أحدهما وتصدق بالآخر فقال عبد الله يا أمير المؤمنين اذن فلم يجتمعا عندي أبدا الا فعلت ذلك وعن جابر رضي الله عنه قال رأى عمر بن الخطاب معه قطعة في يدي فقال ما هذا يا جابر قلت اشتهيت لحما فاشتريته فقال عمر أوكلما اشتهيت اشتريت يا جابر أما تخاف الآية أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وجيء له مرة بلحم فيه سمن فأبى أن يأكله وقال كل واحد منهما أدام وكان رضي الله عنه يقول والله ما نعبأ بلذات العيش أن نأمر بصغار المعز فيسمط لنا ونأمر بلباب الحنطة فيخبز لنا ونأمر بالزبيب فينبذ لنا حتى اذا كان يكون كالعين أكلنا هذا وشربنا هذا الا أنا نستبقي طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وكان رضي الله عنه يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرقوعا بعضها بأدم وفي رواية من جلد ويطوف في الأسواق وعلى عاتقه الدرة يؤدب الناس ويمر بالنوى يلتقطه ويلقيه في منازل الناس لينتفعوا به وقال أنس رضي الله عنه رأيت بين كتفي عمر رضي الله عنه أربع رقاع في قميصه وقال أبو عثمان النهدي رأيت على عمر ازارا مرقوعا بأدم وقال علي بن أبي طالب

كذا وكذا ما يصلحني ويخرج عني الاذى فقال طلحة لنفسه ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع رضي الله عنهما وعن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عن مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه قال بينا أنا مع عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف اذ رأى رجلا يسوق بكرين وعلى الارض مثل الفراش من الحر فقال عثمان رضي الله عنه ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد ثم تروح ثم دنا الرجل فقال انظر فنظرت فاذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقلت له هذا أمير المؤمنين فقام عثمان رضي الله عنه فأخرج رأسه من الباب فاذى لفح السموم فأعاد رأسه حتى حاذاه قال ما أخرجك هذه الساعة قال بكران من ابل الصدقة تخلفا وقد مضي الرعي بابل الصدقة فأردت أن ألحقهما بالحمى وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما فقال عثمان رضي الله عنه هلم يا أمير المؤمنين الى الماء والظل ونكفيك قال عد الى ظلك وسار فقلت عندنا من يكفيك فقال عد الى ظلك ومضي فقال عثمان رضي الله عنه من أحب أن ينظر الى القوي الامين فلينظر الى هذا أخرجه الدائني رحمه الله في مسنده ولما جهز الجيوش لفتح العراق جعل الامير عليهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فلما فتحت القادسية كتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالفتح وبعدة من قتل وبعدة من أصيب من المسلمين وأرسل ذلك مع سعد بن عميلة الفزاري وكان عمر رضي الله عنه يخرج خارج المدينة كل يوم يسأل الركبان من حين يصبح الى انتصاف النهار يسأل عن أهل القادسية ثم يرجع الى أهله ومنزله فلقي هذا البشير المرسل في يوم من تلك الايام التي كان يخرج فيها فقال له من أين فأخبره والرجل المرسل راكب على ناقته يسير بسرعة وعمر رضي الله عنه يخب على رجليه معه وهو يسأله والبشير لا يعرفه فقال له عمر أخبرني يا عبد الله قال هزم الله المشركين فأخبره الخبر فلم يزل عمر سائرا تحت ناقة ذلك البشير يسأله حتي دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال البشير هلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين قال لا بأس عليك يا أخي وعن الاحنف بن قيس قال أخرجنا عمر رضي الله عنه في سرية الى العراق ففتح الله علينا العراق وبلاد فارس فاصبنا فيها من بياض فارس وخراسان فحملناه معنا واكتسينا منها فلما قدمنا على عمر رضي الله عنه أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا فاشتد ذلك علينا فشكونا الى ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال ان عمر زهد في الدنيا وقد رأي عليكم لباسا لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخليفة من بعده فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتيناه في البزة التي يعهدها منا فقام فسلم علينا رجلا رجلا واعتنق رجلا رجلا حتى كأنه لم يرنا قبل فقدمنا اليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية فعرض في الغنائم شيء من أنواع الخبيص من أصفر وأحمر فذاقه عمر فوجده طيب

الطعم والريح فأقبل علينا بوجهه وقال يامعشر المهاجرين والانصار ليقتلن منكم الابن أباه والاخ أخاه على هذا الطعام ثم أمر به فحمل الى أولاد من قتل من المسلمين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار ثم ان عمر قام وانصرف ولم يأخذ لنفسه شيأ من تلك الغنائم وعن الاحنف أيضا قال لما فتح العراق وحملت الى عمر خزائن كسرى قال له صاحب بيت المال ألا ندخله بيت المال قال لا والله لا تأوي تحت سقف حتى أقسمه فبسط الانطاع في المسجد وكشفوا عن الاموال فرأى شيأ عظيما من الذهب والجوهر فقال ان الذي أدي هذا لامين فقالوا أنت أمين الله وهم يؤدون اليك ماأديت الى الله تعالى فقسمه ولم يأخذ منه شيأ وفي صحيح البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا المال خضرة حلوة وقال الله تعالى زين للناس حب الشهوات الآية وقال عمر رضي الله عنه اللهم انا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينته لنا اللهم اني أسألك أن أنفقه في حقه وفي رواية للدارقطني لما فتح العراق وجاء الى عمر خزائن كسرى وأمواله بكي وقرأ زين للناس الآية ثم قال اللهم انا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينته لنا فقني شره وارزقني أن أنفقه في حقه وقسم تلك الاموال فما قام حتى ما بقي منها شيء وكان رضى الله عنه لما جاءت تلك الاموال يبكي ويقول ان الله زوى الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لي لا خاف أن أكون مستدرجا وفي رواية رواها الشافعي رضي الله عنه لما قدم على عمر رضي الله عنه ما أصيب من مال العراق قال له صاحب بيت المال أدخله في بيت المال فقال لا ورب الكعبة لا يأوي تحت سقف بيت حتى أقسمه فأمر به فوضع في المسجد ووضعت عليه الانطاع وحرسه رجال من المهاجرين والانصار فلما أصبح غدا ومعه العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف فلما كشفوا الانطاع عن الاموال رأي منظرا لم ير مثله من الذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلالأ فبكى عمر فقال له أحدهما انه والله ماهو بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا في قوم قط لا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه الى السماء وقال اللهم اني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فاني أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قسم ذلك المال ولم يأخذ لنفسه منه شيأ رضي الله عنه وكان من جملة ما غنمه المسلمون بالعراق بساط كسرى ويقال له بهار كسرى والقطيف وهو بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا كانت الاكاسرة ملوك فارس تعده للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار أرضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجواهر وأشباه ذلك

وكانت العرب تسميه القطيف فلما قسم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الغنائم بين الغانمين أراد أن
يخرج خمس القطيف لبيت المال ويقسم أربعة أخماسه على الغانمين فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين
هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به الى أمير المؤمنين يضعه حيث شاء فانا لا نراه يقسم
وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعا فقالوا نعم فبعثه الى عمر رضي الله عنه فلما قدموا
بالقطيف مع خمس الغنائم قال عمر رضي الله عنه بعد ان قسم الاموال أشيروا علي في هذا القطيف
فمن مشير بقبضه وابقائه في بيت المال وآخر مفوض اليه فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يجعل
الله علمك جهلا ويقينك شكا انه ليس لك من الدنيا الا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت
أو أكلت فأفنيت وانك ان تبقه على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقال صدقتني
ونصحتني فقطعه وقسمه بينهم قال في السيرة الحلبية فأصاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه قطعة
منه فباعها بعشرين ألف دينار ولم يأخذ عمر رضي الله عنه من ذلك لنفسه شيئا ولما فرض للمهاجرين
الاولين خمسة آلاف فرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف وكان من المهاجرين الاولين فقيل له انك فرضت
للمهاجرين الاولين أربعة آلاف فلم نقصته من أربعة آلاف فقال انما هاجر به أبوه فليس هو كمن
هاجر بنفسه وقسم مرة مالا فأعطى الحسن والحسين رضي الله عنهم ألفا ألفا وأعطى ابنه عبد الله
خمسمائة فقيل له يا أمير المؤمنين ان ابنك عبد الله كان يضرب بالسيف بين يدي رسول الله صلى الله
عليه وسلم والحسن والحسين طفلان يدرجان في سكك المدينة تعطيهما ألفا ألفا وتعطيه خمسمائة
فقال ذهب فأتني بأب كأبيهما وأم كأمهما وجد كجدهما وجدة كجدتهما وعم كعمهما وخال
كخالهما وخالة كخالتهما فانك لا تأتيني به أما أبوهما فعلي رضي الله عنه وأما أمهما ففاطمة الزهراء
وأما جدهما فمحمد صلى الله عليه وسلم وأما جدتهما فخديجة الكبرى وأما عمهما فجعفر
بن أبي طالب وأما خالهما فابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما خالتهما فرقية وأم كلثوم بنتا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت صلته لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرهم قال
الماوردي كان عمر رضي الله عنه لا يعطي أحدا من قريش وغيرهم شيئا الا من ليس له زوجة
ولا رجل الا من ليس له خدم الا من خدمه وعن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن
أبي طالب رضي الله عنهم قال قدمت على عمر حلل من اليمن فقسمها بين المهاجرين والانصار ولم
يكن فيها ما يلي قدر الحسن والحسين رضي الله عنهم فكتب الى صاحب اليمن أن يعمل حلتين على
قدرهما فعمل وبعث بهما الى عمر فلبساهما ولما دون الدواوين وفرض العطاء بدأ ببني هاشم وعن
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال اشتريت ابلا وارتجعتها الى الحمى فلما سمنت قدمت بها قال
فدخل عمر السوق فرأى ابلا سمانا فقال لمن هذه فقيل لعبد الله بن عمر فجعل يقول بخ بخ يا عبد

الله بن أمير المؤمنين قال فجئته أسعى فقلت مالك يا أمير المؤمنين قال ماهذه الابل فقلت ابل انضاء يعني مهازيل اشتريتها وبعثت بها الى الحمى أبتغي مايبتغي المسلمون فقال أرعوا ابل ابن أمير المؤمنين اسقوا ابل ابن أمير المؤمنين ياعبدالله اغد على رأس مالك وأتني بباقيه أجعله في بيت مال المسلمين ففعلت ذلك وفي رواية انه أخذ شطر الربح وجعله في بيت المال فكأنه غرمه شطر الربح وجعله بالاجتهاد قيمة للكلا الذي للمسلمين وذكر بعضهم ان تلك الابل كانت لعبدالله وأخيه عبيدالله شركة وأخذ مرة ابناه عبدالله وعبيد الله مالا من أبي موسى حين ولايته بالعراق ليوصلوه الى عمر بالمدينة فاستأذنا أباموسى أن يتجرا في المال على سبيل القراض ويشتريا به شيأ يبيعانه في المدينة فأذن لهما فأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض وأدخله بيت المال وقال لهما انما أعطيتما لمكانكما مني أي انما كان اعطاؤهما المال والاذن لهما في التجارة فيه لاجل انهما ابنا أمير المؤمنين وعن قتادة قال بعث عمر رضي الله عنه رسولا الى ملك الروم فاستقرضت أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما وكانت امرأة عمر دينارا فاشترت به عطرا وجعلته في قارورة وبعثت به مع الرسول الى امرأة ملك الروم فلما أتاها بعثت لها شيأ من الجواهر وقالت للرسول اذهب به الى امرأة عمر فلما أتاها فرغته على البساط فدخل عمر فقال ماهذا فأخبرته فأخذ الجواهر وخرج بها الى المسجد ونادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس أخبرهم الخبر وأراهم الجواهر وقال ماترون في ذلك فقالوا انا نراها تستحق ذلك لانه هدية جاءتها من امرأة لاجزية ولاخراج عليها ولايتعلق بها حكم من أحكام الرجال فقال لكن لزوجة زوجة أمير المؤمنين ولرسول رسول أمير المؤمنين والراحلة التي ركبها المؤمنين وماجاء ذلك كله لولا مؤمنون فأرى ان ذلك لبيت مال المسلمين وعطيها رأس مالها باع الجواهر ودفع لزوجته دينارا وجعل ما بقي في بيت مال المسلمين وروي ان امرأة أبي عبيدة أرسلت الى امرأة ملك الروم هدية فبعثت الهدية فكأنها بجوهر فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأخذه فباعه وأعطاها ثمن هديتها ورد باقيه الى بيت مال المسلمين وأتى عمر مرة بمسك فأمر ان يقسم بين المسلمين ثم سد أنفه فقيل له في ذلك فقال وهل ينتفع الا بريحه ودخل يوما على زوجته فوجد معها ريح مسك فقال ماهذا قالت اني بعت من مسك في بيت مال المسلمين ووزنت بيدي فلما وزنت مسحت أصبعي في مقنعتي هذا فقال ناوليني مناتك فأخذه فصب عليه الماء فلم يذهب فجعل يدلكه في التراب ويصب عليه الماء حتى ذهب ريحه وعن سفيان بن عيينة ان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بعد أن فتح العراق وهو على الكوفة كتب الى عمر رضي الله عنه يستأذن في بناء منزل يسكنه فكتب اليه ابن مايسترك من الشمس ويكنك من الغيث وعن أبي عثمان النهدي قال كتب عمر اليه ونحن بأذربيجان

مع عتبة بن فرقد يقول يا عتبة انه ليس من كدك ولا من كد أبيك فاشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبوس الحرير وأخرج ابن السماك عن أبي جعفر محمد الباقر رضي الله عنه قال بينما عمر رضي الله عنه يمشي في طريق من طرق المدينة اذ لقيه علي والحسن والحسين رضي الله عنهم فسلم عليه علي رضي الله عنه وأخذ بيده واكتنفهما الحسن والحسين عن يمينهما وشمالهما فعرض لعمر رضي الله عنه من البكاء ما كان يعرض له فقال له علي رضي الله عنه ما يبكيك يا أمير المؤمنين فقال عمر رضي الله عنه من أحق مني بالبكاء يا علي وقد وليت أمر هذه الأمة أحكم فيها ولا أدري أمسيء أنا أم محسن فقال له علي والله انك لتعدل في كذا وتعدل في كذا فما منعه ذلك من البكاء ثم تكلم الحسن بما شاء الله فذكر من ولايته وعدله فلم يمنعه ذلك فتكلم الحسين مثل كلام الحسن فقطع بكاؤه ثم قال أتشهدان لي بذلك يعني العدل فقال علي رضي الله عنه نشهد وأنا معكما شهيد وعن الشعبي ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لأهل نجران ان عمر كان سديد الأمر ولن أغير شيئا صنعه وعنه أيضا ان عليا رضي الله عنه لما دخل الكوفة قال ما كنت أحل عقدة شدها عمر وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال لا أعلم ان عليا خالف عمر ولا غير شيئا مما صنعه وعن زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم ان عليا رضي الله عنه كان يشبه بعمر في السيرة وعن أبي اسحاق عمن حدثه انه كان جليسا لعلي رضي الله عنه فبكى بكاء شديدا فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين قال ذكرت أخي عمر وهذا البرد على كسائه خليلي وصفيي وصديقي وصاحبي عمر بن الخطاب وقال مرة ان عمر ناصح نبيه صلى الله عليه وسلم فنصحه الله ثم بكى وكان علي رضي الله عنه يقول اذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر وكان علي رضي الله عنه يقول لا يبلغني ان أحدا فضلني على عمر الا جلدته حد المفتري وخطب مرة علي رضي الله عنه خطبة طويلة وقال فيها ولي الله الخير لامرائي عمر في المسلمين فمنهم من رضي ومنهم من سخط فكنت ممن رضي والله ما فارق الدنيا حتى رضي به من سخط فأعز الله باسلامه الاسلام وجعل هجرته فتحا وضرب الله الحق على لسانه حتى ظننا ان ملكا ينطق على لسانه وقذف الله في قلوب المؤمنين الحب له وفي قلوب المنافقين الرهبة منه سيرته سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن لكم بمثله وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما انه لما توفي عمر ومسجى رضي الله عنه وقف عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال ما على الارض رجل أحب الي ان ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى زاد في رواية لابن السماك ثم بكى علي رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته بالدموع وفي رواية أخرى ان عليا رضي الله عنه قال رحمك الله يا ابن الخطاب ان كنت لآيات الله

لعالما وان كان الله في صدرك لعظيما وان كنت لتخشى الله ولا تخشى الناس في الله جوادا بالحق بخيلا بالباطل خميصا من الدنيا بطينا من الآخرة وعن أوس بن حكيم قال رايت علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين موت عمر رضي الله عنه قد نكس رأسه ثم رفعه فقال واعمراه يا نقي الثوب قليل العيب واعمراه ذهب بالسنة وأبقى الفتنة أصاب والله ابن الخطاب خيرها وانتجى شرها وروي أن ملك الموت لما دخل دار عمر ليقبض روحه سمعه عمر وهو يقول هذا بيت أمير المؤمنين ليس فيه شيء كأنه القبر فأجابه عمر وقال ياملك الموت من تكون أنت خلفه هكذا يكون بيته وأخرج أبو يعلي عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل آنفا فقلت يا جبريل حدثني بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبي بكر رضي الله عنهما وربما ان العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضي الله عنه لكن من كان ذا بصيرة وامعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل في نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للاسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الاسلام في ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التي فتحها الله على يده حتى كثر العلم واتسع الاسلام وكثر المسلمون يتضح له أن كل خير وقع لاهل الاسلام منذ خلافة عمر رضي الله عنه الى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضي الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك كثير لا يمكن ضبطه ولا احصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح في قومه وأخرج عبد الله ابن الامام أحمد في زوائد المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اني لارجو لامتي في حبهم لابي بكر وعمر ما أرجو لهم في قول لا اله الا الله وأخرج أبو ذر الهروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معي وأنا مع عمر والحق بعدي مع عمر حيث كان وهذا مثل مقاله صلى الله عليه وسلم في حق علي رضي الله عنه حيث قال وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلي رضي الله عنهما كان مع الحق ولهذا كان علي رضي الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله في زمن خلافتهم ولم ينازع أحدا منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم فلما جاءت نوبة خلافته رضي الله عنه ونوزع في ذلك قاتل من نازعه فلا يصح أن ينسب اليه أن سكوته في زمن خلافة الخلفاء الثلاثة كان تقية حمية من المحاباة في دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم قال المسعودي في تاريخه المسمى مروج الذهب في صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان متواضعا خشن الملبس شديدا في ذات الله واتبعه عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه كل منهم يتشبه به ممن غاب أو حضر وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالاديم ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها وكان أكثر ركابه

الابل ورحله مشدودة بالليف وكذلك عماله مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الاموال
وكان من عماله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي فلما قدم عمر الشام شكاه أهل حمص
اليه وسألوه عزله فقال عمر اللهم لا تضيع فراستي فيه ماذا تشكون منه قالوا لا يخرج الينا حتى
يرتفع النهار ولا يجيب أحدا بليل وله يوم في الشهر لا يخرج الينا فقال عمر علي به فلما جمع بينهم
وبينه قال ماذا تنقمون منه قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار فقال ما تقول يا سعيد قال يا أمير
المؤمنين انه ليس لاهلي خادم فأعجن عجيني ثم اجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج
اليهم قال وماذا تنقمون منه قالوا لا يجيب بليل قال ما تقول يا سعيد قال قد كنت أكره أن أذكر
هذا اني قد جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم قال وماذا تنقمون منه قالوا له يوم في الشهر
لا يخرج الينا قال نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي فقال عمر الحمد لله الذي لم يضيع
فراستي فيك ثم قال عمر يا أهل حمص ماتقولون فقالوا انا لا نريد غيره فأبقه لنا يا أمير المؤمنين فقال
استوصوا به خيرا ثم بعث اليه عمر بألف دينار وقال استعن بها فقالت امرأته قد أغنانا الله عن
خدمتك فقال لها ألا ندفعه الى من يأتينا به أحوج ما كنا اليه يعني يوم القيامة قالت بلى فصرها
صررا ثم دفعها الى من يثق به وقال تصدق بهذه الى الارملة وبهذه الى فلان يتيم آل فلان مسكين
آل فلان حتى بقي منه شيء يسير فدفعه الى امرأته فقال انفقي هذه وعاد الى خدمته فقالت له امرأته
ألا تبعث بذلك المال فتشتري منه خادما فقال سيأتيك أحوج ما تكونين اليه يعني يوم القيامة
وذكر بعضهم هذه القصة وزاد فيها فقال وأرسل عمر رضي الله عنه الى سعيد بن عامر ألف دينار
فجاء بها حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أريني درعك الخلق
فشققه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل
في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج وروي عن بعضهم هذه القصة فقال لما بعث عمر رضي الله عنه
سعيد بن عامر واليا على حمص مكث مدة حتى تحدث الناس بفقره فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه
فأرسل اليه بأربعمائة دينار وكتب اليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله فلما قرأ الكتاب اهتم
همّا شديدا حتى تبين عليه فقالت امرأته نشدتك الله لما أخبرتني ما دهمك أبلغك موت أمير المؤمنين
قال أعظم من ذلك قالت أبلغك من ثغور المسلمين شيء قال أعظم من ذلك قالت وما هو قال ابتليت
بالدنيا وقد كنت صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أبتل بها وصحبت أبا بكر فلم أبتل بها وابتليت
بها في صحبة عمر ألا فشر أيامي يوم عمر قالت وما ذاك بأبي أنت وأمي قال اني أخافك قالت اياي
تخاف قال نعم قالت فأنت آمن من هذا فقال فان أمير المؤمنين أرسل الي بأربعمائة دينار وعزم على

ان أنفقها علي وعليك واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا والله ما أحب أن لي بها حمر النعم واني أحبس عن الفوج الاول قالت فدونكها فاصنع بها ما شئت فقال هل من خرق فأعطته درعا لها خلقا فمزقه خرقا ثم صر فيه ما بين أربعة الى عشرة ثم طرحها في مخلاة ثم خرج الى باب الرستاق من حمص فجعل يعطي الناس صرة صرة حتى بقيت صرة في المخلاة فدفعها والمخلاة الى رجل ثم رجع فذهب عنه ما قام به واستراح وذكر الحافظ أبو نعيم في الحلية هذه القصة فقال ما نصه قال خالد بن معدان استعمل علينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي فلما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمص قال يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم فشكوا اليه وكان يقال لاهل حمص الكوفة الصغرى لشكايتهم العمال قالوا نشكو أربعا لا يخرج الينا حتى يتعالى النهار قال أعظم بها قال وماذا قالوا لا يجيب أحدا بليل قال وعظيمة قال وماذا قالوا له يوم من الشهر لا يخرج فيه الينا قال وعظيمة قال وماذا قالوا يغط الغطة بين الايام حتى تأخذه موتة يعنون انه يغشى عليه قال فجمع عمر بينهم وبينه وقال اللهم لا يفيل فيه رأيي اليوم ما تشكون منه قالوا لا يخرج الينا حتى يتعالى النهار قال سعيد والله ان كنت لا كره ذكره ليس لاهلي خادم فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ ثم أخرج اليهم فقال ما تشكون منه أيضا قالوا لا يجيب أحدا بليل فقال ان كنت لا كره ذكره اني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل قال وما تشكون أيضا قالوا ان له يوما من الشهر لا يخرج الينا فيه فقال ليس لي خادم يغسل ثيابي ولا لي ثياب أبدلها فأغسل ثيابي وأجلس حتى تجف فألبسها ثم أخرج اليهم آخر النهار قال وما تشكون منه أيضا قالوا يغط الغطة بين الايام فقال شهدت مصرع خبيب الانصاري حين قبضت عليه قريش بمكة وقد بضعت أي قطعت قريش لحمه ثم صلبوه على جذع ثم قالوا أتحب أن محمدا مكانك فقال والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدا يشاك شوكة ثم نادى يا محمد فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته وهو في تلك الحالة وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم الا ظننت أن الله لا يغفر لي ذلك الذنب أبدا قال فتصيبني تلك الغطة فقال عمر الحمد لله الذي لم يفيل رأيي فيك فبعث اليه بألف دينار وقال استعن بها على أمرك فقالت امرأته الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك فقال لها فهل لك في خير من ذلك ندفعها الى من يأتينا بها أحوج ما نكون اليها قالت نعم فدعا رجلا من أهله يثق به فصرها صررا ثم قال انطلق بهذه الى أرملة آل فلان والى يتيم آل فلان والى مسكين آل فلان والى مبتلى آل فلان فبقيت منه ذهيبة فقال أنفقي هذه ثم عاد الى عمله فقالت ألا تشتري لنا خادما قال سيأتيك أحوج ما تكونين اليه والظاهر ان القصة واحدة والاختلاف من تصرف الرواة الذين رووا القصة بالمعنى وروي أن عمر بن الخطاب كتب الى

أهل حمص اكتبوا الى فقرائكم فكتبوا اليه أسماء الفقراء وكتبوا فيه عمير بن سعيد ولعله ابنه كان أميرا بعده قال عمر نافقرأ اسمه قال من عمير بن سعيد قالوا أميرنا قال أوفقير هو قالوا اليس أهل بيت افقر منه قال أين عطاؤه قالوا يخرجه كله لا يمسك منه شيأ قال فوجه اليه بمائة دينار فأخرجها كلها فقالت امرأته لو كنت حبست لنا منها دينارا واحدا فقال اذكرتني ما لست ذكرت هذه الحكاية أبو طالب المكي في القوت وسماه عمير بن سعيد وكتب لسعيد بن عامر عمر مرة يطالب قدومه الى المدينة فلم ير معه الا عكازا وقدحا فقال له عمر ليس معك لما أرى فقال له سعيد بن عامر وما أكثر من هذا عكاز أحمل [illegible] دى وقدح آكل فيه وأشرب به وعبارة الاحياء في هذه القصة نسبها لابنه عمير فقال [illegible] قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له ما معك من الدنيا فقال معي عصاي أتوكأ عليها و[illegible] قتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي أحمل فيه طعامي ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة وما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر رضي الله عنه صدقت رحمك الله هكذا كان الامراء في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم وأنفق بعض [illegible] عمر رضي الله عنه عنده عشرة دراهم لاتخاذ بيت خلاء فقضى حاجته وأخذها من بيت المال [illegible] وقال أما وجدت موضعا تقضي فيه حاجتك حتى أخذت عشرة دراهم من بيت المال تحدث بها بيت خلاء تقضي حاجتك وكان رضي الله عنه [illegible] ليعلم ما يكون عنده من المال وكان يأمر عماله بعد [illegible] مدة من [illegible] يكتبون أموالهم فيأخذ شطر أموالهم ويدخله في بيت المال احتياطا لهم وبراءة منهم وكانوا يرضون بذلك ويرون المنة له عليهم وقال بعض العلماء ان عمر رضي الله عنه رأى ان كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك [illegible] حق عمالهم وقدره بالشطر [illegible] [illegible] فقال [illegible] وكان يلبس الصوف ويركب [illegible] ويقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون وأرى هذه الاساودة حولي فنظروا فيجدوا في البيت [illegible] ومطهرة وركوة ومن عماله رضي الله عنه أبو عبيدة بن الجراح كان أمير [illegible] جميع الاجناد و[illegible] كان يلبس الصوف الخشن ويأكل [illegible] لا [illegible] من زيت وأسلح من [illegible] كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل [illegible] غير [illegible] ومسبحة وركوة ومطهرة

فقال له عمر أين متاعك يا أبا عبيدة لا أرى إلا لبدا أو شنا أو صحفة وأنت أمير الشام أعندك طعام فقام
أبو عبيدة إلى جونة فأخرج منها كسيرات فبكى عمر رضي الله عنه فقال أبو عبيدة رضي الله عنه
يا أمير المؤمنين يكفي من الدنيا ما بلغ المقيل فاحتقر عمر نفسه في الزهد بالنسبة لأبي عبيدة فقال
غرتنا بعدك الدنيا يا أبا عبيدة ويروى أن عمر رضي الله عنه صر أربعمائة دينار وقال للغلام
اذهب بها إلى أبي عبيدة ثم تلكأ في البيت ساعة فقال أبو عبيدة يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان
وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ووجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل
ففعل مثل أبي عبيدة إلى أن بقي ديناران فقالت امرأته ونحن والله مساكين فأعطنا فرمى بهما
إليها فرجع الغلام فأخبر عمر بذلك فقال إنهم إخوة بعضهم من بعض ووقف أعرابي على عمر بن
الخطاب رضي الله عنه وقال

يا عمر الخير جزيت الجنه * يوم تكون للأعطيات منه

والموقف المسؤل بينهنه * إما إلى نار وإما إلى جنه

فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم أما
والله لا أملك غيره وكان رضي الله عنه يقول في الخلافة من يأخذها بما فيها وكان يقول رضي الله عنه
ليتني لم أخلق ليت أمي لم تلدني ليتني لم أك شيئا ليتني كنت نسيا منسيا وأخذ مرة تبنة من الأرض
فقال ليتني كنت هذه وكان يدخل يده في دبرة البعير ويقول إني أخاف أن أسأل عما بك وكان رضي
الله عنه يدخل يده في أذنه ويقول يا ابن الخطاب هل لك على هذا من صبر وكان رضي الله عنه كثير
البكاء حتى كان بوجهه خطان أسودان من البكاء وكان رضي الله عنه يقول ليتني كنت كبشا لأهلي
سمنوني ما بدا لهم ثم يجيئوني فأكلوني فأخرجوني عذرة ولم أك بشرا وكان رضي الله عنه
يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما وكان رضي الله عنه يقول
من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون وقرأ
مرة إذا الشمس كورت وانتهى إلى قوله تعالى وإذا الصحف نشرت فخر مغشيا عليه ومر يوما
بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة والطور فوقف عمر رضي الله عنه يستمع فلما بلغ قوله تعالى
إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمنا ورجع إلى منزله
فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه ولما طعن رضي الله عنه وهو يموت كان يقول
الويل لي ولأمي إن لم يرحمني ربي والله لوددت أن أخرج منها كفافا لا أجر لي ولا وزر علي
وقال والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع وخرج عمر رضي الله
عنه يوما من المسجد ومعه الجارود العبدي وبينما هما يمشيان إذا امرأة على ظهر الطريق فسلم عليها

عمر فردت عليه السلام ثم قالت رويدك ياعمر حتى أكلمك كلمات قليلة قال لها قولي قالت ياعمر عهدي بك وأنت تسمى عميرا في سوق عكاظ وتصارع الصبيان ثم لم تذهب الايام حتى تسميت عمر ثم لم تذهب الايام حتى تسميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية واعلم ان من خاف الموت خشي الفوت فبكى عمر رضي الله عنه فقال الجارود قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته فقال عمر دعها أما تعرف هذه ياجارود هذه خولة بنت حكيم التي أنزل الله فيها قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله فاذ سمع الله قولها فعمر أحرى أن يسمع كلامها قال ابن سعد اتخذ عمر رضي الله عنه دارا للدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه لاعانة المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح به شأن من انقطع وهدم المسجد النبوي وزاد فيه ووسعه وفرشه بالحصى وكذا وسع مسجد مكة وأخرج اليهود من الحجاز الى الشام وأخرج أهل نجران الى الكوفة وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجت مع عمر بن الخطاب مرة الى موضع بظاهر المدينة فرأى نارا فقال يا أسلم انظر الى تلك النار هل هو ركب أضربهم الليل والبرد فقالت لا خير يا أمير المؤمنين فقال انطلق بنا اليهم قال فخرجنا نهرول فاذا امرأة معها صبيان ولها قدر منصوب على تلك النار وصبيانها يبكون فقال عمر السلام عليكم يا أهل الضوء وكره أن يقول يا أهل هذه النار فقالت المرأة وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أدن بخير أو فدع فقال لها ما بال هذه الصبية يتضاغون فقالت من الجوع قال فما هذه القدر قالت ماء جعلته في القدر أسكتهم به حتى ينا موا والله بيننا وبين عمر بن الخطاب قال يرحمك الله وما يدري عمر بكم قالت يتولى أمرنا ثم يتغافل عنا قال أسلم فأقبل على عمر فقال انطلق بنا فخرجنا حتى أتينا الى دار الدقيق فأخرج عدلا من دقيق وكبة من شحم فقال احمله على فقلت أنا أحمله عنك فقال أنت تحمل وزري لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه اليها وهو يهرول حتى أتينا اليها فألقى ذلك العدل عندها ثم أخرج قطعة من دهن وألقاها في القدر وجعل يقول للمرأة ذري من الدقيق وأنا أحرك بك ولكن يحرك تارة وينفخ في النار تارة أخرى قال أسلم فوالله لقد رأيت أمير المؤمنين وهو ينفخ في النار والدخان يخرج من خلال شعر ذقنه حتى طبخ القدر ثم أنزله بيده وقال للمرأة اعطني شيأ فأتته بقصعة أو قال بصحفة فأفرغ الطعام فيها وقال لهم كلوا وأنا أسطح لكم ثم تورى عن المرأة وجعل يربض كما يربض الاسد وأنا أقول يا أمير المؤمنين ما خلقت لهذا فلم يلتفت الي حتى رأيت الصغار يضحكون ثم قام عمر وهو يضحك ويحمد الله تعالى ثم جعل يده على يدي وقصدنا المدينة وقال لي يا أسلم ان الجوع عدو وقد رأيتهم وهم يبكون فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون وعن الاعمش قال أتى عمر بن الخطاب مرة باثنين وعشرين ألف درهم فلم يقم حتى

فرقها بين المسلمين ولم يأخذ منها شيأ وكان اذا أعجبه شئ من ماله تصدق به وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر فقيل له في ذلك فقال اني أحبه وقد قال الله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وكان رضي الله عنه يأتي المجزرة ومعه الدرة فكل من رآه يشتري لحما يومين متتابعين يضربه بالدرة ويقول له هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك وأبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة ثم خرج فاعتذر للناس وقال انما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره وكان ازاره مرقوعا بقطعة من جراب وعدوا مرة في قميصه أربع عشرة رقعة احداها من أدم أحمر وكان رضي الله عنه أبيض اللون يعلوه حمرة وانما صار في لونه سمرة عام الرمادة حين أكثر من أكل الزيت توسعة على الناس أيام الغلاء فترك لهم اللحم والسمن واللبن وكان قد حلف لا يأكل غير الزيت في تلك الايام حتى يوسع الله على المسلمين ومكث ذلك الغلاء تسعة أشهر وصارت الارض سوداء مثل الرماد وكان يخرج في تلك الايام يطوف على البيوت ويقول من كان محتاجا فليأتنا وكان يقول اللهم لا تجعل هلاك امة محمد صلى الله عليه وسلم على يدي ومن كلامه رضي الله عنه من خاف الله لا يفعل ما يريد ولو لا يوم القيامة لكان غير ما ترون * ومن كلامه رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فانه أهون عليكم من الحساب غدا والذي بعث محمدا بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت الله يسألني عنه ولما طعن رضي الله عنه دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت أن أخرج منها كفافا كما دخلت فيها والله لو أن لي اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع وجاء رجل شاب في ذلك اليوم فقال ابشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت ان ذلك كان كفافا لا علي ولا لي فلما أدبر الرجل اذا ازاره يمس الارض فقال ردوا علي الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فانه أبقى لثوبك وأتقى لربك ودخل عليه يوم طعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعوده فقعد عند رأسه وجاء ابن عباس رضي الله عنهما فأثنى عليه وقال كنت وكنت وعده بخير من ربه فقال له عمر أأنت في هذا يا ابن عباس فأومأ اليه علي رضي الله عنه أن قل نعم فقال ابن عباس نعم فقال عمر لا تغرني أنت وأصحابك وفي رواية يا ابن عباس المغرور من غررتموه لو أن لي طلاع الارض ذهبا لافتديت به من هول المطلع والله وددت أني أخرج منها كفافا لا علي ولا لي وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لي وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما لما طعن عمر رضي الله عنه دخلت عليه فقلت ابشر يا أمير المؤمنين فان الله تعالى مصر بك الامصار ودفع بك النفاق وأفشى بك الرزق فقال عمر أفي الامارات تثني علي يا ابن عباس فقلت وغيرها فقال والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما

دخلت لا أجر ولا وزر وقال حماد بن زيد قال ابن عباس رضي الله عنهما لما طعن عمر رضي الله عنه كنت قريبا منه فمسست بعض جلده وقلت هنيأ لك جلد لا تمسه النار فنظر الي نظرة جعلت أرثي له منها ثم قال وما علمك بذلك قلت يا أمير المؤمنين صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ففارقك وهو عنك راض ثم صحبت المسلمين وأحسنت صحبتهم فإن فارقتهم فهم عنك راضون فقال أما اذ كرت من صحبتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانما كان ذلك منا من الله عز وجل من به علي فلو ان لي ما في الارض من شيء لافتديت به من عذاب الله قبل أن اراه وقال صالح بن كيسان قال ابن عباس رضي الله عنهما دخلت على عمر رضي الله عنه في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من ادم وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم يكن علي اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيبا من القلب وان الموت لكربة وقد كنت أحب أن أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم ولا تركت درهما عندي الا ثلاثين أو أربعين درهما ثم بكى وبكى الناس معه فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك فقال المغرور والله من غررتموه أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ولما حضرت عمر الوفاة غشي عليه فأخذت رأسه فوضعته في حجري فقال ضع رأسي بالارض لعل الله يرحمني فمسح خديه بالتراب وقال ويل لعمر وويل لامه ان لم يغفر الله له فقلت وهل فخذاي والارض الا سواء يا أبتاه فقال ضع رأسي بالارض لا أم لك كما آمرك فوضعته في الارض فوضع عمر خده على الارض وقال ويل لعمر ولام عمر ان لم يغفر الله له ويعفو عنه ثم قال فاذا قضيت فأسرعوا بي الى حفرتي وانما هو خير تقدموني اليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى فقيل له ما يبكيك قال خبر السماء لا أدري الى جنة ينطلق بي أو الى نار وقال عروة بن الزبير لما طعن عمر رضي الله عنه قالوا له استخلف قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول ان سالما ليحب الله حبا لو لم يخفه لم يعصه فقالوا له لو أنك عهدت الى ابنك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فانه لذلك أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه فقال بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولوددت اني نجوت من هذا

الامر كفافالا علي ولا لي ثم كلموه مرة أخرى فقالوا لو عهدت فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان أولي رجلا أمركم يحملكم على الحق وأشار الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم رايت ان لا أتحملها حيا وميتا ثم دعا أصحاب الشورى الذين سيأتي ذكرهم فلم يكلم أحدا منهم غير علي وعثمان رضي الله عنهما فقال يا علي لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك قرابتك من النبي صلى الله عليه وسلم وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم فان وليت هذا الامر فاتق الله فيه ثم دعا عثمان رضي الله عنه فقال يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنك وشرفك فان وليت هذا الامر فاتق الله فيه ولا تحملن بني معيط على رقاب الناس ثم جعل عمر رضي الله عنه الامر شورى بين الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض كما روى ذلك ابن عمر وغيره وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص على أن يكون الخليفة واحدا منهم أن يتفقوا عليه فان اختلفوا فمن يتفق عليه أكثرهم فان تساووا يحكمون عبد الله بن عمر بينهم فان لم يرضوا بحكمه يقدم قول الحزب الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف وأمر أن يحضر معهم ابنه عبد الله بن عمر كالتعزية له وليس هو منهم في أمر الخلافة فلما خرجوا من عنده قال لو ولوها عليا سلك بهم الطريق فقال له ابنه عبد الله فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تستخلفه قال أكره أن أتحملها حيا وميتا وروى أن عمر رضي الله عنه عرض على عبد الرحمن ابن عوف أن يستخلفه ويجعله ولي عهده فقال له عبد الرحمن أتشير علي بذلك اذا استشرتك فقال لا والله فقال عبد الرحمن اذا لا أرضى أن أكون خليفة بعدك وبعد أن ذكر عمر رضي الله عنه الستة أصحاب الشورى قال ما أظن يلي الا أحد هذين الرجلين وأشار الى علي وعثمان فان ولي عثمان فرجل فيه لين وان ولي علي ففقيه وعابد وأحرى أن يحملهم على طريق الحق وان ولوا سعدا فهو أهل و لا فليستعن به الوالي فاني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف فاسمعوا منه وأطيعوا وفي رواية قال عمر رضي الله عنه ما أرى أحدا أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى الستة وقال يشهد عبد الله ابن عمر معهم وليس له من الامر شيء فان أصاب الامر سعد فهو ذاك والا فليستعن به أيكم أمر فاني لم أعزله يعني عن امارة الكوفة عن عجز ولا خيانة ثم قال أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله تعالى وأوصيه بالمهاجرين والانصار وأوصيه بأهل الامصار ثم لما توفي عمر رضي الله عنه وفرغوا من دفنه عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه في حجرة عائشة رضي الله عنها تفرغ أصحاب الشورى للاجتماع فلما اجتمعوا قال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمري الى علي وقال سعد جعلت أمري الى عبد الرحمن بن عوف وقال

طلحة جعلت أمري الى عثمان وقيل ان طلحة كان غائبا وما حضر الا بعد تمام الامر ثم خلا هؤلاء الثلاثة فقط وهم عبد الرحمن بن عوف وعلي وعثمان رضي الله عنهم فقال عبد الرحمن أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الامر ويفوض الامر اليه فيولين أفضل الرجلين الباقيين وليحرص على صلاح الامة فسكت الشيخان علي وعثمان رضي الله عنهما فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلا الامر الى والله علي والاسلام أن أجتهد فأولي أولاكما بالحق ثم خاطب كلا منهما بما فيه من الفضل وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاه ليعدلن ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن فقال كل واحد منهما نعم ثم خلا بعلي فقال له أرأيت ان لم أولك فمن تشير علي به قال عثمان وخلا بعثمان فقال له ان لم أولك فمن تشير علي به قال علي بن أبي طالب ثم تفرقوا ومكث عبد الرحمن ثلاث ليال يستشير الناس فيمن يوليه ويجتمع برؤس الناس وأمراء الاجناد وأشراف الناس وغيرهم جمعا وأشتاتا مثنى وفرادى سرا وجهرا حتى ذهب الى النساء المخدرات في حجبهن حتى سأل الولدان في المكاتب وسأل من يردون من الركبان والاعراب الواردين الى المدينة في ثلاثة أيام لياليهن قال فلم أجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما الا ما ينقل عن عمار والمقداد فانهما أشارا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قال بعض العلماء وكان السبب في ذلك أي ان الاكثرين اختاروا عثمان ان عثمان رضي الله عنه كان فيه لين وعدم شدة وكان علي رضي الله عنه يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الشدة ومضت مدة خلافة عمر رضي الله عنه وهي عشر سنين ونصف سنة وهم منقادون له يسيرون بسيرته وفتحت لهم الامصار وكثرت عندهم الاموال فأحبوا أن يكون لهم بعض التخفيف من تشديد عمر وعلموا أنه لو كان الامر لعلي رضي الله عنه لم يحصل التخفيف الذي يريدونه بل يسلك بهم سبيل عمر ويسير بسيرته سواء أو أشد من ذلك هذا هو السبب في تقديمهم عثمان على علي رضي الله عنهم وليس عندهم طعن في علي رضي الله عنه ولا كره لشيء من أخلاقه ولا يشكون في حصول العدل منه هذا هو اللائق الذي ينبغي حمل أحوال الصحابة عليه رضي الله عنهم أجمعين وربما ان الذي يقف على ما يذكره المؤرخون في شرح هذه القصة يتوهم منه أن كلا من علي وعثمان وبقية أصحاب الشورى كان لكل واحد منهم رغبة في أن تكون الخلافة له فهذا ان صح فيحمل على أن كل واحد منهم يريد أن يكون منه القيام بالعدل واقامة الدين والقيام بمصالح المسلمين لما في ذلك من الاجر والثواب عند الله تعالى ولا يتوهم من له قوة تمييز أن يكون مرادهم الرياسة واستيفاء حظوظ النفس حماهم الله من ذلك بل لا يريد كل واحد منهم الا القيام باظهار الحق كما شهد لهم الله سبحانه وتعالى بذلك في آيات كثيرة وأخبر أنه رضي الله عنهم ورضوا عنه وكذلك الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حقهم تشهد لهم بذلك فاحذر أن تتوهم ظن سوء بأحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

فان المظلمة المتعلقة بأحد منهم مما لا يغفر كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة والحاصل ان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اجتهد في ذلك ثلاثة أيام بلياليهن كل الاجتهاد بحيث انه لم يغتمض بكثير نوم ولم يزل في صلاة ودعاء واجتهاد واستخارة وسؤال من ذوي الرأى وغيرهم حتى حاول ربات الحجال في خدورهن فلم يجد أحدا يعدل بعثمان زاد في رواية انه قال في آخر ليلة للمسور بن مخرمة وكان ابن الاخت عبد الرحمن بن عوف ادع لي الزبير وسعد بن أبي وقاص فدخلا عليه فشاورهما ثم انصرفا ثم قال ادع لي عليا قال فدعوته فناجاه الى ثلث الليل ثم قام من عنده وكان من جملة ما قال له أرأيت لو صرف هذا الامر عنك من كنت ترى أحق به قال عثمان قال المسور بن مخرمة فلما خرج من عنده قال ادع لي عثمان فدعوته فناجاه طويلا حتى فرق بينهما مؤذن الصبح وقال له مثل ما قال لعلي رضى الله عنه لو صرف عنك هذا الامر من كنت ترى أحق به قال على بن أبي طالب وقال للزبير كذلك فأشار بعثمان وقال لسعد كذلك فأشار بعثمان وكذلك شاور المهاجرين والانصار وكلهم أشار بعثمان وجاء في رواية عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه انه قال فلما كانت الليلة التى يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جاء عبد الرحمن الى منزلى وأنا نائم فقال أنائم أنت يا مسور والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث اذهب فادع لي عليا وعثمان قال المسور يا خالي بأيهما أبدأ فقال بأيهما شئت قال فذهبت الى علي فقلت أجب خالى قال أمرك أن تدعو معي أحدا فقلت نعم قال من قلت عثمان بن عفان قال بأيهما بدأ قلت لم يأمرني بذلك بل قال ادع أيهما شئت أولا فجئت اليك فخرج معي فلما مررنا بدار عثمان جلس علي حتى دخلت الى عثمان فوجدته يوتر مع الفجر فدعوته فقال لي مثل ما قال علي سواء ثم خرج فدخلت بهما على خالى وهو قائم يصلى فلما انصرف أقبل على علي وعثمان فقال اني سألت الناس عنكما فلم أجد أحدا يعدل بكما ثم أخذ العهد على كل واحد منهما لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن فقالا نعم ثم خرج بهما الى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقلد سيفا وبعث الى وجوه الناس من المهاجرين والانصار ليحضروا فى المسجد ونودي في الناس عامة صلاة جامعة وامتلأ المسجد حتى غص بالناس وازدحم الناس وتراصوا حتى انه لم يحصل لعثمان بن عفان موضع يجلس فيه الا في أخريات الناس وكان رجلا شديد الحياء ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على الدرجة التى كان يجلس عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف وقوفا طويلا ودعا دعاء طويلا لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال أيها الناس اني قد سألتكم سرا وجهرا مثنى وفرادى وجمعا وأشتاتا فلم أجد أحدا منكم يعدل بأحد هذين الرجلين اما علي واما عثمان فقم الي يا علي فقام اليه فوقف تحت المنبر وأخذ عبد الرحمن بيده فقال له هل أنت

مبايعي على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال علي قد جهدي وطاقتي قال فأرسل يده قال قم يا عثمان فأخذ بيده فقال هل أنت مبايعي على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال اللهم نعم قال فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد وقال اللهم اسمع واشهد اللهم اسمع واشهد اللهم اسمع واشهد اللهم قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان وبايعه وازدحم الناس يبايعون عثمان رضي الله عنه حتى غشوه تحت المنبر قال وقعد عبد الرحمن بن عوف مقعد النبي صلى الله عليه وسلم وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية وجاءه الناس يبايعونه وبايعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أولا ويقال آخرا وما ذكرته هو الثابت في ولاية عثمان رضي الله عنه كما حققه العلماء المحققون من أهل السنة منهم السيد الشريف طاهر بن هاشم باعلوي في كتابه المسمى مجمع الاحباب ثم قال ولا تغتر بما سوى هذا مما ينقله الروافض فانه لا أصل له والله سبحانه وتعالى أعلم واعترض بعض المبتدعة على عمر بن الخطاب في عدم ادخاله العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشوري وأجاب أهل السنة عن ذلك بأن العباس رضي الله عنه كان صديقا لعمر وانما لم يدخله في أهل الشورى لان الامر عندهم كان مبنيا على تقديم السابقية في الاسلام والعباس رضي الله عنه كان ممن تأخر اسلامه وكان صديقا لعمر رضي الله عنهما فهذا عذر عمر رضي الله عنه في عدم ادخاله العباس رضي الله عنه في أهل الشوري ولم ينكر عليه ذلك العباس ولا أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمهم بأن الامر عندهم مبني على الاسبقية في الاسلام قال الامام محمد بن الحسن وانما لم يدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة لانه كان ابن عم لعمر بن الخطاب فخشي أنه اذا ادخله معهم يكون ذلك منه محاباة له لكونه من أقاربه فما أحب أن يتقلدها ابنه ولا أحد من أقاربه فهكذا كان احتياط عمر وورعه رضي الله عنه ثم ان الناس مكثوا ست سنين من خلافة عثمان وهم في غاية من الاتفاق والرضا كما كانوا في خلافة عمر رضي الله عنه بل قال بعضهم أحبوا عثمان أكثر من محبتهم لعمر رضي الله عنهما للينه ورفقه ثم في الست السنين الثانية وقع الاختلاف وأوقعه جماعة لم تكن لهم سابقة في الاسلام وكان الاصل في ذلك عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ظاهرا وليس له غرض في الاسلام الا قصد ايقاع الفرقة بين أهل الاسلام وأدخل على الناس شبهة من حيث تولية عثمان كثيرا من أقاربه على كثير من الامصار مع أن عثمان رضي الله عنه كان يفعل ذلك باجتهاد منه يراه هو الصواب ويرى أن أقاربه أقرب الى اطاعته على العدل ولا لوم عليه في ذلك على أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك كله فكان في ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه فوقع كما أخبر وكل ذلك كان بقضاء الله وقدره لما كتب

له الشهادة ويحقق قول النبي صلى الله عليه وسلم في عثمان أنه يقتل مظلوما وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في عبد الرحمن بن عوف أمين في السماء وأمين في الارض فكفى بهذا حجة على صحة ما فعله واجتهد فيه رضي الله عنه قال القائلون بأن طلحة كان غائبا وقد جعله عمر رضي الله عنه من أهل الشورى فقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان فقيل له ان الناس قد بايعوا عثمان فقال أكل قريش رضوا به قالوا نعم فأتى عثمان فقال عثمان أنت على رأس أمرك قال طلحة فان أبيت أتردها قال نعم قال أكل الناس بايعوك قال نعم فقال طلحة قد رضيت لا أرغب عما اجتمعت الناس عليه وبايعه ثم ان عمر رضي الله عنه بعد أن جعل أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى حسب ما عليه من الدين فوجده ستة وثمانين ألفا ولزمته هذه الديون من انفاق كان ينفقه من ماله على الفقراء والمحتاجين لم يأكل منه خبيصا ولا لبس منه قميصا بل كانت جبته مرقعة بالجلود وباب منزله من الجريد لكنه أنفق هذا المال في سبيل الخير لا غير فلما فرغت حياته وحانت وفاته قال لابنه عبد الله وابنته حفصة رضي الله عنهما اني قد أصبت من مال الله شيأ واني أحب أن ألقى الله عز وجل وليس في عنقي منه شيء فبيعوا فيه ما عندي من المال حتى تقضياه فان عجز عنه مالي فسلا في بني عدي فان بلغ والا فسلا في قريش ولا تعدو قريشا فباع عبد الله من معاوية دار عمر التي يقال لها دار القضاء بالمدينة وباع ما لا كان له بالغابة فقضى دينه فلذلك قيل لتلك الدار دار القضاء وقد كان عمر رضي الله عنه كثير الانفاق على الفقراء والمحتاجين واذا لم يكن في بيت المال شيء يستقرض للانفاق عليهم لاسيما في عام الرمادة فانه كان منه رضي الله عنه العجب العجاب في الاعتناء بالفقراء وأهل الحاجة وعن زيد بن أسلم عن أبيه أسلم قال لما كان عام الرمادة جاءت العرب من كل ناحية لشدة الجدب والقحط فقدموا المدينة وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر رجالا يقومون عليهم ويقسمون عليهم الطعام فكان كل رجل على ناحية من المدينة وكانوا اذا اجتمعوا عند أمير المؤمنين يخبرونه بكل ما كانوا فيه فسمعت أمير المؤمنين قال في ليلة وقد تعشى الناس عنده احصوا من يتعشى عندنا فأحصوا فوجدوهم نحو سبعة آلاف رجل فقال أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفا ثم مكث ليالي فزاد الناس حتى صار من يتعشى عنده نحو عشرة آلاف رجل والآخرون خمسون ألفا وكانت تلك المجاعة التي أصابت الناس عام الرمادة مجاعة شديدة لم يعهد مثلها لشدة القحط والجدب وكانت الريح تسفي ترابا كالرماد فسمي عام الرمادة وكان ذلك كله في سنة ثمان عشرة من الهجرة ومكث تسعة أشهر واشتد الجوع حتى جعلت الوحوش تأوي الى المواضع المأنوسة تصاب ماتت كلها وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وأقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيى الناس فقدمت السوق عكة سمن

ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر رضي الله عنه بأربعين درهما وجاء بهما الى عمر وكان ذلك عند ابتداء الجلاء القحط والشدة وقال يا أمير المؤمنين قد حي الناس وأبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما فقال عمر تصدق بهما فاني أكره أن آكل اسرافا وكيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يصبني ما أصابهم وفي مدة ذلك القحط كتب عمر الى أمراء الامصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام جاء بها من الشام فولاه قسمتها فيمن حول المدينة فقسمها وانصرف الى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام الى المدينة حتى صار الطعام بالمدينة كسعر مصر ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم البحر مع مقتل عثمان رضي الله عنه فذلوا وتقاصروا وكان الناس في مدة الرمادة وعمر كالمحصورين عن أهل الامصار فقال أهل بيت من مزينة لصاحبهم وهو بلال بن الحارث رضي الله عنه قد هلكنا فاذبح لنا شاة قال ليس فيهن ما يصلح للذبح فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر فنادي يا محمداه فرأي في المنام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فقال ابشر بالحياة ائت عمر فاقرأه مني السلام وقل له ان عهدك وأنت في العهد شديد العقد فالكيس الكيس يا عمر فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه استأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأتي عمر فأخبره ففزع وقال رأيت به مساً فقال لا فأدخله وأخبره الخبر فخرج فنادي في الناس وصعد المنبر فقال انشدكم الله الذى هداكم هل رأيتم شيأ تكرهونه قالوا اللهم لا ولم ذلك فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر فقالوا انه استبطأك في الاستسقاء فاستسق بنا فنادي في الناس وخرج للاستسقاء وخرج معه العباس ماشيا فخطب وأوجز وصلى ثم جثى على ركبته وقال اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة الا بك اللهم فاسقنا وأحي العباد والبلاد وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه وان دموع العباس لتتحادر على لحيته فقال اللهم انا نتقرب اليك بعم نبيك صلى الله عليه وسلم وبقية آبائه وأكبر رجاله فانك تقول وقولك الحق وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان أبوهما صالحا فحفظتهما بصلاح أبيهما فاحفظ اللهم نبيك صلى الله عليه وسلم في عمه فقد دلونا به اليك مستشفعين مستغفرين ثم أقبل على الناس فقال استغفروا ربكم انه كان غفارا وقد كان العباس رضي الله عنه قد طال عمره وابيضت لحيته فوقف وعيناه تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنب ولم يكشف الا بتوبة وقد توجه بي القوم اليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا اليك بالذنوب ونواصينا اليك بالتوبة اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالة ولا

تدع الكسير بدر ر مضيعة فقد صرخ الصغير ورق الكبير وارتفعت الاصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فنشأت طريرة من سحاب فقال الناس ترون ترون ثم التأمت ومشت فيها الريح ثم هدأت ودرت فوالله ما برحوا حتى اعتنقوا الجدار وقلصوا المآزر فطفق الناس بالعباس رضي الله عنه يمسحون أركانه ويقولون له هنيئا لك ساقي الحرمين فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب

بعمي سقى الله الحجاز وأهله * عشية يستسقي بشيبته عمر

توجه بالعباس في الجدب راغبا * اليه فما ان رام حتى أتى المطر

ومنا رسول الله فينا تراثه * فهل فوق هذا للمفاخر مفخر

قال زيد بن أسلم عن أبيه كنا نقول لولم يرفع الله عام الرمادة لظننا ان عمر يموت هما بالمسلمين قال ابن شهاب ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدعو عام الرمادة ويقول اللهم اجعل أرزاقهم على رؤس الجبال فاستجاب الله له وللمسلمين فكانت تأتيهم أرزاقهم وقال حين نزل الغيث الحمد لله فوالله لوأن الله لم يفرجها ما تركت بأهل بيت من المسلمين سعة الا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحدا وعن أنس رضي الله عنه قال كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى عماله اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا فان الله عز وجل وكل بهم ملائكة وضعوا أيديهم على أفواههم لا يتكلمون الا بما هيأه الله تعالى لهم وألقى الله في قلوب العباد هيبة شديدة لعمر رضي الله عنه وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم قال بينما عمر رضي الله عنه يمشي وخلفه عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ بداله فالتفت فلم يبق أحد الا سقط لركبتيه خائفا فأرسل عمر عينيه بالبكاء ثم قال اللهم انك تعلم أني منك أشد خوفا منهم في وقال عمر رضي الله عنه لولا مخافة الحساب لأمرت بجمل أي كبش يشوى لنا في التنور وعن سفيان قال كان عمر يشتهي الشيء ثمنه درهم فيؤخره سنة وعن أنس رضي الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما وبيني وبينه حائط يقول لنفسه أمير المؤمنين بخ بخ والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك وزار عمر أبا الدرداء رضي الله عنهما فقال له أبو الدرداء أتذكر حديثا حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أي حديث قال ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب قال نعم قال فما فعلنا بعده يا عمر فما زالا يتجاوبان حتى أصبحا وعن نافع قال كان من دعاء عمر رضي الله عنه اللهم أوجب لي في موالاتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك وأبرئني بمعاداة عدوك من الآفات اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى ولا تقلل لي منها فأنسى فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى اللهم اني أعوذ بك أن تأخذني على

غرة أو تذرني في غفلة أو تجعلني من الغافلين وعن قيس بن الحجاج قال لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو
ابن العاص رضي الله عنه حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة
لا يجري الا بها فقال لهم وما ذاك قالوا اذا كان ثنتا عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية
بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وحملنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل
فقال لهم عمرو بن العاص هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة وأبيب
ومسرى والنيل لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء منها فلما رأى ذلك عمرو بن العاص رضي
الله عنه كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك وكتب اليه عمر رضي الله عنه انك قد
أصبت بالذي فعلت لان الاسلام يهدم ما قبله وكتب بطاقة في داخل كتابه وكتب الى عمرو بن
العاص رضي الله عنه اني قد بعثت اليك ببطاقة في داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتاب
عمر الى عمرو رضي الله عنهما واذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل
مصر أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذي يجريك
فنسأل الله تعالى الواحد القهار أن يجريك فألقى البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل
مصر للجلاء والخروج لانهم لا تقوم مصلحتهم الا بالنيل فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم الصليب وقد
أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر فتلك
كرامة من كرامات عمر رضي الله عنه التي أكرمه الله بها * ومن كراماته رضي الله عنه ما رواه البيهقي
وأبو نعيم وغيرهما عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال وجه عمر رضي الله عنه جيشا
ورأس عليهم رجلا يدعى سارية بن زنيم فبينما عمر يخطب يوم جمعة اذ جعل ينادي يا سارية الجبل
ثلاثا من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه
ليخرجن مما قال فلما فرغ سألوه فقال وقع في قلبي أن المشركين هزموا اخواننا وانهم يمرون
بجبل فان عدلوا اليه قاتلوا من وجه واحد وان جاوزوه هلكوا فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه
فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم قال فعدلنا الى الجبل ففتح الله علينا
وفي رواية لابي نعيم عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال بينما عمر رضي الله عنه يخطب يوم الجمعة
اذ ترك خطبته وقال يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن
فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان يطمئن اليه فقال له انك لتجعل لهم على نفسك
مقالا بينما أنت تخطب اذ أنت تصيح يا سارية الجبل أي شيء هذا قال اني والله ما ملكت نفسي اذ
رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت يا سارية الجبل ليلحقوا
بالجبل فلبثوا الى أن جاء رسول سارية بكتابه أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى اذا حضرت

الجمعة سمعنا مناديا ينادي ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله تعالى وقتلهم وفي رواية ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال يا أمير المؤمنين هزمنا فبينا نحن كذلك اذ سمعنا صوتا ينادي ياسارية الجبل ثلاثا فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزمهم الله تعالى وكان ذلك الجبل بنهاوند من أرض العجم وأخرج الامام مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل ما اسمك قال جمرة قال ابن من قال ابن شهاب قال ممن قال من الحرقة قال أين مسكنك قال الحرة قال بأيها قال بذات لظى فقال عمر رضي الله عنه أدرك أهلك فقد احترقوا فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال ان كان الرجل ليحدث عمر رضي الله عنه بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول احبس هذه ثم يحدثه بالحديث فيقول احبس هذه فيقول له كل ما حدثتك حق الا ما أمرتني ان أحبسه وأخرج ابن عساكر أيضا عن الحسن البصري ان كان أحد يعرف الكذب اذا حدث به انه كذب فهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هدبة الحمصي قال أخبر عمر رضي الله عنه ان أهل العراق قد حصروا أميرهم فخرج غضبان فصلى فسها في صلاته فلما سلم قال اللهم انهم قد لبسوا علي فالبس عليهم وعجل لهم بالغلام الثقفي لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم يعني الحجاج قال ابن لهيعة وما ولد الحجاج يومئذ وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ان الله ضرب الحق على لسان عمر رضي الله عنه حتى ظننا ان ملكا ينطق على لسانه وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان اسلام عمر فتحا وكانت هجرته نصرا وكانت امامته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي عند البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا وقال حذيفة رضي الله عنه لما أسلم عمر رضي الله عنه كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد الا قربا فلما قتل كان الاسلام كالرجل المدبر لا يزداد الا بعدا وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه وهو الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما توفي عمر رضي الله عنه ذهب تسعة أعشار العلم ولو أن علمه وضع في كفة ميزان ووضع علم أحياء الارض في كفة لرجح على علمهم فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة فقال انما لم أرد علم الفتيا والاحكام انما أريد العلم بالله عز وجل قال الامام الغزالي في احياء علوم الدين كانت شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرب الى الله عز وجل في ولايته وعدله وشفقته على خلقه وذلك كله أمر باطن في سره وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال ما علمت أحدا هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهما

وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقهم واحدة واحدة فقال شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي فما تبعه منهم أحد وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد علمت بأي شيء فضلنا عمر رضي الله عنه كان أزهدنا في الدنيا وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدي ومنها دون ذلك وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره قالوا ما أولته يا رسول الله قال الدين وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينا أنا نائم أوتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب قالوا فما أولته ذلك يا رسول الله قال العلم وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك وقال له النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد عمر أن يعتمر لا تنسانا يا أخي من دعائك قال عمر رضي الله عنه انها كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا وروى مالك في الموطأ أن عمر رضي الله عنه كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف جمل يحمل الرجل الى الشام على بعير والرجلين الى العراق على بعير وكان عمر رضي الله عنه أول من جمع الناس لصلاة التراويح فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذا مر على المساجد ورأى القناديل في رمضان يدعو لعمر ويقول نور الله على عمر قبره كما نور علينا مساجدنا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء جبريل عليه السلام الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له اقرأ على عمر السلام وأخبره أن رضاه وغضبه حكم وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا غضب عمر فان الله يغضب لغضبه ولما توفي عبد الله بن أبي رأس المنافقين سأل ابنه الحباب وسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله أن يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه ورجاء ان الله يرحمه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابنه مؤمنا صادقا فأراد النبي صلى الله عليه وسلم تطييب قلب ابنه فتقدم ليصلي عليه فأراد عمر أن يمنع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه وقال يا رسول الله انه فعل كذا وكذا وقال كذا وكذا فجذب النبي صلى الله عليه وسلم ثوبه من يد عمر وتقدم وصلى عليه فأنزل الله تعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره فجاءت الآية على رأي عمر رضي الله عنه واختصم منافق ويهودي في شيء فقال اليهودي للمنافق نذهب الى أبي القاسم فنتحاكم على يديه وقال المنافق بل نذهب الى كعب بن الاشرف وكان من رؤساء اليهود يأخذ الرشوة في حكمه فامتنع اليهودي من الذهاب الى كعب بن الاشرف وذهبا الى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم على المنافق لليهودي فلما خرجا قال المنافق نذهب الى

كعب بن الاشرف فامتنع اليهودي وقال نذهب الى عمر بن الخطاب فرضي المنافق فلما دخلوا على عمر أخبره اليهودي بما كان له من الدعوي على المنافق ثم أخبره بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم على المنافق وانه لم يرض بحكمه وقال نذهب الى كعب بن الاشرف فلم أوافقه ثم اتفقنا على التحاكم اليك فقال عمر للمنافق أحق ما قال هذا فقال المنافق نعم فدخل عمر بيته وأخرج سيفه وضرب عنق ذلك المنافق وقال هذا جزاء من لم يرض بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ثم ان عشيرة ذلك المنافق شكوا الى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطلبوا القصاص منه واعتذروا بأن صاحبهم لم يكن منافقا وانما أراد بالمحاكمة الى عمر تأييد حكم النبي صلى الله عليه وسلم والحوا على النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الدعوي وكاد يحصل من ذلك شر فأيد الله تعالى ما فعله عمر وأهدر دم ذلك المنافق وأنزل في ذلك قوله تعالى ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت الآيات وختمها بقوله أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا فكان في ذلك كله تأييد لما فعل عمر رضي الله عنه ولما قال عبد الله بن أبي لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وعنى بالأعز نفسه وبالاذل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يذهب الى عبد الله بن أبي ويقتله فأبى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لا يتحدث ان محمدا يقتل أصحابه وأنزل الله تعالى ترضية لعمر قوله تعالى قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون ولما أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بقتل اسرى بدر وعدم قبول الفداء منهم وأشار أبو بكر رضي الله عنه بقبول الفداء وقال يا رسول الله هم قومك وذوو رحمك ونرجو ان الله يهديهم للاسلام فقبل النبي صلى الله عليه وسلم ما أشار به أبو بكر في أخذ الفداء فأنزل الله تعالى ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكانت الآية مؤيدة لما أشار به عمر رضي الله عنه والنبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه يبكيان فقال عمر يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبكي للذي عرض على من الفداء وفي رواية قال له النبي صلى الله عليه وسلم كاد يصيبنا في خلافك شر ثم أنزل الله امضاء أخذ الفداء بقوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم ولما طاف النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت قال له عمر رضي الله عنه يا رسول الله ألا تتخذ من مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فكان ذلك من موافقات عمر رضي الله عنه وكان رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم أحجب نساءك فانه يدخل

عليك البر والفاجر فأنزل الله تعالى وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ولما أكثر نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الغيرة عليه دخل عليهن عمر رضي الله عنه وزجرهن وخوفهن بالطلاق وأن الله يبدل النبي صلى الله عليه وسلم خيرا منهن فأنزل الله تعالى عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وكان رضي الله عنه يكره شرب الخمر ويسأل الله أن يحرمه فأنزل الله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فلم يكتف بذلك عمر رضي الله عنه وقال اللهم أرنا في الخمر فأنزل الله تعالى إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون فحرم الله الخمر فكان ذلك موافقا لما كان مرغوبا لعمر رضي الله عنه قال الشعبي لما سمع الناس قول عمر رضي الله عنه ورأوا عمله فكان يمشي في الأسواق ويطوف في الطرقات ويقضي بين الناس في قضاياهم ويعلمهم في أماكنهم ذكروا أبا بكر والنبي صلى الله عليه وسلم ثم قالوا كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بأبي بكر رضي الله عنه وكان أبو بكر أعلم بعمر فجرى أبو بكر وعمر مجرى واحدا وقد كانوا يختلفون من لين هذا وشدة هذا فكان أبو بكر رضي الله عنه مع لينه أقواهم فيما لا بد منه وألينهم فيما ينبغي وكان عمر ألينهم فيما ينبغي وأقواهم فيما لا بد منه وقدم الأحنف بن قيس على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو معتجر بعباءة له فشرد بعير من إبل الصدقة فسعى خلفه وقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة فقال رجل يا أمير المؤمنين يغفر الله لك فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة فيكفيك هذا فقال عمر وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس إن من ولي أمر المسلمين فهو عبد المسلمين يجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح وأداء الأمانة وقال عمر رضي الله عنه من استعمل رجلا لمودة أو قرابة لا يحمله على استعماله إلا ذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ومن استعمل فاجرا وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله ولما افتتح المسلمون سواد العراق قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اقسمه بيننا فإنهم افتتحوه عنوة قال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين فإني أخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه وأخاف أن تقتتلوا فأقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الضرائب يعني الجزية وعلى أرضهم الخراج ولم يقسمها بينهم لتكون للمسلمين الذين يأتون بعدهم ولما قدم عمر رضي الله عنه مكة أقبل أهل مكة يشكون أبا سفيان بأنه حبس سيل الماء عليهم فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان نصب أحجارا فقال ارفع هذا وهذا فرفعهما ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجارا خمسة أو ستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه وعن الحسن البصري قال حضر باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه سهيل

ابن عمرو والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب ونفر من قريش من تلك الرؤس وصهيب وبلال ونفر من اولئك الموالي الذين شهدوا بدرا فخرج اذن عمر للموالي وترك أولئك فقال أبو سفيان لم أركاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم اني والله لقد أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم دعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم وفي رواية فإذا كان هذا في دار عمر فكيف الجنة فجلسوا يبكون على تأخر دخولهم في الاسلام حتى ارتفعت أصواتهم فسمعهم عمر فأمر بادخالهم وكان صدر المجلس في زمن خلافته للسابقين في الاسلام فاذا سبقهم غيرهم ثم جاء أحد من السابقين يتأخرون عن صدر المجلس ليجلس فيه السابقون للاسلام ولو كانوا من الموالي وربما أنهم لا يزالون يتأخرون حتى يكون غير السابقين في آخر المجلس ولو كانوا من أشراف قريش وعن الحسن البصري أن رجلا أتى أهل ماء فاستسقاهم فلم يسقوه حتى مات عطشا فأغرمهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ديته وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذ جاء رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك قال ما شأنك قال أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت على فرسي فلما حضر الناس قام محمد بن عمرو بن العاص يقول هذه فرسي ورب الكعبة فلما دنا مني قلت له هذه فرسي ورب الكعبة فقام يضربني بالسوط ويقول خذها وأنا ابن الاكرمين قال فوالله ما زاد عمر على أن قال اجلس ثم كتب الى عمرو بن العاص اذا جاءك كتابي هذا فاقبل واحضر معك ابنك محمدا قال فدعا عمرو ابنه محمدا فقال هل أحدثت حدثا أو جنيت جناية قال لا قال فما بال أمير المؤمنين عمر يكتب فيك فقدم عمرو وابنه على عمر قال أنس فوالله انا لعند عمر اذ نحن بعمرو وقد أقبل فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه محمدا فاذا هو خلف أبيه فقال عمر أين المصري فقال ها أنا ذا قال دونك الدرة اضرب ابن الاكرمين اضرب ابن الاكرمين اضرب ابن الاكرمين فضربه فضربه ثم قال اجعلها على صلعة أبيه عمرو فوالله ما ضربك الا بفضل سلطانه فقال لعمر يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربه فقال أما والله لو ضربت من ضربه لما أقدمتك يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ثم التفت الى المصري فقال انصرف راشدا فان رابك شيء فاكتب الي وكان عمر رضي الله عنه اذا استعمل عاملا كتب عليه كتابا وأشهد عليه رهطا من الانصار أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقا ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد وعن الحسن البصري قال قال عمر رضي الله عنه لئن عشت ان شاء الله لأسيرن في الرعية حولا فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني أما هم فلا يصلون الي واما عمالهم فلا يرفعونها الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين

ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها
شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين وعن الزهري ان عمر رضي الله عنه جلد صبيغا القيسي
عن كثرة مساءلته عن حروف القرآن حتى اضطربت الدماء في ظهره وعن النعمان بن بشير رضي
الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي
ما يجد ما يملأ بطنه من الدقل وعن هشام بن عروة قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رأيتم
الرجل يضيع الصلاة فهو والله لغيرها من حق الله تعالى أشد تضييعا وعن يحيى بن جعدة قال قال عمر
رضي الله عنه لولا ثلاث لأحببت أن ألحق بالله عز وجل لولا أن أسير في سبيل الله أو أضع وجهي لله
تعالى أو أجالس أقواما يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب التمر وروي عن علي رضي الله عنه
انه كان يبكي عند موت عمر رضي الله عنه فقيل له في ذلك فقال أبكي على موت عمر ان موت عمر ثلمة
في الاسلام لا ترتق الى يوم القيامة وقال علي رضي الله عنه كان أبو بكر أواها حليما وكان عمر مخلصا
ناصحا لله فناصحه الله وان كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن متوافرون لنرى أن السكينة
تنطق على لسان عمر وان كنا لنرى أن شيطانه ليهابه أن يأمره بالخطيئة وشهد عند عمر بن الخطاب
رضي الله عنه رجل فقال له ائتني بمن يعرفك فأتاه برجل فأثنى عليه خيرا فقال عمر رضي الله عنه أنت
جاره الادنى تعرف مدخله ومخرجه فقال لا فقال كنت رفيقه في السفر الذي يسفر عن أخلاق
الرجال ومكارم الاخلاق فقال لا قال فعاملته بالدراهم والدنانير التي يتبين بها ورع الرجل فقال لا قال
أظنك رأيته في المسجد يهمهم بالقرآن يرفع رأسه طورا ويخفضه طورا قال نعم قال اذهب فلست تعرفه
وقال للرجل اذهب فأتني بمن يعرفك وقالت عائشة رضي الله عنها من رأى ابن الخطاب علم أنه انما
خلق غنى للاسلام وعن لاحق بن حميد قال بعث عمر بن الخطاب عمار بن ياسر وعبد الله بن
مسعود وعثمان بن حنيف رضي الله عنهم الى الكوفة فجعل عمار بن ياسر على الصلاة وعلى الجيوش
وعبد الله بن مسعود على القضاء وبيت المال وعثمان بن حنيف على مساحة أرض الخراج وجعل بينهم
كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر رضي الله عنه والنصف بين هذين قال الراوي ولا
أحفظ الطعام ثم قال أنزلتكم واياي من هذا المال منزلة ولي اليتيم من كان غنيا فليستعفف ومن كان
فقيرا فليأكل بالمعروف وما أرى قرية يؤخذ منها كل يوم شاة الا كان سريعا في خرابها ولما قدم عليه
أول عير عام الرمادة دعا الزبير رضي الله عنه وقال أخرج في أول هذه العير فاستقبل بها نجدا فاحمل
الي أهل كل بيت ما قدرت أن تحملهم ومن لم يستطع حمله فمر لأهل كل بيت ببعير بما عليه فليكسوا
كسوتين من ذلك ولينحروا البعير فيحملوا شحمه وليقددوا لحمه وليأخذوا كبة من قديد وكبة من
شحم وحفنة من دقيق فيطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق فاعتذر الزبير من الخروج ثم دعا

طلحة رضي الله عنه فاعتذر فأمر أبا عبيدة رضي الله عنه فخرج فلما رجع بعث له بألف دينار فقال أبو عبيدة اني لم أعمل لك يا ابن الخطاب اني عملت لله عز وجل ولست آخذ في ذلك شيأ فقال عمر قد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشياء بعثنا لها فكرهنا ذلك فأبى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبلها أيها الرجل فاستعن بها على دينك ودنياك فقبلها أبو عبيدة رضي الله عنه وتصدق بها وقد قال صلى الله عليه وسلم ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك ولما جيء له بغنائم العراق كان فيها تاج كسرى وأساوره وكان النبي صلى الله عليه وسلم وعد بذلك سراقة بن مالك لما تعرض لان يمسكه لكفار قريش عام الهجرة فساخت به قوائم فرسه ثم سأل النبي صلى الله عليه وسلم الامان وعقد التوبة فخرجت قوائم فرسه فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام فأبى فقال له كيف بك يا سراقة اذا لبست تاج كسرى وأساوره ثم أسلم سراقة رضي الله عنه عام ثمان من الهجرة بالجعرانة فلما جاءت غنائم العراق وفيها تاج كسرى وأساوره قال عمر رضي الله عنه ائتوني بسراقة بن مالك لالبسه اياهما ليتحقق بذلك معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في وعده سراقة بذلك فجيء له بسراقة فألبسه التاج والاساور وقال له قل الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيا من بني مدلج وأركبه جملا وطيف به في المدينة لاظهار تلك المعجزة وقال عمر رضي الله عنه لما جيء له بغنائم العراق اللهم اني قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يصيب مالا فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا منك واختيارا اللهم اني قد علمت أن أبا بكر رضي الله عنه كان يحب أن يصيب مالا فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا منك واختيارا اللهم اني أعوذ بك أن يكون هذا مكرا بعمر واستدراجا ثم قال بل يحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قدمت من عند أبي موسى الاشعري من العراق على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بثمانمائة ألف درهم فقال لي بماذا قدمت قلت قدمت بثمانمائة ألف درهم قال قدمت بثمانين ألف درهم قلت بل قدمت بثمانمائة ألف درهم قال ألم أقل لك انك قدمت بثمانين ألف درهم فكم ثمانين ألف درهم فعددت مائة ألف ومائة ألف حتى عددت ثمانمائة ألف درهم قال أطيب هو ويلك قلت نعم و سأله عن طيبه تعجبا من كثرته فاستبعد أن يكون طيبا حلالا قال فبات عمر ليلته أرقا حتى اذا نودي بصلاة الصبح قالت امرأته ما نمت يا أمير المؤمنين الليلة قال كيف ينام عمر بن الخطاب وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الاسلام فما يؤمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه في حقه فلما صلى الصبح اجتمع اليه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم انه قد جاء الناس الليلة ما لم يأتهم مثله منذ كان الاسلام وقد رأيت رأيا فأشيروا

رأيت أن أكيل للناس بالمكيال فقالوا لا تفعل يا أمير المؤمنين ان الناس يدخلون في الاسلام ويكثر المال ولكن أعطهم على كتاب وكلما كثر الناس وكثر المال أعطيتهم عليه قال فاشيروا علي بمن أبدأ منهم فقال له علي وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ابدأ بنفسك انك والي ذلك فقال لا بل أبدأ بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الاقرب فالاقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مجيء هذا المال سبب لفرض العطاء كل سنة وتدوين الدواوين للعطاء كل سنة فكتب الناس ودون الدواوين فهو أول من فعل ذلك ورتب ذلك أولا باعتبار التقدم في الذكر والتأخر ثم باعتبار المقدار الذي لكل انسان أما باعتبار التقدم والتاخر في الذكر في ذلك الديوان الذي رتبه فبدأ ببني هاشم والمطلب بن عبد مناف فأعطاهم جميعا ثم أعطى بني عبد شمس بن عبد مناف ثم بني نوفل بن عبد مناف وانما قدم بني عبد شمس على بني نوفل لان عبد شمس كان أخا هاشم من أبيه وأمه وأما نوفل فكان أخا هاشم لابيه فقط ثم استوت له عبد العزي وعبد الدار ابنا قصي بن كلاب فقدم بني أسد بن عبد العزى وهم قوم خديجة رضي الله عنها لصهر النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ثم انفردت له بنو زهرة بن كلاب بن مرة فقدمهم ثم تلو عبد الدار ثم استوت له بنو تيم بن مرة وبنو مخزوم ابن يقظة بن مرة فقدم بني تيم لانهم كانوا من أهل حلف الفضول والمطيبين وفيهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لان أبا بكر رضي الله عنه من بني تيم ثم دعا مخزوم وما تلوهم ثم استوت له سهم وجمح ابنا هصيص بن كعب وعدي بن كعب وكان عمر رضي الله عنه من عدي فقالوا له ابدأ بعدي فقال بل أقر نفسي حيث كنت فان الاسلام دخل وأمرنا وأمر بني سهم واحدا انظروا بين سهم وجمح فقدم بني جمح ثم بني سهم وكان ديوان جمح وسهم كان دعوة لواحدة فلما خلصت اليه دعوته بعد بني سهم وجمح كبر تكبيرة عالية ثم قال الحمد لله الذي أوصل الي حظي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسياتي ذكر ما فرض لنفسه لان الكلام الآن في ترتيب في التقدم والتاخر فقط لا في ذكر المقدار المفروض ثم دعا بني عامر بن لؤي بن فهر وكان أبو عبيدة بن الجراح من بني فهر فتكون دعوته بعد بني عامر فدعا بني عامر بن لؤي قبل فهر فقال أبو عبيدة رضي الله عنه أكل هؤلاء يدعون أمامي فقال يا أبا عبيدة اصبر كما صبرت أو كلم قومك فمن قدمك على نفسه لم أمنعه فاما أنا وبنو عدي فنقدمك ان أحببت على أنفسنا فقال أبو عبيدة اصبر كما صبرت أنت ولا حاجة الى ذكر ترتيب القبائل لانه يطول وبقي هذا الترتيب الذي رتبه عمر رضي الله عنه الى زمن خلافة بني العباس فوقع تشاجر بين في سهم وبني جمح في خلافة المهدي بن منصور فافترقوا فقدم المهدي عليهما بني عدي وأما بنو هاشم والمطلب فكانا في ترتيب عمر رضي الله عنه في مرتبة واحدة لقول النبي صلى الله عليه وسلم انما نحن وبنو المطلب كشيء واحد فاذا كان السن في الهاشمي قدمه على المطلبي واذا كان في المطلبي قدمه

وبقي ذلك الي خلافة عبد الملك بن مروان فقدم بني هاشم على بني المطلب ثم ان عمر رضي الله عنه بعد ترتيب القبائل في الديوان الاقرب فالاقرب الي النبي صلي الله عليه وسلم فرض المقدار الذي يعطى لكل انسان وجعل التفاوت على السابقة للاسلام وأما أبو بكر رضي الله عنه فكان يسوي بين المسلمين في القسم ولا ينظر الى أسبقية الاسلام فراجعه عمر رضي الله عنه في ذلك فلم يقبل مراجعته في ذلك وقال انما فضلهم عند الله تعالى وانما الدنيا بلاغ فلما صارت الخلافة لعمر رضي الله عنه فاضل بينهم بالنسبة الاسبقية في الاسلام ولا ينكر على أحد منهما الان ذلك اجتهاد وجعل صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو مع من أسلم عام الفتح وكان ذلك أقل من عطاء من أسلم قبل ذلك فامتنعوا من أخذه وقالوا لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا فقال انما أعطيتكم على السابقة في الاسلام لا على الاحساب قالوا فنعم اذا وأخذوا وخرج الحارث وسهيل باهليهما نحو الشام فلم يزالا مجاهدين . فرض لاهل بدر خمسة آلاف كل سنة ثم فرض لمن بعد بدر الي الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم فرض من بعد الحديبية الي ما بعد قتال أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لمن كان منهم مشهورا بالشجاعة ولاقي بلاء في تلك الوقائع ألفين وخمسمائة فقيل له لو جعلت أهل القادسية مثل هؤلاء بالفين وخمسمائة فقال لم أكن لالحقهم بدرجة من لم يدركوا وقيل له قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه فقال من قربت داره أحق بالزيادة لانهم كانوا ردءا للحتوف وشجي للعدو فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والانصار فقد كانت نصرة الانصار بفنائهم وهاجر اليهم المهاجرون من بعد وفرض لمن بعد القادسية واليرموك الفا الفا ثم فرض لمن بعدهم خمسمائة ثم الروادف بعدهم ثلاثمائة ثم سوي في كل طبقة بين قويهم وضعيفهم عربيهم وعجميهم وفرض للروادف بعدهم على مائتين وخمسين ولمن بعدهم على مائتين وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر الفا والحق باهل بدر أربعة من غير أهل بدر وهم الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان الفارسي رضي الله عنهم وفرض لزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة عشرة آلاف عشرة آلاف الامن جرى عليهم الملك كصفية ومارية وجويرية فقلن سوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل بينهن في القسمة فسو بيننا ففعل وفضل عائشة رضي الله عنها بالفين لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها فلم تأخذ الا مثلهن وامتنعت من أخذ الزيادة وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة ونساء من بعدهم الى الحديبية في أربعمائة ونساء من بعد ذلك الي ما بعد قتال أهل الردة في ثلاثمائة ثلاثمائة ونساء أهل القادسية مائتين مائتين ثم سوي بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة

ثم جمع ستين مسكينا وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوا فوجدوه يخرج من جريبتين ففرض لكل انسان منهم ولعياله جريبتين في شهر والجريب مكيال قدر أربعة أقفزة فالقفيز مكيال يسع ثمانية مكاكيك والمكوك مكيال يسع صاعا ونصفا فتكون الجريبتان ستا وتسعين صاعا ثمانية وأربعون له وثمانية وأربعون لعياله وأشار عليه بعض الصحابة أن يبقي في بيت المال شيأ من المال عدة لكون ان كان فقال عمر رضي الله عنه هذه كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي بل أعد لهم ما أعد الله ورسوله طاعة الله ورسوله هما عدتنا التي بها أفضينا الى ما ترون فاذ كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم وفي رواية قدم علي عمر مال من العراق فقسمه فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين لو أبقيت من هذا المال لعدو ان حضر او نازلة أو نائبة ان نزلت فقال عمر قاتلك الله نطق بها على لسانك الشيطان لقنني الله حجتها والله لا أعصي الله اليوم ولكن أعدلهم كما أعد لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم ثم قال عمر للمسلمين في شأن نفسه اني كنت امرأ تاجرا يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بامركم هذا فما ترون أنه يحل لى في هذا المال فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن فقال ما اصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فقال القوم ما قال على فأخذ بما قال على رضى الله عنه واشتدت مرة حاجة عمر فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان وطلحة والزبير فقالوا لو قلنا لعمر في زيادة نزيده اياها في رزقه فقال عثمان هلموا فانستبرئ ما عنده من وراء وراء فأتوا حفصة بنته فأعلموها الحال واستكتموها أن لا تخبر بهم عمر فلقيت عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوأنهم قالت لاسبيل الي علمهم قال انت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتني رسول الله صلي الله عليه وسلم في بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأي الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفا من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال وأي مبسط كان يبسط عندك كان اوطأ قالت كساء ثخين كنا نربعه في الصيف فاذا كان الشتاء بسط نصفه وتدثر بنصفه قال يا حفصة فأبلغيهم ان رسول الله صلي الله عليه وسلم قدر فضل الفضول فوضعها مواضعها وتبلغ بالترجية فو الله لاضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وانما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما الحق بهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما وكان فرض العطاء وتدوين عمر الدواوين سنة خمس عشرة من

الهجرة وخطب عمر رضى الله عنه بالجابية لما كان بالشام فقال ان الله جعلني خازنا لهذا المال وقاسما له ثم قال بل الله يقسمه وأنا بادئ بأهل النبي صلى الله عليه وسلم ثم أشرافهم ففرض لازواج النبي صلى الله عليه وسلم الا جويرية وصفية وماوية رضي الله عنهن ثم لما قالت عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا فعدل عمر بينهن رضى الله عنهن ثم قال اني بادئ بالمهاجرين الاولين الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا ثم اشرفهم فمن اسرع في الهجرة أسرع به العطاء ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء فلا يلومن رجل الا مناخ راحلته ولما قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره وقالوا يا أمير المؤمنين لو ركبت برذونا يلقاك عظماء الناس ووجوههم فقال عمر لا اراكم ههنا انما الامر من ههنا واشار بيده الى السماء خلوا سبيل جملي ودخل مرة على مزبلة فاحتبس عندها فكان أصحابه تأذوا بها فقال هذه دنياكم التي تحرصون عليها وقال نظرت في هذا الامر فجعلت ان اردت الدنيا أضر بالآخرة وان اردت الآخرة أضر بالدنيا فاذا كان الامر هكذا فاضروا بالفانية وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ان الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة سبقا والله سبقا بعيدا وأتعبا من بعدهما تعبا شديدا وعن الامام مالك رضى الله عنه قد كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما يعلمونهم السورة من القرآن وعن شعيب بن حرب قال قلت لسفيان اوصني قال أوصيك بحب الشيخين أبي بكر وعمر فقلت ان الله عز وجل اعطاني من ذلك شيأ كثيرا قال والله اني لارجو لك على حبهما ما أرجو لك على التوحيد وهذا الفرض الذي فرض عمر رضى الله عنه في العطاء غير الفرض الذي فرض أبو بكر رضى الله عنه فان أبا بكر سوى بين الناس في فرض العطاء نظرا لاستوائهم في الاسلام وأكثر ما جاء قسمه عشرين درهما عشرين درهما وفضلت فضلة فقسمها للخدم خمسة دراهم خمسة دراهم وقال ان لكم خدما يخدمونكم ويعالجون لكم فرضخنا لهم فلما فتحت الفتوحات في خلافة عمر رضى الله عنه وجاءته الاموال قال ان أبا بكر رضي الله عنه رأى في هذا المال رأيا ولي فيه رأي آخر وفضل بين الناس في الفرض كما تقدم وقال لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه وفضل بين اسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ففرض لاسامة أربعة آلاف ولعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف فقيل له زدت لاسامة اذ فضلته على ابنك عبد الله فقال ما كان لابي عبد الله ما كان لابي اسامة من الفضل وما كان عبد الله كما كان لاسامة فان

أبا أسامة كان أحب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي عبدالله وكان أسامة أحب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبدالله وفرض لابناء المهاجرين والانصار ألفين ألفين فمر به عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيدوه ألفا وقال في فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة الفا فان كانت امه كامه زدناه الفا وجاءه طلحة بن عبيدالله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس بن النضر فقال افرضوا له الفين فقال له طلحة جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا الفين فقال ان أبا هذا وهو أنس بن النضر لقيني يوم احد حين ضرب الناس وصرخ الشيطان أن محمدا قتل فقال لي مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الناس يقولون انه قد قتل فسل سيفه وكسر غمده وقال ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فان الله حي لايموت فقاتل حتى قتل فان كان أبو أخيك عثمان مثل ابيه نفرض له مثل مافرضناه وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من بعد الفطام من الرضاع ثم غير ذلك وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من حين الولادة وسبب ذلك أنها جاءت قافلة تحمل طعاما الي المدينة وغربت الشمس قبل دخول القافلة المدينة فباتت القافلة خارج المدينة فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فقال لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه اني احشى على هذه القافلة من السرق اخرج بنا نحرسهم من بعد ما يخرج ومعه عبد الرحمن ابن عوف يحرسان القافلة من بعد وقاما يتهجدان بالصلاة فسمع عمر رضى الله عنه بكاء صبي بالمدينة فقال لعبد الرحمن بن عوف احرس القافلة حتى أنظر سبب بكاء هذا الصبي فتوجه نحو الصبي وقال لامه اتقي الله وأحسني الى صبيك ثم عاد الي مكانه فسمع بكاءه مرة ثانية فعاد الى امه فقال لها مثل مقاله في المرة الاولى ثم رجع الي مكانه فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فعاد الى امه فقال ويحك اني لاراك [illegible] مالي أري ابنك لايقر منذ الليلة فقالت وهي لاتعرف انه عمر يا عبد الله اني أحاوله على الفطام فيأبي قال ولم قالت لان عمر لايفرض لمولود الا بعد الفطام فأريد ان أفطمه قبل أوان فطامه ليفرض له عمر قال فكم له قالت كذا كذا شهرا فقال لاتعجليه ورجع الى عبدالرحمن بن عوف وهو يبكي ويقول يابؤسا لعمر كم قتل من اولاد المسلمين فلما صلى الفجر أمر مناديا ينادي أن لاتعجلوا على صبيانكم الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام من حين يولد وكتب بذلك الى الآفاق أن يفرضوا لكل مولود في الاسلام من حين يولد وكان رضى الله عنه شديد الخوف من الله تعالى قوي الرجاء حتى كاد خوفه ورجاؤه كجناحي طائر

في الاعتدال فكان يقول لونادي منادمن السماء لايدخل النار الا رجل واحد لخفت أن اكون أنا ولو نادى منادلايدخل الجنة الارجل واحد لرجوت ان أكون انا وكان رضي الله عنه مدة خلافته لاينام ليلا ولا نهارا الا خفقات يخفقها ويقول ان نمت ليلا أضعت نفسي وان نمت نهارا أضعت رعيتي وقرأ يوما اذا الشمس كورت حتي بلغ واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه أياما يعاد وأرسل مرة الي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستسلفه أربعمائة درهم فقال عبدالرحمن تستسلفني وعندك بيت المال ألا تأخذ منه ثم ترده فقال عمر اني أتخوف ان يصيبني قدري يعني الموت فتقول أنت وأصحابك اتركوها لامير المؤمنين حتى تؤخذ مني يوم القيامة ولكن استسلفهامنك فاذا مت جئت واستوفيتها من ميراثي وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال والله لوأعلم ان كلبا يحب عمر لاحببته ووددت اني كنت خادما لعمر حتي أموت ولقد وجد فقده كل شئ حتى العضاه وان هجرته كانت نصرا وان سلطانه كان رحمة وقال بن مسعود لابنه عبدالله وهو في حلقة في المسجد الحرام ياأبا عبدالرحمن ماالصراط المستقيم الا الذي كان عليه أبوك ثابتا حتي دخل الجنة ورأي ربه وحلف ثلاث أيمان على ذلك وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال كان عالما برعيته عادلا في نفسه قليل الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مفتوح الباب متحريا للصواب بعيدا من الاساءة رفيقا بالضعيف غير صخاب كثير الصمت بعيدا من العبث وكتب عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص وهو على مصر رضي الله عنهما كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك اميرك وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال دخل عيينة بن حصن على عمر رضي الله عنه فقال هيه يا بن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به فقال الحر بن قيس يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فو الله ماجاوزها عمر حين تلاها وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل وعن الحسن البصري قال يجيء الاسلام يوم القيامة فيتصفح وجوه الناس حتي يجيء الى عمر رضي الله عنه فيأخذ بيده فيقول يارب كنت خفيا وأظهرني هذا فأظهرني وأنت اعلم قال فتجيء ملائكة فتأخذ بيده فتدخله الجنان والناس في الحساب وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان عمر اذا نهي الناس عن شئ دخل علي أهله أوقال جمع أهله فقال اني قد نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم كما ينظر الطير الى اللحم فان وقعتم وقعوا وان هبتم هابوا واني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه الا أضعفت له العقوبة لمكانه

مني فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر وعن ضبة بن محصن العنزي قال كان علينا أميرا بالبصرة أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فكان اذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال فغاظني ذلك منه فقمت اليه حيث لا يذكر أبا بكر رضي الله عنه فقلت له أين أنت من صاحبه يعني أبا بكر رضي الله عنه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ثم كتب الى عمر يشكوني يقول ان ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي فكتب اليه عمر أن أشخصه الي قال فأشخصني اليه وقدمت فضربت عليه الباب فخرج الي فقال من أنت فقلت انا ضبة فقال لا مرحبا ولا أهلا قلت أما المرحب فمن الله وأما الاهل فلا أهل لي ولا مال فبما استحللت يا عمر اشخاصي من بلدي بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيته قال ما الذي شجر بينك وبين عاملي قال قلت الآن أخبرك انه كان اذا خطبنا حمد الله وأثني عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاظني ذلك منه فقمت له فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ثم كتب اليك يشكوني قال فاندفع عمر رضي الله عنه باكيا وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك فقلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين قال ثم اندفع باكيا وهو يقول والله ليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك ان أحدثك بليلته ويومه قلت نعم قال أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا ومعه أبو بكر رضي الله عنه فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك فقال يا رسول الله اذكر الرصد فأكون امامك واذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك قال فمشي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه أي حتى لا يظهر أثر قدميه في الارض حتى حفيت فلما رأى أبو بكر رضي الله عنه أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فان كان فيه شيء نزل بي قبلك قال فدخل فلم ير فيه شيأ فحمله فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه وجعلن يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تتحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له يا أبا بكر لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه أي الطمأنينة لابي بكر فهذه ليلته وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم نصلي ولا نزكي فأتيته لا آلوه نصحا فقلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم فقال لي أجبار في الجاهلية خوار في الاسلام فبماذا أتألفهم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي فوالله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه قال

فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الامر فهذا يومه ثم كتب الى أبي موسى بلومه وقال الاوزاعي في وعظ وعظ به المنصور بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت ان أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك وحدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرو الانصاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الانصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيما فقال له ما منعك من الخروج الى عملك أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله قال لا قال وكيف ذلك قال انه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من وال يلي شيأ من أمور الناس الا أتي به يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه لا يفكها الا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه ثم يعاد فيحاسب فان كان محسنا نجا باحسانه وان كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر فهوى به في النار سبعين خريفا فقال له عمر رضي الله عنه ممن سمعت هذا قال من أبي ذر وسلمان فأرسل اليهما عمر فسألهما فقالا نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضي الله عنه واعمراه من يتولاها بما فيها فقال أبو ذر رضي الله عنه من سلت الله أنفه وألصق خده بالارض فأخذ عمر رضي الله عنه المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني وقال عمر رضي الله عنه لا يقيم أمر الناس الا حصين العقل أريب الفقه لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم وقال ايضا الامراء أربعة فأمير قوي ظلف نفسه أي منعها وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة وأمير ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك الا أن يرحمه الله وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا وقال عمر أيضا رضي الله عنه اللهم ان كنت تعلم اني أبالي اذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين وكان الخليفة المنصور وهو شديد الهيبة لا يتجرأ أحد ان يعظه بمثل ما وعظه الاوزاعي وانما تجرأ الاوزاعي على ذلك لانه طلبه وأحضره من الشام الى بغداد وسأله أن يعظه فقال الاوزاعي أخاف ان تسمعه ثم لا تعمل به فصاح به الربيع وزير المنصور وأهوى بيده الى السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة قال الاوزاعي فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ومن جملة ما قلته في ذلك المجلس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله تعالى سيقت اليه فان قبلها بشكر والا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها اثما ويزداد الله بها سخطا عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة ومن كره الحق كره الله ان الله هو الحق المبين ان الله الذي لين قلوب رعيتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رؤفا رحيما واسياهم بنفسه في ذات يده محمودا عند الله وعند الناس
فحقيق بك ان تقوم فيهم بالحق وان تكون بالقسط له قائما ولعوراتهم ساترا لا تغلق عليك دونهم
الابواب ولا تقم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما اصابهم من سوء يا أمير المؤمنين
قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم
وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد
الا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها اليه يا أمير المؤمنين كانت بيد رسول الله صلى الله عليه
وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ماهذه الجريدة
التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا فكيف بمن شقق استارهم وسفك دماءهم وخرب
ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه يا امير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا
القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد لم يبعثك
جبارا ولا متكبرا فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الاعرابي فقال اقتص مني فقال الاعرابي قد أحللتك
بأبي أنت وأمي وما كنت لافعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي فدعا له بخير يا أمير المؤمنين رض
نفسك لنفسك وخذ لها الامان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والارض التي يقول فيها
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها يا أمير المؤمنين ان
الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك وكذا لا يبقى لك ولم يبق لغيرك يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء عن
جدك في تأويل هذه الآية مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الصغيرة
التبسم والكبيرة الضحك فكيف بما عملته الايدي وحصدته الالسن يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء
عن جدك في تأويل هذه الآية يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا
تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله قال الله تعالى في الزبور يا داود اذا قعد الخصمان بين يديك فكان
لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك من نبوتي ثم
لا تكون خليفتي ولا كرامة يا داود انما جعلت رسلي الى عبادي رعاء كرعاء الابل لعلمهم بالرعاية
ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلاء والماء يا أمير المؤمنين انك قد بليت
بأمر لو عرض على السموات والارض والجبال لابين أن يحملنه وأشفقن منه يا أمير المؤمنين قد
سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم امارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي صلى
الله عليه وسلم يا عباس يا عم رسول الله نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها نصيحة منه لعمه وشفقة
عليه وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئا اذ أوحى الله اليه وأنذر عشيرتك الاقربين فقال يا عباس عم
رسول الله ويا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت محمد اني لست أغني عنكم من الله شيئا ان لي عملي

ولكم عملكم وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة فقال له يا جبريل صف لي النار فقال ان الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء جمرها ولا يطفأ لهيبها والذي بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لاهل الارض لماتوا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب في مياه الارض جميعا لقتل من ذاقه ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله تعالى وضع على جبال الارض جميعا لذابت وما استقلت ولو أن رجلا دخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الارض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال أتبكي يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا ولم بكيت أنت يا جبريل وأنت الروح الامين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبتلي بما ابتلي به هاروت وماروت فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء يا جبريل ويا محمد ان الله أمنكما أن تعصيا فيعذبكما وفضلك على سائر الانبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة عليهم السلام يا أمير المؤمنين ان أشد الشدة القيام لله بحقه وان أكرم الكرم عند الله التقوى وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه وهذه نصيحتي اليك والسلام عليك ثم نهض الاوزاعي فقال له المنصور الى أين فقال الى الولد والوطن باذن أمير المؤمنين ان شاء الله تعالى قال قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك اياي بمثل هذا فانك المقبول القول غير المتهم في النصيحة قلت أفعل ان شاء الله تعالى ثم أمر المنصور للاوزاعي بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا في غنى عنه وما كنت لابيع نصيحتي بعرض من الدنيا وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك وروى ابن المهاجر ان المنصور قدم مكة شرفها الله حاجا فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به أحد فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة وجاءه المؤذنون فسلموا عليه وقيمت الصلاة فيصلي بالناس فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينما هو يطوف اذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل اليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور وما هذا الذي

سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم فوالله لقد حشوت مسامعي ماأمرضني وأقلقني فقال ياأمير المؤمنين ان أمنتني على نفسي أنبأتك بالامور من أصولها والا اقتصرت على نفسي فنيها لي شغل شاغل فقال له أنت آمن على نفسك فقال الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق واصلاح ماظهر من البغي والفساد في الارض أنت فقال ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي قال وهل دخل أحداً من الطمع مادخلك ياأمير المؤمنين ان الله تعالي استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك في جمع الاموال وجبايتها واتخذت وزراء واعواناً ظلمة ان نسيت لم يذكروك وان ذكرت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والكراع والسلاح وأمرت بأن لايدخل عليك من الناس الافلان وفلان نفر سميتهم ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير ولا أحداً الا وله في هذا المال حق فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لايحجبوا عنك تجبي الاموال ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله فما لنا لانخونه وقد سخر لنا فائتمروا أن لايصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ماأرادوا وأن لايخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً الا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك ذو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله من الطمع بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك وان أراد رفع صوته أو قصته اليك عند ظهورك وجدته قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لايرفع مظلمته وكانت للمتظلم بهم حرمة واجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه فاذا جهد وأخرج وظهر وصرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لاينتهي اليهم المظلوم الا رجعت ظلامته اليهم فينصف ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي ياأهل الاسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينتصف له ولقد كنت ياأمير المؤمنين

أسافر الى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه مالك تبكي لا بكت عيناك فقال اما اني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ثم قال أما ان كان قد ذهب سمعي فان بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوباً أحمر الا المظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك فانك لا تجمع الاموال الا لواحد من ثلاثة ان قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبرا في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الارض مال وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ولست تعطي بل الله يعطي من يشاء وان قلت أجمع المال لأشيد سلطاني فقد أراك عبرا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد الله وان قلت أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه الا منزلة لا تدرك الا بعمل صالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل قال لا قال فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الاليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك فماذا تقول اذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته ثم قال يا ليتني لم أخلق ولم أك شيأ ثم قال كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس الا خائنا قال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الاعلام المرشدين قال ومن هم قال العلماء قال قد فروا مني قال هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ولكن افتح الابواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن لك على ان من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك فقال المنصور اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسي عليك بالرجل ان لم تأتني به لاضربن عنقك واغتاظ عليه غيظا شديدا فخرج الحرسي يطلب الرجل فبينما هو يطوف في طلب الرجل وينتش عليه فاذا هو بالرجل في بعض الشعاب فقعد حتى صلى ثم قال يا ذا الرجل أما تتقي الله قال لي قال ما تعرفه قال بلى قال فانطلق معي الى الامير فقد آلى أن يقتلني ان لم آته بك

قال ليس لي الى ذلك من سبيل قال يعتاني قال لا قال كيف قال تحسن تقرأ قال لا قال فاخرج من مزود كان معه ورقا مكتوبا فيه شيء فقال خذه فاجعله في جيبك فان فيه دعاء الفرج قال وما دعاء الفرج قال لا يرزقه الا الشهداء قلت يرحمك الله قد أحسنت الي فان رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وفضله قال من دعا به مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له في رزقه وأعطي أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت الا شهيدا تقول (اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم ان عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا انك المحسن الي وأنا المسيء الى نفسي فيما بيني وبينك تتودد الي بنعمتك وأتبغض اليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك فعد بفضلك واحسانك علي انك أنت التواب الرحيم) قال فأخذته فصيرته في جيبي ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين فدخلت عليه فرفع رأسه فنظر الي وتبسم ثم قال ويلك أوتحسن السحر فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ فقال هات الرق الذي أعطاك ثم جعل يبكي وقال قد نجوت وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم ثم قال أتعرفه قلت لا قال ذاك الخضر عليه السلام وعن أبي عمران الجوني قال لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنؤه بما صار اليه من أمور الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد وكان يظهر التنسك والتقشف وكان مواخيا لسفيان بن سعيد الثوري قديما فهجره سفيان ولم يزره فاشتاق هارون الى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار اليه فاشتد ذلك على هارون فكتب اليه كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد أما بعد يا أخي قد علمت ان الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبالك ولم أقطع منها ودك واني منطو لك على أفضل المحبة والارادة ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك في قلبي من المحبة واعلم يا أبا عبد الله انه ما بقي من اخواني واخوانك أحد الا وقد زارني وهناني بما صرت اليه وقد فتحت بيوت الاموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت عيني واني استبطأتك فلم تأتني وقد كتبت اليك كتابا شوقا مني اليك شديدا

د علمت ياأبا عبد الله ماجاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فاذا ورد اليك كتابي
فالعجل العجل فلما كتب الكتاب التفت الى من عنده فاذا كلهم يعرفون سفيان الثوري
وخشونته فقال علي برجل من الباب فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني فقال
ياعباد خذ كتابي هذا فانطلق به الى الكوفة فاذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ثم
اسأل عن سفيان الثوري فاذا رأيته فألق كتابي هذا وع بسمعك وقلبك جميع مايقول
وأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد
الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هوفي المسجد قال عباد
فأقبلت الى المسجد فلما رآني قام قائما وقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان
الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق الا بخير قال عباد فوقعت الكلمة في قلبي
فخرجت فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسي
بباب المسجد ودخلت فاذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم
السلطان فهم خائفون من عقوبته فسلمت فما رفع الى أحد رأسه وردوا السلام على
رؤس الاصابع فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض علي الجلوس وقد علاني من هيبتهم
الرعدة ومددت عيني اليهم فقلت ان المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب اليه فلما رأى
الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده
في كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه في يده ثم رماه الي من كان خلفه وقال يأخذه بعضكم
يقرؤه فاني أستغفر الله أن أمس شيأ مسه ظالم بيده قال عباد فأخذه بعضهم فحله كأنه
خائف من حية تنهشه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته
قال اقلبوا واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه فقيل له ياأبا عبد الله انه خليفة فلو كتبت
له في قرطاس نقي فقال اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه فان كان اكتسبه من حلال
فسوف يجزى به وان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شئ مسه ظالم
عندنا فيفسد علينا ديننا فقيل له ما نكتب فقال اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من العبد
المذنب سفيان بن سعيد الثوري الى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب
حلاوة الايمان أما بعد فاني قد كتبت اليك أعرفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك
وقليت موضعك فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به
على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه ثم لم ترض بما فعلته
وأنت ناء عني حتى كتبت تشهدني على نفسك أما اني قد شهدت عليك أنا واخواني

الذين شهدوا عليك قراءة كتابك وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى ياهارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والارامل والايتام أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك فشد ياهارون مئزرك وأعد للمسلمين جواباً وللبلاء جلباباً واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الاخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين اماماً ياهارون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون ويشربون الخمر ويضربون من يشربها ويزنون ويحدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق أفلا كانت هذه الاحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس فكيف بك ياهارون غداً اذا نادى المنادي من قبل الله تعالى أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم أين الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله عز وجل ويداك مغلولتان الى عنقك لا يفكهما الا عدلك وانصافك والظالمون حولك وأنت لهم سائق وامام الى النار كأني بك ياهارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها واعلم أني نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية فاتق الله ياهارون في رعيتك واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم أن هذا الامر لو بقي لغيرك لم يصل اليك وهو صائر الى غيرك وكذا الدنيا تنتقل باهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زاداً نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته واني أحسبك ياهارون ممن خسر دنياه وآخرته فاياك اياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام قال عباد فألقى الي الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم فأخذته وأقبلت الي سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت ياأهل الكوفة فاجابوني فقلت لهم ياقوم من يشتري رجلاً هرب من الله الي الله فأقبلوا الي بالدنانير والدراهم فقلت لاحاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية قال فأتيت بذلك ونزعت ما كان علي من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافياً راجلاً فهزأ بي من كان على باب الخليفة ثم استؤذن لي فلما دخلت

عليه وبصرني على تلك الحالة قام وقعد ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل
والحزن ويقول انتفع الرسول وخاب المرسل مالي وللدنيا مالي وللملك يزول عني سريعا
ثم ألقيت الكتاب اليه منشورا كما دفع الي فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه
ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت
اليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه في السجن كنت تجعله عبرة لغيره فقال هارون اتركونا
يا عبيد الدنيا المغرور من غررتموه والشقي من أهلكتموه وان سفيان أمة وحده فاتركوا
سفيان وشأنه ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي
رحمه الله تعالى فرحم الله عبداً نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غداً من عمله
فانه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى
أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب
القاسية فلينها وأزال قساوتها وأما الآن فقد قيدت الاطماع ألسن العلماء فسكتوا وان
تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا
ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال
والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والاكابر
والله الموفق ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال قرن من
حديد لا تأخذه في الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق وشرب عمر رضي الله
عنه مرة من لبن ابل الصدقة غلطا فأدخل أصبعه وتقيأ وروي أن عمر رضي الله عنه
وزن مسكا من البحرين فقال وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين فقالت
امرأته عاتكة أنا أجيد الوزن فسكت عنها ثم أعاد القول فأعادت الجواب فقال لا أحببت
أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين
وكان لعمر رضي الله عنه وهو في الخلافة زوجة كان يحبها فطلقها [illegible]
أن تشير عليه بشفاعة في بعض [illegible] مرضاتها وسمع عمر رضي الله عنه [illegible]
بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا فقال عش الرجل قال قد
عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده خبزة [illegible] فقال [illegible]
ولكنك تاجر ثم أخذ مخلاة وملأها [illegible] الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد
ولا [illegible] كل حرام [illegible] مخلاته [illegible] وقصور [illegible]

بالتعزير وأما أخذ مخلاته فان ما فيها جمعه بلا حق لان الذي أعطاه اعتقد أنه محتاج فهو مال ضائع لا يعرف مالكه وأمره للامام يصرفه في المصالح وأتي عمر رضى الله عنه مرة بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد اقتدى في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم فانه لما أتى قباء أتاه أهل قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال أما اني لست أحرمه ولكن اتركه تواضعا لله تعالى وقال على لعمر رضى الله عنهما ان أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر رضى الله عنه اخشوشنوا واياكم وزى العجم كسرى وقيصر ومن تزيا بزى قوم فهو منهم وقال عمر رضى الله عنه كان لي صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك بي غير طريقهما وانى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد وقال رضى الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم تابعنا الاعمال كلها فلم نر في امر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وكان عمر رضى الله عنه يحب علي بن أبي طالب وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء عنه في ذلك شيء كثير فمن ذلك أنه لما قال النبي صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلي مولاه قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أمسيت يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة وحكم علي مرة على أعرابي بحكم فلم يرض بحكمه فتلببه عمر بن الخطاب وقال له ويلك انه مولاك ومولى كل مؤمن ومؤمنة وأخرج الطبراني انه قيل لعمر انك تصنع بعلي أى من التعظيم شيأ لا تصنعه مع أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال انه مولاى والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلي مولاه الولاية في المحبة والقرب والاتباع مثل قول الله تعالى ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه علي أقضانا وأخرج ابن ... عن سعيد بن المسيب قال قال عمر رضي الله عنه أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن يعني عليا رضى الله عنه وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقد أعطي علي ثلاث خصال لان تكون لي خصلة منها أحب الي من حمر النعم فسئل وما هي قال تزويجه ابنته صلى الله عليه وسلم وسكناه في المسجد لا يحل لي فيه ما يحل له واعطاؤه الراية يوم خيبر وأخرج أبو يعلى وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب من علي ابنته أم كلثوم رضي الله عنهما بنت فاطمة رضى الله عنها وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب

ونسب ينقطع يوم القيامة ماخلا سببي ونسبي وكل بني أنثى عصبتهم لابيهم ماخلا ولد فاطمة فاني أبوهم وعصبتهم ثم قال عمر واني وان كانت لي صحبة للنبي صلى الله عليه وسلم فأحببت أن يكون لي معها سبب ونسب وقصة تزوج عمر بأم كلثوم بنت علي رضى الله عنهم رواها الائمة من طرق كثيرة منهم الطبراني والبيهقي والدارقطني وأكثر طرق الحديث مروية عن أكابر أهل البيت النبوي منهم جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين رضي الله عنهم أن عليا رضي الله عنه عزل بناته لولد أخيه جعفر ابن أبي طالب رضى الله عنه فلقى عمر عليا رضى الله عنهما فقال ياأبا الحسن أنكحني ابنتك أم كلثوم بنت فاطمة رضي الله عنهما بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علي قد حبستهن لولد أخي جعفر فقال عمر والله ماعلى وجه الارض يرصد من حسن صحبتها ما أرصد فانكحني ياأبا الحسن فقال علي انها صغيرة فقال عمر مذاك بك ولكن أردت منعي فان كانت كما تقول فابعثها الي وفي رواية أنه لما قال له انها صغيرة قال له مابي حاجة الي الباءة ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ماخلا سببي ونسبي وكل بنى أنثى عصبتهم لابيهم ماخلا ولد فاطمة فانا أبوهم وعصبتهم فاحببت أن يكون لي من رسول الله سبب ونسب وفي رواية وانه وان كان لي صحبة فاحببت أن يكون لي معها سبب فقال علي رضى الله عنه ان لي أمرا حتى أستأذنهم وفي رواية ان لي مشيخة حتى أستأذنهم يعني حسن وحسين رضى الله عنهما فاستأذن ولد فاطمة فاذنوا له وفي رواية أنه لما استأذن الحسن والحسين رضى الله عنهما وقال اني كرهت أن أقضي أمرا دونكما سكت الحسين لكون أخيه الحسن أكبر منه وتكلم الحسن فحمد الله وأثني عليه ثم قال يا أبتاه من بعد عمر صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنه راض ثم ولي الخلافة فعدل فقال له أبوه صدقت ولكن كرهت أن أقطع أمرا دونكما ثم قال لها علي رضى الله عنه انطلقي الى أمير المؤمنين فقولي له ان أبي يقرئك السلام ويقول لك انا قد قضينا حاجتك وفي رواية فأعطاها حلة وقال لها قولي له هذا البرد الذي قلت لك فقالت ذلك لعمر فقال قولي له قد رضيت رضى الله عنه فحصل كريم حسبها وجدها ووضع يده عليها - فقالت وفي رواية فضمها اليه فقالت تفعل هذا لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ثم خرجت حتى أتت أباها فأخبرته الخبر وقالت بعثتني الى شيخ سوء فقال يا بنية انه زوجك ثم زوجها اياه فجاء عمر الى مجلسه بين الروضة والمنبر حيث يجلس المهاجرون والانصار وذكر لهم الخبر وفي رواية قال

لهم رفونى أي قولوا لى بالرفاءوالبنين فقالوا بمن ياأمير المؤمنين فقال تزوجت أم كلثوم بنت على رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر لهم الحديث السابق وجعل لهامهرا أربعين ألفا فولدت له زيدا ورقية ولم يعقبا ومات عمر عنها وتزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ثم تزوجها بعده اخوه محمد بن جعفر فمات عنها ثم تزوجها بعده أخوه عبد الله بن جعفر فماتت عنده ولم تلد لاحد من الثلاثة شيأ واتفق الصحابة رضى الله عنهم على أن عمر رضى الله عنه كان متصفا بكمال الزهد والعلم والورع والعقل وكانوا يقولون هو أكرم من أن يبخل وأعقل من أن يخدع وعن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون أنواع الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهونائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا عمر رضى الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم مالذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسري وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترضى ياعمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يارسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على أبي ذر رضى الله عنه فجعل يقلب بصره فى بيته فقال ياأبا ذر ماأرى فى بيتك متاعا ولا غير ذلك من الاثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لابد لك من متاع مادمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لايدعنا فيه وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفي يدها قلبين أى سوارين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها بأبي أنت وأمى قد أحسنت ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة رضى الله عنها سترا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا ارسلى به الى آل فلان وفرشت له عائشة رضى الله عنها ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال ينقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدى العباءة

الحلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة وكذلك أتته صلى الله عليه وسلم دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلة حتى أخرجها آخر الليل قالت عائشة رضي الله عنها فنام حتي سمعت غطيطه ثم قال ماظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه وقال الحسن البصري رضي الله عنه أدركت سبعين من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم مالاحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا أراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه قال الحسن ودخلنا علي صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قدمات وهذا قائم علي حاله وقال النبي صلي الله عليه وسلم من بنى فوق مايكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة وفي الخبر كل نفقة للعبد يؤجر عليها لا ما أنفقه في الماء والطين وفي قوله تعالي تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولا فسادا قالوا انه الرياسة والتطاول في البنيان وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع فى السماء أى فى الجنة وقال صلي الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكنه من حر او برد ونظر عمر رضى الله عنه في طريق الشام الي صرح قد بني بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون فى هذه الامة من يبني بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون فأوقد لي ياهامان على الطين يعني به الآجر وأول من عمله هامان وان فرعون أول من بنى له بالآجر والجص فسموا الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الامصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من الرهص أى الطين الذى يبنى به فيجعل بعضه على بعض ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان فى السلف من يبنى داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في احكام البنيان وكان منهم من اذا حج أوغزا نزع بيته أووهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة قال الحسن البصرى كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلي الله عليه وسلم ضربت بيدى الي السقف وقال ابن مسعود رضى الله عنه يأتى قوم يرفعون الطين و يضعون الدين و يستعملون البراذين يصلون الي قبلتكم ويموتون على غير دينكم قالت عائشة رضى الله عنها كان ضجاع رسول الله صلي الله عليه وسلم وسادة من أدم حشوها ليف وكان عمر رضى الله عنه يقول لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا لا أدري

أيهما خير لى وكان رضى الله عنه يقول ماابتليت ببلاء الا كان لله تعالى علي فيه أربع نعماذ لم يكن في ديني واذ لم يكن أعظم منه واذ لم أحرم الرضا به واذ أرجو الثواب عليه وسمع عمر رضى الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولي بالحنين اليك لما فارقتهم بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الانبياء وذكرك في أولهم فقال واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح الآية بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا بأبي أنت وأمي يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الانهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع الماء منها صلى الله عليك بأبي أنت وأمي يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالابطح صلى الله عليك بأبي أنت وأمي يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله احياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك فقالت لك الذراع لاتأكلني فاني مسمومة بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ولو دعوت بمثلها علينا لهلكنا كلنا لقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول الا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا في كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا القليل بأبي أنت وأمي يارسول الله لولم تجالس الا كفؤا ماجالستنا ولولم تنكح الا كفؤا مانكحت الينا ولولم تؤاكل الا كفؤا ماواكلتنا فلقد والله جالستنا ونكحت الينا وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت الطعام على الارض ولعقت أصابعك تواضعا منك وقال عمر رضى الله عنه ان الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فاذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف الى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء وكان عمر رضى الله عنه يقول لابي موسى الاشعري رضى الله عنه

ذكرنا ربنا وكان أبوموسى حسن الصوت حسن القراءة فيقرأ أبو موسى حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال ياأمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا في الصلاة اشارة الي قوله تعالى ولذكر الله أكبر وكتب عمر الى أمراء الاجناد اخلولقوا واخشوشنوا أي البسوا الخلق واستعملوا الخشن في الاشياء وأهدي عمر نجيبه أي نوي أن يجعلها هديا فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يبيعها و يشتري بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها فقعل أى لان القليل الجيد خير من الكثير الدون وقال عمر رضى الله عنه اذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليستمسك به فقلما يصيب ذلك وعن عبد الرحمن بن عوف قال خرجت مع عمر رضي الله عنهما ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي اذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه اذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال أتدرى بيت من هذا قلت لا قال هذا بيت ربيعة بن امية بن خلف وهم على شرب فما ترى قلت أرى أنا أتينا مانهانا الله عنه قال تعالى ولا تجسسوا فرجع عمر رضى الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال صلي الله عليه وسلم لمعاوية رضى الله عنه انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أوكدت تفسدهم وقال صلى الله عليه وسلم يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فان من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو كان في جوف بيته وكان عمر رضي الله عنه ليلة يعس بالمدينة فسمع صوت رجل في بيت يتغني فتسور عليه فوجد عنده امرأة ودنا من خمر فقال ياعدو الله ظننت أن الله يسترك وأنت علي معصيته فقال وأنت ياأمير المؤمنين فلا تعجل فاني ان كنت عصيت الله واحدة فقد عصيت الله ثلاثا قال الله تعالى ولا تجسسوا وقد تجسست وقال تعالي وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها وقد تسورت علىّ وقال تعالى لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتي تستأنسوا وتسلموا على أهلها وقد دخلت بيتي بغير اذن ولا سلام فقال عمر رضى الله عنه هل عندك من خير ان عفوت عنك قال نعم والله ياأمير المؤمنين لئن عفوت عني لاأعود لمثلها أبدا فعفا عنه وخرج وتركه وقال عمر رضى الله عنه من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء الظن به ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال ياأمير المؤمنين انها امرأتي فقال هلا كلمتها حيث لايراك الناس وقال عمر رضي الله عنه لايمنع من النكاح الا عجز أوفجور وكان رضى الله عنه يكثر النكاح ويقول انى لاأتزوج الا لاجل الولد وقال عمر رضى الله عنه

ما اعطي العبد بعد الايمان بالله خيرا من امرأة صالحة وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه فاستعدي عليه أهل المرأة الى عمر وقالوا حسبناه شابا فأوجعه عمر ضربا وقال غررت القوم وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول تزوج رسول الله صلي الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان ذلك الاثاث رحي وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير وعلي أخري بمدين من تمر ومدين من سويق وخطب مرة ونهى عن المغالاة في الصداق وقال ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له امرأة كيف تنهي وقد قال الله تعالي وآتيتم احداهن قنطارا فقال كل الناس أفقه منك ياعمر حتي النساء وفي رواية قال امرأة أصابت وأخطأ عمر وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه في الكلام فقال لها أتراجعيني يالكعي فقالت ان أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك فقال عمر خابت حفصة وخسرت ان راجعته ثم دخل علي حفصة فقال لها لاتغتري بابنة أبي قحافة فانها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة وروى ان امرأة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم دفعت في صدر رسول الله صلي الله عليه وسلم فزبرتها أمها فقال صلى الله عليه وسلم دعيها فانهن يصنعن أكثر من ذلك وجرى مرة بينه وبين عائشة رضي الله عنها يوما كلام حتي أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكما فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمي أو أتكلم فقال بل تكلم أنت ولا تقل الا حقا فلطمها أبو بكر رضي الله عنه حتى دمي فوها وقال ياعدوة نفسها أو يقول غير الحق فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا وقالت له مرة في كلام غضبت عنده انك الذي تزعم انك نبي الله فتبسم رسول الله صلي الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما وكان يقول لها اني لاعرف غضبك من رضاك قالت وكيف تعرفه قال اذا رضيت قلت لا واله محمد واذا غضبت قلت لا واله ابراهيم قالت صدقت انما أهجر اسمك قالوا أول حب وقع في الاسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكان يقول لها كنت لك كابي زرع لام زرع غير أني لا أطلقك وكان يقول لنسائه لاتؤذوني في عائشة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكم غيرها وقال أنس رضي الله عنه كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان وكان يمزح مع نسائه وينزل الى درجات عقولهن مرة في الاعمال والاخلاق حتى روى عنه انه كان يسابق عائشة رضى الله عنها في العدو وسبقت يوما وسبقها في بعض الايام فقال عليه الصلاة والسلام هذه بتلك وفي الخبر انه صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه وقالت عائشة رضي الله عنها سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عيد فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتحبين أن ترى لعبهم قالت قلت نعم فأرسل اليهم فجؤا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ومد يديه ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حسبك وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال يا عائشة حسبك قلت نعم فأشار اليهم فانصرفوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وقال صلى الله عليه وسلم خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي وفي رواية خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي فاذا التمس ما عنده وجد رجلا وقال رضي الله عنه خالفوا النساء فان في خلافهن بركة وقد قيل شاوروهن وخالفوهن وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته تراجعه وقال ما أنت الا لعبة في جانب البيت ان كانت لنا اليك حاجة والا جلست كما أنت وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي في الجنة قصرا وبفنائه جارية فقلت لمن هذا القصر فقيل لعمر فأردت أن أنظر اليها فذكرت غيرتك يا عمر فبكى عمر رضي الله عنه وقال أعليك أغار يا رسول الله وقال عمر رضي الله عنه أعروا النساء يلزمن الحجال لا تلبسوهن زينة وانما قال ذلك لانهن حينئذ لا يرغبن في الخروج في الهيئة الرثة وبعث عمر رضي الله عنه حكمين لزوجين فلم يصلح أمرهما فعلاهما بالدرة وقال ان الله تعالى يقول ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فعادا الرجل وأحسنا النية وتلطفا بهما فأصلحا بينهما وقال عمر رضي الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وقال رضي الله عنه ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب الي من موطن أتسوق فيه لاهلي أبيع وأشترى وكان رضي الله عنه يطوف في السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول لا يبيع في سوقنا الا من يفقه والا أكل الربا شاء أو أبى قال قتادة قدم عمر رضي الله عنه الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه لهم الجنة فاغرورقت عينا عمر وقال لئن كان حظنا هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بعيدا ومر عمر رضي الله عنه يوما بانسان يبني بحجارة وجص فقال لمن هذا فقالوا العامل لك عن عمالك بالبحرين فقاسمه ماله وكان رضي الله عنه يقول لي على كل خائن أمينان الماء

والظلمين وكان رضي الله عنه اذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد التي قدموا منها وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فان قالوا نعم حمد الله تعالى وان قالوا لا عزله وكتب له أن اقبل وكان يقول مثل السلطان اذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعي غنمه الذئاب ومثل من يربط الكلب العقور ببابه وقد تقدم أنه كان يشاطر العمال أموالهم فيأخذ نصف أموالهم فيجعلها في بيت المال وانما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم وولى أبا هريرة رضي الله عنه عملا ثم رأي له مالا فقال له من أين لك هذا المال فقال أبو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت وأسهم من الغنيمة فقال أد الشطر وكأنه رضي الله عنه رأي ان ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فانه لا يستحق ذلك لأن له بالامارة قوة على أن ينال بالحلال ما لا يناله غيره وفعله هذا مأخوذ من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ففي الصحيحين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللتبية عاملا على صدقات الازد فلما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض ما معه وقال هذا لكم وهذا لي أهدى الي فقال صلى الله عليه وسلم الا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقا ثم خطب فقال ما لي أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لي هدية الا جلس في بيت أبيه وبيت أمه ليهدى له والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحد شيأ بغير حقه الا أتى به يوم القيامة يحمله فلاأعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأيت بياض ابطيه ثم قال اللهم قد بلغت وكان رضي الله عنه اذا قدم عليه العمال يأمرهم أن يدخلوا نهارا ولا يدخلوا ليلا كي لا يحجبوا شيأ من المال وقال عتاب بن أسيد رضي الله عنه لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم مكة والله ما أصبت في عملي هذا الا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان وكان رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الي أخيه عيوبه وقال رضي الله عنه مرة لسلمان الفارسي رضي الله عنه ما الذي بلغك عني مما تكره فاستعفاه فألح عليه فقال بلغني عنك أن لك حلتين تلبس احداهما بالنهار والاخرى بالليل وبلغني عنك أنك تجمع بين ادامين على مائدة واحدة فقال عمر رضي الله عنه أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما قال لا وانما قال عمر رضي الله عنه لسلمان فقد كفيتهما موافقة لسلمان فيما بلغه مع أن ذلك مكذوب على عمر رضي الله عنه لم يقع منه شيء من ذلك وسأل عمر رضي الله عنه بعض من قدم عليه من الشام عن أخ كان واخاه في الله تعالى فخرج الي الشام فقال ما فعل أخي فلان قال ذاك أخو الشيطان قال عمر مه قال انه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر قال عمر اذا أردت الخروج فآذني فكتب عند خروجه بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب

ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير ثم كتب له بعد ذلك كلاما يعاتبه فيه ويعذله فلما قرأ الكتاب بكي وقال صدق الله وقد نصح لي عمر فتاب عما كان قد وقع فيه وكان عمر رضي الله عنه يحب عبد الله ابن العباس رضي الله عنهما ويقربه ويدنيه ويستشيره ويقدمه على الاشياخ فقال العباس لابنه عبد الله رضي الله عنهما اني أرى هذا الرجل يعني عمر رضي الله عنه يقدمك على الاشياخ فاحفظ عني خمسا لا تفشين له سرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا تجربن عليه كذبا ولا تعصين له أمرا ولا يطلعن منك على خيانة قال الشعبي كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف وكان عمر رضي الله عنه يقول ثلاث يصفون لك ود أخيك أن تسلم عليه اذا لقيته أولا وان توسع له في المجلس وأن تدعوه بأحسن أسمائه اليه وكان عمر رضي الله عنه يوما جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم اذ اضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت ثناياه فقال عمر يارسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذلي مظلمتي من هذا فقال الله تعالى رد على أخيك مظلمته فقال يارب لم يبق لي من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء فقال يارب فليحمل عني من أوزاري ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال ان ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس الي أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فيقول الله تبارك وتعالى للمتظلم ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لاي نبي هذا أو لاي صديق هذا او لاي شهيد هذا فيقول الله تعالي لمن أعطي الثمن قال يارب ومن يملك ذلك قال أنت تملكه قال بماذا يارب قال بعفوك عن أخيك قال يارب قد عفوت عنه فيقول الله تعالى خذ بيد أخيك فادخله الجنة ثم قال صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة وروي عن عمر رضي الله عنه كان يعس ذات ليلة بالمدينة فرأي رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس أرأيتم لو أن امأما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهم الحد ما كنتم فاعلين قالوا انما أنت امام فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليس ذلك لك اذن يقام عليك الحد ان الله لم يأمن على هذا الامر أقل من أربعة شهود ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم فقال القوم مثل مقالتهم الاولى وقال علي مثل مقالته الاولي فكان عمر رضي الله عنه مترددا في ان الولى هل له أن يقضى بعلمه في حدود الله تعالي فلذلك راجعهم في معرض التقرير لافي مقام الاخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا باخباره ومال علي رضي الله عنه الي انه ليس له ذلك فأخذ عمر بقوله وهذا هو المختار عند الفقهاء فان من قال ان القاضي يقضي بعلمه استثني من ذلك الحدود

وروي النخعي ان عمر رضي الله عنه بعث مصدقين فأبطؤوا عليه وبالناس حاجة شديدة فلما جاؤا بالصدقات قام عمر متزرا بعباء يختلف في أولها وآخرها يقسم تلك الصدقة ويقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع فدخل بيته فأكل من أكل بيته وقال في مال الصدقة من أدخله بطنه أبعده الله قال العلامة الطرطوشي في كتابه المسمى سراج الملوك كانت الخلفاء تعدل في بيت المال فكانت الرعية هم الاجناد وهذه هي سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وكان جوعه أكثر من شبعه وتوفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة في آصع من شعير واذا لم يكن العدل في بيت المال ضعف الملك وقويت الاعداء كان الهرمزان من ملوك الفرس فأسره المسلمون وارسلوه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما وصل الى المدينة وجد عمر رضي الله عنه في المسجد مستلقيا متوسدا كوما من الحصا ودرقته بين يديه فقال له عدلت فأمنت فنمت وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة وهو يتخلل الناس فقلت مالك يا أمير المؤمنين فقال لي لا تتكلم وأقول لك فسرت معه حتى صبها في بيت عجوز وعدنا الى منزله فقلت له في ذلك فقال انه حضرني رسول ملك الروم ورسول ملك الفرس فقالا لي لله درك يا عمر قد اجتمع الناس على علمك وفضلك وعدلك فلما خرجا من عندي تداخلني مايتداخل البشر فقمت ففعلت بنفسي مافعلت وحمل مرة أخرى قربة على عنقه فقيل له في ذلك فقال ان نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها وقال له كعب الاحبار يوما انا لنجدك في كتابنا انك تكون على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها فاذا مت لم يزالوا يقتحمون فيها الى يوم القيامة وكان كعب الاحبار حبرا من أحبار اليهود ثم هداه الله للاسلام في زمن خلافة عمر رضي الله عنه وكان عنده علم كثير من التوراة وكتب بني اسرائيل وكان فيها صفات النبي صلى الله عليه وسلم وصفة خلفائه وصحبه وكثير من حوادث هذه الامة فكان يجلس مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويخبرهم بها وقد رأوا كثيرا مما أخبرهم به من الحوادث التي تجري في المستقبل فرأوها كما أخبر وقال له عمر رضي الله عنه يوما خوفنا يا كعب فقال لعمر رضي الله عنه اعمل عمل وجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر وأطرق مليا ثم أفاق فقال زدنا يا كعب فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلا دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى

الملك مقرب ولا نبي مرسل الا خرّ على ركبتيه حتى يخر ابراهيم خليل الرحمن يقول يارب
لا أسألك اليوم الا نفسي وقال معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان صف لي عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه فقال كان عالما برعيته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قابلا
للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقا بالضعيف غير محاب للقوي ولا
جاف للقريب وعن سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك وروى
عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا التقى المسلمان
وسلم كل منهما على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادي تسعون وللمصافح عشر
والتقى مرة عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما فصافحه أبو عبيدة وقبل يده وتنحيا يبكيان
وأخذ عمر رضي الله عنه مرة بغرز زيد بن ثابت رضي الله عنه فأصعده له ليعلوه وقال هكذا
فافعلوا بزيد وأمثاله وكتب عمر رضي الله عنه الى عماله مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا
يتجاوروا وانما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق وربما يورث الوحشة
وقطيعة الرحم وكان عمر رضي الله عنه يذهب الى قباء ويعود الى كل سبت ويتفقد عمل
العبيد فاذا وجد عبدا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه وكان رضي الله عنه يقول خذوا
بحظكم من العزلة والعزلة راحة من قرين السوء وعن الشافعي رضي الله عنه الانقباض عن
الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط وقال
عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا
ينهون عن المنكر وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم
شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم وقال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس ان الله يقول
لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم وقال أبو الدرداء رضي الله
عنه لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم
صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستغفرون فلا يغفر لكم وتستنصرون فلا تنصرون
وقال صلى الله عليه وسلم ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله الا كنفثة في بحر لجي وما جميع أعمال البر
والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الا كنفثة في بحر لجي وقال صلى الله عليه
وسلم ان الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على انكاره
فلا ينكرونه وكان عمر رضي الله عنه يوما يعطي الناس عطاءهم اذ جاء رجل معه ابن له فقال له
عمر رضي الله عنه ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك فقال له الرجل أحدثك عنه يا أمير
المؤمنين بأمر اني أردت أن أخرج في السفر وأمه حامل به فقالت تخرج وتدعنا على

بهذه الحالة فقلت أستودع الله ما في بطنك فخرجت ثم قدمت فاذا هي قد ماتت فجلسنا نتحدث فاذا نار على قبرها فقلت للقوم ما هذه النار فقالوا هذه النار على قبر فلانة يعنون زوجته نراها كل ليلة فقلت والله ان كانت لصوامة قوامة فأخذت المعول حتي انتهينا الى القبر فحفرنا فاذا سراج واذا هذا الغلام يدب فقيل لي ان هــذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها فقال عمر رضي الله عنه لهو أشبه بك من الغراب بالغراب وكان عمر رضي الله عنه كبقية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبالغون في تطهير قلوبهم وبواطنهم من الصفات الذميمة كالعجب والكبر ويتساهلون في الطهارة الظاهرة حتى ان عمر رضي الله عنــه توضأ من ماء في جرة نصرانيــة وكان بعض المنافقين يؤم النــاس ولا يقرأ الا سورة عبس لما فيها من العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر رضي الله عنه أن يقتله ورأي أن فعله ذلك حرام وركب عمر رضي الله عنه مرة على فرس هملج ثم نزل عنه وقطع ذنبه لانه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مشيته وسمع عمر رضي الله عنــه مرة رجلا يقرأ ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع فصاح صيحة وخرّ مغشيا عليه فحمل الى بيته فلم يزل مريضا شهرا وكان عمر رضي الله عنه يقول اذا أعطيتم فأغنوا وكان يعطي أهل أبيات التطايع من الغنم العشرة فما فوقها وأعطي مرة أعرابيا ناقة بولدها وقال اللهم اجعل الفضل عند خيارنا وكان رضي الله عنه يقول ان الاعمال تباهت فقالت الصلاة أنا أفضلكن وقال له رجل من أهل الكتاب في قوله تعالي اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا لو نزلت هذه الآية علينا لجعلنا يوم نزولها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه أشهد لقد نزلت هذه الآية يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة وقد اتخذناه عيدا وكان رضي الله عنــه يتوب خرج مغشوش ولم يستغفر له في ذي الحجة ومحرم وصفر وعشرين من ربيع الاول وحج رضي الله عنه فلما قبل الحجر الاسود قال اني لاعلم انك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك ثم بكي حتى علا نحيبه والتفت فرأى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنــه وراءه فقال يا أبا الحســن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات فقال علي رضي الله عنــه يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع قال وكيف قال ان الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود فقال عمر رضي الله عنه لا أبقاني الله في قوم لست فيهم يا أبا الحسن قال [illegible] وهذا معنى ما ذكره [illegible] رضي الله عنه استحب الشافعي أن يقول عند